

كنعان مكّية

القسوة والصمت

الحرب والطغيان والانتفاضة في العالم العربي



مكتبة

الفكر الجديد

منشورات الجمل

كنعان مكيّة: القسوة والصمت، الطبعة الأولى
جميع حقوق الطبع والنشر والاقتباس لهذه الطبعة
محفوظة لمنشورات الجمل، كولونيا - ألمانيا ٢٠٠٥
تم نشر هذه الطبعة بالاتفاق مع دار الساقى - لندن

Kanan Makiya, *Cruelty and Silence*, Jonathan Cape, London
© Kanan Makiya, 1993

© Al-Kamel Verlag 2005
Postfach 210149 . 50527 Köln . Germany
Tel: 0221 736982 . Fax: 0221 7326763
E-Mail: KAlmaaly@aol.com

حقوق حقوق الطبع والنشر والاقتباس باللغة العربية
محفوظة لدار الساقى ١٩٩٤

كنعان مكّيّة

القسوة والصمت

الحرب والطغيان والانتفاضة في العالم العربي

منشورات الجمل

مقدمة

في الثاني من آب/اغسطس ١٩٩٠، عندما سمعت أن صدام حسين اجتاحت الكويت، غشاني المرض. انسقت، فطرياً، إلى الاعتقاد بأنه سينجو بفعلته. كان العالم العربي يعيش حالة سيات وانقسام، وصدام حسين يعرف عالمه، على الرغم من ضآلة ما كان يمكن أن يفقهه من أي عالم آخر لأناس آخرين. فلو سمح له بضم الكويت كلها أو جزء منها، لكان ما يمثله سياسياً عظم في الخارج، مقولاً العالم العربي للأجيال القادمة.

بدأ لدى الواحد منا اللحظات الأهم في السياسة مع ذلك الصنف من الشعور الخام الذي انتابني فيما كنت جالساً بغرفة الجلوس في بيتي مستمعاً إلى الأنباء. كل التحليلات المعقدة - التي هي بضاعة الكاتب - تصير محكومة بإحساس كهذا، إحساس يُحوّل التفكير والكتابة مجرد تطوّر للفرصة البدائية.

«ينبغي إيقاف صدام»، كتبت هذا في شهر آب/اغسطس ذاته، «والصدع الأهم في المسعى الذي قادته أميركا ضده هو أن الفرق المعدّة للإشتباك في الخطوط الأمامية لم تكن عربية. وهكذا فإن كل الصيغ القديمة القومية والمعادية للامبريالية قد تعود للظهور، محدثة صدمة عظيمة. ومن أجل مستقبل العالم العربي نفسه، على العربي أن يقاتل العربي فوق رمال السعودية لاسترجاع سيادة الكويت واستقلالها، وضدّ مبدأ العنف في حل المسائل الإنسانية وهو كلّ ما تقوم عليه سياسة البعث»^(١).

في ١٧ كانون الثاني/يناير ١٩٩١ يوم بدأت القوات الحليفة تقصف العراق، كنت في القاهرة التي قدمت إليها لحضور معرض الكتاب العربي السنوي الثاني والعشرين. وفيما أنا أغادر سيارة الاجرة التي كانت اقلّنتني من المطار إلى الفندق قبل أسبوع، ابصرت على بسطة فوق رصيف شارع طلعت حرب حشداً من الكتب الشعبية البخسة،

ومن بينها طبعة مقرصنة لكتاب «جمهورية الخلوف»، ادعى صديق مصري ان من طبعها كان رجلاً يعمل لوكالة الاستخبارات السعودية. وبينما رحت أقلب نسخة كتابي المقرصنة، سألت البائع المتلطف ان كان يعرف شيئاً عن كاتبها. قال: «كان سابقاً واحداً منهم، ثم تخاصم مع رفاقه قبل غزو الكويت تماماً وفضحهم». كان الكتاب محاطاً من الجانبين بكتابي مذكرات جاسوسية. احدهما كان «صياد الجواسيس» لبيتر رايت، والآخر لمسؤول سابق في الموساد بعنوان «عن طريق المخادعة». وهذان الكتابان كانا ظهرا بالعربية في الوقت المناسب ليحققا نجاحاً كبيراً في معرض الكتاب. فقصص التجسس لبيتر رايت، تحظى بشعبية كبيرة في مصر، ويبدو أنّ موزعي الكتب المصريين اعتبروا «جمهورية الخوف» كتاباً من الصنف نفسه.

على الرصيف إياه في شارع طلعت حرب، خارج المدخل الأمامي لفندقي تماماً، كان مطروحاً واحد من الكتب الكثيرة، التهجمية البذيئة التي تتناول موضوع سلمان رشدي، والتي كان يمكن أن تجدها أنى توجهت في القاهرة. كان هذا الكتاب يعرض على غلافه الأمامي رسماً كاريكاتورياً شيطانياً لرشدي مع قرنين خارجين من رأسه على علو إنشين فوق أذنيه. في مكان آخر على الرصيف توزعت مجموعة من كتب الغرام المصرية الأثيرة، ومعها الكتاب الأكثر انتشاراً في كل أنحاء مصر «نهاية العالم» لكاتبه الذي يعتبر يبلي غراهام مصر، وهو «الامام الشيخ» محمّد متولّي الشعراوي. فالسيناريوهات الرؤيوية، والأحداث السحرية، والتوقعات التنجيمية والمكائد التأميرية والسياسة التجسسية، كلها بدت تثير حماساً كبيراً في القاهرة عشية حرب الخليج في كانون الثاني/ يناير ١٩٩١.

وكانت هناك في المعرض أيضاً كتب تناقش مسألة فصل الدين عن الدولة بأقلام مفكرين إسلاميين عقلانيين مثل فؤاد زكريا، أو ليبراليين مدنيين مثل الكاتب فرج فوده. كنت محظوظاً بالفعل إذ تسوّى لي حضور محاضرة ألقاها فوده حول كتابه الأخير، وبعد المحاضرة ناقش بحماسة مئات الخصوم الغاضبين، واقتضى الدفاع عن العلمانية علناً بهذا الشكل جرأة عظيمة. لكن بسبب تلك الجرأة بالذات، وفي ٩ حزيران/يونيو ١٩٩٢، بعد أقل من أسبوع من انتقاد فوده العلني للرئيس حسني مبارك لتقييده الحريات المدنية في مصر، اغتيل بأيدي مسلمين متطرفين^(٢).

هناك كتاب جديد آخر عن أزمة الخليج بعنوان «نفط ودماء»، موقع باسم مستعار ومكتوب بيلاعة معادية لصدام، يقدم وثائق سرية مزعومة للنظام العراقي، بما في ذلك لوائح بأسماء كل اليهود الأعضاء في حزب البعث، وتقريراً عن «دورهم الفعلي

السياسة العراقية. تلك هي المنهجية التي يستخدمها البعثيون أنفسهم. ففي الثمانينات وضع فاضل البراك مدير عام الأمن الداخلي في العراق كتاباً كان هدفه أن يدعم بالوثائق كيف أن «قوى الاستعمار والشيطان» عملت على زرع جواسيس ومخترين من داخل المدارس العراقية، اليهودية والإيرانية^(٣). واللوائح التي قدمها البراك في كتابه هي نفسها تلك التي كترها كتاب «نفط ودماء» المجهولون.

تبدلت حظوظ السيد البراك بعد حرب الخليج. أصبح مكروهاً من مستخدمي البعثيين واعترف تحت وطأة التعذيب بأنه جاسوس يعمل لحساب روسيا وألمانيا. وفي صيف ١٩٩٢ أعيدت جثته إلى عائلته في تكريت في صندوق مختم بالشمع الأحمر^(٤).

الزمن غير العادي يفعل بالكتاب أموراً عجيبة. «جمهورية الخوف» كان انتهى عام ١٩٨٦ واقتضى نشره زمناً طويلاً. قد يبدو ذلك غريباً الآن، إذ أنه منذ وقت قريب جداً كانت قلة ضئيلة من الناس فقط مستعدة لأن تصدق أن الأمور سيئة إلى هذا الحد داخل العراق. عدد كبير من القراء والناشرين وجد أن المخطوطة «متحيرة ومن طرف واحد، غير علمية بشكل واف ومثيرة للجدل على نحو مفرط». وما زلت اجفل حين أتذكر رفض كتابي من قبل أحد الناشرين لأن واحداً من أبرز الاختصاصيين العرب في شؤون العراق الحديث في الولايات المتحدة كتب في تقريره ان الكتاب «يهين» الشعب العراقي. على أية حال، انتهى الأمر بالكتاب، بسبب صدام حسين، لأن يقترب من أن يكون «الأكثر مبيعاً»، مع الأخذ في الاعتبار أنه، وإن كتب باللغة الإنكليزية، فإنه مختص بدولة شرق أوسطية واحدة (هي ليست إسرائيل).

احصيت خمسة عشر عنواناً جديداً عن أزمة الخليج في معرض القاهرة للكتاب، خمسة عشر كتاباً «فورياً» بحسب التعبير الشائع تجارياً، بينها طبعتان عريتان مختلفتان للفصول الأربعة الأولى من كتاب «جمهورية الخوف». فما أظنه أن النصف الثاني من الكتاب اعتبر مبالغاً في أكاديميته، ما لا داعي له لتحويل صدام إلى شيطان. وإحدى الطبعتين اصدرتها «دار الثقافة» وهي دار نشر صغيرة محترمة وعلمانية. والطبعة الثانية المقرصنة كانت تلك التي وجدتها على رصيف شارع طلعت حرب. لكنني اكتشفت لاحقاً ان طبعة أخرى مقرصنة للفصول الثمانية جميعها نشرتها «دار الزهراء» الإسلامية. وكل ذلك الاهتمام المفاجيء ينبغي مقارنته بموقف الناشرين العرب ممن لم يد أي منهم استعداداً لأن يمس المخطوطة ما بين اكتمالها وغزو الكويت^(٥).

وعلى الرغم من الطابع الموتى والخيف الذي طغى على تلك الظروف، كنت مسروراً بكل ما ناله الكتاب من اهتمام. ألا يثلج قلب أي كاتب أن يرى كتابه معروضاً على رصيف شارع طلعت حرب في القاهرة، وعلى الأخص إلى جانب كتيّب مزين بقلوب ملصقة على كامل غلافه، يعلم كيفية كتابة الرسائل الغرامية؟

أما باقي الكتب التي صاحبت كتابي على الرصيف، فلم تثر فضولاً عندي. على سبيل المثال «الجزائر»، وهو كتاب فوري عن العراق، مع كاريكاتور يشع على الغلاف ويصوّر الرئيس العراقي يرتق خارطة الكويت ويلصقها بالعراق. ومن ضروب السخرية ان كتابي أصبح غير ضروري لتحقيق هدفه في الوقت ذاته الذي أصبح شعبياً. فأنا كنت أحاول لفت الانتباه إلى أهمية النظر إلى مسألة العنف البعثي بكثير من الجدية، غير أن أحداً لم يعد بحاجة إلى قراءة ٣٠٠ صفحة ليكتشف ذلك بعد الثاني من آب/اغسطس ١٩٩٠.

تنتاب المرء شكوك جدية بشأن معنى كل هذا الاهتمام حين يدرك ان كتابه، عندما ينشر ويوزّع بالطريقة التي وصفت، فإنه لن يؤخذ على محمل الجدّ من قبل بعض الأشخاص الذين كتب من أجلهم، وتحديداً أهل الفكر في مصر. فللكتب الفورية هناك السمعة نفسها التي لها في لندن أو في نيويورك، وإن اعتبرنا أن مناظرة «جمهورية الخوف» تحتوي على معاني تطلّ وضع السياسة العربية المعاصرة، بات من الراجح أن يتم تجاهل هذه المناظرة من خلال الربط بينها وبين كتاب «الحرب بين الإسلام والشيطان»، وهو رفيق مقبر آخر على رصيف شارع طلعت حرب، يصوّر غلافه صدام ينشق من فمه نابان مثل مثل ناي دراكولا وفي يده خنجر يقطر دماً مويجه نحو الكعبة. صحيح أن العديد من المثقفين العرب، المصريين والخليجيين، ينتقدون الآن النظام العراقي، لكن ذلك لم يصبح هكذا إلا بعد ٢ آب/اغسطس ١٩٩٠، وكان ميل الجميع في كانون الثاني/يناير ١٩٩١ متجهاً لتركيز كلّ اللوم إلى صدام حسين، كما لو أنّ وحشية هذا الشخص تحبّكر كلّ ما حلّ بالعالم العربي من كوارث في السنوات العشرين الماضية.

غير أن الكارثة الحقيقية لم تكن في المشهد الثقافي في مصر أو حال دور النشر المصرية، بل كانت في الذهنية التي اظهرتها النخبة في العالم العربي، خصوصاً أولئك الذين ينتمون إلى الدول الواقعة شرق مصر. فالتأييد لصدام حسين في أوساط المثقفين العرب الأكثر انفتاحاً وعلمانية وانغماساً في التجربة الغربية - وعلى الأخص المجموعة الأرفع ثقافة بينهم، وهم الفلسطينيون - كان عظيم الاتساع والعمق. فما نفهمه أن يخالج فلسطينياً في الأراضي المحتلة يتعرض يومياً للدّلّ على يد السلطات العسكرية

الإسرائيلية، نبض من التعاطف المفاجيء مع «الفارس الأسمر على فرسه الأبيض»، بحسب العبارة التي استخدمها ذلك الاستثناء الجميل، الكاتب الفلسطيني اميل حبيبي، في سياق هجائه صدام حسين. غير أن الأمر مختلف تماماً بالنسبة للعدد المتزايد من الصحفيين والكُتاب والأساتذة في الجامعات الغربية الذين يعتبرون أنفسهم «عرباً» أو «مناصرين للعرب» ويعتبرون عن مشاعر التأيد نفسها لطاغية وحشي، رغم معرفتهم التامة بما يفعله بصحبه العرب^(٦). فخلال الفورة الأولى لأزمة الخليج، ظهرت بقوة عوارض ضيق ثقافي عربي، كان منذ سنوات طوال في طور التشكّل، واحتل هذا الضيق وسط المسرح السياسي العربي فكان انبثاق صدام حسين نفسه أفضل ما يرمز إليه.

مثل العديد من العراقيين، خصوصاً أولئك الناشطين من أجل القضية الفلسطينية، واجهت تجربة شخصية بغیضة جداً مع ردّة الفعل العربية هذه. هوجمت لكتابتي «جمهورية الخوف» تحت اسم مستعار. فقد رأى البعض في الاسم المستعار (سمير الخليل) تأكيداً على انني لا يمكن أن أكون غير عميل لـ «الموساد» أو «يهودياً عراقياً». غير أن الوقائع كانت أقل إثارة. فلا أنا ولا أي فرد من أفراد عائلتي تعرّض لأية اذیة من البعثيين العراقيين، والكتابة باسم مستعار كانت أفضل وسيلة عملية من أجل استمرار الأمور على سابق حالها.

لقد أثّر لفظ كبير بشأن الاسماء المستعارة والمواقع السياسية بينما لم يرد سوى كلام ضئيل جداً عما كان يجري فعلياً داخل العراق. وحاول «جمهورية الخوف» طرح قضية قوامها وجوب عدم صرف النظر عن نظام البعث العراقي باعتباره مجرد ديكتاتورية عادية شبيهة بنسخ هي على القدر ذاته من القذارة في جميع أنحاء العالم الثالث. فخلال السبعينات تحوّل العراق إلى دولة توتاليتارية، أكثر شبهاً بالاتحاد السوفياتي تحت حكم ستالين في الثلاثينات، وألمانيا النازية، منه بالأردن أو السعودية. فهل تؤكد الوقائع التي عرضها ذلك الكتاب استنتاجات كهذه؟ وبهذا المعنى، هل يؤكد حجم الوثائق الهائل الذي بات متوافراً وواسع الانتشار منذ حرب الخليج ذلك التصوير للنظام العراقي المقدم في كتاب «جمهورية الخوف»، أو أنه يدحضه؟ ما الذي حدث فعلياً في العراق خلال السنوات العشرين الماضية؟ إن الموافقة على مناظرة «جمهورية الخوف» بخطوطه العريضة إنما تنطوي على تضمينات تمتد إلى أبعد من العراق لتشمل العالم العربي بكليته. والمثقفون العرب أرادوا تحاشي تلك التضمينات إبان أزمة الخليج.

في ٧ آذار/مارس ١٩٩١ خلال الانتفاضة العراقية ضدّ صدام حسين، تخلّيت عن الاسم المستعار وألقيت كلمة في ندوة نظّمها مركز دراسات الشرق الأوسط في

هارفرد. في ذلك الاجتماع وفي محاضرات أخرى تلت، طالبت القوات المتحالفة أن تنهي الحرب وتستبدل النظام البعثي بحكومة انتقالية:

«إن ضخامة الهزيمة العراقية تحمل في طياتها فرصة تاريخية لبداية جديدة، قد ترسم سياسة المنطقة في أقل من جيل، لكن على القوات المتحالفة قبل ذلك أن تعترف علناً بالثوار العراقيين وتعاون معهم... وتدخل بغداد.... المطلوب فقرة سياسية استراتيجية مساوية لضخامة الحرب نفسها. ماذا كان حصل لو انسحبت الولايات المتحدة في أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية من غير أن تقدّم التزامات من أجل الديمقراطية وإعادة البناء الاقتصادي»^(٧).

لم تكن الولايات المتحدة ملزمة بقطع مسافة نصف الكرة الأرضية مع ٤٤٣ ألف جندي من أجل حلّ مشاكل الشرق الأوسط. فصدام لم يكن يشكل تهديداً للمواطنين الأميركيين، وقد سبق للرؤساء الأميركيين أن تعاملوا معه وباستعانتهم، بالتأكيد، التعامل معه مجدداً. وكان جورج بوش على الأخص مرتاحاً جداً في التعامل معه^(٨). لكن لحظة اختارت الولايات المتحدة أن تأخذ على عاتقها تلك المسؤولية، حين بدأ القتال، بات لزاماً عليها تجاه الشعب العراقي أن تنهي الأمور على نحو مختلف، وهو التزام لم يكن يقع على عاتقها قبل ارسالها كل أولئك الأميركيين ليقاتلوا في الخليج.

بعدما تحدثت علناً متخذةً هذا الموقف، تفاقمت ردّة فعل العرب غير العراقيين التي كانت قد واجهتني في وقت سابق. على سبيل المثال، قرّرت صحيفة «القدس العربي» نشر «عرض وتحليل لأفكار كنعان مكينة» بعيد عرض في بريطانيا لفيلم وثائقي بعنوان «الطريق إلى الجحيم» قدّم فيه تقريراً عن المقتلة الجماعية المنظمة لأكثر من مئة ألف كردي مدني بين شباط/فبراير وأيلول/سبتمبر ١٩٨٨ (انظر الفصلين ٤ و٥ من هذا الكتاب)^(٩). والمقالة التي كتبها السوري صبحي حديدي نشرت بعنوانين فرعيين هما «كيف أصبح كتاب 'جمهورية الخوف' أسطورة؟» و«من اليأس ينبثق الجحيم الذهني»^(١٠). وكان هدف حديدي أن يظهر أن سمير الحليل، «النجم» الصاعد في المعارضة العراقية الذي دعا القوات المتحالفة إلى إنهاء الحرب وإطاحة الدكتاتور العراقي، هو من اختراع وسائل الإعلام الغربية، كما ألححت المقابلة إلى أن ضوؤه سيبهت ما أن تتضح حقيقة انتمائه الطائفي الشيعي.

وعلى الرغم من ان عنوان المقالة الرئيسي يعلن عنها بوصفها فضحاً للأفكار، غير أن الكاتب لم يتطرق البتة إلى مناظرة «جمهورية الخوف». فقد كتب حديدي أن المقالة لا تتسع للغوص في ذلك. لكن يمكن قول أشياء كثيرة في صفحتين كاملتين من صحيفة

يومية (ما يقارب الـ ٣٢٠٠ كلمة)، كما يمكن للمرء أن يتساءل وهو محقّ في تساؤله، أي أمر آخر يمكن الكتابة حوله؟ أكثر من هذا، لم تتضمن مقالة حديدي، التي في حلقتين، كلمة واحدة عن الادعاءات الرهيبة المقدّمة في ذلك الفيلم الوثائقي. أليس من الأهمية بمكان أن يُشحن ما لا يقلّ عن مئة ألف عراقي بريء من الرجال والنساء والأطفال من قراهم ليقتلوا في فترة ستة أشهر من سنة ١٩٨٨؟ أليس من الأهمية بمكان أنه منذ العام ١٩٧٥ قامت الحكومة العراقية بهدم ما لا يقلّ عن ٣٥٠٠ قرية كردية باسم العروبة؟

عند الضفة الأخرى من الأطلسي، انتقد ادوارد سعيد، وهو أستاذ في جامعة كولومبيا ولعلّه أبرز المثقفين العرب في العالم الغربي، «جمهورية الخوف»، واعتبره مشروعاً يهدف إلى «إعطاء دفع للنظرية القائلة إن النزاعات والعنف في الشرق الأوسط تعود، بتعبير نسبي، إلى أسباب ما قبل تاريخية، وهي مطبوعة في جينات أولئك الناس (العرب)». وقال، في مقابلة معه عن دور المثقفين خلال حرب الخليج، «إن سمير الحليل هو «خنزير غينيا»^(٥). وأنه يعمل كـ «مخبر ساذج» لخدمة مصالح صانعي السياسة الأميركية^(١).

هناك يأس وققدان أمل مطموران في هذه الكلمات يفوقان كلّ ما تحتويه مكتبة كاملة من الكتب المختصة بوحشية الديكتاتوريات الشرق أوسطية والخسائر البشرية الرهيبة الناتجة عن حروبها. فأن تكون سياسياً، وأن ترغب في المطالبة بمعنى ما للعمل السياسي في العالم العربي، هو أن ترفض أن تصبح سجيناً لهذا النوع من الكلام. فقد أتاحت عقود من العنف المتصل في المنطقة للشك والسخرية ولانعدام الثقة الكلّي، التفشي بشكل مخيف بيننا. وليس في المقدور أن نعرف ما كان سوف يحل لو ان ردّة فعل العالم العربي على غزو صدام حسين للكويت كانت «كما كان ينبغي أن تكون». وأن تتوقع الكثير (كما فعلت أنا في آب/اغسطس ١٩٩٠ حينما دعوت العرب إلى قيادة المعركة ضدّ عرب آخرين حول مسألة الكويت، ولم يفعل أحد ذلك، مفضّلين أن يتركوا الأمر للولايات المتحدة) هو أفضل من الوقوع في شرك المرارة واليأس.

من ناحية أخرى، فإن الاصرار على ما هو محقّ - انتهاء الحرب والتخلّص من الطاغية - لا يساويه الاعتقاد بأن هذا الأمر سيحصل على أية حال. فالمسألة هي أن تنشر وتعكس موقفاً يلّمح إلى الأمل، إذ لا ينبغي أن تكون الأمور سيئة مثلما هي في الواقع. فإن كنتُ مسكوناً بمسألتي القسوة والعنف اللتين تفاقمتا بشكل مخيف في العالم العربي، فهذا ينبع

(٥) ملاحظة المترجم: خنزير يُستعمل وسيلة أو موضوعاً لإجراء التجارب.

من القناعة بأن ليس هناك من وسيلة أخرى لتقليص تلك القسوة وردها عن حياتنا. ولأن ما من أحد يعرف ما سيجلبه الغد، فإن كل شيء واللاشيء يظلان دائماً احتمالين قائمين في أوقات الأزمات الكبرى. وموقفنا السياسي هذا هو في العمق رفض التخلي عن العالم العربي الذي نشأت فيه، وهو رفض التخلي عن الغرب حيث اخترت أن أقيم. فلا سياسة ولا مستقبل ولا أمل من دون هذين السلوكين، الاعتراف والرفض.

• • •

إن أزمة الخليج لم تكن مرةً مجرد مسألة تدخلات أجنبية أو رجل شرير يلعب دوره الديماغوجي، بل كانت في الأساس فشلاً أخلاقياً عريضاً ذا اتساق تاريخي، يجدر بكل من يهتم بمستقبل هذا الجزء من العالم أن يشعر حياله بمسؤولية شخصية. فهناك شيء ما في مكان ما من المسار العربي الحديث كان مخطئاً على نحو عميق، وصدام حسين لم يفعل سوى تجسيده وتمثيله. وفي هذا الكتاب لا أدعي أنني استطعت أن أفكّر الخلل، فهدفي هو الاعتراف به ووصفه. فوسط عاصفة العواطف التي أثارها حرب الخليج، تراءى لي أن «القسوة والصمت» هما صياغة ذلك الواقع.

والقسوة والعنف يتقاطعان من غير أن يكونا واحداً. يمكن تبرير العنف، تبعاً للأهداف التي يسعى إليها (مثلاً فعل الدفاع عن النفس). وقد يكون هناك عنف بين نذرين في المقابل. لكن لا يمكن البتة تبرير القسوة لأنها تقوم على تقصّد إلحاق الأذى الجسدي بأفراد هم في موقع الضعف. ذاك أنه لتكون هناك قسوة، ينبغي أن يكون هناك شكل من الخضوع والعجز. والقسوة السيكلوجية والاجتماعية لا تدخل في حيز ما يطرحه هذا الكتاب، ولكنها تتأني إلى حد بعيد عن القسوة الجسدية، وتغذيها. فالاعتداء على الجسد البشري بالقوة أو بواسطة أداة ما ينم عن خاصية غير عقلانية، متجذرة ولا يمكن اقتلاعها. إنها القاع الصخري القائم تحت كل طبقات الأمور الفظيعة التي يفعلها البشر بعضهم بالبعد الآخر.

والقسوة التي أنا بصدددها لا علاقة لها البتة بـ «الجنات» أو «الأسباب» ما قبل التاريخية، بل إن مسببها سياسي وتأثيرها عالمي، ومجرد حدوثها هو بمثابة إهانة للإنسانية جميع، وهذا ما يجعلها تخترق الحساسيات والحدود الوطنية والدينية. لقد تفاقت قسوة من هذا الصنف الكوني في أجزاء عديدة من العالم في السنوات الأخيرة، وبنسب تختلف سرعة وبطناً (ينبغي أن نفكر في انقسام يوغوسلافيا وناقوس الموت اليومي في ساراييفو). وأحد الأسئلة الرئيسية المطروحة في القسم الثاني من هذا الكتاب هو: هل

تفاقت القسوة في العالم العربي في العقدين الأخيرين؟ فإن كان الأمر كذلك، ما هي الأشكال التي اتخذتها؟

لقد تعاظمت بالتأكيد خلال الثمانينات في العراق. والدورة الأخيرة من الغزو والاحتلال والحرب والانتفاضة، التي أطلق صدام حسين عنانها في المنطقة، انتهت، فجائياً، ببقاء النظام العراقي في السلطة. فإبان الانتفاضة انتعشت آمال عراقية ثم ما لبثت أن تحطمت. لكن لا يمكن أن يعود أي شيء إلى ما كان عليه. فقد انكشف أحد أكثر بلدان العالم انغلاقاً، وفي الواقع ولبرهة ضئيلة بات لدى كل عربي شيء ما ملحّ يقوله بشأن المسألة. إلا أن ما هو أهم، أن ضحايا القسوة بدأوا يتكلمون، ويروون القصص كما لم يفعلوا قط من قبل. وقد أردت لكل تلك الكلمات الجديدة التي كانت تتدفق متعثرة أن تكتب هذا الكتاب نيابة عني. وبهذا المعنى فإن القسم الأول من الكتاب هو بالتأكيد القسم الأهم، انه رحلة إلى داخل تلك القسوة، مروية بكلمات الأشخاص الذين عاشوا تجربتها بالدرجة الأولى. أما دوري فكان تحويل كلمات أبطال هذا الكتاب - خليل، أبو حيدر، عمر، مصطفى وتيمور - إلى قصص وأخبار عن الأمور اللامعقولة التي في استطاعة الكائنات البشرية أن يفعلها بعضها ببعض.

خليل رجل كويتي متميز بقي في الكويت خلال اجتياحها وتبدل على أثر تلك التجربة التي، رغم أنها كانت مؤلمة، جعلته يكتشف من هو. لقد بحث عني حتى عثر عليّ في صيف ١٩٩٠، واكتشفنا رابطاً وثيقاً بيننا كانت حصيلة الفصل الأول من هذا الكتاب.

وأبو حيدر ضابط سابق في الجيش العراقي ولد في مدينة النجف المقدسة. في الأول من آذار/مارس ١٩٩٠ قرر أنه عانى ما فيه الكفاية فأمسك بزمام حياته وثار على صدام حسين. فقصته قصة انتفاضة مروية على شكل تركيب من مختلف الأصوات العراقية. فالثوار أيضاً كانوا شديدي القسوة مع معذبيهم السابقين، يخبرون بأصواتهم الأفعال التي قاموا بها. لكنني، رغم ذلك، مقتنع بأنهم اطلقوا نفي الحرية الأول في العراق، وصبيحة فشلهم تعرضت مدينتنا النجف وكربلاء لعملية تدمير ونهب لم تشهدا مدينة عراقية منذ الاجتياح المغولي لبغداد عام ١٢٥٨. وها هو حزب البعث يحاول إعادة بناء هاتين المدينتين، كما أعاد بناء بابل، على صورته الخاصة.

أما عمر، وهو مهندس مدني شاب من الأعظمية في بغداد، فأمضى ٤٩ يوماً في أحد سجون العاصمة العراقية، ورغم أنه لم يتعرض للتعذيب، إلا أنه دخل عالماً من الرعب الذي يتعذر وصفه، والذي بات نوعاً من القاعدة داخل العراق. وبدوره فإن مصطفى هو

من التفتية بكرديستان العراق في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٠، فاصطحبني لمشاهدة نصب تذكاري أقامه لذكرى مقتل ٦٨ من مواطنيه الأكراد في قرية غبته، قضوا في هجوم بالأسلحة الكيميائية عام ١٩٨٨. خمسة وعشرون منهم كانوا من أفراد عائلته.

كذلك شاهدت للمرة الأولى الفتى الكردي تيمور على شريط فيديو تلفتيه في آب/اغسطس ١٩٩١. كان يجلس مشبوك الساقين على الأرض، يخبر كيف أنه نجا من فرقة اعدام في آب/اغسطس ١٩٨٨، في حين لم يحالف الحظ والديه وشقيقاته الثلاث. ورغم أنني بعد مرور ثلاثة أشهر على الاجتياح العراقي للكويت صرت، كالجميع، معتاداً روايات التعذيب البعثة، إلا أن تلك القصة كانت تنطوي على شيء خاص. وربما كان هذا ولید كدسة من الأوراق كنت قد تلفتيها قبل بضعة أيام على مشاهدة شريط الفيديو. كانت تلك صوراً عن وثائق رسمية وضع ثوار أكراد يدهم عليها خلال الانتفاضة العراقية في آذار/مارس ١٩٩١ إلا أن أهميتها كانت لا تزال حتى ذلك الوقت مجهولة. لقد ارتبطت الأوراق وشريط الفيديو في ذهني ارتباطاً غير قابل للانفصام، أما الرابط فاسمه: حملة الإبادة الجماعية التي قادها الجيش العراقي في الفترة ما بين شباط/فبراير وأيلول/سبتمبر ١٩٨٨^(١٢).

يبد أنه كلما عظمت الجريمة صَغَبَ اخفاء آثارها. فتيمور كان في مكان ما هناك في جبال كردستان على استعداد للإدلاء بشهادته. وذهبت إلى العراق في ١١ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٠ لغرض مقابلة تيمور والاطلاع على تلك الوثائق الرسمية، فعدت وبحوزتي عدد كبير من الشهادات والوقائع المروعة، تنقل بكاملها في قصص الجزء الأول من هذا الكتاب.

إن القسوة ممارسة خاصة تتجه إلى اجساد أفراد من البشر. انها شخصية بعمق في انعكاساتها على ما تبقى من حياة الضحية. وفي هذه الأيام يرتدي تيمور ثياباً تجعله يبدو شبه بمقاتل كبير وشجاع يُستعرض أمام الصحافيين قاطبة لتُجرى معه المقابلات. إلا أنه لا يزال الفتى الصغير الذي كانه، في عمر ابنتي الآن، عندما انهار العالم كله على رأسه.

وأنا بدوري كاتب، لست مناضلاً من أجل حقوق الإنسان ولا أدعي أنني أدبت لتلك الأمور الرهيبة، التي أصابت الأشخاص الذين تحتل اسماؤهم العناوين الأساسية في القسم الأول، ما تستحقه. ولكن كنت قد بذلت أقصى جهودي وكنت وفياً للوقائع إلى أقصى حدٍّ ممكن، إلا أنني أعلم أنه في ما يتعلق بالأشخاص الذين حاولت سرد رواياتهم، لن تكون الجهود كافية أبداً، حتى لو بلغت أقصاها. وكى استعيد خليل، وأبو حيدر، وعمر، ومصطفى وتيمور إلى مركز الاهتمام، كان عليّ أن أحولهم إلى صور مجازية

للعنف الفاضح. وبذلك تحتم تحويل أشخاص حقيقيين من لحم ودم، بالكتابة، إلى نماذج عريية من طراز جديد.

* * *

في آخر تأملاته قبيل انتحاره، كتب بريمو ليفي عن الأشخاص الذين نجوا من أعمال عنف غير مبررة:

«معظم الذين نجوا (من المحرقة النازية) يذكرون شفهيّاً أو في مذكراتهم المكتوبة حلماً كان يراودهم باستمرار خلال ليالي احتجازهم، يختلف في تفاصيله، لكن جوهره واحد: إنهم عادوا إلى منازلهم يصفون لأحبائهم بانفعال وانفراج عذاباتهم الماضية، لكن هؤلاء لم يصدّقوهم، والحق أنهم لم ينصتوا إليهم. وفي الشكل الأكثر نمطية (والأكثر قسوة)، كان المستمع يستدير ويغادر بصمت»^(١٣).

إن كانت القسوة مسألة خاصة وشخصية، فإن الصمت مسألة اجتماعية. إنه ينجم عن أفعال عدد من الأفراد يعملون، سواء عن وعي أو عن غير وعي، كمجموعة. ومواجهة الصمت كوسيلة للتعاطي مع ميراث القسوة تصبح بالضرورة عملاً جماعياً. وفي حين كانت الأعمال الوحشية المذكورة في الجزء الأول جارية على قدم وساق، كان المثقفون العرب يلزمون الصمت.

لكن، مثل القسوة نفسها، ليس صمت المثقفين العرب أمراً غير قابل للتفسير. فالعديد من العرب ذوي الحساسية يعون بعمق مدى التجذّر الذي بلغه القلق، بل المرض الفكري والثقافي داخل العالم العربي خلال الثمانينات. وسأرجع باستمرار إلى ما لديهم، غير أن النقطة الرئيسية في هذا الكتاب هي أن الصمت العربي الجماعي حيال أعمال القسوة والعنف، التي غالباً ما تنفّذ باسم جميع العرب، تنبع من سنوات عدّة من التفكير تبعاً لمنطق معين. وهذا ليس وضعاً جوهرياً لا يمكن تبديله، بل سياسة صمت. وقد اتخذت سياسة الصمت هذه خلال حرب الخليج صورة أسطورة صدام كمخلّص، والصورة المعكوسة لذلك، أي فكرة أن نشوب الأزمة والحرب هو نتيجة دسائس العنصرية أو الامبريالية الغربية.

في الماضي كان الغرب الواسع النفوذ يتلاعب في مصير العالم ويقرّره، وما زال ذلك قائماً إلى حدّ أو آخر اليوم. وهدف الجزء الثاني من هذا الكتاب لا يكمن في نفي ما يبدو جلياً، بل في اظهار كيف أن أهل الفكر في العالم العربي حوّلوا «التاريخ» إلى حالة ذهنية سياسية فاسدة كلياً، تتعارض مع وضع العرب الحقيقي. والكثيرون من العرب

علموا أن خلافاً ما فظيماً حصل داخل العالم العربي، لكنهم قرروا عدم الجهر به، ولا سيما أمام جمهور غربي. وبذلك بات هذا النوع من المثقف جزءاً من المشكلة بدل أن يقف في رأس العاملين على حلها. ففي زمن الأزمات الأخلاقية يتحوّل الصمت إلى موافقة، والتخلي عن المسؤولية الفكرية أمر خطير بين المثقفين، وأكثر مما بين أولئك الذين لا يرون المشكلة أصلاً، إذ المثقفون يعرفون أكثر.

لقد اعتمدت سبل المقالات والتصريحات التي كتبها هؤلاء المثقفون خلال السنة ونصف السنة الأولى من الأزمة كمصدر رئيسي في وصف سياسة الصمت هذه. والتعميمات والآراء التجريدية التي تدّعي النظرة العلمية قد تخفي قدراً كبيراً من الخطايا، والصمت له لغته الصلبة الملموسة التي يتوجب التمثيل عليها، وفي مطلق الأحوال، فإنني بذكري أسماء وتقلي ما قيل وجال في الأذهان إنما اكشف نفسي وأولئك الذين انتقدتهم على حد سواء. ولا شك أن البعض بدّل آراءه أو لطّفها بعد أن اتّضحت الهزيمة العسكرية العراقية الكاملة. والبعض الآخر يعبر اليوم عن آراء متضاربة في وقت واحد، مما يشير إلى أن المشاعر والانفعالات التي أدّت في البدء إلى تلك المقالات والتصريحات لم تتبدّل دائماً. وهذا السبيل العاطفي هو الذي يتمحور نقدي عليه، لا الأفراد أنفسهم.

فالناس يتمتعون بالقدرة على تبديل آرائهم، وأنا أراهن على تلك القدرة لأنني رأيتها تعمل في اذهان العديد من الشبيبة العربية التي أكتب من أجلها. فهؤلاء الشبان من الشرق الأوسط هم في أمس الحاجة إلى مخاصمة الأبطال الذين خذلوهم، إلى ابتكار لغة مختلفة يتقنسون بواسطتها من هم وما يريدونه من هذا العالم.

والحقائق التي انقلها واعتمد عليها ليست محفورة في الصخر، بل هي نابعة من كائنات بشرية. إنها خيارات كان يمكن اختيار سواها بالسهولة ذاتها. فما من حقيقة عامة إلا وهي خاصة وفردية وهذا ما يؤلم أشد الألم. إلا أن القسوة ولغة أولئك المثقفين العرب الذين جهدوا لتبريرها يؤلمان أيضاً.

والجدل حول تحديد الحقيقة لن يصل إلى نهاية، لكن على الجميع أن يدعوا أية شكوك قد تساورهم حول تحديد القسوة. وهذا الكتاب منظر من أجل إطلاق الاسماء الصحيحة على الأشياء، من أجل الاقرار بالفشل وتحمل مسؤوليته. فعلى خلاف الارتياح الذي شعرت به وأنا انقل قصص خليل وأبو حيدر وعمر ومصطفى وتيمور، لم أجد أية لذة في تحليل كتابات المثقفين العرب، لكنه كان أمراً لا بدّ منه. لقد تبدّلت الأمور كثيراً الآن ولم يعد من الممكن التحوّل عن الطريق التي شقّها صدام حسين بنفسه عندما اجتاحت الكويت في ٢ آب/اغسطس ١٩٩٠. والرهانات كبيرة جداً لأن المعركة هي في النهاية

معركة حول المستقبل المنشود في العالم العربي، معركة حول ذلك السؤال المطروح باستمرار في العالم العربي «من هو العربي؟». لأنني أسمى وسط هذه المعركة لأن أكون عادلاً، لكنني لا أدعي عدم الانحياز. فهدفي ليس شخصياً، لكن أسلوبه هو كذلك. أريد ادراك جذور المسألة، أريد الوصول إلى قلب الأشياء بدل مجرد التحديق من غير طائل في مرايا فكرية. وفي غضون ذلك، لا تزال قبور الموتى مفتوحة في العالم العربي.

لندن

كانون الأول/ديسمبر

١٩٩٢

الباب الأول

القسوة

١ - خليل

الأهمية التي للإسم

ليت أُمي لم تلدني لأرى عذاب هذا الزمان.

أبو حيدر/ ١٧ كانون الثاني/ يناير ١٩٩١

خليل وهو شاب كويتي في مطلع ثلاثيناته، اكتشف هذه الكلمات على أحد جدران الغرفة الملحقة بصالون ما كان في السابق منزله العائلي الفخم. الكلمات كانت خطتها بعناية، «بتزويق مائل الحروف»، كما أخبرني، يد جندي عراقي متمركز في الكويت المحتل كان يلقب نفسه أبا حيدر^(١). كان خليل قد عاش طوال أشهر الاحتلال السبعة لبلاده مستخدماً اسماً مستعاراً، وكان يدخل منزله للمرة الأولى بعد مصادرة الجيش العراقي له. على جدار آخر وبعناية مماثلة كتب أبو حيدر: «إلى ابني وابنتي الأعز عندي من أي شيء في العالم». لم يُعرف شيء آخر عن أبي حيدر ولا حتى ان كان قد نجا ابان الاندفاع المجنون في الخروج من العاصمة الكويتية حينما صدر الأمر أخيراً من بغداد بالانسحاب مساء الاثنين في ٢٥ شباط/ فبراير ١٩٩١. أعتقد على أية حال انه - أو ربما يجدر ان أقول انه «كان» - رجلاً متعلماً ومثقفاً.

ألقى خليل يته منهوياً. قال مقيم كويتي «أخذوا كل ما يمكنهم من الخروج.. ان كانوا لا يملكون سيارة سرقوا واحدة. أرادوا المغادرة بأسرع وقت ممكن».^(٢) غير ان عراقياً مجهولاً استطاع قبل المغادرة ان يجد الوقت ليكتب على قفا صورة فوتوغرافية لشقيقة خليل: «ايتها الأخت الكويتية العزيزة، أرجو ان تسامحينا على ما فعلناه». هل كان هذا أبا حيدر نفسه؟. في الواقع كان يمكن لهذا ان يكون أيّاً من عديد الجنود المختلف. عدد كبير منهم كانوا قد أقاموا مؤقتاً في منزل خليل منذ أن صودر في ٢١ أيلول/سبتمبر ١٩٩٠.

إلى جانب الكتابة والصورة، وجد خليل نعمة مذبوحة على أرضية الصالون، ترك نصفها من دون أن يؤكل. تبثر جلدها وعظامها، وكان دمها منتقعا على السجادة البلشية^(٥). كان الحيوان قد ذبح في الطابق الثاني، ثم طُبخ وأُتزل إلى الطابق الأول ليؤكل هناك. وعلى الرغم من العدد الكبير من الحمامات في المنزل، كان الجنود من أمثال أبي حيدر، ولربما كان أبو حيدر أحدهم يتبرزون على السجادة حول الذبيحة التي استهلك بعضها. كان المنزل برمته، كما يذكر خليل، ينضح رائحة عفن حقيقة.

«بعض هذه الذكريات مريع بالفعل. انه منقر إلى حد ان اللاوعي لا يرغب إلا في طمسه. قبل أن أتعامل مع هذه الذكريات، احتاج إلى اجترار طريقة أو نظام لإخراجها، كما لو اني أحتاج إلى إغراء هذه المعلومة كي تخرج عبر مخاطبة الذاكرة بالقول: «لا بأس إن خرجت. أستطيع ان أواجهك من جديد. أنت لست قادرة على إيذاي».

رجال مثل «أبو حيدر» عاشوا، أكلوا، وأفرغوا مئائاتهم في الغرفة نفسها، في الوقت نفسه، وربما هم فعلوا ذلك أمام بعضهم بعضاً، فعلوا ذلك محتلين منزل شخص آخر في مدينة تخص آخرين. أي صنف من الرجال هم هؤلاء، تساءلت. لا بد ان خليل راودته الحاطرة نفسها لأنه نظر إليّ بحدة جعلتني مرتبكاً غير مرتاح. قال «لقد فعلوا ذلك في طول الكويت وعرضها».

«كان الأمر برمته عنفاً من أجل العنف فقط، تدميراً من أجل التدمير وحسب، وقتلاً من أجل القتل. لقد سُدِّمت^(٦) البلاد برمتها. ينبغي ابتكار كلمة جديدة تناسب ما جرى للكويت: «سُدِّمت». أجل لقد «صدّموا» الكويت.

تخيلوا لوحة سوربالية رسمها سلفادور دالي عن الموت والعنف. نحن البشر نمتلك هذه الترسبات الوحشية في عقولنا وهي تعود إلى عشرات الآلاف من السنين. ان قوى بدائية ترقد غير محسوسة هناك، وهي تسيطر علينا بين الحين والحين. فكيف يمكن لبشري ان يتخيل أشياء كهذه، هكذا أسأل نفسي أمام لوحات دالي. في وسع بعض الصور ان يشعرك بالتقيؤ، إذ بقدر ما هنالك إبداع، هنالك أيضاً تقزز. إبداع مقزز. أجل تلك كانت القوة التي راحت تعمل مطلقة في الكويت أثناء الاحتلال».

(٥) ملاحظة المترجم: نسيج ذو زئبر أطول من زئبر المخمل.

(٥٥) ملاحظة المترجم: تقوم العبارة الإنكليزية هنا على تلاعب بين كلمتي Sodomized (أي، أُحيلت إلى سدوم، وهي مدينة في فلسطين القديمة دُمرت من جراء انغماسها في الفساد، وقد أثرتا ترجمتها بـ «سُدِّمت»)، و Saddamized نسبة إلى الرئيس العراقي صدام حسين.

أذكر حين دخلت شقة لندنية لصديق ووجدت انها تعرضت للسطو - كانت محتويات معظم الجوارير مرمية فوق كل الأرضية، وكان وعاء بسعة خمسة غالونات إنكليزية من الدهان الأبيض مدلوفاً بأكمله وسط سجادة الصالون. كان الدهان قد جفّ متحولاً إلى شكل حلزوني سميك... وأبيض شبيه بالروث. ثمة قضيب للتحريك كان منبزغاً بشكل شاذ إلى الأعلى. كيف حصل وبقي في ذلك الوضع بينما جفّ الدهان، سوف لن أفقه البتة.

وجد خليل منزله متهدماً بشكل أفظع بكثير من شقة كينسينغتون. لا إحتلال طبعياً، لكن بعض الإحتلالات يكون أقل طبيعية من البعض الآخر. فتحول غرفة استقبال عائلته إلى مسلخ جزّار وإلى مرحاض خارجي ليس بمسألة تحتمل تفسيراً بسيطاً. والأمر الغريب في لندن. ان منزل خليل لم يتعرض فقط لمجرد التخريب، مثل عدد كبير من البيوت في الكويت، فلقد احتل وصور ونهب. ولقد عاد الفرع إلى الأصل أو عاد الإبن المتمرّد إلى حضن عائلته. هكذا حلا للدعاية البعثية ان تفسر ما كان يفعله جيشها في الكويت. لكن ماذا عن الكلمات التي كتبها «أبو حيدر» على جدار غرفة الاستقبال في منزل خليل؟ أي نوع من الإحتلال كان هذا؟

كلّما تعمّق المرء في هذه القصة الخاصة - من هو خليل وماذا حدث لأبي حيدر - ستبدو ظاهرة غزو الكويت وأزمة الخليج بكاملها أكثر تعقيداً. فمن الواضح ان ابا حيدر لم يكن يود ان يكون هناك. غير أنه، رغم ذلك، قام ببعض الأمور المريعة. وكان يعرف انه قام بها. وتلك المعرفة تحولت إلى القوة التي كانت وراء الانتفاضة ضد صدام حسين داخل العراق والتي بدأت بالضبط في اليوم التالي لاسترجاع خليل منزله. فالشرارة التي أشعلت فتيل تلك الانتفاضة أشعلها جنود عائدون مثل أبي حيدر. ورغم انهم كانوا شاهدوا رفاقهم يموتون ويمزّقون ويشردون بالآلاف تحت وابل القصف الأميركي الهائل، إختاروا ان يوجهوا جام غضبهم إلى الطاغية الذي كان أرسلهم بادیء ذي بدء إلى الكويت^(٣).

وماذا عن الشاب خليل؟ لقد ترك الكويت للمرّة الأولى مع الإحتلال العراقي في صيف ١٩٩١ واستطاع العثور عليّ في لندن. اراد ان يلتقي كاتب «جمهورية الخوف». كنت في صدد تأليف كتاب عن الانتفاضة العراقية، ولم أكن أنوي البتة محاوره كويتيين أو إدخال رواياتهم في كتابي الجديد. لكن تبادل الحوار الاعتيادي تحول إلى حوار طويل رسمي، وانتهى إلى تبديل الطريقة التي كنت نويت بها ان أولف الكتاب. خلال الحديث

استطعت أن أدرك إلى أي حد يمكن لتجربة الاحتلال ان تبدّل شخصاً. خليل لم يعد ابداً الرجل الذي كانه..

إن الاشتغال على قصص شخصية لأناس مثل خليل وأبي حيدر يعقّد المستقبل، جاعلاً إياه أكثر استعصاء على التعميم، وذلك لسبب واحد هو أن الغبار الذي أثير لم يهدأ بعد. لكن شيئاً لن يظل مثلما كان ابان إحتلال، أو خلال حرب، أو خلال إنتفاضة. وبدورها فإن آرائي الشخصية حول الإنتفاضة تبدلت إثر لقاءاتي ببعض الاشخاص الذين إشتراكوا فيها، مغدّاة بعشرين سنة من الديكتاتورية المروّعة، انفجرت عبر العراق أحقاداً وآلاماً مكبوتة في عريضة من العنف عرفها آذار/ مارس ١٩٩١. ولدى التفكير في الوصف الوحشي الصريح للأمور الفظيعة التي أنزلها الناس بعضهم ببعض، غالباً ما أصاب بالغيثان، وحتى أنني أراني غريباً عن انتفاضة كنت دفعت بنفسي في تشجيعها قلباً وروحاً فيما كانت قائمة. ذلك أن الضحايا قلّدوا النظام الذي كان أوجدتهم وفشلت انتفاضتهم. هل ينبغي ان تكون الأمور على هذا النحو؟

يبد أنني تسوّرت مذهباً تحت وطأة الكلمات التي قالها المشاركون. كانت الكلمات هذه قاسية وفجة فجاجة ما كانت تصفه. أما المجازية المنهكة والعاطفية الميودرامية الخاصة بالخطاب السياسي العربي فغابت عن ذلك. وفي محلّها ظهر نوع جديد من قول الحقيقة، وكان هذا ما أردت التماثل معه. كان عراقيون يعزّون أنفسهم ويتحدثون إليّ لأنهم كانوا يودّون أن يعلم العالم الخارجي حقيقة ما جرى. ولوهلة وجيزة كان الضحايا، هم انفسهم، رافضين ان يتقبّلوا تلك الحجّة الميّتة القائلة ان كل المشاكل سببها الآلية الجهنمية للغرب وإسرائيل. وعوض ذلك، كما كنا رأينا في تلك الكلمات القليلة التي كتبها أبو حيدر على جدار صالون خليل، فإن بعض العراقيين انعطفوا إلى دواخلهم، ففي الظروف القصوى والمتطرفة يمكن ان تتداخل القذارة بالسموّ في السلوك البشري. لذلك يبرز أولئك الأفراد الذين يتسامون على التمنيّط الذي غالباً ما نصّر على ربطهم به.

* * *

جنود مثل أبي حيدر هربوا من الكويت عبر الطريق الرئيسية نحو البصرة. على مقربة من تلّة المطلاع، وهي تلّة رملية ترتفع حوالي أربعمئة متر، وإلى مسافة ما يقارب العشرين ميلاً شمال غرب العاصمة الكويتية قرب بلدة الجهراء، قام المارينز الأميركيون من الفصيلة الثانية المدرّعة وفي لواء النمر المعروف باسم «كلاب المحجيم»، بمهاجمة الطابور المتراجع. مراسل مختصّ ملحق بلواء النمر روى: «معظم العراقيين استسلم للثوار أو حاول ذلك. كان مشهداً غريباً، أشبه بحفلة صيد عملاقة. إقتيد العراقيون أمامنا مثل

الحيوانات... بدا مثل مشاهدين وسط سباق تدمير». بعض الجنود ممن حاولوا الاحتماء إلى جانب الطريق دخلوا حقول الألغام خاصتهم. وفي ردة فعل يائسة أطلق بعض العراقيين نيرانهم على جنود من رفاقهم كانوا يصدّون طريقهم. لقد كان هدف القوات المتحالفة هو القبض على ما تبقى من الجيش العراقي والإحتفاظ به «مثل كلاب النفايات» كما فسر أحد كبار الضباط الأميركيين. «كان الأمر مثل مباراة في رمي الديكة الرومية. واستمرت ساعات، ثم ساء وضع الطقس»، كما قال الجنرال الأميركي مايجور مور، وهو قائد المارينز الجوي الجناح ٣. وبالنسبة للمخيلة البريطانية الأكثر ريفية، فإن ما حدث في المطلاع كان يشبه «رعاية قطعان النعاج»^(٤). هذه الجمل تصف كيف تحوّل موكب متداع وهلع من السيارات المسروقة والباصات، والشاحنات والدبابات والعربات المصفحة، إلى إزدحام فظيع وخرافي للمعادن الخردة والركّاب المشوين، مالتا خطوط السير الأربعة في جزء من إمتداد الـ ٦٠ ميلاً من الاوتوستراد بين الجبهراء والحدود العراقية، وقد جرى تحريك العملية في الخفاء من على بعد نصف ميل، وكلفت إصابة أميركية واحدة.

أثناء حرب الخليج جرى إختبار نوع من السلاح المتطور الذي يولّد حرارة غير معهودة، واستخدم ضد الجنود العراقيين على طول طريق المطلاع. كانت الحرارة الشديدة تذيب زجاج السيارات وغيرها محوّلة إياه إلى قطرات من السيليكون، كما تسببت بإنفجار أدوات أخرى غير مؤذية، وإلى ذلك كانت تحدث في الأجسام أموراً غريبة.

أحد الرجال بينما كان يحاول الفرار في شاحنة من طراز كاوازاكي، إنتهى بنصف جسم فقط «مقلوباً رأساً على عقب ومعلقاً خارج مقعده المكشوف، كان جانبه الأيسر والسفلي أيضاً ممزقين أشلاء، ورجله المتفخمة مرمية على بعد ١٥ قدماً». تسعة رجال داخل «شاحنة عريضة للحمولة قضوا وإحترقوا بلحظة خاطفة حتى أنهم أصبحوا بقايا عارية مسلوخة ومتفحمة، وهم في الأوضاع ذاتها التي كانوا عليها لحظة الصدمة الأولى. أحد أجسام الرجال استلقى، وجهه منحني ومؤخرته مرتفعة في الهواء، كما لو انه كان يحاول التقيب تحت صندوق الشاحنة. كانت ساقاه أصبحتا بقايا متفحمة ومرتمشة عند وسط الفخذ، وكان وجهه فتياً وجميلاً، بريئاً بعض الشيء، مع ذقن دقيقة. كان لا يزال في وسعك ان ترى ذلك رغم ان الرجل كان قد تحوّل إلى مومياء. رجل آخر فجّرتة قنبلة، كانت فجوة جسمه كبيرة مفتوحة، وأحشاؤه وأمعاؤه لا تزال معلقة في أمكنتها الصحيحة، غير انها كانت مشوية سوداء»^(٥). وبدوره عندما زار الصحافي روبرت فيسك المكان بعد عدة أيام، شاهد كلاباً متوحشة تقضم بقايا الجنود العراقيين^(٦).

أحد الكويتيين ممن توجهوا لمشاهدة ما حدث في المطلاع، بعد التحرير، شعر «بسعادة عارمة» امام المشهد وعبر عن وجهة نظر كانت شائعة يومذاك بين الكويتيين، «أنا مسرور لمشاهدة هذا الموت والدمار لأنهم فعلوا أكثر من هذا بناءً»^(٧). لكن من جانب آخر، كانت ردة فعل خليل مغايرة حين توجه إلى ممر المطلاع بعد أقل من أربع وعشرين ساعة من توقف القتل. كانت الساعة الخامسة والنصف بعد الظهر والشمس على وشك الغيب. كان توجه للبحث عن صديق الطفولة حمود، والذي إعتقل كرهينة من قبل الجيش العراقي قبل أربعة أيام من التحرير. خليل، مثل كثيرين من الكويتيين، كان لديه أكثر من سبب وجيه للخشية من أن كل ما تبقى من حمود يمكن ان يعثر عليه على تلك الطريق:

«أول شيء صدمني ما ان خرجت من السيارة كان الرائحة. رائحة شبيهة برائحة النابالم، مثل الإحترق. عضوية وغير عضوية في الوقت نفسه. طوال كل فترة الإحتلال، وحتى قبل إشعال حقول النفط، كانت ثمة رائحة كريهة تعم البلاد. أذكر انها كانت أشد قوة خلال شهري كانون الثاني/ يناير، وشباط/ فبراير، إلى درجة أنني صرت استخدم على الدوام كميات كبيرة من عطر ما بعد الحلاقة لأتخلص منها. هنا في المطلاع كانت الرائحة هذه تصفع وجهك مثل موجة من حرارة. كانت مثل شيء فاسد ومتآكل، مزيجاً من الإطارات المحروقة والجثث المهترئة، تنانة يعجز الكلام عن وصفها.

يتوجب عليك إتخاذ كل الحيلة. الذخائر والأسلحة مبعثرة فوق المكان كله وأنا أشق طريقي بحذر شديد متنبهاً لكل خطوة. ثمة أوقات كنت أضطر فيها مرغماً إلى الخروج من الطريق أو التسلق فوق سيارة، وفي النهاية قرّرت ان أسير فوق الحاجز الاسمتي المرتفع بعض الشيء والذي يفصل الخططين المتوجهين شمالاً عن الآخرين الذاهبين باتجاه الجنوب، وهذا سهل عليّ الأمور بعض الشيء.

على الرغم من السكون كان في وسعك رؤية الاضطراب العظيم والاهتياج متجمدين، كما كانا لحظة حدوثهما في الخلاء والوقت نفسها. إنها حالة من الرعب فاجأت هؤلاء الناس وأقصت كل شيء آخر.

كانوا مصعوقين بالرعب. ينبغي ان تفهم. السيارات كانت تملأ المكان كله متوجهة نحو كل ما هنالك من إتجاهات. أبواب أمامية وخلفية وأغطية محركات مفتوحة على كافة الزوايا. بعض الآليات كانت موجهة نحو الصبية، أخرى باتجاه الشرق، أو الشمال الشرقي أو الغرب، أو متسلقة على الحاجز الإسمنتي، أو هي

خارج الطريق كلياً. بعضها كان دار حول نفسه ١٨٠ درجة كاملة لينتهي متوجهاً إلى الوراى نحو العاصمة الكويتية. كل ذلك حدث بسرعة هائلة. مشيت قرب سيارات كانت لا تزال مذبذباتها وآلاتها المسجلة مسموعة، حيث أصوات الموسيقى أو تقارير الطقس تسمع خافتة من بعيد.

كانت هنالك شاحنة إطفاء حمراء، تخصص مديرية الإطفاء الكويتية، بسلاسلها وخرطومها الملفوفة. كانت قد اصطدمت وحطمت باصاً مدنياً للركاب أبيض وأزرق، باصاً من النوع الذي كان من الممكن استخدامه لنقل حمود إلى العراق. لم يكن هناك. كان الباص فارغاً مثل شبح. كان خالياً من الناس. أذكر صهريجاً ضخماً، شاحنة صغيرة لتوزيع اللبن. ثم هنالك أيضاً سيارة التويوتا كورونا متجمدة مصطدمة بدبابية عسكرية. العديد من الدبابات. ليس في مقدوركم تصوّر غرابة هذين التداخل والاختلاط.

لكن في الواقع كان ما لا يمكن تصديقه موجوداً داخل هذه الآليات. كنت أظن أنني أعرف العراق. إعتقدت أنني أعرف شعبه. إنهم ليسوا مختلفين كثيراً عنا، عن أي كان. يتوقع من الجنود أن يحاربوا ويموتوا، هذا يمكن ان يفهمه المرء. ولكن لماذا يسرق هذا الجندي صينية بلاستيكية مثلاً؟ أو علبة زبالة؟ أو أنايب معجون للأسنان؟

دمى «باربي». هل تستطيعون التخيل! لقد سرقوا دمي «باربي» ليس مجرد واحدة بل العديد منها. دمي ترتدي لباس العروس مع أشرطة بيضاء. ملابس نساء داخلية، روزنامات حائط، ساعات، علب سجائر، كدسات فوق كدسات من مجلة نسائية كويتية سخيصة تدعى «مرآة الأمة»، هذا ان إستثنينا صناديق البرتقال وأكياس الرز والبصل. عموماً أخذوا الأشياء الاسخف والأكثر عادية. كان المكان مثل سوق للخردة. الأشياء تتدلى من الحقائق الرمية داخل آلات نقل الجند المصفحة وما أشبه ذلك. جنود عراقيون قضوا وسط أكداس وأكداس من الخردة المنهوبة. الأمر عجيب ويدفعك إلى التفكير بحياتك الخاصة، إلى التأمل بالأشياء المادية وقيمتها. كان هناك ذهب وجواهر في المنازل الكويتية، بدل ذلك، أنظروا ماذا أخذ هؤلاء الرجال معهم بينما كانوا يفرون للنجاة بحياتهم. ما الذي كان أتمن، إنني أسألكم، حياتهم أم هذه الأشياء التافهة؟ يا لها من ميتة بشعة! بغض النظر عن اعتقادك ان كانت هذه الحرب محقة أم لا، فإن هؤلاء الرجال ماتوا كلبصوص مبتذلين.

كانت كتراسات حزب البعث وملفات المخابرات مبعثرة في كل مكان داخل آلية عسكرية أخرى. جمعتها وحصلت على ٢٨ ملفاً منها. كانت ملفات خاصة بمنطقة الفروانية في الكويت، أذكر ان أحد التقارير ذكر انه تم العثور على آلة كاتبة في منزل أحد الأشخاص. ملفات أخرى كانت عن سيارات مسروقة أو مفقودة في المنطقة أعطيتها كلها للمقاومة. تناولت قاموساً يدعى المورد (إنكليزي - عربي) كان مرمياً على الطريق الإسفلتية مع اسم مالكه مكتوباً على الصفحة الأولى الداخلية. أبقيته معي على أمل ان أجد صاحبه يوماً واعيده إليه. أود ان أعرف من هو. الاسم مصري...

على أية حال، فأكثر ما رسخ في ذاكرتي من كل تجربة السير في عمر المطلاع، هذا الجندي العراقي الوحيد. لن انساه أبداً طالما حييت. كان ميتاً بالطبع. كنت أمشي باتجاه الشمال وكان ممدداً، وجهه على الطريق في زاوية عند إتساع إسفلتي صغير محاط بسيارات متحطمة. كان جسمه باتجاه الشمال الشرقي، باتجاه الفاو كما أظن. كانت قبضته مطبقتين، وذراعه متوازيين يشكّلان قوساً من حول جبينه. لم يكن بالوسع رؤية أي من ملامح وجهه، فقط مؤخر الرأس. بدا كأنه واحد على وشك تلقي رسالة، أو كأنه مستلقي باستقامة على بطنه من أجل ان يدع الشمس تسرّ ظهره.

ثمة أمران بشأنه: أولاً، كان أسود كلياً، محروقاً، من دون بدلة عسكرية ولا شعر - قطعة فحم. من على مبعدة لم استطع تمييز الجسم عن الإسفلت لتشابه لونيها. ثانياً، كان الجزء الأسفل من جسمه، من السرة نزولاً غير موجود. حرفياً بدا وكأنه قد قُصّ بواسطة مقص عملاق شديد الحدة. ولكن كان في المقدور ان نلاحظ ان هذا الرجل كان قوياً ومفتول العضلات، بكتفين كبيرتين وذراعين طويلتين.

شعرت انه التجأ إلى الإسفلت هرباً من ضراوة المعركة العاصفة التي قامت من حوله. لم يكن في وسعه مثلاً ان يجد أرضية أنعم ليخىء وجهه. بدا مثل طفل تعرض للتوبيخ بعد ان قام بفعل سيئة وانكفاً إلى غرفته، مغلقاً الباب بقوة وراءه، وارتمى على السرير دافئاً رأسه في الحدة وكأنه يؤدّ إبقاء كل بؤسه، ومخاوفه وكرهه لنفسه فقط - كان هذا الجندي يدفن رأسه في الأرض الصلبة لأنه لم يكن هناك أي مخرج آخر، ولم يتبقّ مكان ليهرب منه، ولا مكان ليتوجه إليه.

الطريقة التي يمكن أن يكون قضى فيها هذا الرجل، أعادت إلى ذهني أمراً لا

علاقة له بالمشهد. فقبل بدء الحرب مباشرة، في ٥ كانون الثاني / يناير، مات قريب لي كان مصاباً بالصرع وفتياً جداً، في أواخر عشريناته. كان الأمر برمته متوقفاً. حوالي الساعة التاسعة صباحاً عجلت الخادمة إلى منزل عمتي حيثما كنت أقيم مغرورة العينين بالدموع. لم تتوقف عن ترداد اسمه والطلب مني ان أتوجه لرؤيته. أدركت ان شيئاً ما لا بد انه حدث لأنه مصاب بالصرع ويخضع لعلاج متواصل منذ تعرض لحادث سيارة. فكرت انه ربما أصيب بنوبة. لذا عجلت متوجهاً إلى هناك.

كان مدخناً مدمناً ولا بد انه حاول إفراغ رثييه خلال الليل من دون ان ينهض من الفراش. ربما أنقلب إلى جنبه الأيسر محاولاً إدراك وعاء القمامة البيضوي المعدني إلى جنب السرير ليصق فيه. وبينما كان يحاول القيام بهذا إنزلق عرضاً عن السرير وعلق رأسه داخل الوعاء. هكذا وجدوه.

كانت ردود فعل قريبي حادة جداً في مواجهته الأمور، كان صوته قوياً حين يتكلم. لربما اصابته نوبة لحظة ان علق رأسه في الوعاء. لم يستطع تخلص نفسه وقطعت الافرازات التي كان سيصقها تنفسه. مات مختنقاً ورأسه داخل الوعاء. حاولت ان أقدم له المساعدة الأولية نافخاً الهواء في رثييه، لكن الجسم كان بارداً. شكل الحافة البيضوي كان ترك أثراً على عنقه. كان وجهه مزرقاً ومرضوضاً، ولسانه أثنخ من العادة ومتدلياً. يدها مثلجتان وفي الوضعية نفسها التي كانت للجنة التي وجدتها على الاسفلت في المطلاع. يا لهذه من طريقة مريعة في الموت، أذكر اني فكرت بذلك مراراً وتكراراً، وحيداً، تماماً مثل الجندي العراقي عند عمر المطلاع. آخر صورة أبصرها من هذا العالم كانت التطلع إلى قعر وعاء القمامة. هكذا قال وداعاً. ذلك جعلني أفكر في موتي أنا. أود ان أموت خلال ممارستي الحب، أو أثناء نومي، بطريقة جميلة ممتعة، وليس بالطريقة هذه.

تحامل

حين أعطيت الشرطة المسجلة الخاصة بهذه المقابلة لمساعدتي فريال، كي تنقلها وتدونها، غضبت بشدة. فهل أنا أنوي حقاً استخدام الكلمات «تماماً كما هي»؟ رأيت انه ينبغي لها ان تبدل فيها بطريقة ما. مشاعرها كعراقية تعرضت للأذى، وكان إنطباعي انها تطلب الإذن لتغييرها فيما هي تعمل. وبالطبع أصريت على ان لا يتلاعب بها بأي طريقة. وعوض ذلك لماذا لا تكتب فريال مشاعرها، وهذا بالفعل ما فعلته. فما الذي أغضبها إلى هذا الحد في وصف خليل لسيره عبر عمر المطلاع؟

الرائحة. أثرت فريال وأهنت بصمت لأنها إعتبرت انه حتى «الاشخاص الكويتيون المهنيون وذوو التعليم الرفيع، يتهموننا نحن العراقيين بأن رائحتنا بشعة». ذكرتني بالنسوة الكويتيات اللواتي كن يدعون إلى الـ «سبكتروم انترناشيونال» في المحطة الإذاعية العربية في لندن التي أقيمت بعد إحتلال الكويت. كانت النسوة يتحدثن بإسهاب عن «الرائحة العراقية الكريهة» التي كانت منتشرة في بلدن، وإن التانة تصير أبشع مع إستمرار الاحتلال، ومصدرها «الغزاة العراقيون إياهم». كانت فريال مقتنعة بأن خليل لم يكن يتحدث فعلياً عن الجثث المهترئة أو الإطارات المحروقة، ولم يكن لمطلق شيء يمكن ان أقوله القدرة على تبديل رأيها. فهي أصرت على انه كان يتحدث «عتاً»، محملقة في. في الواقع كان يقول ان رائحتنا ننته. فهل أنا على دراية بواقع ان الكويتيين كانوا منذ الأزل يعبرون الحدود للفوز بنساء عراقيات في البصرة؟ وأن هدفهم الأوحده من الحجيء هو «البعث» مع النسوة العراقيات. مسائل كهذه راودت أذهان العديد من العراقيين إثر الغزو مباشرة، و شعر الرجال على الأخص ان شرفهم على المحك، وخصوصاً بعدما قال صدام في أحد خطبه، مبرراً غزوه: «العراقية الماجدة صارت بذرهم للكويتي»^(٨).

أذكر اني أحسست بالانزعاج نفسه الذي خالطني عندما كان خليل يخبرني عن الغائط البشري المنتشر حول النعجة الذبيحة نصف الملتهمة التي وجدها على سجادة صالونه في اليوم التالي للتحرير. ففريال كانت عانت من حكم البعث العراقي، ولم تكن ترغب في التعليق مجدداً على الأفعال الخفية التي راح رجاله يقومون بها. لكنها، رغم ذلك، أثارتها المقابلة. ومن الواضح ان أموراً كثيرة على المحك هنا، كثيرة إلى درجة أنها كبثتها عناء التمحيص في ذاكرتها بحثاً عن تلك الأشياء التي جعلت أولئك النسوة الكويتيات يقلن في البرنامج، وهي الإنطباعات التي تركزت عندها بسبب ما سمعته من الأصدقاء. لقد غضبت فريال جداً من مقابلة خليل إلى درجة انه لم يعد في إستطاعتها إنجاز العمل فيها.

إن رواية خليل عن الفظائع التي عايشها خلال أشهر الاحتلال السبعة، كشفت لي الرعب المريع الذي حل في العاصمة الكويتية على نحو لم تستطع أية صحيفة أو تحقيق تلفزيوني ان يفعله^(٩). لقد أخبرني، على سبيل المثال، قصة الأشقاء الثلاثة الذين إشتبه بكونهم أعضاء في المقاومة الكويتية بعد ان وجدت بحوزتهم تلفونات خلوية. أعدموا رمياً بالرصاص وتركوا في عرض الشارع مكسدين فوق بعضهم البعض ليكونوا عبرة للآخرين، وكنت سمعت قصصاً كهذه من قبل، لكن ليس بالطريقة التي كان خليل يرويها:

«صدمت أكثر ما صدمت بذلك الذي جاء موقعه فوق أخويه، كانت بشرته

شديدة السمرة، وقد غطت رأسه لطخة حمراء وبيضاء زهرية، غير انه لم يكن يوسعلك ان تعرف بالتأكيد مصدرها. في نهاية الأمر أيقنت انها، لا بد، من نزف دماغه البطيء. المشكلة اني لم استطع ان أنزع من رأسي التباين بين الأبيض الزهري ولون البشرة الأسود تقريباً، ذكرني بالحدود الوردية في لوحة لرينوار، وكيف انها تبدو باستمرار وكأنها سوف تقفز إليك من الخلفية. ولكن كيف في مقدوري ان أفكر بلوحة لرينوار في وقت كهذا! ربما فسر ذلك أمراً مخيفاً بشأني. لست أعرف».

ثمة علامة خبث تفسّست خلال الإحتلال البعثي للكويت، وهذه كانت أسوأ من قتل الكويتيين ونهب المنازل، وبعض إلتهاكات كان يعزى في النهاية إليها. تخيلوا الكويت وقد حل بها نوع من الطاعون الكريه، نوع لا يمكن رؤيته إلا أنه يفرز بخاراً يتأتى عنه الموت. وهذا كان يتسرب طالعاً من تفرحات مليئة بالقبح لم يكن أحد على علم بوجودها من قبل. والأمر الأكثر حقيقية في علامة الخبث هذه أنها كانت تنضج برائحة نتنة. فأحدى الروايات الإسرائيلية تتخيل جندياً سابقاً في المناطق المحتلة يعود من عمله ليجد أنه لا يستطيع ان يخلع عن نفسه الرائحة الكريهة التي كانت بدأت تنبعث من جسمه، لتصبح جزءاً متعذراً الاستئصال من تكوينه. «الرائحة الكريهة كستنا مثل غيمة ثقيلة منقضة على الحواس. كان من الصعب المكوث هناك... ربما هي جزء القسوة»^(١). والحقيقة في رواية كهذه ان الإحتلال - إن كان في الضفة الغربية لنهر الأردن أو في الكويت - كرهه الرائحة على الدوام.

حقيقة مشابهة لهذه توجد في ملاحظة تلك الرائحة النتنة الجديدة التي انتشرت في هواء الكويت بعد ٢ آب/ أغسطس ١٩٩٠. كانت الرائحة بشعة بشاعة غير إعتيادية، ونافذة إلى كل شيء. ثم تفاقم لتصبح غير محتملة أكثر فأكثر. النفايات في النهاية لم تكن تجمع، وكانت تتعفن باعثة خليطاً من الروائح العنصرية. جثث الكويتيين الذين قاوموا وألقي القبض عليهم - شأن الأخوة الثلاثة - كانت تترك مرمية على الطرقات، ولم يكن ثمة ما يمنع البكتيريا من العبث ببقايا أجسامهم، وهذا ما كان يعث، بالطبع، رائحة كريهة. كان العراقيون والكويتيون على حد سواء يتصبّون بشكل أغزر، وكانوا، من غير ذلك، يغتسلون أقل مما كانوا يفعلون قبلاً. كانت المياه في النهاية نادرة، واليابس الوسخة بقيت من دون غسل، فيما الكهرباء تأتي متقطعة، ومستويات الصيانة في منشآت تحلية المياه وتكريرها انخفضت كثيراً، بينما البترول الخام يضخّ إلى المحيط ويعود إلى المدينة عبر معابر غريبة. كانت الحياة البحرية تموت وتنحل.

إذن كان صحيحاً أن ثنائه روائح النفايات، والأسماك الكريهة الرائحة، والمياه القذرة، والأجسام المتعركة المتسخة المتعفنة، ملأت هواء الكويت برائحة منقّرة لاذعة، هذا ان لم نتحدث عن التأثيرات اللاحقة الناجمة عن احتراق ٦٠٠ حقل للنفط، والأطفال الذين لا يتوقفون اليوم عن السعال لاختراق المخاط المزوج بالسخام. وحقيقة المسألة، إن كانت جسدية مادية أو متخيلة وأدية تبقى واحدة: ان الإحتلال يتسرب إلى داخل الجسم. كانت رائحة الكويت كريهة تحت الإحتلال العراقي، وربما لن تعود أبداً كما كانت من قبل.

والإحتلال والحرب والطغيان والتمرّد تبقى كلّها أفكاراً مجردة ألى أن تعاش تجربتها. وهي يمكن ان تظل من غير تجسّد وإحساس إنساني حقيقي، حتى على الرغم من الإستذكارات الشديدة التأثير التي إستطاع خليل ان ينقلها بكلامه. فحقيقة الإحتلال العراقي الشاذة أربكتني أكثر ما أربكتني بعد ردة فعل فريال على مقابلة خليل، وأدركت ان صدق خليل الشكّره، وإنشغال فريال المهتاج بتحمل الكويتيين، لم يطل أحدهما الآخر. على العكس: فسر أحدهما الآخر، وكانت الرائحة المفتاح.

فالرائحة الكريهة توحى أن ثمة ما هو متّسخ، وهذا يجعله غير طاهر في نظر المسلم الممارس. ذلك أن الوضوء قبل الصلاة أمر إلزامي، والإغتسال التطهيري مفروض بعد المضاجعة، وخلال العادة الشهرية والولادة، وبعد الموت لدى التحضير للدفن. والمسألة ليست مجرد عادة صحيّة، بقدر ما هي حماية من الدنس. فحينما يرفض النظام العراقي ان يسمح بغسل أولئك الذين يعدّهم، بالطريقة الإسلامية، فإنه بذلك يلحق الخطيئة بتلك الأرواح في الأبدية. ولربما كانت التلكيف، وهي أقلية عراقية مسيحية كلدانية دعيت كذلك تيمناً بقربة تلكيف، المجموعة الأكثر إحتقاراً في العراق. فهم يدعون «النّزاهين» «منظفي البوالي» إذ الربط بين مجموعة مسيحية والثنائية والعمل الوسخ ليست مجرد صدفة في الثقافة الإسلامية. ومن جهة أخرى فإن العطور الغريبة وعلى الأخص العطور النفاذة الشذى والبخور، المرغوبة جداً في الشرق، تخدم الرائحة البشعة، هكذا، لتوحى بالنظافة والطهارة والورع. وحسب عادات الضيافة عند العرب، يتوقّع من الضيوف ان يصدروا على طاولة الطعام أصواتاً تعكس إعجابهم وتقديرهم، وتفرح إلى حد بعيد مضيفيهم، في حين ان التجشّؤ يعتبر ذروة الفظاظة أثناء الجلوس إلى طاولة غداء إنكليزية رسمية. إلا أن أمراً واحداً لا يُسمح بأن يقوم به رجل عربي أمام الناس، فيما يعتبر هذا الشيء في الغرب غير متعمّد وقابلاً للمسامحة، وهو الضراط.

أبشع ما يمكن ان يفعله إفراز جسدي هو إصدار رائحة كريهة. كانت فريال تنظر عبر

الحياة الظاهرة لبيولوجيا الجسم، وترى وراءها عالم المعاني الحضارية المعقد والدلالات الخفية. أما انا، من جهة أخرى، فكنت أصبحت غربي الأطوار إلى حد بعيد، وما عدت شديد الإعجاب بكامل اللغة الرمزية، القادرة على التمييز بدرجات عظيمة من الدقة، لتصل في النهاية إلى ربط أهمية الشيء بالرائحة التي تصدر عنه. ان ردات الفعل الجسمانية تجمع سلسلة كاملة من المشاعر المعقدة التي تدور كل الخاضعين للإحتلال، وكل المحتلّين على حد سواء: التبريرات المحقّرة، الهويات المهذّدة، الكرامة المجروحة، مشاعر الخجل والذنب، الرغبة في الثأر. وكلمات خليل المسجلة أثارت تحاملات مرتبطة بهذه المشاعر، لا مجرد العامل البيولوجي الخاص بحاسة الشم.

شعر وتحامل

بين كل المظاهرات التي كانت هزت (وسوف تهز) العالم العربي، لم يهتف شعار بعنف يفوق ذلك الذي يستهدف الملكيات والإمارات الخليجية. هذا ما كتبه منصف الموزوقي رئيس الرابطة التونسية لحقوق الإنسان. حتى حينما كانت الكويت تحت الإحتلال قال إن ٩٠٠ بالغة من كل العرب، بمن فيهم المصريين، يكرهون بعمق هذه الأنظمة الديكتاتورية والرجعية التي بذرت الثروات والشرف العربي، وعاملت المواطنين العرب باستمرار كمستغلين مكروهين. هذا الكره الشديد بالذات هو ما يفسر غزارة وشمولية المظاهرات المؤيدة للعراق، وعلى الأخص في المغرب العربي (المغرب، الجزائر، تونس، ليبيا) - حيث لا يفوق التهليل لصدام، الذمّ بفهد. ولدينا هنا أشد الأنظمة لا ديموقراطية ونكراناً لحقوق الإنسان، وتبتعد في ذلك إلى حد رفض حق المرأة بقيادة سيارة، وهذه تقع على مبعدة ذراع من الديمقراطيات الغربية النبيلة...^(١١). هذه الكلمات كتبها رئيس منظمة حقوق الإنسان الأكثر تطوراً والأجراً والاقدم في العالم العربي، حيث بلغ عدد اعضائها ٤٠٠٠ عام ١٩٨٩ (كان العدد ١٠٠٠ عضو عام ١٩٨٢) وتضم ٤٠ دائرة فرعية^(١٢).

بعيداً عن السياسة، كان إنعدام التعاطف عميقاً من قبل العديد من المثقفين العرب مع حالة الكويتيين خلال أزمة الخليج. «الكويت ليست مهمة»، هذا ما كتبه عبد الرحمن منيف وهو روائي عربي مهم لعمله الشهير «مدن الملح» الذي تدور أحداثه حول عرب الخليج بالذات، عرب الخليج غير المهمين برأيه^(١٣). آخرون دهبوا مقالات ليدذكروا كيف ان الكويتيين كانوا «مبذرين» و«فاسدين»، وان بلادهم «إختراع إمبريالي»، «رجعي»، وغير «شرعي تاريخياً»، على الرغم من ان هؤلاء الكويتيين بالذات ما كانوا بعد قد قتلوا تلك الاعداد الضخمة كما فعل العرب المعتبرون أكثر تحضراً في سوريا، العراق ولبنان

شهر بالكويتين وشخر منهم كما لو ان كل واحد من البلدان العربية في المنطقة كان أكثر شرعية وأقل فساداً.

إن «التحامل» هي الكلمة الوحيدة المناسبة لوصف شعور العديد من العرب حيال الكويتيين حتى حين كانت بلادهم تتعرض للغزو وتنهب^(١٤). وجذور هذا النوع من التحامل قديمة جداً في التقاليد العربية، وربما كمن أحد سبل التفكير بشأن منابعه في أنه أسلوباً وخطاباً، يمكن ان يبدل أهدافه من غير عناء بحسب الظروف. وأفضل الأمثلة عن هذا الأسلوب نجده في فن الهجاء، المخصص للطعن بشرف افراد أو جماعات إلى الأبد. وللهجاء، يفضل استخدام الشعر دون النثر، إذ الهجاء يرافق الحرب، أو أي نوع من الصدوع بين فريقين، وهو كان مكرساً بشكل واسع كنوع شعري رفيع الشأن بين قبائل العرب منذ ما قبل الإسلام. فأبو الطيب المتنبي (٩١٥ - ٩٦٥ ميلادية) والذي غالباً ما اعتبر أمير الشعر العربي، أعطى مثلاً شهيراً جداً في الهجاء في شكل هجوم قاس على كافور حاكم مصر الذي كان مرة عبداً، ثم أتبع ذلك بهجائية أخرى عن خنوع كافة المصريين. وعندما لم يهب الحاكم المصري الشاعر المفلس الذي ذهب يستعطي أمام بابه، ما كان يتوقعه، شعر المتنبي شعره ليحقق انتقامه، واضعاً، في أسلوبه أرفع مستويات النبل والنشأة التي يمثلها هو نفسه من غير انقطاع، في مقابل «الأسود المثقوب مشفره»، و«الأسود الخصري». فقد كان الخصري كافور حقيراً إلى درجة ان الموت ما كان ليكلف نفسه عناء أخذ روحه «إلا وفي يده من تنتها عود. من كل رخو وكاء البطن متفخ/ لا في الرجال ولا النسوان معدود»^(١٥).

هذا التقليد الشعري، الذي يقوم على الازدراء والسخرية والإهانة والشتيمة، والذي يهدف إلى تحقير سمعة ضحاياه وتلوينها في أعين مناصري الشاعر، استمر حياً في الخطاب الثقافي العربي الحديث، ومن ضمنه الشعر^(١٦). ولنأخذ مثلاً نتاج أكثر شعراء العالم العربي شعبية، نزار قباني، الذي هو ابن تاجر شاميّ ميسور، بدأ ينشر في أواخر الأربعينات مع النهضة الشعرية التي رافقت الحداثة في العالم العربي. لقد جهد قباني أكثر من معظم مجابليه لاستحضار اللغة الشعرية الكلاسيكية وتقريبها من العربية العامة، وأيضاً من العربية المكتوبة كما هي شائعة حالياً في الهلال الخصيب^(١٧). وقباني لديه الجمهور الأكبر بين جماهير الشعراء العرب، وهو يسعى إلى إحداث تأثير إنفعالي فوري في شعره، وغالباً ما يفلح في تحقيقه بطريقة ممتازة عبر اختيار الكلمات والجمل القصيرة والحادة والقاطعة.

قبل سنة ونصف السنة من غزو الكويت، كتب قباني قصيدة بعنوان «أبو جهل

يشترى (فلت ستريت). وتعبير «أبو جهل» يستحضر أيضاً «عصر الجاهلية»، عصر الجهل، وهي الجملة المستخدمة لوصف حالة شبه الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام. فقد استهدف قباني في قصيدته «البدو» الذين كانوا «يتسللون إلى قصر بكنفهام»، ينامون «في سرير الملكة»، ويستبدلون جمالهم بتلك الباصات «الجميلة الحمراء» في لندن التي راحت تباعاً تختفي. والقصيدة تجمع ما بين اللغة السهلة والعبارات المألوفة والكلمات الإنكليزية المعربة وصور الإحتقار الساخر على طريقة أسلوب المتنبي أما الصور الشعرية فمثمرة للعواطف ومتوترة باستمرار (مهزجون بدو في سوهو، أذنان دشدشاتهم الطويلة البيضاء تضرب مشعرة في الإتجاهات بينما يرقصون الجاز - صورة مرسومة بخمس كلمات فقط). والصفحات الأربع في النقد الساخر واللاذع للعرب الخليجين تختتم كالتالي:

أيا طويلَ العمر:

يا من تشتري النساءَ بالأرطال..

وتشتري الأفلامَ بالأرطال...

لسنا نريدُ أي شيءٍ منك

فانكح جواريك كما تُريد..

واذبح رعاياك كما تُريد..

وحاصر الأمة بالنار... بالحديد

لا أحد يُريدُ منك ملكك السعيد

لا أحد يريدُ ان يسرق منك جبة الخلافة

فاشرّب نبذ النفط عن آخره...

واترك لنا الثقافة... (١٨)

إن الشعر هو الشكل الفني الأكثر احتراماً وتطوراً عند الشعوب العربية، وهو يحتل موقع الصدارة في التراث الأدبي الكلاسيكي، والذي، إلى جانب الإسلام، يقدم الرابط الوحيد المستمر للعرب بماضيهم. وعلى الرغم من كل الصراعات القائمة حالياً بين العرب، فإن الإستحضارات الدائمة لهذه التقاليد في الأزمنة المعاصرة - إن أدبية أو دينية - أصبحت أساساً راسخاً في تأكيد الهوية العربية. فالجواب عن السؤال الذي يتتاب كل العرب - من أنا؟ - إتخذ شكل توجه نحو التراث - الإسلام - أو في حالة قباني، ثورة ضد

حقائق الواقع. فقباني يخبرنا أنه يكتب «كي أفجّر الأشياء»^(١٩). فهو يمتلك الحساسية الجروحة والغاضبة للشاعر البدائي المعاصر الذي يرى التاريخ عبارة عن تمرد مستديم وخيبة موجعة للقلب. وشعره الذي ابتدأ متمرداً، ظل على الدوام نضالياً رافضاً - فهو تأكيد للوحدة عبر الرفض بواسطة القدح والذم. ونتيجة لذلك غالباً ما منع هذا الشعر في البلدان العربية واندفع صاحبه إلى تبني مواقف جريئة علنية أمام الجمهور، خصوصاً في مسألة الحريات الجنسية، ضدّ تعدد الزوجات، ولنصرة حقوق المرأة.

لكن نزار قباني، من جهة أخرى، هو إلى حد بعيد شاعر منبري - والمنبرية ظلت على الدوام أثيرة لدى العرب - يقذف جمهوره بالكلمات والأصوات لا بالمعاني. إنه موهوب بالأشكال الشعرية وبالإيقاعات، لا بالأفكار. وهذه المزية حين تتضخم تتحول لتصبح عيب الشاعر الأساسي، وتصبح ثابتة التقليد الثقافي - السياسي الحديث الذي يمثله على أوضح ما يكون. وهكذا يصبح قباني ضحية تقاليد لغته الخاصة، ومرة لكل ما لم يعد يستأهل الحفظ من التراث، في رأيي. فهو، مثلاً، يعتقد انه ناثر، لكن كل ما يقوم به في الواقع قذف الشتائم في الريح، وإعلان غضبه من غير ان يقدم أية أسباب، أو تبريرات أو قرائن ثقافية. ففي زمن كان العرب يرغبون فيه بتسييس شعرائهم لينتقموا بهم وبشعرهم من العالم الخارجي، كان قباني يفي بالفرص بامتياز، فيكتب ضد السعوديين، في حين ينشر كتاباته في صحفهم.

والواقع أن ما يقوله لم يعد مهماً، لأن الموضوع لم يعد فعلياً: الصهيونية، الإمبريالية، المسألة الفلسطينية أو الملوك المقلّبين أو رؤساء العالم العربي. إنه السخط الدائم الذي لا تشوبه الأفكار للشاعر نفسه.

مشكلة الثقافة في العالم العربي كونها بقيت بين أيدي شعراء كنزار قباني. قابلوا أسلوبه برواية خليل عما شاهده وكيف كانت رائحته، وردة فعل فريال على كلماته، فالوصف الحادّ، الواضح والتأملّي، وردات الفعل الشخصية المحددة الهدف لدى خليل وفريال، مفتقدة في الكثير من الشعر العربي المعاصر. بين الأسماء الشهيرة في الأدب العربي يندر الوقوع على من هو مستعدّ للقيام بهذه المهمة، فيما لا تُعتبر التدايعات البصرية الدقيقة والدووبة مشروعاً شعرياً حقيقياً بالنسبة لشاعر حائق ورفضيّ مثل نزار قباني. أما الشتيمة، والتنميط والتعصب الأعمى، فحاضرة وجاهرة على الدوام لأن تكون كذلك^(٢٠).

اللعين في الأمر ان ثمة على الدوام نصف - حقائق في أعمال التنميط. والأنكى ان الجميع يستخدمها. فالأميركيون السود استخدموها ضد الأميركيين الكوريين خلال

شغب لوس انجلوس، تماماً كما كان يفعل الأميركيون البيض بالسود طوال قرون. والعرب والإسرائيليون تراشقوا بها على الدوام. فواقع وجود أقصى طرفي الثراء والعوز، ونمط حياة حديثي الثراء المتهتك لدى العديد من العرب الخليجيين جعلهم هدفاً للاستياء.

لست أحاول إنكار البديهي الذي في جزء منه يساعد على تفسير سبب بقاء الظاهرة كما هي بالفعل. فما من مطلق عربي، وأنا واحد منهم، يرغب بالتحدث عن تلك الأمور البشعة مثل التمييز العنصري والعداء للسامية والسخرية من شعوبها أكملها. ومقارنة بالمشاكل الأخرى التي يعانيها هذا الجزء من العالم، يبدو الانشغال بهذه الأمور هامشياً وغير أساسي، غير ان المصداقية الأخلاقية العروية - كيفما نُظر إلى معنى تلك الكلمة - والرغبة في قيام عالم عربي أقل عنفاً وأكثر تسامحاً هما على المحك. فزمام الظاهرة أفلت اليوم كلياً، كما تظهر ردة فعل أكثرية العرب ضد ما فعله صدام في الكويت، والعرب مدعوون اليوم قبل أي كان لاتخاذ موقف ضد القوبلة العنصرية المتفشية في كل مكان بينهم، تماماً كما يجب ان يكون المثقفون السود في مقدّم النضال ضد العداء للسامية بين السود^(٢١).

إن التعصّب الأعمى عند مثقفين عرب بارزين مثل قُباني يعقلن ويترّ الحسد الضيق الأفق، ويعمل على تحويله في النهاية إلى شيء ينذر بسوء أكبر. فهو يتغذى من قلق الأزمنة، ليهاجم مثل جرثومة قاتلة، الجسم السياسي كله، بالضبط عندما يكون هذا الجسم في أقصى حالات وهنه خلال الأزمات. فقد كان حجم التحامل الذي أطلقه صدام حسين ضد الكويتيين ابان حملته في ٢ أيلول/ سبتمبر ١٩٩٠ مخيفاً بالفعل، ويدل على تردّد حضاري عميق الجذور. ثم ان هذا هو ما يراه المرء في كل مكان من العالم العربي. فهو يستطيع ان يراه مثلاً معكوساً، في موقف الكويتين بعيد التحرير حيال الفلسطينيين، وعند اللبنانيين حيال السوريين، وعند السنة العرب حيال الشيعة العرب إلخ. فقُباني نفسه وقف مع شعب الكويت إبان محنته (بخلاف أكثرية المثقفين العرب)، غير ان المواقف السياسية ليست ما أحاول تناوله هنا، على أن تتم العودة إليه في القسم الثاني من الكتاب.

فوقفة قُباني السياسية النبيلة خلال الأزمة تلقي ضوءاً قوياً على المسألة التي أحاول التركيز عليها الآن بالذات: وهي واقع ان لغته - ميزات أسلوبه تحديداً ونوعية الصور التي أمضى حياته وهو يتقنها - قد خدمت في النهاية هدف تسعير نار تيار التعصّب والتحامل في العالم العربي. وخفايا الأنواع الغريبة من الأهوال التي بعثها الإحتلال العراقي للكويت، وكما يدلّ مثال قُباني، ترقد مختبئة في مكان ما داخل عالم الحساسيات الطيفي الذي صار يمثله داخل الثقافة حتى رجل كقُباني.

خليل، من ناحية أخرى، واحد من أولئك العرب الخليجيين «غير المثقفين»، الافظاظ، الذين كتب قبانى عنهم. انه لم يتحدث إلّى، باسم الثقافة والشعر. بل كان يخاطبني ككائن بشري عاديّ شديد الحساسية لتلك التفاصيل الميكروسكوبية التي ترسم مجرى الحياة وأحاسيسها. وعلى نحو ما تعاش حقاً، أخبر قصّته كما جرت، والطريقة التي قصّها كانت موافقة لأحاسيسه الخاصة. فخليل وfriال، على حد سواء، أحسا العالم حولهما بكثافة وعمق، وتفاعلا معه بحسّية عميقة. لقد شكّ كلاهما وأثرت فيهما رائحته التنتة. وربما تبادلوا اللوم بشأن تلك الرائحة، ولكن تلك مسألة أخرى، غير أنهما على الأقل كانا يفقهان ما الذي كان مهماً، وما الذي لم يكن.

أما الشعراء من أمثال قبانى فما عادوا على صلة بعالمهم بالطريقة هذه إتماماً. تأملوا هذا المقطع من قصيدة مكتوبة خلال فترة حرب الخليج بعنوان «لا بد ان أستاذن الوطن»:

اريدُ إن أراك يا سيّدي

لكنني أخاف أن أخرج إحساسَ الوطن

اريدُ ان أهتفَ كل ليلة، إليك يا سيدي

لكنني أخاف ان تسمعي نوافذَ الوطن.

اريدُ ان امارسَ الحبّ على طريقي

لكنني... أخجل من حماقتي

أمام أحزان الوطن... (٢٢).

أختار هذه القصيدة بالذات بسبب غموضها إزاء ما يتعلق بمسألة الساعة، حرب الخليج، التي كانت تلوح بينما كانت تُكتب القصيدة. وليس في وسعك ان تحزر معتمداً على ما في القصيدة، إن كان قبانى مع الحرب أو ضدها. فالقصيدة تنتقد الحالة العامة للأمور من غير ان تسمي تفاصيلها أو تعيّنّها، فهي تتجاهل كل الحدود وكل القضايا المسببة فعلياً للشقاق والتي كانت تمرق العرب وتفكّكهم إبان كتابة القصيدة. فموطنها هو العمومي لا الملموس. انها منشدة إلى مزاج، إلى شعور بالقنوط، بالإجثاث، بالتحطّم والقلق، وبالخسارة الشاملة. وهذه كانت كلها مهيمنة في ذلك الوقت. ثم تتطوّر النبرة لتصبح كريهاً، يأساً وحتى إشمتزازاً، ليصل الشاعر، في النهاية، إلى هذا السؤال، «فهل نكونَ [نحن العرب] كذبة كبيرة؟»، والجواب الضمني لهذا الإستنتاج هو نعم، نحن كذلك. لماذا نحن كذبة كبيرة؟ لأننا تورطنا في هذا المأزق، مأزق أزمة الخليج.

غير أنني لست مهتماً بهذا الاستنتاج بدرجة إهتمامي بحقيقة لافتة، وهي ان الشاعر يتابع مفسحاً المجال للكذبة تملي عليه مصطلحات خطابيه. وهو يأبى صرفها من ذهنه، إذ هي، في الواقع، تزوده بأجندته فنية. وفي الإمكان الاستنتاج أيضاً ان الشاعر إختار الكذبة على الحياة - الحياة كما هي ممثلة بالمرأة التي يحبها والتي يتوجه إليها في القصيدة. فهو ليس في مقدوره ان يرى هذه المرأة، أو أن يستنجد بها أو حتى يضاجعها، وهي لحم عواطفه ودمها، إذ ثمة شيء آخر، شيء خارق، يحوم على الدوام فوقه، ممسكاً بإياه، دافعاً به إلى الارتباك. وذلك الشيء هو «الوطن»، أو كامل بلاد الشاعر العربية، التي ضاق ذرعاً هو نفسه بها، وهي التي ينتهي به الأمر قرفاً إلى تسميتها «الكذبة». ويرغم ذلك تبقى الكذبة - والقلق الناجم عن اضطرابه لأن يعيش كذبة - في صدارة وعيه، ويصبح الأمر الأهم حقيقة ان الشاعر لا يستطيع أو لا يرغب في التخلص من الكذبة. لقد أصبحت الكذبة جزءاً منه.

يرغب الشاعر في أن يرى، في أن يستنجد، في أن يمارس الحب مع السيدة التي يخاطبها في القصيدة، لكنه لم يعد يستطيع القيام بذلك. وبالفعل يتابع في القصيدة نواحه قائلاً: «هذا زمانٌ النثر يا حبيبتى... فما به شعر. ولا حب. ولا غيم. ولا أمطار...» ومن ثم فالعالم «بلا رائحة» أيضاً في عرفة، لكن المشكلة بالطبع تكمن في ان للعالم رائحة وانه، هو، هارب منها. بيد أن خليل، وأبا حيدر وفريل يعرفون انها رائحة كريهة أحياناً، وكلماتهم - التي تقال نثراً - تشرح لنا أهمية وجود الرائحة.

فالحياة الحقيقية كما عاشها على الأرض رجال مثل خليل وأبي حيدر، وكما ابصرها بعيونهما، وكما سمعها، واختبرها باللحم والدم، بكل مصائبها ومحنها، يضعها، كلها، قباني جانباً، وهو يفعل ذلك ليستأنف صراعه مع الفكرة المجردة «الوطن»، أو الموطن أو الأمة العربية. ولكن وطن من هذا الذي نتحدث عنه؟ أهو وطن صدام حسين، أم وطن أمير الكويت؟ أو لربما حتى حافظ الأسد أو حسني مبارك؟ قد يرتعب نزار قباني لمجرد فكرة ان أياً من هؤلاء الأشخاص يمكن ان يمثل «وطنه». ف «وطنه» ليس العراق أو الكويت، ليس حتى سوريا، وهو ليس بالتأكيد مصر. ان «وطن» قباني فكرة رومانسية تقف جامدة بلا حراك تحلق فوق زعماء سياسيين يحكمون بثقلهم كله وابتذالهم كله. وتلك الرومنسية وذلك التعليق لواقع المرء الذاتي، هما منبع قسوة الشاعر تجاه المرأة التي يحبها. وفي النهاية، فان تلك القسوة هي شائبة هذه القصيدة ومشكلتها. ففي آخر المطاف حتى لو كان قباني يرفض كل القذارة التي تحيط به، فهو لا يخاطب مشكلتي خليل وأبي حيدر. إنه، عوض ذلك، يقلل من أهمية الحياة كما تعاش، بكل تناقضاتها الخفيفة ومصائبها الكارثية، من أجل الكذبة الحلوة، من أجل اسطوره المطمئنة التي في «الوطن».

وسيرة قُباني كشاعر تتناغم مع هذه القصيدة. انها تتناغم حتى مع قصيدة لاحقة كتبت في نيسان/ أبريل ١٩٩١ وهاجمت هذه المرة، صدام حسين مباشرة، بلغة ممعنة في سخريتها وقسوتها حتى أقصى حدود التخيل. وقصيدة نيسان يحمل عنوانها «هوامش على دفتر الهزيمة»^(٢٣) إشارة مباشرة إلى قصيدة أخرى مشهورة جداً ومؤثرة كان كتبها قُباني بعد حرب ١٩٦٧، «هوامش على دفتر النكسة». لكن الأمور ازدادت سوءاً منذ ذلك الحين لأن النكسة تحولت إلى هزيمة. من نكسة في ١٩٦٧، إلى هزيمة كاملة في ١٩٩١. غير انه لم تتغير أمور كثيرة في غضون ذلك، وعلى الأخص أساليب الكتابة والتفكير العربية الخاصة بسنة ١٩٦٧، إذ القصيدتان تحمل واحدتهما في زمن الأخرى، وفي هذا الواقع تلتخص اخفاقات جيل بأكمله.

في نيسان/ أبريل ١٩٨٤، كتب قُباني رسالة مهمة إلى من ليس سوى صدام حسين. الرسالة نشرت بخطّ يده شخصياً في المجلة الدورية العراقية «ألف - باء». فقد كتب أكثر الشعراء شعبية في العالم العربي، وهو سوري غير مقيم في بغداد وليس لديه مطلق التزام تجاه النظام العراقي، هذه الكلمات:

«لقد جئت إلى بغداد مكسوراً... فإذا بصدام حسين يلصق أجزائي... وجئت كافراً بممارسات العرب... فإذا بصدام حسين... يردّ إليّ إيماني... ويشدّ أعصابي... وهكذا... أعود من بغداد وأنا ممتلىء بالشمس... والعافية... فشكراً لصدام حسين... الذي قطّر في عيني اللون الأخضر...»^(٢٤).

والأخضر بالطبع هو لون الإسلام. أما الرسالة التي يعود تاريخها إلى ٢٥ نيسان/ أبريل ١٩٨٤، فكتبت حين كانت الحرب العراقية - الإيرانية قد دخلت سنتها الرابعة. كانت تلك الحرب وراء كل ما في زيارة قُباني.

إن الناس، في أي حال، يدلون آراءهم. هذا هو البرهان على حرّيتهم، وما من خطأ في ذلك. بيد أنني أعتقد ان صدق نزار قباني عام ١٩٩١ كان موازياً لما كانه في ١٩٨٤، وأيضاً لما كانه في ١٩٦٧. ولست أحاول تسجيل نقاط مبتذلة بل أحاول إدراك قضية أكبر تنشأ من ملاحظة انه على الرغم من أن كل شيء يتبدّل، يبقى مع ذلك ثمة ما هو غير متبدل في القصائد نفسها، والمشكلة تكمن هنا، تكمن في ذلك الثابت في العمل إياه، لا في المواقف السياسية التي تبدل كثيراً في الشرق الأوسط.

فحرية قُباني في شجب السلطة، في الشكوى من سقوط عالمه، تتابها الأشباح. وهذه الأشباح تحضر في هيئة الصور التي يستخدمها، وليس في الأفكار التي يوافق عليها أو يرفضها. فالأفكار، مثل شؤون السياسة بشكل عام، تتقلب باستمرار، غير ان الصور

المجازية وما تثيره في عقول القراء تبقى كما هي. المشكلة إذن في هذا الأسلوب، لا في الموقف الإيديولوجي. انها مسألة لغة، وأسلوب كتابة تلك اللغة التي تدل على طريقة تفكير ومن ثم على طريقة قراءة. فالمرء يتباه شعور بأن قصائد قبتاني هي الإستماتة الأخيرة كي يسترجع، بواسطة الفن، ما سلم بخسارته من غير إكراه في السياسة. فهي، إذن، تعمل بموجب القاعدة الإجرائية نفسها التي للسياسة المرفوضة من قبلها. إنها تطالب بالحزبية الجنسية وتحريم المرأة، ولكنها لا تتخاصم على سبيل المثال مع مبادئ التقاليد المسلم بها كالشرف والعار، وما يؤلف السلوك الموصوف بالرجولة، أو الموصوف بالجن. وهي، عوض ذلك، تعمل من خلال تلك المبادئ، ومن خلال الحنين إلى الماضي والغنائية المفرطة والرومنسية والرفضية. وقد كان هذا أسلوب الشاب مهشيل عفلق، المؤسس الأول لحزب البعث، في أواخر الثلاثينات والأربعينات. فلفلقت رفض المنطق كأساس لعرويته، واستدعى بدل ذلك قوى «الإيمان» و«الحب». والغريب أنه مهما كان الغرض السياسي في قصيدة مثل «لا بد أن استأذن الوطن»، فإن أسلوبها الرومنسي المزدان بالزهور هو بالذات أسلوب البدايات البعثية.

الحق أن شعر قبتاني في التبجح والتشاؤمية المساوية التي تجد في القلق العميق تنويعها، يروق لجمهور غير متبلور ومتقلب وغير واثق بنفسه. انه أسلوب يروق لـ«الجماهير العريضة» التي بلغت سن دخول السياسة بعد الحرب العالمية الثانية. فهذا ليس شعراً مصنعاً من أجل جمهور عصري مثقف متفرد الشخصية، وليس مبنياً في موازاة استقرائات متنافسة ومتفاعلة ذوات ذائقات وحساسيات متطورة. فالحقيقة ان استقرائية ثقافية من هذا النوع هي بالكاد موجودة كقوة متماسكة في المشرق (مجموعة البلدان العربية شرقي مصر). إنها مسجونة في عزلة خانقة أو متشظية ومبعثرة في المنفى. وهذه النخبة المثقفة أتمت استقلاليتها في المشرق كله نتيجة لإتحاد الطغيان والقبيلة والفساد، وهذا على الرغم من ان عدد المثقفين العرب الرفيعي الثقافة بات يفوق اليوم العدد الذي كان في الماضي، فيما يتوزع هؤلاء المثقفون العرب على سائر البلدان العربية.

وخليل من هذا الصنف من العرب. إنه كويتي لا تطابق حساسياته التنميط العام للعربي الخليجي، التنميط الذي لا يفارق أحاسيس مثقف عربي كوزومبوليتاني ومتطلع إلى الغد مثل نزار قبتاني. فالأسلوب الرومنسي أو البطولي في الثقافة العربية المعاصرة، كما تمثله قصائد قبتاني، هو محاولة لتوحيد ثقافة الفكر مع أحاسيس الجماهير، وليس مع أحاسيس عربي عصري مثل خليل. لكن في أعقاب جبل الجثث التي خلفتها الحرب الأهلية اللبنانية والثورة الإيرانية والحرب العراقية - الإيرانية وحرب الخليج، لم يعد ممكناً

وجود رومانية أو بطولية زائفة في العالم العربي، فهناك فقط ميراث من الألم وهذا ما ينبغي ان تثبت به اللغة الجديدة، وبأسلوب جديد. إذن، فيما يكتب مثقفون مثل قتيبي أشعاراً ينوحون بها على رحيل الشعر من عالمهم، يتحدث إلينا أشخاص مثل خليل وأبو حيدر بلغة مندمجة بالعالم الذي حولهم محوّلين كلامهم إلى نوع جديد من الشعر.

من هو خليل؟

خليل شاب كويتي يقرأ بكثرة وسعة باللغتين العربية والإنكليزية. انه فضولي، حاد الملاحظة ومنفتح على العالم الخارجي انفتاحاً يصعب العثور على مثله بين مثقفي المشرق هذه الأيام. بدا واضحاً أثناء حديثنا ان علاقته بأحاسيسه أصبحت أكثر تطوراً، وصار أشد إحساساً بذاته، في سياق الاحتلال العراقي. وهو، بالتعلم، أجاد الرياضيات، كما أنه فنان بالملكة. لكنه، مهنياً، مصرفي، تستي له، عبر تجربة الإحتلال، أن يتعرف إلى جسده وطاقات هذا الجسد أفضل من أي وقت سابق.

«انخفض وزني ١٥ كيلو غراماً خلال الأسابيع الأولى من الإحتلال. خلال الأشهر السبعة كانت تعمل في داخلي أحاسيس عنيفة. الحاجة الجنسية تضاعفت عشر مرات ربما عما كانته من قبل. في ٢٦ شباط/ فبراير ١٩٩١ يوم تحررت الكويت خبرت، في وقت واحد وبدرجة متساوية ومرتفعة الحدة، أحاسيس جديدة أخرى في: السعادة، الغضب، الإنتقام، الحزن، الكراهية، الخفة، البهجة الزائدة، ولا أعتقد انه سيحدث لي مستقبلاً، بما سأشاهده من تجارب، أن أعيش لحظة تزخر باختلاف الأحاسيس وكثافتها، على نحو ما خالطني في ساحة العلم خلال ذلك اليوم، اليوم الذي لن أنساه ما حييت».

إسمه الحقيقي هو خالد ناصر الصباح وليس خليل. خليل كان اسماً مستعاراً استخدمه خالد ابان الإحتلال، وهو عمل على تزييف أوراق هويات عدة ليخفي حقيقة انه أحد أفراد العائلة الكويتية الحاكمة. وإذا حكمنا عليه انطلاقاً من إسمه الحقيقي، فإن خالد يمثل العربي الخليجي المثالي الذي نمطه زرار قتيبي. إذ لا يوجد ما هو أثمن من فرد في العائلة الحاكمة يؤخذ رهينة عند النظام العراقي أثناء الاحتلال. وللمفارقة نجح خالد خلال الأيام التي أعقبت آب/ اغسطس، لتجنبه استخدام اسمه الكامل، مفضلاً ان يحمل أوراق هوية باسم خالد ناصر وليس خالد ناصر الصباح. «لأنني لم أرد إظهار ما يميزني»، كما قال لي.

ولكن كان في المسألة أكثر من ذلك. فخالد المناضل السياسي اليساري أثناء دراسته

الجامعية، نشأ مثل معظم أبناء جيلي، على أسس العواطف الرومنسية حيال منظمات حركة المقاومة الفلسطينية ما بعد ١٩٦٧. كان لديه الكثير من الأصدقاء الفلسطينيين الحميمين، وكان يعمل هكذا مع منظمات طلابية عربية في حملات التضامن مع الفلسطينيين بينما كان يدرس في الغرب، تماماً كما كنت أفعل قبل عشر سنوات. ولا يقوم المرء بهذا النوع من الأعمال في الوقت الذي يعلن فيه انتسابه، بالاسم، إلى عائلة مثل عائلة الصباح.

عام ١٩٨٣ حصل خالد/ خليل على نسخة من «جمهورية الخوف» وذلك بعد وقت قليل من نشره، فقرأ الكتاب ومزّره إلى أصدقائه مدرّكاً أن كاتبه عراقي يستخدم اسماً مستعاراً هو سمير الخليل. فقط حفنة من الأشخاص إهتمت بالكتاب آنذاك. وعندما طافت دبابات النظام العراقي داخل مدينته في ٢ آب/ أغسطس ١٩٩٠، أدرك، مثل آلاف آخرين، أن مسألة بقائه على قيد الحياة تتوقف على السرعة التي يمكن أن يزور بها هوية جديدة. كان يسهل اكتشاف هوية خالد. لذلك توجب عليه أن يفعل شيئاً بشأن اسمه. ولم أتوقف عن التفكير في الاسم الذي يجب أن اختاره. لم أكن بصدد استخدام أي اسم قديم. في النهاية قررت أن يكون خليل هو الاسم الأول. لم يكن بوسعي استخدام سمير الخليل بأكمله، رأيت أن ذلك سيكون لافتاً ومثيراً للاشتباه. ذلك كان بالنسبة لي علامة لإحتجاج. «لنني أعتزّ بإختيار خالد وأعتبره الإطار الأهم الذي قد يوجه إليّ لشيء فعلته.

إن المثقفين العرب الذين يشتهرون في كتاباتهم وعواطفهم بـ «اقطاعية» و«رجعية» الخليجيين العرب أمثال خالد، وبالابتكارات «المصطنعة» «الإمبريالية» مثل الكويت، هم أنفسهم المسؤولون عن رفع «الفلسطنة» إلى الموضوع الأسطوري للضحية في الثقافة العربية. فالفلسطينيون لم يعودوا أناساً حقيقيين في الخيالة العربية، لقد تحولوا إلى رموز للمعاناة العربية في كل أشكالها المتنوعة. فما من عربي آخر بلغت المعاناة به ذلك القدر، وهكذا تكون كل أنواع المعاناة الأخرى - العراقية، الكويتية، الكردية - في مرتبة أدنى. ولسوف أعود إلى ظروف هذا النوع من صناعة الاسطورة لاحقاً في هذا الكتاب. إلا أنه بعد ٢ آب/ أغسطس ١٩٩٠ وخلال الإحتلال على الأخص، عبر الفلسطينيون في الأردن والضفة الغربية، فعلاً وسلوكاً، عن هذه الأسطورة، إذ وجدوا خلاصهم في شخص صدام حسين، حتى أن بعضهم داخل الكويت تعاون مع النظام العراقي بهدف «تحريرهم». وهذا الحدث خلف طبقات جديدة من التحامل والعداوات المكتوبة، لا يزال العديد من الناس وبخاصة الفلسطينيين، يدفعون ثمنها حتى الآن، إنه ثمن ولادة نوع جديد من التنميط: الفلسطيني كمتعاون.

لكن الحياة الحقيقية على أية حال أكثر تعقيداً دائماً. فقد أخبرني خالد ناصر الصباح هذه القصة عن سائق صهريج مياه فلسطيني لا يعرف إسمه، إلا أنه ربما أنقذ حياته. وكان الاحتلال في شهره الأخير وكانت حرب الخليج في مراحل تحولها الأخيرة:

«توجهت لأحضر بعض الماء. كان هناك نقص في الماء فظيع. كان سائق الصهريج فلسطينياً. بدا رجلاً ورعاً لأنه بدأ فجأة يصلي وسط الطريق. كان ذلك قبل أسبوعين من التحرير. قال لي الرجل: «أرجوك عد إلى الداخل الآن فوراً. لا تخرج ابداً إلى الشارع». سألته لماذا يقول هذا. «سمعت ان الجيش العراقي تلقى أوامر بالقبض على كويتيين شبان. انت ستناسب طلبهم. لا تخبر أحداً أنني قلت هذا». اكتشفت لاحقاً ان ما قاله الرجل كان صحيحاً إذ ألقى القبض على صديقي حمود نهار ٢١ شباط/ فبراير».

خالد، كما تذكرون كان قد توجه عابراً ذلك الممر الرهيب في المطالع لبحث عن صديق طفولته حمود.

أما حنان، وهي أيضاً فلسطينية، وشابة ولدت ونشأت في الكويت، فوقفت كذلك إلى جانب خالد، وحتى بطريقة أقوى. فثناء الذعر الذي رافق بداية غزو صدام حسين، لم تتوقف حنان عن تذكر قصص جدتها في ١٩٤٨ وهي تتسلق الهضاب في فلسطين، أو تنحدر عنها هرباً من «الهاغانا»، الجيش السري اليهودي - حاملة إبنتها أو والدتها حنان^(٢٥). تلك القصص شدت من عزميتها، لأنه عندما أراد خالد الذي كان مغرمًا بها ان يعرف ان كانت ستهرب من الكويت، كانت أول فكرة خطرت لها هي: سوف لن يجبرني الجيش العراقي على الفرار. ومثل خالد، كانت حنان فلسطينية خارج كل أنواع التمييز، تزايد تعلقها بالكويت، وبخالد، مع الاحتلال. «لأول مرة في حياتي، شعرت ان هذه بلادي. في أيام الاحتلال الأولى، كنت في حالة عشق خالص مع المكان. لم يكن ليخطر لخالد البتة ان يغادر، ويوماً بعد يوم كان في وسعي ان أراه يتحول إلى خليل. شعرت الفلسطينية التي في داخلي بتماء عميق مع حال الأرض المغتصبة، وبحب خليل في الوقت نفسه. ذلك الحب جعلني قادرة على فعل كل شيء».

وفي ظل الاحتلال، تشارك الإثنان في كل شيء، ومزقا حواجز التمييز المبنية على الجهل والإنعزال. قالت لي «كان مذهلاً ان نكتشف كم يجهل الكويتيون والفلسطينيون المقيمون في الكويت بعضهما بعضاً، على الرغم من اننا عشنا معاً طوال عقود. وجدت تفسيراً جريئاً لهذا في الشعور بالهوية القوي عند الفلسطينيين الذي يجعلهم يتمسكون

ويخلصون لـ «جنسهم» الخاص حيثما توجهوا في الشتات. وجدته أيضاً في واقع ان المجتمع الكويتي مغلق جداً. خلال الاحتلال، عندما تضاعف عدد السكان بسبب الهجرة الجماعية إلى خارج البلاد، كان لفقر الاتصالات وتجارة الشائعات أن يجعل الأمور أسوأ.

في تشرين الثاني/ نوفمبر غادرت عائلة حنان الكويت إلى غير رجعة. لم تعد الكويت موطن العائلة، لكن توجب على حنان العودة مرة واحدة أخيرة» كما قالت، «كان قلبي هناك. كان عليّ ان أهرّب أقنعة واقية من الغاز لخليل وعائلته. إستطعت الحصول على أربعة، له، لعمته أحمد، لعمته سارة، ولشقيقه عبدالله. خبأت الأقنعة تحت ثيابي وفي صندوق الثلج مع طعامي. وعندما طلب الجندي العراقي من الركاب الخروج من الباص والوقوف في صف للتفتيش، أصبت بالهلع، لكن لحسن الحظ لم يقوموا بتفتيش شامل». معرضة نفسها لمخاطر جسيمة، سافرت وحدها عبر الأردن وجنوب العراق الممزق بالحرب، ونجحت حنان في تهريب الأقنعة إلى داخل الكويت، «وأول ما فعلت كان الإتصال هاتفياً بخليل. لحظة سمع صوتي إنفجر بهجة وإنفعالاً. لم أستطع ان يصدق أنني عدت. تبادلنا رسائل شغرية عبر الهاتف، كما كنا نعودنا ان نفعل من قبل. آخر مرة رأيته فيها كانت في ٣١ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٠. قدم لي زهرة بقيت معي طوال طريق العودة إلى عائلتي، وما زلت احتفظ بها مضغوطة في كتاب».

لكن بعد تحرير الكويت، لم تعد الأمور هي نفسها بين خالد وحنان. كلاهما تبدّل أثناء الإحتلال، وهما ظلّا يتغيران من بعده. جعل واحدهما يلقي اللوم على الآخر في ما آلت إليه الأمور. تفاقم غضب خالد وسخطه تجاه أولئك المقيمين الفلسطينيين الذين شعر أنهم أيدوا الإحتلال العراقي وخانوا الكويتيين في ساعة الشدة. لقد خانوه. حتى عند الأكثر تفهماً بين الكويتيين لم تعد هناك مطلق رومسية في ان يكون المرء فلسطينياً. مشاعره في هذا الخصوص فاقت إلى حد بعيد تلك التي أظهرها تجاه العراقيين المحتلين السابقين لبلاده. تحدث عن أبي حيدر مثلاً (أياً كان يمكن ان يكون) بعاطفية وفضول حين رخل الكويت بشكل مؤلم بقايا الفلسطينيين المقيمين فيها، إنقاماً من تعاون بعضهم مع الجيش العراقي، اكتشفت حنان مجدداً، من جهتها جذورها الفلسطينية، ووصلت إلى إستنتاج مؤاده ان وطنها الوحيد والحقيقي يقع مستقبلاً في دولة فلسطينية.

«مع تحرير الكويت، والأمور المخفية التي بدأ الكويتيون يفعلونها بالفلسطينيين، شعرت أن قصة خليل تصل إلى نهايتها بالنسبة لي. حين إتصل بي خالد في صيف ١٩٩١، تماماً بعيد مغادرته الكويت للمرة الأولى، رأيت رجلاً أكثر

تصميماً على الإنتقام منه على الحب. وتولدت لديّ قناعة، صائبة كانت أم مغلوطة، بأن خالداً قتل خليلاً الذي أحببته بصدق».

بسبب مختلفة إكتشف كل من حنان وخالد/ خليل من كانا كنتيجة لما فعل صدام حسين بالكويت. إكتسبا هذه المعرفة بشكل مؤلم، بوسائل عنيفة، والإثنان تأذيا في نهاية الأمر من جزائرها. لكنهما، في أي حال، إكتسباها، والمعرفة أعادت تشكيلهما من جديد.

كان خالد، لا خليل، من بحث عني في لندن لدى زيارته الأولى إلى الخارج بعد تحرير الكويت. كان النهار حاراً وتحديثنا طوال ساعات. بعدما انتهينا، طلب مني ان أوقع إهداء على نسخته من «جمهورية الخوف». كتبت بالعربية: «من خليل إلى خليل آخر، إلى خالد ناصر من كنعان مكيّة». قرأ الإهداء فيما كنا نتوجه نحو الباب. بدا جلياً انه مرتبك وغير مسرور بشأن شيء ما. كان الباب نصف مفتوح حين توقّف وسألني ان كنت لا أمانع بإسداءه خدمة صغيرة تافهة. «بالطبع لا» أجبت مطمئناً وقد فوجئت كلياً. سألتني خالد ان كنت لا أمانع في إضافة «الصباح» على إسمه في الإهداء.

أدركت على الفور أنني ارتكبت غلطة فظيعة وحاولت مرتبكاً البحث عن قلم. غير اني لم استطع العثور على القلم الصحيح نفسه الذي كان استخدم للإهداء الأصلي. وعلى الرغم من إرتباك، أصرّ خالد على القلم نفسه، إذ ينبغي ان يبدو خط اسمه على الإهداء واحداً. فهو أضحي شخصاً لا يخفي البتة هويته من جديد. وفي آخر الأمر عثرت على القلم المطلوب بعد بحث مضطرب، فيما كانت أفكاري تتسارع بحثاً عن مغزى الذي كان يجري. سؤي الخطأ الذي سوف لن يرتكب مجدداً. بيد ان السؤال المزعج يبقى جاثماً: أية روابط كنت أحاول، من غير وعي، ان أقطعها بإسقاط الصباح من اسم خالد؟

٢ - أبو حيدر

انتفاضة النجف

من هو أبو حيدر؟ كان هناك أبو حيدر ما في الجيش العراقي الذي عسكر مؤقتاً في منزل خليل. وحيدر يعني «أسد» في اللغة العربية، والاسم مرتبط بالتراث الإسلامي وبالخليفة الرابع في الإسلام علي ابن أبي طالب، ابن عم النبي محمد وصهره وإمام الشيعة. هكذا نتعرف إلى أبي حيدر على أنه، أو أنه كان مسلماً شيعياً عراقياً.

ونحن نعرف أحاسيس هذا الرجل في ١٧ كانون الأول/ يناير ١٩٩١ لأنه كتبها على حائط غرفة الاستقبال. فالشعور بالذنب (أو لعلّه الخزي؟)، دفع أيضاً شخصاً ما، ربما كان أبا حيدر، لأن يكتب على قفا صورة فوتوغرافية لشقيقة خليل: «أيتها الأخت الكويتية العزيزة، أرجو أن تسامحينا على ما فعلناه». كانت رائحة منزل خليل نتنة بعدما عاش فيه أناس مثل أبي حيدر طوال ١٥٤ يوماً. فالاحتلال ينشر روائح كريهة، لكنها روائح لا تروق، كما يبدو، لأبي حيدر.

ومثله مثل خليل تبدّل أبو حيدر إبان الاحتلال. بدأ يقرر هو بنفسه ما هو صواب وما هو خطأ. فهذا العراقي الشيعي المدعو أبو حيدر استطاع حتى أن يستجمع الشجاعة لإعلان مشاعره، مستخدماً جدران منزل خليل وصورة لشقيقته.

ولربما نشأ أبو حيدر على التنميّطات نفسها التي تعتبر العرب الخليجيين فاسدين وأولادهم مبذّرين لا يصلحون لشيء، مثله مثل من في سائر العالم العربي. ولربما أيضاً تحرق غيظاً من الحكّام البدو المغفلين الذين يقضون كل أوقاتهم في التردد على الكازينوهات، والنوم مع النساء العربيات من الهلال الخصيب اللواتي هن أكثر تحضّراً، مثله. لكنه، ولو لبرهة، استعاد احترامه لنفسه، وتعالى فوق التعصّب الأعمى، ليواجه بصدق ما قام به.

إننا نعرف كل هذه الأمور عن أبي حيدر، لكن تبقى حقيقة أننا لا نعرف كيف كان شكله، أو من هو حقيقة.

ففيما كان خليل يعبر ممر المطلاع، في اليوم التالي لـ «مباراة رمي الديكة الرومية» التي قام بها الحلفاء في ٢٥ شباط/ فبراير ١٩٩١، تعثر بدفتر يوميات لضابط شرطة عراقي كان قد عيّن في الكويت منذ اليوم الأول للغزو. عثر عليه بينما كان ينقب في كدسة من الأوراق نصف المحروقة كانت ماثورة في أرجاء الباص الصغير المسروق حيثما كانت مستقّة. وكان آخر إضافة إلى اليوميات قد كُتب في وقت متأخر من ليل ٢١ شباط/ فبراير ١٩٩١. أما الكاتب فبعثي شيعي موال ظاهرياً للنظام، وأما أصله فمن منطقة الأهوار الواقعة في جنوبي العراق. وهذا كان نظم بعض الأبيات الشعرية عن مسقط رأسه، إلى جانب وصفه مهمته في الكويت، ومواضيع يومية روتينية، وذكريات مفعمة بالحنين عن قصة غرام حياته الكبير الفاضل. «في ١٩٨٩ قطعت علاقتي بها كلياً لأسباب لا يمكن كتابتها هنا، غير أن التدوين في اليوميات يظهر بهجاء أنه لا يزال يحبّها.

وتشكّل منطقة الأهوار، حيث ولد الضابط ونشأ، مثلاً بين مدن البصرة والعمارة والناصرية. وعرب الأهوار هم من سلالة السومريين القدماء، أحد أقدم الشعوب في العالم، ويرجع استمرارهم، إلى حدّ بعيد، إلى طريقة عيشهم الفريدة، إذ هم متجذرون داخل بيئة خاصة بالمستنقعات - وهي منطقة شاسعة من الأهوار والجزر وأدغال القصب. وبدورها قضت سياسة الحكومة الرسمية بتجفيف الأهوار «لأسباب أمنية»^(١)، إلا أن العملية جرى حجبتها بستار من السريّة، لكن الدلائل تشير إلى أنها جارية منذ ١٩٨٩.

إن الأشعار الحزينة المكتوبة في دفتر مذكرات ضابط الشرطة تستغرق في تذكّر خسارة هذا العالم الفريد، والأوقات الرائعة عندما كان يصطاد الأسماك هناك فتياً بصحبة شقيقه. فالشاعر الهاوي هذا، والذي يقول إنه حارب وربما قتل مقاومين كويتيين أثناء تأديته واجبه، سجل اسمه وعنوانه على دفتر اليوميات. وهو لم يكن أباً حيدر، غير أنه، مثل أبي حيدر، ربما قضى نجه.

فجئة من تلك المجردة كلياً من جذعها الأعلى التي كان خليل قد شاهدها في المطلاع ممدّدة على وجهها ومعقودة الذراعين فوق الرأس، فيما القبضتان مطبقتان كما لو أنهما تحاولان حفر صفحة الإسفلت؟ هل كان ذاك كل ما تبقى من الشرطي - الشاعر الذي فارق دفتر يومياته؟ فإذا صحّ أن خليلاً هو فعلاً خالد ناصر الصباح، فلربما كانت القطعة السوداء من الفحم في المطلاع كل ما تبقى من أبي حيدر الذي كتب على جدار غرفة استقبال خليل «ليت أمي لم تلدني لأرى عذاب هذا الزمان».

دعونا نفترض ان أبا حيدر نجاً من «مباراة رمي الديكة الرومية» في المطلاع. فهذا ما يجعله مرشحاً لأن ينتهي به الأمر في مدينة البصرة، جنوب العراق، مثله مثل مئات الألوف من الجنود العراقيين المنهكين والمتضورين جوعاً. لم يكن يود القتال في الكويت: «جعلنا نعد الساعات في انتظار رؤية قدوم الأميركيين»، هكذا قال أحد الضباط والدموع تنهمر على وجهه. جندي آخر من البصرة قال «لو أستطيع فقط البقاء حياً حتى وصولهم، ثم العيش فترة تكفيني لرؤية الجنود (الأميركيين) وجهاً لوجه. عندها سأعرف أنني سأتمكن من رؤية عائلتي ثانية». ثم تغصن وجهه ولم يعد يستطيع الكلام^(٢).

وبسبب الوقوع بين فخمي الطبيعة وجنود القوات المتحالفة، تدفق رجال يائسون ومنهكون مثل أبي حيدر إلى المدينة المدمرة مع سياراتهم المسروقة وآلياتهم المدرعة. وقد أخبرني امرأة عجوز من البصرة انها رأت جيرانها المجندين يرجعون من الكويت «فارين حفاة في كل الجهات، وكانوا قد رموا كل أسلحتهم».

حبيب، وهو عراقي شاب مقرب من القيادة البعثية العليا، أخبره أحد المقررين من عزت الدوري، وهو عضو بارز في مجلس قيادة الثورة، انه «حينما أعلن وقف النار، عاد العديد من الضباط والجنود من الكويت بملابسهم الداخلية. رموا كل شاراتهم العسكرية وثيابهم كي يبدووا كمدنيين. كانوا خجولين من كونهم جنوداً. سار الكثيرون منهم على الأقدام طوال خمسة أيام، من الكويت والبصرة إلى بغداد»^(٣). هؤلاء هم بالذات أولئك الجنود الذين أطلقوا الثورة العامة في العراق كله، والتي عُرفت بالانتفاضة.

الشرارة الأولى

بدأت الشرارة التي فجرت الانتفاضة في مدينة البصرة ذات الأغلبية الشيعية، وأكبر المدن في جنوب العراق. ويبدو أنها نشبت في الوقت الذي أصبح مفعول وقف النار الرسمي في حرب الخليج نافذاً عند الساعة الخامسة من قبل ظهر ٢٨ شباط/ فبراير ١٩٩١. فقد اندفع رتل من الدبابات الفارة من الكويت إلى ساحة سعد، وهي امتداد شاسع مستطيل ومكشوف في قلب البصرة، فأوقف القائد على رأس رتله آليته في موقع مواجه لجدارية عملاقة لصدّام حسين مقامة إلى جانب مبنى قيادة حزب البعث في الساحة، حيث يبدو صدّام في زي عسكري. لقد وقف القائد فوق هيكل آليته وخاطب الصورة بخطبة لازعة تنهم الديكتاتور: «ما حل بنا يا صدّام من هزيمة وعار وخزي، هو نتيجة حماقاتك، وحساباتك الخاطئة، وتصرفاتك غير المسؤولة»^(٤).

واحتشد ناس وأصبح الجو مشحوناً جداً. ثم قفز القائد عائداً إلى داخل دبابته وأدار

برج المدفع ليصوّب باتجاه الصورة التمثال وأطلق عدة قذائف، فانفجر الحشد مهتاجاً يهتف مشجعاً ومنشداً «صدّام انتهى، كل الجيش مات». لم يتدخّل أي من الدبابات أو الجنود الآخرين الذين في الساحة. والواقع أنهم سرعان ما انفضّوا إلى التظاهرة التي جعلت تكبير وتتسع. «كانوا جميعاً يطلقون النار في الهواء» كما يذكر عبد الله البدران، وهو كويتي في الرابعة والعشرين من عمره أخذ رهينة وكان شاهداً على ما جرى^(٥). لقد ورّعت البنادق على أيدٍ توافّقت إلى الإمساك بها واندفع الحشد بعنف نحو مركز قيادة حزب البعث. أحرقوا مقرّ قصر حاكم البصرة، وهاجموا مراكز الشرطة أينما استطاعوا لإيجادها. نهبوا مكاتب الأمن وأتلفوا كل الملفات، وانتشرت الانتفاضة مثل نار في الهشيم. وبعد ساعات على تلك الطلقات الأولى في ساحة سعد، كان سكان البصرة المحليون، والجنود العائدون من الكويت قد أقاموا متاريس على الطرقات وسيطروا على المدينة. كانت لحظة ثورية كلاسيكية.

سمعت القصة للمرة الأولى مع بعض التفصيل من السيد محمّد بحر العلوم، وهو مناوئ قديم للنظام العراقي، وذلك عندما تحدث في جامعة هارفرد في ٧ آذار/ مارس ١٩٩١. أفعمتني كلمته بالحماسة، ورحت أبحث عن التفاصيل الصغيرة. والقصة نفسها، بتبويعات مختلفة، كررها أيضاً لأجئون كانوا قد فرّوا إلى إيران، أو هي ترددت بشكل غير مباشر على أفواه مشاركين آخرين كانت قد تحركت مشاعرهم بالرغم من أنهم جاؤوا من مدن أخرى. بيد أنه من الواضح أن ما جرى كان صورة معبرة عن كامل الانتفاضة.

لكن هل كان ذلك صحيحاً؟ خلال صيف ١٩٩١ بحثت عن شاهد عيان لتلك الساعات الأولى الحاسمة في البصرة، وحاولت إعادة تأليف سياق التسلسل الدقيق للأحداث منذ تلك الشرارة الأولى في ساحة سعد، وصولاً إلى الحريق الهائل والشامل في جنوب العراق وشماله، وفي النهاية بدا ذلك مستحيلاً. لم أستطع حتى أن أكتشف اسم القائد الذي قفز فوق الدبابة وأطلق النار على صورة صدّام حسين. ولم أستطع أيضاً أن أثبت ما إن كان استطاع النجاة من انتقام الحكومة الشديد الذي تلا الانتفاضة. لكن رجلاً كهذا وُجد حقاً، وما حدث في البصرة في الساعات الأولى من ٢٨ شباط/ فبراير ١٩٩١ تحوّل إلى أسطورة عراقية بالفعل.

يروق لي الاعتقاد أن ذلك الرجل كان أبا حيدر إياه الذي كتب معبراً عن مشاعره على جدران منزل خليل، لكن الحقيقة أنني لا أعلم.

أخبار ما حدث في ساحة سعد تواترت إلى كردستان وأدركت إيران وسوريا ولندن. لكنها قبل أن تصل إلى الأمكنة البعيدة، أشعلت حريقاً في كل واحدة من مدن جنوب العراق. كاظم الريسان، وهو وجيه من بلدة الناصرية، روى لي أنه رأى أربعة عشر شاباً يحملون أسلحة خفيفة تشبه تلك التي توزّع على الجيش العراقي، رآهم يطلعون من منطقة الأهوار المحيطة متوجهين توأ نحو وسط البلدة^(٦). أما السلطة فتلاشت ما ان دخلوا الناصرية هاتفين: «الله أكبر، الله أكبر». سرعان ما انضم إليهم المئات.

نزار الخزرجي، وهو رئيس أركان سابق في الجيش، حاصره القتال وهو في طريق العودة إلى بغداد من الكويت. لقد حوَّصر مع ستين أو سبعين من الموالين داخل مبنى للدولة. استمر القتال محتدماً طوال ساعات، وقتل أفراد مجموعة الجنرال الخزرجي باستثنائه هو، حيث كان أصيب بجراح بالغة ونقله المتفضون إلى مستشفى محلي. أردت أن أعرف، لماذا أبقى على خزرجي. كانوا قد قتلوا، على الفور، عابرين آخرين أقل أهمية في نظر النظام، ولم يكن الريسان، الذي شارك في المعركة، يعرف. على أية حال فالخزرجي اختطف بعد بضعة أيام من أيدي الثوار بواسطة طائرة طوّافة تابعة للحكومة تقلّ فرقة من المفاوير.

أنتصّر أن كاظم الريسان، مثل أي حيدر، غير مؤدّج وغير طائفي ولا متعصب. قام في الأيام الأولى للانتفاضة بحماية نعيم حدّاد، العضو السابق في مجلس قيادة الثورة ورئيس مجلس النواب الوطني العراقي، من غضب الثوار الشبان المهتاجين الذين يصعب ضبطهم. كان حدّاد وعائلته قد اختبأوا في منزل ريسان حتى عندما كان هذا الأخير يقاتل البعثيين في شوارع الناصرية، ويحاول إحلال شكل ما من النظام في الإدارة، وحماية مدينته من انتقام الحكومة الختمي. ولكن تفاوض مع القبائل الشيعية المجاورة، محاولاً إقناعها بالانضمام إلى الانتفاضة، غير أنها رفضت المجازفة، مؤثرة انتظار ما ستؤول عليه الأمور. ان العديد من العرب الستة شاركوا بالفعل في الانتفاضة. لكنه في نهاية الأمر فرّ مع عائلته ورجال قبيلته إلى السعودية، وهو يعيش في مخيم رفحاً للأجئين، الذي يفوق عدد الستة فيه عشرة بالمئة من مجموع قاطنيه. سألته لماذا اختار، وهو الوجيه الشيعي من الناصرية، الفرار إلى السعودية بينما كان في وسعه بسهولة أكبر الوصول إلى إيران. «ماذا سأفعل في إيران؟ إنها بلاد أجهل تكلم لغتها، وليست لدي هناك معارف. بالطبع إنه بلد مسلم، لكننا حاربناه طوال ثماني سنوات».

أما فاطمة فامرأة تقية متدينة في بداية أربعيناتها، شهدت الانتفاضة في قريتها السماوة، الواقعة إزاء نهر الفرات على بعد يقارب الثلاثين ميلاً إلى الغرب من الناصرية.

وتزوجت فاطمة في ١٩٧٥ غير أنها لم تلتق زوجها عباس منذ ١٩٨٠، لأنه كان قد طرد من العراق لكونه من «أصل إيراني»^(٧). وفي الحقيقة كان عباس شيوعياً، أمضى سنوات عديدة في أحد أشهر سجون العراق، سجن نقرة السلطان وهو عبارة عن حفرة سوداء في الصحراء قرب الحدود العراقية - السعودية من المحتمل أن يكون قد دفن فيها عشرات آلاف الأكراد من ضحايا عمليات الأنفال العسكرية^(٨). وعندما تحدثت معها عن الساعات الأولى للانتفاضة كان اجتمع للتو شمل عباس وفاطمة، بعد اثنتي عشر سنة من الفراق:

«أول ما سمعته كان أصوات إطلاق نار حادة ارتفعت من سطوح المنازل. كانت ليلة خميس في رمضان. استمر إطلاق النار طوال الليل محدثاً صخباً غير معقول. ما كنت لتعرف أين مصدر الرصاص. صرخت: «يا إلهي ما هذا» قالوا إن انتفاضة تحدث. «أي نوع من الأمور هي هذه الانتفاضة؟» أردت أن أعرف. قالوا إنها قادمة من كربلاء، من النجف، وان العمارة والناصرة سقطتا للتو في أيدي شبانها. قالوا ان الانتفاضة سوف تنتشر إلى كل المحاكمات، والآن دور السماوة.

كان كثير من البعثيين قد رحلوا بعدما دبّ الخوف في نفوسهم، وكانوا إما تلقوا الإذن بالمغادرة، أو فُتروا إلى بغداد. قلت لنفسي «يا إلهي ينبغي أن أخرج من هنا» وفعلت ذلك. كلنا فعلنا ذلك رجالاً ونساء. أول ما صادفته عند رأس شارعنا الجانبى كان ما يقارب العشرين من الشبان. كانوا في دشدشاتهم البيضاء متوجهين نحو مركز كبير للشرطة عند الجهة اليمنى. أوكد لك أن الأكبر بينهم لم يكن يفوق عمره العشرين! كانوا كلهم فتياناً وكلهم من الجوار. أعرف كل واحد منهم، حتى ابن عمي كان بينهم. كان هؤلاء الفتيان قد سئموا حتى العظم التنقل من حرب إلى أخرى. لقد انفجرت نفوسهم من جراء الإحباط وحده»^(٩).

كانت انتفاضة آذار/ مارس ١٩٩١ حداً فاصلاً في تاريخ العراق الحديث. ومعها، كما يحلو للعراقيين أن يقولوا، «حاجز الخوف إنكسر». الضابط الذي قفز إلى أعلى دبابته في ساحة سعد هو نفسه من بدأ تهديم ذلك الحاجز. لا يهم من كان، أو أين يمكن أن يكون الآن. فمبادرة ذلك الضابط أشرت إلى بداية المستقبل لبلد كان في الواقع «ميت الدماغ» يعيش تحت وطأة زمن من الديكتاتورية الاستبدادية. ذلك الزمن مضى الآن وكل العراقيين مدينون لضابط مجهول الاسم، هو بطل انتفاضتهم، بحقيقة أنهم صاروا يملكون احتمال المستقبل.

اليوم الأول في النجف

في آخر الأمر استطعت مقابلة ضابط فعلي في الجيش، هو أحد الذين انضموا إلى الانتفاضة وقادوا دفاع مدينة النجف ضد هجوم الحرس الجمهوري الضاري. وفيما كانت الدبابات والطوافات الحربية تضيق الطوق على مدينته في أواسط آذار/ مارس، فرّ الضابط عبر خطوط المراقبة الفرنسية حاملاً رسالة من قيادة الانتفاضة في النجف إلى القوات المتحالفة، تلتزم المساعدة. لكنهم تجاهلوا أمره ولم يؤخذ على محمل الجد، وبعدها لم يعد من مجال للعودة. فالخلفاء لم يكونوا يثقون بالشيعة. ولما كانت عائلة الضابط ما زالت تقيم في العراق، بات ينبغي إعطاؤه اسماً مستعاراً.

لم يكن هو أمر الدبابة في ساحة سعد ولم يكن اسمه أبا حيدر، غير أنني ارتأيت أن يُعطى هذا الاسم^(١٠).

التقينا في خان لندني بائس. كان أبو حيدر في ما مضى بعثياً، انضم إلى الحزب، في الستينات، عن قناعة، بينما كان لا يزال في دراسته الثانوية في النجف. لكن «الحزب مات في ١٩٧٩. في خلايا الحزب أوقفنا تلقين المسائل السياسية. كل المناقشات راحت تدور حول شخص صدام. وكراهيتي لصدام تعود إلى زمن بعيد. لقد قتل أشخاصاً من عائلتي». كل ما كان تبقى من مثالية شبابه بعد ذلك القتل (الذي لم يرغب أبو حيدر في التحدث بشأنه) امحى بالطبع خلال سنوات الحرب العراقية الإيرانية الطاحنة الثماني، والتي قضاها جميعها في الخدمة على الخطوط الأمامية. وعندما سألته لماذا كان ضد غزو الكويت في ٢ آب/ أغسطس، أجاب بالقدرية التي تميز شيعة العراق: «لأنني واقعي. كان العالم يفرض شيئاً ما علينا، وأنا قبلت ما كان يفرضه. يتوجب على المرء قبول ما يفرضه الواقع. كان صدام حسين يقول: «كل كويتي يخدمه خمسة أشخاص». ماذا عنك يا سيد صدام، إنني أسألك! كم عدد الأشخاص الذين يخدمونك؟ النظام برمته يخدمه. الجميع يقوم بذلك. لم أعد أؤمن بالسياسة. أريد أن يترك الناس وشأنهم. بعد ١٧ كانون الثاني/ يناير كنت أنتظر فقط حصول هجوم الحلفاء».

بحذره الذي فرضه الاضطراب، لا المزاج، وبعينيه الزرقاوين الشاحبتين، وبدايات ظهور علامات العمر المتوسط على وجهه، بدا أبو حيدر رجلاً محترفاً وانضباطياً. في رأيه العسكري، كان الانسحاب العراقي من الكويت «هزيمة نكراء فاضحة وليس انسحاباً».

أما مدينة النجف التي ولد ونشأ فيها، فكبرت ونمت حول مقبرة الإمام علي بن أبي طالب، وبين كل المدن الشيعية المقدسة في العراق، تنفرد النجف بكونها الأهم دينياً، والأقل تأثراً بإيران.

لقد أنشئ البناء الأول في النجف فوق ما ترى الأكثرية العظمى من الشيعة أنه ضريح الإمام علي، بتكليف ورعاية من الخليفة العباسي هارون الرشيد في العصر الذهبي للحضارة الإسلامية. في قلب المدينة اليوم، حيث تم مسح ألف عام من التحولات، يقع مقام الإمام علي بقبته الذهبية المهيبة التي شيدت في القرن السابع عشر والتي زادها بروزاً منظر المحيط المسطح وغير النائي، والمرآت الضيقة والأزقة المتلوية المتاخمة للمبنى المقنطر، مطوّقة سكّون المقام. والبناء يرتفع محمياً من صخب الجوار وضجيج وسط صحن شاسع، أو فناء مشرّع تحوطه ممرات مقنطرة من الغرف، وقد كان أبو حيدر شاهداً على تحوّل هذا المركز البصري والروحي للمدينة مركزاً لقيادة العمليات الثورية أثناء الانتفاضة.

تحدثنا لساعات عدة بشأن ما حدث هناك في ذلك اليوم الأول الحاسم. وبالنسبة لرجل مطلوب رأسه، ولا تزال وراءه عائلة كبيرة داخل العراق، بدا مرتاحاً وواقعياً في وصفه الأشياء التي كان رآها وقام بها.

«كان الوقت قرابة الظهيرة نهار الخميس (٢٨ شباط/ فبراير) عندما سمعت من الناس في الشارع عمّا جرى في البصرة. «أحسنّت»، هذا ما أذكر اني خاطبت نفسي به وأنا أقصد عمل أمر الدبّابة الذي فجّر جدارية صدام في ساحة سعد. «صدام هذا مجرم وقد قادنا جميعاً إلى الخراب».

في الواقع كانت لدي صورة معينة عن النجف، هذه المدينة التي ولدت ونشأت فيها. كنت أعرف هذه المدينة، إن من خلال تجربتي مع الحزب وأعضائه، أو من الأشخاص الذين عرفتهم عبر السنين. كنت أظن انه حتى لو كان ما جرى في البصرة نتيجة انفجار كامل للثورة في العراق، من الشمال إلى الجنوب، فإن مدينة النجف لن تنور أبداً. فالنجفيون سيرتعبون من الطريقة التي سوف ينتقم بها صدام من هذه المدينة بالذات إن ثارت ضده. وفي مطلق الأحوال ثمة حقيقة مهمة هنا، فهذه مدينة المرجعية الشيعية، والدولة، بالطبع، تقوم بتدابير حيطة خاصة في مدينة كهذه. وتدابير الحيطة كانت تفوق أياً من مثيلاتها في المدن العراقية الأخرى. ولدى صدام نزعة إلى تضخيم الأمور، وأن تكون له السيطرة الكلية على كل حادثة، بغض النظر عن ضآلتها. والمخابرات (بوليس حزب البعث السريّ وربما الشبهة الأشد رعباً في نظام الدولة الاستخباراتي) موجودة بأعداد تفوق التصوّر في النجف.

يجب أن تفهم أي، نظراً لكل هذه الأسباب، فوجئت فعلياً بالذي جرى.

كان قصف الحلفاء قد دمر تقريباً ٦٠ بالمئة من قوة وحدات القدس الخاصة بالحرس الوطني التي كانت في ضواحي المدينة. معظم الأسلحة الثقيلة التي استخدمناها لاحقاً للدفاع عن المدينة كان من تلك التي خلفوها وراءهم. كان الحلفاء قد قصفوا أيضاً منطقة الأمير السكنية بما يقارب الأربع عشرة قذيفة. دُمرت كلياً ثلاثة منازل، وامتحت وسويت بالأرض. أصيب أربعة منازل أخرى إصابات جزئية، لكنها أصبحت بالطبع غير صالحة للسكن. عشرات البيوت تضررت من جراء ذلك، إلا أن الأماكن المقدسة لم تصب البتة. أما في ما يخص السكان، فإن ثلاثة عشر منهم قتلوا في منزل واحد فقط، وهو منزل السيد رحيم الحبوبى وشقيقة عزيز. قذيفة واحدة قضت عليهم جميعاً. السيد رحيم نفسه هو الوحيد الذي نجا. قتل واحد من أسرة زوين، كما أذكر، وأربعة أشخاص مجهولين من ركاب إحدى السيارات، سيارة خارقة من طراز ١٩٩٠ كما أظن، وقتلوا جميعاً. آه، كان هنالك ثمة سواق لسيارة أجرة تناثر أشلاء من جراء قذيفة. ثلاث طائرات نفثة من طراز ف ١٥ قصفت النجف، ما اعتقده، على الأقل، أنها كانت من طراز ف ١٥. لقد دمرت المطار ومحطة الرادار وأصاب مصنع الغاز ومعمل الاسمنت أربع مرات.

صباح نهار الجمعة الأول من آذار/مارس عدت أحمل معي حاجات اشتريتها. بدأت ألتقي الناس وأتحدث عن الوضع مع الأطباء والمهندسين والأساتذة. الجميع شاطرنى إحساسى بأن شيئاً لن يحصل هنا في النجف. وصلت الأخبار بأن بعض الفتيان كانوا يخططون لتظاهرة ضد النظام في اليوم التالي وسط المدينة، في منطقة الميدان قرب السوق الكبير. مجرد فكرة القيام بتظاهرة أثّر في بشكل عظيم، امتلاً قلبي بالحماسة وحتى بالرغبة في المشاركة.

في وقت متقدم من صباح اليوم التالي خرجت مستكشفاً لأرى ما كان يجري. أخبرني اثنان من الفتيان ان التظاهرة أرجئت إلى الساعة ٢،٣٠ من بعد ظهر اليوم التالي (أي ٣ آذار/مارس). كان ذلك هو الوقت المقرر لتجتمع الناس. لماذا أجلجوا التظاهرة؟ كانت قوّات الأمن قد علمت بالاستعدادات الحارية. كان الجميع على علم بالتظاهرة. حزن كثيراً حين سمعت أن الموعد قد تأجل. وأكد ذلك قناعتي أن شيئاً لن يحدث في هذه المدينة. لكن حاجز الخوف كان يتداعى. كان بوسعك أن ترى ذلك في الشوارع. كيف ذلك؟. رأيت مثلاً سائق تاكسي يصرخ لاعناً صدام من نافذة سيارته. أمام حشد كبير من الناس بصق أحدهم على صورة لصدام. كان ذلك مذهلاً، غير أنني بقيت غير واثق. ينبغي تذكّر أن ثمن

الكيلوغرام الواحد من الطحين كان سبعة دنانير ونصف الدينار. من ذا يستطيع دفع أثمان كهذا؟ لقد بدا القيام بثورة وسط هذه الظروف أمراً يفوق التخيل.

سمعت ان البصرة كانت كلياً تحت سيطرة الثوار وانهم كانوا تولّوا سلطة المدينة في اليوم السابق. كانت الإشاعة تردد أن التظاهرة في النجف سوف تبدأ انطلاقاً من النفق في ساحة الميدان وتسير نحو الاتجاه المواجه للسوق الكبير وصحن المقام المقدس. كنت هناك في تمام الساعة ٢,٣٠ بعيد ظهيرة الأحد في ٣ آذار/ مارس متحدثاً مع صديق من بغداد، وهذا ما رأيت:

شبان تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة والرابعة والعشرين، لا أكثر. في الواقع كان ينبغي أن أقول إن أعمار أكثر المحتشدين كانت تتراوح بين الخمس عشرة والثماني عشرة سنة. شباب. قدموا مندفعين جماعاتٍ من الأزقة والشوارع الخلفية، من عقد خانّية من شارع الخورنق، ومن شارع السدير الذي دمر جزئياً. بعض المجموعات قدمت عدواً من شارع الصادق ومن عقد عبد عبطان. كانوا جميعاً يندفعون راكضين من كل هذه الأزقة الجانبية باتجاه الميدان. كانت كل مجموعة تتألف من حوالى مئة شخص في أكثر تقدير يحملون جميعهم الهراوات والسيوف «القامات». كان اثنان أو ثلاثة منهم يحملون مسدسات. أذكر ان أحدها كان من طراز «ولي». جعلوا يهتفون منشدين، «صدّام شيل إيدك، شعب النجف ما يريدك». كما جعلوا يهتفون أيضاً، «ماكو ولي إلا علي، نريد حاكم جعفري»^(١١).

كان رجال الأمن على مقربة من الصحن. بدأوا يطلقون الرصاص في الهواء من السوق الكبير باتجاه الميدان. هكذا إذن أخرجوا من الصحن، حيث اعتقدوا أساساً أن التظاهرة ستجّه إلى هناك. وأول من قُتل من رجال الأمن كان حزبياً يدعى راضي عبد الشهيد. أطلقت عليه النار بواسطة مسدس. في شارع الرسول قتل الضابط علي الحسين، كما قتل خمسة أو ستة متظاهرين. غير أن توافد الشبان استمر. فجأة انعطفوا نحو شارع زين العابدين والصادق، وهذا ما لم يكن يتوقعه رجال الأمن. من مئة تضخّم العدد إلى ألف. كانوا كلهم نجفيين، شتّاناً من عائلات مرموقة ثرية ومرتّقة. كان أبائهم تجاراً، صاغة، بائعي سجاد، أو أصحاب معارض للسيارات وما يشبه ذلك. لم يكونوا من الموظفين الحكوميين. كان في مقدوري رؤية علامات السعادة مكتوبة على وجوههم.

اتجهت التظاهرة بعد ذلك نحو صحن المقام المقدس. كان يربط هناك عدد

كبير من رجال الأمن، آلاف منهم، إلا أن معظمهم كان يراقب فقط، منتظراً ما ستؤول إليه الأمور. توجه الشبان في هذا الحين بأقدام ثابتة مباشرة نحو «الصحن». عندما رأى رجال الأمن هذا لاذوا بالفرار. جرى عراك عند بوابة مدخل الصحن الرئيسية وقتل عدد من رجال الأمن. أول الذين قُتلوا قُذ حلقه، أمسكه أحدهم من الخلف فيما كان يطلق الرصاص. قتل العديد من المتمردين الشبان عند البوابة. حين تمت لهم السيطرة على «الصحن» كان قد سقط منهم ما بين العشرين والثلاثين شاباً، وعدد آخر من رجال الأمن. قرابة المغيب كان المقام وفناؤه قد أصبحا كلياً تحت سيطرة المتفضين.

كنت مهتاجاً جداً في أثناء ذلك، غير أنني بقيت غير مقتنع بأن هذا الأمر سيلقى النجاح. مع انطلاق الرصاص كان الأمر يجنح إلى أن يسمي خطيراً. لذلك قررت أن أعود أدراجي إلى عائلتي. إنهم يدعونها الانتفاضة. لكنني أؤكد لك ان المسألة برمتها كانت تظاهرة عفوية. إن رفاق صدام مسؤولون عن تحويلها إلى شيء آخر.

ما أن انتهت معركة السيطرة على أقدس الجوامع الشيعية، حتى تحول اهتمام الثوار إلى مبنى مركز قيادة الشرطة الرئيسي. هناك استمر القتال طوال الليل. كان شباب النجف يقصفون المبنى مستخدمين مدافع من عيار ٨٢ ملم كانت خلفتها وحدات القدس التابعة للحرس الجمهوري. وحوالي الساعة الرابعة والنصف من صباح الاثنين ٤ آذار/ مارس، انهارت كل مقاومة الشرطة داخل المبنى، واندفعت حشود الثوار إلى الداخل وأحرقت الأوراق والملفات كلها. جرت محاولة لإيقاف التخريب، «لكن»، كما يذكر أبو حيدر، «كانت عديمة الفائدة. دمر كل شيء: سجلات السيارات وصكوك الأملاك وملفات الشرطة ومحاضر الدعاوى القضائية».

رواية أبي حيدر عن بداية الانتفاضة في النجف يوافقه عليها مشاركون آخرون. انطلقت مجموعة واحدة من النجفيين الذكور، وكان عددها حوالي الستين شاباً من الجنود السابقين أو الفارين من الجندية. كانوا كلهم من الأقارب أو الأصدقاء الحميمين ومن الحي نفسه. ازداد الستون وأصبحوا ستمئة في غضون ساعات بعد اندلاع القتال حول الصحن. كانوا يتصرفون من دون أي مرجعية. اقتحمت كرة الثلج هذه ستة مراكز للشرطة وللبعثيين موقعة بهم عدداً كبيراً من الإصابات. ويبدو أنهم قتلوا كل الذين قاوموهم ولم يعفوا إلا عن الجنود والشرطين الذين استسلموا من غير قتال، أو الذين أعلنوا تبديل ولائهم. أحد المشاركين الأساسيين وصف المعركة التي استمرت طوال

ساعتين حول مدرسة ثانوية: «لو كان فقط في مقدورك أن تشاهد المنظر. أؤكد لك وأقسم بالقرآن، أنه لم يجر شيء كهذا منذ أيام الثورة الإسلامية في إيران. كانوا يمتطروننا بالرصاص. نفذت قنابلنا اليدوية وبدأنا نصرخ، «قناني البنزين! أحضروا قناني البنزين!». حضّرت لنا النسوة مزيج قنابل المولوتوف داخل قنينات البيسي كولا. وضعت خطة جماعية قيد العمل، وكانت النسوة يزغردن ويعتنين بالجرحي، وينقلنهم إلى البيوت المجاورة. في نهاية الأمر اقتحمنا المكان، تسلقنا الجدران كالديدان، وهجمنا من كل حذب وصوب»^(١٢).

بعد انهيار كل مقاومة الشرطة داخل النجف، انتقلت المعركة إلى ضواحي المدينة حيث كانت بقايا وحدات الجيش. هؤلاء الجنود بالكاد قاتلوا قبل أن يولّوا الإمداد تاركين الطريق مشرّعة نحو الكوفة، ثاني أقدس مدن الشيعة. والنموذج نفسه تكرر، إذ جرت معركة عنيفة خارج مبنى القيادة العامة للأمن في الكوفة، واستمرت حتى ارتفع علم الاستسلام الأبيض. حوكم يونس الشّكري، وهو أحد قادة الشرطة الأمنية، لإصداره الأمر بالمقاومة. قيل له إنه يمكن الإبقاء على حياته في مقابل إدلائه بمعلومات عن المواقع والمخابيء السرية للأسلحة والذخائر. رفض الشّكري. سمع أبو حيدر توبيخه الجريء للتوّار تماماً قبيل إعدامه بالضبط: «لقد عشت بعثياً طوال حياتي وسأموت بعثياً».

عدد القادة البعثيين الذين ماتوا بهذه الطريقة لم يكن كبيراً. معظمهم لاذ بالفرار. وکیل قيادة الأمن في النجف، العقيد علي، فعل ذلك متنكراً بزي امرأة (عباءة سوداء تكسو الجسم من دون الوجه)، ولف وجهه بيوشيه (قماشة قطنية رقيقة تحجب كامل وجه الأنثى كي لا تُشاهد بشرتها البتة). كان قد ترك وراءه رجالاً مثل الملازم أول محمود ليكونوا كبش محرقة لسخط الناس. عثر متمرّد شاب نجفي بالصدفة على الملازم الأول محمود، من الرمادي، وكان يعرفه تمام المعرفة، كانت قدما محمود وركبته مخروطية كلياً بالرصاص، بعد أن زحف ليختبئ في مكبّ نفايات. كان الشاب عائداً إلى المنزل ليتناول بعض الطعام فاستوقفه أين شخص كان يتألم بشدّة. التمس محمود منه الحفاظ على حياته. لسوء الحظ كان يعرف عن الملازم الأول أنه كان يحتسي الكحول داخل الصحن المقدس لمقام الإمام علي حيث كان يخدم، ولذلك لم تكن لديه أية فرصة للنجاة. «هذا الرجل يريد تشويه سمعة الإمام عليّ وشيعة العراق. حين يحضر زائر عاديّ إلى الصحن ويشاهد كحولاً هناك، لن يقول إن هذه فعله الملازم أول محمود، سيقول لا بد أن خدم الحرم (الأراضي المقدسة التي تحتوي المقام) ورجال دين النجف مشاركون في هذا الفساد الأخلاقي». كان هذا هو التبرير الذي قدّمه الثائر الشاب لعدد من أصدقائه لقيامه بإعدام محمود الذي تركت جثته تتعفن في المكب^(١٣).

بين الذين أعدموا «رسمياً» في النجف خلال الانتفاضة، إلى جانب يونس الشمرلي، كان هناك كل من نوري فرهود، خالد الكرعاوي، ومسؤول بعثي رفيع يدعى بليلي، والشاعر الشهير فلاح عسكر الذي كان يعمل شرطي سير متواضعاً في منطقة الحلة. ويختصر أحد الشبان ما حدث بجملة واحدة: «لم يكن في وسعنا منع المتفضين من الانقضااض عليهم». أما مصادر المتفضين فتقول إن عدد البعثيين الذين قتلوا خلال الساعات الأربع والعشرين التي استغرقتها معركة السيطرة على النجف، يفوق الأربعمئة.

من هم هؤلاء الأشخاص؟ قسم منهم كان من رجال التعذيب ومسؤولين كباراً في حزب البعث مثل الشمرلي. غير أن العديد بينهم كانوا أشخاصاً عاديين وشيعة مثلهم. بين هؤلاء على سبيل المثال فلاح عسكر الذي سبق له أن لفت انتباه حزب البعث لامتلاكه موهبة صياغة القوافي الحزبية والثورية. وأصبح عسكر مشهوراً نتيجة ألحان مثل «كل الشعب شدة ورد والريحة بعثية». أو «بالروح، بالدم نفديك يا صدام». وتبعاً للسائد في التقاليد العربية، يمكن غناء أو إلقاء سطور كهذه بأسلوب شديد الانفعالية، حتى لو كانت قد كتبت من دون اقتناع، أو جاءت فارغة فعلياً من أي محتوى. ففي الشعر الشعبي العربي، يثير الشكل العواطف أكثر مما يثير المحتوى، وكان عسكر بارعاً في هذا.

وموهبة عسكر في الشعر القصصي الصالح للغناء مستلهمة إلى حد كبير من المنطقة الشيعية في العراق، وتستمد منابعها من «التعزية» و«اللطمية» وهي الشعائر التي تقام كل سنة، وتعتبر بصورة مسرحية عن الحوادث المأسوية التي أحاطت بمقتل الحسين في سهل كربلاء عام ٦٨٠ بعد المسيح. وقد نشأ شعراء موهوبون مثل فلاح عسكر ورضا الفحام وكريم العراقي وحسن عمارة على هذه القصص ثم كبروا وارتبطوا بالسياسات اليسارية. وبعد انهيار الحزب الشيوعي العراقي في أواخر السبعينات تملقهم حزب البعث بتوّد، وباتوا في الثمانينات مرادفي عزيز علي وهو الشاعر الشعبي الساخر الكبير والناقد الاجتماعي للأربعينات^(١٤).

تقول الرواية إنه عندما كان حسن عمارة (وهو اسم مستعار) يحيي يوم زفافه، انقضت مجموعة من زعران بوليس الأمن ووضعت حداً للحفل. ضربوا العروس، وأيضاً ضربوا والدها بخشونة أفظع وحطّموا المكان كله. وفي اليوم التالي تلقى ذاك المكتتب الذي كان سيصير عريساً، اتصالاً هاتفياً من صدام عشية تعيينه رئيساً. قال صدام لعمارة انه علم بما حصل وأنه يؤد أن يعقد صفقة مع الشاعر، صفقة كان يدرك انه لن يرفضها. وعد صدام بمعاينة المسؤولين إذا قام عمارة في المقابل، بإظهار عرفان الجميل من خلال

كتابة بعض الأشعار عن إنجازات الثورة البعثية العظيمة. وهكذا انطلقت على طريقة أسلوب فيلم «العراق» سيرة فنية جديدة ولامعة في الموسيقى الشعبية العراقية.

لقد كان الشعراء الشعبويون مثل فلاح عسكر ورضا الفخام وحسن عمارة مستهدفين خلال الانتفاضة، على الرغم من أنهم كانوا على العموم رجالاً محطمين، ومثل معظم العراقيين الذين يعيشون منذ عشرين عاماً تحت حكم حزب البعث، لم يعد لديهم مطلق التزام بأي شيء. منهم من كانوا تحولوا عن الشيوعية وارتبطوا بالحركة الشيعية الإسلامية السياسية السريّة. والبعض الآخر تحول إلى كتابة الأشعار البعثية، مثل حسن عمارة، لأنهم كانوا يخافون ألا يفعلوا ذلك. كانوا يفعلون ما كان الناس العاديون ومعظم أفراد النخبة العراقية يفعلونه على نحو منتظم، وبالضبط للأسباب نفسها، فالبعث العراقي الحديث كان أنشئ فوق حلقات من التواطؤ والمشاركة لم يفلت منها أي فرد.

تبقى حكاية مقتل فلاح عسكر نموذجية. فقد احتجز طوال الليل داخل صحن مقام الإمام عليّ في انتظار «محاكمته» مع حوالى خمسمئة مسجون آخرين. وروى أحد المتمردين، وكان مسؤولاً عن أولئك المحتجزين، ماذا حدث تلك الليلة: «كما تعرف، كل هؤلاء الشعراء الشعبيين غيروا انتماءاتهم. أذكر أن فلاح عسكر ذاك نظم خمس قصائد خلال ليلة احتجازنا له في الصحن ممجداً فيها سيّدنا الحسين والإمام عليّ، كرم الله وجهه، وأيضاً الإمام الحسيني. جعل كل المساجين ينشدون «اللطمية» ويلطمون صدورهم متحولين عن صدام. عندها قلت لفلاح: «أين عقيدتك وقناعاتك، أنت الذي كنت تقول كل تلك الأمور عن صدام؟»، أجابني: «إن ذلك الرجل مجرم، كان خدعني»^(١٥).

عسكر المسكين خانة حظّه. كف عن أن يؤمن بصدام أو بأي شيء آخر. لكن لم يعد في وسع موهبته الكلامية التي وضعت أصلاً في هذا المأزق، أن تنقذه. وليس واضحاً كم هو عدد الأشخاص الذين أعدموا على طريقة فلاح عسكر من قبل المنتفضين، لكن بالتأكيد لا يمكن تصديق أي من معلومات الحكومة في هذا الخصوص.

في الواقع هم لم يقتلوا الجميع. في قرية قرب السماوة ألقى الثوار القبض على رستم وجوه محليّ كان يكسب رزقه، مثله مثل مئات آخرين، من رسم صور القائد العظيم. وصف الصحافي طوني هورفيتز مراسل صحيفة «ذي وال ستريت جورنال» الواقعة كالآتي: «كان الرجل يتوسّلهم الرحمة معتبراً أن المتمردين سوف يقتلونه. عوض ذلك غرّموه بمبلغ خمسين ديناراً وأجبروه أن يقول إن صدام حسين «ابن كلب»»^(١٦).

لقد أعفي عن العديد من البعثيين أو المعروفين بأنهم بعثيون ممن توسّط لهم وجهاء من

أقاربهم، أو أعلنوا توبتهم^(١٧). على سبيل المثال كان ألقى القبض على فاتك الصافي الذي كانت بعثياً رفيع الشأن في الخمسينات، وفرّ إلى سوريا مع صدام حسين عام ١٩٥٩ إثر محاولة فاشلة لاغتيال رئيس البلاد، لكن الصافي أطلقه الثوار بعد احتجازه أثناء الانتفاضة لتوافر الشروط المذكورة أعلاه. كذلك أطلق سراح رجال كانوا كسبوا الكثير من النفوذ والمال أثناء حكم البعث، بينما قُتل آخرون من أمثال فلاح عسكر. أطلق أيضاً سراح رجلي دين شيعيين، كلاهما من السياد (من سلالة النبي) وكانا برزا في الماضي كمناصرين ناشطين للبعث وعلى رأس المهلّين له.

لقد اتهم أحد المتفضين واحداً من السيدين بأنه «أمي يدعي دراسة الفقه»، معلناً ندمه على إطلاقه. في أي حال كان قد قبض على السيّد وفي حوزته مسدس وقبيلتان يدويّتان كما كان يحارب ضدّ الانتفاضة. لكن إطلاق سراحه جاء بسبب تدخل رجال دين آخرين، وأعتقد أنهم لم يفعلوا ذلك حباً بالرجل، أو لأنهم يؤمنون بمبدأ عدم قتل المتعاونين. أغلب الظن أنهم كانوا لا يريدون حصول سابقة إعدام رجل دين، خوفاً من أن تترد يوماً ما عليهم^(١٨).

من أين حصل النجفيون على أسلحتهم؟ يبدو أن حكومة صدام أدخلت في حساباتها احتمال إنزال مظليّين من الجنود الأميركيين داخل المدن العراقية. هكذا تحولت مراكز الشرطة ومباني حزب البعث في كل المدن العراقية إلى نقاط لتوزيع الأسلحة الخفيفة. وطلع أحد كبار أعضاء حزب البعث بفكرة عجيبة تقضي بتحويل الجماهير العراقية قوة ميليشيا مدنية قادرة على أن تكبد قوات التحالف خسائر جسيمة. وأخبرتني فاطمة من السماوة أن كل ما كان يتوجب على فتى في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة أن يفعل للحصول على بندقية هو التوجه إلى هناك والقول إنه يريد محاربة الأميركيين عندما يبدأون الهبوط من السماء^(١٩). وقال أحد المتمردين النجفيين: «كان صدام مزهواً جداً بنفسه، كان واثقاً جداً من نجاحه في معركته مع الحلفاء، وضع أسلحة في كل المدارس لتستخدم في حال هبط الأميركيون علينا». رجل أكبر سناً كان يستمع إلى الشاب شرع يخبر هذه القصة عن مصير هذه الأسلحة عشية الانتفاضة: «سألني يوماً بحذر «سيّد» معروف إن كنت أستطيع أن أحضر له بندقية أوتوماتيكية ومسدساً أو مسدسين لأنه يحتاج إليها في منزله. فعلت ذلك وحملتني إليه، داخل حقيية. هناك لاحظت أنه يمتلك مجموعة من الأسلحة، وتساءلت، ما الذي يجري. وقدم شخص آخر لزيارته بينما كنت لا أزال هناك، فسأل رجل الدين زائره: «أين هي الأسلحة التي وعدتني بها؟»، مع أنه كان حصل على بندقيتين آخرين وبضعة مسدسات. عندها سألت السيّد ماذا ينوي أن يفعل بكل تلك الأسلحة، فتمتم قائلاً: «سوف تستخدم، سوف تستخدم»^(٢٠).

لم يكن سادة النجف كلهم حذرين ومعدّين ليصبحوا مثل هذا الرجل مقاتلي ميليشيا مدينيين ضد النظام. سيد آخر لعب دوراً رئيسياً في الانتفاضة، ولكن برّد ومن موقع مختلف كلياً. ولسوء الحظ ينبغي التكتّم على هويته لأنه «اُتُرف» القيام بتمثيل دور المتعاطف مع بعثي، وهو ما يقتضي ضمناً شجاعة شخصية. وهذا أمر لا يزال ممكناً استخدامه ضده بسبب جو الكراهية والطائفية الذي ساد بعد الانتفاضة.

«تورطت في الانتفاضة لأن ابن جارتني، البالغ من العمر ثماني سنوات، كان قد قُتِل. كان أحمد قد أرسل إلى السوق للتبضع قبل أن يدرك أحد أن شيئاً ما يحدث في المدينة. لم يكن قد عاد عندما بدأ إطلاق الرصاص. كادت والدته أحمد أن تفقد عقلها وجعلت تناشدني للبحث عنه. قعدت في وسط داري تصرخ وتشدّ شعرها. وهكذا انطلقنا أنا ومجموعة من الأصدقاء في سيارتين بعد ظهيرة نهار ٣ آذار/ مارس. شقينا طريقنا ببطء وبحذر باتجاه منطقة الميدان في قلب المدينة. كانت المدينة تحت سيطرة متمردين شبان من مناطق الجوار أقاموا المماريس في كل الأمكنة. كانت الأجساد والجثث منتشرة أينما كان. وصلنا إلى نقطة ما عادت السيارة قادرة على التقدم فيها بسبب الحشود والغوضى العارمة، وهكذا انعطفتنا إلى داخل شارع فرعي. كان ثمة منزل لصديق يقع على مقربة. قرب المكان حيث أوقفنا السيارة، وهذا ما قد لا تصدّقه، كان يختبئ ضابط جريح من المخابرات البعثية سبق لي أن عرفته. كان مصاباً بسبع رصاصات، إضافة إلى فجوة واسعة في راحة يده كانت تنزف فوق أرجاء المكان. أخبرني انه كان استطاع إطلاق رصاصة واحدة قبل أن يمزّق جسمه وابل من الرصاص. توسل إلي أن أنقذه. ماذا كان يمكن أن أفعل؟ أليسته عبادة امرأة، كسوته بها وأدخلته في السيارة ثم نقلناه إلى المستشفى. كان يريدني أن أبقى معه لأن المستشفى سقط في أيدي المنتفضين، غير أنني لم أستطع. لست أعرف ماذا حدث له في النهاية. في آخر الأمر وجدنا الصبي الصغير وأعدناه إلى أمه»^(٢١).

دور آية الله الخوئي

كان آية الله أبو القاسم الخوئي، وهو أعلى سلطة روحية شيعية في العالم، يعيش في النجف إبان الانتفاضة. ولد عام ١٨٩٩ في بلدة خوي بـ أذربيجان الإيرانية، وقدم إلى النجف وهو في الثانية عشرة من العمر ليدرس في جامعتها الدينية. وفي النجف درس الإمام الخوئي، الذي هو مرجع الشيعة الأول، طوال السبعين سنة، ووضع أكثر من أربعين مجلداً في التشريع الإسلامي، وهو الرئيس الروحي لمؤسسة وفتية عالمية تحمل اسمه ولها دعم كبير في شبه القارة الهندية. ولقد عارض الخوئي تورط فقهاء الشيعة بالسياسة قبل

وقت طويل من تحول هذا إلى مسألة أساسية إثر نجاح الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩ (بالفعل كان الخميني قد صاغ تعاليمه الخاصة بـ «ولاية الفقيه» في النجف كسلسلة من المحاضرات ألقاها في ١٩٧٠ بهدف معاكسة تعاليم الخوئي السابقة)، وقد فعل ذلك انطلاقاً من قناعته بأن هذا الأمر يفرض مساومات غير مقبولة من شأنها أن تؤدي في النهاية إلى تلطيخ سمعة السلطة الدينية والنيل من مكانتها.

وطوال الحرب العراقية الإيرانية نجح الخوئي في مهمته الهرقية بالبقاء بعيداً عن التأثيرات السياسية، سواء كان مصدرها بغداد أو طهران. ولكن بعد كارثة حرب الخليج، أدركه أخيراً مأساة العراق. ففي ٥ آذار/ مارس وتأثير الضغط الذي تلقاه من عدد كبير من الوجهاء النجفيين الذين تدفقوا عليه، قام آية الله بإصدار فتوى وكان ذلك في اليوم الثالث من الانتفاضة. والفتوى هي رأي شرعي يصدره فقيه في الدين، فقيه كان يمكن أن يتولّى في زمن العثمانيين مهمة مستشار في البلاط. لكن مع حلول الدولة العرية الحديثة، انخفضت أهمية الفتوى، لتعود وتنتعش فقط في السنوات الأخيرة مع موجة تسييس الإسلام. وفي النجف، أقدس مدن الشيعة، اتخذت آراء الخوئي منزلة القانون الوحيد المتوافر طوال الأيام التسعة التي عاشتها المدينة تحت سيطرة المنتفضين.

صدرت فتوى الخوئي بتردد وتحت تأثير ضغط الأحداث. كانت المدينة تتعرض للنهب وكانت جثث رجال الأمن والمسؤولين التي لا يطالب بها أحد، مرمية في كل الأرجاء. وفي الوقت الذي صدرت الفتوى، كان صحن مقام الإمام علي محاطاً بالدبابات التي استولى عليها المنتفضون، وكان يحتشد فيه آلاف الثرودين المدججين بالسلاح والمهتاجين وقد احتجزوا المئات من الأسرى في الداخل. وهؤلاء الأسرى مثل فلاح عسكر، كانوا يحاكمون ويعدمون. لقد عمّ السلب والنهب معظم المدينة وكان كل شيء تقريباً خارج السيطرة وفي فوضى عارمة.

حميد وهو معلّم مدرسة كان يعمل على زيادة دخله الضئيل بالعمل سائقاً لسيارة تاكسي برتقالية ويضياء بالية، سمع عن الانتفاضة للمرة الأولى عبر إذاعة صوت أميركا، وعندما تحدّثوا عمّا جرى في البصرة. انضم حميد إلى التظاهرة عند مقام الإمام علي، وكانت وظيفته خلال الانتفاضة الاستماع إلى نشرات الأخبار الأجنبية وترجمتها لأنه، كما يقول، «لا قبل لي بالأسلحة النارية». في البداية رفض أن يصدّق ما كان يسمعه، غير أنه ما لبث أن امتلأ حماسة ومزّق شهادة أستاذ التعليم التي يحملها، «لأن المدرسة حيث أعلّم تحمل اسم صدام حسين». ويصرّ حميد على أنها لم تكن ثورة دينية. كانت ثورة ضد معاملة صدام حسين لنا. في البداية كان الخبل يسيطر علينا. كنا نعتقد مثلاً أن

شارت السير الضوئية تمثل صدام حسين، لذلك حطمتها. اقتحم الناس المدارس التي كان الجيش يستخدمها كمخازن للأسلحة، ثم جرى توزيع الأسلحة. حوالى الساعة التاسعة من تلك الليلة سيطر المتفضون على وسط المدينة. بعض الأشخاص من الذين قتل أبائهم أثناء الحرب مع إيران شاهدوا الرسمين الذين ساقوهم إلى الحرب. أعدم العديد من الرسمين شنقاً في الدور السفلي من المدرسة الإسلامية المتاخمة للجامع. جرّ الناس الرسمين إلى الشارع وأطلقوا عليهم النار. كانوا ساخطين إلى أقصى الحدود فقطعوهم إرباً وأحرقوهم. اقترب آخرون وكانوا يبصقون على جثثهم^(٢٢).

هذه هي ظروف الفوضى العارمة التي ظهرت تحت وطأتها فتوى الخوئي. وكما يقضي التقليد، كانت الوثيقة موهورة بختم آية الله ومخطوطة باليد بالخط النقشي، وبالتأكيد فإن كاتبها رجل دين يجيد مهنته. قرأ الفتوى للبيان ماجد الخوئي أحد أبناء آية الله، وكان يومها في اليوم الثالث من الانتفاضة، فخطب حشداً من النجفيين المجتمعين في الامتداد الشاسع والمسور داخل «الصحن»، مستخدماً مكبراً للصوت. ومن على سطح الجامع، قرأ ماجد الخوئي الفتوى التالية:

بسم الله الرحمن الرحيم

. أبنائي الأعزاء المؤمنين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الحمد لله على نعمه وآلائه والصلاة والسلام على أفضل أنبياء محمد وعترته الاطهار.

وبعد: لا شك في أن الحفاظ على بيضة الإسلام، ومراعاة مقدساته أمر واجب على كل مسلم، وانني بدوري إذ أدعو الله تبارك وتعالى أن يوفقكم لما فيه صلاح الأمة الإسلامية.

أهيب بكم أن تكونوا مثلاً صالحاً للقيم الإسلامية الرفيعة برعاية الأحكام الشرعية رعاية دقيقة في كل أعمالكم وتصرفاتكم، وجعل الله تبارك وتعالى نصب أعينكم في كل ما يصدر منكم، فعليكم الحفاظ على ممتلكات الناس وأموالهم وأعراضهم، وكذلك جميع المؤسسات العامة لأنها ملك الجميع، والحرمان منها حرمان للجميع.

كما أهيب بكم بدفن جميع الجثث الملقاة في الشوارع ووفق الموازين الشرعية،

وعدم المثلة بأحد، فإنها ليست من أخلاقنا الإسلامية وعدم التسرع في اتخاذ القرارات الفردية غير المدروسة والتي تتنافى والأحكام الشرعية والمصالح العامة.

حفظكم الله ورعاكم ووفقكم لما يُحِبُّ ويرضى، إنه سميع مجيب.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

في ١٨ شعبان ١٤١١هـ (٢٣).

كان هدف الفتوى الأساسي الحض على الرأفة والخشية من الفوضى وإعادة النظام إلى أمور المدينة. وأن يشعر آية الله انه يتوجب عليه إصدارها فهذا دليل ساطع على مدى الخطورة التي بلغها الوضع. ففي ٨ آذار/ مارس صدرت فتوى ثانية عيّنت «لجنة عليا» للقيام برعاية شؤون «المصلحة العامة»، وكانت اللجنة تتألف من تسعة مجتهدين (فقهاء شيعة) معظمهم رؤساء لمعاهد فقهية في النجف، وأعطيت اللجنة صلاحية التصرف باسم آية الله الخوئي في كافة الأمور. كانوا في ما يتعلق بأمور تنظيم الحياة جميعها بمثابة حكومة. ولكن حكومة ماذا؟ هل كانت لجنة لإدارة طوارئ مؤقتة ومحدودة لمدينة النجف المقدسة، أم كانت جنيئاً لحكومة بديلة لكل العراق؟ لم يطرح هذا السؤال إبان الانتفاضة.

آية الله الذي تصرّف من خلال أولاده وحاشيته نجح إلى حد كبير في تحقيق غايته. وما لا يقبل الشك أبداً أن هذا التدخل الشخصي أنقذ العديد من الأرواح العراقية وكبح الميل الذي كان لدى شبان الانتفاضة للقيام بمجازر مجنونة كانت متجذرة في الأحقاد المكبوتة وفي الرغبة بالانتقام. لناخذ على سبيل المثال قضية السجناء الخمسة داخل الصحن: صدر الأمر من آية الله بإخراجهم سالمين من هناك ونقلهم إلى «دار الحكمة»، وهو معهد فقه إسلامي على بعد ٣٠٠ متر ويخص عائلة الحكيم. وأشرف أحد أبناء الخوئي على تشكيل مجموعة مخلصه قوامها خمسة وعشرون رجلاً بكامل أسلحتهم، ثم أخرج السجناء المذعورون «تحت أنظار المجاهدين الملتزمة كراهية ووحشية»، كما وصفها أحد أعضاء تلك المجموعة المختارة. «كانت قلوب المقاتلين الذين يدورون حول الصحن وهم يشاهدون هذه العملية»، كما تابع وأضاف، «مثل جمرات حمراء ملتبهة مملوءة بالغضب من هؤلاء البعثيين الذين أذوا، وأعدموا واعتصبوا أناساً. جرت مواكبة المعتقلين الذين كانوا يُنقلون مشياً على الأقدام، كما نقل بعضهم على حوامل، وكان ذلك في مجموعات صغيرة. وقد استمرت العملية طوال الليل وحتى ساعات الصباح الأولى. قال الرجل الذي كان مسؤولاً عن العملية: «طلب منا السيد مقاتلة المجاهدين الموجودين في الصحن إن اضطررنا إلى ذلك» (٢٤).

وشكّلت اللجنة العليا لجناً فرعية أيضاً من أجل تنظيم توزيع الطعام، وإعادة فتح كل مراكز الخدمات الضرورية والأساسية في المدينة. وقدمت كذلك ضمانات تؤكد لموظفي القطاع العام والأطباء والمهندسين، حفظ سلامتهم، وطلب منهم بإلحاح معاودة أعمالهم. وعملت اللجان الفرعية بضعة أيام قبل أن تسقط المدينة في أيدي قوات الحرس الجمهوري. كذلك جرى تعيين لجنة فرعية عسكرية تتألف من ستة ضباط، وكانت وظيفة هذه اللجنة تنظيم دفاع النجف والتنسيق مع المدن الأخرى المحررة.

أحد الضباط الستة، والذي كان قد عيّن بتعليمات مباشرة من آية الله الخوئي، وأرسل من قبله عبر الخطوط الفرنسية لالتماس مساعدة الحلفاء، كان أبا حيدر. «عندما طلب مني الانضمام قلت لزوجتي «أنا ذاهب يا امرأة، أنا ذاهب إلى حتفي». وكما ترى لم أكن أتوقع البتة نجاح الانتفاضة. لكن ما أضاء لي بصيص الأمل هو أن النجف، المدينة التي ولدت فيها ونشأت، والتي لم أكن أحسب أنها قد تنتفض وتثور، انتفضت ضد الطغيان. كان هذا ما دفعني إلى المشاركة».

المشهد من بغداد

حتى بداية حرب الخليج، كان حبيب يعيش مع عائلته في منطقة ثرية وآمنة جداً في بغداد. كمتخرج جامعي شاب يطمح إلى تطوير تجارة العائلة، كانت حياة حبيب المهنية مليئة بالوعد. غير أن عالمه المطمئن والمستريح تحطم في تمام الثانية والنصف من فجر ١٧ كانون الثاني/ يناير ١٩٩١. «كنت على وشك النوم عندما اندلعت الحرب. أصبحت السماء حمراء ساطعة، وكانت تخرقها شعاكات ملتحمة من الضوء. اندلع ضجيج الطيران عالياً في الليل. ليس بمقدوري أن أجِد الكلمات المناسبة لوصف صخب انفجارات القصف. كان ذلك أشبه بنهاية العالم. أدت المذاياع وسمعت صدام يلقي خطاباً: «إن الأميركيين يهاجموننا...» ولم يكن في مقدور أحد تصديق ما كان يحدث. حتى صدام حسين نفسه لم يصدّق ذلك. عندما توجه عبر الإذاعة إلى الشعب، كان صوته واهناً وبدا كما لو أن عوداً قد حُشر فيه»^(٢٥).

بينما كان الراديو يث أغنيات عاطفية للمغنية ماجدة الرومي، كان أكثر من مليون من سكانها الأربعة ملايين يفرّون مذعورين من بغداد. وهذا الاندفاع المسعور، لدى بداية الحرب، للخروج من المدن، كبّد الناس مشقات جسدية فورية ومباشرة فاقت حملة القصف نفسها (التي أنجزت في بغداد بالدقة ذاتها التي أعلنها الحلفاء). وما أن أدرك أن القصف لم يكن عشوائياً، حتى عاد حبيب، مثل معظم الناس، ليعنى بمنزله وعمله، واستطاع عبر أصدقائه التكريتيين والعديدين والرفيعي الشأن في حزب البعث، أن يزور

ملجأ عميرية الشهير، قبل اصابته بصاروخ القوات المتحالفة الذي قتل ما يقارب الأربعمئة مدني، وبعد ذلك.

«كانت عائلات أعضاء حزب البعث تلتجئ هناك. جميع أفراد عائلة جميل شنشل احترقوا أحياء. لكن هناك عائلات أخرى تسكن في الجوار كانت التجأت إليه أيضاً. زرت مسرح الحادثة يوم تعرضه للقصف وقبل أن يقفلوا المكان كله نهائياً. أخبرني أصدقائي ان الحكومة سارعت إلى إخراج صناديق الوثائق المهمة قبل أن تهتم بالناس الموجودين في الداخل. كان بعض الجثث قد تفحّم والبعض الآخر بدا وكأنه ذاب أو انصهر مندمجاً ببعضه البعض. الأذرع والسيقان بدت مثل جذوع مقطعة. في الواقع، لم يبق من مشهد الأشلاء أصلها البشري. وضعت البقايا داخل شاحنات ولم يقم أحد بمسعى للتعرف إلى هويات أصحابها. في مطلق الأحوال كان ذلك مستحيلاً. ما زال بوسعي أن أرى تلك المشاهد تامة، وغالباً ما توقظني في منتصف الليل. مهما قلت، لن يكون بمقدورك أن تتخيل ذلك ما لم تمر بما مررنا به».

تعكس مشاعر حبيب حيال حرب الخليج بشكل دقيق مشاعر المجموعة السنية في بغداد، وكذلك حاله النفسية عشية الانتفاضة التي بدأت مباشرة بعد انتهاء الحرب. إنها مخاوف أقلية محاصرة على رغم أنها كانت لا تؤيد الديكتاتور، وهي احتشدت حوله خلال الانتفاضة لأنها شعرت بأن وجودها بالذات كان مهدداً من جراء الوضع المتزايد الانفلات. وبغض النظر عما إذا كانت تلك المخاوف مبررة أم لا، فإن كلام حبيب يوضح بجلء أن المسألة كانت، في ما يتعلق به على الأقل، مسألة حياة، لا مسألة حفاظ على امتيازات.

«سمعنا عن الانتفاضة في الجنوب عبر الإذاعات الغربية. هل تدرك أن ثمن بطارية صغيرة لراديو نقال كان عشرة دنانير في بغداد؟ ولم يكن في مقدورك أن تجد واحدة حتى بهذا السعرا. لم يعد هنالك بالطبع تلفزيون. كان عليّ أن أدير راديو سيارتي لأستمع إلى نشرات الأخبار وإلى الخطب المهمة. كانت هناك محطات جديدة من كل الأنواع، بعضها لم أكن سمعت به إطلاقاً من قبل. الحكومة لم تطلق عليها تسمية انتفاضة بل دعتها الفتنة. كانوا يصفون المنتفضين بالغوغائيين. بدأوا فقط يتحدثون عما حدث في الجنوب بعد أن أحكمت فرق الجيش الحكومية سيطرتها على المدن من جديد. لم تكن هناك أية أخبار رسمية عن الانتفاضة الشيعية عندما بدأت. لكن الخبر سرعان ما انتشر.

لقد أخبروني عن قائد شيعي لوحدة عسكرية تتألف من حوالى أربعة آلاف جندي أدركت ضواحي النجف وكربلاء. أحد السياد رُحِبَ بالقائد وقَدِّمَ لرجاله الطعام مجاناً. كانت إيران مصدر كل هذه الأطعمة. وفي تلك الأثناء كنا في بغداد، نتصوّر جوعاً. السيد والقائد عملاً معاً على تغيير حاكميتي كل من النجف وكربلاء إلى جمهورية إسلامية. وقد عاد إلى كربلاء والنجف كل العراقيين الذين طردوا من البلاد أثناء الحرب العراقية - الإيرانية، لكي يشتركوا بالقتال. كان الناس يهتفون في الشوارع، «ماكو ولي إلاّ علي، نريد حاكم جعفري».

كنا خائفين لأن الشيعة كادوا يدركون بغداد. العراقيون موهوبون بالتهب، إنهم خبراء في الفروود (نهب المنازل والمتاجر اليهودية خلال مذبحة ١٩٤١ كان دعي بالفروود، والمصطلح هذا استخدم بشكل واسع في كل أرجاء العراق إبّان الانتفاضة). أوكد لك لو أن تمرد الشيعة أدرك بغداد، لكان الذبح أصبح بفلس. كانوا بالتأكيد سيقترحون كل المنازل، وعندما يعرفون هوية الساكنين، يذهبون كل المحتويات ويذبحونها جميعاً. ما كان سيرف أحد من قتل من. كان المسيحيون خائفين جداً وقد هرب العديد منهم من البلاد. فمن ذا الذي كان يوقع نفسه في الوسط ويكون كبش المحرقة عندما تكون مسألة مسلمين شيعة ومسلمين سنة، والطرفان عرب؟ هذا إن تفاضينا عن مسألة السنة الأكراد الذين سيقتلون السنة العرب! بالطبع سيكون الضحية المسيحيين واليهود.

دعني أقصّ عليك حادثة جرت. كان أناس يصطفون في أحد الأيام من أجل الحصول على الطعام، عندما قُزرت إحدى النسوة المسلمات تجاوز دورها لتقف أمام امرأة مسيحية. دفعتها جانباً قائلة: «أنت ابنة بوش، إذهي إلي، هو سوف يعطيك طعاماً». التقطت المرأة المسيحية حقها وضربت به المرأة المسلمة وهي تصبح بها قائلة: «كان زوجي في الجبهة يدافع عن بلدنا مثل كل العراقيين الآخرين. شقيقي قُتل في الحرب العراقية الإيرانية. كيف تجرئين على نعتي بأني ابنة بوش؟» عراكات كثيرة من هذا النوع جرت في بغداد. كان المسيحيون يعتبرون حلفاء للبريطانيين والأميركيين، لأن أميركا، وهي البلد المسيحي، كانت تقصف العراق. أوكد لك أنه ليس هنالك مطلق ودّ مفقود بين العراقيين، لأن الجميع يكره الجميع.

أرسلت الحكومة قوّات خاصة لمعالجة الوضع في الجنوب، قوات شرسة جداً وبالغة البأس، كلّها من السنة. كان هؤلاء الجنود من مناطق الرمادي وهيت

وسامراء والموصل وتكريت وهم أزالوا من الوجود المدينتين وحتى المدافن، أزالوا كل شيء. محوا المكان كلياً. كانت الكلاب تأكل جثث الناس في الشوارع.

هناك الآن عداوة ضارية بين الشيعة والسنة، ولن تصطلح الأمور أبداً مهما حصل لأن الكراهية مستشرية. لم تكن المسألة قط كذلك، إذ بات الانتقام منتشرأ بين الناس العراقيين العاديين. ووسط معمة الاضطرابات انكشفت العداوة والكراهية بين عدد كبير من الناس. كان ذلك هو الوقت المناسب للانتقام.

عندما بدأ الأكراد انتفاضتهم، جاءت امرأة تعيش في جوارنا من حيث كانت في الشمال، بمعية أولادها، وأخبرتنا عن الفظائع التي ارتكبت. قتل الأكراد زوجها الذي كان عضواً في الحزب وقالوا لها: «نحن لسنا كالعرب. سنقتل فقط زوجك، خذي أولادك وعودي إلى ديارك». قالت إنه عندما سيطر الأكراد على المنطقة ألقوا القبض على البعثيين وعرضوهم في البلدة وطلبوا من الناس أن يشير كل منهم إلى كل من ألحق الأذى به. راح كل شخص يروي قصته، كيف أن أحد المحتجزين تعدى عليه، وكيف سبب هذا الأذى لذاك والخ. وعندما وافق رئيس المجموعة التي كانت تحتجز السجناء على تنفيذ الإعدام، كان الناس ينقضون على السجن بالخناجر حتى قبل أن يتسنى تنفيذ العقوبة. قطعت رؤوس عدد من الأشخاص، وكانت جثثهم تقطع إرباً. كان كل ذلك انتقامات وتصفية حسابات، وبدا الأمر عبارة عن مجزرة. قتل الأكراد الآلاف من البعثيين، غير أنهم لم يقتلوا عشوائياً. قتلوا فقط بعثيين ومتعاونين مع النظام. وبينما كان الأكراد يسيطرون على كركوك منع بعض العراقيين من دخول المدينة. قيل لهم إن هذه هي كردستان. كان الأمر كما لو أنك تحتاج إلى تأشيرة «فيزا» للدخول إلى بلدك بالذات».

يمتلك حبيب حساً بالمزاج. لقد جعل يروي ماذا حدث عندما زار صدام حسين النجف وكربلاء بعدما تم له سحق الانتفاضة. انتزع الرئيس مسدسه وأفرغ رصاصاته في الهواء، وذلك بحسب تقاليد النصر عند العرب. «في اليوم التالي سمعنا عبر راديو موثني كارلو ان هذا الأمر اعتبر بمثابة خرق لاتفاقية وقف إطلاق النار، وعُزم صدام بمبلغ ألف دولار أضيف إلى فاتورة التعويضات».

على أية حال لم يكن حبيب سنياً عربياً بل يهودياً بغدادياً. ولد ونشأ في عراق صدام حسين، وغالباً ما يخطيء الناس فيه فيحسبونه بعثياً «بسبب شاربي» ولأنني داكن الاسمرار. ولهذا السبب طلب مني عدة مرات الانضمام إلى حزب البعث. كنت

انضمت بالفعل عندما كنت في السادسة عشرة من عمري، لكنني طردت لأنهم خافوا أن يرتفع شأني في الحزب فأنقل من موقعي ذاك معلومات لإسرائيل. كلما كان يحضر وفد غربي إلى بغداد، كان يطلب زيارة كنيس حبيب.

«في أحد الأيام كان فريق أميركي يصوّرنّا، وهو مثار، داخل الكنيس، كما لو كنا بقايا يهودية مفقودة من أيام بابل القديمة، راح المصور يركّز على كتاب التوراة خاصتي، مصوراً ليّاه وأنا معه من كل الزوايا. كنت أجهّد فاعلاً كل ما بوسعي للظهور جيّداً وورعاً، مركزاً نظري بانكباب على الصفحة أمامي كما لو أنها أهم شيء في الكون. كان من الصعب جداً عدم تحريك وجهي. في مرحلة ما اضطررت أن أستدير لأسأل رجلاً يهودياً عجوزاً كان قربي إن كنت أفتح الصفحة الصحيحة. نظر إلى توراتي ثم نظر إليّ وقال: «أنت تحمل التوراة رأساً على عقب». بصراحة أعترف أنني لا أجيد قراءة العبرية».

اليهود ليسوا فقط إحدى أقدم الأقليات في العراق، بل انهم تحوّلوا كذلك إلى إحدى أصغرها. بضع مئات من الأشخاص فقط. إنهم أكثر الناس معرفة بماذا يعني العيش تحت تهديد الاضطهاد. عندما وصل حزب البعث إلى السلطة عام ١٩٦٨ سعى إلى دعم شرعيته عبر إثارة حملة معادية لليهود - بما في ذلك شقّهم علناً - وهذه كانت الضربة الأولى على وتر حملة عامة وشاملة من الرعب أصابت في النهاية كل فرد عراقي. لقد ثارت ردة فعل مزعجة بين بعض العرب على كتابي «جمهورية الخوف» وكان أصحابها يقولون: «لماذا أنسحت كل هذه المساحة لمأزق حفنة من اليهود في العام ١٩٦٨؟ أولم تصب المعاناة كل العراقيين؟». لكن، في الحقيقة، بدأ اضطهاد سلطة حزب البعث لكل فرد من العراقيين منطلقاً من الأضعف بينهم. وهذا يتحدث حبيب بلسان مخاوف الأقليات في العراق وبأفضل طريقة ممكنة، لأنه يتحدث انطلاقاً من عمق تجربة مغروسة في داخله عن معنى أن يكون المرء مضطهداً من قبل حضارة الأكثرية الساحقة. وهو يتحدث بشكل خاص عن المخاوف الجديدة للمجموعة الأكثر امتيازاً تاريخياً في العراق، وحكم الستة العرب في بغداد.

وجه الانتفاضة الآخر

غالباً ما تنتشر إشاعات عن مشاهدة غرباء خلال كل انتفاضة. حميد، أستاذ المدرسة الذي ورد اسمه سابقاً، كان شاهداً على عملية الاستيلاء على «صحن» مقام عليّ في النجف. نهار الأحد ٢ آذار/ مارس سمع أشخاصاً يهمسون لبعضهم البعض بأن «عدداً كبيراً من القوات كان يتدفق من إيران». ثم رأى ما يقارب الخمسة عشر أو العشرين

رجلاً ممن يدعون أنفسهم «مجاهدين»، يخرجون من الجامع الرئيسي وهم يهتفون «الله أكبر»، وكانوا يحملون أسلحة خفيفة. كانوا ينشدون «لا شرقية، لا غربية، جمهورية إسلامية»، وهو شعار مرتبط بالثورة الإسلامية الإيرانية.

«كانوا يهتفون أيضاً، «الإسلام ديننا، والحكيم قائدننا»^(٢٦). لم أستطع التعرف على واحد كان بينهم. بدا وجهه لي غير مألوف. كان مرخياً لحية إسلامية ولاناً رأسه بعصبة خضراء. قال بعض الأشخاص إن هؤلاء الرجال أجهزوا على رجال المخابرات داخل المسجد. اجتمع الناس عند المسجد ليستمعوا إلى التوجيهات عبر المكبرات. كانوا يوزعون المأكولات ويطلبون الأدوية. انتشرت شائعة تقول إنه جرى تسميم الطعام. أحد الصيادلة الأثرياء، والذي فز لاحقاً إلى السعودية، شرع أبواب مخزنه للجمع. كانوا يطلبون رجالاً يحسنون قيادة الدبابات أو تشغيل صواريخ سريلاً. مكبرات الصوت في المسجد حذرت الناس من أنواع معينة من السيارات، ومن الأشخاص الذين قد يكونون من المخابرات. وللتعريف بأنفسنا عند حواجز المراقبة على الطرقات كنا نضع صورة للإمام علي أو آية الله الخوئي فوق لوحة أجهزة القيادة (التابلوه)، أو نضع علماً أخضر اللون معلقاً على هوائي السيارة. كانت الإشاعات منتشرة في كل مكان، بأننا سوف نتحد والأكراد في بغداد، وبأن المعارضة العراقية كانت ستلتقي دان كوايل»^(٢٧).

رواية حميد لما جرى تُدخل عناصر جديدة تتعارض مع جزمه شخصياً بأن «هذه لم تكن انتفاضة دينية». النظام وعدد كبير من المنتمين إلى الشرائع العليا في الطبقة السنية الوسطى لديهم اعتقاد راسخ بأن كل الذي جرى كان من فعل «دخلاء». والتفسير الآخر للانتفاضة، الذي يتناغم مع مسألة وجود غرباء في مدينة النجف، يعتبر أنها لم تكن حركة عفوية إنما معدة ومخطط لها من قبل. كان هذا هو رأي قائد رفيع المستوى في الجبهة الكردستانية، قاد أولى هجمات الـ «بشمروغا» المنظمة على مواقع الجيش العراقي، ولعب دوراً أساسياً داخل شمال العراق إبان الانتفاضة.

«نحن صنعنا الأخبار داخل العراق. ربما كانت الانتفاضة حدثاً عفوياً في بعض الأماكن، لكنها داخل المنطقة الكردية كانت منظمة ومعدّة من قبل الجبهة الكردستانية. أشعلنا نار الانتفاضة، التي بدأت في قرية رانية قرب الحدود العراقية الإيرانية والمنشآت السكنية الموصولة بها. لم يكن ثمة ما هو عفوي فيها. تماماً بعد الغزو العراقي للكويت، جرت، خلال عدة اجتماعات، مناقشة سيناريوهات مختلفة لاحتمالات ما سيحدث، وقد حدث ذلك داخل قيادة الجبهة الكردستانية

كلها وقيادة المجلس الإسلامي الأعلى. كنا توصلنا إلى شكل من التناسق بين الحركة الكردية والمعارضة الشيعية في العراق، وتوافقنا على عدد من المبادئ من بينها التنسيق السياسي والعسكري. وعد إخواننا الشيعة بعدم إعلان رغبتهم في إنشاء جمهورية إسلامية في العراق، لأن هذا ينعكس على الفور عدائية على المستويين الإقليمي والعالمي ضد الانتفاضة».

- كنعان مكينة: لكن ظهرت إبان الانتفاضة شعارات تدعو إلى قيام جمهورية إسلامية؟

- أجل، وكان هذا أحد الأسباب الرئيسية في هزيمتها. لو لم تتعرض تلك العود للهزيمة، ولو لم تنتشر الشعارات التي ذكرت، لما كانت الانتفاضة أدركت النهاية المأساوية التي حلت بها.

أدرك انه ليس من مصلحة الشعب العراقي، ولا من مصلحة المعارضة العراقية القول إن هذه الانتفاضة جرت بالتناسق بين الحركة الكردية والمجلس الإسلامي الأعلى طوال عدد من الأشهر وخلال العديد من اللقاءات التي جرى الإعداد لها مسبقاً. ولكن هذه اللقاءات جرت بشكل مستمر عبر لجنة تنسيق كان مركزها في بختران. كانت ثمة لقاءات تعقد كذلك في طهران، وكانت بيننا لجان فرعية عسكرية وسياسية ولجنة للعلاقات العامة. الإيرانيون كانوا شهوداً على كل هذا. كانوا يستجلون الجلسات على أشرطة كما يستجلون الملاحظات أثناء اللقاءات، ويجب أن نتذكر أن اللجنة العليا للثورة الإسلامية في العراق تملك قوة ضخمة اسمها لواء بدر قوامها ما يقارب العشرة آلاف رجل. الحركة الكردية لديها أيضاً قوات مسلحة. كانت هذه القوات جميعها موزعة بحسب ترتيبات متفق عليها في شمال البلاد وجنوبها.

- كنعان مكينة: لكن أهي صحيحة قصة أمر الدبابة في ساحة سعد؟

- أجل إنها صحيحة.

- كنعان مكينة: ما اسمه؟

- لسوء الحظ، لا أعرف^(٣٨).

ليس لدي أي مبرر للشك في صحة مسألة حصول لقاءات من النوع الذي ذكره القائد الكردي، وحضرها ممثلون رسميون عن الحكومة الإيرانية. فيبدو أن الإيرانيين كانوا قد ضغطوا على الجبهة الكردستانية وأجبروها على الحضور، وكانت لقاءات طهران تجري

على أرفع مستويات التمثيل السياسي لدى كل من الطرفين، الجبهة والمجلس الإسلامي الأعلى. أما جدوى تلك اللقاءات فهي، في أي حال، مسألة أخرى.

ويرى الأكراد غير المنضوين حزبياً أن الانتفاضة كانت عفوية في الجنوب مثلما كانت في الشمال، وأن الأحزاب الكردية دخلت على الخط فقط بعدما بدأ مواطنون أكراد عاديون داخل العراق بمسكون زمام الأمور. عند صبيحة ٣ آذار/ مارس، في منطقة خبات، وفي مجتمع سكني بني لإيواء أكراد هجرتهم الحكومة عنوة خلال الثمانينات، قام، على سبيل المثال، تلامذة مدرسة ثانوية بمجابهة وحدة من قوات الطوارئ كانت تبحث عن جنود فارين. اندلع القتال وسقط العديد من القتلى، لكن الحادث جرى احتواءً^(٢٩).

نهار ٦ آذار/ مارس صدرت تعليمات وأوامر خاصة إلى مخابرات منطقة دهوك من مديرية الأمن المركزية في بغداد، تقضي بقمع التظاهرات الشعبية. والوثيقة التي وقعت في قبضة الشوار أثناء الانتفاضة، كانت تصدرها البسمة الإسلامية التقليدية «بسم الله الرحمن الرحيم»، وهي تركز كلياً على «التظاهرات المعادية»، وأيضاً الإجراءات التي ينبغي تنفيذها، «بغلق كافة المنافذ والطرق»، وتجري «السيطرة على المناطق المرتفعة التي تشرف عليها». أما البند الرابع فهو الأشد حسماً: «بعد اتخاذ الإجراءات أعلاه وحصر العناصر المعادية، يتم استخدام القوة المسلحة وحسب التوجيهات المركزية بقتل ٩٥ بالمئة منهم وإبقاء الآخرين لغرض التحقيق»^(٣٠).

سرور، عامل كهربائي، شهد سقوط دهوك على الرغم من كل هذه التعليمات الاستثنائية. «كان التركيز على مكاتب الأجهزة الأمنية، وهذه قاومت بضراوة حتى السادسة والنصف من صباح يوم ١٧ آذار/ مارس ١٩٩١. كان الحاكم هناك في الداخل يقدم التعليمات ويشجع رجاله على الاستمرار في القتال. كان يقول لهم، «لا تخافوا.. هؤلاء ليسوا من البشمرغا». كان محقاً. فالثمة والخمسون شخصاً، أو ما يقارب هذا العدد، الذين يهاجمون المبنى، كانوا من الناس العاديين ومن المرشدين الأكراد. حين غادرت منزلي رأيت بالفعل بعض المرشدين يرتدون زيّ البشمرغا على الرغم من أنهم لم يكونوا في الواقع من البشمرغا». في اليوم التالي، كما يروي سرور، وصلت فرقة من ستين مقاتلاً من البشمرغا إلى دهوك، بعدما كانت البلدة تحررت كلياً بواسطة سكانها وأولئك الذين كان يطلق عليهم سابقاً اسم المستشارين»^(٣١).

والمستشارون أكراد نافذون، وهم في الأغلب رؤساء قبائل يحصلون على مبالغ طائلة من بغداد مقابل تهدة الأكراد وتنظيمهم داخل وحدات عسكرية يرأسونها وترتبط

بالجيش العراقي. وهؤلاء المستشارون المعروفون محلياً بالـ«جحوش» (وهي جمع عامي لكلمة جحش). يقومون بقيادة كل الوحدات الكردية التي تتفاوت أعدادها بين بضع مئات وبضعة آلاف من الرجال. في أواخر الثمانينات كان هناك ما بين الـ ٣٠٠ و ٣٥٠ وحدة من هذا النوع، مؤلفة ما يزيد في مجموعته عن ربع مليون من الجنود الأكراد غير النظاميين. ولم تتدخل منظمات الجبهة الكردية في الشمال إلا بعد ارتداد عدة مئات من هؤلاء المستشارين المزعومين. والإنشقاق عن الدولة الذي حصل في وقت واحد، من قبل الجحوش الأكراد ضباطاً ومستشارين والرجال التابعين لإمرتهم، جاء متوازياً مع ما كان يحدث في الجنوب. ويبدو أن الرّدات أو التخلي شرعت تظهر بعد عدة أيام. من اندلاع الانتفاضة في البصرة، على الرغم من أن قاعدة خاصة بهم كانت وضعت في وقت سابق، بشكل قرار مشترك اتخذته كل المنظمات الكردية السياسية. وبدوره كان هذا القرار يمنح العفو العام لكل المتعاونين مع حزب البعث، وهو ما جرى إبلاغه إلى «المستشارين» عبر اتصالات سرّية ورسائل إذاعية لاسلكية عبر العراق في شتاء ١٩٩٠. والرّدّة التي نشأت نتيجة لذلك وقرّت لحزبين كرديين رئيسيين - الحزب الديمقراطي الكردستاني والاتحاد الوطني لكرديستان - الحافز للتصرف عسكرياً.

نهار ٦ آذار/ مارس أصبحت قرية رانيّة القرية من الحدود الإيرانية، الموقع الذي دخلت منه قوات البشميرغا الكردية، والتي انتشرت بعدئذ في المناطق الأخرى. وبالتناسق مع الخلايا المسلّحة والوحدات التي كانت وضعت سابقاً في القرى والمدن، هاجمت قوّات الجبهة على الفور مراكز مخابرات حزب البعث. قرى مثل دهوك والعمادية وزاخو وعقرة كان حررها ضباط من «الجحوش» من دون أية مساعدة من بشمرغا الجبهة الكردستانية. ولم تأت المقاومة الأشرس لتقدّم قوّات المتمردين المتدفقة من إيران من الجيش العراقي، بل من مجاهدي الشعب، وهم جماعة دينية إسلامية إيرانية مناهضة للخميني وتتمركز في العراق بقيادة مسعود رجوي^(٣٢)، مستخدمة دبابات ومدفعية كانت زوّدتها بها الحكومة العراقية. فقد استطاعت قوّات رجوي أن توقف التقدم الكردي باتجاه السليمانية طوال يومين، لكن مع تحرير كركوك في ٢٠ آذار/ مارس، بات معظم شمال العراق تحت السيطرة الكردية لأول مرة في تاريخ العراق.

إن عفوية الانتفاضة في الشمال هي مسألة بحث وتقصى بقدر ما هي حقيقة واقعة. في مطلق الأحوال فالدليل ساطع على أن منابع الانتفاضة كحدث شامل بدأت في الجيش العراقي وأطلق شرارتها الأولى ضابط رفيع الشأن، فاجأ نفسه هو بالذات ربما، حينما قفز على رأس الدّبابة وشجب النظام. المؤكّد أنه فاجأ المعارضة العراقية المتمركزة في إيران - الشيعية والكردية - وأخذها على حين غرة. فالمثال الذي قدّمه هذا الضابط

انتشر كالتار في الهشيم، لكن النار هذه اشتعلت في شمال البلاد بشكل مخالف كلياً عما كانته في الجنوب.

فدعم الانتفاضة حتى بين الأكراد لم يكن بالصلابة التي ادّعاها الكثيرون في المعارضة العراقية منذ ذلك الحين. فعلى سبيل المثال، لم ينفصل عن السلطة جميع القادة الأكراد من (الجهوش). وأحد الملاكين الأثرياء، وهو أيضاً رئيس قبيلة ولديه ارتباطات تجارية وصفقات في كل أنحاء العراق، حارب بمعية النظام ضد أقاربه بالذات طوال الانتفاضة، إلا أنه بدّل موقفه بعد أن انتهى كل شيء. لقد كان بحسب وصفه لنفسه: «صديقاً حميماً لعائلة صدام» وكانت لديه علاقات وثيقة مع أعضاء بارزين في قيادة حزب البعث طوال سنوات عدة. هذه العلاقات بدأت في وقت ما من أواسط الثمانينات عندما، «توجهت أنا ومجموعة من الأشخاص لثمنج ميداليات الشجاعة تلك. كنا حوالي العشرين شخصاً. توجهنا ودخلنا القصر الرئاسي وعندما أطلّ صدام لم يصقّ له أي متا. كنّا رؤساء قبائل وخجلنا من أن نصقّ مثل الأطفال». غير أن شيئاً ما حدث، لأنه حين توجه ثانية هو ورؤساء قبائل آخرون للقيام بزيارتهم الثانية، «اتفقنا على التصفيق لصدام لأننا أدركنا أنه يحب هذا النوع من الاحتفاء». وهذه التبريرات الصريحة واللافتة التي قدّمها هذا «الجهوش» القائد لتفسير تصرفه إبان الانتفاضة يمكن، مع تعديلات مناسبة، أن تطبق على كل أولئك العراقيين الذين استفادوا مادياً خلال فترة الثمانينات:

«أجل، لقد آزرتهم عام ١٩٧٥ عندما قمعوا الأكراد. عام ١٩٨٨ عندما استُخدمت الأسلحة الكيميائية ضد الأكراد ناصرتهم أيضاً. في ١٩٩١ عندما أجبروا الأكراد على الهرب إلى الجبال حيث قتل منهم الآلاف، ناصرت البعثيين كذلك. كيف استطعت أن أفعل كل هذا؟ الأمر لا يتعدى أنني لم أكن أثق بقوى المعارضة في ذلك الوقت. أنا والمستشارون الآخرون كنا نشأنا في المدن والعواصم. إننا معتادون على نمط عيش معين. لدينا أراض وأقرباء. إنني أمتلك حوالي السبعة آلاف دونم من الأراضي وراء الجبال هناك. صادرها كلها صدام، وبدل ذلك اشترى ولائي بمبلغ مئة ألف دينار تدفع كل شهر. بعض أقربائي تمرّض للاضطهاد... أعرف ذلك. ولكن كما قلت من قبل، لم تكن نثق بقوى المعارضة خلال فترة الانتفاضة.

رأينا ان المسألة الكردية مرتبطة بالإيرانيين. ولكن كلما كان الإيرانيون يقدّمون شيئاً للعراقيين، كانوا يخذلون الأكراد. لو ان أميركا أو بريطانيا أو فرنسا تبنت

القضية الكردية، كنا انضممنا إلى الثورة الكردية. ولكن كما يجب أن أكرر مجدداً، لم نكن نثق بقوة المعارضة. لهذا بقينا على ولائنا للنظام.

أجبرت على العودة مع الجيش لاسترداد بلدتي. وحين أتينا، وجدنا أن أقرباءنا كانوا يحاربون ضدنا وقد سدّوا طريق الدخول في وجوها. قبل ثلاثة أيام من نجاحنا في استرداد البلدة، تقدمنا نحو بلدة مجاورة. استولينا عليها وألقينا القبض على ثلاثة مسلّحين من البشمروغا. وحين هبط الليل أطلقت سراحهم طالباً منهم أن يذهبوا ويخبروا الناس عمّا رأوه بأعينهم. ليخبروهم أن الجيش سوف يأتي ثانية.

حتى عندما أصببت، كنت مسروراً لكون الأكراد يقاومون. أردتهم أن يستمروا في الدفاع عن البلدة. أخي وابن عمي وأقرباء آخرون كانوا يقاتلون في الجبال المحيطة. أصابوني بجراح... لكنني كنت مسروراً. ورغم أنني كنت مصاباً، رفضت الذهاب إلى المستشفى. السبب الذي دعاني للبقاء مع الجيش هو رغبتني في الحؤول دون أذية الناس أو إلحاق الدمار بالبلدة. بعد ذلك توجهنا إلى البلدة التالية التي وجدناها مهجورة. أدركت آنذاك أن الأكراد أصبحوا عقلاء يعون مصلحتهم، وأنهم سوف يحققون في وقت قريب أهدافهم.

السؤال المطروح الآن، هو، ما الذي سيحدث عندما يغادر الحلفاء. منذ عشرة أيام [أيار/ مايو ١٩٩١] استدعاني عزّت الدوري مع وجهاء آخرين لم ينضموا إلى الانتفاضة. كان قد جهّز لكل منا حقيبة مليئة بالمال. قال لنا: «إنكم قلقون... تشعرون بالخوف لأننا على وشك القيام بتسوية مع الأكراد». أجبنا بأننا لسنا خائفين لأن كل أقاربنا وكل مقتنياتنا أصبحوا في الجبال. كنا متروكين وحدنا. قال إنهم قد يهبونا مقاطعة دهوك. قلنا: حتى أولادنا ما عادوا يوافقونا هذه الأيام. أجبنا: «حسنًا، تعلمون أن لديكم نفوذًا، وفي مقدورنا تعيينكم ممثلين عن الحكومة في دهوك». قلت، «إن جميع الأكراد لن يوافقوا الآن على تعييننا ممثلين لهم». قال الدوري عندئذ: «إننا نسالم الأكراد أحياناً، وأحياناً نحاربهم. الآن وقت المفاوضات. ولكن حين ينتهي هذا وينسحب الأميركيون، ستكون ثلاثة أيام كافية لمعالجة المشكلة الكردية.

كان يعني بكلمة «معالجة» شن الحرب على الأكراد. الفرق هذه المرة أن الجيش لن يضطر إلى القيام بهجوم واسع. سوف يستخدم صدام وسائل أخرى. لن يزعجه البتة أن يعمل على اغتيال، ثم التوجه إلى الأكراد واتهامهم بالقيام بهذه

الفعل، طالباً الانتقام لدمي المغدور. إنه يراهن على مسألة الوقت. لذلك سوف يحتفظ بنا إلى أن يوقع اتفاقية مع المعارضة. بعدئذ سوف يسلمنا إليهم. ويحترض أكراداً آخرين على القيام بقتلنا.

أظن أن الوقت بات مناسباً لتبديل المواقع. لقد ربطت الآن معسيري بمصير شعبي. إننا نثق بوقوف أميركا إلى جانبنا، لحمايتنا. صحيح أن الأميركيين باعوا الأكراد في ١٩٧٥، لكن الوضع بات مختلفاً، لأن مصداقية الولايات المتحدة هي الآن على المحك. سواء تعلق الأمر بأسباب إنسانية، أو بكون الأكراد محظوظين، فإن أميركا في الحالين وقعت في الفخ. إنها تواجه وضعاً قائماً بمطلق الأحوال طالما المسألة الكردية قائمة. لست أظن أن عالماً متحضراً مثل الغرب وأميركا، وهو المدافع عن حقوق الإنسان في كل أنحاء العالم، يمكن أن يقدم الأمل للأكراد، ثم يتخلى عنهم ليواجهوا عدواً مثل صدام. لولا غلطة صدام المميتة في غزو الكويت، لكان استمر العرب في كرههم الأكراد، ولكانت المسألة الكردية بقيت مجهولة في العالم،^(٣٣).

من البهجة إلى المسخرة

إن كانت الثورة نوعاً من المسرح، كان الحدث الأكثر مسرحية والأعمق رمزية خلال أيام الانتفاضة الأوائل، والذي تُنل في كل مدينة وقرية في جنوب البلاد وشمالها، هو تمزيق وتحطيم صور صدام حسين. هناء (وهو اسم مستعار)، مهندسة وأم لطفلين، وصفت المشهد كما جرى في السليمانية:

«حين سمعنا ان المعركة داخل مبنى قيادة المخابرات المركزية قد انتهت، خرج الجميع إلى الشوارع. أقبل ما يقارب الخمسة أولاد تتراوح أعمارهم بين الخمس سنوات والسبع راكضين باتجاه مجموعة من الرجال والنساء كانوا يقفون أمام صورة خشبية لصدام حسين ملصقة على بلاطة اسمتية. راح الأولاد يرمونها بالحجارة، ثم انقضوا عليها بالسكاكين وبأدوات أخرى. كان الأشخاص الأكبر سناً يشاهدون بهدوء. لا أخفيك الحقيقة، كنا خائفين. ثم جمع الأولاد القطع الخشبية الصغيرة. كانت امرأة كردية عابرة تحمل وعاء مليئاً بالوقود، اقتربت وصبت الوقود على كدسة الأخشاب وأضربت فيها النار. التهمت النار في وجه صدام، وبدأ الجميع يصفق. تجتمع الناس حول الأولاد والمرأة ليروا النار تلتهب ملتهممة فعلياً صورة صدام.

بعدما احترقت كلياً، توجه الناس نحو أحد الشعارات المعلقة في الشارع. ولما كان مرتفعاً جداً، قذفوه بالحجارة، لكنه لم يسقط. عندها توجهوا نحو مركز مدينة السليمانية، حيث كانت هناك صور أخرى لصدّام. لم أرافقهم، لكننا في اليوم التالي ذهبنا سيراً على الأقدام وشاهدنا الصور محروقة، ملطخة بالدماء، في كل أرجاء المكان، حقاً كانت هذه لحظات مؤثرة جداً. لقد كسروا حاجز الخوف»^(٣٤).

بخلاف ما جرى في جنوب العراق، اتخذت سريعاً تدابير لإعادة النظام والانضباط وفرضهما في المدن والقرى العراقية التي سقطت في أيدي الجبهة الكردستانية. وفي خطوة سياسية شديدة الأهمية، أعلنت الجبهة في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٠ عفواً عاماً عن كل المتعاونين مع نظام صدّام (وكان يشمل بالطبع الجحوش). ومنذ أن أذيع العفو للمرة الأولى عبر الراديو، جرى التقيد به بشكل صارم واستمر ذلك إلى هذا اليوم بالذات. لقد أعاد العفو الطمأنينة إلى نفوس معظم «الجحوش»، وقدم صورة واضحة وموحدة الهدف لردة الفعل أو الجواب الكردي. ففي خطاب مثير ألقني في اجتماع حاشد في بلدة كوي سنجاك في أوج الانتفاضة الكردية، استطاع مسعود البرزاني، ابن القائد الوطني الأسطوري الملا مصطفى البرزاني، وقائد الحزب الديمقراطي الكردستاني، اختصار حال الفرح بين الأكراد بالكلمات التالية:

«إن ثانية واحدة من هذا النهار تساوي كل ثروات العالم. مضى واحد وسبعون عاماً على نشوء الدولة العراقية... فقدنا الشهيد تلو الآخر، وأحرقت القرى الواحدة تلو الأخرى، وكل ذلك من أجل تحرير الأكراد وكردستان. لكن، لأننا كنا نفتقد الوحدة، لم تتمكن طوال واحد وسبعين عاماً من تحقيق آمالنا. إننا اليوم متحدون. خلال أسبوع واحد حررنا هذه الأرض من زاخو حتى خانقين. استولت قوات البشميرغا والشعب على القواعد العسكرية بسهولة كما لو أنهم كانوا خارجين في نزهة»^(٣٥).

غير أنه لا ينبغي المبالغة في درجة السيطرة التي استطاعت المنظمات الكردية أن تفرضها على الوضع. في قرية رانية جرّ حشد من الناس بالقوة رجالاً من الشرطة ومسؤولين بعثيين كانوا محتجزين داخل مسجد المدينة، إلى سطح فندق محلي. هناك قرئت أسماؤهم بصوت مرتفع. كان الرجال الذين أمسكوا بالبعثيين يهتفون إلى الحشد في الأسفل سائليته: «هل نزيهم أم لا؟». أصدر الحشد الكبير الملثم في الأسفل حكمه، ودفعوا بالواحد تلو الآخر من على سطح طوابق البناء الثلاثة. حشد غاضب بينه فتيات

شابات، انقض على الجثث المحطمة ومزق بالسكاكين ما كان تبقى منها. حاول رجل عجوز رؤعه المشهد إيقافهم، استدارت نحوه امرأة بعينهاا الملهتين وقالت: «إنهم يستحقون أكثر من هذا»، فراجع الرجل العجوز. وفي نهاية الأمر تدخل رجال البشمرغا ليردوا الناس عن الجثث المسحوقة^(٣٦).

رسالة غير عادية، كتبها شاب سنّي من بغداد إلى شقيقه عمر (اسم مستعار) يصف فيها المشهد الذي لا يمكن نسيانه في مبنى الأمن المركزي في السليمانية، في ٨ آذار/ مارس ١٩٩١. ولأن الرسالة كتبت بعد وقت قصير من حدوث القضاعات التي تسردها، فإن كاتبها يثير انطباعاً بأنه لا يزال في حال الصدمة:

وأخي الحبيب عمر.... ٢٤ نيسان/ ابريل

... لا أعرف كيف أبدأ بسرد الأحداث المؤلة التي مرت بنا والنكبات التي حلت بشعبنا الطيب بعربه وأكراده. لقد كانت محناً حقيقية ولا بالأفلام ولا بالقصص توجد. الموت، الموت، الموت في كل مكان. أمامك لا ترى غير الدمار والانتقام والموت والحقد.

سافرت مع عائلتي إلى السليمانية... وبعد أيام من مكوثنا في السليمانية تطورت الأوضاع سريعاً وبسرعة مذهلة. فقد كان الوضع الأمني في السليمانية جيداً ورجال صدام مسيطرين ولا أحد يتوقع ما حدث أبدأ. في ليلة ٧/٦ آذار تم توجيه نداء إلى الشعب الكردي من خلال إذاعة (الاتحاد الوطني لكرديستان) للقيام بمظاهرات شعبية. وفي صباح ٨ آذار خرج الشعب في السليمانية وهجم على مقرات الأمن والمخابرات والشرطة. وتم الاستيلاء على الأسلحة الموجودة في هذه الأماكن. لم يكن في السليمانية كلها غير ٢٠٠ مقاتل من البشمرغا والباقي من جميع فئات الشعب. لقد كانت ثورة شعبية حقيقية!

تم تمزيق أجساد الأمن والمخابرات والرفاق الحزبين والانتقام للمجازر الصدامية مثل حلبجة وغيرها. ولقد كان بكاء الجبناء يسمع في السماء ولكن لا رحمة أبدأ للحقراء الشاذين. إنها ملحمة رائعة سوف لن ينساها إنسان أبدأ.

المركة الحقيقية كانت عند دائرة الأمن في السليمانية، فقد قاومت هذه الدائرة ٤٨ ساعة وكانت محصنة جيداً مثل القلعة وجميع المسؤولين الكبار التجأوا إلى هذه القلعة لحماية أنفسهم من غضب الجماهير. وفي النهاية سقط الحصن المنيع ودخلت الناس لكي تحطم وتقتل كل شيء أمامها. وكانت غرف التعذيب التي

لم أرى في حياتي وأسمع مثلها وآلات القمع والإرهاب. وكنا نمشي فوق الجثث حيث قتل واحترق ٧٠٠ شخص من الأمن والمسؤولين في هذه الدائرة والأحياء منهم تمت محاكمتهم وإعدامهم من قبل الشعب بالمناشير الحديدية والسكاكين وهم يصرخون ويكفون»^(٣٧).

لم تكن لدى أي من منظمات الجنوب لا المصادقية ولا النضج لتأمين حتى المستوى الأدنى من القيادة السياسية الموجودة بين الأكراد. حكمت الفوضى الأرض. دخل البلاد خلال اليوم الثاني أو الثالث من الانتفاضة عبر الأهوار المحيطة بالبصرة، ما بين الخمسة آلاف والعشرة آلاف مسلح شيعي كانوا منظمين في مجموعات صغيرة ومتطوعين ممن طردهم نظام البعث خلال أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات. كانوا وحدات من لواء بدر الذي أنشأه المجلس الإسلامي الأعلى الذي يرأسه السيد محمد باقر الحكيم (لواء بدر) سمي كذلك تيمناً بمعركة الإسلام الأولى. ويبدو أن أول ما قام به أولئك الشبان الغاضبون المتدفقون من إيران كان اقتحام فندق شيواتون وإحراق بارات مدينة البصرة وكازينوهاتنا. ثم بعدئذ أعلنوا قيام جمهورية إسلامية شيعية في المدينة^(٣٨). قاموا بإعدام أفراد الجيش المستسلمين والمحتجزين، وأحياناً بعد «محاكمات» كان يشرف عليها رجال دين، وكانت تلك الأحكام تطبق على أناس يعتبرهم المتمردون «أعداء الله» (ونظرية «أعداء الله» على الرغم من كونها نظرية قديمة، جرى إحيائها إبان الثورة الإيرانية وشاع استخدامها في السجال السياسي في عموم الشرق الأوسط، وفي طريقة استعمالها الحديث تبدو موازية في المعنى للقول البعثي «خائن الأمة العربية»). شعارات مثل «أقتلوا خونة الإسلام!» و«الموت لصدام الكافرا»، كانت تُهتف في الشوارع، أو تكتب على الجدران في مدن جنوب العراق.

أفكار الكفر والخيانة وعدو الداخل، كانت شائعة جداً إبان الانتفاضة. أعتبرت النظام البعثي برمته كافراً، وأصبحوا كفاًراً كل أولئك الذين تابعوا القيام بوظائفهم السابقة ولأي سبب كان، أو الذين لم يعلنوا توبتهم، أو بكل بساطة من لم يصدق المنتفضون أنهم عادوا إلى «الضوابط المستقيم» حتى لو أعلنوا توبتهم. «هذا ما حدث مع فلاح عسكري». فالكفر في الشريعة الإسلامية إثم أسوأ بكثير من مفهوم الهرطقة في المسيحية، لأن الإسلام حسب بعض التفاسير يعتبر نفسه مجتمعاً سياسياً، وليس فقط مجرد مجتمع ديني، ويتبع ذلك أن الكفر يعتبر شكلاً من الخيانة لركن أساسي من هوية المجتمع بأكملها، وجزاء هذا، الموت^(٣٩).

هذا العنف الذي بُرر باسم الإسلام، وكان باعته في أغلب الأحيان رغبة في الانتقام،

وضع بشكل سريع حداً لحياة الانتفاضة، ووضع حداً كذلك لتدفق المرتدين من الجيش. وهو يفتر كيف استطاع النظام إعادة تجميع قواته المشتتة والقيام بهجوم مضاد. فقد رأينا كيف جرت في النجف محاولات لكبح الفوضى بالتقوى، وذلك بواسطة وجهاء مقيمين وعلماء كانوا يتصرفون من خلال هيئة السيد آية الله الخوئي ومقامه. لكن في البصرة وكربلاء وجد من العراقيين من بين القياديين، من سبق لهم أن أقاموا في طهران. وهاتان المدينتان بالذات كانتا أيضاً مسرحاً لأبشع تجاوزات المنتفضين. فبحسب ما قالته أم حسين، وهي ربة منزل شيعية تقليدية محجبة من البصرة، كان المخطط الذي ينقذ في كل أبنية الحكومة هو نفسه: أقتلوا أيّ رسمي يقع بين أيديكم، انهبوا كل ما في الداخل، صلبوا بعض الكيوسيين حول المبنى، أشعلوا ولاعة، واهربوا من المكان بسرعة. ولم تكن هناك أية محاكم. مجرد عصابات جوّالة. على سبيل المثال لديّ قريب كان عضواً في الحزب جاؤوا يبحثون عنه في منزل عائلته، وكانوا يقولون: «أخرجوا لنا هذا الكذاب والكذاب، نريد أن نقتله»، أخرج بعض الأشخاص وقتلوا. لكن قريبي قفز من المنزل إلى المنزل المجاور ثم قطع الشارع وتمكن من الفرار. إلا أن رجلين اثنين من أقربائي قتلوا بهذه الطريقة في الناصرية. كانوا يقتلون كل الضباط. غير أن ما أثار حفيظة أم حسين أكثر من أي شيء آخر هو وجهة نظر الحكومة في المسألة. «إن ما تقوله الحكومة تجديف في الإسلام، لأن أولئك الذين جاؤوا من الخارج كانوا أشخاصاً سيئين، دمروا وأحرقوا وهدموا، قتلوا وهربوا. وهكذا هو الإسلام؟»^(٤٠).

لقد ربط أعضاء شرطة الأمن ورجال وحدة مكافحة الجرائم في البصرة عصابات خضراء حول رؤوسهم وانضموا إلى الانتفاضة. ورأى شقيق أم حسين بالصدفة اثنين من هؤلاء وهما يلعبان الترد خلف حائط حديقته. فلما سألهما عما كان يجري، أجاب أحدهما «إنها الجمهورية الإسلامية - إنها الحرية». تذكرت أم حسين بعد ذلك قصة قناص كان جاثماً فوق سطح بناء قريب، أمضى أسبوعاً بأكمله يطلق النار على كل شيء كان يتحرك ضمن مجال ناره، وكانت هي أحد أهدافه.

«كنت جالسة في الحديقة، بعد وقت قليل من انتهاء الحرب. انحنيت لأتناول هذا الكوب المعدني من على الطاولة. كنت أمسكه بهذا الشكل بين يدي. أرتّ الرصاصة من فوق كنفني. كانت مصوّبة إليّ. لم أر أحداً ولم أسمع صوت انطلاق الرصاصة ولا أي شيء. في البداية لم أعرف حتى إن كانت رصاصة. كان الأولاد يلعبون في الشارع ثم أقبلوا نحوي راكضين. سألتهم: «ما الذي قذفتموني به؟». كما ترى، كنت ظننت انهم رموني ببصلة أو بشيء ما أسقط الكوب من يدي. أجابوا: «يا جدي لماذا تقولين أننا قذفناك ببصلة؟ هذه ليست

بصلة، إنها رصاصة». طرحني هذا أرضاً، ثم تساءلت من أين جاءت الرصاصة؟ بحث الأولاد عن الكوب ووجدوه. لقد جلبته معي لأنني أردت أن أريه لابني في لندن».

(رفعت الكوب المعدني مع فجوتي دخول وخروج الرصاصة منه لتريني إتياء كدليل).

«بينما كانت عمليات النهب جارية في البصرة، خرجت شقيقتي في عربة وعادت إلى منزلها جالبة جهازاً مكيفاً للهواء. سألتها: «من أين أحضرت هذا؟» أجابني ان الفرهود قائم في كل مكان». استخدمت عبارة فرهود بدل النهب والسلب. (كان حبيب قد استخدم أيضاً عبارة فرهود التي تعني النهب الذي كان حلّ بممتلكات اليهود العراقيين إبان المذبحة عام ١٩٤١). ثم رأيت في الشارع تلك المرأة التي كانت أعرف وسألتها: «أين صهرك؟» وأجابني بهدوء تام «أخذوه». قالت فقط «أخذوه»، وتابعت بهدوء قيامها بسلب الغنائم كما لو أن شيئاً لم يحدث! كانت الشرطة، أو الجيش، أو أي قوات حكومية أخرى قد اعتقلت صهرها وكل ما قالته في ذلك الخصوص انهم «أخذوه» وعادت مجدداً إلى متابعة السرقة. هذا هو في الواقع المستوى الذي هبط إليه الناس في العراق»^(٤١).

كل الطاقة التي كان يحتاجها المنتفضون لتنظيم أنفسهم تركزت للسرقة. وصل مستوى النهب إلى درجة لا تدانيها أية مبالغة، وهي تلخص، للأسف، عمق التردّي الذي بلغته الأخلاق العامة داخل العراق. وإذا كانت هذه الظاهرة تستأهل فعلاً دراسة سوسولوجية خاصة بها، فإن نذيرها الرسمي بالطبع كان سياسة الدولة تجاه الكويت. هذا الجزء من المسألة مفهوم على الأقل، غير أن الحافز الشخصي كان له أثره المهم. أخبرتني فاطمة انه أقيمت في السماوة محطة سيارات أجرة (تاكسيات) تنجّه إلى «المحافظة التاسعة عشرة» المحتلة، ولهدف وحيد هو تحميل الغنائم الكويتية وجلبها. كان الناس يذهبون فارغي الأيدي، ثم يؤخذون في جولة على المتاجر والبيوت الكويتية مقابل عشرة دنائير فقط في الاتجاه الواحد وكانوا يعودون بغنائمهم من التلفزيونات ومسجلات الفيديو والثياب والشوكولا والحلوى الأخرى. وأصبح الوضع أسوأ إبان الانتفاضة. فقد شوهد رجل ينقل جهازاً لغسل الكلي سرقة من مستشفى السليمانية. وشوهد آخر كان يسير فوق طريق إسفلتية وسيارته محملة حتى سطحها وجنباها بالأغراض، وكان محزماً مؤخرتها بفرن منزلي يطلق شرارات بفعل احتكاكه بالطريق فيما السيارة تتقدّم. كانت

أسرة المستشفيات المعدنية المتحركة على دواليب مطلوبة جداً، لأنها تُجرّ على الطرقات وهي محمّلة بالمسروقات، فكانت بذلك أشبه بعربات سوبرماركت عملاقة. «هل تعرف ماذا فعلوا داخل مستشفى عسكري؟»، سألتني سامان، وهو مهندس مدني من السليمانية قبل أن يجيب بنفسه «سرقوا سريراً كان يرقد فيه مريض جعل يصرخ: «أنا مريض! أنا مريض! لكنهم استمروا بدفع السرير كما لو أن الرجل لم يكن موجوداً. كانوا يريدون السرير، هل ترى؟»^(٤٢).

كان الدافع العدمي في قاعدة الشخصية هو نفسه في شمال البلاد وجنوبها. غير أنه انتشر غير مكبوح في الجنوب. فبعض المتفضّين مهّدوا الطريق إذ كانوا يعتقدون حقيقة ان النهب هدف الثورة الأول والأخير. ومهما كان منطق الأمور، فإن الوضع سرعان ما غرق تماماً في الفلتان. لقد تعرضت للنهب والحرق كل أنواع الأبنية العامة بما في ذلك المتاحف. وبدورها رفضت السيدة الشجاعة المسؤولة عن متحف الناصرية التزحرج من متحفها، وظلّت هكذا إلى أن نجحت أخيراً في تسوية المسألة وإقناع الناهبين بالعدول عن قرارهم^(٤٣). لكن اناساً من هذا النوع كانوا نادرين. ففي بلدة مثل السماوة انعدمت السلطة كلياً. ناجي حميد السّراج وهو سقّاح بعثي من البلدة كان مسؤولاً عن اعتقال ابن شقيقته المراهق بتهمة انتسابه إلى حزب الدعوة الإسلامي السّري، وقد صُلب الأخير على جدران الحسينية المحلية في سماوة^(٤٤)، ثم بتروا ذراعيه ورجليه وقطعوا رأسه، وبقيت أعضاؤه مرمية فوق مزبلة المدينة حتى أصبحت رائحتها لا تطاق^(٤٥). في المدن والأحياء التي سيطرت عليها عصابات الشبان المسلحين، كان كل بعثي أو سّني، بغض النظر عمّا إذا كان مع الانتفاضة أو ضدها، معرضاً لخطر القتل.

رجال مثل أبي حيدر وكاظم الريسان وحמיד معلّم المدرسة، الذين عاشوا طوال سنوات حكم البعث داخل العراق، لم يكونوا إيديولوجيين ولا متعصبين، وقد أظهر هؤلاء وبدرجات متفاوتة وجهاً آخر أكثر إنسانية. بيد أن رجالاً من هذا الصنف توجهوا إلى القوات المتحالفة طالين المساعدة إبان الانتفاضة.

كان ثمة العديد من أمثال أبي حيدر في البداية، ولكن بما إن قدوم المساعدة من الحلفاء لم يكن وشيكاً، انتهى بهم الأمر متمرعين في وحول الميليشياويين المتدققين من إيران ومؤيديهم في داخل العراق. لقد قدم هؤلاء حاملين معهم ثلاث شاحنات محمّلة بصور ملوّنة للخميني وعلي خامنئي ومحمد باقر الحكيم. فالفكرة التي بدأت تسود كانت تكرار تجربة الثورة الإيرانية وربط حماسة العصيان المسلح داخل العراق برموز جديدة. أما المفتاح الرئيسي في الثورة الشيعية، فكان فكرة «الإمام المنتظر»، الذي

بحسب أقوال منسوبة للنبي، سوف يعود في اللحظة المناسبة «ليملأ الأرض عدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً»^(٤٦). وفي آذار/ مارس ١٩٩١ كان العراق بحاجة لإمام خميني خاص به، فإن لم يكن موجوداً، انبغى ابتكاره بواسطة إلصاق عدد كبير من الصور الطازجة المصنعة حديثاً في طهران خصيصاً لشوارع المدن العراقية. وهذه، للصدفة، طريقة صدام وأسلوبه. وبالسرعة نفسها التي انقضت فيها مواطنون عاديون داخل العراق ممزقون صور صدام، كمثل الذين شاهدتهم هناء، كان ميليشياويون إسلاميون مؤدلجون يتدفقون من إيران، رافعين صوراً بديلة.

لا يبدو ان الإيرانيين أنفسهم دخلوا البلاد خلال الانتفاضة - وهذا بخلاف ما ادعى النظام العراقي - باستثناء واحد أستطيع أن أؤكد: فريق سينمائي من وزارة الإعلام الإيرانية، شوهد في سيارة دورية من نوع تويوتا تجول شوارع النجف بينما كانت الانتفاضة في عز زخمها^(٤٧). ولسوء حظ العراقيين لم يكن الغرض من وراء قدوم هؤلاء أن يسجلوا للأجيال القادمة وللعالم الخارجي هذه الفترة التاريخية من محنة العراق، بل انهم قدموا ليصوّروا المنزل الذي سكن فيه آية الله الخميني في شارع الرسول طوال خمس عشرة سنة قبل سفره إلى باريس. فلدى الإيرانيين الآن دولتهم الإسلامية الخاصة وجهاز موظفين وإداريين لوسائل إعلامهم، ووظيفة هؤلاء الأشخاص، الشبيهة بوظيفة نظرائهم البعثيين العراقيين، إعادة ابتكار وتعزيز رموزهم الخاصة وتهويئتهم عن ماضيتهم من خلال التلفزيون. حقاً أن الثورة نوع من المسرح. بيد أن الشكل الذي تتخذه يعث على الهزل أحياناً.

لكن أي صنف من الرجال كان أولئك العراقيون الذين تدفقوا من إيران؟ ثمة قصة تتناول أحد الشخصيات الميليشياوية. كان مراهقاً أمياً يطلق على نفسه لقب «ثائر»، قصته كتبت بخط اليد بعد أن أملت على كاتب، علماً أن قصصاً كثيرة شبيهة بها ابتكرها لاجئون عراقيون في إيران بعد انهيار الانتفاضة. وغالباً ما تكون هذه الوثائق كتراسات إيديولوجية عسيرة الهضم ولا تحظى بأية قيمة ثبوتية. ومغامرات «ثائر» تشبه إلى حد بعيد ما كان يمكن أن يكتبه فؤاد مطر عن صدام حسين^(٤٨). إلا أنه بينما ترشح سيرة مطر التقديسية نفاقاً، فإن شهادة ثائر تقرأ كحكاية روح فقيرة مرتبكة وأرضية. فهو في الواقع لم يقتل أحداً البتة وربما لم يطلق النار أبداً من بندقيته. لقد كانت لديه الرغبة في فعل ذلك بالتأكيد، ولكن الروح، في أغلب الظن، كانت ضعيفة، وتدخلت بعدئذ مصادفات الحياة لينتج عنها مشروع «الثوري» هذا، والذي سوف يهيم في العراق لأسابيع مثل ولد متشرد، ثم ينجو في النهاية بطريقة عجائبية من الفوضى والعنف اللذين يعصفان حوله^(٤٩).

يدعي ناثور ان وحدته المؤلفة من ١٧ رجلاً مسلحاً، بقي منها خمسة على قيد الحياة، كانت أول وحدة دخلت العراق من إيران. قبل الدخول، يقول ناثور، «وقد تحزمت أنا ومجموعتي بحزام ناسف». كان هدفه تفجير نفسه، وقتل أكبر عدد ممكن من البعثيين في حال ألقي القبض عليه حياً. يقول ناثور إن وحدته تولت القيام ببعض المهمات ونجحت في إقامة الارتباط مع متمردين من الداخل. اختبأوا داخل بناء في البصرة، وأرسل ناثور لإحضار بعض الذخيرة إذ أن مخزون ذخيرتهم كان قد بدأ ينفد. حين عاد، وجد أن وحدته تتعرض لهجوم شرس من قبل قوات السلطة وأنه قُضي عليها عملياً. «نجوت بأعجوبة، بعدما صُلِّيت وتلوت آيات من القرآن». بعد ذلك نزع عن وسطه حزام المتفجرات، «لأنهم كانوا سيعدموني ميدانياً إن لم يمثلوا بي وأنا شاذّ حزاماً ناسفاً». زحف الفتى المذعور ناشداً السلامة طوال الليل ليدرك في نهاية الأمر مكاناً بدا له أشبه ببركة ماء. هناك اغتسل وشرب، ليكتشف في الصباح انه كان عند مخرج مجرور وسخ قدر.

«خرجت من هناك ولعنت الزمن إلى أن أخذني أبناء القرية وغسلوا رجلي وأعطوني دشداشة قصيرة لرجل سمين، كما أعطوني شيئاً من الخبز لجوعي الشديد. كان هذا كأنه ألد وجبة طعام في حياتي لأنه أعاد إليّ حياتي ثانية، وصرت أبكي لأنني تذكرت مجموعتي وماذا يمكن أن يكون حلّ بها. بعد ذلك قررت أن أعبر النهر وأتجه صوب بغداد حيث تقيم أختي. قالوا لا تستطيع لأنها عملية انتحارية، لكنني فعلتها وزحفت على بطني وصرت كأني في عالم آخر، والحمد لله أنني وصلت إلى الطرف الثاني وصرت أمشي بقدمي الخافيتين نحو بغداد من البصرة.

بالأكيد كانت هناك ١٥٠ نقطة تفتيش على الطريق. أحياناً كنت أعبر مدعياً أنني متسول، وأحياناً أخرى مدعياً أنني مجنون. ومرة قلت إن بيتي قد دُمر في البصرة وأنتي ذاهب إلى شقيقتي في بغداد. ومضت الأيام على هذا النحو.

طيلة هذه الأيام لم يوجد معه فلس واحد. كان ناثور يعيش بحذاقته يوماً بيوم، وأخيراً وصل إلى بيت واحدة من شقيقاته. «لبنها، وهو صديق الطفولة، فتح لي الباب. وعندما قلت من أنا بدأ يضحك عليّ. كان من حقّه أن يضحك فأنا كنت في حالة لا تُصدق».

غادر ناثور العراق قبل ١٢ سنة، ومع هذا فالاتحاد مع أسرته لم يدم طويلاً. إغتسل وأعطوه ثياباً و٤٠٠ دينار، ثم أرسلوه سريعاً ليكمل طريقه. فمجرد وجوده كان تهديداً بالموث لكل فرد من أفراد البيت. وهكذا، بعد المزيد من المغامرات، وصل ناثور، في آخر

المطاف، إلى منطقة صفوان، ومن هناك تم تسفيره سليماً إلى إيران على متن طائرة كندية تابعة لقوات التحالف.

آثار الكارثة

تركت القوات المتحالفة أربع فرق من الحرس الجمهوري سليمة لم تمس خلال حرب الخليج. وهذه الفرق الأربع كانت العمود الفقري للقوة التي أرسلها صدام لقمع الانتفاضة في الجنوب. وعندما اقتحمت هذه الفرق، مدعومة بوحدات من الدبابات والمدفعية، مدينة النجف من ثلاثة محاور صبيحة يوم الأربعاء في ٢٠ آذار/ مارس ١٩٩١ كان قد خطّ على الدبابات: «لا شيعة بعد اليوم»^(٥٠).

قبل الاقتحام قصفت المناطق السكنية بقنابل النابالم والقنابل العنقودية، وأطلق على المدينة ما يزيد عن ٣٥ صاروخاً من نوع سكود لإضعاف مقاومتها^(٥١). هذه الصواريخ الباليستية غير الدقيقة والتي كانت أطلقت من مسافة بعيدة سقطت عشوائياً ومن غير إنذار. وبين كثيرين آخرين قتلوا، قتلت الصواريخ كلاً من السيد أبو التاليز وكل أفراد عائلته من دون استثناء، وزوجة حسن كقونة وابنته، وزوجة طلال كاشوش وولديه وكنته.

هذه الصواريخ التي سبق لصدام حسين نفسه أن ادعى أن هدفها «تدمير نصف إسرائيل»، دمرت منازل كل من أبي حميد الشكري وسالم هاشم وسيد يوسف وسيد سلمان وكاظم النداف وغيرهم...^(٥٢). كان الهدف من القصف بالمدافع والصواريخ الباليستية والقذائف زرع الرعب، وجعل كل نجفي يفهم أن لدى النظام الوسائل والرغبة في تدمير المدينة بكاملها وقتل كل من فيها من دون استثناء إن اضطره الأمر.

الهجوم الأرضي كان يدعمه سرب من الطوّافات المدمّرة، التي كانت بدأت عملياتها بتطويق المنطقة السكنية حيث يسكن آية الله الخوئي وقصف البيوت المجاورة له. اجتمع المقاتلون حول المنزل لحماية الخوئي وقد قُتل العديد منهم. أما المنطقة المجاورة فدمّرت إلى حد أنها سُويت بالأرض. ثم هبطت وحدة من كوماندوس الطوّافات فوق منزل آية الله واختطفته مع صحبه. وبعد أن عبر من فوق جثث المدافعين التي كانت تكسو محيط المنزل، أدخل أكبر مرجع روحي شيعي مع جميع أنسابه وصحبه إلى الطوّافات ونقلوا إلى مركز احتجاز أعد خصيصاً لهم في بغداد^(٥٣). قال أحد شهود العيان «لقد أُجبروا الإمام على السير من دون مساعدة، وبما أنه كان لا يستطيع ذلك، سقط على الأرض، فساعدته ابنته على النهوض ثم أخذوا الجميع»^(٥٤).

الإمام البالغ من العمر ٩٢ سنة، والذي عمل أكثر من الجميع على كبح جموح رجال الانتفاضة، ظهر في اليوم التالي على شاشة التلفزيون مع صدام، وقد زُعم أنه «سعى» بنفسه إلى أن يظهر هناك لكي يتسنى له شجب الانتفاضة. شريط الفيديو المسجل أظهر رجلاً عجوزاً مرتدياً رداء صوفياً بانياً متهدلاً، ومعتمراً عمامة سوداء، وهو الزي الذي يشترك رجال الدين الأسياد في ارتدائه. كانت لحيته طويلة بيضاء، ووجهه مستديراً بعض الشيء، وكانت ثمة بقع بنية على صدغيه. بدا لطيف التصرف وإن نمت هيئته عن حزن مقيم. أما صوته فواهن إذ يكاد يهيمسه همساً.

بعد ظهوره أبقى تحت الإقامة الجبرية في الكوفة طوال السبعة عشر أشهر التالية، وفي ٨ آب/ أغسطس ١٩٩٢ توفي آية الله الخوئي (مجتد تاريخ الشيعة من أيام العثمانيين مروراً بنظام حزب البعث) في الكوفة بالعراق^(٥٥).

يبدو أن الجنود الذين استخدموا في الهجوم على النجف (وعلى جنوب العراق بشكل عام) اختيروا من مدن سنية هي هيت والموصل والشرقاط وبيجي ومن الطائفة اليزيدية، وهي طائفة صغيرة في شمال العراق لها تاريخ من الصراع مع المسلمين الشيعة^(٥٦). الجنود العراقيون الذين استطاعوا الفرار من هذه الوحدات والوصول إلى مركز المراقبة والتفتيش الأميركي الرقم ٥ روى أنهم كانوا يُعدوا بمكافآت تبلغ قيمتها ٢٥٠ ديناراً مقابل قتل كل امرأة أو طفل، وحوالي الخمسة آلاف دينار مقابل قتل كل رجل بالغ^(٥٧). إلا أنه كان يحق لكل جندي المطالبة بمكافأة قصوى هي ثمن قتل مئة رجل في اليوم الواحد. ولم يكن الشعار المكتوب على دبابات الحرس الجمهوري «لا شيعة بعد اليوم» مجرد مبادرة محلية. لقد كان، كما هو واضح، سياسة رسمية.

أثناء دخولها المدينة، استخدمت فرق الجيش النساء والأطفال بمثابة دروع بشرية، مجبرة إياهم على السير أمام عربات المشاة والدبابات لكي لا يعود بوسع المتفجسين إطلاق النار من دون إصابة مدنيين أبرياء^(٥٨). أجبر الجنود النساء والأطفال كذلك على البقاء في الأبنية التي حولها الجيش إلى نقاط تمرکز معززة. وكان أولئك الرهائن يوضعون أحياناً فوق سطوح الأبنية مكشوفين كلياً، ليدرك المتفجسون أن أي هجوم على المبنى سيؤدي إلى مقتل الرهائن جميعهم^(٥٩). المدنيون الذين نجوا من القصف التمهيدي، ومن ثم القصف الجوي، وجدوا أنفسهم مهددين بخطر أعظم من جراء تقدم الحرس الجمهوري والمخابرات التي دخلت في أعقابه. وكان تكتيك الجيش المفضل لإرسال طوافة مجهزة بمكبرات للصوت فوق منطقة ما من المدينة لتعلن أنه سيفسح المجال للمواطنين بالمغادرة قبل أن يبدأ الجيش هجومه. كذلك كانت ترمى وريقات تحتوي تهديدات

باستخدام الأسلحة الكيميائية، ولكن تنصح السكّان بالمغادرة عبر طرقات آمنة حددت لهم. وفي كربلاء على سبيل المثال نُصح الناس بالمغادرة من طريق الهندية، على طول هذه الطريق ولمسافة كيلومترات اصطُفّ رتل من المدنيين اليائسين طلباً للنجاة من القتال القائم. لكن سرعان ما انقضت عليهم طوافات عسكرية وجعلت تقصفهم بمدافعها الرشاشة، فنجمت عن ذلك مشاهد مريعة قام بوصفها بعدئذ عدد كبير من شهود العيان. وفي ظروف أخرى، أطلق الجيش نيران المدفعية على حشود من اللاجئين الفارين^(٦٠).

لقد تعرضت القوات الحكومية بشكل خاص لأولئك الأطباء الذين أبقوا مستشفياتهم مفتوحة إبان الانقضاة. ورويت حكايات كثيرة عمّا حلّ بالجسم الطبي. أحد الأطباء، وقد استطاع الفرار إلى الخطوط الأميركية، روى ان رجال المخابرات رموا بزوجته وأولاده وشقيقه من الطوافة عقاباً له لمعالجته جرحى المتفضين. وروى طبيب جراح آخر أنهم أعدموا خمسة عشر طبيباً داخل المستشفى الجمهوري في البصرة، ثم أطلقوا النار باتجاه البناء على الرغم من أن أربعة آلاف مدني - هم المرضى وعائلاتهم - كانوا لا يزالون محتجزين في الداخل^(٦١). أخبرني أم حسين أنهم أطلقوا النار على أحد الأطباء وجعلوا جسمه «كالمخل» على مرأى من جميع الموظفين العاملين في المستشفى المركزي في البصرة، وكان هؤلاء قد أجبروا على الاجتماع في دائرة كبيرة لمشاهدة الإعدام^(٦٢). داخل مستشفى صدام في النجف تحرش الجنود بالطيبات وذبحوا الأطباء بالخناجر ورموا عدداً من المرضى المصابين من النوافذ. وبدوره عُرض الطبيب محمد الخلخالي على شاشة التلفزيون ليكون عبرة لغيره ثم اختفى أثره. ومن ناحية أخرى كان الطيبان محمد علي قريدي، وقيس هلال الجلاوي من بين أولئك الذين أعدموا علناً على أيدي فرق إعدام^(٦٣).

أفراد عائلات المتفضين، والمشتبه بأنهم من المتفضين، لقوا بشكل خاص مصائر شنيعة. كانت المخابرات تقتل على نحو مستمر أقرباء المتفضين لتنتقم منهم. وفي إحدى الحالات، تعرّفت قوات الأمن التي كانت تطوّق مقام الإمام علي على أحد المقاتلين في الداخل. عندها قامت فرقة بالإغارة على منزل الرجل و«ألقت القبض» على ابنه «الطفل»، ثم عادت إلى المقام مصطحبة الصبي. لكن ما أن ظهر الوالد، حتى رموا الطفل باتجاه المقام حيث مات على الفور بفعل الارتطام. وفي حادثة أخرى رواها أحد اللاجئين في إيران، ان فرق الجيش التي كانت تطوّق مقام الإمام علي جعلت ترمي أطرافاً بشرية تم التمثيل بها على المقاتلين المعتصمين بالداخل^(٦٤).

الأولاد الذين كانوا يتمتعون عن إفشاء أسماء أهلهم للجنود كانوا يغطّسون بالبنزين

ويحرقون. رُبط البعض الآخر على الدبابات المتقدمة لكي يحجم القناصة من المنتفضين عن إطلاق رصاصهم. كذلك أحرقت قوات الأمن عائلات برمتها داخل منازلها عندما كانت هذه ترفض الإفصاح عن مكان وجود رأس العائلة، أو تقول إنها لا تعرف أين هو. أُلقي ١٥٠ شخصاً في النهر في العمارة بعد أن ربطوا بأقدامهم كلاً إسمنتية، وثلاثون آخرون لقوا المصير نفسه في البصرة.

لقد استخدم الجيش بشكل واسع أسلوب «القلادة»، وهو نوع من العقاب اشتهر في أفريقيا الجنوبية. في حادث واحد تعرض له ثلاثة أولاد من عائلة طرقي، كان عمر أكبرهم تسع سنوات. فقد قام الجنود بتفطيس إطارات في البنزين، ثم وضعها حول أعناق الأولاد وإضرام النار فيها. وأجبر عدد من المنتفضين، كما زعم البعض، على شرب البنزين قبل إطلاق النار عليهم. ويبدو أن الضحية عوض أن تنهار وتحول إلى كومة معدومة الحياة وعديمة الدرامية، كانت تنفجر وتضيء لفترة قصيرة كما لو أنها مشعل. وكان لإعدامات من هذا النوع تأثير أكبر على المشاهدين، يفوق ذلك الذي كان يشيره فيهم تأثير صف الناس بمواجهة جدار ورميهم بالرصاص^(٦٥).

ارتكب المزيد من القضاعات بما في ذلك الإعدام الفوري لأي رجل يلقي القبض عليه ملثماً. أما العائلات التي عادت إلى منازلها بعد انتهاء القتال فتعرضت كذلك لمصير مماثل، إذ تلك «التي كانت فزت من جراء القتال مع أولادها، أوقفت صفوفاً وأعدمت بأكملها»^(٦٦). وفي حال تعرض دورية من الجيش لإطلاق نار من أحد المنازل، كانت المنطقة بكاملها تعتبر مسؤولة. في إحدى الحالات قتل قناص كان يتركز فوق فندق في شارع زين العابدين أحد الجنود، وانتقاماً لذلك أفرغ الجنود كل منازل الشوارع المحيطة، وجمعوا السكان كلهم، وطلبوا منهم تسليم القناص. وعندما لم يستطيعوا القيام بذلك، فوق الجيش النساء عن الرجال، ثم جرى الإفراج عن النساء بعد يوم من الاحتجاز المقيت، واختفى الرجال جميعاً^(٦٧).

بعد دخول قوات الهجوم العسكرية، تبعتها وحدات من شرطة الأمن، ومن المخابرات، ومن الأمن الخاص، وقوة الشرطة المحلية، وصولاً إلى شرطة السير. هذه القوات طافت في أرجاء المدينة وجعلت تختطف الشبان وتخضعهم للاستجواب، وتعتقل من تشبه بأنهم قادة المعارضة. كانوا يفتشون البيوت بيتاً بيتاً وقد ترتب على ذلك مستويات أخرى من الاعتداءات. فبحسب مقابلات أجرتها منظمة حقوق الإنسان في العراق، كانت القوات المولجة بعمليات التمشيط تستخدم طريقة عمل ثابتة: كانوا يفتشون كل البيوت القائمة في منطقة معينة، مصادرين كل ما يمكن أن يكون سلاحاً، ويعتقلون كل ذكر سليم

الجسم. وعندما لم تكن فرقة التمشيط تجد أحداً في المنزل، كان المنزل يُسرق ويُنهب. أما النسوة الباقيات في البيوت فكان غالباً يتعرضن للأذية، وللغتصاب، وكن يمنعن من وضع خمارهن. على أثر إحدى عمليات التمشيط تلك قام، في ١٥ آذار/ مارس ١٩٩١، محمد علي الرماحي، وهو رجل في الخامسة والخمسين من عمره من النجف، بإضرام النار وإحراق نفسه بعدما أجبر على أن يشهد بعينيه اغتصاب جنود الحرس الجمهوري لبناته الثلاث^(٦٨).

لم يكن لدى الرجال أو الفتيان الذين اعتقلوا إبان عمليات التمشيط تلك أي فرصة للنجاة. اللاجئون العراقيون الذين وصلوا إلى إيران في أوائل نيسان/ أبريل رَوَوْا أنه جرى إعدام ما يزيد عن الأربعة آلاف شخص خلال الأيام العشرة الفائتة في النجف^(٦٩). كانت الاعتقالات العشوائية والإعدامات هي الحالة السائدة. أحد الناجين قال في مقابلة أجرتها معه صحيفة «ميدل إيست واتش» إن «الجيش كان يغلّق بإحكام المنطقة تلو الأخرى، بحثاً عن رجال. كل الذين عُثِرَ عليهم - من الفتيان والرجال والغرباء - أُحْمِلُوا إلى داخل مدرجات ملاعب الرياضة، ومن هناك نقلوا في قوافل كبيرة إلى بغداد. هذه العمليات استمرت حتى [١٠ نيسان/ أبريل]... ولا نعرف ماذا حلّ بهم منذ ذلك الوقت»^(٧٠).

مقاومة المنتفضين المنظّمة انهارت أولاً في البصرة في وقت ما بين ٧ و٩ آذار/ مارس. غير أن عصابات من المنتفضين لم تتوقف عن القيام بعمليات كُرّ وكرّ ضد القوات الحكومية، لكن المدينة لم تفلت البتة من سيطرة الحكومة. استطاعت السماوة الصمود أطول فترة قياساً ببقية المدن، وهي سقطت أخيراً في ٢٩ آذار/ مارس، بعدما غيّر قادة القبائل المحليون تحالفهم، وتحالفوا مرة جديدة مع النظام.

سقطت النجف في قرابة ١٦ آذار/ مارس ١٩٩١ وتبعتها كربلاء سريعاً بعد وقت قصير. مسؤول كبير في حزب البعث قال للمراسل الأجنبي جون سمبسون من شبكة ال بي. بي. سي أنه يعتقد أن عدد الأشخاص الذين قتلوا من جراء الانتفاضة يفوق أربع مِئات عدد أولئك الذين قتلوا من جراء قصف القوات المتحالفة^(٧١). وفي حوالى منتصف نيسان/ أبريل ١٩٩١، جرى اعتقال ما يقارب الخمسة آلاف من علماء الفقه الإسلامي وتلاميذه في النجف وحدها. وبما أن كل تلامذة النجف وهيئة التدريس والإدارة فيها باتوا معتقلين لدى الشرطة، أُقفلت المدارس الدينية أبوابها^(٧٢).

لقد اختفت عائلات برمتها بين أيدي النظام. السيّد محمد بحر العلوم الذي كان أول من أخبرني قصة أمر الدبابة في ساحة سعد، قُتل عشرات الأشخاص من أفراد عائلته

الكبيرة، كانوا اعتقلوا إبان حملة تمشيط للجيش في ٢٢ آذار/ مارس. جميعهم مفقودون ويفترض أنهم ماتوا. اعتقلت قوات الأمن أو قتلت كل علماء الفقه في النجف الذين لم يفرّوا من البلاد. وبحسب قول أحد أفراد عائلة بحر العلوم الذي استطاع النجاة من الموت أو الاعتقال: «كل من لبس عمامة قتل أو اعتقل»^(٧٣).

لأول مرة في تاريخ العراق الحديث، أصبح مستهدفاً كل ما يميّز الشيعة أو يكرّس هويتهم. في النجف دُفّرت كلياً أربعة مساجد هي مسجد الإمام علي في منطقة الأمير، مسجد البقيعة ومسجد الإمام الصادق في شارع المدينة، ومسجد مراد في شارع الطوسي. جرفت جزافات الدولة أقساماً من مساحة مدافن النجف الشاسعة مع شواهد ونصب قبور العائلات الأثرية، والتي يعود تاريخ بعضها إلى مئات السنين. لقد قاموا بذلك بقصد تغطيتها بالاسمنت^(٧٤).

كان حوالى الألف وخمسمائة نجفيّ التجأوا إلى الدهايز الواسعة الواقعة تحت هذه المقابر، أمّلين بالنجاة من قتال الناهل. ودُفّن العديد منهم أحياء حينما انهارت عليهم الأنفاق. أحد الناجين استطاع الوصول إلى السعودية وروى هذه القصة^(٧٥).

خلال الانتفاضة أصيبت قبة مقام الإمام علي الذهبية بعدد من قذائف المدفعية المباشرة، ودمّر المدخل الرئيسي، وتعرض داخله للتخريب. ومقام الحسين في كربلاء أصيب بأضرار أودع بكثير. بيد أن هجوم الحكومة الثقافيّ ضد الأماكن المقدسة، والأبنية الدينية، والمعاهد الدينية، استمرّ وقتاً طويلاً بعد انتهاء القتال في المدن^(٧٦). وجرى قطع كل شجرات النخيل المحيطة بكربلاء، وهدم كل وسط المدينة المحيط بالمقامين، وفي المرحلة الأولى من المشروع الذي تزعم الحكومة المفلسة أنه برنامج ضخّم لإعادة تأهيل مدينة كربلاء، نهبت أو نقلت إلى بغداد كنوز قديمة استمرت غير ممسوسة طوال عصور كاملة. لم يبقَ أي شيء من «الجواهر والذهب والمخطوطات القيّمة» التي كانت موضوعة داخل مقام الإمام علي في النجف وتمثّل «هدايا قدّمت منذ أكثر من ألف سنة من الأمراء والملوك». كذلك اختفت ماسة ضخمة كان السلطان العثماني مراد الأول أهداها إلى المقام عام ١٦٣٤^(٧٧).

التدمير المادي يمكن على الأقلّ إصلاحه. لكن ليس في الوسع قول الشيء نفسه بالنسبة لإحراق مكتبات المدارس الدينية والمعاهد الفقهية في النجف والكوفة وكربلاء، والتي تحتوي على مخطوطات قديمة لم تجر بعد دراستها بدقة، أو أرشفتها بالطرق العصرية. مكتبة دار الحكمة التي أنشأها آية الله الراحل السيد محسن الحكيم، والمكتبة العامة التي تديرها عائلة الحكيم في شارع الرسول (تحتوي قرابة الستين ألف كتاب

وعشرين ألف مخطوطة) أحرقتا ونهبتا معاً. وهذا ما حلّ أيضاً بمكتبة دار العلم التي كان يملكها آية الله الخوئي، والتي قدرت محتوياتها بما يقارب ٣٨ ألف كتاب، و ٧٥٠٠ مخطوطة. وقد لا يمكن أبداً استرجاع قائمة دقيقة بهذه الكنوز التي لا تقدر بثمن، إذ أن معظم الأشخاص الذين كانوا مسؤولين عنها إما أنهم قتلوا أو أنهم الآن معتقلون. والخطر الحقيقي يكمن في أن الحجم والطابع المنظم لهذا الهجوم الذي شنه النظام في بغداد، وضعاً حاداً نهائياً لتقليد عمره ألف سنة من تدريس وتعلّم الفقه في النجف، مع ما يتبع ذلك من تبعات مستقبلية ليس بالوسع توقعها.

بغية تقديم جرزة حسابات بهذا كله، قامت صحيفة «الثورة»، وهي الناطق الرسمي باسم حزب البعث، بنشر سلسلة من ست مقالات رئيسية غير موقعة في نيسان/ أبريل ١٩٩١^(٧٨). وهذه المقالات تظهر تحوّلًا جذرياً في موقف بغداد الرسمي تجاه مواطنيها الشيعة. لكن كما كان متوقعاً، وصف النظام الانتفاضة في الجنوب بأنها «مؤامرة أجنبية قذرة».

كان الجديد هو في فكرة أن المعتدين لم يكونوا فقط «غرباء بمقتضى هويتهم وجنسياتهم»، بل كانوا «غرباء عن العراق بمقتضى ذهنياتهم، وضميرهم وشعورهم». وعرض أن يكونوا عراقيين مخلصين، يعملون لمصلحة الثورة البعثية والأمة العربية، وهذا ما كانت الدعاية الرسمية تمجده طوال سنوات الحرب العراقية - الإيرانية، أصبحوا سفلة منحطين، يطيعون ديانة وضعية لا تحتوي أي مبدأ أخلاقي. وهذا النوع من الخطاب لم يسبق له أن استخدم في الصحف البعثية من قبل، وقد تبعته مجموعة كبيرة من المقالات في الصحافة العراقية وأخبار عن «أطروحات دكتوراه» طوال صيف ١٩٩٢، تشوّه جميعها سمعة الشيعة وديانتهم.

بذلت مقالات «الثورة» جهداً عظيماً «لإثبات» أن الشيعة العراقيين هم في الواقع «غير عراقيين». فالتأثير الإيراني على جنوب العراق، كما زعمت المقالات، حط من قدر ثقافة الشيعة، وأيضاً، وعلى وجه أخص، من ديانتهم. لقد فقدوا احترام الذات والفهم العميق للإسلام وهما ميزتا العربي الحقيقي. وتم تقديم الشيعة كأناس بدائيين يؤمنون بالخرافات، يعبدون سلالة النبي - الملقّين بالسيّاد - وذلك بهيام متزلف يثير في العربي الحقيقي القرف. وتزعم جريدة «الثورة» أن هذا التزلف يصل أحياناً إلى درجة وضعية «إذ يقوم بعض الناس بتقبيل أقدام أو آثار أقدام السيّاد على الأرض...». والعادات هذه التي أدخلها رجال الدين الإيرانيون إلى العراق أشبه بالهرطقة وتكشف كيف أن الغرباء يحاولون

تحقير العراقيين و... إخضاعهم لإرادتهم هم من خلال ممارسات يزعمون نفاقاً انها دينية. فالعرب الحقيقيون ليسوا معتادين «على الانحناء أمام الآخرين».

وتتابع المقالات مهاجمة عرب الأهوار مستعرضة عوزهم وتخلّفهم وفجورهم. وهي تعتبرهم أشراً بالسليقة وقذرين ووسخين، وانهم من سلالة العبيد الهنود وليسوا البتة عرباً حقيقيين. أما ممارساتهم الجنسية فمثيرة للقرف، ونساؤهم عاهرات غير محتشمت، وعنهم «يسمع المرء أحياناً قصص شذوذ مقرفة تثير الغثيان»، كما جاء في «الثورة». وعلى الرغم من ذلك وكما يختم الكاتب غير المستي، فإن صدام حسين يعامل هؤلاء الناس «إنسانية، وحسب... التقاليد العربية المحض، والمبادئ الإسلامية اللاتقة. وبينما يتجنب السيد الاختلاط بأتباعه، إلا في المناسبات الكبرى، بقصد الحفاظ على سلطته وتأثيره على الناس الأميين، فإن صدام حسين يختلط بالناس العاديين في الأهوار من دون زخارف السلطة، ينام ويأكل معهم ويشاطرهم أفراحهم وأحزانهم».

لقد تجاهل المثقفون ورجال الدين والرأي الرسمي العربي ما كان يجري في العراق خلال آذار/ مارس ونيسان/ أبريل ١٩٩١. لم يرق أي واحد من المثقفين الذين سوف أتعرض للنقد بأرائهم في القسم الثاني من هذا الكتاب، أو الذين شجبوا بعنف تورط الغرب في مسألة الكويت، بالكتابة أو التحدث جهاراً دفاعاً عن شعب استجمع أخيراً الشجاعة لأن يثور ضد نظام قصفه بالنابالم، ويقتابل الغاز، وعذبه طوال ٢٣ سنة. كان أساتذة جامعيون مميّزون يجلسون إلى موائد عشاء في الغرب مستعرضين تكهناتهم التي تعتبر أن مصير العراقيين سيكون أفضل بكثير إن استطاع صدام البقاء في السلطة. مثقفون آخرون كانوا يقيمون حلقات نقاش مع مشرعي ورأسي السياسة الأميركية، طالبين منهم بإلحاح عدم التدخل في مسألة القتل الجماعي العديم الشفقة القائم والممارس ضد العراقيين، معلّين ذلك ظاهرياً بالعواقب الرهيبة التي يمكن أن تحل بالمنطقة من جراء التدخل^(٧٩). ردات فعل من هذا النوع دليل إفلاس أخلاقي. والحزن في الأمر، إن ردات الفعل هذه لا تقوم حتى على أساس من الجهد. بل تبني في الواقع على انعدام كلي للتعاطف مع معاناة إخوان لهم في الإنسانية، إخوان يصادف - في هذه الحالة - أنهم عرب مثلهم.

ليس بوسعي أن أنهي هذا الفصل بطريقة أفضل من تلك التي قدمها مصطفى جمال الدين، وهو شاعر وكاتب من النجف، جاء كلامه رداً على صمت معظم العالم العربي - الإسلامي حيال ما جرى من أحداث في جنوب العراق:

«لنفترض ان الانتفاضة شيعية جنوبية، وليست عراقية عامة، ولنفترض أن الشيعة مشكوك بإسلاميتهم - كما يحلو ذلك لبعض المتطرفين من إخواننا أهل السنة - ولكن: أليست هذه العتبات المقدسة مشاهد ومساجد إسلامية، أليس فيها مرقد الخليفة الرابع علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) ومرقد آبائنا من أهل البيت (رضي الله عنهم)؟ ألا يستحق قصفها بصواريخ (سكود) وإهدار كرامتها وحرمتها، منشوراً واحداً، أو بياناً استنكارياً مقتضياً يصدر من جهة عربية أو إسلامية - ولو كانت غير حكومية - كالأزهر مثلاً في مصر، وجامع الزيتونة في تونس، وجامع القرويين في المغرب، ورابطة العالم الإسلامي في السعودية، أو من أية جامعة، أو منتدى، أو أي حزب إسلامي، أو فئة إسلامية، أو أي عالم ديني....

أتكون حرمة هذه العتبات المقدسة مهدورة لأن الشيعة يسكنون بجوارها؟

أنا لست طائفيًا، وليس في تاريخي الأدبي أو السياسي ما يدل على ذلك، بل كنت ولا أزال أَدعو إلى إسلام حقيقي خالي من التطرف المذهبي والقومي، وكنت أؤكد على جهلنا نحن المسلمين بروح الإسلام الكريمة، وتغليب العصبية المذهبية على تسامح هذا الدين وإنسانيته، كما كنت أؤكد على جهلنا - نحن العرب - بتسامح عروبتنا وإنسانيته، والانحراف بها إلى روح من العصبية والشوفينية.

هذه هي عقيدتي في الإسلام والعروبة، وتتركز في أن أهم أمراض المسلمين في الوقت الحاضر هي الطائفية، والعنصرية، وهما في رأيي، ورأي كل المخلصين في الوطن العربي، سرٌّ تأخر هذا الشعب العربي المسلم، وبخاصة في العراق...

هذه الملاحظات، أو هذه الهوامش، التي أوردتها بهذه الصراحة - الجارحة أحياناً - هي التي يجب أن تكون أساس التفاهم بين سَنَةِ العراق وشيعته، وهي الأساس الثابت لحل المشكلة العراقية. نحن لا نريد من السَنَةِ أن يكونوا شيعة، كما لا نريد لهم أن يجعلوا الشيعة سَنَةً، فهذه مذاهب فقهية، وعقائدية، لا تؤثر في الواقع السياسي والاجتماعي لمواطني البلد الواحد.....

ونحن جميعاً عرب، لأننا نعيش في هذا الجزء من الوطن العربي نشعر بشعور العرب في كل مكان ونتحدث بلغتهم، ونحسُّ بأحاسيسهم، وجمعنا وإياهم مصير واحد، وليست العروبة دماً يجري في عروق بعض الناس دون بعض، بل هي هذه المشاعر الواحدة، والأعراف المتشابهة، والمصائر المشتركة^(٨٠).

٣ - عمر

داخل سجن في بغداد

عمر شاب مرح، حسن التشبث، وطموح في مطلع ثلاثينياته، احتجز ٤٢ يوماً داخل مبنى الجهاز الاستخبارات العسكرية، يقع قرب النافورات في منطقة الكاظمية ببغداد، وقد دمر خلال حرب الخليج^(١).

التقينا لأول مرة لأن شقيقه، باسل، كان في السليمانية إبان الإنتفاضة، وكتب له من هناك رسالة شخصية تحتوي وصفاً مسهباً للأحداث التي جرت. سمح لي عمر باستخدام مقاطع من رسالة باسل التي كتبها لاحقاً في إيران ومعانياً من الصدمة التي خلّفها العنف المريع الذي وقع أسيره دون سابق إنذار^(٢).

إلا أنني، على أية حال، اكتشفت خلال حديثنا أن لدى عمر، كذلك، قصة لا تصدّق. قصة احتجازه في بغداد تسبق ما عاناه شقيقه في آذار/مارس ١٩٩١ بما يزيد على السنتين، وتبدو ظاهرياً كما لو أنها غير متصلة بها. لكن قصة عمر غير قابلة للتصديق - برغم كونها ضرورية لفهم ما الذي حدث لباسل - لأنها تبدو مألوقة جداً. فالسجن الذي احتجز فيه عمر هو بمثابة عالم صغير إزاء السجن الأكبر بكثير الذي يدعى العراق البعثي.

ثمة آلاف القصص المماثلة لقصة عمر عانى فيها العراقيون، إبان الثمانينات، ما عاناه عمر. ليس بالضرورة أن يكون أبطال القصص هؤلاء قد فعلوا شيئاً، وليس مهماً السؤال من كان هؤلاء وماذا كانوا.

عمر سني عربي من الأعظمية، وشى به رجل كردي، وتولّى التحقيق معه ضابط شيعي. كان محظوظاً لكونه اعتبر بريئاً بحسب مقاييس البعث واعتباراته. ولم يتعرض أيضاً للتعذيب بالمعنى التقني للعبارة. إلا أن عنف إنتفاضة أبي حيدر كان وليد تلك

العادية ذاتها التي خبرها عمر.

إنه الابن الأصغر لعائلة مؤلفة من ثلاثة أشقاء وثلاث شقيقات، غادر العراق منذ أن رفع الحظر عن السفر عام ١٩٩٠ ووصل إلى الولايات المتحدة في شهر حزيران/يونيو. التقينا لأول مرة في كامبردج بولاية ماساشوستس، وكان هناك أيضاً صديقان عراقيان، وتحادثنا طوال ساعات الصباح الأولى. وعمر حكواتي بالفطرة ويمتلك عيناً ثابتة في النقاط التفاصيل وذاكرة خارقة يستدعي بها أحداثاً من فترة احتجازه. وكانت لديه موهبة رؤية الجانب المضحك من القسوة، وسوف لن أنسى أبداً ذلك الأسلوب الصاحب المرح الذي وصف به إطلاق سراحه. كانت الساعة الثالثة صباحاً وكنا قضينا ساعات مستمعين إلى تلك التفاصيل المفيضة. راح الجميع يضحك بطريقة مجنونة، وفجأة، إثر تلميح تخاطري^(٥) من عمر بالذات، انفجرنا جميعاً بالبكاء دفعة واحدة. وباستعادة ما كان جرى أدركت أنه كان من الضروري أن نضحك ونقهقه على نحو ما فعلنا، لكي نتمكن جميعاً من البكاء بطريقة ما بكينا.

لقد حوّرت، بموافقة عمر، ما جرى في ساعات الحوارات والتذكارات تلك (وساعات غيرها في جلسات لاحقة) إلى صيغة أنا المتكلم. فالأسماء والتواريخ والأعداد جرى تبديلها كلها من أجل حماية كل أولئك المتورطين، من الشرطي إلى السجناء والمعتذب والمستجوب والمخبر، وكذلك السجناء. والأسماء البديلة تعود إلى المصادر الإثنية أو الطائفية نفسها التي ينتمي إليها الأشخاص: كردي، عربي، سني، أو شيعي. وهكذا احتفظنا بالأسلوب الديمقراطي الذي تمارس فيه السجون العراقية، ومثلها الجيش العراقي، العنف^(٦).

* * *

«ولدت في منطقة الأعظمية في بغداد، معقل القومية العربية في الأيام الخوالي. كان والدي مهندساً في البحرية العراقية أيام كانت تدعى «قوة النهرية»^(٧). وسبق لوالدي أن شارك في إنقلاب رشيد عالي عام ١٩٤١ ضد البريطانيين، هذا الإنقلاب الذي يعتبره حزب البعث أول ثورة عربية. وهو، طوال فترة الخمسينات، كان يتخذ من شاري هتلر طرازاً لشاريه.

في ٢ أيلول/سبتمبر ١٩٧٩، تماماً بعد تخرّجي من جامعة بغداد كمهندس مدني،

(٥) ملاحظة المترجم: أو Telepathic، التعبير الذي يصف اتصال عقل بآخر بطريقة تخرج عن العادي والمألوف.

استدعيت لأداء خدمتي الاجبارية في الجيش العراقي. و سُرّحت في ٧ نيسان/أبريل ١٩٨٥ يوم ذكرى تأسيس حزب البعث العربي الاشتراكي الحاكم، وكنت أمضيت في الخدمة خمس سنوات وسبعة أشهر وخمسة أيام.

لدينا أنا والدي بعض الأشياء الغريبة المتشابهة في حياتنا - وأيضاً بعض الاختلافات. كلانا مهندس، ولكن بينما كنت أنا جندياً إبان الحرب العراقية الإيرانية التي كرهت كل لحظة فيها، كان هو ضابطاً قومياً متفانياً شارك في إنقلاب فاشل. والتمن الذي دفعه والذي لقاء شغفه بالسياسة كان صرفه من الخدمة العسكرية وسجنه لمدة أربع سنوات. أما التمن الذي دفعته أنا لكوني فتى من النوع التواكلي، سهل الانقياد والذي لا يهوى إلا قضاء أوقات طيبة، فكان قضاء ٤٢ يوماً داخل سجن عراقي. والمسألة بالتحديد هي أن الـ ٤٢ يوماً التي قضيتها في ذلك المكان البغيض، وسنواته الأربع، عالمان كاملان ومختلفان.

عملت مهندس موقع في مشروع بناء مجتمع للضيوف تابع للحكومة. كان هذا بناءً مهماً جداً. ونتيجة لذلك استطعت إقامة علاقات ممتازة مع الأسماء الكبيرة فعلياً في حزب البعث. كنت أنقاسم الشرب والمودة مع أولادهم في الحفلات وفي النوادي، ليس لأنني اخترت ذلك، أنت تفهمني، ولكن بحكم الضرورة - مثل الجميع.

في ليلة شتاء باردة من سنة ١٩٨٧، وهي آخر سنة في الحرب العراقية - الإيرانية، بقيت حتى وقت متأخر أراجع بعض الحسابات المتعلقة بمواد المشروع الأولية. انهكني العمل وشعرت بحاجة ماسة إلى الشرب بعد ١٦ ساعة من العمل. كانت الساعة حوالي الواحدة بعد منتصف الليل عندما وصلت إلى المنزل وأوقفت السيارة في المرائب. ولحظة نهضت عن مقعد القيادة إنقضّ عليّ أربعة رجال مثل وحوش كاسرة، فزقق أحدهم نابحاً: «هل أنت عمر الذي يعمل في مشروع الدولة للضيوف؟»

أصبت بالهلع. كان اثنان منهما يصوّبان مسدسيهما باتجاهي. كانت العتمة مطبقة، ولم استطع أن اتبين شيئاً بوضوح، أم تراني كنت في حلم؟ هممت بأن أتناول أوراق هويتي، التي كانت داخل محفظتي في صندوق القفاز في السيارة، فزقق بي الرجل: «توقف! توقف! لا تمدّ يدك، لا تتحرك!». لا بد أنهم اعتقدوا أنني كنت سأتناول مسدساً. سحبوني إلى الخارج بعنف. وأوضح ما أذكره أنهم كانوا عصبي المزاج إلى حد الهستيريا.

لم يظهر أي منهم بطاقة تعريف. وطوال الوقت جعلوا يصرخون مما زاد في ارتباك. سألت «ماذا في الأمر؟ فزققوا بي: «أصمت. ولا كلمة. استدر». دام ذلك حوالي

العشر ثوان، في هذه الأثناء كانت أُمِّي قد خرجت إلى المَرَّاب آتية عبر الحديدية. كان وجهها شاحباً وأذكر أنني لاحظت أنها بدت متعبة جداً. كانت حاسرة الرأس وهذا نادراً ما يحدث. صرخت: «عمرا عمرا إنتبه لقد أخذوا أخاك». لم أعرف عما كانت تتكلم. لحظة ادركتنا أُمِّي، إنقضَّ أحد الأربعة، وكان ابن زانية بشعاً، وطويل القامة، وخداه مكسَّوناً ببندبات الجدري المجرَّوة، ودفعها دفعة قوية. فقدت توازنها وكادت تقع على أرض المَرَّاب. صرخ بها أن تصمت بصوت غليظ أجش، وجعل بعدها، ومن دون أي سبب واضح، يكيل لها الشتائم.

فكرت في نفسي: «هل مثل هذا حقيقي؟». خارج المَرَّاب قيَّدوا يديَّ بالأغلال وراء ظهري. سمعت صراخ أُمِّي وبكاءها وهي تقول: «أتوصل إليكم لا تؤذوه، أرجوكم أرجوكم». وفجأة ظهرت من لا مكان سيارة تويوتا لاند كروزر بيضاء اللون تحمل رقم تسجيل مدنياً. هذا طراز خاص بكافة سلك الاستخبارات والشرطة السريَّة. رموني في الداخل، ووقفت أُمِّي في الخارج تصرخ قائلة: «انتبهوا، أرجوكم لا تؤذوه، الله يحميك. والله إن ولدي لم يفعل أي سوء». دفعها الرجال بقوة إلى داخل المنزل وأغلقوا الباب بعنف في وجهها.

قبل الدخول إلى السيارة نزعوا عني كنزتي - وكان البرد قارصاً تلك الليلة - واستخدموها لعصب عيني. وبما أن الكنزة كانت مصنوعة من الصوف، كان بوسعي الرؤية عبر قطبها المشدودة من خلال الثقوب. رأيت أخي مكوَّماً فوق المقعد الخلفي في اللاند كروزر. تراجعت السيارة ثم أقلت، كانت تلحق بنا سيارة لاند كروزر ثانية.

كانوا قد كمنوا حول المنزل، كما إتضح لي في ما بعد، طوال ساعات ثلاث، بانتظار وصولي. افترضوا أنني رجل خطير جداً. مدَّ أخي يده من الخلف وأمسك يدي ضاغطاً عليها كما لو أنه يقول لي «إن وقتنا وخيمة جداً».

دخل السيارة بدأوا الصراخ بي. «أين كنت؟ يا كلب يا ابن الكلب أين كنت؟ أنا ننتظر هنا منذ ساعات. ألا تعتقد أن لدينا أموراً أفضل نفعلها؟ هل كنت مع صديقك كفاح؟». هذا صحيح. لدي صديق يدعى كفاح كان يعيش في الجوار. انهم يعرفون اسمه. كيف عرفوا؟

سألت «من هو كفاح؟» محاولاً التجاهل. كانوا يحاولون خداعي ودفعي إلى الإجابة بنعم، كي يستطيعوا السعي وراءه واعتقاله. استدار أحد رجال الأمن نحو أخي وسأل: «هل كان يتردد على كفاح؟»، أجاب أخي «من هو كفاح؟». في ذلك الوقت على الأقل بدا انهم يميلون إلى تصديق أن كفاح صديقي لم يكن متورطاً. لكنه غير متورط في ماذا؟

كنت ما زلت لا أملك أية فكرة. لو سلّمت بأنّي كنت أعمل معه، لكان كفاح اليوم في عداد الأموات. كان كفاح في الواقع ضابطاً في الجيش، وهؤلاء يُعاملون عادة بقسوة بالغة.

بين الحين والآخر كانت السيارتان تتوقفان لاعتقال أشخاص آخرين. عندما أدخلت السيارة لاحظت وجود شخص ما ممدداً في مؤخرتها ومغطى كلياً ببطانية. اكتشفت لاحقاً انه كان المخبر المسؤول عن اعتقالنا وأنه هو من دلّهم إلى منزلي. في البداية أخفوا عنا، أنا وشقيقي، هويته. كان الرجل قد بدا الآن، غير أنني لم أستطع التعرف إلى صوته على الرغم من شعوري بأنّي كنت سمعته من قبل. كنت في حال من الذهول، غير قادر على التفكير بوضوح، مسحوقاً بحجم الكارثة التي بدا لي كما لو أنها لو هوت على رأسي. تابعوا يعتقلون أشخاصاً. المزيد المزيد من الأشخاص الذين كانوا يحشرون داخل سيارتي اللاند كروزر.

ما يزال في وسعي تذكّر الموسيقى التي كانت تصدح في السيارة من شريط سُجل لأُم كلثوم. كان الرجال يغنون ويصفقون لها، وكانوا يصرخون في الوقت نفسه. أخبر أحدهم الآخر: «لقد خرجت مع صديقتي البارحة»، كان الأمر وكأننا غير موجودين. ثم توقف فجأة عن الحديث مع صديقه واستدار متوجهاً إليّ، «هل تعرف الحلاق رياض؟» أجبت أنه لا أعرف أحداً بهذا الاسم. هذه المرة كنت أقول الحقيقة. «أيها القوّاد، يا ابن العاهرة! أنت ترفض الاعتراف. انتظر حتى نوصلك إلى هناك. سوف نرغمك على الاعتراف». كنت ارتجف خوفاً. لم تكن لديّ أية فكرة عن سبب اعتقالهم لي. ثم اعتقلوا شخصاً آخر. في إحدى المرات كان علينا أن ننتظر ساعة كاملة أمام منزل أحدهم. سمعت صراخاً وعبر فجوات عقد كنزتي استطعت رؤية مسدسات مصوّبة.

السيارتان اللتان كانتا متوقفتين خارج منزلي أصبحتا تغصّان بالمعتقلين. في البداية لم يكن في السيارة إلا أنا وشقيقي، إضافة إلى المُخبر. كان ثلاثة رجال من الأمن بمن فيهم السائق، جالسين في المقدّمة. ثم أضيف إلينا، في المقعد الخلفي، شخص واحد. وهكذا أضحت سيارتنا مليئة بالكامل.

ظلّت السيارة تتقدم لوقت حسبته ساعات، ثم بدأت تصعد متمهلة فوق ما أدركت انه جسر. شممت رائحة النهر على الرغم من برد الخارج القارس والنوافذ المقفلة، وبعد أن عبرنا الجسر أبطلت السيارة تتوقف أمام حاجز. ارتفعت أصوات بالصراخ: «قف!». رُفع الحاجز وسمعت الحراس والسائق يتبادلون التحية، ثم دخلنا.

عندما توقفت السيارة وأطفئ محركها وجدنتني أصلي كما لم أفعل أبداً من قبل. «يا

ساتر يا حافظ». أمرونا عندها بالخروج. كنا كأشخاص عميان، يتعلّق أحدنا بالآخر مثل قاطرات القطار. وفيما كنا نساق إلى الداخل مدّ أحد الحراس رجله قصداً فتعثّرت بها وسقطت على الأرض. وجدوا ذلك مضحكاً جداً. كان باستطاعتي سماع ضجيج الأجهزة اللاسلكية بينما كنّا نتلمّس طريقنا عبر العتمة. «موت اللي كرفك! طاح حظك»، جعلوا يزعقون فيما كنت أجهّد لاستعادة توازني. بين الوقت والآخر كانوا يشتموننا أو يصعقون علينا. تقدّمنا بضغّ خطّوات ثم طلبوا منّا أن نعتلي، درجة، درجتين، ثلاث درجات. ما زال باستطاعي تذكّر الرقم بالتحديد. اعتلينا الدرجات وظللنا بعدها متقاطرين واحداً في أثر الآخر، وفي حال من العمى الكلّي..

أن نكون عمياناً مسألة مهمة جداً بالنسبة إليهم. لست أعرف السبب تماماً. كانوا لا يريدوننا أن نعرف أين نحن، لأسباب نفسية ربما. عندما لا يعرف المرء أين هو يشعر أنه منسيّ، غارق في الخوف، وأكثر قابلية للاعتراف بما يرغبون في الاعتراف به. الخوف من المجهول أعظم خوف على الإطلاق. كانوا اتخذوا كل الاحتياطات لكي لا نعرف أين نحن، ومن هم هؤلاء الأشخاص المحيطون بنا. حتى بعد أن عرفت في أي مكان أنا، احتفظت بمعرفتي هذه لنفسني وحدها. أولئك الذين صفعوني وضربوني وصرخوا فيّ وهم يطرحون عليّ الأسئلة، كشفوا لي أسماءهم: عباس، حسين الخ... لكن هذه الأسماء كانت مزيفة بالطبع. وهذا عادي^(٥).

جعلوا يدفوننا بأيديهم ويعتقوننا فيما هم يوقفوننا مصطفّين واحداً وراء الآخر، وكان البرد قارصاً. بعد ذلك فكّوا الأغلال ونزعوا عن أعيننا العصابات. ثم أمرنا بأن نفتح أعيننا. كنّا داخل بناء مرّبع في وسطه فناء، وبدأت النوافذ جميعها تطلّ على الفناء، إذ لا نوافذ تطل على الخارج. تصوّروا مربعاً داخل مربع أكبر. المربع الداخلي عبارة عن ساحة إسمنتية تحيط بها النوافذ، وما تبقى كان كله غرفة. لقد بدا المكان أشبه بفندق.

وقع نظري أولاً على مكان كأنه قاعة، أرضيته ونوافذه فسيفسائية. كان ثمة ثلاثة أبواب خشبية، إلى ناحية اليسار، أما إلى اليمين فليس إلّا ساحة الفناء، ولم يكن منظر تلك الأبواب مخيفاً. جزّونا كالقطيع إلى داخل غرفة استجواب كان يجلس في وسطها موظف وراء مكتبه، أمرنا بخلع ملابسنا. «أنتم!! إخلعوا ملابسكم». بدا أشبه بذلك النوع من الحمقى الذين تراهم في الدوائر الحكومية كما يقول المثل «زمال الله بأرض الله» [الزمال يعني الحمار في اللهجة الدارجة العراقية].

خلعت قميصي ثم بنطالي وانتظرت أن يقول لي «هذا يكفي». كنت خائفاً جداً أن أسأل إلى أي حد يريدني أن أعرّى. وبما أنه لم يقل شيئاً، تابعنا حتى أصبحنا نحن

الخمسة عراة كلياً. كانت النوافذ قد تركت مشرعة عمداً، برغم البرد الجليدي القارس. وكان جميع الحراس متدثرين دافئين في ستراتهم العسكرية السمكية. ليست لديك أية فكرة كم كانت درجة البرد، لكن أحدهم زعق بي: «لماذا ترتجف أيها الجبان؟ ماذا تفعل هنا إن كنت لا تستطيع التحمل؟» هكذا، كما لو أنني جئت إلى هنا بمحض إرادتي.

أُعتقل خمسة أشخاص في تلك الليلة، بمن فيهم جعفر وهو صديق سابق لي، ولأعب كرة قدم من الدرجة الأولى كان يسكن في مدينة الثورة^(٦). الشخصان الآخران لم يسبق لي أن رأيتهما من قبل. كنا أنا وشقيقي وجعفر ننظر إلى بعضنا البعض بين وقت وآخر. ساروا بنا عبر رواق طويل، جاعليننا نقف في صف مستقيم مثل ماكينات صغيرة، وكل واحد منا بمواجهة باب زنزاة مختلفة ولكل باب نافذة ذات قضبان حديدية رفيعة. سمعت طقطقة بدا لي صوتها صوت مئة قفل، وفتح الباب الحديدي، ودفعت بعنف إلى الداخل بركلة على قفائي.

ما كنت لأرى نظراً كهذا حتى في أبشع كوايسي. أشخاص ناهلون إلى درجة مخيفة بعيون مجوّفة سوداء وبشرات مبيضة وملطخة ببقع زرقاء كامدة وصفراء. كانوا مثل الزومبي^(٧). كانت رؤوسهم محلوقة ويرتدون دشدشات ممزقة. وأحدهم كان يرتدي نصف دشدشة بالكامل، فيما ارتدى آخر ممزقة منها بالكاد تغطي نصف مؤخرته. دخلت عارياً. لم ينس أي منهم بحرف. حدّقوا بي وهم فاغرو الأفواه كما لو انه لم يسبق لهم أن شاهدوا آدمياً من قبل. كان الأمر كما لو أنني أتيت من كوكب آخر، وبدأوا يتحسسوني ويلمسونني بأيديهم. فكرت أنهم لم يعودوا آدميين بالمعنى الذي أعرفه للكلمة، طوال خمس دقائق كاملة لم يوجه إليّ أحدهم كلمة. كنت مدعوراً كلياً.

قال أحدهم أخيراً وهو يلهث بعنف: «الله كم هي رائحة رائحة العرق»^(٨). كان ذلك أول شيء سمعته منهم. «تعال إجلس هنا»، قال لي أوسمهم، بنبرة متوددة، وبدا كما لو انه أجنبي السمات: أقرب إلى أن يكون أميركياً: أشقر، موشوم الذراع، ويرتدي أنظف دشدشة بين دشدشات المجموعة.

سألني: «ما اسمك؟»

«عمر».

«ما الذي فعلته؟»

«والله لست أدري».

(٥) ملاحظة المترجم: شكل عجائبي أو ميت أعيد إلى الحياة من غير أن يستعيد إرادته وقدرته على الكلام.

«لا تدعي البراءة. إن كنت ارتكبت ذنباً، قل ذلك. استطيع أن أساعدك. استطيع أن ألقنك ماذا ينبغي أن تقوله إن جاؤوا وطلبوك للإستجواب».

وأنا أستبعد ذلك الآن يخالجنني شعور بالإمتنان لذلك الرجل. آنذاك، ارتبت منه بطبيعة الحال. لماذا كان، على خلافهم، نظيفاً ومرتباً؟ لقد دعاني إلى الجلوس والإستلقاء إلى جانبه. كانت لديهم في الزنزانة قماشة، هي دشدشة في الأصل، يستخدمونها لتنظيف الأرض ولمسح القيء. تننته الرائحة ومكسوة بالبراغيث. أعطاني الرجل الأشقر إياها لأكسو جسمي بها. وعلى الرغم من التثانة والقمل رأيت أنها أفضل من لا شيء. ارتديتها، إذ كيف لي أن أرفض؟ فأولئك الرجال أعلى مني رتبة، وشعرت أنه يتوجب علي إطاعتهم.

ثم انكسر حاجز الصمت، وبدأت الأسئلة تنهال علي من كل الجهات، ودائماً حول الموضوع نفسه. ما سبب وجودي هنا؟ ما الذي فعلته؟ كم عدد المتورطين في المسألة؟ أو هل كنت أحتمي الشراب في الشيراتون؟ ولم اتوقف أنا عن القسم لهم بالقرآن بأنني لا أعرف شيئاً. لم يصدقوني، أو على الأصح بعضهم صدق والبعض الآخر لم يصدق. يجب أن تفهم، أولئك الرجال ما كانوا متخلفين عقلياً أو ما يشبه ذلك، على العكس، اكتشفت شيئاً فشيئاً أنهم كانوا جميعاً أذكاء جداً - أكثر ذكاءً مما يمكن أن يراودك حين تنظر إليهم للمرة الأولى. كانوا بكل بساطة قد تأقلموا، مثل الحيوانات، مع محيطهم الجديد.

حدست أن الأشقر كان الأحذق والأوسع تجربة بينهم. بدأ يتحدث إلي بهدف أن يتصور السبب الذي جعلهم يعتقلوني.

«هل كنت تجتمع مع كثيرين على الشراب أو اللهو أو ما شابه؟»

أجبت: «أجل».

«أي نوع من الأشخاص كنت تعاشر؟»

أخبرته.

«حسناً، الآن أعرف لماذا أنت هنا».

«ولماذا؟»، سألت، «أنا نفسي لا أعرف».

«لا بد أنك قلت شيئاً ما».

قال لي ان اسمه سعد السامرائي، «إن رويت لك قصتي لن تصدقها».

سألته: «ما قصتك؟»

«أنا إسباني».

«ماذا؟ صحت متفاجئاً».

«تزوجت من إسبانية وأصبحت بذلك مواطناً إسبانياً. كنت ناشطاً مع المعارضة في إسبانيا»، وأضاف، «في أحد الأيام تلقيت اتصالاً هاتفياً من السفارة وطلبوا مني أن أعرج عليهم. ذهبت إلى هناك وقدموا لي كوباً من الشاي. حين فحنت عيني مجدداً وجدت نفسي في هذا المكان».

هذا هو بالتمام ما أخبرني إياه الرجل. لا أعلم إن كان يقول الحقيقة أم لا. كان مسجوناً منذ ستين وهو في أواخر ثلاثيناته.

قال إنه سوف يلقني عدداً من القوانين والإجراءات الضرورية من أجل البقاء على قيد الحياة في هذا المكان. كان سيخبرني بشأن تلك الأمور شئت ذلك أم أبيت، ففي كل زنزانة هناك نزيل يطلق عليه اسم «الأقدم» كان السجنانون أنفسهم يعتونه، ولم يكن ذلك لأقدميته، بل لإمتلاكه مواصفات القائد، وهو لم يُختَر للتجسس على من هم معه، بل من أجل تنظيم أمورهم وتسويتها. مثلاً لم يكن الحرس على استعداد لإضاعة وقته بإفهامي أن أدعو واحدهم «سيدي». تركوا ذلك لسعد الذي علمني ماذا أقول، وأيضاً بالنبرة المناسبة التي يجب أن أقول بها ذلك.

علمني أيضاً إجراءات المراض. حين يأتي دور إحدى الزنانات، يُفتح الباب، ويجم الحراس بانتظار الإشارة، ثم... ركضاً إلى هناك. حين يصل العدّ إلى رقم العشرة يتوجب عليك أن تكون انتهيت من كل شيء وعدت إلى الزنانة، فإن تجاوزت العشرة أشعوك ركلاً وصفعاً. أذكر ذلك الرجل العجوز الذي فشل مرة في ذلك. وجعل يبكي. كان للضعف البشري القدرة على إثارة احتياج الحراس جميعهم. عزوا الرجل من ثيابه ومدّوه على بطنه. كانت الأرضية كما أذكر مبلّلة وكان الصقيع فظيماً. ثم داس عليه الحارس وجعل يمشي فوقه ذهاباً وإياباً. كان جسم العجوز يرتجف كله وجعل يبكي كالطفل. وحينما روى الحارس غليله قال له: «لقد سامحتك هذه المرة. إنهض وأذهب!»

لم يكن يُسمح لك كذلك بالركض إلى المراض بطريقة طبيعية، أي على قدمين. كان على كل نزيل أن يركض منحنيّاً شبه جاثم مدلياً يديه لتلامسا الأرضية. كانوا يستونها «ركضة القروء»، وكان ذلك يجري ثلاث مرّات في اليوم، بعد كل من الفطور والغداء والعشاء (في أثناء ذلك كان يتوجب أن تشطف الوعاء الذي كانوا أحضروا فيه لك الطعام). كنا كلنا نركض إلى المراض بهذه الطريقة مخفضين أنظارنا نحو الأسفل، غير ملتفتين إلى اليمين ولا إلى اليسار، ولا إلى الوجوه على نحو أخص. لم يكن المراض بيت خلاء لائقاً، بل أشبه بئركة في الأرض تقضي فيها حاجتك.

لقني سعد كل تلك الأمور الروتينية الأساسية من غير أن أطلب منه ذلك، وكانت

كلها ضرورية بكل ما في الكلمة من معنى، من أجل أن لا تتعرض للضرب.

لاحقاً استطعت بنفسى اكتشاف التفاصيل الحساسة والأساسية. كان فى المقدور إيجاد سبيل لتجاوز القوانين، وكان ذلك يتوقف على الحارس، أو على درجة التوتر الظاهرية فى السجن. كان بعض الحراس أكثر تساهلاً من البعض الآخر. بعض الأوغاد منهم كانوا يجدون متعة حقيقية فى الاستعجال بالعدّ، أو فى العد بشكل متقطع، كى لا يتسنى لك أن تعرف أبداً كم تبقى لك من الوقت. كان آخرون يكرهون ما يفعلونه، ويجرون العدّ ببطء. والقيام بالعد على وتيرة بطيئة كان أمراً بطولياً بين زملاء من ذاك الصنف، فليس بالضرورة أن يكون الرجل وحشاً لمجرد انه يعمل فى مكان كهذا.

وهو حضّرني كذلك لمواجهة استجوابى، الذى كان سيبدأ فى الصباح. أدرك كم كنت خائفاً، وكان يتكلم بهدوء وبتمهل من غير أن يتوقع منى أية ردة فعل.

«أولاً سوف يعصبون عينيك ويجعلونك تنتظر طوال ساعات قبل أن تمثل أمام المسؤول عن استجوابك. سوف تصاب بالهلع. سوف تسمع زعيقاً وصراخاً - لا تهتم لذلك.

ثانياً عندما ينزعون عُصبتك سترى آلة تسجيل. سترى أيضاً حبلاً وسلاسل وهراوات وأسلاك جُلْد. إنها موضوعة هناك لترويعك. سوف يقولون لك ان هناك حديثاً لك مسجلاً داخل آلة التسجيل. سوف يقولون لك إنهم سيدلّونك من السقف معلقاً برجليك وسيضربونك بالهراوات. لا تصدّق ذلك. لا تجزع. كل ذلك ليس سوى تمثيلية. أهم ما فى الأمر أن لا تعترف أبداً بشيء لم تقم به.

الأهم من كل هذا أن لا تذكر عدداً كبيراً من الاسماء أو أحداثاً معينة. حتى لو أملاوا عليك أسماء حاول ان لا تصادق عليها. لا تضيف أية تفاصيل على ما يروونه. كلما أكثر من الاسماء طال استجوابك، وكلما طال استجوابك ازدادت تأذياً».

إن قول تلك الأشياء أسهل من القيام بها! كان يقدم لي صورة داخلية عن حيل رجال الأمن. لم يكن لديه ما يخسره، كما يقال، وكانت لديّ، فى البداية، بالتأكيد شكوك بشأن سعد. وهذه الشكوك دامت إلى أن تأكدت من صحّة ما قاله، وأدركت أنه لا يمكن أن يكون عميلاً لرجال الأمن. كان سعد رجلاً طيباً ونقياً. وهذا كان أسلوبه فى النضال ضد النظام.

قال: «إن انقاذ أي عراقي هو بمثابة خدمة تقدمها للبلاد. ماذا كان سيكسب من قول شيء كهذا لي أنا؟

بقيت في زنزانة سعد السامرائي يوماً واحداً فقط، ولم أرَ ذلك الرجل مجدداً بعد ذلك على الإطلاق، لكنني سأبقى ممتناً له إلى الأبد.

ومن بين الرجال الآخرين الذين كانوا معي في الزنزانة، ما زلت أذكر ذلك الشاب الهزيل إلى حد لا يصدق. عمره ٢٤ أو ٢٥ سنة وكان يجلس وحيداً في الزاوية. كان يعتقد، من غير أن يكون متأكداً، انه ربما مضت عليه قرابة الأربع سنوات في تلك الغرفة بالذات، في تلك الزاوية بالذات، وكان متهماً بجمع التبرعات من أجل حزب معارض، إبان فترة خدمته الإجبارية في الجيش العراقي.

آخرون في الغرفة لم يكن صدر بعد أي حكم عليهم، ولا هم استُجوبوا. كانت أرجحت مسألتهم وكأنا إلى الوقت الملائم، كما لو أنهم رهائن. على سبيل المثال رأيت رجلاً عجوزاً لا علاقة له بالسياسة لا من قريب ولا من بعيد، فز أولاده الناشطون سياسياً وألقي القبض عليه في انتظار أن يسلموا أنفسهم، أو يلقى القبض عليهم.

احتشد في زنزانتنا التي تبلغ مساحتها ٢,٥ متر طولاً و٢,٥ عرضاً ثمانية عشر شخصاً وكنت أنا الرقم ١٩. الجميع ينام على جنبه لا على بطنه أو ظهره. كانوا ينظّمون أنفسهم في صفين: مجموعتان من الرؤوس تتالي كل مجموعة منها لصق حائط، ومجموعتان من الاقدام تتجهان متعاكستين نحو الوسط. كانت الاقدام تتشابه والأشخاص يركل بعضهم البعض أثناء النوم من غير أن يفيق النائمون، علماً أن تلك الركلات كانت عنيفة أيضاً. مرة قام أحدهم بقلب دلو، ثم جلس عليه ونام متكئاً على الباب.

وكان الضوء يترك مشتعلاً طوال الليل، وكل عشر أو عشرين دقيقة يطل رأس ليتلصص على نومنا. أنا، في تلك الليلة الأولى، عُصرت في الوسط، وعانيت من التنفس، إذ كان أنفي محسوراً في ظهر زميل لي أمامي. كنت الوحيد في الغرفة الذي لم يستطع النوم أبداً طوال ما تبقى من الليل، إذ الجميع كانوا قد اعتادوا على ذلك الوضع.

عند الصباح، رجّت الباب ركلة عنيفة، إذ لا أحد يقرع الباب في هذا المكان. انفتح بعنف وهتف الحارس الواقف أمام الباب بإسمي. عصبوا عيني وكان هذا حقاً أكثر ما كرهته. إنها عصبة متقنة الصنع هذه المرة.

أمرني الحارس بالتقدم، ثم بالتوقف، ثم بالمتابعة ثم بالتحوّل يساراً إلخ. وفي النهاية أمرني بالجلوس. كان ذلك يعني الإقعاء لأن الجلوس على الكراسي ممنوع. كان ينبغي أن

نُفّعي حين يأمرنا الحارس بالجلوس. جلست معمياً كخفّاش، مواجهاً الحائط طوال خمس ساعات على الأقل.

لم أعرف أين كنت. اعتقدت أنني داخل رواق أو ممرّ ما، لكن ليس في وسعي الجزم بذلك. كان حارسي قد وضعني مباشرة بمواجهة نافذة مفتوحة، وقد تقصّد ذلك، أنا متأكد من هذا. الهواء الجليدي كان يصفع بقسوة جسدي العاري، ولم أكن ارتدي إلا تلك الدشداشة المزقة والبالية. كنت عملياً عارياً ومعصوب العينين ومواجهاً الحائط، وجائماً عاري القدمين على بلاط الأرض، وذلك في شهر كانون الأول/ديسمبر - حاولوا أن تتخيلوا كيف كان الأمر! الهواء البارد يخترقني كسكين. كان البرد أسوأ ما في الأمر. من غرفة مجاورة تنأى إلى سمعي صخب استجواب. متى سيحين دوري؟

لم يكن يجري أي تعذيب خلال الاستجواب. مجرد كلام يتخلله ضرب بين الحين والآخر - لكن ليس تعذيباً. ثمة فرق بين الصفع والركل واللكم وحتى الجلد و بين التعذيب الفعلي. لاني أستسي كل هذه الأشياء ضرباً. كان الحراس يهتفون: «محمّد، علي»، «مهدي». عرفت أسماء الأشخاص الذين اعتقلوا معي أو الذين كنت أعرفهم. لا بد أنهم كانوا قد بدأوا الاستجواب الخاص بقضيتنا، كائنة ما كانت القضية - كانوا يطرحون الأسئلة، يركلون المؤخرات، يصفعون الوجوه، يزعمون بالأوامر، ويجلدون الظهور. سمعت هذا كلّهُ.

شعرت كما لو أنني وحدي داخل ذلك الرواق، وكان ثمة أناس يجيئون ويذهبون، وأبواب تفتح وتغلق. هل كان هناك حارس يراقبني طوال الوقت؟ لست أعرف حتى هذا. لا بد أنه كان هناك سجناء آخرون جاثمين على مقربة، غير أنني لم أكن أعلم ذلك. هذا ما يخيف المرء المعصوب العينين.

بين الحين والآخر كنت أتلقي صفعات على رأسي أو ركلة أو لكمة تأتيني من أحد جانبي، وفي أثناء ذلك كان من غير المسموح الوقوف أو القيام بحركة، أو أنني كنت أسمع: «أنت يا ابن العاهرة!» من دون أن أتأكد إن كنت أنا المقصود بذلك.

ثم نادى صوت من الداخل على الحراس: «أدخلوا أياد:» وأياد هو شقيقي. كنت استطيع سماع صوت المحقق بوضوح كل مرّة كان يفتح الباب. ثم سمعت المحقق يقول: «أهلاً، من ذا لدينا هنا، أبو ريا»، وريا اسم ابنة شقيقي. كان يريد أن يدرك أنه يعرف أن له ابنة تدعى ريا، ولهذا تأثير كبير على نفسية من يُحقق معه. «كيف حالك يا أبا ريا؟

أخبرناه، ثم أقفل الباب وما عدت استطيع سماع ما يقال. بث لا أسمع إلا أصواتاً مكبوتة كأنها آتية من مكان بعيد. كان قد مضى بالتأكيد أكثر من ساعة على ادخال أخي حين استدعوني أخيراً.

غرفة الاستجواب مفروشة بالسجاد ودافئة، وفيها جهاز تدفئة مشتعل. أمروني بالإقعاء: «كيف حالك يا عمر؟» سألني صوت خفيض آتياً من مكان ما أمامي. «أخبرني كيف نظمتم أنتم الفتيان لقاءتكم السياسية؟»

فوجئت تماماً بذلك ولم أجب. كان هذا أحد الأسئلة التي لم تراودني طوال تلك الساعات التي قضيتها مقعياً معصوب العينين، محاولاً تصوّر ما سيحدث لاحقاً. خطر لي أن أفضل طريقة لاستيعاب الوضع هي البقاء صامتاً. لربما كنت متوتراً جداً وكان توتري يمنعني من قول أي شيء. كانت مقاومة رغبتني بالموافقة أو نفي الأمر ستمنحني الوقت لتنظيم أفكار. ويمطلق الأحوال، لم تكن لدي فكرة عما كان الرجل يتحدث عنه، لذلك لم أنبس بكلمة.

ثم تابع، «أنت مضادّ للحزب وللثورة». كانت هذه التهمة الأكثر نموذجية. «أنت حاقّد على النظام كما أنك شتمت صدام». لم يستخدم عبارة «سيدي الرئيس» التي كان يتوجب على أكبر الرؤوس في النظام استخدامها عند ذكر اسم صدام، ولكن ذلك لا ينطبق على هذا المكان. كان لهذا الرجل الامتياز الكبير الذي يجعله يقول صدام وحسب. دُعرت لدلالة ذلك، وهي أن الرجل عظيم السلطة. كان ذعري إذ ذاك مخيفاً ولم أعرف له مثيلاً طوال حياتي. رحت أرتجف كلياً وكان في مقدوره أن يرى ارتعاش كل عضلة في جسمي.

أجبت: «أنا لم أقل تلك الأشياء يا سيدي».

صرخ فجأة بعنف: «بل إنك قلت ذلك»، ولدنيا شريط مسجّل. انزع العصبة عن عينيك!». وجهدت عبثاً لأرفع الرباط للعين، فاستشاط غضباً مني: «انزع العصبة يا حمار»، وكان يزعم هذه المرة. فيم شرع صوتان أو ثلاثة يأمروني مرة واحدة وفي الوقت نفسه.

«انزع القسم الأمامي أولاً».

«ارفعها إلى الأعلى قليلاً».

«عجل، ليس لدينا النهار كله!»

كنت مرتبكاً كلياً. وحين أفلحت في نهاية الأمر في نزعها لم استطع تصديق عيني.

أهذا هو المحقق! بعد ان سمعته يزقن ويطلق الشتائم، كوّنت انطباعاً مغلوطاً كلياً عن شكله الخارجي. ما كان ليخطر لك انه محقق لو رأيته في الشارع. لم يكن لديه شاربان - أنت تتوقع من رجل في هذا الموقع أن يكون له شاربان على طراز شاربي صدام! كان شعره قصيراً من الأمام وطويلاً من الخلف. يرتدي بنطال جينز وسترة ملوثة فوق قميص تي شيرت بلون واحد، وكان عمره أقل بكثير مما يمكن أن تتوقع. كانت لهجته مزيجاً من عرية الصحف الفصحى ومن العامية المحكية ولكنها شيعية جنوب العراق. كان من المستحيل أن تصدّق أن شخصاً بمظهره اللطيف ذاك يمكن أن يمتلك ذلك الصوت المريع. أول ما رأيته حين فتحت عيني هو ذلك الرجل، محققي، جالساً وراء طاولة وأصابه فوق أزرار مسجلة موضوعة أمامه.

بدا الأمر غير قابل للتصديق - كان كل شيء يجري تماماً كما قال. غير انني كنت مقتنعاً أن في حوزته وفي مكان خفي شريطاً للتسجيل. لقد كان، في النهاية، هو السلطة. فهل يمكن للمرء أن يأخذ بكلام سجين زميل ويكذب هذا الرجل؟ لم يكن هناك أي شك في المسألة، فما قاله لي سعد بقي في ذهني وأثبت لاحقاً أنه مفيد جداً. نصائح جعلتني أمتنع عن الإجابة بسرعة عن أقوال المحقق، ولو لم أحذر سابقاً لكنت أفشيت أشياء ندمت عليها لاحقاً، وكيف كان سيتسنى لي أن أفلت بعدها من تلك الورطة! فما يفصل بين الحياة والموت في مكان كهذا عرض شعرة، كان سعد قد جعلني أمسك بأحد طرفيها.

استمهل نفسي ثانية ثم قلت: «لا يا سيدي أنا لم أقل شيئاً».

«لدينا هنا الشخص الذي سجل ما قلته».

لكنه لم يشغل آلة التسجيل. لو كان يقول الحقيقة لكان شغلها. انه يكذب.

«من هو يا سيدي؟»

طوال ذلك الوقت كنت أنظر مباشرة إلى الأمام وإلى الأعلى باتجاه المحقق، من غير أن أدير رأسي أبداً ولا حتى مقدار ذرة. كان هذا ما يريد مني. لكن الرجل أمرني «أدر وجهك إلى اليسار».

إلى يساري، فجأة، لاح وجه صديقي نبيل. كان حليق الذقن، يرتدي بأناقة شديدة البذلة الزرقاء العسكرية الخاصة بسلاح القوة الجوية. حتى وأنا اتحدث إليكم الآن، في مقدوري أن أتصور القبة الزرقاء خاصته، كيف كانت مثبتة وزاهية فوق أحد جانبي رأسه. اقشعر بدني. ماذا أفعل بمواجهة ذلك؟ نبيل عميلهم وقد وشى بي. هل كان يعني الأمر غير ذلك؟

عند هذه النقطة الحساسة، وبالكاد وإعياً ما كنت أفعله، قمت بخطوة ذكية جداً، أظن أنها هي ما انقذني. بدل أن أنكر معرفتي بنيل أو أغضب، أو أظهر أي نوع من الضغينة حياله، ابتسمت له بلطف.

«مرحباً نيل، كيف حالك؟»

إنبرى المحقق بصوت مرتفع «إذاً أنت تعرفه».

«بالطبع أعرفه. نيل صديقي».

شعرت أن نيل ارتبك كلياً.

تدخل المستجوب بغلظة سائلاً إياه: «ماذا لديك لتقوله يا نيل. هل شتم صدام أم لا».

«نعم سيدي، لقد فعل ذلك، لقد تحدث». أجاب نيل بنبرة خائفة، وبابتسامة مصطنعة مقيتة ارتسمت فوق كل وجهه، غير أن لونه كان امتقع كلياً. لقد تبدلت الأمور. تابعت نائياً قولي ذلك لكن من دون أن أهاجم نيل بأي شكل من الأشكال. لكنني كنت أغلي من الداخل كراهية، خصوصاً بعدما اكتشفت انه روى للمحقق كل أنواع التفاصيل الشخصية بشأن صديقتي.

«قل لي يا عمر هل تضاجعها داخل منزل أيها؟ أريد أن أعرف كيف يمكنك أن تفعل ذلك. تكلم في الواقع كنا نراقبك تلك المرة حين فعلتها في السيارة. لقد سجلنا ذلك على شريط!»

لم أجب بشيء، ثم بدأ يهاجم أي شبه المشلول بسبب جلطة دماغية أصابته بالصدفة خلال إحدى المعارك في الحرب العراقية - الإيرانية، حين كان أخي في الجبهة والعائلة كلها في قلق عليه. قال الطبيب آنذاك إن الضغط النفسي كان أحد أسباب الجلطة، ومذ ذاك نشأت بيني وبين والدي علاقة مميزة. كنت أنا من يحلق له ذقنه. وكنت من يحمله إلى المرحاض وينظفه كل يوم. كما كنت الوحيد الذي يفهم كلماته بعدما أصبح صوته غير مفهوم بفعل الشلل.

«من الواضح أن أباك ابن حرام لعين لكي يجلب إلى العالم أولاداً مثلك ومثل أخيك. إنه يستحق العقوبة».

حتى هذه الكلمة كان المحقق ما يزال يتحدث بصوت خفيض. ثم صرخ فجأة بصوت زاعق كاد يهوي معه سقف الغرفة.

«سوف أجلبه هذه اللحظة وأشنته هنا. يا حراس! أحضروا الوالد. أحضروا والده أين الحرام».

كادت دموعي تنهمر عندما قال ذلك. لم يعد في مقدوري رؤية أي شيء، وشعرت أنني منخط لكوني سببت كل ذلك الألم لرجل أنشأني وربّاني.

«سيدي، حماك الله، أرجوك سيدي، إن أبي مشلول. لقد كان أحد ضباط العراق القوميين عام ١٩٤١، انه رجل مريض. أرجوك يا سيدي، حماك الله ووراك. إنه قومي عربي كبير».

بدا كما لو أن انهيارني ومناشدتي بالقومية أثرا في المحقق وشعرت كأنه احترمني لكوني أحاول حماية والدي. ربما لم يكن قد عرف أن أبي كان أمضى أربع سنوات في سجون النظام الملكي السابق بسبب الدور الذي لعبه في ١٩٤١. ولانقلاب رشيد عالي مكانة مهمة في نظر البعثيين.

أمر الحراس بالإنصراف وكانت تلك نهاية أول استجواب لي. أرسلت إلى زنزانة أخرى كانت تضم سجينين آخرين فقط. في اليوم التالي، إبان قياسي بركضة القرد إلى المرحاض، رأيت نبيل، نصف عار مرتدياً اسماً متسخة مثله مثل الآخرين. كان نبيل يلعب دور الخبير في تمثيلية كبيرة كانت نظمت من أجلي. كان واقفاً في المأزق مثلي! بل كان وضعه أسوأ من وضعي. في نهاية الأمر أمضيت ٤٢ يوماً في السجن ثم حكم عليّ بالبراءة، بينما حكم عليه هو، ذاك التمس، بالسجن مدى الحياة.

لست أدعي القداسة، فالقديسون يموتون في العراق. الأفضل أن تكون حاذقاً وتعرف كيف تتأقلم مع الأمور. سبق لهم أن وضعوني في موقف كموقف نبيل، وذلك قبل اعتقالني بوقت طويل. الأمر كان يتعلق بصديق لي، هاشم، الذي كان من مدينة العمارة. وكان هو الآخر شيعياً من الجنوب، مثل المحقق الذي استجوبني. كان في وحدتي في الجيش وكان معجباً جداً بالخميني شأنه شأن الكثير من العراقيين في أوائل الثمانينات. ولسوء حظه لم يكن ذكياً ولا حذراً. كان يتحدث بطلاقة عن الثورات الإسلامية، وإن لم يقم بأي نشاط في هذا السياق. كان يتكلم وحسب.

في يوم من الأيام استدعاني ضابط الاستخبارات في وحدتنا إلى غرفته، وما أن دخلت حتى أقفل الباب ورائي. كان هناك ثلاثة رجال في الغرفة وعلى الفور بدأوا يغمرونني بالمديح. «أنت رجل طيب، ومن عائلة محترمة»، وكل ذلك النوع من الهراء. كان رجال مخابرات من يمتدحونني، وبالطبع خفت. حدثتُ بمشكلة ما، ولم يكن من

مجال للتهرب، فأولاد الزانية كانوا يحيطون بي. ماذا كان في المسألة؟ كنت أتساءل. وفجأة ألحقوا إلى شيء ما، وسط الثروة والبربرة، يتصل بـ «صديقي» هاشم. كانوا يريدون النيل منه.

«آه، هو» أجبته قبل أن تتسنى لهم فرصة قول ما كانوا يريدون طوله. «إنه ليس في الواقع صديقاً.. الأمر لا يتعدى كوني أقله معي بين وقت وآخر». إن رفضت العمل معهم سأصبح مشبوهاً على الفور. وبما يشبه الإلهام، تابعت بالوتيرة ذاتها، «لماذا بحق الله لم تطلبوا مني أن أتجسس عليه من قبل؟»، سألني الضابط الأعلى «ماذا تعني؟» أجبته: «في الواقع، لقد مدحت الحكومة أمام هاشم أكثر من مرة، ولا بد أن لديه الآن انطباعاً راسخاً بأنني بعثي ملتزم. أنا واثق من أنه ما عاد يثق بي». كانت تلك خطوة ذكية من ناحيتي، حتى لو كنت أنا من يقول ذلك. لن تصدّقوا ماذا جرى بعدها! جعل أولئك الأغبياء يلقون اللوم على بعضهم البعض لأنهم لم يطلبوا مني أن أتجسس عليه في وقت سابق. لكنهم بعد وقت قليل استطاعوا النيل منه عبر شخص آخر.

تلك المرة استطعت الإفلات بسرعة. ولكن في هذه الورطة أدركت أنه لم يكن بوسعي الإفلات بسهولة. خضعت لعدة جلسات استجواب إضافية بعد تلك الجلسة الأولى، ثم تُركت وشأني في النهاية. كانوا منشغلين جداً بفرز مجموعات جديدة من الناس كانوا يُعتقلون بالتهمة نفسها. ماذا كان الهدف من كل ذلك؟ تمثيلات وألعاب! صدقوني هذا كل ما في الأمر، وكل ما تهدف إليه الاعتقالات برمتها. انتهى بي الأمر في تلك الجلسات إلى أن وشيت بصديقين لي، وقد كان كلاهما متورطاً.

الشخص الأول كان حسين حلووس، وهو الذي تسبب بذلك الكابوس كله.

كان حسين ممثلاً تلفزيونياً فاشلاً من الدرجة الثانية، لا يتوقف عن إعداد الخطط للهرب من العراق. كان ساذجاً إلى درجة غير معقولة، وسكيراً من الدرجة الأولى يندب باستمرار أيامه في الخدمة العسكرية وحظّه في عمله. لم تكن لديّ أدنى فكرة بشأن تخطيطه للفرار. ولكن هل يمكنك أن تلومه؟ فكل الشبان العراقيين الذين أعرفهم يفكرون في هذا. كان حسين قد أقنع نفسه بالهرب عبر المناطق الكردية إلى إيران. وكان يزعم أنه يميل إلى نظام الحميني الإسلامي على الرغم من انه كان يحتمي قنينة عرق كل يوم. سبق له أن تعرّف صدفة إلى كردي وعده بالقيام بكل الترتيبات، وطلب منه الكردي أن يكتب بعض الرسائل لإقناع الإيرانيين بصدق نواياه، وقد أهله غباؤه للقيام بكتابة تلك الرسائل. هل تستطيع تصوّر ذلك؟ وطبعاً اتضح ان الكردي عميل للمخابرات العسكرية.

بعد وقت قليل تلقى حسين اتصالاً هاتفياً من امرأة بدأت تغارله، زاعمة انها معجبة به. احتاج ذلك الأحقق البائس. قبل ذلك كان يسكن مع ابن عمه وكان هذا الأخير ملازماً أولاً في الجيش. كان رجلاً طيباً وصموئاً لم يورّظ نفسه البتة بأية مشكلة. قالت له المتصلة انها معجبة به وان شقيقتها معجبة بابن عمه. حدّدا موعداً للقاء قرب جامعة المستنصرية، وظهر في النهاية ان الموعد لم يكن غير فغّ نصبته لهما المخابرات العسكرية. وألقي القبض على حسين وابن عمه معاً.

لم يعرف أي واحد ممّا شيئاً عن كل ذلك. كل ما في الأمر أن حسين لم يعد يحضر لقاءاتنا المسائية الأسبوعية. عذّبوه شرّ تعذيب، معتقدين ربما انه عميل إيراني. وهو بالطبع جعل يفتديهم بالأسماء، وكلما أفاض بذلك غرق أكثر في الوحل. رأته مرة واحدة فقط، خلال منتصف فترة اعتقاله. كان نحيلاً كمذرة ومحدودباً كما لو أنه مشوّه البنية، يعرج نحو المرحاض مكبل اليدين والقدمين بالسلاسل. كان حسين قد استخدم للوشاية بأخي أبان استجوابه. أخبرني أخي أيضاً أنهم جرّوا ابن عمه التمس واجبروه على ضرب حسين على رأسه بالحذاء أمامه وأمام المحقق. هل بوسعكم أن تتصوروا التحقير والمذلة والتدمير الذي يلحق بالإنسان من جراء ذلك؟

اعترف حسين بكل ما يمكن أن يخطر ببال. ووطّني أنا وشقيقي ونيل وكثيرين آخرين. كان هو الواشي المستلقي على أرضية سيارة التويوتا اللاند كروز، والمغطى ببطانية. تلك الأسماء التي ووطّتها، ووطّتها بدورها أسماء جديدة وهكذا دواليك.

تصوّر كرة ضخمة من الخيوط كيف تنحلّ حين يبين طرفها السائب، وحسين كان ذاك الطرف السائب. وقد جرى في النهاية توريط ٤٥ شخصاً في تلك القضية وحدها، كنت أعرف ثمانية منهم. وحين وشيت بحسين، كان كل ما قلته في الواقع انه «مضاد للحزب» و«مضاد للثورة»، وكان ذلك ما أرادوا سماعه.

مضت أشهر قبل أن يعدموها هو وابن عمه، ويسلموا جثتيهما المحطمتين إلى عائلتيهما في صندوقين مختومين بالشمع الأحمر. إنه بالطبع مخالف للقانون في العراق أن يُفتح كفن يجري تسليمه في أحوال مشابهة، من أجل القيام بغسل الميت وتحضيره للدفن حسب تقاليد الإسلام وشريعته. ليس مسموحاً أيضاً أن تعلن العائلة الدفن، كما هي العادة في العراق، أو أن تمّد للجنازة بالطريقة التقليدية. ينبغي أن يكون كل شيء سرّياً. حتى التابوت ينبغي أن يؤخذ إلى مكان معيّن مخصص «للخونة». كذلك تكتب إضافة إلى ذلك، بجلافة وطلاء يسيل على الجنبات، كلمة «جبان».

والى السريّة هناك أيضاً الكذب. كانت تتردد في السجن نكتة تتعلق بجماعة من

السجناء كانوا يدعون «جماعة العفو». كانت الحكومة العراقية، كما يعرف الجميع، تصدر بشكل مستمر عفواً خاصاً عن الهاربين من الجندية أو عن أشخاص فروا إلى خارج البلاد. بعض الحمقى البائسين وقعوا بالفعل في الفخ وعادوا لتسليم أنفسهم. باستثناء مجموعة قليلة لا يزيد عددها عن عدد أصابع اليد، ممن كانوا يعرضون على التلفزيون، فإن من تبقى من أولئك «المعفي عنهم»، كانوا موجودين معنا في السجن بانتظار إعدامهم.

لماذا برأيكم عوقب نبيل بالسجن مدى الحياة؟ لأنه كان ضعيفاً وتكلّم أكثر من اللزوم. صدّقهم حين قالوا له إن الأمور ستكون أسهل بالنسبة إليه إن هو قدّم لهم أكبر قدر من المعلومات. فالأمور لا تجري على هذا المنوال في السجن العراقي، وحزب البعث يكره الضعف عند الأشخاص، ويسحقهم بشراسة أشد حين يظهر ذلك بجلاء.

أخي الأكبر أياد حكم عليه بالسجن خمس سنوات لأنه ورّط نفسه، والغلطة التي ارتكبها أياد أنه حاول إرضاء مستجوبة معترفاً بأنه كان يعلم ان حسيناً هارب من الجيش. أنا اعترفت ببساطة أن رجلين كنت أعرفهما يكرهان النظام. وعندما لم يستطيعوا الحصول على أية تفاصيل إضافية مني، افترضوا، بما أثبت ولائي، أنني لا أعرف أي شيء آخر. كان استجوابي بنتيجة ذلك أقصر مدة وأقل أذى، تماماً كما قال لي سعد انه سيكون. يا إلهي كم أنا مدين لذلك الرجل!

لقد سبق لشقيقي أياد أن كان بعثياً منشقاً. شقيقي الآخر كان يسارياً نشأ في الخمسينات. لم نكن كلنا متأثرين بقومية والدي. أولئك الذين كبروا في الستينات أصبحوا بعثيين. الناس ينسون، لكن أن يكون المرء بعثياً آنذاك بدا من أكثر الأمور اعتيادية، والشيعية كانوا يفعلون ذلك بالتساوي مع السنة. أنا أصغر سناً من شقيقي وحين بلغت سن الرشد في السبعينات كان الحكم لحزب البعث. بحسب وجهة نظري في رؤية الأمور، لا فرق كبيراً بين أن يكون المرء بعثياً أو شيوعياً أو قومياً عربياً، أو أن يكون، في أيامنا هذه، إسلامياً. يعتقد المرء انهم مختلفون؟ هراء! لكل ايديولوجياته الخاصة. إنني لا أكرهه حتى ما يمثله حزب البعث بالرغم من كل ما فعلوه بي. إنهم يريدون الوحدة العربية. حسناً. لا مشكلة. أنت حر في أن تفكر كما تشاء. لكن عليك ألا تؤذي شخصاً آخر وأنت تفعل ذلك. هذا كل ما أريده من الحياة هذه الأيام. غير أن الناس في العراق يؤمنون بالأشياء بشراسة حتى الموت... حتى موت الآخرين طبعاً. وهم يظنون على إيمانهم هذا بالرغم من حقيقة أن كل شيء يعتمد على العمر الذي كنت فيه حين تسيّبت.

المحقق، الذي بدا رجلاً متديناً، كان يُظهر كرهاً حقيقياً لأَياد. تسنى لي أن أعرف ذلك من معاملته له حين كنا نمثل سوياً أمامه: كان يقول باستمرار أشياء مثل «قسماً بصلواتي، بمقدساتي، إلا أخليكم تحكون» وبينما هو يتكلم بهدوء، يبدأ فجأة بالصراخ على نحو يكاد يخرجك من جلدك، ثم يبدأ بالضرب على الطاولة فيما هو يصرخ حتى لتخال انه يتعرض لنوبة عصبية. كان الحراس يأتون متدافعين ما أن يسمعه، وكان خوفهم منه يضاهي خوفنا. فذلك المحقق كان يفرض سلطة هائلة من خلال صوته الرهيب. يأمرهم بضرب أياد (وقد فعل ذلك بنفسه مرة أو مرتين)، فينهالون على أخي وينقضون عليه راكبين ضلوعه بأقدامهم ومشبعين وجهه ضرباً باللكمات. أولئك الحراس، من أجل محاكاة رئيسهم، كانوا يتحولون إلى حيوانات ضارية، إذ كلهم توق وحماسة إلى ارضائه. ثم يأمر فجأة: «توقفوا، أخرجوا»، فيتفرقون وينفضون كما لو أنهم مجرد حثالة. وفجأة يتحول إلى شخص آخر من جديد، ويصير مخلصك، فتبدأ تشعر نحوه بمودة حقيقية. كان رجلاً في غاية الغرابة.

أنت تكره فظاظته بالطبع، لأنك تدرك انه يتلاعب بك مستغلاً ضعفك. ولكن خلال الاستجواب تشعر انه قادر على أن يكون لطيفاً، واستدراج تلك اللطافة هو شأنك ومهمتك. لكن على الرغم من غرابة أطواره كان قديراً جداً و متمكناً من مهنته. كان عليه أن يستقصي موضوعه من خلال ٤٥ شخصاً، متقصياً المعلومات ومحققاً مراراً وتكراراً مع معتقلين مختلفين. وكان عليه في النهاية أن يقدم تقريراً متكاملًا يربط فيه العناصر المتفرقة ويجمع بينها. ثم كانوا سيحكمون عليه من خلال ذلك التقرير. فهل مقدوره أن يستنتج أن حسين حلبوص كان مجرد متسكع؟ وان كل الجهد الذي بذل في اعتقال ٤٥ شخصاً واستجوابهم كان تافهاً وغير ذي نفع؟ بالطبع لا. فالاستجواب في العراق لم يعد مجرد معلومات استخلصها زعران يستخدمون حُزم الأسلاك أو ينهالون على المستجوبين بقبضاتهم^(٨). إنه مسألة بسيكولوجية، ولعب مسرح. والجميع يلعب ويقوم بأداء أدوار.

نلت حصتي المناسبة من الصفعات والركلات واللكمات، ولكنها ليست بما يمكن أن أدعوه تعذيباً. كان التعذيب الحقيقي يبدأ قرابة منتصف الليل. لا استطيع أن أحدد الوقت تماماً. لكنني كنت اسمع الصراخ كل ليلة. أخبرني شقيقي عن غرفة خاصة، أكبر بقليل من الزنزانة العادية، كانت تتدلى من سطحها الحبال. لست أدعي أن أحداً علقني رأساً على عقب وجلدني بواسطة أدوات عجيبة أو ما شابه، لكنني في إحدى الليالي أفتت مذعوراً على خبط متابع على ما بدا لي أنه بوابة حديد. تلصصت من النافذة المطلة على الرواق فرأيت أربعة يسكون رجلاً مرتدياً بيجاما، ويطرقون رأسه على بوابة الزنزانة كما

لو انه كان كيشاً. كانوا احضروه للتو. لقد بات منذ تلك اللحظة في عداد المفقودين من العالم. فترة الـ ٤٢ يوماً التي قضيتها معتقلاً ليست شيئاً إن قورنت بما تعرض له ذلك الرجل.

لكن، برغم ذلك، ينبغي أن أقصّ عليك كل ذكرياتي، كل ما شاهدت خلال تلك الأيام. أريدك أن تعرف. كما أريدك أن تصدق حين أروي لك كل هذه القصص، لرغبتني في أن يعرف الجميع كيف كان ما في داخلي يحترق مثل فولاذ حار وملتهب. لا أتوقع حقيقة أن يفهم أحد ما أتحدث عنه. لقد رأيت كيف يتبدّل العراقيون الذين يعيشون فترة طويلة في الغرب. يصبحون رقيقين ويصيرون غير قادرين على رؤية البشاعات حتى على التلفزيون. رأيتهم يشيخون بأنظارهم عن مشاهد لعراقيين آخرين كانوا ضربوا ونجوا من نيران طوافات صدام خلال الإنتفاضة وكان يعرضون جروحهم الواسعة والمفتوحة على الشاشات. وفيما أشاحوا بوجوههم عن الصور مشمئزّين، كنت أنا استشيط غضباً في داخلي. كيف لهم أن يفهموا ما يعانيه العراقيون إن كانوا لا يستطيعون مشاهدة أشياء كهذه؟ ربما هناك شيء ما غير سويّ فيّ. لم أعد أعرف.

في السجن هناك طريقة واحدة للاتصال بالعالم الخارجي، ألا وهي: سماع الأذان. كنا نسمعها تؤدّى مرتين في اليوم الواحد: مرة باللهجة السنية وأخرى باللهجة الشيعية. وعلى جدار زنزانتني، كانت تتاب السجّاء الرغبة في الاتصال بالله أو بث الشكاوى. وقد تسأل، بواسطة ماذا؟ كانوا يستعملون أقلام الرصاص التي كانت توزّع عليهم ليكتبوا فيها اعترافاتهم. كانوا يكتبون أشياء مثل «يا إلهي» أو «يا علي، يا حسين نجّني!»، أو أشياء أخرى مثل: «سوف أعدم في اليوم كذا وكذا. أرجوكم أنتم يا من ستقرأون هذا أعلموا عائلتي».

بكيت كثيراً في الزنزانة. أحد الحزّاس كان ابن عاهرة ليماً يضمّر لأخي كرهاً شديداً. تذرّع في أحد الأيام بعدم قيام أخي بغسل وعائه بالطريقة المناسبة، فبسطوا ذراعيه ورجليه بمواجهة جدار وجلدوه بالأسلاك. كان في مقدوري سماع صراخه من غير أن استطيع رؤيته. ورحت أخبط الجدار برأسي، لكن رفاقي المساجين أوقفوني عن ذلك. غير أنني لم استطع التوقّف عن البكاء طوال ما تبقى من اليوم. إكتفيت بأن أقيت في إحدى الزوايا ورحت أجهش بالبكاء.

إحدى نوبات بكائي سببها حارسان كانا يتعلّمان الإنكليزية معاً. سأل احدهما رفيقه، وكان ينظر في كتاب، عن معنى كلمة «سكول» (مدرسة). أجابه صديقه: «لا أعرف». كانت قد انقضت عليّ ساعات وأنا معصوب العينين، غير أنني استطعت

سماعهما يتحدثان في المكان. فجأة قال أحدهما: «دعنا نسأل هذا الوغد. انه يبدو متعلماً». أجبتهما بما اعتقدت انها تعني. صرخ بي الحارس «أنت، قل أنت حقاً مهندس؟» أجبته بنعم. قال: «طاح حظك، يا أبله». أجبته: «نعم يا سيدي، أنا أبله».

تلك الكلمات أثرت بي أكثر من كل الضرب والصفعات التي كنت قد أصبحت معتاداً عليها. وفجأت عَزَّت عليّ نفسي. عندما تكون داخل مكان كهذا، تنسى العالم الخارجي. ذلك الحارس ذكرني بأنني كنت مهندساً، واني كنت متعلماً. ولماذا؟ لمجرد أنني فشرت كلمة إنكليزية. وعلى الرغم من ذلك ها أنذا في هذا المكان جاثم معصوب العينين أواجه الجدار، أنتظر فقط الصفحة التالية. كان حظي ينقد مَتِي. شعرت بشفقة عاتية على نفسي وجعلت أبكي. لقد سبق لي أن بكيت من قبل ولكن ليس بتلك الطريقة. لا تعتقدوا أنني ضعيف فالكثيرون من السجناء كانوا يكون باستمرار. أحد زملائي في السجن كان يبدأ في البكاء من غير سبب واضح ثم ينتفض لاطماً رأسه يديه من دون توقف. ولأن كل أولئك الحراس كانوا في ذعر دائم من قيام أحد ما بالانتحار، ما كنت لتصدّق الجلبة والاهتياج الذي كان يحدث حين كان يفقد أحدهم شفرة حلاقة.

إلى جانب الشفقة على النفس هناك الكراهية. أثناء احتجازي كنت أشعر أن الجميع ينسني بمن في ذلك أُمِّي. بكيت حين أخبرتها ذلك بعد خروجي. لكن بدل أن أحقد على صدام، بدأت أحقد على كل الناس الذين كانوا يستمتعون بحياتهم فيما أنا أتعفن هناك. كنت أشعر كما لو أنهم مسؤولون عن وِطْطِي وكان يحق لي أن أحقد عليهم. لست أعرف لماذا أَلْقِيت اللوم على المجتمع برمته، إلا أن هذا ما فعلته. هذه هي الحقيقة.

ورجال الاستخبارات يعون هذه الأنانية لدى كل البشر. تلك النزعة إلى كره آخرين أبرياء مثلك، وهم يعملون على تقويتها بالامعان في إذلالك. فالحرس كانوا يدورون في الأروقة أو يجلسون في الرداهات واضعين أقنعة على وجوههم وقفازات في أيديهم. مرض الحرب، إضافة إلى عديد من الأمراض الأخرى، كان مستشرياً، وانه لمنظر مؤثر ان تشاهد رجلاً نصف عار جاثماً على وركيه أمام حارس بكامل ثيابه يقوم بجلبده بسلك حديدي. بين الحين والآخر كان يسقط أحدهم ضحية مرض من الأمراض. كان هذا سبب ارتدائهم الأقنعة والقفازات لا حرصهم على أن يكون عملهم نموذجياً. حراسنا كانوا على الدوام رجالاً نحيلين، بوجوه صفراء مَرَضِيَّة تنضح أذية. لقد عاشوا وعملوا في ذاك المكان لفترة طويلة جداً اتنت حياتهم.

أصبت بالحرب وبدأت أحك جلدي حتى نرف. غير أنني، وأنا في السجن، لم أعرف

ان اسمه جرب. القمل كان منتشرًا جدًا. وكان الحراس يكرهون أن يلمسهم السجناء بأي شكل من الأشكال، لكن أحدهم طلب مرّة من زميل لي في الزنزانة أن يحلق له الشعر الذي تحت ابطيه وحول عضوه التناسلي. وهل تدركون كم هذا مذلّ؟ تشعر أنك حقير وتكره نفسك في النهاية، لكن هذا بالطبع ما يريدون.

عندما أرادوا حلق شعر رأسي، جعلوني أخرج من الزنزانة دأبًا «على الأربع» مثل كلب. أمرت بأن أحشر رأسي بين ساقَي ذاك الحارس الجالس على كرسيّ، حاملاً آلة حلالة كهربائية. وطوال ذاك الوقت خطر لي انهم يحضرونني للإعدام. حين رأني أخي أقرع لا أصلع كلياً، جعل يكي طوال أيام، وكونه فقد الأمل هو نفسه بخروجه، راح يأمل أن أستطيع أنا ذلك. لكن بعدما انتشر الجرب بشكل كبير، أحلّوا إجراءات جديدة للإغتسال وللحلالة. صار الحراس يحلقون ذقوننا بشفرات قديمة، فأصبحت وجوه الجميع متقاطعة بالجروح.

كان يجري غالباً رمي طعامنا إلى داخل الزنزانة بواسطة مساجين معتهين يرافقون الحراس. كان هناك الكثير من الأشخاص المعتوهين والمجانين داخل السجن. حين تسمع صوت انفتاح القفل، تستعد وتنقّص على الطعام الموضوع خارج الباب بالطريقة نفسها التي تهرع بها إلى المرحاض، دأبًا على قدميك ويديك. عليك أن تسحب الطعام إلى داخل الزنزانة بأسرع ما يمكن قبل أن تتلقّى ركلة. وفيما أنت تأكل لا يتوقف الحراس عن التلصص عليك. فإن امتنعت عن الأكل أجبروك على ذلك.

يمشني السجناء المعتوهون أمام الحراس موزّعين الخبز ودلو حساء العدس أو أي نوع آخر من البخنة، فيما يتبختر وراءهم الحراس ملوّحين بأسلاك الجُلْد. في الصباح كانوا يرمون لكل منّا بيضة مسلوقة وقطعة من الخبز عبر النافذة ذات القضبان الحديدية الرفيعة، وكان الجميع يندفعون بسرعة في الأرجاء كي يلتقطوها قبل أن تصطدم بالأرض.

لم يكن كل الحراس مثل ذاك الذي جلد أخي. أحدهم، وكان مسؤولاً عن دورة المرحاض، أسسك بي مرّة وأنا أحاول التلصص إلى زنزانة أخي. سألتني «من ذا الذي تبحث عنه في الزنزانة؟». خفت أن أجيب كي لا يساء تفسير ذلك. في الواقع لم يكن أي من الحراس يعرف أن أياد أخي. لكن ذلك الرجل تحدّث بلطافة، «يا عمر أنت ولد طيّب، إنني أريد مساعدتك»، أخبرتة: «إنني أبحث عن شقيقي». تلك الليلة بالذات أيقظني فأتّاح الباب بحذر. كان بادي القلق من جراء المخاطر التي يقوم بها، وهو يقودني إلى زنزانة أياد المجاورة. كنت منفعلًا بيهجتي إلى أقصى الحدود، فلم أستطع أن أتصوّر

أن يبادرنى أحد بصنيع مثل هذا. ولو سمح لي بتقبيل حذائه للتعبير عن إمتناني، لكنك فعلت ذلك بسرور.

منذ أن وقعت عيناى على ذلك الرجل شعرت أنه مختلف. كانت ثمة نظرة بعيدة في عينيه. ابتعد قليلاً إلى الوراء مفسحاً لي أن أختلي بشقيقي. تمسكت بيد أياذ عبر النافذة الحديدية الصغيرة لبوابة الزنزانة ورحت أقبلها كلها. كلانا فعل ذلك. لم يتكلم أي منا. في النهاية كان علي أن أقول للحارس «أرجعني يا سيدي ما عدت أستطيع تحمل هذا». سره انى استطعت رؤية شقيقي، وفجأة أفشى إليّ بعفوية: «هذه الوظيفة حقيرة. لا يقوم بها سوى الكلاب، أنا كلب». وخفت أن يسمعه أحد ما فيلقي باللوم عليّ.

وشيت أيضاً برجل آخر. سبق أن قلت ذلك من قبل - رجل من صنف مختلف تماماً عن حسين حلبوص. هل كنت أحاول أن أتهرب من إخبارك بذلك؟ ربما.

كنا مجموعة نتلاقى معاً ونتسلّى. نشرب كثيراً ونعزف على العود ونبتكر أغنيات ونحدث. أنا وحسين حلبوص ونبيل وشقيقي وعدد كبير من الأشخاص الآخرين، كنا نؤلف تلك المجموعة. كان للخمر الدور الأكبر في إطلاق سجيّة الألسنة إبان تلك الحفلات. العراقيون اعتادوا على الشراب بإسراف، وعلى الأخص الجنود منهم الذين كانوا يقضون معظم أوقات مأذونياتهم، إبان الحرب العراقية الإيرانية، وهم يعاقرونه. كان لدى العديد من الجنود مشاكل عائلية وجنسية. العجز الجنسي، أو عدم القدرة الكاملة على القيام بالفعل الجنسي، كان شائعاً. كنا نتحدث عن أمور كهذه أثناء حفلاتنا، عن تلك القصص التي هي إما حزينة جداً وإما مضحكة جداً. وإقبال الرجال على الشراب كان سبباً للهرب من مشاكلهم. كنا نشرب كثيراً خلال لقاءاتنا الليلية - أما حافزنا الأساسي فتمضية وقت جميل ونسيان الحياة اليومية.

والسياسة حتماً كانت معنا. فلا مناص من ذلك. ماذا أعني بالسياسة؟ تبادل الأخبار والشائعات. كانت الفضائح موضوعنا المفضّل. «هل سمعت آخر خير؟ كان من المفترض أن يتوجه صدام إلى مكان ما، لكنه أرسل شبيهه، فأفسد ذلك الأحقق الأمر... ها ها! أليس ذلك مضحكاً؟»، كنا نتبادل كلاماً من هذا النوع. بين الفينة والفينة كنّا نتداول بجدّة في ما ينبغي أو لا ينبغي أن يحدث، وكم ستكون الحياة رائعة لو لم تكن هناك ديكتاتورية. ينبغي إفساح المجال لأن يتبوأ الرجل الأفضل المراكز الأفضل، هذا كان شعورنا. كان الجيش معين النكات التي لا تنضب. فلدى جميع العراقيين الرغبة في زوال تلك المؤسسة، وقد تخطّى الأمر الكراهية، إذ كلمة «جيش» باتت لا تطاق عند أولئك الشبان الذين خبروا تجربة الشمانينات. ما هي المنفعة التي أتى الجيش بها للبلاد؟ حتى ثورة

١٩٤١ تلك، التي اشترك فيها والدي والتي يفخر بها كثيراً الجيش العراقي، كانت مدعومة من ألمانيا النازية.

كان صديق أخي، وهو رجل في بداية اربعيناته يدعى علي الناصري، هو روح تلك اللقاءات وحياتها. كان يضم إلى الحلقة أناساً جدداً على الدوام ولا يتوقف عن حث المتخلفين على التنفيس عن احباطاتهم. بعدما فشلوا في لقاء القبض عليه دون البقية، ارتبت للأمر. ظننت أنه هو من وشى بنا للسلطات. ألقوا القبض عليه بعدنا ببضعة أيام، وبعدما اعتقلوا علياً خفت الحدة في استجوابي بطريقة دراماتيكية. يجب أن تنتبه إلى أن أياً منا لم يكن يعلم ما حدث لحسين حليوص في تلك الفترة، كما لم يعلم أحد بأنه وشى بنا جميعنا.

لا أحد يعرف الكثير عن علي. إنه شيوعي سابق يكتنفه الغموض ولديه تاريخ سياسي طويل. تعرفت به عن طريق أخي. كان علي قد أصيب بجرح في الجبهة في عزّ صعود الإسلاميين مطالع الثمانينات. الرصاصة اتلفت جزءاً من عظم جمجمته وكاد يموت. حين التقيته دعاني إلى أن أتحمس الفجوة التي يغطيها الجلد. كان يقود سيارته الرسمية من نوع تويوتا بيضاء لاند كروزر، متوجهاً إلى منزله في مدينة الثورة. القصة الرسمية تقول إن ميليشياويين من حزب الدعوة الإسلامي افترضوا أنه عميل للمخابرات لمجرد قيادته ذلك النوع من السيارات، فحاولوا اغتياله. سألته مرة: «هل صحيح أن حزب الدعوة هو من أطلق النار عليك؟»، فضحك كأنما ليوحي أن القصة أكثر تعقيداً من ذلك، لكنه لم يقل شيئاً. في العراق لا يصّر الناس عموماً على استيضاح أمر ما حساس. وهذا ما بقي للقصة إضافة غير معلنة. أما الاشاعة فتقول إن صدام اتصل شخصياً بـ علي في المستشفى ودفع من ثم تكاليف ارساله إلى ألمانيا للمعالجة. فعلي كان موظفاً رسمياً في سفارة بالخارج قبل حادثة اطلاق النار، ثم عمل بعدئذ في وكالة أسسها للتصدير والاستيراد، وهذا العمل يعتبر امتيازاً في العراق. فهم لا يعطون أياً كان رخصة للقيام بذلك. وكان شريكه في الأعمال ضابطاً رفيع الشأن في المخابرات.

توقف علي عن أي نشاط سياسي، أو هذا ما أعرفه أنا على الأقل. لكنه، مثل أي متعلّم عراقي، كان يتحدث وينتقد الحكومة. كان رجلاً رفيع الثقافة، ومغنياً رائعاً، وموهوباً جداً في إحياء الجلسات.

أُمّي وزوجة أخي بقيتا مسرّتين أمام باب بيتنا طوال الأيام الثلاثة التي أعقبت اعتقالنا، وحين مرّ علي بمنزلنا أخبرته أُمّي بما جرى. وهي تذكر أنه ضحك وقال لها: «سيأتون إليّ إذن، من الأفضل أن أستعد لذلك». وكان مرةً روى لي كيف أن الشرطة،

أيام دراسته، كانت في انتظاره بينما هو يجري في الداخل امتحاناته لشهادة البكالوريا، وبعدما انتهى توجه إليهم بهدوء، فنزعوا القلم من يده وزجّوه في السجن.

بعدما سمع باعتقالنا توجه علي إلى النجف وكربلاء للصلاة، ثم عاد إلى منزله في بغداد، لعلمه أن لا أمل في الفرار. هناك سبعة حواجز تفتيش في مسافة السبعين كيلومتراً بين بغداد ومدينة الفلوجة. وإن اختبأت في منزل شخص ما، فسوف يؤذون كل من في المنزل بقدر اذيتهم لك. لم يكن علي ليعرض أياً من أصدقائه لورطة كهذه. والعراق بأكمله عبارة عن سجن. لهذا عاد إلى منزله، فحلق ذقنه ارتدى دشدشة لطيفة وبدأ يشرب. إنه رجل مميز، بأعصاب من حديد. وعلى هذه الحال وجدوه حين قدموا.

أحضروا علياً إلى داخل غرفة تحقيق صغيرة، معصوب العينين بالطبع. كان المحقق جالساً وراء الطاولة. أمروه بالاقعاء على الأرض بدشدشته النظيفة. كنا أنا وأياد واقفين في الزاوية، صامتين تماماً بعدما أمرنا بذلك.

«أنت لا تزال شيوعياً»، أليس كذلك؟

أجاب علي بالنفي. كان الرجلان شيوعيين إذ تكلمنا معاً باللكنة الجنوبية، وتولّد لديّ انطباع بأن علياً يعامل معاملة خاصة. كما لو أن المحقق حدس بأنه مفتاح القضية برمتها.

«أريد أن أعرف كل شيء بشأن بنية منظمتكم، من هو رأسها؟»

علي أبقى ظهره مستقيماً، ورأسه مرفوعاً كما لو أنه يستطيع الرؤية عبر العصابة، وكان يتحدث بعادية. لم تبد عليه أدنى علامات الخوف. بينما كنت أنا أرتمد كلياً ومن غير سيطرة على ذلك.

فجأة قال علي: «أريد سيجارة» والسيجارة أمر مهم جداً في السجن، فحين يعطونك واحدة يكون نهارك عظيماً. وضع له المحقق واحدة في فمه وأشعلها.

قال المحقق بصوت يقطر تهكماً: «الآن اعطيناك سيجارة، هل ترغب بشيء آخر؟»

«بعض الماء».

كانت تلك أول مرة أرى فيها محققاً يجهد للسيطرة على إنفعاله. كان علي قد أثار أعصابه، لكنه أمر الحارس باحضار بعض الماء.

«كنت توجه الانتقادات للحكومة».

«ليس لدينا أية علاقة بالسياسة. أنا رجل يحب اللهو وإضاعة الوقت».

قالها بطريقة مضحكة وشجاعة جعلتني، حتى وأنا في حالتي المثيرة للشفقة تلك، أشعر بضحكة تكاد تصعد من داخلي. كان الرجل بارداً كخيار، كما لو أنه يفعل هذا النوع من الأمور كل يوم. لكن المحقق فقد إذ ذاك أعصابه كلياً، وقفز من على كرسيه وطرح علياً أرضاً بركلة على صدره.

نال علي من الشتيمة والصفعات والدفاع والتعنيف نصيباً غير قليل، لكنهم، على العموم، عاملوه معاملة حسنة ولم يستطيعوا أن يستخلصوا منه أي شيء مما يجهلونه عنه. وفي النهاية وجه الأمر لـ علي بنزع عصيته والتطلع إلى ناحيتنا: «هذان هما الشخصان اللذان وشيا بك».

استوعب المسألة بهدوء تام، وأكد أننا كنا صديقين له، ونفى كل شيء مجدداً. لكنني استطعت رؤية الغضب في عينيه. «فعلي لم يش بي البتة، وبحسب ما أعلم، لم يش بأحد أبداً. واكتشفت لاحقاً أنه امتدحني أمام المحقق وأنكر وجودي في الجلسات التي كان يدور فيها الكلام المعادي للحكومة. حاولت، لكن دون أن أفلح، أن أقوم بزيارته في السجن وقد حكم عليه بأن يقضي فيه، مثل أخي أياد، خمس سنوات كاملة. لكن ضابط المخابرات الذي كان شريكه في الأعمال تمكن من اخراجه بعد أقل من سنة.

علي يظل بالنسبة لي شخصاً غامضاً. إنني احترمه إلى حد كبير لا أعرف ما هو. في اليوم الثاني والأربعين من اعتقالني، أدخل الحراس خمسة منا إلى غرفة ونزعوا عصاباتنا. قال أحدهم «سوف تخرجون». وعلى الفور بدأنا خمستنا نبكي كما لو أننا في مأتم. وجعلنا نقبل ونهنيء بعضنا البعض.

ثم توجه بنا حارس إلى غرفة تكومت في وسطها كدسة كبيرة من الثياب مثل تلة. انتزعت من الكدسة بنظلاً ممزقاً، وقميصاً خالياً من الأزرار ونعلاً ممزقاً. ربما كان صاحبها قد أعدم للتو، لا أحد يعلم. الخاتم والقلادة اللذان كنت ارتديهما يوم اعتقالني أعيدهما إليّ رسمياً.

ثم القيت علينا محاضرة سمعناها واقفين نحن الخمسة. كان الرسميون كلهم مبتهمين، فيما أنا أمسك بنظالي الواسع بيد وباليد الأخرى القميص الخالي من الأزرار. أمرنا رجل بدا رفيع الشأن بأن نقول لكل من سيسألنا أننا كنا في عطلة، وأضاف: «إن سئلمكم أن كنتم قد رأيتم جمالاً أو محمداً أو عدنان، أجيبوا بالنفي. أحد الخمسة، وكنت لا أعرفه، سأل بأقصى ما يمكن أن تتصور من مذلة: «سيدي أنا موظف في الحكومة، هل أحتاج إلى ورقة أقدمها لإدارتي؟». كان يمكنك أن تحذر من الابتسامات أن طرح أسئلة من

هذا النوع لا يشكل خطراً. لقد تبدلت الأمور. قيل له إنه جرى الاهتمام بكل شيء ولا حاجة به لأية أوراق. والآن يتوجب على الجميع أن يتوجهوا إلى أعمالهم ويستأنفوها كما لو أن شيئاً لم يكن.

ثم جاء الحراس لمصافحتنا الواحد تلو الآخر. أحدهم قال: «أمل أننا لم نزعجكم أو نؤذكم؟» أذكر بشكل خاص رئيس الحراس. كان يرتدي بذلة لطيفة حمراء اللون، وأخذ على محمل الجد مسألة المصافحة إذ جعل يعانق كلاً منا كما لو أننا أصدقاء له نهياً للذهاب في رحلة. استجمعت الشجاعة لأسأل أحد الحراس إن كان بوسعي رؤية أخي. وافق، لكن بشرط أن لا أنبس بحرف.

ثارت عاطفتي حين رأيت أياد. سمح لي الحارس بالدخول إلى الزنزانة، وجعل أياد يقبل يدي. همست له أنهم أطلقوا سراحني. وبدأ كلانا يكي. ثم هتف للحارس: «سيدي، سيدي، ماذا فعلت أنا لأبقى هنا؟». كان يتوسل كرجل محطم. والكلام يعجز عن وصف شعور الذنب الذي انتابني عندها. كنت أغادر تاركاً إياه. وقد بدا نحيلاً إلى درجة غير معقولة ومتأدياً فعلاً. شعرت كما لو أن أخي على شفير الإنهيار العصبي.

ثم عصبوا أعيننا مرة جديدة. وضعونا في سيارة لاند كروزر وأمرونا أن نبقى رؤوسنا منخفضة بين أرجلنا، إذ كان من غير المفترض أن نشاهد إلى أين نحن متوجهون. لم تكن السيارة قد تقدمت أكثر من نصف كيلومتر حين سمعنا فجأة الأمر الأخير: «افتحوا عيونكم». حتى مماتي لن أنسى تلك اللحظة. مرة واحدة، كمثّل رجل واحد قلنا خمستنا «شمس! الشمس!». الحارس الذي كان جالساً في الأمام قال «وماذا هنالك، لا تعظموا الأمر». كانت الشمس في غاية السطوع. لم أكن قد رأيته من ٤٢ يوماً.

أنزلونا قرب مستشفى الكاظمية، إزاء أقرب موقف للتاكسي. رئيس الحراس الذي كان قبل كل واحد منا في السجن سألنا: «هل تحتاجون إلى المال؟»، أجبت «لا يا سيدي». كان يعرف بالطبع أن أيّاً منا لم يكن يملك فلساً، ولم يأخذ أي من الخمسة درهماً واحداً منه.

التاكسيات التي أوقفناها كانت تكمل سيرها لحظة تقع عيون سائقها علينا. وفي النهاية توقفت لنا سيارة خاصة. ركب ثلاثة منا. كان قلبي يحترق شوقاً، فكل ما أردته الوصول إلى البيت. في الطريق رأيت فتاة أعرفها من أيام الدراسة. لم تعرّف إلي. عدوت إلى باب المنزل. كنت اشتقت على وجه أخص إلى رؤية والدتي التي لم تكن هناك. اندفع إلي ابن أخي، وجعلنا نكي ونتعانق وتبادل القبل. دخلت الرواق وهناك

كان والدي في كرسية. جعل يقبل يدي وأنا أرتمي بين ذراعيه، كان قد فقد الكثير من وزنه. لقد مات بعد خمسة أشهر.

قيل لي إن والدتي ستعود في العشيّة. تناولت الهاتف الذي شعرت كما لو أنه شيء من العالم الآخر. كنت كأني أستخدمه للمرة الأولى. اتصلت بصديقي الأثير فأجابت شقيقته. سقطت سماعة الهاتف من يدها ورحت أسمع صرخات البهجة داخل منزلهم. ثم اندفعوا قادمين بملابس النوم وبأقدام عارية، على الرغم من أن منزلهم كان يبعد سبعة بيوت عن منزلنا. ظلنا أني متّ. راحوا يكون جميعهم فيما هم يوزعون الحلوى.

اتصلت بالهاتف طالباً بعض الكحول، وحين أتوني بها شربت الويسكي وأكلت بعضاً من السلطة.

نظرت إلى نفسي في المرآة. كنت أقرع الرأس مزرق البشرة وخشن الشارين. كنت مزرقاً لا أصفر شاحباً، وحول عيني دائرتان سوداوان. كنت نحيلاً كهود متيسّس. صدمت لرؤية منظري. استحممت وارتديت ثياباً لائقة، وشعرت إذ ذاك أنني ملك.

وصلت أُمّي مع إحدى شقيقتي، وخرجتُ إلى الباحة الخارجية كي يتسنى لي رؤيتها. لم ترني في البداية «أمّاه هذا عمراً». لم تستطع تصديق ذلك وسقطت غائبة عن وعيها على أرض المرآب. ظننت أنها ماتت. اندفعت إليها ورحت أقبل كل وجهها. ثم نهضت إليّ من على الأرض معانقة إياي وهي تبكي وترتجف. لم يكن بوسعها أن تنظر إليّ دون أن ترتجف. خرجت أختي من السيارة. عرفتها وناديتها لكن الوقت كان ليلاً. بدت محتارة، إذ كنتُ قد تغيّرت: أصلع ونحيلاً كالعود. ثم حين أدركت من أنا، انهارت هي الأخرى. اندفعت إليها فيما هي تصرخ بملء صوتها: «عمر، عمر، أهدأ أنت؟ أهدأ حقيقة أنت؟». كذلك حصل مع زوجة أخي. كنت أركض في الاتجاهات يئنه مثل مجنون.

ما كان الداعي لاعتقالنا؟ ماذا اقترنا نحن الخمسة والأربعين، ليعتبرنا رجال المخابرات خطرين إلى ذلك الحد؟ كنت اخبرتك عن ورطة حسين حلبوص التي بها بدأت المسألة كلها، وعن لغز علي الناصري، الروح الموجهة لكامل مجموعتنا. أعدموا حسين حلبوص وثلاثة آخرين. أحد الثلاثة الذين أعدموا كان صديقي جعفر الذي اعتقل معي في تلك الليلة وفي سيارة اللاند كروز ذاتها. كان لاعباً في منتخب فريق كرة القدم العراقي.

لفترة أقمنا معاً في زنزانة واحدة، في الزنزانة نفسها. كان متزوجاً من امرأتين وكان هائماً حباً بهما معاً. كان رب عائلة حقيقياً. إذ ذاك كان يكي كل ليلة متذكراً إبنته البالغة من العمر أربع سنوات، وهو شديد التعلق بها. كان واثقاً من خروجه، لأنه لم يفعل شيئاً. كانت في ذهنه أمور كثيرة يسلي بها نفسه ويسخر مما حوله، ولم تكن الحكومة وصادم حسين إلا في آخر اهتماماته. لكنه أعدم. لماذا، لست أعرف. المسألة اعتباطية برمتها. لم يكن هناك أي تطابق أو أي منطق لأي شيء.

في أي حال كان جعفر، مثل علي الناصري، مقيماً في مدينة الثورة. لكن هذه ليست أبداً إشارة بحسنة. فللضواحي تاريخ طويل من النضال السياسي وهي تعج بالناس. قد يكون هذا ما أوقع به في النهاية. من يعرف؟

ثلاثة أشخاص، أنا من ضمنهم، لم يدانوا بحكم وأطلق سراحهم. غير أنه لحكم على الباقين بعقوبات تتراوح بين التسعة أشهر ومدى الحياة. إذن، ماذا كان في تلك المسألة كلها؟

بدا واضحاً إبان استجوابي، ان الاستخبارات العراقية، رأت بطريقة ما، ان حفلاتنا تلك الصاخبة بالشرب والغناء والثرثرة والنكات كانت في الواقع اجتماعات لحزب سري جديد معاد للحكومة. لذلك كان أول سؤال طرحه علي المحقق، وعلى علي في ما بعد، «كيف كنتم أنتم الشباب تنظمون اجتماعاتكم؟». كان يتحدث عن اجتماعات سرية لمنظمة سرية لم تكن موجودة البتة. اعتبرت القضية متعلقة بأمن الدولة، وعلى أعلى المستويات، ولهذا جرى إيكالها إلى الشعبة السادسة عشرة في الاستخبارات العسكرية. إلا أنهم، بنهاية التحقيقات، استنتجوا ان الأمر لا علاقة له بالأحزاب، ولهذا لم يعدموا إلا أربعة فقط واطلقوا سراح خمسة.

في العراق يمكن للكلمات أن تقتل. الكلمات هي التي أودت بنا في النهاية، لا الأفعال. أعرف امرأة كانت تسعى إلى الطلاق، وكان زوجها أحمق حقيقياً رفض أن يمنحها إياه. ما كان منها إلا أن سجلت صوته بالسر وهو يلعن صدام، فأعدم. ورثت كل أملاكه وهي تعيش حالياً في جوار منزلي في الأعظمية. تلك هي قوة الكلمات. لنفترض، من جهة أخرى، أنني شربت كثيراً من الخمرة وعوض أن أردد نكتة عن الحرب العراقية - الإيرانية صدمت عابر سبيل وقتلته إبان عودتي إلى المنزل. هذه لن تكون مسألة مهمة. لا تسيئوا فهمي. إن السواقين الثملين يقتلون في العراق مثلاً يقتلون في أي مكان آخر في العالم، ولكن بعد إجراء الاتصالات اللازمة، يُطلق سراحهم بكفالة ويحاكمون لاحقاً محاكمة قضائية عادية يحضرها محام يختارونه هم. ومع محام

حاذق، وقليل من الحظ وبعض العلاقات، يستطيع المرء النفاذ نظيفاً من المسألة برمتها، مثلما يحدث في أي مكان من العالم. لكن الكلام أمر مختلف كلياً. الكلام في العراق قادر على اسقاطك في مهال لا يرميك فيها أي شيء آخر.

لست أعرف بالتمام ماذا قال حسين حليوص أننا قلنا حين بدأوا يعدّونه. لكنني أعرف انه، لا بد، روى كل أنواع الأشياء والأمور التي كانت تقال في حفلاتنا. إلا أنني واثق أن أكثر ما أثار غيظهم كان نكتة أخبرها أحدهم إبان إحدى حفلات المرح واللهم التي كان يقيمها علي. حسين روى لهم النكتة، على الرغم من أنهم كانوا لا يملكون أي تسجيل أو أي دليل آخر على أنها كانت رويت: سطر من أغنية بالكاد أستطيع أنا تذكّره. قبيل وقت قصير من إطلاق سراحه وبحضور ضابط مسؤول شديد الأناقة لم أكن رأيته من قبل، استطعت رؤية السطر مكتوباً بدقة داخل ملفي وقد سطرّ تحته ووضع بين قوسين. لست أذكر من ألف الأغنية، ولكنها كانت تتحدث عن مدينة الفاو التي احتلها الإيرانيون وتمسكوا بها متكبدين خسائر كبيرة بالأرواح. كانت القذائف تمطر على الفاو، لكن على الرغم من ذلك لم يتزحزح الإيرانيون حتى أُلقيت عليهم قنابل الغاز، وكان ذلك نهاية الأمر. كانوا فخورين جداً باحتلال الفاو إلى درجة أنهم علّقوا شارة عند مدخل المدينة المدثرة خطوطاً عليها: «لقد استشهد على هذه الأرض ٥٣,٠٠٠ عراقي»، وحين أُلقي القبض علينا كانت الفاو قضية كبيرة في العراق.

في المعنى الضمني للسطر المأخوذ من الأغنية أن الفاو لن تعود للعراق. لم يكن ثمة ما يثير اهتمامي مستطقي أكثر من ذلك السطر. كان يستثيط غضباً مرة تلو الأخرى. ولم أكن أتوقف عن القول له أنني أؤمن حقيقة أن الفاو ستعود إلى العراق، وينبغي أن تعود إلى العراق، وانها جزء مكمل للبلاد إلخ... في مطلق الأحوال كان كل هذا مسألة جانبية لأن الفاو استعيدت في نهاية الأمر. لست أذكر الآن كامل الأغنية، كنا ثملين جداً عندما ألّفناها. لكن السطر الذي كان مكتوباً ومسطراً تحته في ملفي كان صحيحاً: «راحت الفاو. من طيزي ترجع».

٤ - مصطفى

بناء نصب تذكاري

عبدالله عبد القادر العسكري ووالده العجوز يعيشان في السليمانية مع ابن عم عبدالله، مصطفى العسكري. التقيتهما في منزل مصطفى خلال رحلة إلى كردستان في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩١. ومثل قصة عمر التي كانت محاطة بالكتمان، لم يكن في الوسع القيام بتلك الرحلة لولا إنتفاضة آذار/مارس ١٩٩١ التي أعقبت الدمار الذي خلفته حرب الخليج، تلك الإنتفاضة التي شرعت أسرار العراق لتفحص لم يكن ممكناً طوال ثلاث وعشرين سنة. وبدورها فالزيارة كانت الأولى لي لمسقط رأسي بعد عدد مماثل من السنوات. يعيش عبدالله حالياً في السليمانية بسبب الهجوم الكيميائي على قريته غبطاية، والذي كان قد شهدته^(١).

* * *

«مساء يوم ٣ أيار/مايو ١٩٨٨ كان الوضع في قريتي غبطاية غير طبيعي. سمعنا أن النظام يعدّ لهجوم بالأسلحة الكيميائية، لكننا لم نكن نعرف متى ستكون الضربة. شرعت بما يمكن أن يكون مناورات عسكرية غير اعتيادية. في وقت متأخر ما بعد الظهر قمت بمعية صهري وإثنين من الأصدقاء وهما معلّمان مثلي - بالانتقال من مزرعتنا التي تقع في أرض منخفضة، إلى أعلى نقطة في القرية. كنا نريد أن نعرف ماذا يجري.

حلّقت طائرتا استكشاف فوق المنطقة، ثم قامتا برمي قنابل ضوئية لتحديد اتجاه الرياح. بعد ذلك جاءت مجموعة أخرى من الطائرات، قدّرنا أن عددها ثماني عشرة. كانت هذه مقسّمة ثلاث مجموعات توجهت إحداها نحو قريتنا

غبطابة، والثانية نحو قرية عسكر المجاورة، أما القسم الثالث منها فتوجه نحو منطقة كان يقيم فيها البشمرغا. حصّة غبطابة كانت ثماني طائرات، حلقت فوق القرية مرتين ثم عادت في المرة الثالثة لترمي قنابلها.

لم تكن أصوات الانفجارات مرتفعة جداً، وهذا ما جعلني أحزر أن القنابل كيميائية. حين رفعنا رؤوسنا، أبصرنا غيوماً رملية بيّنة ورمادية تتصاعد كتلاً إلى الأعلى. وما أعرفه كصيدلي أدركت أن ذلك كان هجوماً كيميائياً.

تابعنا الصعود إلى أعلى نقطة ممكنة على الرغم من أن الريح كانت تحمل الغازات بعيداً إلى الجهة المقابلة. من هناك صرخت إلى الأسفل محذراً سكان القرية: «هذا هجوم كيميائي، حاولوا أن تهربوا! اصعدوا إلى التلة، تعالوا إلى هنا». كثيرون من الناس وصلوا بالفعل إلى حيث كنا ونجوا. لكن كثيرين أيضاً ظلوا في المناطق التي أصابتها الكيمياءات.

تبادلنا الآراء حول ما ينبغي فعله. فكّرت أنه كان ينبغي أن ننتظر عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة ثم نزل إلى هناك. إن نزلنا على الفور، قد نتعرض نحن أيضاً للخطر ولن نستطيع مساعدة الآخرين. لكن أصدقائي أبوا الاصغاء إليّ. وهكذا نزلنا إلى قفا القرية حيث لم تكن اخترقته الغازات، وهناك اجتمع حشد من الناس. كان بعضهم قلقاً جداً، وقد صرخ في وجهي أحدهم: «لقد فقدت الجميع لقد قتلوا كلّهم، كانوا يقصفون منزلكم». أقلقني كلامه وأخافني، أردت العودة إلى المنزل لكننا لم نكن قد انتظرنا الوقت اللازم. لم تمض إلا ثلاث دقائق فقط من الوقت الذي حددته في رأسي كحدّ أدنى. وعلى الرغم من ذلك انطلقنا على الفور في الاتجاه المؤدي إلى منزلي: صهري وديار وفايق وأنا.

قبل أن ننطلق قلت لهم إنه ينبغي أن يلبسوا أحزمتهم أو عماماتهم ويستخدمونها لتغطية وجوههم كي يخفّفوا من تأثير الغازات الكيميائية. كان صهري يضع كل أسلحته على حزامه ولذلك لم يستطع فكّه. طلبت منه أن يستخدم عمامته عوض ذلك، لكنه رفض - قام فقط بغسل وجهه بقليل من الماء. ديار كذلك لم يجزّ نفسه جيداً. كان منزجاً جداً، ولا أظن أنه قام حتى بوضع محرمة مبلّلة فوق وجهه. ثم توجهنا نحو النهر الذي يجري عبر قريننا، ومرة جديدة قلت لفايق: «بلل حزامك!». غطّمت حزامي في النهر وغطّيت وجهي لأحمي عيني كذلك. ثم توجهت عائداً نحو منزلي، وتوجه الآخرون إلى منازلهم.

عوض أن يمشوا بمحاذاة النهر، كما يجدر بهم أن يفعلوا، وجد كل من ديار وفايق نفسه داخل حقل من نبات الفاصولياء المرتفع. وفيما كانا يمشيان عبر النبات هب هواء السمّ الراكن بين الأوراق على وجهيهما وصرخا طالبين النجدة. لكن لم يكن بوسعي أن أفعل شيئاً - كنت في غاية الاضطراب وبعيداً جداً عنهما. صرخ وفايق هاتفاً: «يا عبدالله اني أموت، ساعدني!». كان في مقدوري أن أراه واضعاً الحزام حول خصره فصرخت به بفضب «لكني قلت لك أن تربطه حول رأسك». فعل ذلك، ولكن بعد فوات الأوان.

كل ما استطعت أن افعله كان جره برجليه إلى خارج المنطقة الملوثة. في طريقنا التقينا صبيّاً في السابعة أو الثامنة من عمره كان ممدداً على الأرض وجسمه يرتعد. قال لي أيضاً: «يا عبدالله ماذا تستطيع أن تفعل من أجلي!». طلبت من وفايق أن يمسك بإحكام رجلي الصبي فيما أنا أجره. جعلنا نتقدّم كقطار حتى أدرنا ساقية صغيرة حيث استطعنا أن نفصل وجوهنا ووجه الصبي. رفعناه قليلاً لكن قواه خارت وسقط على الأرض. لم يتسنّ لي في ذلك الحين أن أعرف إن كان قد نجا أم لا. إلا أنني اكتشفت لاحقاً أنه لا يزال على قيد الحياة، لأن فرقة من «الجحوش» أتت في اليوم التالي وانقذته إضافة إلى آخرين انقذتهم معه.

اصطحبت وفايق إلى مكان أبعد وحقته بدواء حقنتين (كنت منذ مقتلة حلبجة [في آذار ١٩٨٨]، خبأت بعضاً منه). كنت أعرف انه فقال ضدّ ذلك النوع من الغاز الذي يؤثر في الدماغ والجهاز العصبي. جعل يصرخ «أتركني وشأني». كان واضحاً أن الغاز أثار على جهازه العصبي، فما أظنه أن السمّ الذي استخدم في غبطابة لم يكن بسيطاً، بل مركباً من مجموعة من الغازات. كانت التركيبة تؤثر على العضلات، جاعلة إياها صلبة وغير قابلة للإسترخاء، لذا يمكن للمرء أن يموت خلال دقيقتين. بعد إجراء الحقن، وجدت سيّارة لنقل وفايق، فسلمته لأصدقائي وقلت لهم إنني متوجّه إلى منزلي.

أخيراً استطعت الركض إلى منزلي. كان الوقت قبل المغيّب بعشرين دقيقة، وحين وصلت إلى هناك كانت العتمة قد حلّت كلياً، لكنني استطعت العثور على مشعل كهربائي صغير. وضعت أولاً قناعاً للغاز لأحمي نفسي، ثم توجهت إلى الملجأ الذي كنت قد جهّزته لهذا النوع من الاحتمالات. كانت زوجتي تعرف أن على العائلة أن تختبئ هناك في حال حصول هجوم كيميائي. لم يكن هناك أحد. أصبت فعلياً بالذعر - مقتنعة أن أحداً لم ينج. تسلفت من الملجأ إلى كهف قريب، ظاناً انهم ربما لجأوا إلى هناك. لكن أحداً لم يكن هناك أيضاً. وحين

توجهت إلى نهر صغير قريب من المنزل، وجدت أُمِّي. كانت قد سقطت قرب النهر، وكان فمها منزعجاً في ضفته الموحلة.

كل أفراد عائلتي ركضوا باتجاه النهر، لأنني قلت لهم إن الماء مفيد للوقاية من الأسلحة الكيميائية. إبان الوقت الذي أدركوا فيه النهر، كان عدد كبير منهم قد غرق وسقط في الماء. غرق معظمهم. قلبت أُمِّي على ظهرها، كانت ميتة. وددت تقبيلها لكنني كنت أعرف أنني لو فعلت، تنتقل السموم إلي. ما أزال إلى الآن نادماً من كل قلبي على امتناعي عن تقبيل أُمِّي الحبيبة.

تابعت في النهر. وجدت جثة إبنتي البالغة من العمر تسع سنوات معانقة ابن عمها، الذي كان هو أيضاً قد اختنق حتى الموت في الماء. وجدت أيضاً جثة إحدى بنات أخي وكانت مع والدها. وتابعت في الخط نفسه فوجدت امرأة من غير عائلتنا وسمعت طفلاً يئن تحتها. قلبت المرأة ووجدت الطفل، وكانت المياه بدأت تدركه. خلعت ثياب الطفل عنه، وحملته إلى الداخل ولففته بتياب أخرى.

جلت حول المنزل. في مساحة تتراوح بين ٢٠٠ و ٣٠٠ متر مربع رأيت عشرات الأشخاص من عائلتي وكان من بينهم أولادي وأشقائي ووالدي وأبناء أشقائي وبناتهم. كان بعضهم لا يزال حياً، غير أنني لم استطع التمييز بينهم. كنت أحاول أن أرى إن كان الأولاد قد ماتوا. في ذلك الوقت كنت فاقداً كل أحاسيسي. لم أعرف على من أبكي ولم أعرف إلى من اتوجه أولاً. كنت وحيداً في الليل.

رأيت أحد أشقائي، وكان رأسه مائلاً إلى منحدر، وكانت زوجتي لا تزال حية إلى جانبه، وكان أخي الأكبر عند الجهة الأخرى. وكانت إبنتي، وإحداها في السادسة والأخرى طفلة في الرابعة من عمرها، إلى جانبي زوجتي وكانتا ميتتين، وكانتا كلتاها ميتتين. حاولت أن أحركهما، أن أهزهما. لم تصدرا أية ردة فعل. كانتا ميتتين، وأنا أدركت ذلك.

كان الدم والقيء يخرجان من أنوف شقيقي وزوجتي وأفواههم. كانت رؤوسهم منحنية إلى ناحية واحدة، وكانوا يثنون. لم أستطع أن أفعل الكثير من أجلهم، جعلت فقط أمسح الدم والقيء عن أنوفهم وأفواههم وأحاول بكل الطرق أن أجعلهم يتنفسون من جديد. أجريت لهم تنفساً اصطناعياً وحقنت كلاً منهم حقنتين. قمت أيضاً بمسح زوجتي وشقيقي بالمرهم بعدما حقنتهم. خالجنني شعور بأنهم سيعيشون.

تتألف عائلتي من أربعين فرداً. أعني أنها كانت كذلك. والآن لم يتبق من تلك العائلة الكبيرة غير خمسة عشر. مات خمسة وعشرون من أفراد عائلتي الأحباء، وكان من بينهم أولادي الخمسة. كانوا صبيين، توالنا عبدالله عبد القادر في السادسة عشرة من عمره، وتشكو عبدالله عبد القادر في السادسة من عمره، وثلاث فتيات، الكبيرة طابان، تسع سنوات، وثقفة ٤ سنوات، وشوخان ذات الستة أشهر. كانت هذه عائلتي المباشرة. ولكن من عائلتي الموسعة ماتت أُمِّي عيشة عبد الكريم، وابنة عمي التي كانت زوجة شقيقي، وزوجتنا شقيقي: عطية عبد الرحمن وبروين سيد أحمد، وأيضاً زوجة السيد لاطي الذي كان معلماً في المدرسة. لإنهم جميعهم أموات اليوم، فارقوا الحياة. أعني أن ٢٥ شخصاً من عائلتي قتلوا.

الآن، وأنا أخبرك هذا، لا أعرف ما ينبغي أن أقول، فأحاسيسي لم تمت، لكننا لم نعد قادرين على الحزن لما حدث في ذلك الحين. لم تتبق لدينا أية دموع. حزنا كثيراً وذرفنا دموعاً كثيرة. لم نعد قادرين على الشعور بأي شيء.

عبدالله الذي هو الآن في ثلاثيناته، وقد قضت به الظروف أن يعمل مدرساً ثانوياً في السليمانية، هو، صيدلي كفوء. كان متلهفاً بصورة خاصة للتحديث عن كيمياء الهجوم في ذلك النهار. فبعد الهجوم الكيميائي الأول على قرية كردية في شيخ وسان عام ١٩٨٧، وخصوصاً بعد قصف حلبجة في نيسان/أبريل ١٩٨٨، بدأ عبدالله يستخدم اختصاصه في الكيمياء ويجري أبحاثاً على أنواع مختلفة من الغازات السامة التي هي جزء من الصناعة الحربية البعثية. ويخامره الشك في أن الغاز الذي قصفت به غبطة لم يكن غازاً بسيطاً بل مركباً، وقد ضمّ هذا المركب بعض المواد الكيميائية الغريبة جداً، بحسب اعتقاده. لماذا؟ لأن أجساد بعض الأطفال التي رآها كانت زرقاء اللون. لا بد أن ذلك كان بتأثير السيانيد. ذلك لأن آثار الدخان الذي تصاعد بطيئاً فوق القرية كان يحتوي على ظل ما بقي فيه، وهذا اللون لا يمكن ربطه سوى بالسّم. كان قد جمع ما اعتقد أنه دواء شاف من تلك الغازات، وخبأه في منزل عائلته في غبطة. حصل على ما يزيد على العشرين تريباقاً عبر علاقاته في السليمانية، إضافة إلى المراهم، وأملاح الشّم. وقد أعطى لزوجته ولأشقائه تعليمات أساسية بشأن ما ينبغي القيام به، ولكن من دون طائل.

كانت كلمات عبدالله تتدفق كفيضات عاصفة هوجاء. لم ينظر إليّ فيما هو يستفيض متحدثاً عن مواصفات الغازات السامة وتريباقها. كانت تلك الجمل تخرج

كخلطة كبيرة من التفاصيل الصغرى. تحدّث بطريقة متقطعة وغير مترابطة. وكان خذاه الجوفان يصقان الكلمات بصقاً. تكلم كرجل ممسوس لا يرى نصب عينيه ظلاً لأي غد، وأنا لم استطع أن أطرح عليه أي سؤال.

تعرضت لتجربة معاكسة تماماً وذلك حين تسّنت لي مقابلة كردي آخر ناج هو الصبي تيمور^(٢). تحدّث تيمور بكلمات لطيفة، هادئة، كما لو أن شيئاً لم يحدث خارج النطاق الاعتيادي. وبخلاف عبدالله، امتنع عن ذكر التفاصيل التي كان ينبغي نبشها من داخله بأسئلة موجعة كنت أطرحها الواحد تلو الآخر. تحدّث لأنه كان عليه أن يفعل ذلك، لا لأنه يرغب فيه. كان تيمور يسعى إلى استئصال تلك الذكريات من داخله، لا إلى عيشها من جديد. فأولئك الذين أرعدتهم وحشية من ذلك النوع، بدوا وكأنهم سقطوا في أحد الطرفين اللذين يمثلهما كل من عبدالله وتيمور، ولن أنسى ما حييت الطريقتين المختلفتين اللتين تحدّث بهما كل من هذين الناجين عما حدث لهما.

والد عبدالله الذي نما أيضاً من هجوم غطابة، رجل نحيل هزيل ذو عينين كبيرتين بارزتين، وكان ينبغي تلقيه الكلام قبل أن يقوله. كان عبدالله حين لا يكون الكلام جارياً عما حدث في عشية ٣ أيار/مايو ١٩٨٨، يصمت كلياً، ويختفي في الأرجاء. كان يجلب الشاي على صينية فضية، ويقفز في الاتجاهات منجزاً مهمات بيتية صغيرة، أو أنه ينطوي خجلاً، ناظراً أغلب الوقت في الأرض بلا سبب ظاهر. وكان مصطفى، وهو رجل متفاخر أكبر سناً، وذو وجه مستدير شبيه بوجه بومة، يعامله بشيء من الإزدراء. ويرى أن ابن عمه عبدالله لم يتعاط مع ما حدث على ما ينبغي لرجل كردي أن يفعل. فهو يعيش في الماضي، ويتصرف كخادم، ولا يعود إلى الحياة إلا حيث يتحدث عما جرى في غطابة. لقد إنهار كل مستقبله في محنة من بضع ساعات انقضت منذ ما يزيد على الثلاث سنوات، وأوضحت الآن محور حياته. لقد أمسى عبدالله رجلاً مصاباً، ولم يعد مقاتلاً كردياً قاسي الشكيمة ومنافحاً عن قضية شعبه الكبرى. ومصطفى لا يستطيع أن يتحمل ما آلت إليه حال عبدالله.

التاريخ كذاكرة

مصطفى، بخلاف عبدالله، مثقف تشرب عميقاً حس التاريخ الكردي. كان قد ولد في قرية عسكري، وهو مؤلف لكتاب باللغة الكردية عن حركة حقّة، وهي مدرسة صوفية في القرن العشرين، تعود جذورها إلى النقشبندية ذات الجذور الكردية التي ترجع إلى قرون خلت^(٣).

وحركة الحققة، كما في كتاب مصطفى، بدأت في العشرينات بمنطقة زورداشت، التي تقع فيها كذلك قرينا غبطابة وعسكر. ومؤسس الحركة هو والد جد مصطفى، الشيخ عبد الكريم الحاج شيخ مصطفى، ابن رضا العسكري الذي كان قتيها وأدياً بجيد بطلاقة العربية والفارسية، إلى جانب التركية والكردية. وكان الشيخ عبد الكريم ناقداً حاداً للمؤسسة العراقية الدينية والسياسية في عصره، كما كان المستشار البريطاني في وزارة الداخلية السيد إدموندز، يضطر إلى القيام بزيارته في محاولات عقيمة لإقناعه، أو رشوته، أو تهديده، ليتوقف عن معارضته. كان عبد الكريم الكردي العراقي يمثل شيئاً شبيهاً بما مثله الحميني إبان النصف الأول من القرن العشرين، وذلك حتى اعتقاله عام ١٩٣٤ وإقامته إقامة جبرية في مدينة كركوك طوال ستة أشهر. لقد أراد العودة إلى جذور الشريعة الإسلامية، معارضاً الإكفاء بتطبيقها السطحي والطقوسي. ويشتق اسم حركة الحققة من كلمة الحق، وكان الاتباع يلتقون في مراكز للصلاة، هي أصلاً بيوت، وتعرف باسم «التقية». كانوا يجلسون مترجمين على الأرض، مؤرجحين أجسادهم بتحمل إلى الأمام والخلف وهم ينشدون: «آه الحق، آه الحق. نؤمن بالحق. نبحث عن الحق. طريقنا الحق....».

لكن أتباع الشيخ انقسموا بعد موته، كما هو مصير الأتباع على الدوام. بيد أن الأغلبية تبعت شقيقه مام رضا (العم رضا)، الذي أدخل في الصوفية الأصلية أفكاراً وطنية واجتماعية، بما في ذلك الفكرة الثورية الداعية إلى مساواة المرأة بالرجل. واشترك أتباع رضا كذلك في تأسيس جمهورية ماهاباد الكردية عام ١٩٤٦ التي لم تعمر طويلاً، لكنها كانت حدثاً مهماً في التاريخ الوطني الكردي، كما أحلت قائد المتمردين الشهير الملا مصطفى البرزاني في طليعة الساسة الأكراد العراقيين. لقد فعلوا ذلك من طريق ارسالهم «الإخوان المسافرين»، كما كانوا يعرفون بين الحققة، إلى القرى الكردية لجمع الأنصار. وبعد حلولهم في مكان جديد، كان يطلق على أولئك المبشرين تسمية «الموثوقين». وكان القرويون الأكراد يعتقدون غالباً أن الحققة ملحدون لأنهم لا يقومون بأية طقوس دينية تتعلق بالصلاة أو الصوم، غير أن مصطفى الذي كان يحترمهم جداً، لا يوافق على ذلك، مشيراً إلى أنهم كانوا مؤمنين بالله وبالنبي ولكن من خلال إيمان آخر، وكتابه إنما هو رحلة داخل الحركة الكردية الوطنية من وجهة نظر الدور البالغ الأهمية لعائلة العسكري في ذلك التاريخ.

إسم العائلة مشتق من إسم قرية أسلافهم «عسكر». وهناك ثلاث شخصيات بارزة ومحورية في تاريخ العراق الحديث ولدوا هناك. وقد روى مصطفى هذه الحكاية عن أحدهم، وهو جعفر العسكري الذي أسس الجيش العراقي عام ١٩٢١:

«أخبرني والدي أن جعفر العسكري جاء في ١٩٣٤ أو ١٩٣٥، إلى عسكر وقال له: «أريد أن أخدمك وأخدم هذه القرية». أجابه والدي «الله كان رحيماً معنا، لسنا بحاجة إلى أي شيء». لكن جعفر أصر: «أريد أن أفعل شيئاً لقرتي»، عندها قال والدي: «حسناً ابن لنا مدرسة». وهكذا بنى جعفر أول مدرسة ابتدائية، كانت تتألف من غرفة طويلة واسعة، وغرفة أخرى صغيرة للمعلم إضافة إلى فناء صغير. بهذا حصلت عسكر على مدرستها الأولى».

لكن عسكر كانت أيضاً مسقط رأس بكر صدقي، وهو ابن عم جعفر، الذي قاد المذبحة ضد الأشوريين عام ١٩٣٣، وبذلك أصبح صدقي بطلاً وطنياً عراقياً. لقد أتبع انتصاره ضد القرويين الأشوريين العزل في بلدة صوماهل، بقيامه باغتيال ابن عمه الذائع الشهرة في ١٩٣٦، ليكون أول من قام بانقلاب عسكري في العالم العربي. وتمتع صدقي بحكم العراق فعلياً طوال تسعة أشهر قبل أن يقتل هو أيضاً بدوره.

قمت بزيارة قرتي غيطابة وعسكر بمعية مصطفى وابن أخيه شالاو، وهو شاب نحيل ورشيق في بداية عشريناته، وذو ملامح دقيقة حادة، وأنف أشبه بمنقار الصقر. لقد كان نسخة أصلية عن والده الجذاب، البطل الكردي علي العسكري، الذي تزقن صورته منزل مصطفى. كذلك ترتفع صورة جدارية ضخمة لـ علي داخل إطار اسمتي (٤ أقدام عرضاً و٦ طولاً)، في شارع السليمانية الرئيسي حيثما كانت مزة صورة صدام حسين. لكن علي العسكري الذي كان جدّه مام رضا قائد حركة حقّة بعد الشيخ عبد الكريم، لم يكن صوفياً مثل أجداده. كان صنفاً آخر من الزعماء: مقاتلاً مناوشاً تحاك حوله الأساطير حتى قبل أن يقتل في ١٩٧٧ خلال صراع داخلي بين الأكراد. وقد قامت عائلة شالاو إثر ذلك بخطوة إحترازية فارسلت الصبي الصغير إلى السويد حيث عاش عدة سنوات، لم يعد بعدها إلى كردستان إلا بعد بدء المفاوضات بين الأكراد والحكومة العراقية في أيار/مايو ١٩٩١.

سافرت إلى عسكر بصحبة مجموعة كبيرة من مقاتلي البشمروغا في قافلة من سيارات التويوتا لاند كروزر، تزوّد رجالها بأسلحة «الآر بي جي R.P.G.» والكللاشينكوفات والبنادق الاتوماتيكية المثينة التي تكفي، كما بدا لي، لإيقاف زحف فرقة كاملة من الجيش العراقي. لماذا كل تلك الحماية؟ فسر لي شالاو أهمية عدم إنسحاب المجال لتجدد النزاعات القديمة. كانت الحماية من أجله، إذ قد تكون هناك يد تريد إشعال فتيل نزاع ما بين المنظمات السياسية الكردية، وقد تراودهم فكرة أنهم قد يستطيعون ذلك عبر اغتيال ابن علي العسكري. وشالاو كان بدوره يسافر منتقلاً مع جيش مصتّر كي ينهيهم عن عزمهم.

أشار مصطفى نحو المقابر التي كانت تعجّ بها التلال القريبة حول عسكر. كان ذلك مكاناً قديماً ذا تاريخ مصوّر يعود إلى أيام خوال كانت فيها القرية نقطة مهمة في الطريق التجارية بين بغداد وإيران. كان مسجد القرية الشهير قد خرج عدداً كبيراً من الملايات المشهورين. كذلك عرف عن عسكر تطورها غير الاعتيادي، إضافة إلى المدرسة التي كان بناها جعفر، احتوت على مجموعة متنوّعة من المتاجر، وكان فيها نجار مقيم وحدّاد ومجموعة من الحرفيين المختلفي المهن. وكانت القرية التي تغطي مساحة واسعة، مركزاً زراعياً مخصصاً بزراعة الشليم، أو نبتة الزؤان.

غير أن قرية عسكر كانت إسماعلياً على مستوى، وصورة لا مثيل لها في مطابقة الشيء لإسمه. فالإسم ربما اختير إجلالاً للتقاليد العسكرية في ذلك المكان، لكن الأمر لم يعد مهماً في مطلق الأحوال. إنه مجرد تسمية لأن عسكر لم تعد موجودة بالمعنى الحرفي للكلمة. لا يزال بالوسع رؤية معابر وممرات ضيقة ملتوية وملامح وأسيجة غير منتظمة كانت مرّة غرقاً لبشر يأكلون ويعملون ويصلّون ويلعبون في داخلها. والآن الخراب كامل: فمن المنازل المتيّنة التي كانت قائمة هناك، لم يبق سوى الأساسات وبعض جدران. ذلك أن البعثيين لا يتركون شيئاً للصدفة.

بين أطلال عسكر، قرب النهر الذي كان منذ ثلاث سنوات فقط مركزاً لجماعة أحسنت تنظيم حياتها، تناولنا غداء متقناً من الدجاج والأرز.

دور الجحوش

تحدث مصطفى عن عسكر وعن قصصها في ٣ أيار/مايو ١٩٨٨. كان الناس قد فروا من القصف الجوي الذي لم تستخدم فيه إلا أسلحة تقليدية. فروا تاركين بيوتهم وكل ما فيها، متوجهين مباشرة إلى منحدرات الجبال القريبة والغابات. لم ألتق أحداً لم يكن فقد قريباً له في قصف عسكر بالذات. ومن جهة أخرى، قتل في غطابة ١٥٠ شخصاً إبان الهجوم الأول، وقد أثبت ذلك، في ما يتعلق بتلك المنطقة، أن الأسلحة الكيميائية تناسب بصورة أفضل بكثير أهداف حزب البعث.

لم يكن هناك فرق كبير في النهاية. فالجيش العراقي قد أحاط بالقرويين الفارين، وبدأ يتركز في المناطق الاستراتيجية المشرفة منذ الأول من أيار/مايو ١٩٨٨. كانوا قد احتلوا مراكز فوق سلسلة الجبال التي تحيط بعسكر وغطابة ومجموعة أخرى من القرى الكردية المستكنة في الأرض المنخفضة، ثم سارعوا إلى إرسال وحدات من الجحوش، بقيادة من كانت تدعوهم الحكومة العراقية «المستشارين» الأكراد^(٤). أرسلت تلك

الوحدات من المراكز المرتفعة لتهدئة القرويين، أو لتطويق الفارين منهم، ومن ثم إصطحابهم إلى حصون ضخمة بنيت على طراز قلاع القرون الوسطى، خلال الحرب العراقية - الإيرانية، من أجل إيواء وحدات من الجيش يصل عددها إلى عشرة آلاف أو خمسة عشر ألف جندي^(٥). وإستطاع بعض القرويين الإفلات وتوجهوا سيراً على الأقدام إلى إيران (كما توجب لاحقاً على مصطفى وملايين آخرين من الأكراد أن يفعلوا مجدداً بعد إندلاع إنتفاضة آذار/مارس ١٩٩١ وفشلها). لكن هذه المرة لم يستطع معظمهم القيام بذلك، إذ أن حزب البعث كان فعلاً جداً آنذاك.

لم يكن مصطفى موجوداً يوم الهجوم بالذات، لكنه تسلّل في اليوم التالي إلى عسكر وغبطابة بمساعدة وحدات الجحوش نفسها التي استخدمها الجيش العراقي لتطويق أهل قريته، وزوّدها أوامر صارمة بمنع دخول أشخاص مثله. يصف مصطفى ما جرى هناك:

«للحقيقة ما كنت لأصل البتة إلى قريتي لو لم تساعدني مجموعة من الجحوش. جاؤوا معي من السليمانية وأحضروني إلى هنا. كانت حواجز الجيش تمنع الجميع من الوصول إلى المنطقة. حين وصلت، لم أكن أريد التحدث إليهم (الجحوش) لأن موقفهم كان واضحاً. لكنهم جاؤوا معي. معاً رأينا غبطابة: كان حوالى الـ ١٥٠ شخصاً مدفونين قرب النفايات من غير أضرحة أو أي شيء من هذا القبيل. قتلتهم القنابل الكيميائية، وكان قد أهيل عليهم بعض التراب لتلافي الرائحة والبكتيريا. عندما شاهدوا ذلك بدأ الجحوش الذين كانوا معي يبكون، وصاروا يلعنون أنفسهم.

كنا في شهر رمضان. بعضهم احتاجوا إلى درجة أنهم جعلوا يقولون: «بعد هذا لن نصوم ولن نصلي، لأن الله سمح بأن تحمل هذه الكارثة بشعبنا وبأربابنا وأمتنا». كانوا يكون فيما هم يساعدونني في حمل الجثث. لم يكن في المستطاع حملها إلى القرية، لذلك وضعناها في حفرة، وغطّيت بالأعشاب وبالملايس القديمة التي كانت مرمية هناك. كل الأشياء القيّمة استولى عليها «الفرسان»، وقوات «الدفاع الوطني». (اسماء لفرق الجحوش كانت تستخدمها الدولة). لم يكن أولئك الأشخاص أنفسهم الذين هاجموا القرية، ولكنهم بالطبع من الصنف نفسه. كان الجيش مسيطراً على المنطقة، وعلى مسافة عشرة كيلومترات من القرية وإلى الجهتين، كان الجحوش هناك يساعدون الجيش على إحكام السيطرة.

إلى جانب ما قام به البعث في قرى مثل عسكر وغبطابة، فإن دور الجحوش ربما كان الأكثر إنفعالية، وتعقيداً، والأقل قابلية للحل بين قضايا كردستان العراقية. الملاك

الري ورئيس القبيلة الذي كنا قابلناه في وقت سابق (في الفصل ٢)، والذي كان قاتل مع النظام ضد أقاربه خلال الإنتفاضة، كانت لديه أسباب كافية جداً لتبرير ما فعله: «كنت اشتركت في حملة الأنفال في ٨ آب/اغسطس ١٩٨٨»، قال لنيل كونان، وأضاف: «اعتقل ١٢ ألف كردي داخل مخيم عسكري في الموصل. كل الذين كانت أعمارهم من ١٨ سنة وما فوق أخذوا إلى جهة مجهولة. أحد أصدقائي الحميمين أخبرني أنهم أجبروا على حفر خنادق، وقد قتل الأثنا عشر ألفاً جميعهم. أطلقوا عليهم النار واحداً واحداً بالمسدسات. وسواء مات واحد منهم أم لا، فإنهم كانوا يطمرونه بالتراب». ثم يأتي ذلك الإعتراف اللامعقول، والذي يجعل ذلك الحدث محتملاً:

«كان جهاز المخابرات قد اعتقل أحد أصدقائي، ثم أرسلوا لي رسالة تقول إنه يمكن إطلاق سراحه، إن ضمنت أنا ولاءه. أطلق سراحه في نهاية الأمر بكفالة. وبما أنه أطلق سراحه نتيجة كفالتي الشخصية، أراد فجأة أن يطرح سؤالاً بشأن أولئك الإثني عشر ألف كردي الذين اعتقلوا. لم يكن يعرف أنهم قتلوا. كان يعرف فقط أنهم اختفوا، ورغب بالحصول على معلومات أكيدة. رئيس جهاز الاستخبارات، وهو يناولني أوراق إطلاق سراح صديقي، إستدار إليّ، ثم ابتسم وقال لصديقي: «من الأفضل أن تسأل هذا الرجل عن مصيرهم. سوف يخبرك». وحتى الآن لم أخبر صديقي ماذا جرى. في الواقع أن ستين رجلاً من أولئك الاثني عشر ألفاً المفقودين كانوا أقرباء له، وكان بينهم أشقاؤه وأولاد عمه وأولاد أشقائه... لم أرغب في أن أحطم قلبه»^(٦).

خلال الإنتفاضة، اصدرت أحزاب الجبهة الكردستانية الثمانية عفواً عاماً عن كل قادة فرق الجحوش الأكراد، مثل ذلك الملاك الثري، فإنهارت سلطة البعث في شمال العراق مثل بيت من ورق. غير أن الماضي لم يُنس، والمشاعر بين الأكراد حيال موضوع الجحوش ما تزال ساخنة. وفي مرحلة ما خلال رحلتنا إلى عسكر، جرى تبادل هذا الحديث مع سائق سيارتنا اللاند كروزر:

- إن الجحوش يعيشون بين البشر غداً الآن، كيف تشعر حيالهم؟

- بالبؤس.

- أريد شعورك الحقيقي.

- لاني أكرههم جداً.

- لماذا تكرههم؟

- لأنهم شاركوا الحكومة العراقية في عملية الأنفال.

- كم كان عدد الجحوش في جيش صدام؟

- إنهم كثيرون.

- هل بإمكانك أن تثق بهم؟

- لا، لن أفعل حتى آخر يوم من حياتي. إن جرت عملية أنفال جديدة، سوف يشاركون فيها مجدداً...

- أعتقد أنهم ما زالوا يعملون لصالح صدام حسين، أو أنهم قد ينقلون إليه مرة أخرى؟

- أعتقد هذا.

في تلك اللحظة ردّ كردي آخر كان يجلس إلى جانب المتحدث قائلاً: «إنه يعتقد ذلك، أما أنا فمتأكد تماماً منه».

المزيد من الذكريات الكردية

عادت إلى قرية عسكر مجموعة صغيرة من العائلات، وجعلت تعيد بناء أكواخ جديدة بواسطة ديش الحجارة القديمة. حول القرية، بين المقابر ووراءها، نُظِّفَ الحقول ورسمت حدودها بالحجارة التي كان ينبغي إقتلاعها من الأرض كالأسنان. كانت هناك خطوط واهنة من الخضرة فوق جنبات التلال، وبضع نباتات أبذرت نفسها بنفسها بعد ثلاث سنوات من زيارة الجيش العراقي لقرية عسكر. غير أنه لم يكن هناك أي بيّنة من كل التاريخ الذي كان مصطفى متحمساً له جداً. فتلك القرية المتعلقة بسيرة تأسيس العراق الحديث - وعلى حد سواء بكردستان - أزيلت وامّحت من الخارطة العراقية في ٣ أيار/مايو ١٩٨٨، لتضيف ميراثاً آخر من المرارة إلى آلام البلاد. هذا هو جوهر السلوك البعثي حيال التاريخ كله: إقتلاع حقيقته وكتابته في الشكل الذي يراه البعثيون مناسباً. فعلوا ذلك في مدينة بابل محوّلين ومحوّرين آثار الأساسات والكتل الحجرية، وهو كل ما تبقى من البناء الحقيقي، ليصبح مجعاً من الفناءات ومثاق من الغرف، واقتضى استخدام ألف عامل سوداني ليعملوا طوال ثلاث سنوات، بمعدل سبعة أيام في الأسبوع. إذاً ما الذي يمنعهم من القيام بما قاموا به في عسكر؟

هل كان هناك أبداً مكان يدعى عسكر؟ حين سيموت مصطفى سوف ينسى عدد كبير من الناس وجود عسكر.

بعد الغداء اصطحبنا مصطفى إلى غبطة، وكانت على مسافة قريبة. كانت مساحة القرية قرابة عشرين الميل المرتفع، وما يقارب الألفي شخص كانوا يعيشون هنا في ثلاثئة منزل تقريباً. كان في المقدور أن تقطعها من أولها إلى آخرها في عشر دقائق، ومن أصل الثلاثئة منزل التي كانت موجودة أصلاً لم يتبق أي شيء، حتى الأساسات الأولية أو حيطان الدعم التي كنت رأيتهما في عسكر، زالت. خبراء المتفجرات والجرافات دخلوا في أعقاب الجحوش والجيش وكان هؤلاء أكثر فعالية في غبطة، فتدميرهم بدا شاملاً إذ أن ما ينبغي إخفاؤه كان أكثر بكثير.

ما تبقى من الأغلفة الخارجية للقنابل الكيميائية داخل الدبش، يظهر أن حجمها يضاهي عرض الأقدام الثلاثة التي كانت لحفرة سقوطها. فهذا الصنف من القنابل لا ينفجر محدثاً صوتاً مرتفعاً، ولا يتشظى في عدد لامتناه من الأجزاء المتطايرة، إنه يصدر لدى انفجاره صوتاً شبيهاً بالفرقة، مما يسمح للمادتين الكيميائيتين اللتين يحتويهما الأنبوب (ويفصلهما عن بعضهما غلاف داخلي) أن تتمرجا. الغلاف الداخلي يظل محافظاً على شكله وينفصل ليصبح قطعة غليظة من المعدن. ومن شأن انفجار كبير أن يحول الغازات فوراً إلى سائل ويمنع تفاعلها. أما سماكة الغلاف الداخلي فتقارب عُشر الإنش، وأما الخارجي فيبلغ على الأقل ثُمن الإنش.

خمسة وعشرون فرداً من أفراد عائلة مصطفى وعبدالله وشالو، كما تذكرون، كانوا مرتمين في هذا المكان يوم ٣ أيار/مايو، وقد تستموا بالغازات الكيميائية التي ينشرها هذا النوع من القنابل. ولئن رأى عبدالله ذلك كله، فإن مصطفى جاء في اليوم التالي بصحبة الجحوش من أجل معالجة بقايا الكارثة.

ويوم زرت عسكر وغبطة كان قد مرّ على كل ذلك التدمير ثلاث سنوات ونصف السنة بالتمام. وإبان ذلك الوقت كان مصطفى قد عاش تجربة جسيمية أخرى وصفها في رسالة من تسع عشرة صفحة أرسلها إلى ابنته. وقبل أن يودّعني أعطاني نسخة عن تلك الرسالة الخارقة والكتابة باللغة الكردية، والتي تصف تجربته وما كان رآه خلال الهجرة الجماعية لما يقارب المليون شخص في أعقاب سحق إنتفاضة آذار/مارس ١٩٩١. والرسالة كتبت من مكان لجوئه المؤقت في إيران فور وقوع الأحداث التي تصفها.

أما المقاطع الأشد تأثيراً فتلك التي تصف حالة مصطفى النفسية والذهنية. كان «مصدوماً» و«مسحوقاً» بالطوفان المريع الذي أزال كل شيء». كانت مدافع طوافات صدام حسين الرشاشة تقصف بعنف ضواحي مدينة السليمانية، «وكان الناس في المدينة يصرخون مذعورين ويتركون بيوتهم. الأولاد كانوا ينشدون النشيد الوطني الكردي، ونحن لم نستطع أن نصدق أن المدافع والطوافات كانت ستقصف على مدينتنا هكذا. الناس كلهم توجهوا نحو الجبال... كل ما خطر لي كان الخوف فقط، إذ هل كان في الوسع القيام بعمل آخر لحماية السليمانية؟ أضاف يقول: لم يكن في المستطاع إسكات وإيقاف المدفعية الثقيلة «بواسطة الحجارة والسيارات المحطمة»، وهو يخالجه الشعور بأنه يهلوس: فما الذي جرى فجأة للربيع الجميل؟ هو الأمر مجرد تخيل؟ لماذا الغيوم قائمة والمطر أسود؟ هل هذا صحيح أم متخيل؟ لماذا ليس لدينا سد لمواجهة هذا الفيضان؟ منذ ساعات فقط كانت الحال مختلفة كلياً».

تصف الرسالة مشاهد من المسيرة الإضرابية عبر البرد القارس، وإنهيارات المطر والبرد المتواصلة والتي كانت «تهبط وكأنها من مطرات ملانة: امرأة تقعد على كرسي سيار يدفعها ابنها. «كانت تلك ثالث مرة أراها فيها على الطريق». رجل عجوز جاثم إلى جانب الطريق ومن حوله أربعة أولاد يبدون «كفراشات».

خلال اليوم الثالث كان الناس يموتون حول مصطفى: «رأيت شخصاً يحمل طفله بين ذراعيه، كان الطفل ميتاً غير أن الأب لم يدرك ذلك». لم يكن أحد يتوقف من أجل أحد. في أحد الخيم «لم يكن هناك مكان للجلوس وعندما بدأوا يوزعون الخبز كان آلاف من الناس يتعاركون من أجله». صحيح ما كانوا يقولون: «الجياع يفقدون عقولهم».

يكتب مصطفى ويستفيض، مسكوناً، مثل عبدالله، بما كان أبصره، ولا تنتهي الرسالة إلا بفعل الإنهاك وحده. «هذه القصة لا تنتهي. سوف احتفظ بها لمرة أخرى. سوف تصبح يوماً كتاباً. يتوجب علي أن أكتبها لأنه ليس بوسع أحد غيري أن يفعل ذلك. سوف أكتبها في وقت آخر، على كرسي أنا في منزلي، إلى طاولتي وبين كتي. لكنهم يقولون لي إنهم نهبوا طاولتي وكرسي في السليمانية».

لا ينفع الوقت العادي الكرونولوجي لقياس الهوة التي تفصل الرجل الذي كانه مصطفى خلال حملة الحكومة العراقية العسكرية ضد عسكر وغبطابة عام ١٩٨٨، عن الرجل الذي أصبح اليوم. فقد تلا الانتصار على إيران حال من اليأس المدمر، وإحساس بعدم جدوى أي شيء. وتلك المشاعر استحوذت على العديد من الأكراد بين ١٩٨٩

١٩٩٠، ثم جاء الغزو والإحتلال والنهب وضَمَّ الكويت، وتبعته حرب عالمية تُركت تَجَرَجَرُ بطريقة معيبة، هذا إذا لم نذكر أحاسيس الإنتفاضة الحية التي سحقت بوحشية بعد ثلاثة أسابيع فقط. لقد كانت صدمة انهيار الآمال كبيرة على ما يصف مصطفى، هذا ما يميّز الكائن الإنساني. ومن بوتقة ذلك النمط من الأزمنة البسيكولوجية، تتجسّر ذكريات جديدة في الذات، ولربما أيضاً ينبعث سلوك مغاير لمفهوم الذاكرة نفسه.

نصب مصطفى التذكاري

بعد عودته من إيران في نيسان/أبريل ١٩٩١ راودت مصطفى فكرة إنشاء نصب تذكاري في غبطة إحياء لذكرى أولئك الذين ماتوا هناك في ٤ أيار/مايو ١٩٨٨. النصب لم يكتمل بعد، وهو يقع في أعلى ذروة التلّة، في موقع كان من قبل قلعة، تبعاً لما يرويه المحلي. القلعة، أو القصر إن كان وجد من قبل، اختفى منذ زمن طويل. أما النصب التذكاري فيطلّ على مشهد مهيب من الجبال الملتوية والمتّجهة نحو الأفق الذي لا تحدّه العين. وأمام إطار مشهد الجبال يمتد واد نهري أخضر وخصب.

نصب مصطفى أول شيء تراه وأنت تقترب من القرية. مبنيّ من الكتل الإسمنتية، وهي المادة المستخدمة على نطاق واسع في الشرق الأوسط كله، وهو يبدو أشبه بحافتي جملون^(٥) غير منجزتين في منزل غير مسقوف، ويبرز منها قوسان مستدقان.

ينوي مصطفى تخشين صفحة القشرة الإسمنتية في القوسين وطلائها باللون الأبيض. فالقوسان يثبتان فوق منصة عالية إسمنتية توصل إلى المساحة المسطّحة وفيها أربع درجات، ومن هنالك ينبثق القوسان. وذلك البناء غير اللافت إلى حد بعيد يقع داخل منطقة فارغة بيضوية الشكل، يحوطها جدار سميّك داعم يحدد جهات كل النصب من الأرض المحيطة. وداخل المنطقة البيضوية إلى جهة منه ثمة مقبرة محفورة وبسيطة، أما الجزء الآخر من النصب فمكتمل ومرصوف بالحجارة، ويفترض أن يكون مكاناً لاجتماعات الأعراس والاحتفال السنوي بإحياء ذكرى موتى غبطة.

كفي يقيموا المقبرة قام مصطفى مع أفراد آخرين من العائلة بحمل ٨٦ جثة ونقلها إلى أعلى التلّة. كان الأمر كما لو أن الموقع الطبيعي الخلّاب الذي اختاره مصطفى، بمثابة مكافأة لهم على طريقة موتهم. أولاد عبد الله موجودون كلهم هناك، وكذلك ابنة ابن عم شالارو. أما بقية الـ ١٥٠ شخصاً الذين قتلوا هناك في ٣ أيار/مايو ١٩٨٨، فلا تزال

(٥) ملاحظة الترجمة: أو gable، أي الجزء الأعلى، المثلث الزوايا، من جدار يكتنفه سطحان منحدران.

في مكان ما في الأسفل إلى جهة التلة الأخرى تحت حجارة غيطابة ودبشها. فالمقبرة بحسب التقاليد الكردية ينبغي أن تكون على شكل كومة ترابية. ومصطفى أقام بدوره نظاماً بسيطاً، كانت شواهد القبور عبارة عن بلاطة من الصخر بسماكة إنشين مشغولة ومصقولة لتكون خشنة الملمس.

«الشهيد الرقم ٥٦» هو تشكو عبدالله عبد القادر، ٦ سنوات. «الشهيد الرقم ٣٥» فتاة في الرابعة من عمرها وتدعى ديمان حسان. «الشهيد الرقم ٣٢» هي شانام رشيد وعمرها ٥٤ سنة. وهكذا دواليك. ومن المقرر أيضاً أن يزرع صف من الأشجار في خط مستقيم وسط المكان، وكذلك سوف يحيط حزام من الازهار بالجهة الداخلية للجدار الداعم.

لدى شالو أفكاره الخاصة بشأن طريقة إنهاء النصب. فهو يرى انه ينبغي سقف القوسين ووضع تمثال بالحجم الطبيعي تحتهما لإمرأة كردية بالزي الوطني. فمثل الفرنسيين، غالباً ما يعبر الأكراد عن حشمتهم الوطني الجماعي بشكل المرأة. وفي رسم كنت رأيته في بلدة شقلاوة، كان غراب ينتزع العين اليمنى لإمرأة كان رأسها ملقياً إلى الخلف. لقد بدا الرسم وكأنه مشهد من فيلم هيتشكوك «الطيور». المرافق الصغير الذي رسمه فسر لي أن الغراب كان الطاغية النهم الذي لا يتنوي عطشه البتة من الدموع الكردية. والكردية بدورها تتمثل بفتاة شابة، يسترسل شعرها الأسود إلى الورا ويبدو وجهها محتجباً بالرفرفة المتعاقلة لريش الغراب الأسود.

من الواضح أن الرمز البطولي الفرنسي، ماريان، المندفعة إلى المعركة رافعة العلم المثلث الألوان، ليس مناسباً للعراق حالياً. وربما لهذا يريد شالو أن تكون ماريانه على شكل هيكل عظمي لإمرأة تقوم بإرضاع طفلها، وان يكون الثدي وحده مكسوراً باللحم، ومعنى هذا التفصيل الأخير «ان كردستان سوف تحيا من جديد».

لا شيء يزعم إنسانيتنا أكثر من خاطر إلتحام الرعب والجمال بطريقة غير قابلة للإفصام، كما هي حالتهما في غيطابة. فالنصب التذكاري الذي يؤرخ ما جرى هناك في ٣ أيار/مايو ١٩٨٨، يقع فوق التلة نفسها التي كان يقف فوقها عبدالله وصهره وصديقان معلّمان - ديار وفايق، وهم يشاهدون الطائرات العراقية وهي تنقض وترمي القنابل الكيميائية على قريتهم. إنها تطل كذلك على ضفة النهر الرائعة ذاتها حيث عثر عبدالله على أمته وكان فيها منزراً في وحل الضفة.

٥ - تيمور

«عمليات الأنفال البطولية»

حصن كوراتو كان بناء ضخماً من الاسمنت المسلح، سوفياتي التصميم بني على شاكلة العديد من القواعد العسكرية الأمامية التي أقيمت في كل مكان من شمالي العراق خلال الثمانينات طوال حرب العراق - إيران الكارثية والطويلة. جرى تفجير الحصن في ٨ أيلول/ سبتمبر ١٩٩١ من قبل فرق الجيش العراقي التي كانت حصنته، وكانت تلك مهمتها الأخيرة قبل ان تنسحب إلى جبهة جديدة «تماماً فوق تلك التلة»، بحسب قائد المقاتلين الأكراد المسؤول عن رحلتنا. انا لم أرهم البتة، لكن تيمور، الصبي الذي سافرت قاطعاً ثلاثة آلاف ميل لأقابله، كان أحضر إلى هناك في آب/ أغسطس ١٩٨٨. إنه في الثانية عشرة من عمره^(١) كان قد جاء مع أمه وأبيه وإخواته الثلاث وكل سكان قرية كالانشو، حاملين أي شيء إستطاعوا حمله من ممتلكاتهم، وقد واكبهم مجموعة من الجحوش طوال الخمسة عشر ميلاً التي استغرقتها الرحلة للوصول إلى الحصن.

وسط الدمار والدبش ما تزال هناك متاهة وعرة من الأروقة والغرف. ودخل غرفة تكسوها قطع غليظة من الاسمنت رأيت كتابة وقّعها جندي عراقي يدعى يوسف. وإلى جانب اسمه خربش أشعاراً من أغنية حب عربية شهيرة: «لهواك، واقننى لو أنساك، وانسى روحي وياك». إلى جانب ذلك ترك أحدهم نذّباً لحظه غير موقع: «التدريب، التدريب، ثم التدريب».

لا يزال غير واضح السبب الذي دعا فرق الجنود العراقية إلى الانسحاب من حصن كوراتو في صيف ١٩٩١. الأكيد ان من أخرجهم من هناك ليس أمواج فرق المشاة الإيرانية، كما لم يحاصر الحصن مقاتلو رجال حرب العصابات الأكراد الملقين بال

«بشمعرا» (وهي تعني، الذين يواجهون الموت). بيد ان مواكبتني إلى الحصن تألفت من فرقة مدججة بالسلاح قوامها ثمانية مقاتلين من البشمعرا، وكان ذلك في أواخر تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩١.

الحصن يقع قرب الحدود العراقية - الإيرانية عند الطرف الجنوبي الشرقي لمنطقة كردستان العراقية، وكان غرض البشمعرا من اصطحابي ابانة الدليل عن السبب الذي أقيم الحصن لأجله فيما الحرب العراقية الإيرانية تتراجع حدثها في ١٩٨٨ والدليل حملة عراقية واسعة النطاق، خطط لها ونفذت بعناية، لإبادة قسم كبير من الأقلية الكردية في العراق.

كنت أعرف مسبقاً ان حملة الإبادة حملت إسم: «الأنفال»، من خلال قراءتي لوثائق سرية خاصة بالحكومة العراقية كان إستولى عليها الأكراد في آذار/ مارس ١٩٩١ - أثناء قيام قوات البشمعرا، في أعقاب نهاية حرب الخليج، بشق طريقها بالقوة إلى داخل كل المدن الكردية الرئيسية في الشمال، والسيطرة لفترة وجيزة على كل الأبنية الحكومية والمنشآت العسكرية - عرفت أيضاً وسائل الحملة الأساسية، وهي وسائل كان قد أجاد استخدامها في هذا القرن رجال مثل هتلر وبول بوت: دك القرى، نقاط التجميع، الغازات السامة، فرق الإعدام، القبور الجماعية. وبين الوثائق الرسمية التي لا تحصى التي استولى عليها الأكراد - يتحدث القادة الأكراد عن أطنان منها، وحمولة شاحنات - ثمة وثائق تستعرض بالتفصيل، ومعظمها مكتوب بخط اليد، لوائح «بقرى أزيلت من الوجود»، كان سكانها قد طوّقوا واختفوا كلياً. الأكراد جمعوا بعناية أيضاً لوائح خاصة بأولئك الأشخاص، الذين كان معظمهم، إنما ليس كلهم على وجه الحصر، رجالاً وفتياتاً من القرى الريفية اعتقلوا، ويفترض انهم باتوا من عداد الأموات.

قبل أسبوعين من وصولي إلى حصن كورالو، قمت بزيارة حصن يقع خارج مدينة دهوك حيث روى لي شاهد عيان أنهم أحضروا إلى هناك ثمانية آلاف رجل وفتى في ١٩٨٨، إختفوا بعدها كلياً. ليس في المستطاع تحديد رقم دقيق لعدد الأكراد الذين قتلوا إبان حملة الأنفال، لكن الأدلة الصادرة من أعلى المستويات في النظام بالذات تشير إلى ان الرقم لا يقل عن مئة ألف قتيل، بينما يقدر الزعماء الأكراد الرقم بأكثر من ١٨٠ ألفاً.

ما يعرف من زمن بعيد ان الأكراد الذين يسكنون شمال العراق - يقدر عددهم اليوم بـ ٣,٥ مليون نسمة يتوزعون في منطقة تبلغ مساحتها ١٥ ألف ميل مربع - قاسوا المراتب من مختلف الأنظمة التي تعاقبت على بغداد^(٢). فهناك نمط دموي كان قد توطّد منذ البدء واستمر بعد نيل العراق إستقلاله من بريطانيا في ١٩٣٢، وأصبح أشدّ رعباً منذ تولّى حزب البعث السلطة^(٣).

شوريش رسول، وهو مناضل كردي يعيش حالياً خارج العراق، كان في الخامسة من عمره حين إعتقل الحرس الوطني الخاص بحزب البعث ثلاثة عشر رجلاً من بلدته كوري سينجك، في صيف ١٩٦٣. قاموا بربطهم على أعمدة في وسط البلدة، وأحضر بعدها سكان البلدة ليشاهدوا إعدامهم. كان والد صديق شوريش أحد أولئك الثلاثة عشر، وكلّما أضحى شوريش وصديقه يميّزان قرب الأعمدة، كان صديقه يشير إلى ذلك العمود المحزّم بالرصاص حيثما كان والده موثقاً. لقد بقيت تلك الأعمدة مكسوة بثقوب الرصاص حتى أواخر السبعينات^(٤).

منذ ١٩٦٨ إلى الآن لا تزال قصة الأكراد في العراق، في قسم كبير منها، مجرد تنازلات ورقية من قبل الحكومة (وعود بنسبة أكبر من التمثيل، واتفاقيات على المزيد من الحكم الذاتي) لتيبها جرجرة وتراجع وخيانات، ومن ثم «إعادة توطين» و«تعريب» و«ترحيل»، وكلها كانت تلي إجراءات إعادة رسم الحدود المتواصلة، ومحو المدن والقرى. ويندر من لا يستطيع من بين رجال «البشمرغا» ان يخبرك بالتفاصيل عما فعلته فرق الجيش العراقي بسكان قرية داكان في ٨ آب/ أغسطس ١٩٦٩، وعن درجة الدمار التي حلت ببلدات زاخو، والهجوم الجوي على قلعة دزه في آذار/ مارس ١٩٧٤ (أدى إلى نزوح عن المدن كان نديراً لما جرى في آذار ١٩٩١)، وعما حلّ بعشيرة البرزاني في آذار ١٩٧٥، عندما قطعت الذخائر التي كانت ترسلها الولايات المتحدة إلى المقاومة الكردية عن طريق إيران، وذلك بعد ان حصل الشاه على المنطقة التي كان يطالب بغداد بها، ووقع هو وصدام اتفاق الجزائر. ويندر من لا يخبرك عن الهجوم الكيميائي على قرية حلبجة في آذار ١٩٨٨ والذي أدى إلى مصرع ما يقارب الخمسة آلاف كردي ما بين رجال ونساء وأطفال. ومن الضروري الآن ان نضيف إلى هذه اللائحة الإبادة الجماعية لرجال ونسوة من المدنيين في المناطق الكردية الريفية بين شباط/ فبراير، وأيلول/ سبتمبر ١٩٨٨.

ولئن صح ان طرح الهوية الكردية الخاصة في العراق وبأي شكل من الأشكال، إبتداء من اوائل السبعينات، هو ما اعتبره النظام العراقي حضا على «الانقسام» و«الشوفينية» و«العنصرية» - وهو بالتالي فعل اجرامي وخياني، فقد كان من المسلم به لدى الجيش والاستخبارات ان من ينزع إلى إعلان كرديته في سلوكه (أو من تلفق ضده هذه التهمة) عليه أن ينال جزاء قاسياً من الحكومة.

ويمكن إلقاء القبض على كردي لانتمائه إلى أحد الاحزاب السياسية الكردية، أو لأن مخبراً سمعه ينتقد الرئيس العراقي صدام حسين، أو لمساعدته العدو خلال الحرب العراقية - الإيرانية (وكانت هذه التهمة الملققة الأكثر تفصيلاً وشيوعاً).

كان يمكن إبتداء من أواسط السبعينات «إعادة توطين» أي كردي بمجرد إنذار فوري - كانوا في البداية يدفعون بدلاً مالياً، لكنهم ما لبثوا ان توقفوا عن ذلك - إذا ما صدف وقوع قرينه قرب الحدود العراقية الإيرانية، وشقة الحدود تلك كانت تتسع تدريجياً، ثم تطاولت لتشتمل على الحدود التركية.

مع أواسط الثمانينات لم يتوقف ذلك الإجراء على قرى المناطق الحدودية، بل شمل أيضاً تلك التي تقع قرب المناطق المنتجة للنفط في قلب شمال العراق، حيث جرت إزالة تلك القرى وإعادة توطين سكانها. ومع حملة الأنفال في ١٩٨٨ أدركت كل هذه السوايق ذروتها: فعُجِد العيش في منطقة «محظرة لأسباب أمنية» (وهذه المناطق اتسعت الآن لتشمل كل المناطق الريفية في شمال العراق، كما شملت، بحكم تكوين المناطق، أراضي يسكنها الآشوريون المسيحيون الذين ليسوا أكراداً)، هو في حد ذاته بمثابة حكم على النفس بالاعدام.

وعلى الطريق الطويلة الوعرة إلى حصن كوراثو، فيما كنا متوجهين جنوباً من مدينة السليمانية بسيارتي تويوتا ولاندروفر، لمحت من خلال ضوء الفجر الضعيف قرية حلبجة الجليدية، التي كانت شيدتها الدولة لإعادة توطين من بقي حيا من سكان حلبجة القديمة، التي هدمت بعد قصفها بالقنابل الكيميائية. هذه الناحية، ومعها المنطقة كلها حتى الشمال، هي الآن تحت سيطرة الأكراد - إنها «الملاذ الآمن Safe Haven» الذي أنشأته في نيسان/ أبريل ١٩٩١ القوات المشتركة من بريطانيا وفرنسا وهولندا والولايات المتحدة، وخفرتة من الجو لفترة طائرات مقاتلة كانت تقلع من القاعدة الأميركية في إنشيريلى بتركيا.

ابان المعركة التي شنها لقمع الانتفاضة ضد صدام، إستعداد الجيش العراقي، في مطالع نيسان/ابريل، عدداً من المدن الأساسية وإستغلّ الفرصة لإتلاف وثائق إستخباراتية سرّية، كان العديد منها بالتأكيد متعلقاً بعملية الأنفال، ولم يتسنّ للأكراد حملها معهم. بقيت أعداد كبيرة من فرق الجيش العراقية في السهل الغربي من كردستان العراقية، وانتشرت على طول خط التماس الممتد ٢٥٠ ميلاً، لتستمر ميطرة على مدينتي الشمال الموصل وكركوك. وقبل أسابيع من قيامي برحلتني إلى شمال العراق، بدأت هذه الفرق بفرض حصار إقتصادي مُحكم على المنطقة الواقعة تحت السيطرة الكردية، حصار جعل شمال العراق يعاني نقصاً خطيراً في الغذاء والوقود طوال فصل الشتاء القاسي.

الطريق التي إخترت، أبقتنا بمحاذاة الحدود العراقية - الإيرانية معظم الوقت. إلى يساري الاستحكام المرتفع إلى علو ستة اقدام، والذي بناه الجيش العراقي خلال حرب

الثماني سنوات مع قوات آية الله الخميني، وكان هذا يحجب عني منظر الجهة الإيرانية طوال أميال بدون إنقطاع، وظهرت إلى الجانب العراقي لقات غير مستخدمة من الشريط الشائك، وخردة كانت في السابق آلات عراقية، كما تبعثرت أيضاً أغلفة قذائف وحفر قتال من مختلف الأحجام، وكذلك فجوات مستطيلة كانت قد حفرت بفجاجة في جنبات التلال، حيث كانت تطلع منها في ما مضى دبابات ومدافع. لقد قلبت جرافات ورفوش آلية تلك الأرض وأعادت تشكيلها محولة إياها إلى منظر قمري من الحرب والحراب، فكان المشهد كيباً، لأرض خراب من النوع الذي تتخيله مطوقاً خنادق الحرب العالمية الأولى، ولم يكن ينقص سوى الجثث.

ولم تكن لنجد جثثاً في حصن كوراثو. غير انه لم يكن من الصعب ان نتخيل ماذا حلّ بالآلاف الرجال والنساء والأطفال الذين كانوا قد أحضروا من قراهم إلى هناك. هل كانوا يعرفون ماذا كان ينتظرهم؟ ربما لا، ففي أكثر الحالات كانت وحدات الجحوش من يقنعونهم بإخلاء البيوت لا الجنود العراقيون - وكان يبلغ تعداد هذه الوحدات حوالى ربع مليون رجل.

مشيت عبر ما تبقى من تلك الأروقة البالغة ستة أقدام عرضاً، حيث كانت وحدات الجحوش تقود أولئك القرويين وتحتجزهم كحيوانات مزروبة لأيام طويلة، فهناك كانوا، من غير بد، يتوقعون الأسوأ دائماً. إنسحقت الأرض تحت قدمي: فوق الأرضية الاسمنتية تبيست طبقة سميكة جافة من الغائط البشري.

وفيما أسير حول محيط الحصن المزروع بالألغام (كان الجيش العراقي قد زرع ألغاماً في كل مكان من شمال العراق، ففي قرية بنجوين وحدها، تقدر منظمة «ميدايو» السويسرية للإسعاف ان خمسمئة إصابة تقع كل شهر بسبب تلك الألغام، وان معظم الضحايا هم من الأطفال الذين تنفجر بهم الألغام فيما هم يلعبون في المكان)، وأتمسست طريقي بحذر، رأيت إلى الجانب المواجه للحدود الإيرانية أربعين أو ربما خمسين عربة من النوع الذي يعلقه المزارعون الأكراد في مؤخر جراراتهم الزراعية وهم ينقلون العلف أو المواشي. لا شك في ان المزارعين أولئك نقلوا إلى الحصن داخل تلك العربات. كانت كدسات من الأنواب الباهتة والشرابيل التقليدية الكردية، ساقطة ومبعثرة قرب تلك العربات أو مرمية ومتفنتة داخل التراب والعشب والأجمات الصفراء. كانت مبعثرة أيضاً في الأرجاء نعال بلاستيكية هي ما تبقى من آلاف الأحذية.

والقرويون أنفسهم؟ الوثائق الرسمية تشير إليهم بتعبير «المفقودين في الأنفال». إنهم يعتبرون على نحو شبه مؤكد في عداد الموتى - قتلوا رمية بالرصاص ودُفِنوا، كما توحى

الدلائل، في مقابر جماعية عميقة حفرت في جنوب غرب العراق، في الصحراء قرب الحدود العراقية المتاخمة للسعودية. كان القرويون الذين أحضروا إلى حصون مثل حصن كوراثو ذاك، قد «ثقلوا» إلى ذلك المكان القصي من البلاد، حيث أعدمتهم فرق إعدام داخل الحفر ذاتها التي استخدمت كمقابر لهم.

خلال سيري حول بقايا كتل المعدن المتشابكة وركام ودبش الإسمنت في حصن كوراثو، وعند مسافة أقل من عشرين قدماً من حيث وجدت خربشات الجندي العراقي يوسف، عثرت على دفتر مدرسي، كان يحتوي تدوينات من علم الجبر بالعربية والكردية، وكذلك تفسيراً مخطوطاً بشكل جميل وبالكردية لآية من القرآن، وأيضاً وجدت نسخة من رواية للكاتب مقداد رحيم بعنوان «ليس هناك غير الحب». كانت ثمة فراشة كبيرة مطبوعة على الغلاف الخارجي الأحمر اللون.

وبينما رحت أتحسس سبيلي ببطء، وبفعل أشبه بفعل الإنبهار، تذكرت على نحو ما أنني كنت بالتأكيد قد عبرت في هذا المكان، وتحديدأ خلال شتاء ١٩٦٥. آنذاك لم يكن هناك أي حصن بل كانت القرية وحدها، قرية كوراثو. كنت في السادسة عشرة وبمعية أمي وأبي إبان رحلة لثلاثة أسابيع، ذهبنا في طريقنا من بغداد لنقوم بزيارة الأمكنة الأثرية في إيران. والآن خلال زيارتي الأولى إلى العراق بعد أكثر من عشرين سنة، رحت أعين صنفأ آخر من الآثار، متفحصأ بقايا حملة ضخمة من الإبادة الجماعية وصنيعها واطلالها.

ماذا في إسم؟

الأمر الأشد إثارة للإنتباه بشأن القسوة هو الحافظ الذي وراءها. في كل الأمكنة التي زرتها خلال رحلتي التي دامت ثلاثة أسابيع في شمال العراق في تشرين الثاني / نوفمبر الماضي - بدءاً من المدن الكبيرة وحتى أصغر القرى - لم اتوقف عن سماع كلمة «الأنفال». وثائق الاستخبارات السرية كانت تشير على الدوم إلى «عمليات الأنفال البطولية»، وكنت قرأت في نسخ البلاغات العسكرية العراقية الرسمية إشارات إلى عمليات الأنفال «الأولى»، «الثانية»، و«الثالثة»، كما قرأت أيضاً في وثائق تعود إلى وقت لاحق في ١٩٨٨ عبارة «خاتمة الأنفال». كانت تلك التسمية قد بدأت تحلّ بشكل سوريالي بعد إنجاز الحملة في ١٩٨٨. كذلك استخدمت كلمة الأنفال كاسم لأحد أكبر حقول الغاز في العراق سنة ١٩٨٩. وفي السليمانية زرت مبنى عاماً كان قد دعي، حتى إنتفاضة الربيع الماضي على الأقل، بـ «تجمع الأنفال». أما الشارة الخارجية الكبيرة

التي تنصّده والتي تحمل اسمه فكان الأكراد قد مزّقوها، عندما سيطروا كلياً على المدينة في تموز/ يوليو ١٩٩١، غير اني شاهدت شارة خشبية محفورة بتفّّن، كانت معلقة في أحد الأروقة وكانت تشير الى: «مكتب بريد الأنفال»^(٥).

إن توسلاً مستمراً لاسم ما، واستخدامه في بيئات وسياقات مختلفة، يساعدان على تصحيح معناه وتنظيفه في أذهاننا، ويساعدان بالتالي على حجب الأهداف التي سيّبت في البداية. فقبل حملة الحكومة التي حملت ذاك الاسم، لم يكن في وسع سوى قلة من العرب والأكراد معرفة ماذا تعني كلمة الأنفال. إلا أن هذا الاسم يكشف مفتاح اللغز الأول لحافز حزب البعث.

لقد دخلت كلمة الأنفال اللغة العربية الحديثة من السورة الثامنة بين سور القرآن، وهي سورة «الأنفال» التي تنزلت على النبي محمد بعد وقعة بدر (سنة ٦٢٣ م)، وكانت مجموعة صغيرة من المسلمين قد ألحقت هزيمة نكراء بمشركي مكة الأكثر عدداً بكثير. واعتبرت تلك المعركة بمثابة تعزيز للدين الجديد تكرر بتأييد الله للمسلمين وإرساله ألف ملاك للقتال إلى جانبهم:

«إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم ففتبوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الاعناق وأضربوا منهم كلّ بنان. ذاك بأنهم شاقوا الله ورسوله، ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب. ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار». (٨: ١٢ - ١٣).

هل انتقل ذلك بعد ١٣٦٤ سنة إلى فكرة قوامها ان الصبي تيمور كافر تزيقه ملائكة حزب البعث عقاب النار؟ ميشيل عفلق مؤسس حزب البعث، كان وضع نظرية منذ خمسين سنة، تعتبر ان ثورة حزب البعث العربية هي إستعادة معاصرة للثورة الإسلامية، وبرهانه على ذلك أن نزول القرآن بالعربية لم يكن صدفة، وكذلك ليس صدفة أنه تنزل على عربي. تيمور ليس عربياً، إنه كردي لم يكن يتكلم العربية عندما أخذه من قريته سنة ١٩٨٨. وفي مطلق الأحوال ليست هذه كل القصة. «يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين». (٨: ١). ف الأنفال تعني الغنائم في الحرب، وقد كان الهدف الأصلي لمحمد من وقعة بدر مهاجمة قافلة يقودها ابو سفيان ابن حرب سيد بني أمية، والتي كانت في طريق العودة إلى مكة من سورية وهي محملة بالبضائع الثمينة. وتنزلت سورة «الأنفال» لإرساء القوانين التي ينبغي بحسبها توزيع غنائم الحرب من هذا النوع بين المسلمين، الذين صودرت ممتلكات عدد كبير منهم في ملّة لالتحاقهم بالديانة الجديدة. وكان غرض

محمد تحاشي الخلافات والتساؤلات التي تثيرها مسألة الغنيمة بين المقاتلين المسلمين، وهكذا جرت إعادة تنظيم التقاليد العربية القبلية الخاصة بالغزو، وقدمت لها تبريرات جديدة:

«تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم.
لولا كتب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم.
فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله ان الله غفور رحيم» (٦٧: ٨ - ٦٩).

وبحسب تأويل حزب البعث للسورة الثامنة من القرآن، فإن القرية التي جاء منها تيمور والمواشي التي ربتها عائلته، ومؤونة الحبوب التي كانوا خزّنوها، وكل ممتلكاتهم هي، بكلّيتها، بتصرف الحكومة المركزية في بغداد. لكن حكم القرآن، وحكم ما بعده، في شأن الغنيمة، يطبق فقط في حالة الجهاد وحتى في تلك الحالة فإنه لا يجوز للمتصرف حزية من هذا النوع. بيد ان استخدام حزب البعث لذلك الحكم قصد إلى إعتبار ان كل ما هو داخل المنطقة التي تغطيها «عمليات الألفال البطولية» جائز ومحلل دينياً، أي أنه «حلال» للجيش العراقي. فهل كانت أيضاً أرواح الرجال والنساء والأطفال الأكراد في القرى «المستولى عليها»، هي أيضاً حلال للجنود والضباط العراقيين؟^(٦)

كنت قد سمعت بعض القصص الغريبة قبل دخولي شمال العراق. سمعت مثلاً عن نسوة كرديات كن يعين في أسواق النخاسة المنتشرة في المنطقة حتى الخليج. كردي أعرفه تلقى رسالة في نيسان/ أبريل ١٩٨٩ من صديق له كان يقود شاحنة بضائع بين عَمَّان وبغداد. أثناء قيامه بأحدى رحلاته، تعطلت شاحنته قرب بلدة الرمادي، وبينما كان ينتظر إصلاح عطلها، إقتربت منه امرأتان والتمستا نقلهما إلى السليمانية. ولإدراكه أنهما كرديتان مثله، جعل يحادثهما ليكتشف أنهما إعتقلتا أثناء عمليات «الألفال» سنة ١٩٨٨، وباعهما ضابط في الجيش غير رفيع الرتبة، إلى شيخ قبيلة محلية في محافظة الأنبار. السائق رفض طلبهما، وكتب الرسالة لأنه كان يشعر بالخجل من نفسه.^(٧)

وبين وثائق الإستخبارات، حصلت على نسخ بينها لائحة بأسماء أشخاص جرى إعدامهم بين الأول من شباط/ فبراير و٢٤ آب/ أغسطس ١٩٨٩. فقد جرى إعدام خمسة أشخاص في ٤ آذار/ مارس، و٢٤ شخصاً في ٣٠ أيار/ مايو، إلخ. وكان يُرفق كل إسم بملخص لقضيته. لا شيء في الظاهر غير إعتيادي بشأن ذلك. كانت اللائحة مغلفة برسالة تغطيها، تحمل إشارة «سري وخاص»، وهي مؤرخة في ٢٤ آب/ أغسطس ١٩٨٩ وصادرة عن مكتب رئيس جمهورية العراق. في رأس الصفحة حُطت البسمة بحروف كوفية متقنة. وقد لفت انتباهي اسم دلشاد محمد أمين فتاح وهو كاتب ومثقف

كردى، جاء ترتيبه الخامس والثلاثين في اللائحة. أما ملخص قضيته فالآتي: «إن هذا الجرم المسمى هنا كان معلماً في ثانوية شورش للفتيان بالسليمانية، وكان يعلم اللغة الكردية وبالأحرف اللاتينية، مستخدماً الأفكار الشوفينية والإنفصالية التي يؤمن بها». دلشاد فتاح كان يعلم الكردية (وهذا مقبول) ولكن بالأحرف اللاتينية (وهذا غير مقبول لأنه كان ينبغي أن يستخدم الحرف العربي). لهذا السبب أعدم رماً بالرصاص. لكن كان هنالك على الأقل ثمة سبب لإعدامه، إذ أن مجرد وقوع ذلك تحت إسم «الأنفال» كان يلغي الحاجة إلى إيجاد أسباب من هذا النوع.

من جهة أخرى، فهامش المعنى الذي يكتسبه إسم ما، منوط بما تتيحه له الثقافة السائدة. فالأسماء لا تكتسب معاني من ذاتها، ولهذا فإسباغ المعنى يستدعي مشاركة الكثيرين من الناس في ذلك.

والامرأتان اللتان ذكرتا في الرسالة التي أشرنا إليها سابقاً، كان قد باعهما ضابط إلى شيخ لم تكن لديه مطلق علاقة بالجيش. وخلال السنوات الثلاث التي أعقبت حملة الأنفال، تداول على هاتين المرأتين، من غير شك، عدد كبير من الرجال، وربما ذلك أيضاً عبر قوادين. فهذا كان ما لا بد منه لتصل النساء الكرديات إلى «حريم» القرن العشرين، عند الحكام أصحاب الثراء الفاحش. المسألة لا تتعلق هنا بمسألتي الفساد المخيف والإجرام فحسب، بل تتعلق باستخدام سلطة الماضي المستعادة للتصرف بمصائر الناس في الحاضر. وهذا أسمى كثير الشيوع في القومية العربية أو السياسات الإسلامية للقرن العشرين.

كان الإيديولوجيون البعثيون الشطار قد قاموا «بفرضهم المدرسي» حين إختاروا الأنفال، كاسم شيفرة لعملياتهم في كردستان العراقية عام ١٩٨٨. «فليشهد عليّ الله، إن ما جرى (احتلال الكويت) هو من مشيئة الله، لا مشيئتنا نحن»، هكذا قال صدام حسين محضراً قاداته العسكريين في كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٠ «لأم المارك». «وأحد الأمور المضحكة والتي ينبغي أن تعرفوها، أمر كنت اكتشفته فقط نهار أول من أمس، وهو أن شعار حزب بوش هو الفيل. ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل؟»، أعني عندما سمعت هذا...، وَخَفَّتْ ببطء صوت صدام ليصمت كلياً وكأنما أذهلته إلى أقصى الحدود التضمينات الرائعة للآية القرآنية التي كان إستشهد بها. تبع ذلك خمس عشرة دقيقة من الصمت وكان أحد أكبر القادة العسكريين في العراق يتعم في الخلفية آيات من القرآن بصوت بالكاد مسموع. قال قائد آخر بصوت مرتفع «إنها مشيئة الله». وتستمر التمتعة في نبرة من العجب والذهول^(٨). بقية السورة ١٠٥ من القرآن والتي لم يكن على صدام أن يستشهد بها كلها، لأنها كانت معروفة جداً لدى كل المجتمعين، تروي ما حلّ بأصحاب الفيل:

«ألم يجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم طيراً أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول». (٢: ١٠٥ - ٥).

قبل مجيء الإسلام، وفي يوم مولد النبي محمد، أنقذت مكة بمعجزة من غزو الأحباش. فالطيور الأبابل المرسلة من عند الله افنتهم، وهم الذين أتوها راكبين القيلة، بحجارة من سجيل كانت ترسلها من مناقيرها. جورج بوش وجيشه المؤلف من ٥٠٠ ألف أميركي كانوا سيلقون المصير نفسه، هكذا كان صدام يقول لقادة جيشه في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٠ لكن المحزن في الأمر هو نجاح ذلك النوع من التخيل والصور في التأثير على أكثرية العرب خلال أزمة الخليج، وضعف مقاومة هذه الأخيصة والصور من قبل المثقفين الذين يعرفون أكثر^(٩). ففي الشرق الأوسط نادراً ما يكون الماضي مجرد ماضٍ. إنه معلق كحجر الرّحي حول أعناق الجميع، على شكل حافظ وأداة تشريع تجيز الحاضر.

كيف تتصاعد القسوة

إن حملة الأنفال لم تطلع هكذا من لا مكان. لقد كانت حصيلة لسياسات متبعة حيال الشعب الكردي في العراق، يعود تاريخها إلى إتفاقية الجزائر في ١٩٧٥، وحصيلة لتعيين موقع أول مساحة من الأرض كان «سيحظر» فيها مطلق وجود بشري، في سنة ١٩٧٦، وقد جرى بموافقة إيرانية، إخلاء نطاق يتراوح عرضه بين الخمسة والعشرة أميال وعلى طول الحدود العراقية - الإيرانية. ودُمّر جميع القرى الواقعة داخل ذلك النطاق بلا إستثناء، كما جرت إلى ذلك إعادة توطين سكان القرى في «مجمّعات سكنية» صممتها الدولة، وتقع في ضواحي المدن الكبرى (وكانت كلمة مجمّع شائعة بين الأكراد الذين لا يعرفون العربية)، إلا أن التعويضات كانت تدفع غالباً أبان تلك المرحلة، لربما تحسنت ظروف عيش بعض العائلات بنتيجة ذلك. كانت تعقد أحياناً لجان تخمين ليجري تقييم أسعار الممتلكات المصادرة وتحديد التعويضات، وكانت نسبة المبلغ المدفوع، كما أخبرني الأكراد، تتوقف على الموقع السياسي لكل من العائلات. لكن هذا لم يكن يطبّق بطرق فورية وعلنية. كان يمكن على سبيل المثال أن يكون التعويض المدفوع لعائلة تملك منزلاً مع بستان فاكهة، خمسة آلاف دينار. ولكن إن عُرف عن عائلة ما تعاطفها مع الحركة الوطنية الكردية، ارتفع السعر ليصل أحياناً إلى خمسين ألف دينار. كان النظام يحاول في الواقع رشوة أولئك الأشخاص كي يتخلوا عن ولاءاتهم السياسية، وفي مرحلة الدفع كانت كل عائلة تحصل على حصتها، لكن رئيس القبيلة كان ينال حصّة الأسد. (استخدمت وسائل شبيهة ونجاح مع رؤساء القبائل الشيعية في جنوب العراق خلال

الحرب العراقية - الإيرانية). علاوة على ذلك فإن سياسات الإخلاء لم تختبر فقط أولئك الأكراد الذين حاربوا ضد الحكومة، أو أولئك المتعاطفين مع المعارضة الكردية، بل شملت أيضاً قرى زعماء قبائل «الجحوش» الذين سبق لهم ان قاتلوا إلى جانب النظام ضد الأكراد خلال ثورة ١٩٧٤ - ١٩٧٥.

وبين الأشكال الأخرى لأساليب الإقناع التي استخدمها النظام، إرسال شخصيات كردية مرموقة للتحدث نيابة عنه فوزير الشؤون الاجتماعية الكردي، وهو أصلاً من قالادزا، كان كما يبدو رجلاً محبوباً جداً، وكانت السلطة ترسله ليقنع الناس بترك قراهم، خلال النصف الثاني من السبعينات. كان يخاطب الناس قائلاً: «سوف يحاربونكم ان امتنعتم عن المغادرة، وسوف تتعرضون للأذى. وإن بقيتم في قراكم، فسوف ينتهي بكم الأمر متخلفين عشر سنوات عن الزمن». كان هذا الوجه المهم واحداً من الأكراد الكثيرين المؤيدين للحكومة، والذين كانوا يرسلون لغرض إقناع الناس بالتخلي عن بيوتهم. كانوا يرسلون أيضاً من أجل القيام بتلك المهمات شيوخاً، وأنماطاً أخرى من الزعماء الأكراد.

بعد هزيمة تمرد ١٩٧٥، لم تعد لدى الأكراد خيارات كثيرة، لكن الجهود التي بذلها النظام أساساً لإعادة توطين الأكراد، جديرة بالذكر، حتى في تلك الظروف، وتحديداً بسبب التبدل الذي سيطر على أحوالهم خلال الثمانينات. فمن ترسلهم الحكومة لإقناع الناس كانوا يقضون عدداً من الأسابيع محاولين التملق، وكان الجيش يدخل فقط بعد انتهاء مهمتهم. وهذا مختلف تماماً عما حلّ بقرية عبدالله العسكري، غبطة في نيسان/أبريل ١٩٨٨.

ليس في المقدور اعتماد أرقام يُعَوَّل عليها، في ما يختص بعدد الأشخاص الذين تعرضوا لإعادة التوطين أو الترحيل بالقوة خلال السبعينات، لكن صحيفة الحكومة العراقية الرسمية «الثورة»، اعترفت في العام ١٩٧٨ بأنه جرى ترحيل ١٥٠ ألف شخص خلال فترة شهرين^(١٠).

الحالة الكلاسيكية في مسألة إعادة التوطين الجبرية خلال تلك الفترة، هي قضية عشيرة برزاني في منطقة باينان في شمال العراق. فالبعث لم يحاول حتى ان يرشيها للخروج، بل إختار بدل ذلك ان يجعلها مثلاً. كان البرزانيون قد أعيد توطينهم في ظروف يرثى لها، ظروف شبيهة بالتي تعرفها غيتوات الأقليات في المدن، والغيتو، هذه المرة، في ١٩٧٦، كان في جنوب العراق.

مكثوا هناك حتى ١٩٨١، السنة التي نقلوا فيها من جديد ليوطنوا في معسكر خارج

أربيل يدعى غشتابا. ومن بين العدد الأصلي للعشيرة والبالغ خمسين ألفاً لم يبق إلا عشرون ألفاً أو ثلاثون. وعام ١٩٨٣ قام برازان التكريتي، وهو ممثل العراق لدى الأمم المتحدة (والذي شارك في لقاءات مع لجنة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان) ببعية وطبان شقيق صدام من أبيه، بقيادة فرقة من المخابرات ووحدات خاصة من الجيش وجمعوا عدة آلاف من رجال المعسكر، ومن الفتيان الذين تفوق أعمارهم الـ ١٢ سنة. لقد روى لي شاهد عيان، أنهم إقتادوا أولئك الرجال باتجاه الجنوب في قافلة من الشاحنات شوهدت للمرة الأخيرة في ضواحي بغداد، ثم «إختفوا» رسمياً. آلاف عدة من الأسماء أودعت أدرج الأمم المتحدة، وهي لا تزال، منذ عدة سنوات، على هذا النحو.

لكن الساعات القلائل التي قضيتها في غشتابا خلال رحلتي في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩١ تركت في داخلي شعوراً بأن المأساة الحقيقية في ما حدث هناك تكمن في مصير الأحياء، وليس الأموات. لقد جرى تطويق الخيم بالأسلاك الشائكة بعد فترة قصيرة من إعتقال الرجال، وأصبح سكانه يتعرضون لإهانات يومية من وحدات الجيش التي تحيط بهم. قطعت أيضاً الكهرباء، ومنع أي إتصال بالعالم الخارجي، وبات ينبغي حمل الماء ونقله في صفائح رخيصة متداعية تحمل على الرأس بالطريقة التقليدية. وكان الجنود يسددون عن قرب طلقاتهم نحو تلك الصفائح، بحسب ما ذكرته إحدى النساء، أو يدلقلون عامدين محتوى الصفيحة بعدما تكون المرأة أنجزت كامل الرحلة ذهاباً وإياباً.

كان الجيش والحزبيون ينتهكون كل القواعد والأصول. كانوا يقتصبون النساء ويجبرونهن بالقوة على ان يصبحن خليلاتهن. أحد الرجال قال لي: «إنهن يفصلن الانتحار على التحدث بشأن تلك الأمور». كان هناك أطفال صغار وأولاد دون التاسعة يجوبون المكان، لكن بدا من غير المعقول ان يكون أبائهم أكراداً. الروابط الأخلاقية بدأت تتحطم داخل العائلات، التي كانت قد فقدت كل رجالها. بعض الذكور الذين نجوا بحياتهم من العمليات (لأنهم كانوا في الخارج مسافرين أو كانوا في التلال) قرروا التنكر لأواصر القربى التي تربطهم بسكان غشتابا. جعلوا مثلاً يتوقفون عن إرتداء غطاء الرأس البرزاني الأحمر المميز، مستبدلينه بالنسخة السوداء الأكثر وقاراً.

أولئك الرجال لحق بهم العار، وقد جعل عارهم ضحايا حزب البعث منبذين أكثر وأكثر، وأصبحت غشتابا مصدراً للبغايا يذرعن شوارع أربيل، وحتى بغداد، ممارسات مهنتهن. هكذا اكتمل إنتقام حزب البعث من عشيرة البرزاني التي قادت حركة التحرير الكردية الوطنية.

حين تمشيت حول الخيم، بعد ان إنتشر الخبر بأننا أتينا لنعاين ما جرى هناك، بدأت

النساء والأولاد يتدفقون من منازلهم. جاؤوا حاملين صوراً عن آباء مفقودين، وإخوة وأعمام وأولاد عم. وفي تلك اللحظة، وفيما الحشود من حولي تتدافع، شعرت بخجل عميق وغير قابل للتفسير، خجلت من أنني ولدت في العراق.

وأهمية غشتابا تكمن في انها كانت ثوب تمرين لما سيجري لعدد أكبر بكثير من الأكراد، وذلك منذ بدء التحرك حتى حملة الأنفال في ١٩٨٨. فالوحشية المتعاطمة في المجتمع العراقي بأكمله والتي سببتها الحرب العراقية الإيرانية، يمكن رؤيتها في تحول سياسة الحكومة العراقية تجاه سكانها الأكراد خلال الثمانينات. ففي ١٩٨٢ بدأ النظام برحل الناس بالقوة من مناطق خارج الطوق الأمني المرتبط باتفاقية الجزائر (وبات على الناس إخلاء القرى والبلدات وحتى «المجمعات السكنية» المبنية في السبعينات). وحتى لو كانت تدفع لهم التعويضات، وكان هذا نادراً، فقد بدت المبالغ المدفوعة ضئيلة. والظاهر ان فكرة الحكومة كانت العمل على التقليل من فعالية أي مكسب جغرافي تحققه إيران داخل العراق وتقليصه إلى الحد الأدنى. من هنا، وعلى سبيل المثال، إن استطاعت إيران إحتلال شوارتا بعد تفريغها، فسوف لن تكون العواقب السياسية والسيكولوجية الناتجة عن ذلك وخيمة جداً.

المستوطنات الجديدة بدت، بدورها، أشبه بأبنية ضخمة إسمنتية، وكانت في الأغلب متاخمة لقواعد عسكرية، ولم تكن تحتوي أي سبب من أسباب الراحة. لقد قُطع الأكراد عن كل ما يمت بصلة إلى أسلوب حياتهم ولم يكونوا راغبين في الانتقال إلى هناك، وغالباً ما كانوا ينسلون عائدين إلى قراهم ليبدأوا بناءها من جديد.

السابقة الفورية الأقرب إلى الأنفال، بحسب وثائق الشرطة السرية التي إستولت عليها المنظمات الكردية خلال إنتفاضة آذار/ مارس ١٩٩١، هي إزالة القرى الكردية التي كانت قد بدأت جدياً عام ١٩٨٦. ففي واحدة من تلك الوثائق المؤرخة في ٢٦ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٦، جهّزت الإستخبارات في السليمانية، انطلاقاً من أمر تلقته من وزارة الداخلية في بغداد، لائحة بـ ٦٦٣ قرية «محظورة أمنياً». وهذه كانت أيضاً الفكرة من وراء إنشاء طوق أمني بعرض يتراوح بين الخمسة والعشرة أميال على طول الحدود مع إيران في عام ١٩٧٧. بيد أن مساحة الأرض التي شملها الحظر تعاطمت إلى حد كبير. ويشير التقرير الخارجي المرفق باللائحة كيف انه جرى قطع الكهرباء عن تلك القرى، وأبعدت كل المواشي، ومنعت كلياً كل عمليات التبادل التجارية داخل القرى المحظورة وما بينها. إلا ان كاتب التقرير أشار أيضاً إلى أن ذلك لم يكن كافياً: «على الرغم من فرض الحظر الاقتصادي، إلا ان بعض أنواع الطعام الضروري كانت تصل، إذ ان

الطرق المؤدية إلى تلك القرى ليست مراقبة بشكل فعال. وبالنظر إلى طبيعة الأرض، فإن هناك أكثر من طريق ثانوية، وهذه الطرق عملياً مفتوحة. ويقترح التقرير تضيق الحصار وتعزيزه.

مع بداية ١٩٨٧ بدا واضحاً ان الحكومة كانت تقوم بأكثر من تضيق الحصار. كنت تفحصت دفتر حصلت عليه من بناء كان سابقاً مديرية الأمن المركزية في السليمانية. كان حجم الدفتر عادياً، وكان مغلفاً بعناية بورق تغليف زهري اللون، وعلى ورق الغلاف تصوير كاريكاتوري لوردة البتونيا باللون الأبيض. تغليف الكتب على هذا النحو، كان من ضمن الأمور التي كنا نحب ان نفعلها ونحن تلامذة صغار في بغداد، بهدف «شخصنة» كتبنا ودفاترنا. وربما خالغ الموظف الذي احتفظ بهذا الدفتر الشعور نفسه، فهو اختار أيضاً قلماً قرمزيّاً، وأسلوباً في الخط مناسباً، لتمييز محتويات دفتره التي أجزها على ورقة بيضاء مربعة ألصقها على الغلاف: «سجل القرى المزالة».

كان مجموع القرى المذكورة في لوائح الدفتر ٣٩٩ قرية. وكانت التواريخ التي تحدد زمن إزالة تلك القرى - كلها في ١٩٨٧ - مخطوطة بعناية إلى جانب كل اسم، وإلى جانب كل تاريخ كانت هناك إحدائيات من الخارطة تشير بالتحديد إلى موقع كل قرية. والقرى جميعها تقع في المقاطعات الشرقية الأربع في شمال العراق.

كان يبدو ان ذلك السجل هو واحد من سلسلة، كل جزء فيها مخصص لبقعة جغرافية مختلفة من كردستان، ولم يكن أي من القرى المذكورة في الدفتر الزهري المزين بالورود ضمن لائحة ١٩٨٦ التي تتضمن أسماء القرى «المحظورة أمنياً». غير اني مقتنع، من مجموع الدلائل، ان تلك القرى «المزالة» كانت بالفعل قد اعتبرت من قبل «محظورة». (هناك برقيات وملفات ومخطوطات وأوراق أخرى تؤلف وثائق حملة الأنفال لا تزال بحاجة إلى تجميع وتفحص على نحو دقيق وصحيح، وحتى ذلك الوقت، لم يكن في المقدور درسها بتعمق ومنهجية. كنت رأيت لأول مرة بعض الوثائق في لندن في آب/ أغسطس ١٩٩١. في شمال العراق، لدى كل من المجموعات الثماني الرئيسية التي تؤلف الجبهة الكردستانية، ممتلكاتها الخاصة من هذه الوثائق، ومجرد القيام بالمرور على كل تلك الدلائل، يستلزم سنوات، هذا ان إفرضنا انه في الوسع جمعها وأرشفتها من أجل الدراسات العلمية، وفي مناخ أكاديمي لا تشوبه مطلقاً اعتبارات سياسية أتية. وانطلاقاً من فرصة مؤاتية وجديرة برعاية كهذه، أعتقد أنه، في يوم من الأيام، لن يكتب فقط تاريخ فريد واستثنائي، بل أيضاً دراسة شاملة في أساليب عمل دولة بوليسية عصرية).

خلال إقامتي في العراق لم استطع العثور على أية وثيقة تعلن عن بداية حملة الأنفال. لكن توجد في حوزتي نسخة عن قرار موقع من صدام حسين، يقدم الأساس القانوني لتلك العملية. وقد يكون هذا القرار كافياً، إن جرت في مطلق يوم من الأيام محاكمة القيادة العليا لحرب البعث، تهمة القيام بجرائم ضد الإنسانية.

القرار مؤرخ في ٢٩ آذار/ مارس ١٩٨٧، وكان قد صدر عن مجلس قيادة الثورة وهو المصدر الأعلى للقرارات في هيكلية النظام، ويسيطر عليه صدام بإحكام، فيما قراراته تنفذ فوراً. والقرار يمنح ابن عم صدام، وعضو مجلس قيادة الثورة علي حسن المجيد - أصبح في وقت لاحق وزير الدفاع العراقي - السيطرة الكلية على شمال العراق، إضافة إلى كردستان العراقية. وتلك السيطرة تشمل كل المؤسسات المدنية والعسكرية والأمنية، وتستطيع تعليق كل القوانين التي يمكن ان تتعارض مع مضمون هذا القرار، «حتى إشعار آخر»^(١١).

مستخدماً السلطات التي منحه إياها القرار، بدأ علي حسن المجيد بإزالة القرى، تلك المعروفة بنضاليتها، وعلى الأخص تلك التي كانت في السابق ملجأ لرجال البشمركة. وأول قرية كردية تعرضت لهجوم بالأسلحة الكيميائية (ان إستينيا النابالم) كانت قرية شيخ وسان في وادي باليسان. فقد قصفت في نيسان/أبريل ١٩٨٧، وشاهدت بنفسي بقايا علييات الغاز الكيميائي الصدمة حين زرتها في تشرين الثاني نوفمبر ١٩٩١، وتحديث مع القرويين في ما حدث. الدكتور جعفر وهو طبيب كردي كان يعمل آنذاك في الاستخبارات العسكرية في المستشفى الجمهوري بأربيل، كان شاهداً على ما حلّ بالناجين الجرحى من ذلك الهجوم بالذات.

«كانوا أحضروا أناساً من المنطقة إلى المستشفى الجمهوري بسيارات خاصة. عدد المصابين فاق الـ ٣٨٠ بينهم عجايز ونساء وأطفال، وكانوا كلهم قد أصيبوا بالأسلحة الكيميائية. وضعوهم داخل جناح كبير وأمرت الدولة الأطباء بالامتناع عن معالجتهم. أبقوهم فقط تحت المراقبة ومنعوا أيّاً كان من الإقتراب منهم. أبقوهم يوماً واحداً في ذلك المستشفى، وفي الليلة التالية نقلوا إلى السجن، وهو بناء آخر كبير في أربيل. ظلّوا هناك بضعة أيام حملوا بعدها إلى مكان مجهول. كان ثمة شخص يعيش قريباً من السجن، قال انه رآهم يخرجون أولئك الأشخاص ليلاً ويدفونهم أحياء»^(١٢).

حمأة كاملة من الهجمات المتزايدة الوحشية - كانت تستخدم في بعضها الأسلحة الكيميائية وفي البعض الآخر قنابل إغتيادية - تالت في وقت لاحق من تلك السنة

بالذات. هرب الأكراد إلى المدن، وفروا أيضاً إلى إيران، غير أنه لم يكن قد جرى بعد تطويقهم بشكل منظم لينقلوا إلى حصون كانوا يبادون فيها. هذا حدث لاحقاً. كانت لا تزال هذه فترة إختبار وتجارب لإستراتيجيات مختلفة. ولكن لم يُعر العالم العربي أي إهتمام لمعرفة ماذا كان يُفعل باسمه، فإن بعض الدبلوماسيين الغربيين كانوا يعرفون بالتأكيد، وعلى رغم ذلك لم تقم حكوماتهم بأية خطوة البتة لإعلام بقية العالم. أحد الدبلوماسيين الغربيين، الذي كان زار شمال العراق في صيف ١٩٨٧، أعلن ان هناك عملية جارية لإزالة القرى وإعادة توطين مئات الآلاف من الأكراد: «ثورة ديموغرافية جرت أمام أعيننا في الأشهر الستة الماضية».^(١٣) أما الدور الذي لعبه علي حسن المجيد في كردستان أواخر الثمانينات فيمكن ان نستدل إليه على أحسن ما يكون بالأنقلاب التي راح يطلقها عليه الأكراد فيما بينهم. لقبوه أولاً «علي الكيمياتي»، ولاحقاً إشتهر أكثر بلقبه الآخر «علي أنفال».

لا يبدو ان لقب «الأنفال» إستخدم كتسمية لأي من عمليات علي حسن المجيد في شمال العراق قبل شباط/ فبراير ١٩٨٨. وأعتقد ان القرار الرئيسي بمضاعفة حدّة العنف المستخدم ضد القرى الكردية، كان اتخذ في وقت ما بين أواخر ١٩٨٧ وبدايات ١٩٨٨. فيما أطلق على قرار التصعيد اسم شفري هو «الأنفال».

لم يكن ثمة ما هو سرّي في ان شيئاً ما جديداً يجري، لأنه طوال ١٩٨٨ كان العراقيون يسمعون، مراراً وتكراراً وفي كل وسائل الإعلام الرئيسية الواقعة تحت سيطرة الدولة، كلاماً عن «عمليات الأنفال البطولية». شورش رسول الذي أمضى في دراسة حملة الأنفال وقتاً يزيد عتاً أمضاه أي شخص آخر أعرفه، يعتقد ان عملية الأنفال الأولى بدأت في الثانية من ليل ٢٢ - ٢٣ شباط/ فبراير ١٩٨٨ في قرية ياخ سيما قرب السليمانية، وتوالت الهجمات طوال صيف ١٩٨٨، لتنتهي في أواخر آب/أغسطس أو بداية أيلول/سبتمبر. وفي أذهان معظم العراقيين، بمن فيهم الجنود السابقون الذين كنت تحدثت إليهم، أن عمليات الأنفال قادها الفيلقان الأول والخامس في الجيش العراقي، مصحوبين بمئات الآلاف من وحدات «الجحوش» الكردية المساعدة. وبحسب الاعتقاد الغالب، كانت جزءاً من المجهود الحربي العام ضد إيران. ولكن في الواقع كان ما يجري حملة ضخمة ومنفصلة - حملة كانت موجهة كلياً ضد الأكراد المسلمين، وكان بعض الناس يعرفون بالتأكيد ما يجري تحديداً.

بعد وقت قليل من انتهاء حرب الخليج أمضى جمال (اسم مستعار) بصحبة زوجته، وجمال اختصاصي بغداددي من عائلة مرموقة وفي مطلع ثلاثيناته، عشية مع صديق

حميم هو طارق (وهذا مستعار أيضاً) وزوجته. وسرعان ما بدأ الأربعة يتحدثون عن النظام. وفجأة شرع طارق يتحدث عن أمر رهيب كان إبن عمه الضابط في أمن الدولة متورطاً فيه. كان الضابط هذا قد عمل لأمن الدولة في المنطقة الشمالية طوال عشر سنوات، قضى معظمها في مدينة الموصل. وتبعاً للثقة بينهم، روى طارق كيف ان إبن عمه عزيز علم بأمر حكومي قضى بقتل ٢٢ ألف كردي. كان واضحاً، بسبب ضخامة العدد، أنه كان ينبغي القيام بعملية القتل تلك بطريقة خاصة. وما رواه عزيز، أنه عندما نفذت السلطات عملية الإبادة تلك، وضعت الضحايا في حفر ثم غطت الجثث وطمرتها.

كان عزيز نفسه قد قام بقتل أشخاص، على الرغم من ان عدد من قتلهم، أو دوره بالتحديد في تلك العملية بالذات، لم يجر التحدث بشأنهما. كذلك روى طارق حادثة كان أخبره بها عزيز، وهي أن جندياً إرتجفت يده ورفض إطلاق النار على الأكراد، فقام الضابط أمره بتهديده أولاً، ثم طلب من جندي آخر ان يطلق النار على زميله المعاند. وبدوره رفض الجندي الثاني الأمر. وبعد التشاور مع قيادته، أطلق الضابط المسؤول النار على الرجلين وقتلها هو بنفسه.^(١٤)

في حصيلتها، تسببت حملة ١٩٨٨، حملة الأنفال، بتدمير ١٢٧٦ قرية، حسب تحليلي للمصادر الكردية. وينبغي مقارنة هذا بالقرى التي يقل عددها عن اثنتي عشرة، والتي أزيلت بين ١٩٦٩ و ١٩٧٤، وهو عدد تفاقم ليصبح ١١٨٩ خلال السنوات الخمس التالية. وفي المجموع وحسب هذه المصادر، جرى تدمير حوالي الـ ٣٥٠٠ قرية منذ ١٩٦٨ (تقريباً ٨٠ بالمئة من كامل مجموع القرى الريفية في كردستان العراقية).

كيف يمكن ان يفهم المرء أرقاماً كهذه؟ فإسرائيل داخل حدودها ما قبل عام ١٩٦٧، كانت أنشئت على آلام الفلسطينيين ممن «أزيلت» لهم ٣٦٩ قرية. إذن كم حجم الألم الجماعي حين تكون النسبة أكبر عشرات مرات؟ لا أعرف الجواب. وبالفعل ليس هناك جواب عن سؤال كهذا. فالألم، شأن القسوة، ليس أبداً نسبياً، وليس بالإمكان قياسه بالكمية.

على أية حال يتوجب على أولئك العراقيين والعرب الذي ظلوا صامتين، بينما كان يجري كل ذلك، التزام عهد أخلاقي بالتأمل طويلاً في ما يعنيه كل هذا.

غير أن السمة المميّزة في حملة الأنفال، لم تكن إزالة القرى، إذ ان ذلك كان يجري منذ وقت طويل في العراق، كما حاولت ان أظهر. السمة المميّزة هي في التنظيم البيروقراطي والإدارة التقليدية الروتينية لعمليات الإبادة الجماعية لسكان القرى، وليس

لسبب سوى مصادفة أنهم يعيشون في منطقة كانت صُنفت آنذاك «محظورة أمنياً». ومنطلق البيروقراطية هنا يميز بين حملة مثل الأنفال، وجريمة حرب مثل حلبجة، أو إعدام كردي كمعارض سياسي للنظام، كائناً ما كان تفسير ذلك (في هذه الحالة بالذات، ليس مهماً ما إذا كان المتهم مناضلاً سياسياً، أو لا). فبحسب ما أعلم لم توجد في تاريخ العراق الحديث إبادة جماعية نظامية ومنظمة من هذا النوع، قبلاً.

ولربما كان أفضل وصف لعملية الأنفال النموذجية ما يقدمه النظام بالذات. تقول رسالة كانت طبعت بالآلة الكاتبة، صادرة من قبل الرئاسة وعليها شارة «سري وخاص»، انه أُلقي القبض على ٢٥٣٢ شخصاً و١٨٦٩ عائلة، خلال «حملة الأنفال البطولية»، وأرسلوا إلى «مخيّم»، لم يذكر موقعه. أمّا بالنسبة إلى مصرير أولئك الذين اعتقلوا وسجنوا، فإني أنقل هنا عن تسجيل صوتي لمحضر لإجتماع بين قياديين عسكريين ومسؤولين بعثيين وضباط من الاستخبارات كان عقد في ٢٦ كانون الثاني/يناير ١٩٨٩ في كركوك، وهي المدينة الكردية في شمال العراق. والشرط المسجل الذي كنت استمعت إليه بينما كنت لا أزال في العراق، ينقل كلام علي حسن المجيد وهو يتحدث بلهجة تكريتية فجّة (وهو مثل صدام من بلدة تكريت) عن الأكراد الذين انتهى بهم الأمر في حصون كحصن كوراتو:

«الاهتمام بهم يعني دفنهم بالجرفات، هذا ما تعنيه كلمة الاهتمام بهم... هؤلاء الأشخاص سلّموا أنفسهم. هل يعني ذلك ان عليّ ان أبقّيهم أحياء؟ أين سأضع هؤلاء الناس، إنهم كثيرون؟ لذلك بدأت بتوزيعهم على المقاطعات. ومن هناك جعلت الجرفات تروح وتجيء بلا توقف».

كم كان عدد الأكراد الذين قتلوا ودفنت جثثهم في مقابر جماعية؟ خلال إقامتي التي دامت ثلاثة أسابيع في كردستان، كان يبدو ان لدى كل شخص قصة عن فرد ما من عائلته «ققد» في الأنفال. ولديّ لائحة بما يقارب الـ ١١,٠٠٠ اسم كانت أعطيت لي بين لوائح كثيرة أخرى. ان الرقم الذي قدّمه الزعماء الأكراد وهو ١٨٢ ألف قتيل فلا تدعمه لوائح ولكنه يقوم على تقديرات إستقرائية مصدرها القرى الريفية التي جرى تدميرها. وعندما سألت محمود عثمان زعيم الحزب الاشتراكي في كردستان عما يعتقد انه يمكن ان يكونه مجموع عدد الأموات والمفقودين، أخبرني عن لقاء حضره في أواخر ربيع ١٩٩١، وضم زعماء أكراد مع مسؤولين حكوميين حيث جرى التفاوض مرة أخرى - هذه المرة كان الاجتماع في أعقاب نهاية حرب الخليج والإنفاضة التي تبعت

ذلك تَوْأ - حول مسألة الحكم الذاتي الكردي. إبان ذلك اللقاء كما يذكر عثمان، طرح المندوبون الأكراد مسألة الأكراد المفقودين: لربما كانوا لا يزالون على قيد الحياة في مخيمات، في مكان ما من الجنوب؟

كان علي حسن المجيد حاضراً في الاجتماع، وبحسب ما ذكره عثمان أعلن المجيد عن استيائه لدى طرح موضوع محاصرة الأكراد خلال حملة الأنفال. فهو «استشاط غضباً، وأغلق الملف أمامه بعنف وكأنا ليندفع خارجاً من الغرفة». ثم وكأنا بهدف وضع حد لكل الكلام بشأن الحملة، صرخ المجيد: «ما هذه المبالغة في القول ان الرقم يبلغ ١٨٢ ألفاً؟ العدد لا يتعدى المئة ألف».

اللقاء الأول مع الأنفال

وصلت إلى فندق بغداد في زاخو من الحدود التركية حوالى الثامنة والنصف من صباح ١١ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩١. زاخو بلدة حدودية بكل معنى الكلمة. والولاء في هذه البلدة التي يبلغ عدد سكانها ١٢٥ ألف شخص لن يكون علنياً البتة، وقد جرى تعميم النصيح بأخذ الحيطة. وفيما كان يمكن ان ترتفع حمى المنافسة بين الأحزاب الكردية، كان العملاء السريون العراقيون بين الأكراد مندسين في كل مكان. وبعد وقت قصير على مغادرتي البلدة قام مسلح مجهول بإطلاق النار على سيارة عميل سابق مرتدّ وقتل حراسه الثلاثة. كانت البلدة قد تحولت إلى جنة مهزّين: بنديّة الكلاشينكوف تباع مثلاً بـ ١٥٠ دولاراً، ومسدس الماغوم ٣٥٧ بمبلغ ٣٠٠ دولار. قبل ذلك قتل ثلاثة صحافيين من شبكة البي بي سي البريطانية والقيت جثثهم في وهدة جبلية غير بعيدة من البلدة. لقد حدث ذلك في أوائل السنة، وكان هؤلاء إختاروا المرشد الخطأ ليعبروا الحدود إلى العراق.

كان الفندق مواجهاً لتقاطع طرق مزدحم تنبثق من وسطه مظلة إسمتية مخصّصة لشرطي السير. وحول المظلة كتب الشعار التالي: «نريد ان يكون ضمير كل عراقي حارسه». في الزاوية كانت هناك لافتة تحمل اسم مصبغة وتضيء الشارع: «مكوى غرناطة». كانت آلات الكيّ البالغة الضخامة تبعث صوتاً خافتاً، وبخارها يتجمع في الأرجاء. وفيما أنا أتمشّى عبر الفناء القدر، شاهدت وردة ضخمة مرسومة على الجدار، وأمامها شارة تعلن عن «ورشة أحمد الفنية». أحمد، الذي كلّف أحدهم بإنجاز الرسم، كان يصلح أجهزة التلفزيون. وفي زقاق قريب مسدود يدعى «الأحرار»، كان ثمة ملصق يمجّد الأكراد شعراً بالكتابة التالية: «إن سألتني فهذا طريقي: الحرية للأكراد، والوحدة لكردستان». أيضاً كانت لافتة في ردهة الاستقبال إلى جانب غرفتي في الفندق، تقول:

«يتوجب على كل الضيوف وضع كل حاجاتهم القيمة في عهدة إدارة الفندق وإستلام إيصال موقع بالمقابل. الإدارة غير مسؤولة عن فقدان الممتلكات».

في الصباح التالي تناولت فطوراً مؤلفاً من الخبز والشاي والقيمر، وهي قشطة محضرة من حليب الجاموس. الشيعة العرب في مناطق الاهواز جنوب العراق يصنعون القيمر، وكانت هناك جماعة منهم تسكن في أطراف المدينة، حيث جرى توطينها هناك منذ سنوات طويلة كجزء من مشروع «تعريب». وفي رحلتي تلك قبيض لي أن أعبر مرات عدة بمحاذاة أكواخهم الطينية التقليدية، ولكن غالباً، وليس دائماً، بدت القرى تلك مهجورة. كان كلما أحضر القيمر مع الفطور، يُعرف ان مجموعة من العرب الموزعين لا تزال موجودة هناك. سائق التاكسي الذي أحضرني إلى الفندق من الحدود كانت مواهبه تتعدد في الصباح حيث يحضر الفطور ويعمل نادلاً. لقد تباهى مقدماً لي نوعين من الخبز لأتناول بهما القيمر. قال: «انه خبز صدام» مشيراً إلى الأرغفة المستديرة البنية والمسطحة، «وهذا خبز كردي» مشيراً إلى كدسة من الأرغفة البيضوية الشكل المصنوعة من الطحين الأبيض. أكلت خبز صدام.

كانت الخطة الأساسية هي ان ننسلّ خفية إلى داخل زاخو، ونتوجه من هناك عبر الطرق الجبلية مع إندلاع الفجر في الصباح التالي، ثم نعبّر العمادية ونتوجه مباشرة إلى منطقة أكبر أماناً في شقلاوة. ولدي ذكريات عزيزة عن قيامي، في الستينات، بجولة صعوداً في الجبال حول العمادية على ظهر بغل، وكنت تواقاً لرؤية البلدة مجدداً. وتلك ستكون المحطة الوحيدة خلال رحلة الساعات السبع في سيارة اللاندروفر وصولاً إلى شقلاوة. غير ان الأمور لم تبحر كما كان مقرراً، إذ انتهى بي الأمر نائماً في فندق بغداد لليلة ثانية، وكان ذلك بسبب رجل يدعى صبحي فرمان إلتقيته بالصدفة بعد ان انتهيت من تناول فطوري العراقي الأول منذ ثلاث وعشرين سنة.

وصبحي مهندس كردي لطيف الحديث في أوائل أربعيناته كان يعمل سابقاً في بغداد، وهو الآن يعمل مسعفاً اجتماعياً بدوام كامل في زاخو. لكن ما بدّل أموره يكمن في الأشياء التي كان يفعلها في أوقات فراغه. ولفترة راح صبحي يلاحظ نسوة من دون أزواج، يسرن مصطحبات أولادهن، ويخبرن قصصاً عجيبة. وليس هناك من أخذ تلك النسوة على محمل الجد، إذ كن غريبات عن البلدة يقمن في أي زاوية صغيرة يمكنهن العثور عليها.

- إلتقيت إحدى تلك الأرمال. كان لديها ولدان، مات كلاهما. أحدهما قضى في السجن في السليمانية قرب الموصل، والآخر في بحر كا. سألتها عما

تريد ان تفعله في المستقبل. أجابت انها ترغب بالعمل في مؤسسة إنسانية تهتم بالأطفال، مثل دار حضانة أو مستشفى للأطفال، وأشياء من ذلك القبيل، لأنها فقدت ولديها. إنها الآن وحيدة وهي لا تصدق ان زوجها قد قتل. إنها في إنتظاره. أخبرني أنهما كانا مغرمين واحدهما بالآخر... أموز من هذا القبيل، ثم تزوجا وهي في إنتظاره الآن.

- كنعان مكية: هل هنالك العديد من النساء ممن يملكن قصصاً من هذا النوع في زاخو؟

- أجل، أجل، هناك عدد كبير منهن. تستطيع العثور عليهن في كل مكان.

كان صبحي يعتقد ان المشكلة تكمن في ان «أحداً لم يكن يهتم»، ولم تكن هناك منظمات إنسانية تهتم، ولم يدر إهتمام من الأحزاب الكردية. لم يقدم أحد العون لهن، ولم يبق لهن إلا المدن التي تبتلعهن. إنهن يعشن في أمكنة بائسة جداً. على سبيل المثال إلتقيت بعضاً منهن وكن مقيمات في بناء لم ينته العمل به، بلا نوافذ ولا أبواب. لم تكن هناك أي وسيلة للتدفئة. وبينهن أطفال كما تعرف. هكذا هم الناجون».

كان هؤلاء الناس من بقي من حملات الأنفال في ١٩٨٨. في أوقات فراغه، جعل صبحي يجمع أسماءهم. كان انقضى شهران على عمله على إنجاز اللائحة عندما التقيت به، وكان يملك لوائح وسجلات عن خمسمائة عائلة كل منها فقدت شخصاً أو اثنين من أفرادها. كم عدد الأشخاص الذين كانوا يساعدونه على إنجاز ذلك المشروع؟ «في الواقع انا أقوم بذلك وحدي»، رد لي هذا بضحكة إرتباك خافتة، «غير أنني قمت لاحقاً بإستخدام شخصين من أجل الدخول في الميدان. جمعنا المعلومات من أحزاب مختلفة في المنطقة، ثم أرسلنا شخصين إلى زاخو لجمع المعلومات والحصول على صور فوتوغرافية من كل عائلة، والحصول أيضاً على قصة مفصلة عما جرى لكل واحدة بمفردها إبان ١٩٨٨».

سألته، من اين يتوافر له المال لإستخدام أولئك الأشخاص، فأجاب: «لقد تلقينا بعض الإعتمادات المالية من منظمة الإغاثة الدولية. وهبتنا مبلغ خمسمائة دولار». ويوم ٩ تشرين الثاني/نوفمبر، أي قبل أربعة أيام من وصولنا إلى زاخو، بدأ صبحي يضع المعلومات التي سبق له ان جمعها، في أشكال حسنة الطباعة بالآلة الكاتبة، وكان ينوي الإستمرار في ذلك حتى نفاذ مبلغه الكبير البالغ خمسمائة دولار.

- كنعان مكية: هل صممت الإستمارات بمفردك.

- أجل لقد فعلت ذلك. كنت قد تشاورت مع أصدقائي بشأن إختيار نوع المعلومات التي ينبغي ضمتها إلى الملف. صممتها بنفسي ثم بدلت فيها إثر نصائح تلقيتها من بعض الأشخاص. هكذا تجري الأمور. هل تستطيع ان اسمع رأيك بهذا الشأن؟.

كانت لائحة صبحي تحمل عنوان «المفقودون في الأنفال». وكان يكرس صفحة كاملة لكل شخص مفقود. وفي حال توفرها، كانت تُثبت صورة للشخص فوق الزاوية اليسرى. كانت كل صفحة تحمل الاسم الثلاثي، وتاريخ الولادة، والمستوى المعيشي، والحالة العائلية، والمهنة، وعنوان العائلة السابق والحالي، ومكان الاختفاء وتاريخه. وكانت تتضمن أيضاً لائحة بعدد أفراد العائلة الناجين الذين جمعت منهم المعلومات، ومكان وجودهم حالياً، وملاحظات حول الناجين وماذا يرغبون بأن يفعلوا بحياتهم. على سبيل المثال: «الأرمل ترغب بالعمل على آلة للخياطة...»، أو، «هذه العائلة ترغب بالحصول على وظيفة لابنها توفيق، وهو شقيق القتيل...»، وهكذا دواليك.

في الأسبوع التالي أعطيت لي لائحة ثانية قام بإعدادها شخص آخر، وكانت تحتوي على ١٠,٦٦٦ إسماً، لكنها لم تكن البتة منظمة مثل لائحة صبحي. على أنني بدوري سأحمل معي كل تلك الأسماء في طريق عودتي إلى لندن، نظراً لأهمية إعداد اللوائح، غير أنني بما زلت لا أعرف ما الذي سأفعله بالأسماء التي في حوزتي. فمجرد وجودها يعني ان الأطفال مسألة حاضرة، لا مسألة من الماضي. إنها تختص بذكريات سوف لن تغيب أبداً عن الأذهان، ذكريات مربعة سوف تشكل مستقبل العراق، شئنا ذلك أم أيننا.

في المكتب حيث يعمل صبحي، تصفّحت بسرعة الإستمارات المتراكمة التي وضعها أمامي، وانتقيت إسماً كيفما اتفق: عائلة عبوش من قرية كركيت علي. كان واحد وعشرون شخصاً قد إختفوا من هذه القرية، وكان ١٨ آخرون إختفوا أيضاً من قرية مجاورة لها تدعى كركيت تيمور. عشرة أولاد من عائلة عبوش أخذوا مع كل سكان كركيت علي في شهر آب/ أغسطس ١٩٨٨. ومنذ أول أيلول/ سبتمبر ١٩٨٨ لم يُر أحد من أفراد عائلة عبوش العشرة. سعيد عبوش مولود في ١٩٤٢، وحميد عبوش في ١٩٥١، وطفّار عبوش في ١٩٥٢، وسليم عبوش في ١٩٦٣، ويونس عبوش في ١٩٥٧، وتحسين عبوش في ١٩٧٢، وجنكير عبوش في ١٩٦٥، ومصلح عبوش في ١٩٧٤، ورياح سعيد عبوش في ١٩٧٥.

أدى ذلك إلى ان تذهب كل خططنا السابقة، للتسلّل بسرعة وخفية، من زاخو، ادراج الرياح. سألت ان كان في الوسع مقابلة من تبقى من عائلة عبوش. فالرجل الوحيد

الذي بقي قيد الحياة، ويدعى إسماعيل، مقاتل مع رجال حرب العصابات، كان ينتمي إلى مقاتلي البشمرغا وهو انضم إليهم منذ عشرين سنة، ثم هرب إلى تركيا تماماً قبل وصول الجيش. إذا لم ير إسماعيل بعينه كل ما جرى لعائلته، لكنه كان يعيش مع أمه وأولاد أشقائه. وجميعهم شاهدوا ما جرى. وهذه المجموعة التي لا يزال أفرادها يعيشون قيد الحياة، يعيشون على بعد عشر دقائق بالسيارة من المكتب الذي تحدثت فيه مع صبحي.

وفي جمعنا أجزاء القصة ممّا رواه كل من إسماعيل وأمه والمعلومات الإضافية التي قدّمها صبحي، تحصل لنا الآتي: عند صباح ٢٦ آب/ أغسطس ١٩٨٨، وفي أعقاب الهجوم الكيميائي على قرية توكا والذي كان خلف ثلاثة عشر قتيلاً في اليوم السابق، تركت عائلة عبوش قريبها كريت. كانت الطرقات تغصّ بقرويين آخرين فارين، وكان الجيش قد قطع الطرقات وحاصر المنطقة. لم يستطع أحد ان يقدم لي أية فكرة عن عدد القرى التي حوصرت ابان تلك العملية بالذات، ولكنها كانت كثيرة. في ٢٧ آب/ أغسطس نجح شخصان من عائلة عبوش بالتسلل عبر خطوط الجيش إلى الطريق الرئيسية في القسم الشمالي من زاخو، وفزوا في نهاية الأمر إلى تركيا، لكن جميع الآخرين وقعوا في الحصار ولم يكن لديهم أي خيار سوى «الإستسلام»، مثلهم مثل الآلاف من العوائل الأخرى.

- كنعان مكية: لماذا تقولون «إستسلموا»، أما كانوا يحاربون؟

- إن الأنفال تعاملت مع الجميع، بمن فيهم الأطفال، كمحاربين.

بعد الإستسلام ساقوا الجميع في قافلة من الآليات شقت طريقها عبر زاخو باتجاه حصن كان قد بني في الثمانينات ويدعى نزاركه، ويقع خارج مدينة دهوك تماماً. كانت تسيطر على حصن نزاركه المخابرات، لا الجيش. ومع نهاية آب/ أغسطس ١٩٨٨ كان ما يقارب العشرة آلاف عائلة محتجزاً هناك. في الحصن جرى إطلاق سراح بعض الأشخاص، حسبما أخبر إسماعيل، الذي أضاف ان الأكثرية أقيمت محتجزة.

وفي ما يشبه الوعي، وهو يتدفق عشواء، فيخلط ويختلط فيه كل تعاقب زمني متسلسل، أخبرتنا أم إسماعيل بما حدث لها:

- قال ثلاثة اخوة: «سوف نسلّم انفسنا لهم». نحن بقينا إلى ان رأينا النجوم، وقال الحاج محمد: «سوف أتوجه إليهم وأسلّم نفسي». بعد ذلك وضع أشياء في جرّار زراعي، ووضع فيه بعض أولاده وتوجهنا نحن النسوة إلى الطريق. كنا

متفرقين. كانت العائلات الكثيرة منفصل بعضها عن بعضها الآخر، ونحن بقينا حتى اليوم التالي مساءً، جائعين وعطشى. هؤلاء الأطفال كانوا معنا (وتشير إلى مجموعة أولاد صغار كانوا يجلسون حولها). هذا كان مولوداً لتوه. وكان أولاد رشيد معنا أيضاً. كنا في حالة مزرية مثل الكلاب. وقال البعض: «تعالوا نهرب في العتمة» قال البعض الآخر لا. وقال البعض: «تعالوا نذهب في هذا الاتجاه»، وقال البعض: «يوجد أشخاص جرحى هنا». وقفنا هناك على الطريق حتى الليل.

كان هناك العديد من الفتيات والعجائز والنساء. أخذوا كل هؤلاء معاً، وأخذوا الشبان في مجموعة أخرى. شبان أعمارهم من السبع سنوات وما فوق. كانوا يضربونهم أمامنا وسط الطريق. قتلوا رجالاً أمامنا قبل ان يتوجهوا بالرجال الآخرين إلى السجن، ثم أخذونا لاحقاً إلى مكان آخر.

- ماذا فعلوا بالناس داخل حصن نزاركه؟

- كل ما تستطيع تصوّره، فعلوه. كانوا يضربوننا بحجارة الطوب، وبالأسلاك وبالأحذية. أعادوا بعض الرجال ممن رحّت أنا أساعدهم، غير أنهم كانوا لا يستطيعون الحراك. كانوا كباراً جداً في السن ومنهكين. بعضهم عاد والبعض الآخر لم يعد.

- هل ضربوا أحداً أمامك؟

- أجل، حتى الأطفال. ضربوا ولديّ، وكل واحد كان يتكلم كانوا يضربونه.

- هل ذكرت كلمة «أنفال»؟

- لا، ولم يكن في مقدورنا ان نسأل عن شيء، لأننا لو فعلنا ذلك كانوا سيضربوننا ويرموننا بحجارة الطوب على ظهورنا.

- هل كان بينهم رجال من وحدات الجحوش؟

- لم يكن هناك أي جحش داخل قلعة نزاركه، كانوا كلهم مخابرات ومن قوات الأمن. كان من يقوم بعمليات الضرب رجالاً يرتدون ثياباً مدنية وقمصانهم قصيرة الأكمام.

- هل ان بعضاً من الأولاد الذين أراهم هنا هم أنفسهم أولئك الذين كانوا معك داخل حصن نزاركه في ذلك الوقت؟ ماذا عن ذلك الولد الصغير هناك مثلاً؟

- كان عمره آنذاك ثلاثة أشهر. وذلك الصغير، وذلك الصغير أيضاً كانا معنا.
لم نكن نعرف شيئاً حين توجهنا إلى هناك. لم نكن نعرف شيئاً... لم نكن نعرف! ظننا ان العالم كان ينقلب رأساً على عقب.

بعد مكوثهم بضعة أيام في حصن نزاركه، هتف رجال المخابرات بأسماء الذكور المتبقين، وانفصلت عائلة عبوش للمرة الأخيرة. تسعة من أشقاء إسماعيل وابن شقيق واحد، إضافة إلى أحد عشر رجلاً من قريته، جرى فصلهم عن الآخرين. جُمع ما بين الخمسة آلاف والثمانية آلاف ذكر ونقلوا إلى مكان آخر جميعاً. شوهدوا للمرة الأخيرة، بحسب والدته إسماعيل، عند حاجز للجيش في آخر مدينة الموصل.

إقتيدت جمهرة النساء والأطفال إلى سجن مركزي في الموصل يدعى السلامة. احتجزوا هناك حوالي الأسبوعين، ثم نقلوا لاحقاً إلى مخيم لإعادة التوطين يدعى بحركا، ويقع في منطقة السهول عند تخوم منطقة أربيل. في بحركا جرى توزيع حصص من الأرض على العائلات، فالت كل عائلة بين ١٦٠ و ٢٢٠ متراً مربعاً لتبني عليها منزلها.

لم تكن هناك أية أبنية في المخيم، ولا تمديدات مياه، ولا كهرباء، ولا ظلّ، ولا أي وسيلة للوقاية من أي نوع. وكل ذلك جرى ابان ذروة الحر في الصيف. وفي البداية لم يسمح لسكان أربيل بالاتصال بالمتحجزين في بحركا أو بإمدادهم بأي مساعدة من الخارج، إذ كان المخيم محاصراً من قبل الجيش.

جرى بالطبع تهريب أشياء إلى الداخل. لكن الجيش استرعى لاحقاً عندما تعاضم عدد السكان، وبدأت تنتشر الخيام، والأبنية الإسمنتية. كان ثمة أطفال يموتون يومياً، وقد أخبرت انه لم يبق في بعض الأمكنة سوى الأطفال الذين تفوق أعمارهم الخمس سنوات. نساء عائلة عبوش بقيت هناك مع الأولاد طوال سنتين، إلى ان عادوا وانتقلوا مجدداً إلى زاخو. سألت والدته إسماعيل كيف كانت ظروف العيش في بحركا: «أحضرنا جميعاً ورمونا كلنا معاً. لم يكن لدينا أي معين لمدة ثلاثة أيام، ولم يكن لدينا أي شيء. كان المكان كالجحيم».

كانت كريت علي قرية عائلة عبوش، تبعد فقط مسافة نصف ساعة، هكذا قيل لنا. لذلك قررنا الذهاب إليها مصطحبين معنا إسماعيل. انتقلنا إلى هناك داخل سيارة تويوتا لاند كروزر عبر أسوأ وأقسى طريق ترابي وصخري رأيته في حياتي. كانت السيارة تتغافز مثل أرنب، متوجهة نحو المكان المقصود، والذي يبعد، في الحقيقة، مسافة ساعتين.

كان هناك في ما مضى قرية جائحة على تلة مطلة على واد أخضر. كان يمكن مشاهدة نهر خابور ملتوياً في الأسفل عند مسافة بعيدة. بدت الشمس على وشك الغيب، والسماء تقم متحوّلة إلى أزرق داكن بعد ان كانت برتقالية قانية. وكانت تلك الفترة من أواخر بعد الظهيرة لنهار منقشع واضح، ظهرت فيها جليلة ظلال الألوان كلها جليلة وفي ذروة تحولاتها.

كانت كل الأبنية في القرية مدمرة كلياً. فقد جُرفت حتى سُويت بالأرض، وتحولت إلى مَعلَم أثري، وبات من الممكن أن يستعاد التاريخ فقط عبر الحفر والتنقيب. لم يكن ممكناً البتة ان تعرف ان قرية مؤلفة من أربعين منزلاً كانت تقع هناك، إلا ان كنتَ جاهداً بالبحث عنها. كانت قطع من الملابس تحت الدبش، ابيضّت ألوانها بفعل الشمس، وهي التي كانت يوماً قانية ولماعة. لكنه كان ينبغي ان تبحث عنها متقباً.

لقد كانوا صَبّوا نبع المياه بالأسمنت وأغلقوه كلياً. الزراعة وتربية المواشي - وكانتا الدعامين الأساسيتين لإقتصاد القرية - لم يكن ممكناً ان تنطلق من جديد. المدرسة، وقد كانت البناء الإسمنتي الوحيد في الأرجاء، جرى تدميرها كلياً بالديناميت، إذ هوى سقفها فوق الأرضية التي سبق له ان حماها في يوم من الأيام، ولم تبعرث الأنقاض بعيداً عن حدود الأساسات. وأخبرني إسماعيل انه في ١٩٧٧، إشتغل عاملاً مياوماً لدى السلطات البلدية الخاصة بمقاطعة زاخو الكبرى، وفي بناء تلك المدرسة بالذات.

أي نوع من الذهنية تلك التي تدمّر الأشياء نفسها التي شيدتها هي بالذات؟ لا بد ان قوة غامضة إستولت على الخيلة البشرية لتهندس إرسال آلاف المسلحين إلى هذا المكان الجميل. قدموا عبر طريق الكارثة ذاتها التي قدمت عبرها. وكانوا قد تخبطوا في حاملات الجند المصفحة والشاحنات ناقلين جرافات، وحاملين مدافع وديناميت. لماذا؟ عندما سألت صبحي عما كانت تعني بالنسبة إليه كلمة «أنفال»، أجاب بتعثر أول الأمر: «إنها عملية سيئة».

- متى سمعت بكلمة الأنفال أول مرة؟

- كان ذلك في ١٩٨٨ عندما بدأوا ذلك الشيء المدعو «الأنفال». قبل ١٩٨٨ لم يكن هنالك ما يسمّى بالأنفال.

- عندما كنت تعدّ تلك الإستثمارات واللوائح، هل كنت تفكر في الأنفال. أليس هذا ما تمثله الأنفال؟ أليس كذلك؟

- أجل.

- هل الأنفال مختلفة عما كان جرى في حليجة.

- حليجة ليست الأنفال. حليجة مسألة مختلفة.

- ماذا قال حزب البعث انه كان يفعل؟ لماذا قاموا، من وجهة نظرهم، بترحيل

تلك العائلات من قراها؟

- كي يخرجوا الأسماك من مياهها.

اللقاء الثاني مع الأنفال

الطريق الجبلية بين زاخو والعمادية تمر عبر مناظر طبيعية آخاذة. لم يكن ثمة ما يمكن ان يحضرني نفسياً بشكل أفضل، لإلقاء نظرة أولى على العمادية من مسافة تقارب الخمسة وعشرين ميلاً. كان ذلك اليوم صافياً نقياً لطيف الهواء، مشمساً، وكريستالي الانقشاع. والمدينة كانت كما أذكرها مستديرة تكملها قمم الجبال كما لو انها كانت وضعت في مكانها اللائق.

جبل العمادية يشكّل مخروطاً متناسقاً مع قمته المقصوفة التي تبدو كأنها إنجاز فذ ومرعب للهندسة القديمة، ومائل لذاك الذي رفع منصّة هيرودوس الحجرية العظيمة في أورشليم، والتي يقع فوقها حالياً الحرم الشريف. الفرق انه لا يتوجب في العمادية على أحد أن يقوم ببناء النجد المستدير الذي ترتفع فوقه جدران ابنية المدينة الحجرية، وكأنما هو تكملة عادية للمنحدرات الحاذة في الأسفل. هذه هبة الطبيعة للعراق.

كان يرافقني فريق، وهو أحد حارسي البشمرغا اللذين عيّنا لمراقبتنا في زاخو، عندما توقفت لإلتقاط صورة فوتوغرافية. بشاريه الرفيعين الشبيهين بالقلم، وسترته الجلدية التركية الأنيقة، وقصّة شعره العصرية الطراز، كان فريق مأخوذاً على الدوام بعمله، يؤديه بجدية قصوى. عمره ٢١ سنة، وكان قد انضم إلى البشمرغا منذ أن فرّ من الخدمة العسكرية الإلزامية بناء على نصيحة والده في ١٩٨٧. وكلما كنت أخرج من السيارة لإلتقاط صورة، كان فريق على مقربة مني يراقبني بإنتباه شديد. فريق جندي مثالي، ما كان يعتبر على الإطلاق انه يؤدي خدمة لي. كان يظن ما يفعله واجباً، ابن عمه، وكان شاباً سلبياً تسيطر على وجهه باستمرار نظرة متحفظة، سبق أن اعتقله الجيش عند أحد الحواجز وسلّمه إلى المخابرات، وبقي في قبضتها طوال شهر كامل. كان هو عنصر البشمرغا الثاني الذي رافقتنا ولم يكن يهوى عمله هذا.

لقد كان فريق مرشدنا، وكان يفعل ذلك متقصياً الأغنام الأرضية على رغم أن ما

كنت أفعله لم يكن يتعدى التقدم بضعة ياردات من أجل الحصول على زاوية أفضل للصورة.

الطريق إلى المدينة ترتفع ببطء صاعدة نحو علو شاهق مريع. أول بناء تصادفه في العمادية محطة للوقود مسدودة بسيارات تنتظر دورها للحصول على حصتها من الوقود. كان صهرنج قد وصل للتو وانتشر الخبر بسرعة. مقاتل من البشمرا يرتدي الزي الكردي الفولكلوري وقف منتصباً ومتنبهاً، وراح يدون أشياء على كدسة أوراق يحملها، فيما الناس يتحركون ويتدافعون مرحين من حوله، منتظرين أن يأتي دورهم فيتزودون بالوقود ثم تُشطب أسماؤهم من اللائحة. فهل هذا الرجل هو البيروقراطي المستقبلي للدولة الكردية؟

في زاخو بدأت أفهم كيف ان الأنفال لم تكن عملية بسيطة حصل فيها للجميع الأمر نفسه. لقد جرى اتباع أنماط في السلوك مختلفة تبعاً لاختلاف الظروف المحلية. الأشوريون الذين كانوا يقيمون في المناطق المحظرة اختفوا كذلك، وكان مصيرهم مشابهاً لمصير الأكراد. وفي منطقة سيندي اختفى الرجال فقط، أما في منطقة دوسكي قرب دهوك، وفي قرية تدعى كورفيل، فأعدم ضابط من الجيش، رماً بالرصاص، ٣٥ شخصاً ما بين رجال ونساء وأطفال داخل القرية نفسها. لماذا؟ ليست لدي فكرة، لكن روي ان الضابط المسؤول صاح بهم: «هذه هي الأنفال ويجب أن تقتلوا». كان هناك شاهدا عيان سعيتم إلى مقابلتهما، فقيل لنا إننا نستطيع العثور على كمال في المبنى المحلي لقيادة الحزب الديمقراطي الكردستاني بالعمادية. ويبدو أن كمال كان تلقى برقية من زاخو تطلب منه العثور على سيد فايف وسعيد شلوكي، شاهدي العيان، وكلاهما يعيش في العمادية.

إلا أنه لم ينجح في العثور عليهما. وفي النهاية بات يتوجب علينا ان نبقي في العمادية يوماً بأكمله، وبدا الأمر مستحيلاً، فأجريت مع كمال عوض الحديث الآتي:

- متى سمعت للمرة الأولى بكلمة الأنفال؟

- عام ١٩٨٨ بالطبع. قالوا، سوف نبدأ الأنفال الأولى، الأنفال الثانية، الأنفال الثالثة...

- هل وصلت الأنفال إلى العمادية؟

- لم تحصل أية أنفال في العمادية، لأن الجيش كان أصلاً هنا، متمركزاً في المدينة.

في خلال رحلتنا، أصبح واضحاً أكثر فأكثر ان المدن الكردية الكبيرة مثل السليمانية وأربيل وكركوك والبلدات الواسعة مثل دهوك وزاخو والعمادية، لم تتأثر بحملة الأنفال. لقد كانت بالتحديد عملية ريفية مقتصرة على القرى الكردية. كانت العائلات تجمع من القرى المحيطة وتُجلب إلى البلدة في غضون الحملة، ثم تقسم وتفرق تماماً بحسب الطريقة التي وصفتها أم إسماعيل عبوش، وها هو كمال يكررها لي لأن:

- قسمت الناس ثلاث مجموعات. فرّ بعضهم إلى إيران مع عائلاتهم. آخرون اختبأوا في الجبال بين الصخور والأشجار، وآخرون ظلوا في القرى، قرى مثل سيندال وغيزه وكفناماجية وهيجة. عندما وصل الجنود إنقضوا عليهم واعتقلوهم جميعهم. أحضروهم إلى هنا في العمادية وفصلوا الرجال عن النساء والأطفال. بعد ذلك، نقلوهم إلى قلعة السلمية بالموصل. بقيت النساء ١٥ يوماً في السلمية، وبعد ذلك جرى نقلهن إلى مخيم كبير في أربيل يدعى بحرکا.

- هل فصلوا الرجال عن النساء والأطفال في العمادية؟

- بالطبع.

- ماذا حلّ بالرجال؟

- لسنا نعرف أي شيء عنهم.

- في أي بناء شوهدهوا آخر مرة؟

(أشار كمال إلى بناء يقع وراءه تماماً، البناء الذي خرج منه لإجراء هذا الحديث).

- لا

- أجل. أجل. هذا البناء. كان في ما مضى مبنى إتحاد المعلمين.

لقد أصبح البناء الآن مركز قيادة فرع العمادية للحزب الديمقراطي الكردستاني. وفيما كان الوقت يمضي رحت أعتاد أكثر وأكثر على ذاك التحوار الغريب بين الأشياء، مما يميّز به الوضع في شمال العراق.

- ماذا تعني بالنسبة إليك كلمة «الأنفال»؟

- إقتلاع، إبادة، قتل كل شيء...

لقاء تيمور

بحسب ما نعلم فإن تيمور عبدالله، من قرية كالامشو، هو المخلوق البشري الوحيد الذي عاش مباشرة وحقيقة تجربة حملة الأنفال في أعماق وأفضع أحداثها وأفعالها، وبقي على قيد الحياة ليخبر عنها. هذا ما كنت عرفته وأنا في لندن، على الرغم من اني لم اكن أفتقه بعد ماذا تعني حملة الأنفال، ولا كنت أعرف ما إذا كان يمكن تصديق روايته، تلك التي رأيتها جافة ومتكلفة على شريط فيديو. كانت الأنفال آنذاك مجرد إسم بالنسبة إليّ، إسم كان يتوالى أمامي في نسخ وثائق الاستخبارات، التي أعطيت لي لغرض يتعلق بعدد الأكراد الضخم الذين إختفوا في ١٩٨٨. العديد من الناجين، مثل عبدالله العسكري، شهدوا الهجمات على قراهم، كما شهدوا عمليات محاصرة وتطوير قرى أخرى داخل شمال العراق. لكن شخصاً واحداً فقط «اختفى»، ثم «ظهر مجدداً» بفعل أعجوبة ليخبرنا ماذا جرى له.

جرى لقاءنا داخل ثكنة مهجورة للجيش تبعد مسافة نصف ساعة بالسيارة في الجبال المحيطة بالسليمانية. كانت الأبنية المفجرة بنوافذها المسودة تجثم على جبل منكشف الرؤية من كل الجهات. كان الموقع الطبيعي مميزاً بقدر ما كانت القاعدة بشعة، تحيط بها الجدران من كل الجهات، والأسلاك الشائكة والحواجز الأمنية. وحية تيمور منذ إنتفاضة آذار تمحورت حول واقع انه كان ولا يزال هدفاً رئيسياً للإغتيال من قبل عملاء صدام. فقد أصبح واضحاً ان الفتى تحول إلى رمز، إلى خادم للقضية، لقد أصبح نصباً حياً لمعاناة الشعب الكردي.^(١٥)

كان تيمور هادئاً جداً متغلقاً على نفسه طوال الوقت. طوال الـ ١٦ ساعة التي قضيتها بمعيته، لم يبادر هو إلى الكلام. وحين كان يُسأل عن أمر كان دائماً يجب بهذيب، ولكن بكلمات متقطعة حيادية، غير مظهر أيّاً من العواطف. هل كان يكتب كل شيء تحت تأثير الصدمة؟ أو هل كان يريد لنفسه أن يتصرف كبطل، والأبطال لا يكون؟ ربما كان الحوار معه في ذلك المحيط غير المؤلف، ومن قبل شخص غريب، حائلاً دون إظهار المشاعر، وهو، في أي حال، كان ما يزال مجرد صبي ألبسوه ثياباً يبدو فيها كنسخة مصغرة عن مقاتل بشمرغا كردي. ولكل من المنظمات الكردية نطاق مميز يلبس حول الخصر، ولكل منها خياطوها المفضلون، وطرز الملابس التي تعتمد عليها.

الحميمية التي كنت بحاجة ماسة إليها كان توافرها مستحيلاً هناك، لذلك توجب عليّ ان أتوجه عائداً مع تيمور ومجموعة كبيرة من المرافقين المسلّحين إلى السليمانية. وصلنا إلى منزل وسط المدينة، وبعد القيام بواجبات الضيافة التقليدية واكواب الشاي

اللامتناهية، أعدت لنا في وقت متأخر من العشية غرفة خاصة، وبدأت أخيراً المقابلة، لكن الكهرباء انقطعت في السليمانية كلها. راحت تعود ثم تغيب طوال ما تبقى من الليل، وكل ما يمكن ان يتعطل اصابه العطل في ذلك اليوم.

نتيجة لذلك، كنت عصبياً ومستاء. فمن ذا يتوقع وجود كل هؤلاء الأشخاص حولنا؟ كانت الفكرة، ببساطة، ان أجلس مع تيمور وآلة تسجيل، وما كنت لأتوقع تعقيدات كهذه^(١٦). أشير إلى ذلك لأن التوتر الذي تفاقم في داخلي ربما قد أثر على المقابلة. كنت أتوقع الكثير منه، راغباً في كل تفصيل صغير عما جرى. ولعلي كنت قاسياً جداً مع الفتى.

بدأت المقابلة بإخباره أنني ولدت في بغداد، ولكنني عشت في الخارج، وأني قطعت آلاف الأميال من أجل التحدث إليه. قلت له إنني أريد ان أسمع كل شيء، بما في ذلك الذكريات التي لا يزال يعيش معها. ولا تظنّ ان هناك أي تفصيل لا يستحق التحدث عنه. أذكر اني قلت له ذلك أكثر من مرة. قلت كل هذا تماماً قبل بدء المقابلة كما لو انه لا رغبة لديه سوى ان يستعيد، ويعيش مجدداً وتفصيل لا متناهي الدقة، ما كان عاناه وعاشه. لا بد ان كل ذلك أسهم مجتمعاً في إخافة الفتى. لا بد أنه تساءل، من هو هذا الرجل؟ ما الذي يريده مني؟ ما الذي سأجنيه من كل هذا؟ ما الذي يجعل قصتي مهمة بالنسبة إليه؟ ما الذي سيجنيه منها؟ طوال العشاء، والفطور في اليوم التالي، رأيت يسترق النظرات إليّ. وكلما كنت أستدير لابتسم له بالمقابل، أو لأبتين تعبير وجهه، كان يدير وجهه إلى الجهة الأخرى، كما لو انه لم يكن ينظر أصلاً. كانت لدى تيمور الأسباب الكافية لمنعه من الوثوق بمطلق كائن حي مرة أخرى، وإلى الأبد.

أظن ان الفتى لم يكن راغباً في التحدث إليّ. كانت الظروف قد أقحمته داخل ذلك العالم الكابوسي والوحشي، وهو ربما لم يعرف البتة طفولة حقيقية. لكنهم قالوا له انه يتوجب عليه ان يتحدث مع هذا الغريب الذي قدم من مكان بعيد، وذلك مفيد لقضية شعبه. كانت قد جرت تهيئته للمناسبة وربما أجروا له تمريناً نهائياً قبل يوم واحد مكررين له ما ينبغي قوله وما لا ينبغي. لم يكن يريد الكلام، ولكنهم كانوا يتوقعون منه ذلك، وهذه ثقافة يفعل فيها الجميع ما يُتَظَر منهم ان يفعلوه ودروس كهذه يعلمونها للأطفال من صغرهم الباكر.

بدأ تيمور يتلفظ مخبراً قصته في تدفق مفاجيء وقصير، غير مضيف أي شيء على ما كنت أعرفه سابقاً من شريط الفيديو الذي شاهدته في آب/أغسطس. لم اكن قد قطعت كل تلك المسافة لأسمع خطاباً معلباً. ولشعوري بالتوتر الذي بدأ يتفاقم في داخلي،

عدت وبدأت من جديد، منقباً عن التفاصيل بنفسني مستخدماً أسئلة قصيرة، بسيطة ومحددة، وما عدت معتمداً على الفتى. بعد فترة توصلنا إلى حال من التناغم، وشعرت اننا نكاد ننجح في الوصول إلى شيء ما. لكن كيف كان هو يشعر؟ لست أعرف. أظن ان تيمور لم يكن يتوقع شيئاً أبعد من المحادثة المباشرة. هل التمتعت عيناه؟ أعتقد انه قال مرّة أو مرتين أموراً لم يكن يرغب في قولها. لا يزال التفكير في تلك المسألة يشغلني، وأذكر انني كنت ألح عليه دونما شفقة ولا لحاح، ولا أتوقف إلا بسبب تلك الكهرباء اللعينة التي لم تكف عن الإنقطاع في السليمانية بأكملها.

ما يلي هو النسخة الكاملة للمقابلة، حاذفاً فقط الترداد، والكلام المملّب الأولي، إضافة إلى بعض الإستطرادات. قمت كذلك بتبديل بعض الكلمات الشاذة، وموقع بعض مقاطع الأسئلة الصغيرة هنا وهناك، وذلك فقط لجعل ما قاله تيمور أوضح لقارئه:

- النهار الذي أخذك فيه الجيش من قريتك، هل تذكره جيداً؟

- نعم

- ماذا كنت تفعل عندها؟

- قبل وصول الجيش؟

- أجل قبل وصول الجيش. ماذا كنت تفعل؟

- الجيش لم يأت إلى قريتنا.

[وحدات كردية من الجحوش كان يستخدمها الجيش العراقي، هي التي دخلت إلى قرية تيمور، لا الجيش العراقي].

- على من ألقوا القبض؟

- على الجميع، الرجال والنساء والأطفال.

- هل جرى أي قتال هناك؟

- لا.

اعتقلت وحدات الجحوش تيمور ووالده، وأمه وأخواته الثلاث، إضافة إلى كل من كان هناك في القرية، وأخذوهم إلى حصن كوراتو، عبوراً بقرية ميلاسورا.

كان الهدف من وراء أسألتي تلك هو كشف كيف كان يعيش تيمور يومه العادي، قبل دخول الأنفال إلى حياته. لكنه إما لم يفهمني، أو أنه كان لا يرغب في الإجابة.

وحتى تلك المرحلة من المقابلة، كنا نتحدث بالعربية، وبعد وقت طويل إنتقلنا إلى الكردية نتيجة طلب منه، وكنا نفعل ذلك مستعينين بترجم، لأن ذلك أسهل عليه، كما قال. كانت الإجابات تترجم من لغتها ذاتها، وليس من خلال غربة المترجم.

- ماذا جرى؟

- قال الجحوش إنهم سوف يواكبونا إلى قرية كالار، لكنهم كذبوا، وأخذونا بدل ذلك إلى [حصن] كوراتو. بقينا هناك عشرة أيام أرسلونا في نهايتها إلى سجن توبزاهو في كركوك.

- كيف أرسلوكم إلى هناك؟

- داخل شاحنات عسكرية كبيرة. تلك التي تدعى «إيفا» IVA [«إيفا» هو المصطلح المحلي، الذي يطلق على الشاحنات وآليات النقل ذات الصنع الألماني الشرقي، وهي مستخدمة بكثافة لدى الجيش العراقي].

- كم كان عدد الشاحنات؟

- كثير.

- عشرة؟

- لا. لا. كثير. حوالي الثلاثين أو الأربعين.

- هل كانت هناك دبابات؟

- لا.

- بأية طريقة أخذوكم؟

- رمونا في الشاحنات وأخذونا.

- هل كانت توجه إليكم الأوامر؟ هل كان هناك مثلاً ضابط يصيح بأوامر ما، أو كان يدعو الناس للحضور ودخول الشاحنة؟ أشياء من هذا القبيل، هل تذكر أي شيء مما قيل؟

- لا.

- ألم يقولوا شيئاً

- لا.

- كيف عرفتم ما كان يتوجب عليكم ان تفعلوه؟
- كان الشيء الوحيد الذي قالوه هو «أدخلوا الشاحنة».
- هل قالوا لكم لماذا ينبغي ان تدخلوا الشاحنة؟
- لا.
- هل قدّموا لكم أي سبب يفسر ما كان يجري.
- لا.
- حسناً. قالوا لكم، «هيا، إصعدوا إلى الشاحنة». ثم ماذا حدث بعدئذ؟
- صعدنا إلى الشاحنة.
- كيف؟ هل صعدتم عائلة تلو العائلة؟
- أجل، العائلة تلو الأخرى.
- هل فرّقوا أفراد العائلات؟
- لا.
- كم كان عدد الأشخاص في كل شاحنة؟
- لا أعرف.
- كم كان عددكم في الشاحنة؟
- كانت مليئة.
- هل كنتم واقفين أم جالسين؟
- كنا جالسين.
- ماذا جرى للأغراض، للمفروشات، والمواشي والعربات التي كنتم قد جلبتموها معكم؟
- لقد استولت عليها الحكومة.
- العربات والملابس التي رأيتموها في حصن كوراتو خلال زيارتي إلى هناك في ٢٧ تشرين الثاني/ نوفمبر، كانت ما تبقى من المقتنيات الشخصية للقرويين الأكراد التي لم يصادرها الجيش أو يسرقها جنود منفردون. وربما مشيت في كوراتو بين الآثار الخاصة بعائلة تيمور بالذات.
- ماذا أخذت معك إلى سجن توبزاه في كركوك؟
- لا شيء، ما عدا الثياب التي كنت أرتديها.

- هل أخذت مالاً؟

- لا، لم يكن معنا أي مال؟

- هل استولى الجيش على المال؟

- نعم.

- هل كنت قد سمعت كلمة «أنفال» من قبل؟ بينما كنتم تنقلون في الأرجاء من مكان لآخر، هل قام أحدهم بذكر كلمة «أنفال»؟

- لا.

- ألم تسمع هذه الكلمة ابداً من قبل؟

- لا.

- ألم يقل أحد من الضباط، «هذه عملية الأنفال»؟

- لا.

- كيف كنت تشعر وانت في الشاحنة، فيما كانت تنقلك أنت وعائلتك؟

- لم أكن أشعر بشيء، ماذا تتوقع أنت؟

- هل كنت خائفاً؟

- نعم.

- هل رأيت الخوف في وجه والدك، أو أخواتك؟ هل كانوا يكونون؟

- نعم.

- ماذا عن أمك؟

- لا.

- حين وصلتكم إلى المكان المقصود، هل أبقوا العائلة مجتمعة؟

- نعم.

- ماذا تذكر عن الآخرين الذين كانوا معكم؟ هل تذكر ماذا كان الناس

يقولون؟

- كانوا لا يقولون شيئاً. كان هناك نساء وأطفال يكونون.

- هل كنت تعرف ماذا سيحدث لك؟

- لا.

- هل حزر الأشخاص الآخرون ماذا سيحل بهم؟

- لا.

- كانت المسألة كسر كبير، لم يكن لديكم مطلق فكرة!

- لا، لكن عندما قدم الجحوش قالوا لنا «سوف نجعلكم أيضاً «جحوشاً»، سوف نأخذكم إلى كالار، هذا كل ما قالوه لنا.

- إذا لقد كذب عليكم الجحوش.

- نعم.

كذبوا، لأنهم أخذوه إلى حصن كوراتو لا إلى قرية كالار. لم يكن القيام بالرحلة إلى كالار مسألة غريبة بالنسبة إلى قروي كردي. فعالباً ما كان الجحوش في الماضي ينقلون القرويين من مكان إلى آخر. لكن في نهاية الأمر كان القرويون ينسلون عائدين إلى قراهم الأصلية. كان هذا الأمر يجري طوال فترة الثمانينات، وكان وجود الجحوش يعكس إطمئناناً وهدوءاً لدى القرويين، ولهذا كانت الحكومة العراقية تستخدمهم.

بيد أنه، هذه المرة، جرى التخطيط لعملية مختلفة. كان حصن كوراتو مركزاً انتقالياً يستخدم لتجميع وفرز أولئك الأكراد الذين كانوا سيقتلون. ومن الصعب إثبات إلى أي حدّ كان الجحوش مشاركين ومتواطئين مع الخطط الجديدة، أو إلى أي حدّ كانوا اعتقدوا ببساطة أنها كانت هي نفسها لعبة التأرجح القديمة ما بين الحكومة المركزية والقرويين، والتي كانت مسألة اعتيادية طوال الثمانينات.

- عندما كان يتسنى لكم ان تنفردوا بانفسكم من دون ان يراقبكم أي جحش أو ضابط عسكري، ماذا كان الناس يقولون لبعضهم البعض؟
- كانوا لا يقولون شيئاً.

- بعدما غادرتم كوراتو، هل قالوا لكم إلى أين سيأخذونكم؟

- أجل، عندما وصلنا إلى الشاحنات، قالوا، «سوف نأخذكم إلى توبزواه، السجن الذي في شمال كركوك».

- هل تعرضت أي من النسوة للأذية خلال الفترة التي قضيتها في حصن كوراتو؟

- لا، ولكن قبل وصولنا [إلى توبزواه]، فصلوا النساء المجائز وأعادوهن إلى كالار.

- إذا النسوة المجائز لم يقتلن؟

- لا.

- ولكن ماذا بشأن أمك وأخواتك، هل بقين معك؟

- نعم.

- صف لي توبزواه.

- كان بشعاً جداً.

- كيف ذلك؟

- كانت الحجرات شديدة الحرارة.

- كم كان عدد الأشخاص في حجرتك؟

- كانت الحجرة مليئة.

- كم كان عدد الأشخاص؟

- لم أعدهم، لكنها كانت مليئة.

- وماذا كانوا يطعمونكم؟

- كانت حصّة كل واحد في اليوم قطعة خبز واحدة.

- كم من الوقت بقيتم في توبزواه؟

- بقينا شهراً بأكمله في مركز إحتجاز توبزواه، إلى ان أرسلونا إلى مكان القتل.

- في تلك المرحلة الثانية من الرحلة حين توجهتم من حصن كوراتو إلى توبزواه، هل حدث أي شيء لا تزال تذكره بوضوح؟

- الأمر الذي أذكره هو انه لم يكن هناك أي جحش، كان هناك جنود فقط.

- ماذا حدث عندما وصلتكم إلى سجن توبزواه في كركوك؟

- حين وصلنا إلى توبزواه، وضعوا النساء والأطفال في قاعة، والرجال في قاعة أخرى.

- مع أي مجموعة وضعوك؟
- كنت مع أمي وشقيقتي.
- هل رأيت والدك مجدداً بعدما فصلوكم؟
- رأيته مرة واحدة أخيرة في توبزواه، ثم لم أره البتة بعدها.
- ماذا كان يحدث حين رأيته؟
- كانوا يخلعون عنه ثيابه باستثناء ثيابه الداخلية. قيّدوا يديه بالأغلال، ووضعوا كل الرجال في شاحنات وانطلقوا بهم.
- ألم تر أبداً والدك بعد ذلك؟
- لا.
- إلى ان حدث ذلك، أريد ان أعرف ان كان هناك أمر تذكره بقوة، تذكره أكثر من أي شيء آخر، ولن تنساه البتة؟
- حسناً، لن أعرف ماذا أقول.
- ما الذي أخافك أكثر من أي شيء آخر؟
- كنت خائفاً من أنهم سوف يقتلوننا.
- هل كان هناك شيء ما أخافك بشكل خاص؟
- لا، كنت خائفاً فقط من ان يقتلوني.
- ما الذي جعلك تعتقد انهم سيقتلونك؟ انت لم تكن تعرف شيئاً عن الأنفال؟ إذا ما الذي دفعتك إلى الاعتقاد بانهم سوف يقتلونك؟
- كنت خائفاً وحسب.
- هل كنت تتوقع باستمرار ان يطلق عليك الجنود العراقيون النار ويقتلونك؟
- لا.
- حسناً. دعنا نعد إلى آخر مرة رأيت فيها والدك. بعدما فصلوا الرجال عن النساء والأطفال، قلت لإنهم كبلوا الرجال بالأغلال؟
- نعم.

- هل فعلوا ذلك أمامك؟
- نعم.
- وهل كبتوا أيدي النساء والأطفال؟
- لا.
- ماذا فعلوا أيضاً بوالدك؟
- لا شيء آخر.
- ألم يضربوه؟
- لا.
- هل قتلوا الرجال بعضهم البعض الآخر؟
- أجل، كلهم ببعضهم البعض.
- في صف واحد طويل؟
- نعم.
- ومن كان يحرسهم؟
- جنود عراقيون.
- من كان يدير سجن توزاو، الجيش أم المخابرات؟
- كان هناك جنود ومخابرات، لكن رجال المخابرات كانوا يعيدون بعض الشيء، وكان الجنود داخل السجن.
- الشاحنة التي نقلت والدك، هل كانت توجهها وتنظمها المخابرات أم الجيش؟
- الجيش.
- إذاً كان الجيش هو من نقل الرجال. هل رأيتهم وهم يغادرون مبتعدين عنك؟
- نعم.
- ما عدد الرجال الذين كانوا بمعية والدك، بالتقريب؟
- كان هناك العديد منهم.

- مئة؟
- نعم.
- أين وضعوهم؟
- وضعوهم داخل شاحنات الـ «إيفا IVA».
- طوال الوقت الذي كانوا يضعون فيه الرجال داخل شاحنات الـ «إيفا» ، هل كنت تشاهدكم؟
- كنت أقف بالتمام أمام باب السجن الذي كان مقفلاً، وكان هناك ثقب كنت أنظر منه.
- هل كان هناك أشخاص آخرون ينظرون عبر الثقب؟
- نعم.
- من؟
- كانت النسوة والعائلات تطل أيضاً.
- هل كان الجميع يحتشدون محاولين التحديق عبر الثقب؟
- نعم.
- ماذا فكرت انهم سيفعلون بذلك؟
- كنا نعرف انهم سوف يقتلونه.
- إذا كنت قد أدركت في ذلك الوقت وللمرة الأولى انهم كانوا سوف يقتلون والدك؟
- نعم.
- وهل إعتراك خوف شديد في تلك اللحظة بالذات؟
- نعم
- كنت خائفاً أكثر من أي وقت مضى؟
- في ذلك الوقت، أجل.
- ماذا عن الناس من حولك؟

- كان هناك نسوة وكن يكنين أيضاً.
- ماذا كانت تقول النسوة؟ لا بد أنهن كن يصرخن فائلات شيئاً ما؟
- كن يصرخن ويلطمعن أنفسهن.
- هل كن يمزقن ثيابهن؟
- النسوة؟ أجل.
- هل كن يشددن شعورهن؟
- نعم.
- هل رمين بأنفسهن على الأرض؟
- لا.
- ماذا عن الأولاد؟
- هؤلاء لم يكوا، كانوا فقط ينظرون.
- ثم إنطلقت الشاحنة بوالدك. هل تذكر انك رأيت ذلك؟
- أجل، كان هناك باب كبير [داخل جدار مركب].
- كم عدد الشاحنات التي خرجت من البوابة، هل تذكر؟
- لم أعدّها، لكن كان هناك ربما حوالى العشرين، وربما أكثر.
- كل الرجال الذي كانوا في الشاحنات هل جاؤوا من قرينك، ومن القرى التي تقع في منطقتك، هل كانوا كلهم من دفعة الأشخاص نفسها التي كانت إعتقلت معكم في البداية؟
- كان هناك أناس آخرون أيضاً.
- أناس جدد من مناطق مختلفة؟
- كان هناك العديد من القرويين، جمعوهم في هذا المكان وشحنوهم مع بعضهم البعض...
- عند تلك النقطة من المقابلة بدت كلمات الفتى وكأنها تشتت وتبتعد عن مسارها، وأشاح بوجهه كما لو انه فقد تسلسل أفكاره ولم يعد يعرف ماذا يقول. بعض الإجابات

التي كان يعطيني إياها لا تحتوي على أي معنى إن استعدناها وتأملنا فيها. مثلاً، كيف يعقل ان الأطفال ظلّوا هادئين فيما الهستيريا تلفّ أمهاتهم حزناً وخوفاً؟ يخالجنني شعور بأنه لا ينبغي إعتبار كل إجاباته ذات قيمة حقيقية. كنا أدركنا ابان المقابلة مرحلة كان تيمور يعيش فيها مجدداً إنفصاله الأخير عن والده. كان يجدر بي ان أتوقف هناك، أو أقوم باستراحة. عوض ذلك تابعت ملحاً بإصرار، فتحوّلت الإجابات لتصبح آلية. بدأت أفقد الفتى. ربما كان لا يزال هناك مع والده محتشداً مع الجميع حول الثقب، يعيش مجدداً تلك اللحظة الرهيبة.

- كيف تشعر، هل أنت على ما يرام؟

- نعم.

- بعد ان غادر والدك، كم من الوقت بقيت أنت وأملك وأخواتك، وبقية النساء والأطفال في توبزواه؟

- عشرة أيام.

- هل نقلوكم من توبزواه في شاحنات عسكرية شبيهة بتلك التي أخذوا فيها والدك؟

- لا، كانت سيارات بيضاء مغلقة.

(هذا سؤال محير ليس لدي بخصوصه أي تفسير. لسوء الحظ انا لم أتابع سلسلة الأسئلة تلك. ومن هنا فصاعداً سوف نشير، انا وتيمور، إلى تلك السيارات مستخدمين كلمة شاحنات).

- هل تعرف من كان الرجال المسؤولون؟

- لا.

- كم كان عدد الأشخاص في كل شاحنة عندما انتقلت من توبزوا إلى المكان حيث كانوا يطلقون النار ويعدمون الأشخاص؟

- أعتقد انه كان هناك مئة شخص في كل شاحنة.

- هل كانوا كلّهم نساء وأطفالاً؟

- نعم.

- كم ساعة استغرقت الرحلة؟

- من توبزواه توجھوا بنا إلى الحدود السعودية. كانوا إنطلقوا بنا حوال السادسة صباحاً، ووصلنا إلى مكان الإعدام في وقت متأخر.

- كان الوقت متأخراً؟

- وصلنا في الليل.

[لكن كان لا يزال هناك ضوء، لأن الوقت كان صيفاً والشمس تغيب في وقت متأخر جداً في آب/ أغسطس].

- هل توقفتم خلال الطريق؟

- لا.

- أين تناولتم طعام الغداء؟

- لم نتناول أي غداء.

- وهل أسأروا معاملتكم بأي شكل من الأشكال داخل الشاحنات؟

- لم يكن هناك أي جندي في الداخل، ولكن الحرارة كانت شديدة. كان ثمة أناس يموتون من العطش. لم يقدموا لنا ماء في الطريق.

- هل مات أشخاص داخل الشاحنة؟

- مات ثلاثة أطفال.

- كم يوماً بقيتم من دون ماء؟

- يوماً واحداً فقط. عندما أدخلونا في الشاحنة، لم يعطونا أي ماء.

- أخبرني شيئاً عن الأطفال الذين ماتوا؟

- الطفل الصغير مات عطشاً، وفتاة صغيرة ماتت في سيّارتنا من العطش واختناقاً.

- هل يمكنك ان تصفها لي؟

- كانت عيناها قد غابتا من محجريهما، وكانت رقبتها زرقاء. لم تكن الفتيات من قريتي. كنّ من مكان آخر. لست أعرف من أين.

- كم كانت أعمارهن؟

- أصغر منّي.

- ماذا فعل الأشخاص الذين كانوا في الشاحنة بأولئك الأطفال الموتى؟

- لم نفعل شيئاً.

- هل غطيتهم؟

- لا.

- هل أزعجتهم النسوة الكبيرات على الأقل إلى جانب الشاحنة؟

- لا.

- كن متمدنات وحسب على الأرض؟

- نعم.

- كيف كنت تشعر حيال ذلك؟

- لم يكن هناك مطلق شعور، أي شعور؟

هل أساء تيمور فهمي هنا؟ أو انه فوجيء فقط بغباء سؤال كان لا يمكن ان تعبر الكلمات عن جوابه.

- هل كانت أمتك معك؟

- نعم.

- وأخواتك؟

- نعم.

- ماذا إعتقدت انه سوف يحدث لك آنذاك؟

- كنت أفكر أنهم سوف يرموننا بالرصاص.

- ألم يقل لكم أحد أي شيء عما سيحلّ بكم؟

- لا.

- من قبل كذب عليكم الجحوش. هذه المرة لم يزعم أحد نفسه حتى بالكذب عليكم؟

- لا، الجحوش الذين كذبوا علينا، لم يحضروا إلى مكان الإعدام.

- هل كانت ملابس الضباط الذين راققوكم مختلفة عن ملابس الجنود؟

- نعم، كانوا يرتدون زياً مختلفاً.

- كاكبي؟
- الجنود، أجل.
- ماذا كان الضباط يرتدون؟
- قبعات خضراء.
- هل تذكر كم كان عدد نجوم الضباط الأعلى في الوحدة التي كانت مسؤولة عنكم؟
- نجمتان.
- بما أنه لم يكن هناك جنود في الشاحنة، لماذا لم تهربوا؟
- كانت الشاحنة مقفلة. كان فيها بوابتان.
- لم يكن هناك أي سبيل للهروب.
- بوابتان حديديتان؟
- نعم.
- والسقف أيضاً كان كذلك معدنياً وليس من القماش، أليس كذلك؟
- نعم.
- لم تكن هناك أي نوافذ؟
- فقط نافذة صغيرة.
- هل كانت الحرارة مرتفعة جداً في الداخل؟
- نعم.
- كان ذلك في شهر آب/ أغسطس، أشد الأشهر حرّاً؟
- كان ذلك في رمضان، لست أذكر الشهر.
- الآن وصلتم إلى مكان الإعدام. ماذا حدث بعدئذٍ؟
- تماماً قبل الوصول إلى مكان القتل، أنزلونا أولاً من الشاحنات وعصبوا أعيننا وقدموا لنا جرعة من الماء. ثم جعلونا نعود مجدداً إلى داخل الشاحنات. عندما وصلنا، فتحوا الباب، وأنا تمكنت من إزاحة عصبتي. واستطعت أن أرى هذه الحفرة في الأرض، وكان يحيط بها الجنود.

- هل كانت يداك مربوطتين؟

- لا.

- عندما فتحوا بوابة الشاحنة، أي شيء رأيته أولاً؟

- الشيء الأول الذي رأيته كان الحفر، كانت محفورة وجاهزة.

شرح لي تيمور في وقت آخر أنه ازاح العصبة قليلاً لكي يستطيع الرؤية من غير ان يتبه الجنود لذلك. كانت الأيدي بالطبع ضرورية من أجل التسلق والنزول من الشاحنات والنزول إلى الحفر بفعالية. ووضع العصبة فوق العينين أسلوب كلاسيكي لعزل الضحايا نفسياً عن بعضهم البعض، وهكذا يقللون من فرص القيام بمجهود جماعي والهجوم على الحراس أو الفرار والنجاة بانفسهم. رأى تيمور الحفر لحظة فتحت بوابتا الشاحنة. كان لا يزال على أرضية الشاحنة في ذلك الوقت.

- كم كان عدد الحفر التي رأيته؟

- كان الوقت ليلاً، غير انه كان هناك العديد منها حولنا.

- خمس أو ست حفر؟

- لا، لا، أكثر من ذلك.

- أكثر من خمس، ست، سبع حفر؟

- نعم، نعم.

- صف لي حفرتك.

- كانت أشبه بمخبأ دثابة. وضعونا في حفر من هذا النوع.

- هل دفعوكم مباشرة من الشاحنة إلى داخل الحفر؟

- نعم.

- كم كان إرتفاعها؟ متراً واحداً؟ مترين؟ هل كان باستطاعتك الوقوف في

داخلها؟

- كانت مرتفعة.

- كم كان إرتفاعها؟

- حتى مستوى خاصرة الرجل.

- كم وضع من الأشخاص في داخلها؟

- كانت هناك حفرة لكل شاحنة.

- وكم كان عدد الأشخاص في الشاحنة؟

- قرابة المئة شخص.

- هل كانت حفرة كبيرة؟

- كانت مستطيلة الشكل.

- هل حفرت بدقة بواسطة آلة؟

- بواسطة الجرافات، كما الحفر التي توضع فيها الدبابات.

قرية تيمور تقع قرب الحدود الإيرانية. فخايبء الدبابات منتشرة في المنطقة حول قريته. كان يعرفها جيداً، على الرغم من انه لم ير، ربما، باصاً طوال حياته. أما الجرافات المصممة لحفر مخايبء الدبابات بسرعة وبدقة فكانت كثيرة وتستخدم من دون إنقطاع طوال سنوات الحرب العراقية - الإيرانية الثماني. كانت تلك هي «الجرافات»، التي ذكرها علي حسن المجيد وكان يتذمر من إضرطاره إلى إرسالها ذهاباً وإياباً لطمر و«دفن» أناس مثل تيمور في ١٩٨٨. المقطع العرضي لتلك الحفر كان يبلغ عمقه حوالى الyarدة الواحدة. أما المقطع الطولي فتفاوت علوه، مع حافة ترتفع في أحد طرفيه ليقف فوقها الجنود، وانحناءة عند الطرف الآخر، إلى الجهة حيث تندرج الجرافة دخولاً وخروجاً لكي تنجز الحفرة.

- هل كان الجنود يحيطون بكل جهات القبر؟

- نعم.

- أي نوع من الأسلحة كانوا يحملون؟

- كلاشينكوفات فقط.

- وماذا كانوا يضعون فوق رؤوسهم؟

- أسود على رؤوسهم.

- كانوا يرتدون قبعات سوداً؟

- نعم.

- إذن لم يكونوا جنوداً عاديين؟
- بل كانوا كذلك.
- هل سبق لك ان رأيت جنوداً يرتدون ذلك النوع من البذلات؟
- لا.
- هل كانوا يضعون شيئاً على أعينهم، مثل النظارات الواقية؟
- لا.
- هل كانت لديهم شارات على اكتافهم؟
- لا.
- هل كانت ثيابهم كاكية؟
- لا، خضراء.
- بذلات خضراء مع قبعات سود، مثل الكوماندوس، أو القوات الخاصة...
- نعم.
- هل شاهدت القوات الخاصة من قبل؟
- لا.
- كم كان عدد الرجال المحيطين بالمقبرة؟
- كانوا يحيطونها من كل الجهات، ولكن من أطلق النار جنديان فقط.
- هل بدأ إطلاق النار بعدما أدخلتم جميعاً إلى القبر؟
- نعم.
- هل يمكن ان تصف لي ما جرى؟
- إطلاق النار... كان هناك جنديان يقفان هنا وهناك [يدل على موقعهما على الأرض، وكأنهما كانا في زاويتين متواجهتين من الحفرة] وجعلا يطلقان علينا الرصاص.
- هل أعطى أحدهم أوامر بذلك؟
- نعم.

- أريد ان أعرف بالتحديد، ماذا قال؟
- لم أكن أعرف العرية أبداً آنذاك. لا أعرف ماذا قال.
- هل كان خطباً قصيراً أو طويلاً.
- قصيراً جداً.
- الأشخاص الذين كانوا معك في الحفرة، هل قالوا شيئاً؟
- لا شيء
- هل كانت النسوة يكين؟ هل كان الأطفال يكون؟ ما الذي كان يحدث؟
- كان الأمر عادياً. كنت هناك. هل كان في وسمي ان أفكر
- أو لم تكن تتوقع ان تموت؟
- كنت أعرف اني سوف أقتل.
- هل كان أي واحد يحتاج؟ هل صرخ أحد أو هل حاول أحد الفرار، أو القيام بأي شيء ضد الجنود؟
- لا. كنا إنطلقنا باكراً في الصباح، وعندما وصلنا كان الوقت ليلاً، كان الشيء الوحيد الذي يرغب به الناس هو الخروج من الشاحنة. لا، لم يفعل أحد شيئاً.
- هل كنت تريد فقط الموت والإنهاء من الأمر؟
- أجل.

أتصوّر ان حالة غير اعتيادية وجماعية من انعدام الحس إستحوذت على جميع من في الحفرة. وهي تذكّر برودة فعل اليهود وهم يساقون إلى غرف الغاز على ما وصف في روايات المحرقة والإبادة الجماعية. لم يحتاج أحد لأنهم كانوا مستسلمين كلياً لواقع أنهم سيموتون. ثم بدأت الطلقات تنصب من إتجاهين. ظاهرياً كان هناك رجلان فقط يقومان بإطلاق الرصاص.. أصابت رصاصة تيمور في كتفه اليسرى. إنه جرح في اللحم. نظر إلى الأعلى ورأى ان من أطلق عليه النار كان الجندي الواقف مباشرة أمامه، هذا الذي بدأ تيمور يركض نحوه.

- هل أدركت فعلياً الجندي؟

- نعم.

- هل تمسكت به حقاً؟

- تمسكت بيده، ثم...

- يده أو رجله؟

- يده.

- لكنك كنت داخل الحفرة؟

- لا، خرجت منها وركضت.

- خرجت راكضاً من الحفرة وتمسكت بالجندي. هل هذا ما حدث؟

- نعم.

- هل قلت له أي شيء؟

- لم أقل شيئاً. أمسكت يده. ثم صرخ جندي آخر بالجندي الذي كنت
امسكه وطلب منه ان يقذفني مجدداً إلى الحفرة.

ركض تيمور خارجاً من الحفرة من جهتها المنحنية والتي على أية حال إستخدمتها
الجرفاة لإنجاز الحفرة. كان هناك طوق من الجنود عند تلك الحافة، إضافة إلى أحد الاثنين
الذين كانا يقومان بإطلاق الرصاص. كان الجندي الآخر بالتأكيد من الجهة المعاكسة،
يطلق النار داخل الحفرة على طول خط الانحناء. ولا بد أن تيمور، مدركاً قمة الحفرة
بأعجوبة، فعل أكثر من مجرد إمساك يد الجندي الذي سيقتله. لا بد انه كان قد تعلق
به، متوسلاً إياه بوجهه، وربما حتى بصوته. ربما ليس هناك أي دليل على ما خطر لتيمور
من كلمات في تلك اللحظة الانفعالية غير الاعتيادية.

- هل نظرت إلى وجه الجندي؟

- نعم.

- هل رأيت عينيه؟

- نعم.

- ماذا رأيت؟ ماذا استطعت ان تقرأ في عينيه، في تعابير وجهه؟

- كان على وشك البكاء، ولكن الآخر صرخ به وأمره ان يرميني مجدداً في
الحفرة. كان مجبراً على رمي من جديد.

- هل بكى؟
- كان على وشك البكاء.
- كم كان يبعد الضابط الذي كان يصرخ؟
- كان قريباً منه.
- الجندي الذي دفع بك مجدداً إلى الحفرة، هل كان هو نفسه من أطلق النار عليك مرة ثانية؟
- نعم. ذلك الجندي أطلق النار عليّ مجدداً بعدما تلقى الأمر من الضابط الذي كان يقف إلى جانبه في الحفرة. عندما أطلق عليّ النار مرة ثانية أصبت هنا [وأشار إلى الموضع].
- أطلق رصاصة ثانية فيما كان تيمور يُدفع إلى داخل الحفرة، فاستقرت في أسفل ظهره، لكن بدا ان الرصاصتين لم تحدثا إلا إصابتين طفيفتين، وفي اللحم فقط، على الرغم من أنه، في نهاية محنته، نزف كمية كبيرة من الدم.
- ذاك نفسه الذي كاد يكي، هو من أطلق عليك النار مجدداً؟
- نعم، لقد أجبر على ذلك، كان الآخر قد أمره.
- هل سقطت مجدداً في الحفرة.
- نعم.
- هل كانت الرصاصات تنصب في تدفق متواصل، أو بشكل متقطع فقط؟
- كانوا يتوقفون ثم يبدأون من جديد، ومن جديد مرة أخرى.
- ما الذي كان يحدث للناس من حولك فيما كان يجري إطلاق الرصاص؟ هل هتف أي منهم أو صرخ أو زعق، أو قال شيئاً ما لا تزال تذكره؟
- لم يكن الناس يصرخون.
- ألم يقل أحد شيئاً؟
- لا.
- ألم يهرب أحد آخر من الحفرة؟
- لا.

- ألم يحاول أحد ما غيرك مهاجمة الجنود؟
- لا، كانوا عديمي القوة.
- وكم كان عدد الرجال الذين كانوا واقفين حول الحفرة يطلقون النار؟
- كان هناك إثنان فقط يطلقان النار، وكان الآخرون واقفين.
- ماذا كانوا يفعلون؟ هل كانوا يشاهدون؟
- نعم.
- هل ما كانوا يرتدونه مختلفاً عن زي الرجلين اللذين كانا يطلقان النار؟
- نعم.
- كيف ذلك؟
- كان الرجال الواقفون للمساندة يرتدون زياً أخضر اللون، اما اللذان كانا يطلقان النار فكانا يرتديان زياً عسكرياً.
- ومن الذي كان يرتدي قبعات سوداء؟
- أولئك الذين كانوا يراقبون.
- هل بدا ان هناك قائداً بينهم، رجلاً واحداً يعطي الأوامر؟ أم انه كان هناك أكثر من واحد؟
- كان هناك عديدون. واحد لكل حفرة.
- ماذا جرى بعدما توقف إطلاق النار؟
- غادر الجنود وكانوا يتحدثون مع بعضهم البعض. كان الوقت ليلاً.
- لقد كانوا يدورون بغير نظام حول الحافة الترابية، بانتظار وصول الجرافات لتطمر الحفرة، وتغطي الجثث الساقطة. مضت دقائق على ذلك وتيمور منكمش مرتعد بين الجثث ومتظاهر بالموت. ثم يقول إنه تسلق بجهد إلى خارج الحفرة وألقى نظرة أخيرة إلى داخلها.
- خرجت من الحفرة ونظرت إلى داخلها. رأيت شيئاً ما يتحرك. كانت فتاة.
- قلت لها «انهضي، تعالي نذهب»، فأجابتنني «أنا خائفة من الجنود، لا أستطيع المجيء».
- أخبرني المزيد عنها.

- كنا جالسين في الحفرة. كانت إلى جانبي وقد أصيبت برصاصة في يدها.
- هل كانت أصغر منك؟
- كانت فتاة صغيرة جداً.
- ماذا كانت ترتدي؟
- ملابس كردية.
- كانت أصيبت برصاصة في يدها... هل قالت أي شيء آخر؟
- لا.
- ماذا عن بقية الأشخاص، هل كانوا كلهم أمواتاً؟
- لم يكن يصدر منهم أي صوت.

عندما تحدث تيمور مع الفتاة الصغيرة، كانت قد مضت بضغ دقائق على توقف إطلاق الرصاص. إبان تلك النظرة الأخيرة التي ألقتها على الحفرة رأى أمه سارة وشقيقاته الثلاث، غيلاس ويلي وسروا. رأى كذلك ثلاثاً من عماته إضافة إلى حفصة التي لم يكن لديها أطفال، ومعصومة التي لها ثمانية أطفال. بعدئذ فيما كان الجنود غير متبهين، ركض متجهاً إلى حفرة قرية فارغة وقفز إلى داخلها. وبواسطة قطعة معدنية حفر حفرة داخل الرمل والتف في داخلها تحت ستار العتمة. بقي هناك لفترة مراقباً، بينما الجرافات تهيل التراب على الحفر. كانت الآليات تتحرك وتدور. بعد وقت غادروا فيما فقد هو وعيه أو استغرق في النوم. بعدما إستعاد وعيه وتأكد من مغادرة الجميع، خرج تيمور من الحفرة وبدأ يمشي باتجاه الصحراء. كان الوقت متأخراً في الليل. ويذكر أنه وصل إلى تقاطع طريقين «واحدة قديمة وواحدة جديدة». إنطلق في الطريق الجديدة، بعدما سار قرابة الساعتين، إلى ان اندفعت كلاب ناهبة من العتمة وهاجمته. كان تعثر بخيمة من خيام البدو، وأطل رجل من الخيمة وسلط في عينيه مصباحاً كشافاً. أدخله إلى داخل الخيمة. كانت والدة الرجل وزوجته وشقيقته يعشن كلهن هناك. تقدموا للفتى الطعام والماء، ونزعوا عنه ثيابه الكردية، وألبسوه دشداشة عربية. كانت العائلة قد سمعت صوت إطلاق الرصاص.

بقي تيمور مع تلك العائلة البدوية طوال ثلاثة أيام. أخفوه عن بقية العائلات في الخيام القرية. وفي اليوم الرابع أخذوه إلى منزل قريب لهم في مدينة السماوة، وهناك جرت معالجته سراً بواسطة أدوية وأدوات أحضرت من المستشفى المحلي.

بقي تيمور مع تلك العائلة قرابة الستين، تعلّم خلالهما التكلّم بالعربية. انه اليوم يتكلّم العربية بلكنة شيعية جنوبية. أصبح قريباً جداً من الناس الذين أنقذوه ورفض بعناد ان يقدم لي أية معلومات إضافية عنهم.

في نهاية الأمر استطاع تيمور العودة إلى كردستان. ابن عائلة السماوة كان جندياً وكان لديه صديق كردي في الجندية. وذلك الكردي سجل أسماء أقارب تيمور كلهم، واستطاع العثور على عمّة أخرى من عّمات تيمور، رافقت بدورها الجندي الكردي إلى منزل عمّ له كان نجاً من العملية ويعيش في منطقة كالار. قدم العمّ إلى السماوة بمهتة سرّية لإرجاع الصبي، وبعد بضعة أشهر، أحسّوا ان تيمور لم يكن يحسن بأمان حتى مع عمه، إذ ربما اكتشفت السلطات العراقية أمر فراره. هكذا هربوه بطريقة خفية مجدداً إلى منطقة جرميان، حيث عاش مع راع حتى انتفاضة آذار/ مارس ١٩٩١.

وأنا أنظر مجدداً إلى مخطوطة مقابلتي مع تيمور، أدرك ان أسئلتي لم تظهر التعاطف الكافي مع ما كان هو يشعر به. كانت أسئلة قاسية، وواقعية، ومن النوع الصحافي، على الرغم من اني كنت في ذلك الوقت عاطفياً جداً. لا بد أني كنت منطوياً على نفسي، على نحو ما كان تيمور إذ بدا هادئاً مسترخياً ومتناسكاً، بينما هو يتحدث عن ذروة الرعب الذي يمكن ان يعيشه كائن حي، لا سيما فتى في الثانية عشرة من العمر طبعاً. قرابة انتهاء مقابلتنا، إستخدم تيمور فجأة كلمة «أنفال» للمرّة الأولى.

- استخدمت الآن كلمة «الأنفال». سابقاً عندما سألتك لأول مرّة، قلت لي أنك لم تسمع أبداً هذه الكلمة تُستخدم من قبل، متى كانت أول مرة سمعت فيها عن الأنفال؟

- عندما عدت من سماوه، سمعتها في كردستان للمرّة الأولى.

- ماذا تعتقد ان الأنفال تعني؟

- أنفال تعني كافر.

- لماذا تعتقد ان الحكومة العراقية دعت الذي فعلته بكم الأنفال؟

- لست أدري.

- ماذا تشعر حيال العرب؟

- جيّدون.

- من فعل بكم كل تلك الأمور الفظيعة؟
- العرب.
- إذا كيف تشعر حيالهم؟
- لا أقول كل العرب. انا أقول فقط ذلك...
- هل لئنك أحدهم هذه الأشياء لتقولها؟ أريد ان أعرف كيف تشعر. لست أهتم بماذا قال لك أي واحد لتقوله لي. أريد ان أعرف شعورك من الداخل. من فعل هذا بك، الحكومة أو العرب؟
- الحكومة.
- إن كنت تستطيع الاختيار، فماذا تريد ان تفعل بحياتك الآن؟
- لست أعرف بما يتعلق بي.
- هل هناك شيء ترغب فيه أكثر من شيء آخر؟
- أجل.
- ماذا؟
- ان أصبح شخصاً مشهوراً.
- شخصاً مشهوراً؟
- أجل.
- مشهوراً بماذا؟
- بالأنفال.
- هل تريد ان تكون مشهوراً أكثر بالأنفال، أو في ان تصبح من البشمرغا؟
- بالأنفال.
- ما الذي تعنيه «مشهوراً بالأنفال»؟
- أريد ان يعلم العالم ما الذي جرى لي.

٦ - تذكر القسوة

اعتقدت، حتى وقت قريب، أن «الأنفال» اسم لسورة قرآنية. عندما أطلق صدام حسين عملية عسكرية ضخمة في جنوب العراق في حزيران/يونيو ١٩٩١، مطلقاً عليها أيضاً اسماً شفوياً هو «الأنفال»، لم يكن لدى أي مناء نحن العراقيين الذين اندفعنا في كل الأمكنة لإيصال الخبر إلى وسائل الإعلام، أية فكرة عن المعنى الضمني الكامل لإختياره تلك العبارة. هرب اللاجئون من إنتقام النظام في أعقاب عمليات الثأر التي تلت إنتفاضة آذار/مارس ١٩٩١ الفاشلة، ودمّرت مجتمعات سنية بأكملها مع كل الجوار في مدن جنوبية. طوال أسابيع كان كل ذكر شيعي يفوق عمره الإثني عشرة سنة معرضاً للإعدام بالرصاص، وللجرف داخل مقابر جماعية بالجرفافات. كل تلامذة الفقه الذين استطاع النظام إلقاء القبض عليهم أعدموا. أناس مثل أبي حيدر هم من الذين فوّزوا هارين من كل ذلك، لكنهم، إذ لم يستطيعوا الفرار من البلاد، لجأوا إلى منطقة الأهوار ما بين دجلة والفرات في جنوب العراق. في حزيران/يونيو بدأ الجيش حصاره لهم وقطع عنهم المواد الغذائية والوقود والأدوية. فقط عبر تذكر إستعادي للأحداث، استطعت أن أدرك ان تلك ليست إلا إستعادة للسابقة الكردية الرهيبة في ١٩٨٨.

سوف يستمر البشر في مناقشة مسألة جوهر الحقيقة حتى نهاية الأزمنة. لكنه لن يكون هناك أي نقاش حول ماهية القسوة. منذ الآن فصاعداً ستحمل عبارة «الأنفال»، إلى الأبد ولدى كل عربي، معنى جديداً أعطاه لها حزب البعث العراقي وهو: الإبادة الجماعية المقررة رسمياً في العام ١٩٨٨، لما لا يقل عن مئة ألف كردي.

وهذا المعنى الجديد هو بداية اعتراف بمسؤولية ما جرى في ١٩٨٨. فلن يكون ثمة مستقبل طبيعي للعراق من دون ذلك الإعتراف. الماضي لا يزول هكذا كأن لم يكن، ينبغي مواجهته قبل أن يوضع جانباً.

إن بلدًا وثقافة خبرا تجربة كالأنفال، أو ما عاشه كل العراقيين في تجربة العام ١٩٩١ لا يمكن أن يعودا إطلاقاً إلى الحياة «كما كانت من قبل». هل باستطاعة تيمور أن يعود مجرد طفل كردي صغير مرة ثانية؟ تذكارات ما جرى في ١٩٨٨ و ١٩٩١ ليست إلا بعضاً من الميراث الضخم المرير الذي تركه صدام حسين، هذا الميراث الذي سيعيش معه الشعب العراقي زمناً طويلاً بعد ذهابه.

لكن من هو المسؤول عما جرى في ١٩٨٨؟

لم أعرف بشأن عمليات الأنفال حتى تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩١. هل يعني هذا أنني لست مسؤولاً؟ كان العالم يعرف بالتأكيد، وعلى الأقل منذ ١٩٧٥، انه كان يجري إعادة توطين الأكراد. عدد كبير من الناس كان يعرف أن المئات ان لم نقل الآلاف من القرى أزيلت من الوجود. كانت الأنفال هي الذروة المنطقية جداً للوحشية المتصاعدة التي كانت تمارس منذ سنوات داخل العراق، وبمعرفة تامة من جميع الحكومات الغربية والمثقفين العرب: الأولى سلّحت الطاغية والآخرين (المثقفون) دعموه سياسياً. والآن، ممّت الوحشية الجميع.

المسؤولية عن الموتى الأكراد في الأنفال تتعدى النظام البعثي في بغداد. هل يعني هذا أن كل عراقي عربي مسؤول أيضاً؟ ومن جهة أخرى، هناك عدد كبير من الأكراد ما كان ليلاقى حتفه لو لم يُسَاقَ أكراد آخرون إلى خارج قراه ويذهب به إلى حتفه. هل يعني هذا ان الأكراد مسؤولون أيضاً؟

إن كل عربي مسؤول؟ كتبت ملايين الكلمات والسطور عن تدمير مئات من القرى الفلسطينية إبّان قيام دولة إسرائيل. وهذا أمر محق. إلا أن العديد من المثقفين الذين كتبوا تلك الكلمات، اختاروا الصمت عندما تعلّق الأمر بإزالة آلاف القرى الكردية من قبل دولة عربية. يبدو اننا لا نعرف إلا الأمور التي نريد معرفتها.

ربما تقع المسؤولية أيضاً على الحكومات المتحالفة التي دمّرت العراق لإجبار صدام حسين على الخروج من الكويت. العديد من العراقيين يتذكرون انه في الماضي، في العام ١٩٨٨، كان صدام حسين صديق الجميع. جورج بوش، الذي كان آنذاك نائب رئيس الولايات المتحدة، تدخّل شخصياً لمصلحة نظام البعث في مناسبات عديدة، لجعل بلاده «ترجح» كفة العراق خلال الحرب العراقية - الإيرانية^(١). إنهم يذكرون تلك الأيام غير البعيدة، يذكرون بأية طريقة جرت الحرب في الخليج، ويرون أن صدام ترك في السلطة ليشفي غضبه دماراً وخراباً بشعبه، وقالوا: هل كان رئيس الولايات المتحدة قد تلقى معلومات استخباراتية بشأن عمليات الأنفال، وهل تجاهل عمداً تلك المعلومات

واستخباراته؟^(٢). في ذات يوم، أعتقد أننا سوف نعثر على قبور جماعية من ذلك النوع الذي وصفه تيمور، في الصحراء غربي السماوة قرب الحدود السعودية. وقد حدث بالصدفة انه بينما كانت تسحق الإنتفاضة العراقية في آذار/مارس ١٩٩١، كانت القوات المتحالفة تمسك بين السماوة والحدود العراقية - السعودية، وربما بالضبط فوق تلك القبور، وتشاهد حدوث تلك المذبحة. هل كان أحد يعرف في أروقة السلطة في واشنطن، فوق ماذا يجلس جنودهم؟

تذكر حرب الخليج

الحرب جحيم، لكن ليست كل الحروب جحيماً من النوع نفسه. لقد تبين أن الطريقة التي انتهت بها الولايات المتحدة حرب الخليج أشد أذى لشعب العراق، وقد أوقعت ضحايا يفوق عددها ما قد توقعه حرب مباشرة. مع بداية صيف ١٩٩١ كان العراق قد تحول من بلد معاصر يمتلك جهازاً طبياً متطوراً، وشبكات مياه، ومجارير، ونظام طاقة كهربائية، إلى «أحد أكثر بلدان العالم فقراً». كان هذا استنتاج فريق دراسة عالمي مؤلف من ٨٧ باحثاً أكاديمياً ومختصاً. لقد زاروا العراق في أيلول/سبتمبر ١٩٩١، ليدرسوا تأثير الحرب عموماً على صحة المدنيين ورفاههم^(٣). كان ما يزيد عن نصف عدد السكان ما زالوا معرضين للتلوث بالمجاري، إذ اختلطت أوساخها بمياه الشفة التي كانوا يشربونها طوال الأشهر السبعة التي أعقبت وقف إطلاق النار. ثلث أطفال العراق كانوا يعانون من سوء التغذية، وارتفعت أسعار المواد الغذائية بين ١٥٠٠ و ٢٠٠٠ بالمئة فيما تدنت قيمة الأجور ما دون الـ ٧ بالمئة قياساً لما قبل الحرب. الأمراض المنتقلة بالماء تضاعفت مئة مرة ومنها التيفوئيد والأمراض المعوية والكوليرا، وكثرت التهابات الكبد وانتشر مرض التهاب السحايا في جنوب العراق، وانبعثت في كل مكان أمراض لم تعد مألوفة مثل شلل الأطفال والحصبة والكرزاز^(٤).

إبان حرب الخليج، وعلى الرغم من الـ ١٢٠ طلعة التي قامت بها طائرات التحالف، لم يكن التدمير والأضرار التي لحقت بالمناطق السكنية واسعاً وشاملاً، ولم يجر البتة ما يمكن أن ندعوه بحملة قصف جوي عشوائي نموذجية. كذلك لم يكن عدد الضحايا المدنيين مساوياً لما يمكن أن يتوقعه المرء من حملة بتلك الضخامة، كان عدد الموتى المدنيين يتراوح بين ٣ آلاف و ٥ آلاف^(٥). والتقديرات المتعلقة بعدد الجنود العراقيين الذين قتلوا في المعارك تتراوح ما بين ٣٠ ألفاً ومئة ألف قتيل، لكن ثمة إجماعاً متزايداً على أن تلك الأرقام تحتاج إلى إعادة نظر وتعديل نحو الأقل^(٦).

بيث دابونت ديموغرافية تعمل في مكتب الإحصاءات السكانية الرسمية في الولايات المتحدة، تقدّر انه سقط ٥٣ ألف قتيل بسبب الحرب مباشرة في كانون الثاني/يناير وشباط/فبراير، في مقابل ١٠٥ آلاف عراقي قتلوا بنتيجة الإنتفاضة ضد صدام حسين ونتيجة أمراض وبائية شائعة، وأمراض منقولة بالماء نتجت عن الدمار الحربي للبنية التحتية للبلاد^(٧). ويبدو أنها اسقطت من حساباتها عدد القتلى بين اللاجئين الأكراد والشيعة الذين هربوا إلى الجبال بعد فشل الإنتفاضة. فخلال الهجرة الجماعية التاريخية لأكثر من مليوني كردي - أغليبيتهم الساحقة من الأحداث - كانوا يموتون بمعدل يتراوح بين ٤٥٠ و ٧٥٠ يوماً بسبب الإسهال، والأمراض التنفسية المعوية والمبرحة، والجروح. وفي المجموع مات ما بين ٢٥ ألفاً و ٣٠ ألف كردي^(٨). غير أن الشيعة العراقيين تكبدوا القسط الأعظم من إنتقام صدام حسين بعد انتهاء الحرب، ولا أحد يعرف كم من عشرات الآلاف قتل منهم.

الطابع المتطور تكنولوجياً للحرب استطاع إنهاء وجود العراق كدولة حديثة بعد بضع ساعات على بدء المعركة. وطن بأكمله ترك «ميت الدماغ»، بحسب وصف ريتشارد ريد من صندوق الأمم المتحدة للأطفال. قال إن «بغداد بدت مدينة، غير مخدوشة بشكل أساسي، وجسداً لم يمتّ جلده بشكل جوهري، فيما كل عظمة أساسية فيه محطمة وكل مفاصله وأوتاره مقطوعة»^(٩). فريق دراسات من هارفرد زار إحدى عشرة مدينة وبلدة عراقية رئيسية من ٢٧ نيسان/أبريل حتى ٦ أيار/مايو استنتج التالي: «على الرغم من أن قصف التحالف الجوي قد ألحق خسائر قليلة نسبياً بين السكان المدنيين، إلا أن تدمير البنية التحتية نتجت عنه عواقب طويلة الأمد ومدمرة على الصعيد الصحي. نعتبر عادة أن الضحايا المدنيين هم فقط الذين قتلوا كنتيجة مباشرة لإصابتهم خلال الحرب، غير أن هذا التفسير بحاجة إلى إعادة نظره»^(١٠).

إن الضحايا الحقيقيين للبراعة التكنولوجية الأميركية كانوا أطفال العراق. توصّلت دراسة معمّقة قامت بها مدرسة هارفرد للصحة العامة، وكانت ارتكزت على دراسة عينة سكانية من ١٦,٠٧٦ طفلاً عراقياً، إلى أن «نسبة وفيات الأطفال ازدادت ثلاثة أضعاف على الأقل بنتيجة حرب الخليج، والإنتفاضة المدنية التي تلتها، وإستمرار العقوبات الاقتصادية. هذه الزيادة تتطابق مع زيادة تبلغ قرابة ٤٦٨٩٧ من الوفيات بين الأطفال العراقيين الذين تقل أعمارهم عن الخمس سنوات ما بين كانون الثاني/يناير وآب/أغسطس ١٩٩١»^(١١). دراسة أخرى ركّزت على مدينة البصرة، حيث يعيش حوالي الـ ١٧٥ ألف طفل، واستنتجت من خلال عينة سكانية تتألف من ٧٢٣ طفلاً، كانت الأغلبية بينهم تتراوح أعمارها بين يوم واحد و ٣٦ شهراً، أن ٨ بالمئة كانوا بحكم

«المصابين بالهزال» طبيًا، و ٢٤ بالمئة «متوقفين عن النمو» كلياً، و ٢٠ بالمئة «يعانون أشكالاً معتدلة أو متطرفة من سوء التغذية»^(١٢). تلك الدراسات تثبت أن الرابط بين حرب الخليج وأمراض الأطفال ووفياتهم كانت أقوى في شمال العراق وجنوبه منها في المناطق الوسطية. وبكلام آخر، مات نسبياً عدد أكبر من الأطفال الأكراد والشيعية كنتيجة مباشرة للقرار الأميركي باستهداف محطات الطاقة في البلاد، ومن ثم التنصل من العراق، وتركها من دون إصلاح. وبالنسبة إلى الشرق الأوسط ككل، يقدر رسميون من الأمم المتحدة أن ما يقارب الخمسة ملايين معرّضون لخطر أن يقضوا سنوات تكوينهم في ظروف العدم نتيجة لحرب الخليج. «نستطيع أن نتحدث بثقة مرعبة وخطيرة عن جبل ضائع»، هذا ما قاله ريتشارد ريد^(١٣).

تأثيرات حرب الخليج سوف تبقى داخل أولئك الأطفال الذين نجوا من القصف الجوي، وانتقام النظام، وكوارث الأمراض وسوء التغذية. عالمان نفسيّان كانا من بين أعضاء فريق الأبحاث الدولي الآنف الذكر، وهما متخصصان في مجال صدمات الأطفال النفسية، أجريا مقابلات مستفيضة مع ٢١٤ طفلاً عراقياً في أعمار الصفوف الابتدائية، وتوصلا إلى استنتاج مذهل وهو أن «الصدمة النفسية التي يعيشها أطفال العراق من جراء الحرب، تفوق أية صدمة تعرّض لها الأطفال من جراء الحروب عبر التاريخ». كما اكتشفا مستويات من الحصر النفسي والقلق، والضغط النفسي، والسلوك المرضي لم يسبق لها مثيل عبر سنوات أبحاثهما الميدانية الخمس عشرة في بلاد ممزقة بالحرب مثل الموزامبيق، أو أوغندا أو السودان. فقد تراوحت الأعراض التي وصفها في تقريرهما ما بين «الكآبة العميقة» و«الافتقار إلى الحياة». كان الأطفال مشوّهين من الداخل بالكآبة والحزن والخوف المريع. ثمانون بالمئة من الذين أجريت معهم الأحاديث يعيشون خوفاً يومياً من احتمال فقدان عائلاتهم بالموت أو الانفصال، ثلثاهما تقريباً يعتقدون أنهم لن يبقوا أحياء حتى بلوغهم سن النضوج. وينتهي التقدير بالإستنتاج التالي: حتى في المناطق الأكثر تضرراً وتأثراً بالحرب في الموزامبيق، كان الأطفال لا يزالون يلعبون ويتصرفون كالأطفال. الأطفال في العراق ذكروا كاتبين بوصف «الموتى الأحياء» الذي ظهر بعد إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما^(١٤).

في أوائل خريف ١٩٩١، تلقيت رسالة من صديق قديم للعائلة، يدعى أبو علي (اسم مستعار)، وهو رجل من جيل والدي كنت أجله واحترمه أيام المراهقة في العراق. رسالته تستعرض اليأس الذي استولى على جميع العراقيين طوال الأشهر التي تلت الحرب. أبو علي استطاع الخروج من بغداد مع عائلته وكان يكتب إليّ من عمّان. كان قد علم للتوّ انني أعد وثيقة تحمل عنوان «ميثاق ٩١»، وهي حملة جمع توقيعات بين العراقيين، غايتها

الربط بين حقوق الإنسان وقيام تصوّر سياسي مبني على التسامح الديني والسياسي^(٥). نص الميثاق كان قد نشر في إحدى الصحف اليومية العربية المتوافرة في الأردن، وكان أبو علي يكتب ليوبخني على مثاليتي العديمة الفائدة، وعلى كوني غريباً عما يجري داخل العراق. تختصر رسالته، بلغة أفضل مما يسعني أن ابتكر، اليأس والقنوط اللذين يشعر بهما العديد من العراقيين.

«عزيزي الأخ كنعان

... لا أدري هل سينقل لك هذا الورق الأزرق البريء بعض ما أحس به والقليل مما يضيق به قلبي من هموم مجتمعتنا.

الذي أراه - واسمح لي بقول ذلك - إن آراء وأفكار الأبراج العاجية العالية التي صعدت للسماوات حتى لم نعد نراها إلا بالكاد أو بمجرد السماع عنها وأعتقد أن مجتمعنا أصبح اليوم مثل مجتمع «١٩٨٤»^(٦) وليس هناك من يتذكر أو حتى أن يتجاسر بتذكر معاني كلمات «الحرية» و«الديمقراطية» و«الأخوة» و«الإنسانية». ولم يعودوا يعرفوا ما هي «حقوق الإنسان» وما لهم وما عليهم. صار واجهم اليوم أن يصفقوا ويهتفوا للأخ الأكبر Big Brother: «بالروح... بالدم... نفديك يا صدام»...

وصار همهم اليوم أن يعيشوا.. مجرد أن يعيشوا كالأغنام.. ومجرد أن يحافظوا على رؤوسهم قائمة على أكتافهم.. أو أن يملأوا بعض بطونهم الجائعة ليبقوا أحياء.. أو أن يحافظوا على القليل الذي لديهم خوفاً من سرقة من قبل جلاوزة الحزب أو شرطته أو الجائعين المشردين.. أو أن يحافظوا على ألسنتهم خوفاً من أن تصدر كلمات لا يرضيها أمن صدام أو مخابراتهم وتأخذ بهم إلى المشنقة...

أسمع لي يا كنعان... فهل تتوقع من مثل هذا الفرد أن يثور. نعم ثار البعض ولكن لأسباب قومية أو اقليمية أو طائفية.. ثم لحق بهم المتذمرون.. ومن ثم ماذا كانت نتيجة ثورتهم فالذين قتلوا في الثوار ضعف من قتلوا في حرب الخليج.. وبعد ذلك عوملوا هم وعائلاتهم وأملأهم وممتلكاتهم.. بل حتى مقدساتهم أسوأ معاملة وبأقسى أسلوب ولا يكاد أن يصدق.. فهل تتوقع بعد ذلك أن يثور الشعب وهناك جيش جمهوري وأمن وحماية ومخابرات نزلت منهم كل القيم

(٥) ملاحظة المترجم: اسم رواية الأديب الانكليزي جورج أورويل الشهيرة التي تصف المجتمع التوتاليتاري.

الإنسانية وأصبحوا وحوشاً لا رحمة في قلوبهم لطفل أو شيخ أو امرأة أو مريض أو عالم أو... أو... وليس هناك من يحاسبهم (ولا أقول يعاقبهم) على كل ما يقترفوه من أعمال وحشية إنسانية.

وبعد كل هذا لنعود إلى ميثاق ٩١ والدعوة لجمهورية التسامح فهي موجّهة لمن؟ للشعب العراقي؟ لا.. انها موجّهة للمثقفين القابعين في أبراجهم العاجية في بلدان الحرية والنعيم والرخاء وهم آمنون وليس هناك من مخابرات تراقبهم أو تكلم أفواههم... بل وتفكيرهم... وكل ما لديهم هي هواية معارضة الحكم الديكتاتوري في العراق والتحريض على الثورة عليه... دون أن يرفع أي منهم ولا حجارة يرميها في وجه هذا الحكم... ويسمع «بعض» الناس في العراق أخبار هذه المعارضة.. وقد ملّ الناس.. انهم يريدون عملاً.. انهم يريدون من ينقذهم من براثن هذه الجور الطاغية...

بعد كل هذا الا ترى أن الوضع في بلدنا الآن أصبح ميؤوس منه؟... فالشعب العراقي كله يائس وأصبح يلوم القوى الخارجية (وخصوصاً امريكا) على ما يعانوه من بؤس وتسلط وجور وطفيان ويرفعون أيديهم إلى السماء ذارعين أن يهدي الله امريكا أو بوش أو أي من المدعين بالإنسانية والديمقراطية وحقوق الإنسان أن يأتوا لينقذوهم مما هم فيه من آلام.

حين يُكتب في كتب التاريخ هذا النوع من الكلام الحقيقي والصادق الذي كتبه أبو علي سوف يتساءلون أي نوع من الحروب كانت تلك الحرب؟

* * *

في تموز/ يوليو ١٩٩١ تلقيت اتصالاً هاتفياً غريباً من منتج تلفزيوني كان مهتماً بإنتاج برنامج فكرته إنشاء نصب تذكاري لعملية «عاصفة الصحراء». كان قد رشح أن ثمة في مكان ما من واشنطن من يفكر بإقامة نصب من هذا النوع. لربما كانت الفكرة قد دغدغت مخيلة البيروقراطيين بعد أن قام المحافظ دايڤيد هيكميز بإطلاق «أم الاستعراضات» في ١٠ حزيران/يونيو بمدينة نيويورك. حوالي الخمسة ملايين شخص، وهو أكبر حشد اجتمع في مناسبة واحدة عبر تاريخ المدينة، اصطفوا على طول ميل من الطريق الممتدة بين حديقة باتيري پارك وورث ستريت. كانت تلك فرصة سانحة للمدينة، كي «تعبّر عن إمتنانها لأولئك الذين ضحّوا بأنفسهم وماتوا من أجل البلاد، وان تنباهي برجالها الجنود، على الرغم من الأزمة المالية والركود الاقتصادي»، كان هذا ما

كتبته صحيفة النيويورك تايمز مباركة الاحتفال. هل كان في ذهن الكاتب أولئك الجنود الـ ١٤٦ الذين قتلوا في المعركة، والعدد الأكبر منهم ذهب «برصاص صديق»؟ ربما كان يحول في باله ما قاله جورج بوش في الأول من آذار/مارس بعد يوم واحد من إعلانه وقف إطلاق النار، وبعد يوم كامل من بدء الإنتفاضة العراقية ضدّ صدام حسين. قال بوش: «إنه يوم فخر للأميركيين، وبحقّ الله لقد ركلنا عقدة فييتنام مرة وإلى الأبد»^(١٦). السؤال بقي غير مطروح وغير مجاب عليه وسط زخات الأشرطة الورقية والقصاصات الاحتفالية التي تكدست سميكة، والتي قال عنها المقال: «كانت السماء في بعض الأحيان تعتم»^(١٧).

أيّا كان مطلق فكرة النصب التذكاري لحرب الخليج، فإن المنتج التلفزيوني كان يدرك أنها فكرة حسنة. كانت تقوم على استباق النقاش الوطني الذي لا بد أن ينشأ وتفرغه. كان قد جرى الاتصال بعميد كلية يال للهندسة، وقد أبدى استعداداً لتنظيم تجربة تصاميم بين الطلاب تتيح المجال لإختيار مخططات ورسوم. وبدت مناقشة مثمرة لتلك المخطوطات المفترضة، مفيدة لتركيز الإنتباه إلى المسائل الأخلاقية المرتبطة بالأمر، وبطريقة تعجز لجنة واشنطن عن القيام بها. مايا لين التي صمّمت نصب حرب فييتنام التذكاري، كانت تلميذة في يال عندما فازت بالمسابقة الخاصة بذلك النصب في ١٩٨١، وكان على البرنامج أن يناقش الآراء المختلفة التي قامت حول إنجازها العظيم، كما يتخذ، في الوقت نفسه، كنقطة إنطلاق لسلوك جيل جديد نحو نوع مختلف جداً من الحروب.

لسوء الحظ كانت تلك المكالمات التلفونية بلا أية نتيجة. غير أن الفكرة من ورائها تطرح السؤال التالي على الأميركي: ما الذي يستحق أن نحفظه في الذاكرة من حرب الخليج؟

نصب حرب فييتنام التذكاري حقق غرضه كونه تحاشى ذكر الروح الوطنية واكتفى بإعلان وفائه للذين قضوا - فردياً أو جماعياً - بوصفهم القيمة الوحيدة الجديرة برفع أي نوع من النصب لتذكارات تلك الحرب بالتحديد. جدار لين الغرانيطي المعلق والخفيض والمستند الأطراف، والمحفورة عليه أسماء الـ ٥٨١٣٢ قتيلاً أميركياً يعبر عن شعورين مترافقين وهما خجل الأمة، وحنوها على أولئك الذين فقدوا. إن واجهة النصب العاكسة تثير التأمل، وتحول النظارة إلى مشاركين متخيلين، متوزّطين في الحرب التي يصار إلى تذكّرها ككلاحة بسيطة من الأسماء الإفرادية مرتبة بحسب تواريخ الأيام التي ماتوا فيها. فضلاً عن كون النصب مغروراً في الأرض لا مرتفعاً فوقها على نحو ما تقف عادة النصب التذكارية التقليدية. كذلك أطلق على نصب لين التذكاري اسم «جرح العار البليغ»، فيما الجدار الغرانيطي الأسود المنخفض والذي يتوجب الهبوط إليه، يقف على

طرف تناقض حاد مع المسلة الرخامية البيضاء لنصب واشنطن التذكاري. وهذا، بكل تفصيل فيه، يصرخ ضدّ تمجيد الحرب، أو تأليه القوة. في تلك النقطة تكمن بلاغته.

والآن لنفترض انه ينبغي إقامة نصب تذكاري لحرب الخليج، فعما ينبغي أن يعبر؟

أفكر بكل أولئك العراقيين، أمثال أبي حيدر وحמיד، الذين انتفضوا ضد نظام البعث في آذار/مارس ١٩٩١. إن رئيس الولايات المتحدة سمح لطاغية العراق الكبير بتقطيعهم إرباً بمدافع أسلحته الرشاشة. لم يكن من المفترض أن يموت العديد منهم. أفكر بكل مراكز الطاقة الكهربائية تلك التي كان بوسع فيالق الجيش الهندسية أن تعيد بسرعة تشغيلها بشكل مؤقت (كما جرى في الكويت). أفكر بكل أولئك اللاجئين أمثال مصطفى الذين ما كانوا ليهربوا إلى الجبال والمستنقعات. أفكر بكل أولئك الأطفال الذين ماتوا جراحاً بالأمراض وسوء التغذية. أفكر بالعراقيين العاديين، مثل عمر، والذين يتعرضون بشكل روتيني لوحشية تفوق التصوّر. وأخيراً وليس آخراً أفكر بتلك الرسالة من عتّان، المرسلة من شخص كان خسّر، شأن جميع العراقيين في داخل البلاد، أهم شيء في الحياة بعد الحياة، وأتمن ما يمكن أن يملكه كائن بشري، ألا وهو الأمل. إن الحقائق التي كتبها هي كلمات نقش ضريح الحرب التي لم تكتمل لجورج بوش.

ما كان ينبغي أن تنتهي الأمور على هذا النحو، وهذه الحقيقة توفر الإطار الأخلاقي المناسب الذي ينبغي أن تعمل من خلاله كل هايا لين مستقبلية، مرشحة عبر قتها، ومن أجل الذاكرة الأميركية، هذا المعنى لحرب ١٩٩١ ضد العراق. فحرب فيتنام وحرب الخليج مرتبطتان ارتباطاً غير قابل للإفصام في الضمير الشعبي الأميركي، غير أن عدد القتلى بالكاد يكفي لإقامة نصب تذكاري لحرب الخليج. هناك فقط عدد ضخم من القتلى العراقيين. فإن قرروا يوماً بناء نصب تذكاري لحرب الخليج في واشنطن، فإن دعائمه الأخلاقية لن تكون بعد الآن خجل الأمة، بل فقدانها الإحساس بالرحمة.

تذكر الأنفال

إن سنة ١٩٨٨، سنة الأنفال، ينبغي أن تدخل كتب التاريخ العربية كمثال مميز عن وحشية تفوق الوصف. إنها مميزة إلى درجة أن صدام حسين بالذات إختار أن يحفظ ذكراها. أزيح الستار عن «قوس نصر» في بغداد بمناسبة الذكرى الأولى لنهاية حرب العراق مع إيران، وصدف أيضاً انه في آب/اغسطس ١٩٨٨ كانت تجري وخاتمة الأنفال». كانت فكرة صدام إقامة قوس يعني مواز في ارتفاعه لقوس النصر الفرنسي

«أرك دو تريومف» (ارتفاعه ٥٤ قدماً) الواقع عند نهاية شارع الشانزليزيه في باريس. كانت بطاقة الدعوة التي تدعو السفراء الغربيين وشخصيات مرموقة من أنحاء العالم إلى حفل الافتتاح، تصف نصب صدام التذكاري كـ «أحد أضخم الأعمال الفنية في العالم». وفي ذلك النهار، عبر الرئيس تحت قوسه ممتطياً حصاناً أبيض هو الرمز العربي للنقاء والزهو الرجولي.

الحدث الأهم بشأن النصب والذي جاء الناس بقصد رؤيته، هو كون رئيس العراق نفسه من تصوّر النصب، لا كمجرد تصميم نظري، بل كرسم تخطيطي فعلي. لم يخطر في بال أحد من قبل أن صدام حسين كان قنّاناً. كان نموذج النصب المصغر قد صُبّ بقالين من الجص للذراعين الرئيس بالذات، ثم جرى تكبيرهما إلى طول يقارب الـ ٥٤ قدماً. وهاتان الذراعان كانتا تنبعثان من الأرض مثل جذعي شجرة برونزين وترتفعان حاملتين في كل قبضة سيفاً يبلغ طوله ستة وستين قدماً. يتقاطع السيفان ليشكلا قمة القوس عند نقطة ترتفع ما يقارب الـ ١٣٠ قدماً عن سطح الأرض، وكل من الذراعين مع القبضتين، مع الإطار الفولاذي الذي أثبتت فيه القبضة والذراع، وزن ٤٠ طناً. وكان كل من السيفين المصنوعين من الفولاذ غير القابل للصدأ، وزن ٢٤ طناً. وذلك الفولاذ، كما تقول بطاقة الدعوة صيغ من أسلحة «الشهداء» أنفسهم بعد صهرها وتذويبها. مخلفات من الحرب متمثلة بخمسة آلاف خوزة إيرانية حقيقية كانت قد جمعت من أرض المعركة، وجمعت في شبكتين (٢٥٠٠ خوزة في كل شبكة). وهذان الكيسان المتفخخان تمزقا إرباً عند القاعدة، لتنتشر الخוזات على الأرض حول الذراعين المنبثقتين من الأرض. أن تنظر إلى الخוזات عارفاً أن خدوشها وانبعاجاتها وثقوب الرصاص حقيقية، وإن رؤوساً بشرية كانت بالتأكيد قد انفجرت في داخلها، معرفة تخطف الأنفاس، كمثل معرفة أن ذينك الذراعين لم تكونا أي ذراعين بل نسختين عن ذراعي الرئيس بالذات، بأصغر تفاصيل تنوعاتها وخربشاتها.

تطرقت في مكان آخر إلى الأساليب المتعددة التي يرمز فيها ابتكار صدام إلى عالم حزب البعث الذي أنتجه، على أكمل وجه^(١٨). انه شنيع، ولكن ليس بطريقة عادية، انه شنيع بطريقة تخطف الأنفاس، وهو سوقي إلى درجة منقطعة النظر... خذلتي الكلمات آنذاك وها هي تخذلني الآن أيضاً. قوس النصر المثبت في وسط المدينة التي ولدت فيها ونشأت، يتميز ببخاصية من البشاعة منتشرة في كل تفصيل فيه، وهي تفوق بشاعة مطلق نصب عام آخر أعرفه، إلا أنها في النهاية غير قابلة للتفسير.

في مقابل ذلك، فإن نصب مصطفى العسكري التذكاري لما جرى في قرية غبطة

في ٣ أيار/مايو ١٩٨٨، عادي بقدر ما هو نصب صدام حسين استثنائي^(١٩). إنه عادي إلى درجة أنه، كشكل، غير مثير للإهتمام. قوسان إسميتان مثبتان على منصة عالية تبدو وكأنها إطار غير مكتمل لمنزل مائل السطح. ليست هناك أية مرجعيات رمزية أو بصرية لتلك الظروف الإستثنائية والمريعة التي دفعت إلى إنشاء ذلك الابتكار. هنا لا يوجد أي «تناسق» ملفت بين الشكل المتجسد، والمقصود الرمزي، كما الحال وبوضوح في قوس نصر صدام حسين. غير اني أعتقد أن المدفن أفلح في التعبير عما كان يريد مصطفى بناءه.

فما الذي يعنيه جنوك فوق تلّة، كما فعل عبدالله في ٣ أيار/مايو، ومشاهدة الطائرات وهي تقصف قرينك بالأسلحة الكيميائية، ثم تعجل منحدرًا إلى النهر الذي كنت عرفته طوال حياتك، لتجد كل أولادك أمواتًا وأملك ممددة في المياه الضحلة وفيها «منكب على وحل الضفّة»؟

اصطحبكم معي في رحلة لنعيش مجدداً آلام العراق. أني أفكر بشكل منطقي الآن، غير أني لم أكن استطيع ذلك من قبل وأنا هناك. مستمعاً إلى عبدالله وتيمور بداخل العراق، شعرت كما لو أنني أدركت نقطة النهاية ولحظة إنزال الستارة، لينتهي كل شيء بعد ذلك إلى خاتمة المأساوية. وقسوة من هذا الصنف تهديد للمنطق. إنها تتحدى التأمل والتحليل^(٢٠). لهذا ندير لها غالباً ظهورنا ونتحاشاها، لا بفعل إنعدام التعاطف، لكن إنطلاقاً من عجزنا تحت تأثيرها عن التواصل. القسوة تبعث على الصمت وتعدم الكلام. ربما لذلك السبب تولّت كلمات الضحايا وضع نهاية كتابي هذا.

لكن أليس هنا، في محنة عبدالله ومعاناته، وفي لحظات عجزني عن الكلام، ولد معنى ما كان قد قام به مصطفى؟ أليس هنا بالذات، حيثما تمت غلبة الحضارة على البربرية، نشأت فكرة الثُعب؟ العراقيون بناء نصب تذكارية عظماء، أو هكذا يحب المؤرخون أن يقولوا لنا، وفي الوسع أيضاً أن تجادل في أن فكرة النصب نفسها ولدت في بلاد ما بين النهرين القديمة. فهناك بدأ أول إحتشاد لجنسنا داخل منشآت مدنية في مدن قديمة مثل سومر وبابل وإيريدو. وربما ترك ذلك التاريخ بصماته على قادة مثل صدام، وعراقيين عاديين مثل مصطفى.

عندما أقام مصطفى تلك المقبرة وبني قوسيه، كان يفكر ويتصرف مثل أول بناء أسطوري في العالم، والذي شعر أو شعرت، انه كان يتوجب عليه أو عليها إقامة معلم فوق أرضنا هذه - معلم لا غرض مادياً له كالاتجاء أو العمل أو البقاء. فالهندسة، بالمقارنة مع البناء، بدأت مع معالم من ذلك الصنف. ومصطفى يشبه ذاك المهندس الأول.

أما نحن الذين نتعاطى الكتابة والقراءة والكلام، نعاني أحياناً من خطورة نسيان ينابيع الأحاسيس العميقة، وتعقيدات الأحاسيس - أكانت غريبة نافرة أم سامية، تلك التي تقوم في خلفية صنيع كمثل قوس نصر صدام حسين، أو نصب مصطفى التذكاري. يمكن أن نكره تلك الأحاسيس أو أن نعجب بها، فهذا لا علاقة له بالمسألة. ويمكن أن يقوم النصب وينجح بغض النظر عما إذا كنا نحب أو نكره ما يرمز إليه.

في مواجهة كل من نصبي مصطفى العسكري وصدام حسين، نجد أنفسنا أمام نشأة الأشياء الأولى، متحسين الحياة، والموت، والشقف الخام في لحظاته الأشد حساسية، لنسير أغوار المعاني في تلك الزوايا القائمة من الروح البشرية حيث تبدأ المعاني الجديدة. فالنصب التذكارية في جوهرها الأعمق، ومن خلال لا جدواها، أكثر من أشياء فنية جمالية. إنها تمثل ذكريات قديمة وتضعنا بمواجهتها، ذكريات يمكن أن تكون مؤلمة إلى حد تمزيق كل ما هنالك إرباً، ذكريات لا يمكن محوها، وينتهي بها الأمر إلى تشكيل جوهر هوية الجماعة، أو انعدامه. وعلى الرغم من عاديته - أو ربما حتى بسببها - فإن نصب مصطفى التذكاري لموتى غبطة يوضح للعراقيين من كافة المجموعات الإثنية، والقومية، والدينية، والطائفية، ان السؤال الوجودي الحقيقي بالنسبة إليهم لم يعد صدام حسين. بل هو كيفية بناء مستقبل لأنفسهم في ظروف يتوجب على الجميع فيها - عرباً، أكراداً، شيعة وسنة - أن يواجهوا أنواعاً مختلفة من ميراث الآلام القاسية.

ومرور الوقت يساعد كثيراً على محو البدايات الأولى التي كان لها التأثير الأكبر على مصطفى، إذ المعاني تتعرض للمسح بدورها. ونزع القشور التراكمية للمعاني أمر بلا شك نموذجي رائع. فهناك لب تحت كل تلك القشور مصنوع في أقل المقادير من شيء بسيط الانبناء يفسر كيف جاء هذا الشيء إلى العالم. ولن نستطيع البتة أن ندرك أعمال كل منهما لأنهما يبساطة شيان بالغا التعقيد، مطموران بعمق في الأزمنة السحيقة.

هذه هي الحال مع نصب قديمة مثل الاهرامات و«أبو الهول». غير أن البحث عن ذلك اللب، وعلى الرغم من الوقت الذي يمضي، يضع المشكلة في منظورها المناسب. فالمفارقة في كل من النصيبين - نصب صدام حسين ونصب مصطفى العسكري - واللذين يحيي كلاهما ذكرى أحداث جرت في ١٩٨٨، هي في أنه لم ينقض وقت قليل على إنشائهما. إن الإنعدام في المسافة الزمنية هذا هو دليل ساطع على تأرجح العراق الآن على شفا مخاطر جديدة، مخاطر لم تعد تنبعث من شخص صدام حسين أو نظامه.

فميراث صدام حسين سوف يبقى طويلاً حتى بعد غيابه عن الساحة. إن هاجمت أي امرئ لكونه كردياً أو شيعياً، فإن رد الفعل سيكون مزيداً من التأكيد على أن «هذا»

هو الأمر الذي يهاجم المرء من أجله. إن هجمات من هذا النوع خلال سنوات الحرب في أوروبا سيست الوعي الذاتي اليهودي وزادته إرهاباً، وسهلت قيام دولة إسرائيل سنة ١٩٤٨. ثم جرى تأصيل الهوية الفلسطينية كردة فعل على إنكار الصهيونية العنيف لها. والمغزى من وراء قصة خليل أن الهوية الكويتية، والتي لم يعرها أي منا الإنتباه في الماضي (بمن فينا خليل بالذات)، باتت موجودة لتبقى أبداً.

إذن، ما الذي سيحلّ بالعراق غداً؟ إن القومية الكردية هي أقوى وأشدّ عدوانية الآن مما كانت في أي وقت مضى، وقد هبت نارها الإدراك المتعاطف لما قامت به دولة عربية ضد الشعب الكردي. وقد يختار غداً العديد من الأكراد الانفصال وإقامة دولتهم الخاصة، وهذا فيما الكراهية المتبادلة بين السنة والشيعة هي اليوم المنبع المحتمل والأشدّ سبباً للعنف الجديد.

هذه القوى هي ميراث صدام حسين لكل العراقيين. والسؤال المطروح هو هل يمتلك العراقيون من الحكمة ما يجعلهم يحولون ذلك الميراث إلى قوة جمع وإعادة بناء، بدل ان ينصبّ في عنف أفظح.

إن ماهية الثُصْبُ تكمن في مصيره. ما الذي ستفعله إذا في مواجهة واقع أن نصب مصطفى التذكاري لم يكتمل حتى بعد إنشائه، بينما جرى إفتتاح نصب صدام في صيف ١٩٨٩؟ بحسب مجلة «نيوزويك»، ان قوس النصر قدّر له النجاة من حرب الخليج، بعدما قام وزير الدفاع الأميركي بشطبه عن لائحة البتاغون للأهداف المقترحة في بغداد^(٢١). ربما لم يكن ريتشارد تشيني يريد أن يُنظر إليه وكأنه يثبّن حرباً على الثقافة العراقية. فدمير مصانع توليد الطاقة الكهربائية في البلاد بدا أمراً عادلاً، غير أن تدمير مآثره صدام حسين للفنون البصرية لم يكن كذلك. أظنها ملاحظة مناسبة على نتائج حرب الخليج، لكن السؤال الأهم هو: هل سينجو قوس النصر من غضب الشعب العراقي عندما يحل، أخيراً، يوم حساب الطاغية؟ أو هل سيظهر آخرون كثيرون مثل مصطفى؟

لا أحد يعرف الأجوبة عن هذه الأسئلة. ولكن باستطاعتنا على الأقل أن نتخذ موقفاً من القضايا المرتبطة بها. يمكننا على الأقل تقديم رأي أو حكم. فهل ينبغي أن يحطّم نصب صدام حسين التذكاري يوم الإطاحة به؟ وهل ينبغي أن يتبع العراقيون مثال مصطفى؟

ليس في المقدور استئصال الماضي بالسهولة نفسها التي نستأصل فيها نصباً تذكاريّاً. إنه يترك آثاراً ينبغي مواجهتها. وأهمية العام ١٩٨٨ سوف تكبر مع الوقت فيما تتضح

بشكل أفضل رؤية شاملة لما قد حدث أمام عدد أكبر من العراقيين. انها سنة سوف يذكرها أناس مختلفون ولأسباب مختلفة.

لقد استمر حكم حزب البعث أكثر من أي حكم آخر في تاريخ العراق الحديث. ما فعلوه وطريقة حكمهم أمور لن يدركها النسيان أبداً، فهي، مثل سيف ديموقليط، إذ سيبقى سيفاً صداماً معلقين طويلاً فوق كل العراقيين. حتى لو مات الطاغية، سيظل الشعب العراقي مجبراً على المرور من تحت ذنك السيفين اتقاء لجبروته. ثمة تذكارات لا يستطيع الناس الوقوف أمامها غير مروّعين، فاقد القدرة على النطق. وإن كان قوس نصر صدام حسين هو الأخير بين مجموعة من النصب التذكارية العراقية - تلك التي شيدت في الثمانينات وغيرت معالم بغداد كلياً - فلنأمل أن يكون نصب مصطفى، الأول في جنس جديد من النصب العراقية التذكارية، وإن بناؤها يمكن أن يبدأ يوم إطاحة الطاغية بالذات.

هل ثمة دروس يستخلصها العراقيون من عمل مايا لين العظيم المهيمن بالحزن على الذاكرة؟ ليس في مقدور أي نصب تذكاري يقام لذكرى حرب الخليج في واشنطن أن يطفى على عملها، وذلك لسبب بسيط ما كنت قلته سابقاً، وهو انه لم يقتل أي أميركي على يد عراقي. بيد أن الحرب كشفت الستار عن العراق للمرة الأولى، وأتاحت لنا أن نعرف أموراً مثل المئة ألف قتيل أو ما يدانيهم في عمليات الأنفال، و ٣٥٠٠ قرية مثل غبطة.

دعنا نفترض أن نظاماً جديداً سوف يحل مكان هذا الذي يتعفن ببطء ويهترى في بغداد. ولنفترض أن ذلك النظام الجديد سوف يقوم على نوع من الحكمة المستعدة للاعتراف بما ارتكب بحق الشعب الكردي في العراق. دعنا نفترض أن القيام بإنشاء نصب تذكاري وطني في وسط بغداد، يكون بمثابة وسيلة صغيرة لإعلان ذلك الاعتراف. عندها بصير لا مفر من ضرورة البحث والتنقيب عن أسماء كل قتلى الأنفال والقرى التي كانوا أتوا منها. إنهم معنى النصب وغايته. كيف يمكن أن يكون شكل نصب تذكاري كهذا لضحايا الأنفال في ١٩٨٨ وفي عمق بغداد؟ أين ينبغي أن يوضع؟ من أي المصادر ينبغي أن يستقي جيل الفنانين العراقيين الجديد إلهامه؟

اني استمتع بفكرة تقوم بالكامل على الافتراض وحده، وهي أن يقام النصب التذكاري الجديد تماماً في جوار قوس نصر صدام حسين الذي لا ينبغي أن يحطم، وأن يبنى النصب الجديد بروحية عمل مايا لين العظيم في العاصمة الأميركية واشنطن.

العراق إلى أين؟

يهوى العراقيون أن يتخيلوا السلام والأمن مثل حمامة عظيمة بيضاء ستهبط عليهم في يوم من الأيام. ولكن هل ستفعل؟ هذا هو السؤال الرئيسي للسياسة العراقية الآن، ولا شيء يضاهيه في الأهمية. فحزب البعث وصدّام حسين أصبحا بالتأكيد يتّميّان للماضي، وهما في طريقهما إلى الخروج والإنهاء. ولكن ماذا سيأتي من بعد؟ لا ينبغي أن يفترض أي عراقي أن الأمور لا يمكن أن تزداد سوءاً. أنا لا أقول إنها ستصبح كذلك بالضرورة، ولكن ذلك يمكن أن يحصل. فكل شيء يتوقف على ما سيستخلص العراقيون من قوى الذاكرة المخيفة، والتي تسمى على الدوام إلى زرع أسنان التنين في هيئات الأطفال والناجين من موتهم.

بدأت فكرة هذا الكتاب بقصد وضع تاريخ شفوي للإنتفاضة، وهي حدث يمكن إعتباره بمثابة تمرين إختباري لعراق المستقبل. كان أعد وصمّم لناهضة سجل تأييد صدّام المعبى من قبل المثقفين العرب والرأي العام خلال أزمة الخليج^(١). غير أنني تخلّيت عن تلك الفكرة. كانت مصادرّي من هنا وهناك. لكن الناس كانوا ما يزالون خائفين، والبعض الآخر لم يكن صريحاً إلى درجة كافية. عندها، ومجدداً، وجدت نفسي أميل إلى المادة الموثقة. وأهم من كل ذلك، استطعت أن أدرك من حيث كنت قد وصلت على الأقل، ان الإنتفاضة ظاهرة معقدة جداً ومشحونة سياسياً إلى درجة يصعب هضمها منطقياً في تلك المرحلة: شعب بأكمله قد ذاق طعم الحرية، وفي الوقت نفسه كانت ذروة جديدة من القسوة البشرية قد سطّرت لتضاف إلى سجل التاريخ. وبمنطق فولاذي، بدت الإنتفاضة التي تضامنت كلياً معها، كمرآة للطغيان التي سعت جاهدة لتخليص العراق منه. وافتتح جحيم من جهنم بشرية - قتل، وغدر وخيانة، وجرائم إنتقام، ونهب، وكراهية، وإبادة جماعية، وعبث بالمقدّسات وتدنيسها - وكل ذلك ترافق مع أفعال من

التضحية بالذات، والشجاعة، ومراعاة الغير، والتعاطف، وهي من أنقى ما يمكن أن يكون. في الفصل الذي يحمل عنوان «أبو حيدر» حاولت أن أكتب ذلك كله، مدركاً حقيقة أن السرد الأول لما جرى في العراق ما بعد الحرب سيكون حتماً ناقصاً. إلا أن الأمر الأكيد في مطلق الأحوال، أن موازنة حسنات إنتفاضة أبي حيدر بسيئاتها، وكيف تلقاها العرب الآخرون، تظهر لنا: إن ربع قرن من الإنحطاط السياسي والأخلاقي أرعب الكثير من القلوب العربية. ومجرد الكتابة عن ذلك كله سوف يحرقني.

إن استثنينا التصرفات الفردية، فإن كلاً من المجموعات تصرفت بأقصى ما يمكن من أنانية عند البشر. الثوار الشيعة في الجنوب قتلوا فردياً من أجل الإنتقام وباسم الإسلام، بينما قتل البعثيون جماعياً من أجل البقاء والاستمرار باسم العروبة. أما سنة الطبقات الوسطى البغدادية المثقفة، والذين كان يمكنهم التمييز بين الأمور، فلم يؤديوا هذا الدور. بل انهم جلسوا على حدة وجعلوا يتشدقون بتبريرات طائفية متعصبة جديدة نشرها النظام، أو بتبريرات قومية قديمة نشرها بعض أبرز الصحفيين والكتاب المعارضين في العالم العربي. الأكراد لم يثقوا البتة بمطلق شخص، وعلى الأخص بحلفائهم الشيعة في الجنوب (وكان الشعور متبادلاً). قدم لهم الغرب ملاذاً آمناً، وبدأوا التفاوض مع صدام، غير أبيهن بالجميع. وبالطبع لم يثقوا البتة بالإيرانيين.

أود لو ألتقي مناضلاً سياسياً كردياً عراقياً، لا يؤمن بأن الإيرانيين كذّابون بالفطرة. المنظمات الكردية والشيوعية أجبرت رغماً عنها على العمل معاً تحت الوصاية الإيرانية أثناء استفحال حرب الخليج، إلا أن معظم العراقيين يدركون أن تورط الإيرانيين في كل ما هو مرتبط بالشؤون العراقية هو بمثابة «قيلة الموت». وفي حين يقر معظم العراقيين أن صدام هو من بدأ حرب الثماني سنوات مع إيران، يشعر الجميع وبحق أن الحميني هو من جعلها تستمر، مزوّداً إياها بالوقود إلى الأبد بواسطة الطينة الخاصة لتعصبه. قد يكون تقياً، قد يكون روحاً ورعة زاهدة تخاف الله، وغير قابلة للفساد، لكنه كان كذلك روحاً قاسية، بالغة القسوة. وقد ارسل جيلاً بكامله من الشبان الإيرانيين إلى حتفه بلا ضرورة. فقسوة الحميني مثل قسوة صدام حسين هي كل ما يهتم في النهاية. كلاهما خلف ندوباً نفسية عميقة يلزمها أجيال بأكملها لتندمل.

في وقت سابق كنت دعوت بالبطل ضابط الجيش الذي اعتلى برج الدبابة في ساحة سعد ومزّق حاجر الخوف في العراق. لقد قدّم لكل العراقيين بمن فيهم أنا نفسي، لإحتمال مستقبل. في ٨ آذار/مارس ١٩٩١، بجامعة هارفرد استطاع كاتب ومؤلف «جمهورية الخوف» أن يظهر أمام الجمهور نتيجة لما كان - بدأه ذلك الرجل - لنسبته أبا حيدر -

بالبصرة في ٢٨ شباط/ فبراير. مذ ذاك تعدلت حياتي، وحياة كل العراقيين كلياً. فالعراقيون اليوم يتكلمون ويلتقون ويكتبون وينظّمون ويصدرون صحفاً (أكثر من خمسين منذ الإنتفاضة). لكن أبا حيدر فتح أيضاً صندوق باندورا^(٥)، وهو صندوق كان ينبغي أن يفتح إن قدر للعراق أن يكون له أي مستقبل. لكن أي نوع من المستقبل؟ فإذا ما نظر إليه من خلال الحرب العراقية - الإيرانية، وحرب الخليج، وإنتفاضة آذار/مارس ١٩٩١، فإن مستقبل العراق يتوقف على جواب السؤال الأساسي والضمني المطروح في فصل «أبو حيدر»، وربما حتى في كامل القسم الأول من هذا الكتاب: من هو أبو حيدر؟ وبخصوص تلك المسألة، هل يعرف حتى أبو حيدر بالذات من هو؟

أبو حيدر ذاك الذي كنت أجريت حديثاً معه في خان لندن، والذي أجريت على قصته الفصل الثاني، كان في السابق بعثياً «إلى أن قتل صدام أفراداً من عائلتي». بدأ صدام التقنيل بأبناء الكثير من العائلات الشيعية بعد ١٩٧٩. عند ذاك بدأ إضطهاد أكثرية الـ ٥٥ بالمئة وما فوق من السكان يصبح القضية الرئيسية في السياسة العراقية. ففي أواخر السبعينات، وبشكل متكافئ مع نمو الوعي الشيعي الذاتي في العقد السابق (والذي كان بالطبع مقموعاً)، بدأت الحكومة العراقية تطرد مئات الآلاف من الشيعة العراقيين إلى إيران بحجة أنهم «من أصل إيراني» وغير مواليين. بقية الشيعة استخدموا في ماكينه الحرب العراقية - الإيرانية، حيث بقوا، حاربوا وماتوا بأعداد ضخمة. أمر طبعي أن يفقد أبو حيدر كل أوهامه السابقة بمشاريع حزب البعث العروية الشاملة والموهومة. لقد خاب أمله بالسياسة الإيديولوجية، وحارب الإيرانيين طوال ثماني سنوات لأنه رجل محترف ولأن الحرب كانت الأمر الذي تدرب كجندي على القيام به. غير أنهم تابعوا يطرّدون ويقتلون أصدقاءه وأقرباءه ويسوقونهم إلى القتال في حروب بلا معنى. وقد تعلم شيئاً فشيئاً أن يكره أولئك المتسبيين بكل آلامه. كان عليه أن يتحول إلى مكان آخر بحثاً عن تفسير ما. لم تكن تولد أية أفكار جديدة داخل حزب البعث العراقي، وبدا له ان المعيار الأكثر جوهرية لهوية المجموعة والولاء الذي كان قد تركه - إسلامه وشيعيته - كانا الهدفين الأساسيين لحملات صدام حسين. لم يذهب أبعد من ذلك، إذ لم يستطع الذهاب. فالميزة الإسلامية الشيعية المتشددة للإنتفاضة في جنوب العراق يمكن تفسيرها إنطلاقاً من اعتبارات أولية كهذه.

(٥) ملاحظة المترجم: من الميثولوجيا اليونانية، والمقصود كمية لا حدود لها من الشر التي تخرج من الصندوق حال فتحه.

المشكلة هي في أن غرائز أبي حيدر السياسية تقوم على الأحاسيس، وليس على فهم تاريخي واسع الأفق لماهية حزب البعث كإبتكار سياسي عربي حديث. وعلى عكس ما يميل العديد من العراقيين إلى الاعتقاد به حالياً، فإن حزب البعث لم يقيم البتة دولة سنيّة طائفية في العراق، (دولة منظّمة مؤسّساتياً على أساس الطوائف كالدولة اللبنانية). ولم يقيموا كذلك حكماً معارضاً إيديولوجياً للشيعة في حد ذاتها. الذي جعلهم يعتقدون ذلك أساسه الخطأ الشائع القائم على تفسير الآلام الحاضرة بأسباب ووقائع جرت في الماضي. والباعث على السخرية أن حزب البعث لو أقام دولة طائفية في العراق، لما كانت الأمور سيئة إلى هذا الحدّ الذي يعيشه حالياً الشيعة في العراق. عندها كانت الشيعة ستحظى بنوع من نظام حماية، إنطلاقاً من واقع تميّزها عن السنيّة أو الكردية أو المسيحية، عن «الآخر» الذي كان قد جرى الاعتراف به بطريقة أو بأخرى، ولو بشكل غير عادل.

هكذا كانت تجري الأمور إبان سيطرة الامبراطورية العثمانية، وهكذا جرت في لبنان. غير أن الأمور لم تجر على هذا المنوال في العراق. فحزب البعث قتل من الأكراد أكثر مما سبق لأي كان أن فعل. غير أنه لا يمكن القول إن حزب البعث معاد إيديولوجياً للأكراد، كما هم النازيون، على سبيل المثال، معادون للسامية.

لا شيء أهم بالنسبة لمستقبل العراق من تفهم واضح جداً لماضيه. فالدولة التي بناها حزب البعث في العراق، أسوأ بكثير من دولة تقام على مقاييس طائفية وأثنية خالصة. إنها أسوأ لأنها تساوي بشكل ثابت في عدائها بين كل ما هو غيرها. وحزب البعث يطلب ملحقاً من كل العراقيين إنسجاماً مطلقاً مع نظراته المشحونة بالعنف والتأمرية لعالم هو في حرب مستديمة مع نفسه^(٢). يخترع صدام حسين ويعيد إختراع أعدائه من مادة الجماهير البشرية الواقعة تحت تصرّفه، وينمو ويزدهر في الإرتياب، والشك، والتأمرية التي يزرعها نظامه عملياً في أذهان الجميع، وهو يسعى إلى إشاعة الكره والعطش إلى الثأر في قلوب السنة والشيعة على حد سواء. فنتيجة للهجمات التي يتعرض لها من كل النواحي، إنهار المجتمع المدني عملياً في العراق. كل عراقي - كردي أو عربي، سني أو شيعي - جعله حزب البعث مشاركاً في مشروعه وتحول في الوقت نفسه إلى ضحية. كل عراقي أصبح يحمل في أعماقه علامات الضحية. وإنطلاقاً من تلك الظروف فإن لجوء أبي حيدر اليائس إلى إسلامه أو شيعيته (أو كذلك لجوء العراقيين الآخرين إلى العصبية السنيّة، أو القومية الكردية) ليس تفسيراً، ولا حلاً لمأزق البلاد، إنه الملاذ الأخير، وبرهان على الإنهيار الاجتماعي التام الذي وصلت إليه الأمور داخل العراق.

في شكل النظام الذي أقامه حزب البعث في العراق، عانى الأكراد أكثر من سواهم،

لا لمجرد انهم أكراد، بل لأنهم قاوموا وناضلوا بشراسة. وما أن بدأ الشيعة يصرون على حقوقهم حتى أصبحوا كالأكراد يهاجمون على أساس أنهم شيعة. غير أن هناك أيضاً اختصاصاً للنظام من الآشوريين والمسيحيين، والتركمانين والسنة، وكل أولئك عانوا بالتساوي مع أي فرد شيعي أو كردي. بين ربيع ١٩٨٧ وشباط/فبراير ١٩٨٨ دمرت الحكومة العراقية ٣١ قرية آشورية، بما في ذلك ٢٥ ديراً وكنيسة^(٣). وواقع أن العراقيين يتنافسون الآن مع بعضهم البعض على من منهم تكبد معاناة أكبر، دليل على أنه، بغض النظر عن وجود صدام أو عدم وجوده، فإن ما يمثله يعيش داخل كل القلوب العراقية. وهنا تكمن الخطورة الأعظم التي تهدد مستقبل البلاد.

إن الأشباح الصادرة عن هذا التوحش كله - كثائر الميليشيا على سبيل المثال الذي عاش في إيران طوال السنوات الاثنتي عشرة الأخيرة من حياته، والمرشد الكردي الذي قاتل مع صدام ضد عائلته بالذات - تلك الأشباح سوف تعود باستمرار لتسرح فوق العراق. فجمهورية إيران الإسلامية أنشأت حزب الله العراقي التابع لها، وهو منظمة شقيقة لأخرى في لبنان، ويجري تسريب العديد من مقاتليها إلى الداخل الآن، أثناء كتابتي هذه السطور. وفي الوقت نفسه تمنع الحكومة الإيرانية المجموعات المعارضة المستقلة - إسلامية وغير إسلامية - من الدخول إلى النصف الجنوبي المحاصر من البلاد، بالإضافة إلى الصحافة الأجنبية ومنظمات الإسعاف الدولية.

الله، والمال، والدول المجاورة القريبة هي الثالث الفعال والقوي في سياسة الشرق الأوسط. ولكن مع إيران أو من دونها، فإن شباناً جهلة، ويائسين ريبين سلاح، مثل نائير، يعيشون تحت وطأة ظروف تهجير ولجوء بائسة، من المرجح أن يصبحوا فاعلين كرجال حرب عصابات مأجورين، يقاتلون تحت لواء الإسلام.

عندما انتفض أبو حيدر في آذار/مارس ١٩٩١، انضم ثوار شبان مثل نائير إلى الانتفاضة، حاملين معهم إحساسهم بكونهم ضحايا على شكل ضرب من الإسلام، ضارٍ وحقوق، ساع إلى الانتقام، ومتعصب بعمق. ومسلحين بهذه المشاعر، اندفعوا في ثورة قتل، وضعفوا الانتفاضة، منقرين أولئك الذين كان من الممكن أن يقدموا لهم الدعم، وأولئك الذين كانوا بحاجة إلى دعمهم. بروحية «أم حسين» من البصرة أتساءل: أي نوع من الإسلام هو هذا؟ ليس هذا الإسلام، إنه الصورة المعكوسة للنظام البعثي.

كل العراقيين يدفعون اليوم ثمن فشل انتفاضة آذار/مارس ١٩٩١. ولكن، هذه المرة، بات الشيعة يدفعون أكثر من كل الآخرين. كان الشيعة العراقيون يعتقدون أنهم خبروا الآلام، لكنهم لم يعرفوا خلال تاريخهم الحديث بأكمله آلاماً كهذه.

لقد استخدمت في قمع الإنتفاضة درجة من العنف لم تستخدم سابقاً إلا ضد الأكراد. وبات نوع جديد من الحرب المذهبية العنيفة والصريحة، التي تستهدف الأشخاص لمجرد كونهم من الشيعة، جزءاً لا يتجزأ من إرث صدام. وبذلك فإن ما هو على المحك اليوم، هو ضعف النظام بعد حرب الخليج، لا قوته. والفرصة الوحيدة أمام البعض للتشبث بالسلطة في حصن بغداد، كانت لإضرار الكراهية بين الشيعة والسنة، ونجاح هذه الاستراتيجية لا يعود إلى أن الأميركيين لم يدعموا الإنتفاضة (وهم لم يفعلوا ذلك بالطبع)، وبالتأكيد لا يعود إلى أنهم أرادوا فعلياً أن يستمر صدام في السلطة (كانوا يفضلون أن يستبدل برجل ما قوّي من الجيش، أو من داخل الدائرة البعثية). ونجاح استراتيجية صدام في زرع الطائفية بين العراقيين، لا يعود أيضاً إلى سلاحه وعتاده المتفوق، بل السبب الوحيد هو فشل القيادة السياسية الشيعية.

فالمشكلة انه ينبغي أن يتحدث أحد ما باسم كل العراقيين، لكن شيعة العراق مرتبكون. أبو حيدر مرتبك. بات عليه كالعديد من العرب الآخرين أن يبدأ التفكير بشكل أكثر جذية من الماضي، ولكنه لا يزال يجهل من هو، أو حتى من يريد أن يكون. هل هو عربي؟ هل هو عراقي؟ هل هو مسلم شيعي؟ شيعي عراقي قومي، أو ربما مجرد مسلم من العالم؟ وإن كان تركيبة من كل هذه الأشياء، فأين منها ستكون له الأولوية في نظره السياسية لنفسه؟ الأهم من كل شيء أين ستجد إنسانيتنا المشتركة (على شكل حقوق الجميع المتساوية) مكانها المناسب؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة سوف تحدّد حتى إن كان الجيل العراقي الجديد سيحظى بمستقبل أم لا، وعلى الأقل أي نوع من المستقبل. فلم يعد صدام حسين المسألة الرئيسية في السياسة العراقية، غير أن إرثه هو كذلك، وسوف تبقى المسألة الرئيسية طوال سنوات قادمة.

يراوح الشيعة العراقيون حالياً على حافة أهم الأسئلة التي واجهتهم طوال تاريخهم وهو: ماذا يمثلون سياسياً؟ ومن هم؟ فطوال معظم تاريخهم، تحاشى الشيعة العراقيون ذلك السؤال. بدأوا يتحاشونه منذ مصرع الحسين وأتباعه وحيدين في سهل كربلاء عام ٦٨٠ بعد الميلاد، إذ لم يدافع عنه من دعوه لأن يكون حاكمهم (وهو أمر سارع الخميني الذي لم يكن مترفعاً البتة عن التزمت الإيراني، لاستغلاله خلال الحرب العراقية - الإيرانية)^(٤). واندمجت الشيعة العراقية بعمق مع تلك اللحظة المأساوية لنشأتها، مع اعتبارها انها ولدت في لحظة إخفاق، لحظة تقييدها سنوياً في إحتفالات حداد تعرف «بالتعزية»، وهي مرتبطة بذلك الحدث التاريخي الشديد الأهمية. في هذا تتميز الشيعة

العراقية عن نظيرتها الإيرانية، بكونها لم تحكم نفسها بنفسها البتة، ولم تعرف سوى لغة المعارضة والرفض. والواقع أن الشيعة العراقية لم تأخذ البتة مسألة الحكم على محمل الجد، وحتى على الصعيد الفردي فإن الشيعة ينفرون تقليدياً من كل ما يمت إلى الحكم بصلة. إنهم يتحاشون الخدمة العسكرية ويحجمون عن الانخراط في وظائف الدولة العامة ومصالحها. وما أن تلوح لهم نصف فرصة حتى يؤثروا أن يصيروا تجاراً، ومتخصصين مستقلين، وثواراً، ومصلحين، وصوفيين، وفنانين، وليس البتة رجال دولة أو دبلوماسيين. والمجموعات العراقية الإسلامية المعارضة المختلفة السبع عشرة - ومعظمها شيعية في الأساس في تركيباتها وروحيتها - لم تضع كلها بعد أية نظرية سياسية واضحة للحكم في العراق. وهذا يعني بالتالي، انه إذا كان أبو حيدر لا يعرف إلى الآن إن كان مسلماً، أو عريباً، أو عراقياً، فهو أيضاً لا يعرف إلى الآن من يريد أن يحكمه - رجال الدين، أو العلمانيون أو السياسيون المحترفون. ومن جديد، باسم من سوف يحكم هؤلاء الجمهوريون: باسم الله، أو الشعب، أو الاتحاد الاثنين معاً؟ وفوق أية مقاطعة؟ كل هذه الأسئلة لا تزال من دون إجابة بين الشيعة حالياً، حتى فيما النظام ببغداد يتآكل ببطء ويعيش بالتأكد آخر أيامه.

والى أن اختارت ثورة الخميني الإسلامية الحكم الجمهوري في إيران، كان العديد من المناضلين العراقيين الإسلاميين لا يزالون يتحدثون عن إعادة تأسيس الخلافة الإسلامية. لقد ترك في الواقع كل ما هو مهم للسياسة مشرعاً على كل الاحتمالات داخل الحركة الإسلامية العراقية - وهي صيغة ممهدة لكارثة أشد بالنسبة إلى مستقبل الديمقراطية. فجميع العراقيين يفكرون اليوم بالديمقراطية وحقوق الإنسان، غير أن الحركة الإسلامية تاريخياً، كانت تشكلت من الستينات وحتى منتصف الثمانينات، على فكرة أن الديمقراطية سلعة غربية وغريبة عن الإسلام، ومعظم الأحزاب العراقية الإسلامية قضى السنوات العشر معتبراً نفسه جزءاً من الحركة الإسلامية العالمية التي تشكل إيران مركزها. إنهم اليوم مستأثرون جداً من ذلك، غير أنهم لا يملكون شيئاً آخر لوضعه في مكانه. ويوماً بعد يوم يتضح لهم أن القوة الإيرانية لا تستخدم مطلقاً لأمر يتعلق بالمصلحة العراقية. فقد عومل اللاجئين العراقيون الشيعة، والمناضلون الإسلاميون، بشكل مقيت داخل إيران بدءاً من أواخر السبعينات. أمن العجب إذاً أن يشعر أبو حيدر بالضيق؟

وما يهب هذه المواضيع تلك الأهمية المتقدمة هو واقع أساسي جديد لا مفر منه في السياسة العراقية: فشيعة العراق هم وحدهم في موضع من يستطيع منع صدام من انتزاع النصر من فكّي موته بالذات، وذلك من خلال تصعيد العنف الطائفي والانتني لسنوات وسنوات. وإنطلاقاً من أكثرتهم العددية، يتحملون مسؤولية تاريخية تجاه المستقبل، وهي

أكبر من مسؤولية أية مجموعة أخرى إتنية أو طائفية في العراق. صحيح ان مواهب سياسية جديدة عريباً شرعت تظهر في صفوفهم، لكن على ذلك لم يثبت أي سياسي شيعي متبرعم بعد جدارة الإجابة عن هذه الأسئلة. فالأكثر ليبرالية بينهم، يتحدثون عن رغبتهم في تقسيم البلاد إلى ثلاثة أجزاء، ويتذمرون في الوقت نفسه من أن وسائل الإعلام الغربية تهتم إلى درجة كبيرة بالأكراد^(٥). بعض المفكرين المنفردين من داخل الحركة الإسلامية يقومون بعمل هام محاولين المواءمة بين الأفكار الغربية عن الديمقراطية والخطاب الإسلامي^(٦)، غير أن الأغلبية تنوء تحت أثقال المعتقدات وهي مشوشة الأفكار كلياً فيما يتعلق بمعظم الأسئلة البديهية في السياسة.

«البشر يتمتعون بحقوق بسبب كونهم بشراً وليس لأي سبب آخر»، هذه تظهر كبند أول في ميثاق ٩١. بعض أفضل العناصر في المعارضة العراقية الديمقراطية، وهم شيعيون ليبراليون خرجوا من صفوف المعارضة الإسلامية، وجدوا أنفسهم عاجزين عن الموافقة على حجر الأساس هذا في أي سياسة قائمة على حقوق الإنسان. بكلام آخر، انهم يجدون أنفسهم غير قادرين على أن تشمل الحقوق الجميع دونما استثناء، بصرف النظر عن أي اعتبار آخر. هل للمرتد حقوق؟ أو هل ترتفع الصيغة الإنسانية فوق إرادة الله؟

وتشير الدلائل إلى أن الشيعة قد تأذوا كثيراً نتيجة مأساتهم الخاصة، إلى درجة أن قدرتهم على التفكير والتصرف كعراقيين باتت في تضاؤل مستمر. عندما تستأصل أحاسيس من هذا النوع كل فكر عقلاني، كما هي الحال بين العديد من العراقيين الشيعة حالياً، فإن التعصب - ومعه العنف - هو ما سينتج في المستقبل. كل الكلام عن حقوق الإنسان، الذي هو موضوعة رائجة بين العراقيين حالياً، يمكن أن يُنحى بسرعة إلى حافة الطريق، ويمكن أن يتحوّل بسهولة إلى لا شيء سوى دعاية رخيصة لفكرة عالمية جتارة، ولأهداف لا يتعدى الغرض منها جذب انتباه الغرب. «كما تعرف إنهم (أعضاء الهيئة التشريعية الأميركية) يحبون هذه الكلمات (حقوق الإنسان)»، هكذا قال لي مناضل شيعي يدير منظمة لحقوق الإنسان في الغرب. إن بذور كارثة تقع على العراق تكمن في هذا النوع من الرياء.

لنفترض أن أبا حيدر قرر أن تكون ولائته الأولية لجمهورية إسلامية - مهما كانت مجلبة بحشو كلام ديمقراطي. فذلك القرار سوف يتطلب مواجهة واقع أن السنة العرب تستحوذ عليهم حالياً برحاء الخوف من مجرد ذكر أي شيء يتعلق بالإسلام السياسي. ويشكو باستمرار الجيل الجديد الصاعد من السياسيون الشيعة العراقيين من مبالغة الغرب بمسألة التهديد الشيعي «الإسلامي» في العراق - وهذا من وقع أصداء الثورة الإيرانية

والخمينية في العقول الغريبة، لكن الأمر الوحيد الذي لا يتحدث عنه هؤلاء السياسيون بالذات هو المخاوف المشروعة والحقيقية لدى السنة العراقيين. فما الذي سيراود السني العراقي عندما يرى أنه حتى أكثر المثقفين الشيعة ليبرالية يشاركون في إعادة كتابة تاريخ العراق الحديث على نحو يقصد منه «إثبات» أن كل سياسي سني معاصر كان في سره طائفيًا؟ (حتى أنني سمعت أقوالاً من نوع أن كامل الجادرجي، وهو السياسي الديمقراطي الكبير، كان طائفيًا. أحد أشهر الكتاب السياسيين الشيعة المعاصرين، وكان يعمل سابقاً وكيلاً للإعلام في الحكومة العراقية، قال لي في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٢، أن الشيعة هم «شعب العراق الحقيقي»، فيما السنة هم مجرد طائفة تطفلت وفرضت بالقسر على البلاد. وأضاف أنه لم يعرف البتة سنيًا لم يكن في أعماقه طائفيًا. برأيي الشخصي، ليس هذا إلا نسخة معكوسة عن معدل التفكير البعثي).

والمخاوف السنية مما قد يفعله بهم الشيعة العراقيون إن وصلوا إلى السلطة، قائمة على أسس أعمق بكثير من إفتراضات بعض القادة الغربيين الساذجة، وهي لا علاقة لها بالإسلام كإسلام إلا بقدر ما ان تبني الشيعة للإسلام السياسي ستكون له عواقب على حرية المعتقد الديني. ليس المعتقد ما هو على المحك في الصراع المستقبلي بين المجموعتين السنية والشيعة في العراق، بل البقاء والاستمرار. وبعد رحيل صدام، سوف تصبح حياة الناس، وحياة أعزائهم وكأئنا على وَضَمَ الجُزَّار، وستصبح مخاوف السنة من احتمال ما يمكن أن يفعله الشيعة بهم باسم الإسلام قوة رئيسية في السياسة العراقية. وكلما عمل الشيعة العراقيون على فرض وتأكيد هويتهم الشيعة، ازدادت في المقابل نزعة الأقلية السنية العراقية إلى أن تقاوم وبغف، وحتى النهاية، كل ما يمكن أن يشي بقيام جمهورية إسلامية في العراق. إنهم يرون في دولة كهذه - بغض النظر عما إذا كان ما يروونه صواباً أو خطأ - إلغاءً لوجودهم، وفي ذلك سوف يدعمهم الأكراد (هذا إن لم يكن قد أصبح لديهم دولتهم الخاصة عند ذلك الوقت).

إن معادلات كاذبة مثل «كلنا مسلمون»، لن تعني شيئاً، تماماً كما لم يعن شعار منظمة التحرير الفلسطينية «فلسطين ديمقراطية علمانية»، أي شيء للإسرائيليين.

المشكلة ليست مع الإسلام بذاته أكثر مما هي مع الوحدة العربية كفكرة طيبة ستحقق في وقت ما في المستقبل. وقد يستطيع الإيرانيون والجزائريون وربما المصريون أيضاً أن يستنبطوا ديمقراطية في دولة إسلامية، لسبب بسيط، هو أن الشعب يمكنه، بالرحمة، أن يصبح ليتاً قابلاً للتكيف حتى حيال معتقداته العزيزة جداً عليه.

والنقطة الأساسية هي أن الأوضاع العراقية بشكل خاص تقصي الخيار الإسلامي

هناك. فالعراق أقل تجانساً من تلك البلدان التي ذكرتها، وقد سبق أن دمره هذا النوع أو ذاك من «سياسة العقيدة» (البعثية تقوم إيديولوجياً على فكرة الإيمان، إيماناً أعمى ومطلقاً بالعروبة). كما أن نظاماً جديداً غير عنيف لن يبنى بالتأكيد على نمط جديد من هذه السياسة^(٧).

إن الدول البوليسية والإرهابية لا بدّ أن تقوم بعيد نجاح السكان في أن ينقلوا إلى مركز الحياة العامة، ما يتمسكون به ويعتبرونه أعزّ ما لديهم، أي جوهر نظامهم المعتقدي. وإذا أصرّ شيعة العراق على وضع الشيعة في المرتبة الأولى في السياسة، أو إذا هم أصروا على وضع الهوية الإسلامية في المكانة الأولى، فسيستنزف ذلك جيلاً آخر في العراق. وشارات التحذير هي منذ الآن مسلّطة علينا.

دعوني أقدم إليكم مثلاً من تجربة مؤلمة وشخصية. عندما سافرت إلى شمال العراق في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩١ لمقابلة الفتى الناجي تيمور، وتقصّي ملفات الشرطة السرية التي كان استولى عليها الأكراد خلال الإنتفاضة، واجهتني الشكوك التي يديها الشيعة المقيمون في الغرب. فمن بين أكثر أعضاء المعارضة العراقية تنوّراً من تذرّ قاتلاً: «لماذا لا تكتب عما فعله صدام بأبناء جلدتك، شيعة العراق؟ إننا نتعذّب أيضاً. عدت من زيارتي لأسمع تدفقاً مستمراً من الشكاوى، في أوروبا والولايات المتحدة، بأنني تخليت عن «القضية العراقية»، أو «القضية الشيعية» من أجل «القضية الكردية». وسأل الأثوريون، «ماذا بشأننا؟ نحن كنا ضحايا عمليات الأنفال أيضاً». ولا يزال عراقيون من كل الأنواع يثيرون تلك المسألة معي بطريقة مأكرة أو بأخرى، وبعد انقضاء سنة كاملة من عرض شبكة تلفزيون البي بي سي الفيلم الوثائقي عن حملة الإبادة الجماعية الرسمية تلك. المشكلة في العراق في أن الجميع كان ضحية، ومعظم الناس، وبوجه أخص الأكثرية الشيعية، لا تعرف سوى التفكير والتصرف كضحية.

لقد انتشر على نطاق فردي بين العراقيين السنّة المقيمين في لندن، أن كنعان مكّي يقوم بتشكيل تحالف جديد من فقهاء الشيعة وزعماء القبائل الكردية، واعتبروا انهم هم هدفه الأساسي. وأكثر من ذلك، قد اتضح جلياً انه يعمل بالخفاء مع الأميركيين (على الرغم من ان أولئك الأشخاص بالذات كانوا يعتقدون أيضاً أن الولايات المتحدة تريد أن يبقى صدام في السلطة). وفي النهاية عندما نقلت الوثائق العراقية التي كان استحوذ عليها الأكراد إلى مكان آمن في الغرب، عبر جهود قامت بها منظمة «هيومان رايتز واتش» التابعة لمنظمة حقوق الإنسان، عارض بعض القوميين الأكراد أن يعمل مكّي عليها، على الرغم من جهوده التي كان يقوم بها لكشف عمليات الأنفال وإعلانها

للعيان. كانوا يريدون، لأسباب سياسية، شخصاً أميركياً، لا عراقياً مثلهم، كي يخبر العالم ماذا حل بهم، وهكذا توضحت كل التباسات المناورة تلك.

هذه هي المادة البشرية المجرّحة التي سينتق منها ويتشكل النظام الجديد. فكلّ من سمّ الطائفية السنيّة - الشيعية، والعداوة العربية - الكردية، يكفي بمفرده لقتل العراق، وهما يعملان اليوم سوّية على تمزيق البلاد. وتقسيماها قد أصبح الآن قائماً فعلياً في قلوب العراقيين قبل أن ينقذ على الأرض وتدفع ثمنه أعداد جديدة وكبيرة منهم. فلم يعد أي عراقي محصّناً بل الجميع باتوا معوقين. والانفعالات القومية والطائفية الخبيثة متفشية الآن في العراق أكثر من أي وقت مضى. إنها القوى الموجهة للتغيير، حتى لو كانت أفضل عناصر المعارضة العراقية تدّعي غير ذلك. فإلى أين سنصل نحن العراقيين إن كان هذا منطلقنا؟

دعونا نبدأ من حقيقة أن الجميع تواطأ وقبل بتسوية مذلة مع الديكتاتورية (بغض النظر عما إذا كان ذلك بمحض إرادته أم لا)، وأن الذين بقيت أكتفهم نظيفة من الداخل أو الخارج ليسوا كثيرين. فلكل الملفات الاستخباراتية السريّة التي نقلت إلى الغرب، تكشف كيف أن العديد من الأكراد وبدرجات متفاوتة، كانوا متورطين في ما حلّ بأكراد آخرين سنة ١٩٨٨. والسنة والشيعية، بدورهم، كانوا ممثّلين في كل أجهزة الدولة العراقية، وفي الجيش، والبوليس، والاستخبارات. أما قصة عمر (الفصل الثالث)، فهي قصة عربي وشى به كردي، وحقق معه سني واستجوبه شيعي. فالمنافسة على احتكار صفة «الضحية» طريق لا تؤدي إلا إلى الكارثة. وبما أن طبيعة النظام في بغداد كانت من النوع الذي يترك الجميع مع حسابات عالقة، فربما كان من الأفضل تسوية بعض منها بحسب ما تجيزه الطبيعة الإنسانية والسياسيون من ذوي الحكمة^(٨).

إن عفواً عاماً شاملاً واسع النظرة والأفق هو السبيل الأوحّد لردّ حقّام الدم الهائل بعد سقوط النظام.

والاعتراف الهام الثاني، هو إدراك الشيعة العراقيين - وهم الذين تقع على عاتقهم وبشكل أساسي مسؤولية مستقبل العراق - أن مخاوف السنة صحيحة ومشروعة. وينبغي على الجيل الجديد من القادة العراقيين أن يواجه سياسياً تلك المخاوف بصفتها ذروة الأولويات، وينبغي كذلك إيجاد صيغ في الحكم، تؤمن ضمانات صارمة ضد «طغيان الأكثرية». فحياة الآلاف من العراقيين في المستقبل سوف تتوقف على الجدّية التي ستقوم عليها تلك الضمانات. وتقع على عاتق الشيعة مسؤولية سياسية أخلاقية، تلزمهم إدراك تلك الصيغ. فلا يستطيع المرء أن يتوقع القيادة من أقلّية تشعر منذ البداية بأنها في موقف دفاع عن الذات، أنها محاصرة، فيما الجميع يشير إليها بإصبع اللوم والإتهام.

إن تفكك العراق والمزيد من الفوضى وإراقة الدم للذين سيحلّان به في ما بعد صدام، سيعودان بدرجة رئيسية إلى فشل القيادة الشيعية السياسية في الارتفاع إلى مستوى تلك الفرصة التاريخية، والمسؤوليات التي تفرضها عليها جماعتها بالذات.

أما ثالث أكبر المهتمات التي ينبغي أن تأخذها على عاتقها معارضة عراقية مسؤولة فهي إعتناق الفدرالية كحل للمسألة الكردية، وضمن إطار دولة عراقية موحدة، وقد اتخذت الخطوة الأولى في هذا الاتجاه في لقاء صلاح الدين في شمال العراق بين ٢٧ و٣١ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٢، عندما التقت مختلف منظمات المعارضة العراقية، تحت مظلة المؤتمر الوطني العراقي. وكنت قد منحت إمتياز حضور ذلك اللقاء التاريخي، والتوجه إلى المؤتمر لطرح هذه المسألة بالذات. فالفدرالية ليست تنازلاً نحن العرب على الأكراد به، إنها السبيل الوحيد للحفاظ على وحدة العراق. وكردستان العراقية عاشت تجربة خاصة بعد نهاية حرب الخليج، ليس فقط من غير الجائز التراجع عنها، بل ينبغي أن يبنى على أساسها مستقبل العراق.

لقد قامت ثورة فعلية فوق ٢٠ بالمئة من الأرض العراقية منذ حرب الخليج، وجاءت بشكل انتخابات شملت ٢٠ بالمئة من الشعب العراقي، وبرلمان كردي فاعل إلى حد ما. كانت تلك إنتفاضة من دون شعارات حرية طنانة، وسياسات راديكالية رفضية. فإما أن نعتّم تلك التجربة لتشمل كل العراق، أو نخسرها كلياً، ونتقدّم بمنطق التقسيم. وحين يسود ذلك المنطق الرهيب فإنه، كما أتوقع، لن يتوقف عن متابعة طريقه لينتهي الأمر بأن يقتل العرب العرب، ويقتل الشيعية إخوانهم الشيعية، وحتى الأكراد سوف ينقلبون ضد بعضهم البعض. فذلك البلد التعميس المدعو العراق، الذي ورثناه مع تقسيمات الامبراطورية العثمانية، قد لا يكون بالشيء الهام، ولكن المجازر التي رافقت تمزّق بعض الدول (الهند سنة ١٩٤٧ ويوغوسلافيا منذ سنة ١٩٩١) أظهرت انه يمكن أن يكون أفضل ألف مرّة من بدائله المطروحة.

فما من مرارة أو فكرة أو عقيدة أو دين أو معتقد أو إله، يستحق أن يدافع عنه إن كان ذلك يستلزم القضاء على حياة عراقية أخرى. وإذا أراد الأكراد، بالرغم من كل شيء، دولة خاصة بهم، بعد فشل محاولات اقناعهم بأن هذا الاختيار قد لا يكون أفضل لمصلحتهم، فسيكون أمراً ملزماً على كل العراقيين أن يناصروهم كلياً، ويتمنوا لهم النجاح في المغامرة العظيمة الجديدة لبناء دولة. إن تلك الطريق بالذات محفوفة بالمخاطر، وأنا شخصياً أتمنى بالتأكيد أن لا يختار الشعب الكردي اجتيازها. أقول هذا ليس فقط من أجلهم، ولكن لأنني أعرف أن ذهابهم خسارة لي. ولسوء الحظ، ان ذلك الاختيار بالذات ليس متوافراً لشيعية العراق وسنته. وهنا تكمن بالذات مشاكل المستقبل الحقيقية.

إن هاتين المجموعتين الطائفتين، متمازجتان متوائمتان في العراق، واتحداهما غير قابل للإنفصال، ان كان هنالك اتحاد أصلاً. فإما أن يتقاتلا ويقتل قطيع منهما القطيع الآخر، ويتنصر بهذا كليا عليه! أو أن يجدا سبيلاً للعيش معاً، وليس هناك أي خيار ثالث.

لقد بدأ يربكني، وأنا أراجع أحداث الإنتفاضة وما تبعها من دموية، إدراكي لطبيعة الإرث الذي حتمل حزب البعث العراق أعباءه. وجدت أن التأثير المتراكم للقصص يفوق طاقة الاحتمال، وهو يعدم كل منطق ويهددني حتى في سلامتي العقلية. تلك التجربة الشخصية غير المباشرة سوف تتكرر غداً داخل العراق وبشكل أضخم، وذلك عندما تكشف فظائع الماضي، حتى لو كانت تتبعها فظائع جديدة إضافية، وعندما يمكن أن يتحول شيئاً فشيئاً إدراك الجميع إلى لامبالاة جماعية. فالقدرة على إمتلاك أي نوع من الشعور تجاه مخلوق بشري آخر قابلة هي الأخرى لأن تموت. إلا أنه ينبغي فتح صندوق باندورا، وعراقيون مثل أبي حيدر امتلكوا ما يكفي من الشجاعة للقيام بالخطوة الأولى. هذا هو فحوى ما جرى في آذار/ مارس ١٩٩١. إلى أي درجة ستسرع في المستقبل فتحة صندوق باندورا؟ إن من سيقدر هذا هو الحكمة السياسية عند الجيل الجديد من الزعماء السياسيين في العراق. وكل شيء يتوقف عليهم. فالنشاؤم بشأن مستقبل العراق، فضلاً عن حقيقة أن العراقيين يملكون الآن ولأول مرة احتمال مستقبل، هما كلاهما إرث إنتفاضة أبي حيدر.

كتب إليوت: «ماذا كان يمكن أن يكون وماذا جرى حقاً، يشيران إلى نهاية واحدة هي دائماً حاضرة»^(١). وإنتفاضة آذار/مارس ١٩٩١ في العراق، إن جرت دراستها بصدق، ومن دون ممنوعات ومعوقات، ومن دون مراعاة لشعور أحد، هي أشبه بعدسة تلوح خلالها وتطوف أشباح من الماضي، فيما خيارات المستقبل يمكن بالكاد رؤيتها. لقد تعبت من النظر عبر تلك العدسة، ربما لأنني لم أعد قادراً أو راعباً في تحمّل كل ذلك القدر من الواقع. إذاً سوف أدع حميد، الشاب النجفي غير الطائفي الذي استشهدت به في الفصل الثاني لينهي رحلة القصة هذه.

«نحن في العراق ليس لدينا مستقبل. عمري ٢٨ سنة. حياتي انتهت. لكن ربما لن يعاني أولادي مثلما عانيت. أنني أحب ولدي الصغيرين - الصبي عمره ستان، وعمر الفتاة سبعة أشهر فقط. حين أشعر باليأس أقول للصبي «ربما عندما تكبر ستقاتل في حرب ضد سوريا، أو ضد الأردن». الكلمات الوحيدة التي يعرفها هي «ماما»، «بابا» و«صدام».

لست أعرف ما الذي سأفعله. ربما سأذهب إلى الأردن لأجد عملاً هناك. عليّ أن أرتدي الثياب نفسها كل يوم، لأن القميص يكلف الآن ٣٠ ديناراً. لم نذق طعم اللحم منذ شهر. إننا نحلم بأطعمة مختلفة، غير أننا لا نستطيع أن نأكلها. معظم المال الذي أكسبه ندفعه ثمناً لحليب الطفلة، فتمن العلية يبلغ ١٥ ديناراً. اضطررنا إلى بيع مجوهرات زوجتي لشترتي سيارة التاكسي تلك البالغة عشر سنوات من العمر والتي أقودها الآن. عندما ابتعتها رحت أقودها، في البداية، بين أربع ساعات وست يوماً، والآن أقودها بين الثماني ساعات والعشر يوماً. أحلم بالتوقف عن التدخين لأن العلية تكلف دينارين، أنا الآن أدخن أكثر.

أحب المسرحيات الإنكليزية والشعر. إنها تجعلني سعيداً. أصبحت مولماً بها بعدما درست الإنكليزية في المركز البريطاني ببغداد. أحب مسرحية شكسبير «الليلة الثانية عشرة»: «إن كانت الموسيقى هي طعام الحب، هيا أعزف!» أظن أن القراءة ثورة، إنها تجعلنا نفكر ونسأل. لكن في صفوف المدرسة، كان عليّ أن أقرأ قصائد تمجّد صدام، وكان على العلامة أن يحفظوها غيباً. كان ينبغي أن تكون مواضيع الإنشاء التي يكتبونها عن أمور مثل تمجيد صدام. لقد قتلوا التفكير الحرّ. لماذا ينبغي أن يدرس تلامذتي؟ إنهم ينظرون إليّ - ١١٠ دينار في الشهر وأقود سيارة تاكسي خلال الصيف - ويخالفهم: «سوف أخرج من المدرسة، وأتوجّه توأ إلى الجندية».

إن مسرحيتي المفضلة هي «موت بائع متجول»، لأن ويلي لومان بطل المسرحية يتمسك بأحلامه ويضحّي بنفسه من أجل أولاده. أحب [مسرحية] «بانتظار غودو» أيضاً، اني أقرأها لأمي. غودو يمثّل الأمل. من أين ومتى سيأتي؟ لسنا نعرف. لكن غودو سيأتي. ليس في مقدورنا وحدنا أن نفعل أي شيء. كان على ويلي لومان أن يضحّي بحياته من أجل أولاده. لذلك ينبغي أن نظل هنا، منتظرين. نحن في انتظار غودو»^(١٠).

الباب الثاني

الصمت

٧ - من أنا؟

«هل فكرت (سمير الخليل) في زيارة بلدك الأصلي العراق بجواز سفرك الأميركي في المستقبل عندما يكون جيشك الأميركي هناك... أنت لا يحق لك الكلام عن العراق ومن يسكن في العراق. العراق وأبناء العراق يتبرأون منك براءة الذئب من دم يوسف. أنت جالس في النعيم وبيدك القلم والقرطاس هذا كل ما تملك أما الحس والعطف على البلد لا وجود له. كان يجب عليك أن تدين الهجوم الذي أرجع العراق إلى القرن الثاني عشر، بدل أن تطلب من البرابرة أن يكملوا ما بدأوه واحتلال بغداد.

لا أريد أن أتجاوز عليك ولكن أرجو أن تراجع نفسك وتتوجه إلى الله العلي القدير وأنت في هذه الأيام المباركة (رمضان) وأن تستغفر يجلي عنك خطاياك إنه سميع مجيب».

تعليق في صحيفة «العرب»^(١).

ما العلاقة بين جواز السفر الذي يحمله المرء، وبين الآراء التي يعبر عنها، والكتب التي يؤلفها، ومشاعره العميقة ومعتقداته الخاصة، وهي بالطبع ما يشكل هويته؟ في الواقع لست أملك جواز سفر أميركياً، ولم يكن لدي واحد في أي وقت مضى. لكنه قدر لي، بعد سنوات من السعي الحثيث، التحرر من القيود التي كانت قد فرضتها عليّ لعنة تلك السنوات الأربع عشرة من حياتي كراشد، تلك القيود التي كانت تكبل حريتي، وهي بالتحديد جواز سفرني العراقي. يوم تسلمت الرسالة التي أبلغتني خبر منحي الجنسية البريطانية عام ١٩٨٢ كان ذلك أجمل أيام حياتي. وعلى رغم أنني كنت محظوظاً بما فيه الكفاية لأعرف ما هي الحرية بطرق شتى، إلا أنني، في ذلك اليوم بالذات، ذقت طعمها. فبات بوسعي عندها السفر من دون قيود، سواء تلك التي تفرضها الحكومة

العراقية برغم كوني مقيماً في الخارج، أو تلك التي تضعها سياسات الهجرة المتشددة، أو يواجهني بها ضابط عنصري قد أصادفه في مطار غربي^(٢). لن أضطرّ بعدها إلى ارتياد سفارة عراقية، واضعاً أصدقاء لي عند زاوية الشارع للتأكد من خروجي منها. فالعديد من العراقيين والفلسطينيين والسوريين واللبنانيين ممن يعيشون مشتتين أو منفين، سواء قسراً أو اختياراً، يشاطرونني هذه المشاعر وهذه التجربة الشخصية.

إلا أن هناك قاعدة غير مكتوبة سائدة، بيننا نحن العرب، تقضي بعدم التحدّث أو الكتابة عن أمور كتلك التي أكتب عنها الآن. أمر مخزٍ أن يدلّ أحدنا جواز سفره. فهو بذلك يقدم على خيانة من نوع ما. هذا ما عناه كاتب المقطع الوارد في مطلع الفصل عندما شدّد على عبارات «جواز سفرك الأميركي... جيشك الأميركي».

إن مفاهيم الخيانة ذاتها دخلت النظام القانوني العراقي منذ زمن طويل. فهذا النظام يربط صراحة الجنسية بالمعتقدات الخاصة، وقد حرص القانون الذي أصلح النظام القانوني عام ١٩٧٧ على حرمان «كل الأشخاص الذين يتخذون موقفاً سياسياً، اقتصادياً أو فكرياً، معادياً للثورة وبرنامجه» من الجنسية العراقية^(٣). لم يكن ذلك شذوذاً بل تجسيدا لكل نظريات حزب البعث عن الهوية العربية منذ الأربعينات في سوريا والعراق، وفي كلّ مكان كان له وجود فيه.

إنني في الواقع خائن ولست مواطناً في نظر الجمهورية العراقية. فالمواطن المخلص هو الذي يفكر بنهج معيّن، والانحراف يظهر في «الأفكار السيئة» قبل أن يتجسّد في التصرف. والدولة لن تجدّد جواز سفرني العراقي كما أن لديها قوانين أخرى تشرّع استخدام العنف ضدّ شخصي بسبب تفكيري غير البعثي، وهي حقيقة تثبتها كتبتي.

في هذا السياق تتجذّر مشاعر العار المرافقة لتبديل جواز السفر، بوعي أو بلا وعي في مفاهيم كهذه حول الهوية. وبما أن هذه المفاهيم في صراع مفتوح مع متطلبات العمل والنفي السياسي وحتى الخيارات المتعلّقة بنمط العيش، فلا بدّ من الاستمرار في كذبة كبيرة وهي نفي أن يعني التغيير شيئاً. العديد من العرب يتمتعون بالمكاسب التي ينكرون أنهم عملوا لها يائسين فيما كانوا يسعون للحصول على جوازات سفر أميركية أو بريطانية أو فرنسية. وعن خداع الذات هذا نجم المقطع الذي أوردته من صحيفة عربية صادرة في لندن، حيث أخذ علي المحرّر حيازة جواز سفر لا أحمله في الواقع، وخلص ساخراً إلى أنه كان من المعجبين بكتاب «جمهورية الخوف» إلى أن «زال القناع» عن وجه كاتبه، واتضحّت المواقف السياسية التي اتخذها خلال حرب الخليج.

من هو المثقف العربي؟

عندما اجتاحت صدام حسين الكويت في ٢ آب/ أغسطس ١٩٩٠، خضع النموذج الذي كان يسود هذا الخطاب العربي الخاص بالهوية لأفقط اختيار يمكن أن يواجهه. وجدت مشاعر القومية العربية المتجذرة في ذاكرة من الظلم التاريخي العميق - رسم خارطة العالم العربي بعد الحرب العالمية الأولى وقيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ - نفسها وجهاً لوجه أمام بشاعة النظام الذي كان يعتبر رأس حربة العروبة عام ١٩٩١، ألا وهو العراق البعثي. ذُهل العالم العربي برمته مما فعله صدام حسين. إلا أنه خلال الأيام الأولى التي تلت الاجتياح، ما كان يمكن لقارئ يقتصر اطلاعه على ما في الصحافة العربية أن يعلم حتى بهذا الحدث، لأن الصحف العربية إما كانت تلتزم رقابة ذاتية، أو أنها كانت تنتظر قراراً من مؤيّلها حول ما يجوز كتابته. كان عليك أن تعرف ما كان يجري من خلال الصحافة الغربية.

إلا أن الغالبية العظمى من يعتبرون أنفسهم مثقفين عرباً أو مناصرين للعرب لم تكن تأبه للأمر. فباستثناء من في دول الخليج ومصر (التي كانت تعيش حياة ثقافية معزولة منذ اتفاقية كيب ديفيد) لا علم لي بوجود أية مجموعة من المثقفين العرب، ولو صغيرة، ميّزت تمييزاً ذا مغزى بين مصالح شعب العراق المذهب الذي أضاع جيلاً كاملاً خلال ثماني سنوات من الحرب الضارية مع إيران، والطاغية الذي كان يضحي به على مذبح مغامرة جديدة^(٤). في الوقت ذاته بات من الصعب بالنسبة لبعض العرب (أولئك المعنيين مباشرة، وغالبيتهم الساحقة من الكويتيين والعراقيين) الامتناع عن إبداء أية ردة فعل إزاء هذه الأزمة الأخيرة التي حلّت بالشرق الأوسط، نظراً لما كانت الكويت تعانيه في ظلّ الاحتلال، ولما كان يجري داخل العراق خلال السنوات العشرين الأخيرة. وبدأت حساسية جديدة تقوم على النقد الذاتي بالدخول إلى السياسات العربية. لكنها شأنها شأن أي جديد يولد في محيط معاد لفكرة النقد الذاتي، لا تزال هشة للغاية^(٥).

فالعادات القديمة لا تموت إلاّ ببطء. وأصعب ما يكون ذلك بين الأشخاص الذين اعتبروا واجباً عليهم أن يوقظوا الاعتزاز والحس بالهوية الجماعية عبر إلقاء مسؤولية الحن والاضطرابات على عاتق طرف «آخر» - وكالة أجنبية أو ثقافة «غريبة» من خارج المجتمع الذي يحاول أن يمجّده، وغالباً ما تكون هذه الوكالة أو الثقافة أكثر نفوذاً وديناميكية. والمؤلم في الأمر هو النبرة العالية الحادة لأهل الفكر العرب في محاولتهم تحميل الغرب أو إسرائيل مسؤولية أية أزمة. ويزداد الخطاب العربي هستيرية واستبعاداً للواقع ومحاكمة للذات فيما العالم العربي في الواقع يزداد عجزاً عن تحقيق نفسه سياسياً وثقافياً في الألفية الجديدة^(٦).

إليكم على سبيل المثال هذه الحادثة الاعتيادية. أحمد شاب مثقف من الطبقة المتوسطة البورجوازية، ولد ونشأ في بغداد. يحتقر السياسة، مثل غالبية العراقيين المتعلمين من جيله، الذين نشأوا في ظلّ نظام صدام حسين. كلّ أصدقائه، في الولايات المتحدة التي قصدها مؤخراً بهدف الدراسة، من العرب. بعد عدة أشهر من الهزيمة العراقية في حرب الخليج، وخلال حفلة ليلية، كان لأحمد حوار مع مازن، وهو أردني متعلّم مثله يدرس إدارة الأعمال في شيكاغو. اعتبر مازن أن صدام حسين هو «الرجل الحقيقي» الوحيد في العالم العربي الذي وقف في وجه الغرب. وعندما أراد أحمد أن يعرف ما حققت هذه الوقفة، أجاب مازن «لا شيء، لكنه أثبت للغرب أننا نحن العرب ينبغي أن يحسب لنا حساب». كذلك لم يقرّ مازن بأن اجتياح الكويت كان خطأ. وما زال أحمد يذكر الحديث:

- لقد شنّ الحرب قبل الأوان. كان عليه الحصول على القنبلة أولاً.

- أليقع عندها بضعة ملايين من القتلى عوضاً عن مئات الآلاف؟

- لكننا كنا استطعنا عندها مواجهة إسرائيل.

- السبيل الوحيد لمواجهة إسرائيل هو المصافحة.

- لكن هذه خيانة!

- الخيانة هي أن تقتل شعبك، أن تجرّه إلى حرب طويلة منهكة ثم تقول له أن يسترد الكويت.

- على أية حال أنت كردي، ولن تحبّه^(٧).

لكن المرء يشعر في أعماقه أنه فاشل في الحاضر، في العالم الذي يعرفه والذي نشأ فيه، لكنه يضطر يائساً إلى تأكيد تفوّقه، أولاً من طريق تذكيره المتواصل بعظمة أجداده وأمجادهم، وثانياً من طريق تضخيم صورة دخلاء على الأمة ذوي نفوذ مطلق يعملون دائماً على إقصائه جانباً في أية مواجهة حقيقية أو متخيّلة. هذان العاملان يتداخلان ليؤدّيا إلى تبرير أيديولوجي لمجزه: إن شعبه كان ليكون مجيداً، ودولته كانت لتكون واسعة النفوذ، لولا دسائس الامبرياليين (أو الشيطان الأكبر، مما يعني الشيء ذاته). ما حصل الآن هو أن هوية هذا الشخص بنيت بطريقة سلبية تماماً: فهو على ما هو عليه بسبب ما يكره، وليس بسبب ما يحبّ أو يؤيد^(٨).

ثمة طريقة أخرى لبناء الهوية، تكمن في النظر إلى الداخل نظرة نقد ذاتي، عوضاً عن

النظر إلى الخارج. لكن المثقفين العرب لم يعتمدوا ذلك طريقة لمواجهة الأزمة التي حلت بهم بعد ١٩٦٧ - عالم كان يتنقل، ويتهور، من كارثة إلى أخرى ولمدة هي أطول من أن يكثر أي منا للتأمل فيها. وقد كرس عدد كبير من الأشخاص جزءاً كبيراً من حياتهم لبناء هذا النموذج «الرفضي» والدفاع عنه، وهو بات اليوم بمثابة طبيعة ثانية لجيل جديد من العرب مثل مازن. ومن المفارقة بالتالي أن يكمن التهديد الأكبر الذي تواجهه الحساسية الجديدة القائمة على نقد الذات، في الأشخاص ذاتهم الذين يفترض بهم أن يغذوها، ألا وهم تلك المجموعة من المثقفين العرب الذين نصبوا أنفسهم «مناصرين للعرب».

ما هو المثقف «المناصر للعرب»؟ لماذا لا نسمع بمثقفين «مناصرين للفرنسيين» أو «مناصرين للأميركيين اللاتينيين»؟ لأنهم غير موجودين. يعتبر بورخيس وماركيز أنهما كاتبان من الأرجنتين وكولومبيا. أن نقرأهما أو لا نقرأهما أمر يتوقف على أسلوبهما في الكتابة، وليس على جنسيتهما أو الآراء التي يعبران عنها. ثم هناك اختصاصيون بنتاج أدباء كهؤلاء، يهتمون بالبحث عن نقاط ترابط واهتمامات مشتركة، لكنهم لا يمكن في أي من الأحوال أن يعتبروا أنفسهم «مناصرين» أو «مناهضين» للأميركا اللاتينية. ذلك لا ينطبق على الكتاب من الشرق الأوسط أو من حوله، الذين غالباً ما يعرفون نتائجهم وأنفسهم بأنهم «عرب» أو «فلسطينيون» أو «مناصرون للعرب»، مع كل ما تتضمنه تلك الألقاب من دلالات سياسية.

صديق فلسطيني قديم كان يتنقل باستمرار من محاضرة إلى أخرى قال لي مرة: «لقد تحولت إلى فلسطيني محترف». كان هو يعي المشكلة في حين أن معظم الكتاب العرب و«المناصرين للعرب» لا يعونها. والمضحك في المسألة هو أن كون الكاتب «فلسطينياً» أو «مناصراً» أو حتى «مناهضاً للعرب إنما هو استراتيجية فعالة للفت الأنظار إلى نفسه وإلى قضيته، وأكثر ما يكون ذلك فعالاً في الولايات المتحدة.

فمجرد وجود ألقاب كهذه يشير إلى درجة الانحطاط التي أدركها المناخ الثقافي من الجدل حول الشرق الأوسط في كلا العالم العربي والغرب. فكروا في الأجواء المسمومة داخل دوائر الدراسات حول الشرق الأوسط في بعض الجامعات، خصوصاً في الولايات المتحدة، حيث يستعاد غالباً النزاع العربي الإسرائيلي بأوسخ الأشكال. فحتى الحياة الأكاديمية والنوادي شبه المهنية والشبكات الإذاعية والتلفزيونية غير الرسمية، أو خصوصاً فيها، ظهر ما هو «نصير للعرب» وما هو «نصير لإسرائيل»، ولكل منها مقدّساته ومحرماته الصببانية. وخلقت جزر السأم هذه في خطها الفكري الخالي من المفاجآت

أثماً أكثر فاعلية من وسائل الإعلام الغربية التي لا تفعل في أسوأ الأحوال إلا تكرار ما يصدر عنها.

من هو المثقف العربي؟ إن الإجابة عن هذا السؤال أصعب مما يمكن أن نظنّ لأنه لم تعد هناك أية معايير مترابطة تجمع بين مزاي كون شخص ما عربياً (وليس مصرياً مثلاً) وانتمائه إلى جماعة فكرية متفاعلة كذلك التي يمكن إيجادها في دولة مثل مصر. يتساءل اسماعيل الأمين في صحيفة «العرب» التي ساندت النظام العراقي خلال حرب الخليج «مثقّفون عرب أم مثقفون من العرب؟» وهذا سؤال جيّد، إلا أنه يجيب عنه إجابة فقيرة إذ يقول «كيف يمكن أن يكون ذلك الكاتب مثقفاً عربياً يحمل ثقافة عربية طالما يذلل مقالته أو دراسته أو كتابه بمراجع لا تمتّ إلى العربية، لغة وثقافة وفكر، بأية صلة؟»^(٩).

خلف سؤال كهذا يكمن ادّعاء شديد التعصّب منتشر بين عرب يفوقون الأمين ذكاء وتقرباً من نط الحياة الغربي، مفاده أنّ هناك رابطاً مقلداً لإحكام، عربياً صرفاً، يربط كيف يفكر المرء بمن هو، وهو الرابط ذاته الذي رأيناه في مطلع هذا الفصل. أنا لست الشخص الذي أظنّ أنني هو، بل أنني أتحدّد بكيف أفكر. يعتقد الأمين انه حتى العرب الذين يكتبون بالعربية قد لا «يكونون» عرباً، لأنهم لا يعتمدون مصادر عربية حصراً. النقطة الرئيسية التي يشدّد عليها ليست حتى المقاربة القومية الكلاسيكية التي تعتمد اللغة معياراً للهوية، بل انها تركّز على «كون» المرء عربياً لأنه يتصرّف أو يفكر مثل عربي، مهما عني ذلك^(١٠).

إن مصرياً ينشر باللغة العربية في مصر ليس مثقفاً عربياً «صالحاً» أو مثقفاً من الطراز الصالح، إن اعتبر نفسه مصرياً وكان مصنفاً في حلقة من الناشرين والنقاد والقراء تقتصر نشاطاتها على مصر. حتى كونه عربياً يسمي موضع تشكيك إن لم يتخذ الموقف المناسب خلال حرب الخليج أو من زيارة السادات القدس. من جهة أخرى، ليست هناك أية شكوك حول عروبة أستاذ من أصل فلسطيني، يعلم في جامعة أميركية ويعتبر عن رفضه الولايات المتحدة بلغة إنكليزية بليغة، لأنه «يفكر» كعربي، ولأن «قضيته» قضية العرب أجمعين. ماذا لو كان أحد يحتلّ موقعاً في مكان ما بين هذين الطرفين، مثل تلك المجموعة الواسعة وغير المتجانسة من المنفيين من كلّ أنحاء الهلال الخصيب الذين يقيمون في باريس ولندن ويكتبون بالعربية لصحف ومجلاّت ومطبوعات توزع في الوقت ذاته في أكشاك عدد من عواصم العالم؟

وقع العرب في كلّ مكان في اشارك عقد آثارها حول هذا النوع من المسائل. أحياناً يسألني العراقيون، وحتى أولئك الذين يكتبون لي حسن نية: «لن تكتب؟» يريدون أن

يعرفوا إن كنت أكتب لأرضي جمهوراً غريباً أو انني أكتب بصفتي عراقياً، «باسم شعب العراق». استاء العديد عندما زرت شمال العراق لجمع المعلومات حول عمليات الانفال التي أدت إلى سقوط ما لا يقل عن مئة ألف ضحية من الأكراد المدنيين. وكان السؤال الضمني «ألسنت شيعياً؟ لماذا لا تكتب عنا؟». مرة جديدة يكون الافتراض بأن المرء هو من يكتب المرء لحسابه، وأنه يكتب فقط لمن هو. كان أحد معارفي الأقلّ اطلاعاً، وهو رجل أعمال عراقي، مقتنعاً في الواقع بأنني نقلت كلّ ما حلّ باليهود العراقيين عام ١٩٦٩ في كتابي «جمهورية الخوف» فقط لبيع عدد أكبر من النسخ. تلك الخطة التسويقية التي اتبعتها، نالت، في نظره، تأييده لأنه يكره صدام حسين كرهاً كبيراً. أي شيء كان يمكن أن أفعله من أجل «قضيئتنا» كان يناسبه. ذلك هو أسلوب أكثر تعاطفاً يعبر بشكل جوهري عن التفكير ذاته الذي عبّر عنه أولئك العرب الأميركيون غير العراقيين الذين اعتبروا سمير الخليل خلال ١٩٩١ «عريباً كارهاً للنفس»، انتقد العالم العربي في كتاباته ليشتملّ الناشرين والنقاد في الغرب.

وعلى المنوال نفسه انتقد إدوارد سعيد كتاباتي آخذاً عليها «عدم تعاطفها» مع العرب، وأنها قدّمت نظرية تقول إن العنف في الشرق الأوسط مطبوع في الجينات العربية. وفي المقابلة ذاتها عن المثقفين وحرب الخليج، وافق سعيد، مؤيداً، على وجود مصدر شعبي للتأمرية في العالم العربي، تتساءل عن كلّ كتابة «من هم في الحقيقة أولئك الذين يتحدث هذا الشخص باسمهم؟ أو كما يقولون بالعربية: مين وراه؟»^(١١). ويمكن اختصار نقطة الخلاف الأساسية بيني وبين سعيد بالتالي: بينما أنا أرفض مجرّد طرح أسئلة كهذه على أي كائن بشري، يوافق هو على طرحها.

«أكتب لنفسي، حالي حال كل كاتب آخر»، هذا هو الردّ المربك الذي أوجّهه إلى كلّ هؤلاء النقاد. وبالتالي، إن صادف أن سمير الخليل يفضل الكتابة بالإنكليزية، وأنه عاش السنوات العشرين الأخيرة في الغرب، وناشد القوات المتحالفة أن تطيح الطاغية قناعة منه بأن ذلك سيكون في مصلحة جميع العراقيين، فهل كان يتصرّف كعربي أصيل، خصوصاً إذا ما أخذنا بعين الاعتبار نقطة تزيد الأمور تعقيداً وهي أن الغالبية العظمى من العراقيين كانوا يفكرون ويشعرون بالطريقة ذاتها؟ من دواعي السخرية أنه في حين كان سعيد وصحف عربية مثل «العرب» مذعورين من الفكرة الداعية إلى مزيد من تدخل القوات المتحالفة، كان بعض البيروقراطيين البعثيين يعتقد أن حرب الخليج علّقت من دون حسم:

«كانت مجموعة من المسؤولين الذين عرفتهم عاملين خنوعين وأولياء للحكومة

واقفة في حلقة مستديرة. قال أحدهم بصوت عال «إن الجنرال شوارزكوف لم يتقدّم بما فيه الكفاية. كان يجدر به القدوم إلى بغداد وإنهاء العملية». هزّ الآخرون رؤوسهم بالموافقة. ولم يبد أنهم يكثرثون بما إذا كان قد سمعهم أحد»^(١٢).

هناك دائماً توترٌ صعب بين الدفع الداخلي الذي هو أساس فعل الكتابة ومغزى النتيجة النهائية. عندما أجريت المقابلة مع الفتى الكردي تيمور، لم يكن يريد التحدث معي (الفصل الخامس). علّمه الكلام الجاهز الذي كان عليه أن يرّدّه. لكنني لم آت من أجل ذلك. كنت، بصفتي كاتباً، أريد منه المزيد. أجلسْتُ الفتى لمدة ساعتين وأرغمته في الحقيقة على أن يعيش ثانية، وبالتفاصيل الدقيقة، كل لحظة من مأساته.

أي حق كان لي بذلك؟ هل أصبح تيمور أفضل حالاً بعدها؟ بعد المقابلة بات هدفاً رئيسياً معرضاً للاغتيال. مع هذا فإن ما فعلته ينال تأييد الوطنيين العراقيين والأكراد الذين يكرهون صدام حسين، إذ يرون فيه الربط الضروري لمصلحة الفرد بالمصلحة العامة لجميع العراقيين. من جهة أخرى، قد يفكر قومي عربي أو فلسطيني أن إسرائيل والغرب سيستغلّان فضح حملة ١٩٨٨ لإبادة الأكراد من أجل شنّ هجوم على جميع العرب، وذلك سيء بالنسبة لسمعة العرب. هكذا تكون دوافع المرء موضع تشكيك منذ البداية.

أنا أحتقر الأسلوين معاً في طرح العضلات الإنسانية الحقيقية الكامنة في مسائل كهذه. إن فضيلة ما فعلته بتيمور عرضة لجميع أنواع التفسيرات، وأهمها لا علاقة له بالسؤال باسم من أكتب أو حتى من أنا. إن المسائل الأخلاقية الحقيقية والصحيحة الوحيدة تنجم عن كوني أكتب لنفسني وليس لأي كان. فالحياة كانت لتكون أسهل لو كان في مقدوري أن أستدير وأقول «إنني أكتب باسم الشعب العراقي، أو لفضح جرائم صدام». ذلك ليس الحقيقة.

لا يمكن فهم النموذج القومي السائد بين المثقفين العرب والذي خضع لاختبار قاسٍ إبان العملية التي نفذها صدام حسين في ٢ آب/ أغسطس ١٩٩٠، بم عزل عن الهاجس الملح حول مسألة تحديد من هو عربي. لقد استشهدت حتى الآن لتصوير هذا الهاجس بمقالات من صحيفة عربية نموذجية غير معروفة بقيمتها الصحافية، وهي صحيفة «العرب». إلا أن الهاجس نفسه موجود في كل الخطاب المناهض للغرب الصادر عن العالم العربي. العديد من العرب أمثال مازن رآوا في صدام حسين المخلص القادم على صهوة جواد كأنما هو آتٍ من ماضٍ بطولي للذود عن «الشرف العربي» وتضميد جراح قديمة من الكبت والعجز.

لكن تجدر الإشارة إلى أن انتقاد الخطاب السياسي العربي لا يعني التخلي عن أولئك الرازحين تحت نير القمع السوري أو الذين يعانون من الذل المتواصل والاحتلال الوحشي في الضفة الغربية. لن أنسى أبداً التجربة التي عشتها في سيارة أجرة فلسطينية كانت تنقلني من بيرزيت إلى القدس وهي تسير خلف سيارة جيب محملة بجنود إسرائيليين كانوا يومئون بفظاظة وسخرية لركاب سيارة الأجرة العرب الستة، بوجوههم الخالية من أية تعابير. كذلك لن يغيب عن ذاكرتي مشهد في القدس عند باب الخليل، بوابة يافا، حيث قام شرطيان إسرائيليان بمططيان جوادين جامحين بتفتيش صبي فلسطيني مذعور لا يتعدى عمره الثماني أو التسع سنوات، فأرغمناه على قلب حقيقته المدرسية وإفراغ كل محتوياتها على الأرض. (رأيت هذه المشاهد في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٠ أثناء زيارة للقدس والضفة الغربية تمكنت من القيام بها بعد أن حصلت على جواز سفر بريطاني). فكرت انني لو كنت في وضع ذلك الصبي، أقلب التراب بحثاً عن محماتي، ومبراتي وأوراقي المبعثرة، بعد أن غادر الجنود، لكنني أنا أيضاً رأيت في صدام حسين مخلصاً. فعندما يقترن اليأس والحرمان من الحقوق المشروعة بسوء المعاملة والإذلال، فإن ذلك يولد دائماً آمالاً خادعة ومعتقدات خرافية لدى أي شعب كان. وليس في هذا الكتاب ما يمكن النظر إليه كانتقاد للعرب الذين تعرّض كرامتهم وهويتهم نفسها ككائنات بشرية للإهانة يومياً بفعل السياسات الإسرائيلية في الضفة الغربية.

لغة القسوة

هنا، في القسم الثاني، سأركز بصورة خاصة على وجهات نظر أولئك المثقفين العرب والمناصرين للعرب المنفتحين على الثقافات الأخرى والمتبعين نمط تفكير غريباً، وهم يقيمون بغالبيتهم الكبرى في الغرب ويتمتعون بوضع يسمح لهم أن يكتبوا ويقولوا ما يشاؤون. هؤلاء الأشخاص، بموجب الحريات المتاحة لهم، في موقع يمكنهم من القيام بعمل إيجابي من أجل العرب الذين أطبق عليهم الفتح داخل دول الشرق الأوسط القمعية. إلا أن معظمهم اختار، سواء مباشرة أو غير مباشرة، إما أن يجد الأعذار للمشروع السياسي للديكتاتور العراقي، أو أن يسانده بشكل فعال. ولم يكن هذا الخيار مجرد هفوة عابرة، بل جاء تأكيداً للسطوة الاستحواذية والمعتلة التي تفرضها سياسة الهوية على المثقفين العرب.

يشكل هؤلاء المثقفون مجموعة شديدة التباين، معقدة، وذات وعي سياسي في مجملها. والمعيار الوحيد الذي اعتمدته لاختيار الأشخاص المذكورين هنا هو كونه، أو كونها، حقق شيئاً في مجاله بناء على مقاييس متبعة كونياً وعموماً (سواء كباحث،

مهنّي، شاعر، أو فنان من نوع ما). وإذ أوافق وليد الخالدي على أنه رغم كل شيء فإن «من المفارقة ان العالم العربي ما زال يشكل منطقة واحدة تتخطى فيها الأصدقاء النفسية والعاطفية والفكرية الحدود بين الدول»^(١٣)، فقد اعتمدت معياراً واحداً للاستشهاد بشخص ما، وهو أنه يكتب من موقع انتماء عميق إلى هذا العالم، مهما كان تحديده. ولا أحاول في أي مكان أن أشهر بأي فرد كان، بل أريد أن أبرهن أن طريقة معيّنة للنظر إلى العالم، وإن توافقت غالباً مع أطيب النوايا، إنما هي مفلسة أخلاقياً، وهي ذاتها المصدر الرئيسي لعجزنا عن التعامل مع مشكلات اختلقناها بأنفسنا. إنني أكتب لنفسي كما سبق وقلت، إلا أنني أكتب كذلك من وجهة نظر شخص يتمنى من أعماق قلبه أن يرى هذا الوضع المأساوي يتبدّل.

فعلى سبيل المثال، هشام جعيط، وهو متخرج من السوربون، وحامل وسام جوقة الشرف الفرنسي وربما كان أشهر مثقفي تونس، كما انه خبير في التاريخ الإسلامي وناقد سابق للممارسات البعثية^(١٤). إلا أنه قال في مقابلة مع مجلة «الاكسبريس» ان صدام «يتقدّم» الدول العربية المشاركة في الائتلاف المناهض له لأن خطابه الإسلامي المبتكر «يوازي استعادة للذات وإحياء لهوية عميقة»^(١٥). ولا يجد جعيط أية صعوبة في الانتقال من اعتبار صدام حسين بطلاً إلى نعته بالأسطورة إلى الإشادة بالعنف:

- الاكسبريس: أنت تتراأس منذ ١١ آب/ أغسطس ١٩٩٠ في تونس لجنة التضامن الوطنية التي تقدم الدعم للعراق وقائده. لماذا؟

- جعيط: العراق وصدام حسين يعطيان العالم العربي أملاً. عاش العالم العربي طوال عشرين سنة نظاماً فاتراً، كئيباً وفاسداً عملياً، نظاماً سعودياً - أميركياً لا تتعدى رؤياه البترودولار. من الآن فصاعداً تنبسط آفاق جديدة، آفاق التوحيد. والعراق هو قطبها ومحركها.

- الاكسبريس: كيف تبرّر ضمّ الكويت؟

- جعيط: ليس عليّ أنا أن أقول لكم أنتم الأوروبيين، ان دولكم ولدت بعد حروب. صدام حسين، بضمه الكويت، دخل ديناميكية التاريخ. كان يحاول تأمين مصدر ثروة لنفسه، موارد مادية، وإلى ذلك ان يضطلع بإطلاق عملية توحيد العالم العربي. أحياناً «تكون الشرعية أهم من القوانين».

- الاكسبريس: حتى ولو كان ذلك سيؤدي إلى نزاع معتم؟

- جعيط: ميزة الحرب انها توضح الأمور، سواء بالنسبة إلى تناقضاتكم أو

بالنسبة إلى تناقضاتنا. وهذا التوضيح هو لمصلحتنا تماماً. ليس لدينا ما نخسره في هذه الحرب، ولو آلت إلى هزيمة. لأنها بفضل صدام حسين تجري على مستوى الوقائع: نفط، قوة عسكرية، إلخ.. وليس على مستوى الرموز كما في الماضي^(١٦).

في مقدور هشام جعيط، تماماً مثل صدام حسين، أن يحوّل حتى أذلّ الهزائم إلى دليل على روح العروبة التي لا تقهر. وينجم عن ذلك بالتالي تحديد لمعنى كون المرء عربياً، الذي هو بحدّ ذاته تعزيز لتوكيد ميتولوجي سابق على «الهوية العميقة». والأساطير القديمة تغذّي «تفسيرات» جديدة تقوم على تأكيدات مستمدة من الأمر الواقع، كأن يقال مثلاً «إن العنف يولد إيجابية تاريخية جديدة تجعل المرء ينسى الآلام القديمة والتضحيات الطوعية»^(١٧). فجعيط في غاية السعادة لرؤية عشرات آلاف العرب يقتلون من أجل استعادة أرض تاريخية. هل يمكن أن يكون قد اعتاد على أن ينظر إلى كتبه كتشريع نظري لما أراد صدام حسين إنجازها عملياً؟ إن التشكيك في الوقائع التي يقوم عليها صرح صناعة الخرافة هذا يتحوّل إلى عمل خيانة بمعنى ما، عمل ينم فقط عن كراهية الذات.

لقد غاصت الأمانة العامة لاتحاد الحقوقيين الفلسطينيين في العالم غير الواقعي ذاته عندما نشرت إعلاناً يحمل صورة صدام حسين في صحيفة «الدستور» الأردنية، بعد أسبوع كامل من انتهاء الحرب. وجاء في الإعلان «تأييد ومباركة بالنصر إلى سيادة الرئيس صدام حسين حفظه الله». وتابع الإعلان مشيداً بـ «صمودكم الأسطوري» للزعيم العراقي في وجه «مؤامرة الغزاة الأشرار»^(١٨). وكتب ناقد أدبي تونسي واصفاً الدمار الذي أنزله أول صاروخ سكود عراقي ببضعة مبانٍ في تل أبيب: «آه، يا لجمال هذا الدمار النبيل!»^(١٩). أما رئيس الوفد الأردني في محادثات السلام الجارية في ذلك الوقت كمال أبو جابر فكان أكثر تحفظاً وتنبؤاً بأن الزعيم العراقي يسير نحو هزيمة عسكرية ولكنه سيظل بطلاً للسنوات الألف المقبلة. التلامذة سينشدون أغاني عنه والأهات سيسمين أولادهن صدام^(٢٠).

غير أن صدام لم يبق بطلاً لزمان طويل في نظر البعض. فقد قال الروائي والصحافي الأردني مؤنس الرزاز «إنها مأساة... ذلك الرجل خيب ظني». إلا أنه أدرك ذلك متأخراً إذ أن والده منيف الرزاز، وهو بعثي أردني معروف، لقي حتفه في سجن عراقي بأمر من صدام حسين بتهمة مساندة «مؤامرة» مفتعلة عام ١٩٧٩^(٢١). وكان مؤنس الرزاز صرح خلال الأزمة وقبيل اندلاع حرب الخليج أن العالم العربي شهد منذ اتفاقية كمب ديفيد «كثيراً من الجبن... البطل دائماً يقدّم خيارين: إما أن يربح أو أن يخسر»^(٢٢). ويبدو أن

سمعة صدام حسين كانت تقوم على قوته المتصورة الكاسحة ولم يتحول إلى خيبة كبيرة إلا بعد أن خسر المعركة.

لم يتحدث الجميع عن قيم صدام الوحشية من دون أدنى تحفظ مثلما فعل جعيط وأبو جابر، بل ظل العديد من المثقفين متحفظاً حيال الزعيم العراقي^(٢٣). وكان الموقف الأكثر شيوعاً يقضي بدعم سياسته عملياً مع التبرؤ الشديد للهجة من ممارساته الدموية. كتب رئيس تحرير صحيفة «جوردن تايمز» ومقدم أحد أهم البرامج التلفزيونية الأردنية حيث تجري مناقشات حول الشؤون العامة وهو رامي خوري: «حتى لو ان العرب لم يدعموا بغاليتهم اجتياح الكويت، إلا أن شجاعة صدام حسين في الوقوف في وجه أعدائنا... تناشد روح العالم العربي الجديدة - روح تقول إنه من الأفضل لنا أن نموت منتصين بدل أن نعيش زاحفين على الأرض»^(٢٤). وفي سوريا كان عدد من مناصري الديمقراطية وإطلاق الحريات الأكثر حماساً، من أشد منتقدي المشاركة السورية في ائتلاف القوات المتحالفة^(٢٥). وبعد مضي فترة طويلة على انتهاء الحرب والانتفاضة واتضح حجم الهزيمة التامة، أعلن المثقف اللبناني اليساري فواز طرابلسي باعتزاز أنه وقف إلى جانب النظام العراقي من غير أن يتنازل عن معارضته لـ «العلاقات القمعية» التي يقيمها مع شعبه^(٢٦). حتى المناضل الفلسطيني من أجل حقوق الإنسان جوناثان كتاب وهو محام مسيحي من القدس الشرقية اعتبر صدام حسين حامل «نظام تحرير لاهوتي» جديداً. لقد رأى كتاب ان صدام حسين بلا رحمة وهو لا يود أن يحكمه أبداً، إلا أنه يجسد في نظره «شيئاً ثورياً ورائعاً يعبر عنه بصرخة «الله أكبر» التي أفهمها كإيمان بإله عظيم، أعظم من الطائرات المتطورة... ومن كل قوة للدول الثماني والعشرين التي هاجمت العراق»^(٢٧).

غير أن أيّاً من ردات الفعل هذه لا تضاهي ردة فعل كمال أبو ديب، وهو أستاذ للأدب العربي في جامعة كولومبيا، والذي أدلى بدلوه في المعين العاطفي لغدة العقل الثقافية هذه. وأبو ديب واحد من أسرة تحرير المجلة النظرية الأدبية المجتدة «مواقف»، وقد نقل إلى العربية كتاب «الاستشراق» لإدوارد سعيد، إضافة إلى إنجازات أدبية عدة متميزة. نشر أبو ديب بعد انتهاء الحرب قصيدة نثرية بعنوان «صرخة في ماته» جاء فيها:

«لا نستطيع إلا أن نكون مع الوطن...»

قد يكون الوطن طاغية متجبراً... وقد يكون الوطن شرطياً تطاردنا كلابه الناهشة في كل شبر داخل الأسوار... وقد يكون الوطن كهف خيانتنا، ومذبح أحلامنا العذبة، وقبر توقنا لفضاء الكرامة والحرية والوعد. وقد يكون الوطن ألف شيء آخر فاجع وسيء.

غير أنه يظل، في جميع أحواله وأطواره، الوطن. ونظل لا نستطيع أن نكون إلا مع الوطن»^(٢٨).

إن أسوار السجن هي استعارة ترمز إلى الحدود الوطنية. والمغزى الواضح أن هذا السجن هو العراق البعثي. ويحق لنا بالتالي الافتراض أن الكاتب لا تساوره أية أوهام حول نظام صدام حسين، وهذا هو بالتأكيد ما يريدنا أن نفهمه. لكن لماذا يرغب أي عربي في الوقوف إلى جانب مكان مريع كهذا، أو داخله، خصوصاً عندما يكون لديه هذا المقدار الضئيل من الأوهام حوله؟ لا يبدو من خلال القصيدة النثرية أن هذه الفكرة خطرت لأبو ديب. كان ملايين العراقيين - مثل أبي حيدر وعمر ومصطفى - يثورون على الطاغية أو يصوّتون بأقدامهم ويهربون من سجنه لحظة صدور تلك الأسطر في مجلة «الناقد» الثقافية الشهرية الصادرة من لندن. ويبدو أن أهدافهم والأسباب التي دفعتهم إلى التمرد تبقى في نظر أبو ديب ورئيس تحرير هذه المجلة ثانوية، بالنسبة إلى الحرص على البقاء على انسجام مع «الأمة».

ينمّ خطاب أبو ديب عن قلق ثقافي جوهري. ما هو ذلك الوطن الذي «لا نستطيع أن نكون إلاّ معه»؟ أبو ديب سوري وهو لا يقيم في العراق. كلنا يذكر انه كان يفترض بصدام حسين أن يقود الأمة العربية عندما احتل الكويت وعندما قصف إسرائيل بصواريخ سكود. أهذا هو الوطن العربي الذي كان يعنيه أبو ديب؟ لا، على الأرجح، لأن أبو ديب لا يحبّ صدام حسين. التفسير الأكثر منطقية أن وطن أبو ديب أسطورة. إنه سجن وحكاية خرافية في آن واحد. وبالتالي فإن حسّ أبو ديب بهويته الخاصة يبقى معلقاً في فراغ اختلقه هو لنفسه.

تنطوي مقالة كهذه على حافز تصعيد موتي. فالمشاعر التي تعبر عنها تجمع بين القلق والإحتياج البدائي والانفصام الصريح في سياق تقليد لطم الصدور ذاته، كتب الشاعر الفلسطيني سميح القاسم عند اشتداد أزمة الخليج: «لن نحاول الأرض أن تنشق لتبتلعني. فلأحاول إذن أن أنشق لأبتلع الأرض»^(٢٩).

أرى أن هذه مشاعر زائفة، مدمرة للذات وقاسية في جوهرها. إنها زائفة لأنه ظهر جلياً أنها قائمة على كذبة، كذبة أثبتتها في لحظة الكتابة بالذات أعمال «السجناء» أنفسهم - شعب العراق - الذين أرغموا، بخلاف أبو ديب، على أن يكونوا داخل الوطن أو «مع الوطن». وهذا النوع من الكذب الفكري هو، إن استعنا عبارة ميلان كونديرا، كالنظر «في مرآة الكذبة المجدّلة» والتأثر «حتى ذرف دموع من الرضا لرؤية صورتنا المنعكسة»^(٣٠). هذا التمسك بالكذبة العذبة التي يقوم عليها جميع الخلافات الحقيقية بين الناس هو أكثر ما يعث على الحزن في ردّة فعل المثقفين العرب على أزمة الخليج.

والأهم من ذلك خطره العظيم. إن خطره عظيم لأنه يجري على حساب الحياة كما تعاش حقاً، وفي النهاية على حساب حياة الناس. كما لو أنّ خليل، أبو حيدر، عمر، مصطفى، تيمور وجميع الأشخاص الحقيقيين الذين نقلت كلامهم في القسم الأول من هذا الكتاب، غير موجودين، أو تم تحويلهم إلى أفكار نظرية مجردة. ذلك هو مصدر القسوة في هذه اللغة. ومثل شعر نزار قباني، فإن نسج الأساطير لدى أبو ديب وتعذيب الذات لدى سميح القاسم، يجريان على بعد مسافة هائلة من المشاعر الحقيقية للعراقيين والكويتيين، وهم يختبرون العالم الذي يكتب هؤلاء المثقفون عنه: كانت ثمة فظاعات تجري في كل مكان ولغة تتحدث عن هذه الفظاعات، وكانت هوة سحيقة تفصل بينهما. تلك هي لغة قاسية، لغة لا تتخذ نقطة انطلاق لها آلام الناس المرغمين على العيش داخل سور السجن. بل على العكس، تعتبر معاناتهم ثانوية بالنسبة إلى أهمية ترك أسوار ذلك السجن بلد الأساطير، مصانة وتحت الحراسة.

لكن أكثر ردات الفعل إلاماً في ما يتعلّق بأزمة الخليج صدرت عن أشخاص اتخذوا الدفاع عن حقوق الإنسان مهمة لهم. لقد شدد منصف مرزوقي رئيس رابطة حقوق الإنسان التونسية، وهي أهم منظمة من هذا النوع في العالم العربي، على أكاذيب وتحريفات «جنود الحرب النفسية» أي وسائل الإعلام الغربية «التي حسدناها وأعجبنا بها». وقال إن حديثها عن تدمير قوات التحالف لسلاح الجو العراقي «هو اليوم أضحوكة الجميع». ورأى أن الجيش العراقي خاض معركة شجاعة يمكن للعالم العربي استخدامها ليتبين بشكل أوضح حدود القوة الغربية، كما رأى أن «عزم (الجندي العراقي) وتحديه وعنفوانه» صورة كلاسيكية لـ «الكائن البشري في مواجهة الآلة».

«إن سحق العراق الوحشي... لن يبدّل شيئاً. يمكن للواحد أن يتجرأ ويتحدّى التكنولوجيا. وإن لم تعد هذه الأخيرة ذات تأثير في النفوس، ماذا يمكن القول إذاً عن القيم؟»

في حرب الخليج لم تخفق الاستخبارات والتكنولوجيا الغربية فحسب بل كذلك أخفقت مصداقية قيم الغرب الشهيرة. إن عقيدة [حقوق الإنسان]، لأنها بالتحديد عقيدة، تفرق على طول شواطئ جنوب المتوسط... ومن المفارقة أنه فقط بقدر ما نتمكن نحن العرب الديموقراطيين من الفصل بين المشروع الديموقراطي وقيم حقوق الإنسان وبين الحركة الوسطية الغربية يمكننا إنقاذ شيء ما من مدّ جميع الايديولوجيات»^(٣١).

كلام مرزوقي ينبع من قلبه. إنه يكتب وكأنه على وشك الإقلاع عن جميع نشاطاته

والتخلي عن مهنته. فبعد أن وضع نفسه وبالشكل التقليدي في موقع غير المؤيد لصدام حسين، عمد إلى كتابة الفقرة تلو الأخرى لشتم الكويتيين الذين كانت مدينتهم قد نهبت للتو وحقوقهم النفطية على وشك الاحتراق. كيفما نظرت إلى الأزمة، ومن أي الجهات، تظل مسألة «حقوق» الدول والشعوب مطروحة. هل يحرم الكويتيون الحقوق لمجرد أن مرزوقي يزدرهم؟ من الواضح أن أمراً ما معقداً للغاية يجري في ذهن هذا الرجل الذي كرس حياته للدفاع عن الحقوق المدنية، وهو رغم ذلك عاجز عن إبداء ردة فعل تتلاءم مع هذا التهميد. قال جعيط إنه «أحياناً تكون الشرعية أهم من القوانين». هذه الحساسية المخيفة ذاتها هي وراء مفهوم مرزوقي لـ «الديموقراطية العربية». وخلال تظاهرة تأييداً للطاغية الأكبر في السياسة العربية الحديثة ناشد العراق أن يستخدم سلاحه الكيميائي^(٣٢).

هشاشة الإنسان

يسود هذا الأسلوب في الكلام والتفكير وتحديد الأولويات السياسية الشرق الأوسط منذ وقت طويل. وقد بدأ يحتاج نطاق الإيديولوجيا بعد قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨. في المشرق انقرض الليبراليون العرب، والشيوعية وهنت، فانحنت ثم ما لبثت أن انكسرت أمام هجوم القومية قبل فترة طويلة من انهيار النظام السوفياتي. من جهة أخرى لم تجد النضالية الإسلامية أية مشكلة مع اللغة في المقام الأول، ففكرة غرب جشع ينقض على العالم الإسلامي تعود إلى الحروب الصليبية. والقومية العربية والحركة السياسية الإسلامية لم تؤسسا أي تصوّر، ولو بدائي، لـ «الحقوق» السياسية، التي من أبسط أسسها الفصل المطلق بين مسائل المعتقد والحقوق والواجبات في الحياة العامة. ويدو لنا أني نظرنا ان مبدأ «حقوق الإنسان» في السياسة يضمحل في العالم العربي/ الإسلامي. لذلك كان شعار «المخطط الأمريكي - الصليبي» في المنطقة منتشراً إلى هذا الحد في الخطاب الذي رافق الأزمة في الخليج^(٣٣).

أثارت القومية العربية في تجليها الأخير مع أزمة الخليج لغز هوية أشد خطورة من الماضي، يتعارض كلياً مع حالة العرب الحقيقية، وخصوصاً المثقفين منهم. هذه الحالة هي في الواقع حالة شرذمة وتشظ، بغض النظر عما إذا كان المرء يكافح للبقاء على قيد الحياة تحت الحصار في جامعة بيرزيت، أو يكتب لمجموعة الصحف العربية في لندن وباريس، أو يلقي عظات من منابر الجامعات الغربية، أو يعيش في المنفى هرباً من أحد الأنظمة الكثيرة التي قضت على كل حس مدني في العالم العربي.

كتب الشاعر العراقي فوزي كريم عام ١٩٧٩، سنة هربه من عراق صدام حسين:

كلُّ شارعٍ لم يمْدُ إِلَيْكَ يا مخافِرَ الحدودِ،

لا باحثاً، سدى، عن المعنى

ولكنَّ هرباً من المعاني السودِ،

فهو شراعي^(٣٤).

قصيدة كهذه تسقط هاجس العروبة لدى جميع وقلق أبو ديب البكائي حول هويته، لأنها تقوم على احتفال الشاعر باختلافه وتفردّه. كريم تقبّل حالته كحالة «تشرذم». وقد فعل ذلك برقة بالغة. قصيدته فعل متواضع، فعل إقرار وتجذّد في آن. وفي غياب هذا التقبّل لطبيعة الحالة الإنسانية المركبة، الهزيلة وغير الأيديولوجية، تبقى كراهية مرضية متواصلة ومتفاقمة للغرب وإسرائيل محوراً تُعلّق عليه مفاهيم «عروبة» و«هوية إسلامية» أكثر وأكثر انحطاطاً. هذا ما يخيف في الورطة الحالية التي يعانها العالم العربي. لا يهم في النهاية بأي طابع محلي تتسم الكراهية (مناهض للامبريالية، قومي عربي، قومي فلسطيني، أصولي ديني)، المهم أن كلّ هذه الأيديولوجيات قد انطبخت حتى التبخر بتلك الكراهية الصافية لا يخالطها شيء.

قبل نصف قرن التقط ميشيل عفلق، الزعيم المؤسس لحزب البعث، جوهر ما أراد كريم الهروب منه بقوله ان «القومية حب قبل كل شيء»^(٣٥). وقد تحققت بعدها «جمهورية الحب» التي تحدّث عنها عفلق في عراق صدام حسين. فكروا بكريم كواحد من العراقيين العديدين الذين باتوا يسعون بائسين للهروب من معانقة هذا المقدار الكبير من الحب الخائق، وستدركون كيف ولدت حساسية عربية جديدة، حساسية يقوم منطلقها على جحد النموذج القديم الذي ربط بين هويتي و«كيف أفكر» لا بينها وبين «من أريد أن أكون».

كان الشاعر السوري الأصل أدونيس، ذلك المجدّد في أشكال اللغة العربية، أول من بدأ بتشديد دعائم أشكال أدبية جديدة لتبنى عليها عروبة من نوعية أخرى. ويعتبر أدونيس أحد أكثر الكتاب باللغة العربية تميّزاً اليوم. فقد تقصّى بكتاباته خلال الستينات المجال المعقّد بين الثقافة والسياسة. نقّب في تاريخ الفكر، شرقاً وغرباً، وسبر أغواراً نفسية وعاطفية حرص العديد من المثقفين العرب على تجنبها. عام ١٩٨٦ غادر بيروت ليعيش في باريس، بعد أن خالجه شعور بأن «شيئاً ما في العالم العربي قد مات» على ما قال^(٣٦).

كان لصوته تأثير بالغ على شعراء أمثال كريم. هذا المقطع مثلاً هو من قصيدة كتبها عام ١٩٨٢ أثناء حصار بيروت:

... في زمانٍ

يُصارحني: لست مني

وأصارحه: لست منك، وأجهّد أن أفهمه

وأنا الآن طيفٌ

يتشرّد في غابةٍ

داخل الجفجفته^(٣٧).

أن يدرك المرء أنه تحوّل إلى «طيف» لم يعد متتمياً في عالم يسوده العنف، إنما هي بداية الحكمة. وأوّل فعل إصلاح يكون الانتقال من إدراك وجود خلل ما إلى نوع جديد من التواضع العربي، تواضع يقوم على تقبّل الضعف البشري وهشاشة الطبيعة الإنسانية.

لقد اختار أدونيس طوال أزمة الخليج أن يلزم الصمت، معبراً بذلك عن قلق أحسّ بوضوح أنه ينتاب الثقافة نفسها في ذلك الظرف العصيب. إنه بين قليلين من الذين شعروا أن أحداً لا يملك شيئاً جديداً يقوله، وهذا ما أثار فيه اضطراباً كبيراً.

إلا أنه نزولاً عند إصرار محرّر الصفحة الثقافية في صحيفة «القدس العربي» كسر صمته في ١١ آذار/ مارس ١٩٩١ في أعقاب حرب الخليج، فنشر مقالة بعنوان «الصلاة والسيف أو الديمقراطية المتوحشة».

يستهل أدونيس المقالة مؤكداً أن أزمة الخليج والحرب التي نجمت عنها ولدتا «خطاباً غريباً» جديداً حيال العالم العربي. ورأى أن هذا الخطاب «يستدعي إعادة التأمل» في طبيعة العلاقة بين العرب والغرب. ولتصوير وجهة نظره استشهد أدونيس بمقالة لهانس ماغنوس أنزنسبيرغر تنطوي على محاولة جريفة لإعادة إحياء المقارنة الشائعة بين صدام حسين وهتلر. كانت وجهة نظر أنزنسبيرغر أن القاسم المشترك بين الرجلين حاجتهما الجامعة للتدمير الذاتي وعجزهما التام عن التمييز بين قدرهما الفردي الخاص وقدر مجموع العراقيين أو الألمان^(٣٨).

خط التفكير هذا الذي عبر عنه أنزنسبيرغر، وهو كاتب ألماني من طليعة المثقفين الديمقراطيين اليساريين، لعب دوراً بارزاً في الحركة الطلابية الألمانية عام ١٩٦٨، رأى فيه أدونيس «درجة من المبالغة تصل إلى مستوى الخرافة». لا شك أن صدام حسين ديكتاتور

بغض وكره، لكن فكرة مقارنته بهتلر مبالغ فيها. والافتراض الضمني لحجة أدونيس أن هتلر «خاصتكم» كان بالتأكيد تجسيداً لكل الشر، لكن صدام حسين «خاصتنا» طاغية عادي. فضلاً عن ذلك، افترض أدونيس أن وحشية صدام حسين واقع معروف لكل العرب.

عندما تكون كل الأشياء بغیضة بشكل مماثل، عندها لا يعود أي شيء بغیضاً حقاً ويعجز المرء بكل بساطة عن التمييز. إلا أن التمييز هو جوهر الالتزام الإبداعي تجاه العالم.

أذكر أن شعوراً بالحزن اجتاحني لدى قراءة مقالة أدونيس، إذ كنت أنا أيضاً قد قرأت تحليل انزنسبيرغر. ومع أنه كان لدي بعض التحفظات (تصوره للعراق كان «ألمانياً» جداً)، إلا أن انطباعاتي كانت معاكسة تماماً لانطباعات أدونيس. النقطة الأساسية في مقال انزنسبيرغر، والتي أخفق أدونيس في فهمها يقضي بدمج ظاهرة صدام حسين في تجربة بلاده الخاصة (ألمانيا) في ما يتعلق بالشر السياسي. وهذا فعل تواضع. أن نقرأ انزنسبيرغر ونتقبل في صميم كياناتنا واقع تجربة العراق في عهد حزب البعث كانت يعني أن نفهم الطابع المشترك والعام للوضع البشري، ونرفض تقسيمه السطحي إلى شرق وغرب، أو شمال وجنوب، أو عرب ومناهضين للعرب. أدونيس أخفق في هذا الاختبار. وواضح أن هذا الإخفاق لا علاقة له إطلاقاً بالنزاهة الشخصية ومعرفة النصوص الكلاسيكية أو الفكر الحديث، وهما مجالان يحظى أدونيس فيهما بإلمام كبير. أخفق أدونيس في تبين ما كان انزنسبيرغر يعنيه حقاً لأنه لم تكن مشاعره على استعداد لفهمها. إن عقداً عاطفية كهذه هي التي تشكل العقبة الكبرى في وجه ظهور تفكير سليم عن الهوية، يعاني «الآخر» بشكل تام.

العديد من العرب يدرك أن خطأ ما فظيماً قد حصل في العالم العربي. يتحدث جعيط عن نظام عربي «فاتر، كئيب وفاسد عملياً»؛ أبو ديب يكتب عن السجون، أما أدونيس، الذي ينتمي إلى فئة مختلفة تماماً، فاختر الصمت. لا يكفي لسوء الحظ أن يدرك المرء أن ثمة خطأ ما، لأن هذا الإدراك يمكن أن يؤدي إلى استنتاجات مثل أن «ميزة الحرب إنها توضح الأمور». وكان عدد كبير من العرب ما زال يدافع عن تلك التفاهة الخفيفة حتى بعدما كان من المفترض أن حقائق مريعة كثيرة اتضحت كلياً ومنذ وقت طويل. إن سياسة اليأس التي يتبعها جعيط وأبو ديب مشبعة بالعنف والكراهية والمرارة، مما يثير استنتاجات بائسة كأن يقال مثلاً «ليس لدينا ما نخسره في هذه الحرب»، ويؤدي إلى رفض حتى القواعد الأخلاقية البديهية المشتركة مع الأكراد أو اليهود أو السنة أو الشيعة^(٣٩). والنتيجة هي دائماً المزيد من القتل العرب والمسلمين.

إن قومية الكثيرين من المثقفين العرب «المناهضين للامبريالية» والمنفتحين على الثقافات الأخرى، لا تحاكي اليوم سوى المشاعر الأساسية المرتبطة بتلك الكومة المتزايدة من الجثث. إنها عاجزة في الوضع التاريخي الحالي - وليس دائماً أو طوال الوقت - عن تخطيها، لأنها معادية في العمق لتقبل مفهوم للحقوق الإنسانية الفردية في السياسة لا يقوم على مقاييس مزدوجة. وهذا النوع من القومية لم يظهر فجأة، من لا مكان، بل هو مزيج متشكل عبر التاريخ من المشاعر والتقاليد التي تعود إلى دور العرب التاريخي في ظهور الإسلام وانتشاره. والقومية العربية، كالإسلام، لن تزول.. إنها جزء مكوّن من الثقافة، وليست إيديولوجية سياسية صريحة. إنها «لا تعكس إرادة جمعية توافقية بقدر ما تعكس «ثقافة إجماع» ذات دلالات لاهوتية تكيف اللاوعي العربي الجماعي»^(٤٠).

عندما وصف الشيخ أسعد التميمي زعيم حركة الجهاد الإسلامي في الأردن (ومناصر قوي لإيران إبان الحرب العراقية الإيرانية) «عودة» صدام حسين للإسلام بأنها «نقطة حاسمة في اليقظة الإسلامية» التي عرفتها الثمانينات، فإنه التقى مع أشخاص مثل جعيط وأبو ديب وكتاب وخوري على المستوى الثقافي - التاريخي ذاته^(٤١). أما أن يرتبك أشخاص منفتحون على الثقافات الأخرى ولا سيما الثقافات الغربية إزاء إعجاب الشيخ بالخميني ورغبته بإرجاع عهد الخلفاء وتنصيب صدام خليفة فذلك خارج عن الموضوع. فالثقافة هي الميدان الذي التقى على أرضه الشيخ أسعد والمثقفون القوميون خلال أزمة الخليج في سنتي ١٩٩٠ و١٩٩١، تماماً مثلما يلتقون مع نزار قباني في مجال الأفكار المقولة، رغم موقف قباني الشخصي المشرف إزاء المعاناة الكويتية أثناء الأزمة. ولطالما استمدت القومية قوة كبيرة من وجود ميادين مشتركة كهذه مع الإسلام أو مع تقليد عربي بدوي من عهد ما قبل الإسلام ألا وهو الهجاء. لذلك تمكنت من الاستمرار طيلة هذه الفترة ومن تجديد نفسها المرة تلو الأخرى.

كذلك فإن الثقافة هي الميدان الذي ينبغي فيه لهذه المشاعر والتقاليد إعادة التشكيل لتتسجم، مستقبلاً، مع صورة أقل قسوة للوضع العربي، صورة تقوم على فكرة حقوق سياسية فردية لا تتهلك.

يجب ألا نعتقد أبداً أن المشاعر التي تقوم عليها القومية الثقافية هي مشاعر العروبة وحدها (سواء الناصرية أو البعثية أو أي نوع آخر من القومية العربية). الأشكال السياسية التي تتخذها هذه المشاعر مطاطة جداً. في الأمس كانت تدور حول ساطع الحصري، أو ميشيل عفلق، أو عبد الناصر، والمثال الأعلى الرومانيقي الذي تلخص في شعار «أمة عربية واحدة». في أعقاب الثورة الإيرانية تحوّلت المشاعر والعواطف ذاتها التي ولدت

الحركة البعثية إلى الدعوة لإعادة إحياء الإسلام، وإذا بمثقفين علمانيين سابقين يكتشفون من جديد الواحد بعد الآخر الإسلام السياسي (أذكر على سبيل المثال الماركسيين السابقين المصريين محمّد عمارة وعادل حسين). وإبان أزمة الخليج تمحور الشعور القومي الثقافي حول الكراهية للغرب والاعتزاز بتجسيد صدام القوة العربية - الإسلامية. ومن المحتمل أن تتحوّل هذه المشاعر غداً إلى كراهية ضارية لـ «الصف السوء» العربي ذاته.

عالم المواقف وردّات الفعل العاطفية والصور الثقافية هذا ليس بحاجة إلى أيديولوجيا سياسية صلبة البنية ليظهر في الخطاب والحديث الفكري. كلّ ما يحتاجه الأمر هو «قضية» ما لينبجس هذا المزيج العاطفي العديم الشكل وينكشف علانية. في ١٢ آب/ أغسطس ١٩٩٠ كانت الكويت هذه القضية. وفي أقلّ من أسبوعين التهمت، بفضل عملية «الربط»، الكويت بالمسألة الفلسطينية. إن الجملة الأكثر شؤماً في مقابلة جعيط - «الشرعية أهم من القوانين» - كانت شعوراً يشاطره إياه كلّ عربي لم يكن في مقدوره أن يرى مبرراً لكلّ هذه الجلبة حول الكويت، لكنه كان يرى فقط ظهور مخطط غربي ضخم جديد ضدّ العالم العربي.

٨ - خرافات قومية جديدة

شكّلت أزمة الخليج على حد تعبير المفكر العقلاني المصري فؤاد زكريّا وأزمة فضح^(١). فهي كشفت الستار عن وهم الهوية القومية التشكل على مدى التاريخ. حتى إقدام صدام حسين على اجتياح الكويت في آب/ أغسطس، كان الجزء الأكبر من قوة هذا المزيج من التقاليد والتاريخ والدين يبدو وكأنه تبدد في الاستياء المريض الذي عبرت عنه المجموعات المتطرفة المناهضة للغرب بسياساتها المفعمة بالتفتيت. كانت المظاهر خادعة لأن عناصر متقلّبة مختلفة لم تكن قد تماسكت بعد. في شكل متجانس. إلا أن تحرك الزعيم العراقي وردّ الرئيس جورج بوش أدّى إلى بلورة هذه التيارات الخفية في انفجار عاطفي استثنائي. تلاشت الخلافات بين القوميين والإسلاميين والماركسيين والديموقراطيين أمام تهديد الغرب الذي شعر به الجميع. وبغض النظر عما كان يمكن أن يكونه رأي جميع هؤلاء المثقفين في اجتياح صدام حسين للكويت لو لم يتدخل الغرب، فإن النقطة الأهم هي أن أحداً ما كان ليثور ويفضّب بشأن الكويت مثلما فعل إثر تدخل الولايات المتحدة وأوروبا الغربية.

صدام كشف عن خطاب ينبغي التشديد على أنه ليس من ابتكار الفلسطيني العادي في الأراضي المحتلة المعاني من إذلال يومي على يد الجيش الإسرائيلي. وليس من ابتكار المواطن العراقي المتوسط الذي شوّهت نفسيته بكاملها عبر الخوف، ولا من الكويتيين الذين عاشوا سبعة أشهر من الاحتلال المريع. هذا الخطاب - سواء كان مبتكروه يعون مفعوله أو لا - لا يكتثر للمشكلات الحقيقية التي يواجهها الفلسطينيون تحت الاحتلال وهو غير مسؤول تجاهها، تماماً كما كان غير مبالي بأشخاص مثل خليل وأبي حيدر وعمر ومصطفى وتيمور الذين أبدى قسوة صريحة تجاههم.

هذا الخطاب ابتكره وأعاد ابتكاره أناس من أمثال كمال أبو ديب ومحمود درويش

وهشام جعيط وإدوارد سعيد ورامي خوري ومحمد عابد الجابري وجورج طرايشي وعبد الرحمن منيف وعدد كبير من أشهر كتاب وفناني العالم العربي وأكثرهم موهبة^(٢). ابتكره أشخاص ملتحقون بجماعات في داخل العالم العربي وخارجه، وآخرون هم صحفيون أو يكتبون لصحف تصدر في لندن وتظهر في اليوم التالي في شوارع الرياض وبيروت والجزائر وباريس وواشنطن. صدام حسين كشفنا جميعاً. وقد فعل ذلك بإرغام كل منا على تبني موقف سياسي حيال ما فعل. هذا ما فضح كل جهاز التهريب والتخفي خلف القشور المعقدة والذي نستخدمه كلنا للاستمرار في الحياة اليومية. كشف المواطن العربي أمام أخيه في العروبة وهو في عريه التام، وذلك في ثقافة تشدد على العار وتشمت بالعري.

إزاء ما تحول إلى طوفان قومي، وعلى ضوء ما نعرفه عن النظام في العراق، لا يسعني سوى أن أصف هذا الثوران بأنه انفجار هستيري جماعي يمثل أعظم المشاعر التي تساور معظم المثقفين العرب المكرسين. وذلك ينطبق بصورة خاصة على أولئك الذين تشكلت آراؤهم السياسية إثر هزيمة الجيوش العربية المنكرة في حرب ١٩٦٧.

ومن ضروب السخرية أن العديد من هؤلاء الكتاب وواضعي الآراء بلغوا النضج الفكري عبر مهاجمة خطاب سابق في السياسة والثقافة أثبتت هزيمة ١٩٦٧ بطلانه وكان مرتبطاً بزعماء أمثال جمال عبد الناصر وأحمد الشقيري وميشيل عفلق. ورغم ذلك، فإن أساليبهم في وصف العالم سقطت في النموذج ذاته الذي كانوا يظنون أنهم تخطوه. وذلك ينطبق بصورة خاصة على المثقفين الفلسطينيين، وخصوصاً من كان مقيماً منهم خارج الأراضي المحتلة (لأنها الأكثر حرماناً من جهة، ومن جهة أخرى بسبب انهيار بيروت، قلب الحداثة الثقافية في المشرق).

لقد رأى رشيد الخالدي من جامعة شيكاغو أن «الدعم الفلسطيني لاجتياح الرئيس العراقي صدام حسين للكويت في آب/ أغسطس ١٩٩٠... أكثر تدقيقاً والتباساً وغموضاً مما وُصف»^(٣). إلا أن مشهد ما كان يسمى بـ «طليعة» الثورة العربية وهو ينضم بحماسة إلى صفوف أكثر دكتاتور في العالم العربي الحديث بربرية، مسألة ينبغي مواجهتها بشكل قاطع ولا يمكن محوها بمبول اعتذارية صادرة عن قلوب واهنة.

لقد تشكلت في الخطاب المناهض للامبريالية خلال أزمة الخليج مجموعة من التأكيدات والافتراضات المنفصلة والمتشابهة. ولم يقدّر اثنان من مستخدمي هذا الخطاب يوماً بالتشاور أو الاتفاق في ما بينهما على الوزن النسبي الواجب تحميله لكل من هذه التأكيدات والافتراضات. إلا أن مجموع هذه المواقف يشكل نظرة متماثلة للعالم،

والأهم من ذلك، طرّقاً متشابهة لترتيب الأولويات السياسية. هذه اللغة لا تعتبر في أي من الأحوال مجرد نظرة عروية للعالم، بل هي خطاب قومي حديث، يقوم على أسس عربية إسلامية على الصعيد الثقافي، لكن يمكن كذلك للمسيحيين العرب اعتناقه، كما قد يستخدمه الشيعة والسنة من العرب على حد سواء. ويشارك في هذا الخطاب جميع العرب من مختلف الفئات، بغض النظر عن طول الفترة التي أمضوها في الغرب، وسواء كانوا من المتكلمين بالعربية أم لا، بمن فيهم حتى أولئك الذين يشددون على طموحات سياسية مختلفة تماماً (دولة فلسطينية، سوريا الكبرى، لبنان محرّر من الهيمنة السورية، أو امبراطورية إسلامية عربية جديدة).

هذا الخطاب أضاف مجموعة من الخرافات الجديدة إلى المعجم القومي العربي الذي تشكل وتطوّر منذ ١٩٦٧:

١ - الأزمة كابتكار أميركي

يعتقد سمير أمين الاقتصادي المصري اليساري أن قرار تدمير القدرات العسكرية العراقية «اتخذته واشنطن وتل أبيب حوالى شهر أيار/ مايو ١٩٩٠»، ونحن «نعلم على نحو شبه أكيد الآن أنّ (اجتياح الكويت) كان فخاً نصبتة واشنطن»^(٤). ومن جهته اعتبر محمد حلاج، وهو نائب رئيس سابق للجامعة ببرزيت التي تتخذ من العاصمة الأميركية مقراً حالياً لها، أن «هناك دلائل توحى بأنّ الحملة لضبط العراق بدأت يوم انتهاء حربه مع إيران في ٨ آب/ أغسطس ١٩٨٨»^(٥). ولم يكشف أي من أمين أو حلاج مصادره. والمطلوب منا تصديق ادعاءاتهما بمجرد الوثوق بهما. أما إدوارد سعيد، الأستاذ الجامعي في جامعة كولومبيا، فلم يقع في فخ اختيار التواريخ، وكتب أن صدام حسين «تلقى شبه دعوة لدخول الكويت»^(٦).

في غياب أية دلائل داعمة، فإن الكلمات مثل «شبه» وجمل مثل «هناك دلائل توحى بأن» تبعث رائحة مؤامرات كبرى، في حين تدعي البراءة بصورة مخادعة. لكنّ برهه تفكير ينبغي أن تكون كافية لإقناعنا بأن صدام حسين لم يطلب إذناً من أحد عندما اجتاحت الكويت في ٢ آب/ أغسطس. فهو قبل أي شيء مصاب بجنون العظمة مما لا يسمح له بالاستئذان. إلّا أن قلوب هؤلاء السادة لا تدعهم يجهرن بما تنبئهم به عقولهم المتسرعة. من هنا تتبع التوضيحات والاستطرادات التي تكون أحياناً كافية، بحد ذاتها، ليتسم مطلقوها بانعدام المسؤولية.

ذهب مصطفى الفيلالي، وهو أحد كبار موظفي الدولة التونسيين، إلى أبعد من ذلك

بدرجة، إذ أكد تأكيداً جازماً جاء فيه «لعله سيتضح بالقرائن الثابتة [التي يقرّ بأنها غير موجودة بعد] ان جذور [حرب الخليج] راجعة إلى بداية الثمانينات وان التخطيط لتفجيرها نشأ غداة اتفاقية مخيم داوود... ولا نغالي إذا اعتبرنا أن العراق كان مستهدفاً بالذات»^(٧). يطلب منا الفيلاي هنا تقبل فكرة أن الولايات المتحدة منحت العراق مساعدة عسكرية خلال الحرب العراقية - الإيرانية (بهدف مساعدته على الانتصار في هذا النزاع) وهي خططت في الوقت ذاته لتدمير الوحش الذي ولّده^(٨).

تلك ليست حججاً، بل هي مزاعم غير مدعّمة بالوثائق، تنبع من مفهوم تأمري للسياسة وتحركها كراهية عاطفية للغرب، مستمرة برغم الانتقاد الذي يوجهه الواقعون في أسرها للنظام العراقي. ولسوء الحظ، فإن إعطاء تواريخ وذكر تلميحات إلى أن زعماء «تلقوا دعوات» لاجتياح دول يستلزمان ممثلين فعليين وإرادة واعية. وقدرة الحجج على الإقناع هو في قيامها على وقائع، لا على نظريات حول مؤامرات كبرى أو مخططات معقدة لكيفية عمل الامبريالية في العالم. كذلك فهذه الحجج تقوم على الافتراض أن الزعيم العراقي إما هو دمية أو أحق، أو أن الولايات المتحدة تتمتع بسلطة مطلقة تفوق قوتها حماقة. وكلّ ذلك ينطوي على إنكار ضمني، إنما ثابت، لدى القدرة على المبادرة التي يتمتع بها زعماء كصدام. وأي عراقي ناشط على الصعيد السياسي ويعيش في ظلّ النظام البعثي، سينتهي ميّاً إن قلل من شأن النظام على ذلك النحو.

إن المعنى الخلفي لمعارضة للسياسة الأميركية خلال أزمة الخليج على نحو هذه المعارضة، يتعارض تعارضاً مذهباً مع مقالات كمقالة كريستوفر هيتشنز «لماذا نحن عالقون في الرمال». فالمقالة ترى إلى ما صرّحت به السفارة الأميركية إبريل غلاسبي «إحياء» لصدام حسين، خلال لقائهما الشهر المنعقد في ٢٥ تموز/ يوليو ١٩٩٠، بأن الولايات المتحدة لا تعارض إعادة رسم العراق حدود الخليج.

تقوم بنية هذه المناظرة عضوياً على انعدام مطلق وأوهام لدى هيتشنز تجاه النظام البعثي، وذلك يتعارض تماماً مع الأمثلة التي أوردتها سابقاً. (في حين يرسم هيتشنز تاريخ الاضطهاد العراقي للأكراد والخيانة الأميركية لهم، يشكك إدوارد سعيد مثلاً في كون النظام العراقي قصف المواطنين الأكراد بالقنابل الكيميائية. إضافة إلى ذلك، اختار سعيد التشكيك في هذه المسألة في وقت كان العراقيون يثرون على نظامهم ويواجهون خطر القنابل الكيميائية من جديد)^(٩). وبالتالي، فإن تحديد بداية قضية الخليج برمتها، بحسب هيتشنز، مرتبط بسؤال واقعي: ماذا حصل بالضبط خلال اللقاء بين غلاسبي وصدام؟

مع ذلك، أعتقد ان هيتشنز أخطأ بتحميل كلمات غلاسبي وصدام وزناً أكبر مما

تحتمل. ففي هذه الظروف الدبلوماسية، يقضي جزء من لعبة الإيماءات والتلميحات التي يحلّ هيتشنز خيوطها بأن يقول السفراء ما يريد الطرف الآخر سماعه، وأن «يسمع» رؤساء من نوع صدام ما يريدون سماعه.

تستند مناظرة هيتشنز على افتراض أن «غلاسي» كانت تتكلم بموجب تعليمات، مما يعني أن وزارة الخارجية الأميركية كانت على علم بنوايا صدام قبل الاجتماع. وإن كان ذلك صحيحاً، فإن قوانين اللعبة نفسها تقترح بالتأكيد طرماً أقل تورطاً في إعطاء صدام «إذنًا بالإيماءات والإشارات» من أن تقول له غلاسي «أعتقد أنك تعلم جيداً أننا نحن كشعب لدينا تجربتنا الخاصة مع الاستعماريين»^(١٠).

إن معارضة مبدئية لحرب الخليج لا تستلزم: (أ) نفي توجيه النظام العراقي أسلحته الكيميائية ضدّ مواطنيه، (ب) اختراع تواريخ لإثبات أن الولايات المتحدة لم تبدأ القتال على الأرض فحسب (وقد فعلت) بل كذلك أرسلت العراق إلى الكويت (وهذا ما لم تفعله)، (ج) إضفاء منطلق على ما حصل في الكويت في حين كان خطوة مجردة من أي منطلق^(١١).

لماذا أدلى هذا العدد الكبير من العرب بتصريحات وتوكيدات لا تثبتها أية دلائل؟ في الأمر شيء يتعلّق بتقدير الزعماء أو الاستخفاف بهم، شيء يدعى تحويل المسؤولية. يقوم المثقفون العرب بإزاحة المسؤولية بعيداً عن الطرف الذي يتحمّلها بشكل واضح، أي دولة العراق البعثية، إلى الولايات المتحدة. وبذلك يكون أولئك الناشطون المناهضون للحرب الذين تحرّكوا بدافع المعارضة لكلّ ما قررت الدولة الأميركية القيام به، وهي معارضة يمكن فهمها على الصعيد العاطفي لكنها كانت رغم ذلك ردة فعل لإرادية، قد خدموا بغير علمهم أسوأ أنواع الاستبداد^(١٢). هل كانت أهداف الذين قاموا بإزاحة المسؤولية «موضوعية»، أم أنهم أرادوا تبرئة المذنب؟ و«مصلح» أي طرف خدمها هذا التحويل؟ يظهر جلياً أن مصالح المعتدي هي التي خدمها هؤلاء المثقفون سواء بقصد أو بغير قصد.

٢ - صدام كضحية

يتسع نطاق الرهان عندما يطرح شخص مثل فواز طرابلسي فكرة أن صدام «حتى كضحية، وافق على لعب دور المجرم». ماذا يعني طرابلسي بذلك؟ لقد قال في مقالة نشرت له عام ١٩٩١ ان «العراق كان خارجاً للتو من حربه مع إيران بطاقة عسكرية من النوع الذي يمكن أن يبدّل ميزان القوى الإقليمي في ما يتعلق بالدعامتين المحليتين للهيمنة الامبريالية: إسرائيل وأنظمة الخليج النفطية. بات من الضروري... تدمير قدراته العسكرية

والاقتصادية. ردّ الزعيم العراقي باجتياح الكويت^(١٣). أي بكلام آخر، اختار صدام الانتحار السياسي، مليئاً بذلك إحدى أعماق رغبات الامبريالية الأميركية. هنا يصل إنكار أي قدرة عرية على المبادرة السياسية المستقلة إلى مستوى عبثي.

كلّ الدلائل، حتى أصغرها، يشير إلى العكس، إلى أن الولايات المتحدة بنت صدام حسين حتى اللحظة الأخيرة ليكون حليفاً استراتيجياً لها في المنطقة في وجه إيران. لم تكن هناك نية أميركية في تحجيم الدكتاتور العراقي، حتى مفاجأته الجميع بدخول الكويت. إلا أن طرابلسي يبقى رغم ذلك أعدل من بعض الكتاب والمثقفين الآخرين. فهو منح صدام على الأقل لحظة من القدرة على الخيار الحقيقي والمبادرة المستقلة، مهما اكتسبت حركته طابع ردة الفعل، واعتبر ان اجتياح الكويت كان خطأ. لا نجد أيّاً من ذلك لدى هشام أحمد، وهو أستاذ مساعد في العلوم السياسية بجامعة نورث داكوتا. فهشام أحمد اعتبر أن الولايات المتحدة كانت مصممة قبل ٢ آب/ أغسطس على حرمان العراق من «حس الكرامة وإحباط قوميته المزدهرة»، وهو يرى أن العراق كان سيستهدف سواء نشب خلاف مع الكويت أم لا^(١٤).

لقد طرحت فكرة أن الغرب كان سيحطّم العراق في مطلق الأحوال لأنه بات قوياً جداً في سنياريوهات عدة، أكثرها شيوعاً أن الولايات المتحدة صنعت مغفلاً عربياً يدعى صدام حسين وأقامته حصناً في وجه إيران (أو لأهداف امبريالية استراتيجية أخرى). ثم بعد أن قرّرت وجوب رحيل الدكتاتور المحلي - والمنطق خلف ذلك يبقى ضبابياً مبهماً في أذهان مؤيدي الأسطورة - حولت مخلوقها إلى شيطان واعتبرته «تهديداً خارقاً عن الطبيعة يشكل خطراً على العالم بأسره»^(١٥). لا شك أن المبالغة إلى حد لا يصدّق في حجم القدرات العسكرية للنظام العراقي خدعت مصلحة الولايات المتحدة والدول المتحالفة. لكن في غياب أي نقاش حول التهديد العظيم الذي شكّله صدام حسين للمنطقة - خصوصاً للعرب الآخرين - فإن هذه النقطة تنقلب إلى نقيضها ويصبح الكلّ ضحية بمجرد أن أي طرف على علاقة بالولايات المتحدة.

في مجال الشعر، كتب الشاعر اللبناني أنسي الحاج «طبعاً غزو الكويت خطأ. والحكم العراقي ليس حبيباً على قلب الأحرار والديمقراطيين.... طبعاً طبعاً». ثم يلوم نفسه على طرح أسئلة غبية كهذه حول العدالة. ويقول «ما تساؤلانا هنا في الواقع غير برهان على سذاجتنا. على سخافة براءتنا في العصر الأميركي الذي يحتقر الحقيقة ويحتقر الضعفاء ويكره الأكثر منه عراقاً والأعمق جذوراً في التاريخ. وما أغبانا نتساءل وتألّم عوض أن نقتل». واعتبر أن الأميركيين يقتلون بواسطة «القوة الغاشمة لا أية قوة

كانت. ولكننا نحن (العرب) نكتفي بالقتل في خيالتنا. نكتفي بأن نلعن ونغوت»^(١٦). شعور المرء بأنه ضحية هو كالبلمس المسكن.

لقد عمل أنسي الحاج رئيس تحرير للصفحة الثقافية في صحيفة «النهار» اللبنانية. وهو فرنسي الثقافة، من فئة المسيحيين اللبنانيين الذين كانت مساهمتهم كبيرة في تحديث الفكر العربي في أواخر القرن التاسع عشر، لكنهم تحولوا عن خطاب القومية العربية بعد الحرب العالمية الثانية. وبحسب ما يعترف به، فهو يحسّ يالفة مع بودلير، إدغار آلان بو، الحركة السورية، بروتون، نوفاليس، إيلوار، والت وتمان، تشارلي تشابلن، وهنري ميلر. لكن في المقالة ذاتها حيث يعدّد كل «العظماء» الغربيين الذين تأثّر بهم، يلقي الحاج تبعة الحرب الأهلية اللبنانية على السياسة الأميركية الماكيفيلية «التي تبعنا في أسواق المقايضات والصنقات»، والتي «سجلت نجاحاً باهراً في إلحاق لبنان بركب البلدان المفلسة والجامئة والمدمّرة بعدما كان رغم مشكلاته الكثيرة زينة العرب والشرق»^(١٧). يبدو وكأن اللبنانيين لم يكن لهم أية علاقة بما حصل لبلدهم.

كلام كهذا يطلّعنا على أمراض ثقافة أكثر مما يطلّعنا على الحدث الخطير الذي أوحى به. والأعراض المرضية ذاتها تقيم في قصة مروان أرندس، وهو طالب جدي في جامعة الأردن، لم يكن ينتمي إلى أي تنظيم فلسطيني. لكن بعد التخطيط الدقيق، وفي حين كانت حرب الخليج جارية على أشدها، قام مروان بعملية انتحارية عبر نهر الأردن، كان هدفها قتل أكبر عدد ممكن من الإسرائيليين. ونجح هو واثان من رفاهه بعدم قتل أحد، لكنهم قتلوا هم. فقال طالب آخر في حفل أقيم لإحياء ذكره في قاعة غاصة بالحاضرين في عمان «على الأقل، لقد فعل شيئاً»^(١٨).

لسوء الحظ، فإن اللغة التي ارتد إليها الحاج وجدت في الثقافة موطئ قدم راسخاً لها. فقد تحول الشعور بأن المرء ضحية إلى ما يشبه شكلاً فنياً عربياً جديداً، من غير أن يدرك أحد على ما يظهر أن هذا أخطر ما يمكن ابتكاره للقضاء على التضامن مع الآخرين (وإن تم تطويره إلى حدود أبعد، فهو يدمّر حتى احتمال قيام حكومة شرعية، ويحلّ التشكيك محل الثقة في كلّ أمر سياسي).

على أن ما حصل عام ١٩٤٨ من انتزاع للحقوق الفلسطينية يعتبر عاملاً أساسياً في تعميق هذه اللغة على الثقافة. فقد بات هذا الانتزاع بالنسبة إلى السياسة العربية كالحرق اليهودية بالنسبة للسياسة الإسرائيلية: صورتان معكوستان لبعضهما البعض وأيضاً لأعراض يتبارى بموجبها الظالم والمظلوم في دوامة من الارتباب المتصاعد لا يمكن الفرار منها على ما يظهر.

تحولت المأساة التاريخية لكل من اليهود الإسرائيليين والفلسطينيين العرب إلى إعلان وفاء لا نقاش فيه، يشكل عنصراً أساسياً من جوهر الهوية. والقوى ذاتها التي كانت تحرك جميع الطوائف اللبنانية خلال الحرب الأهلية تنشط اليوم بين الأكراد والشيعه العراقيين. إلا أن الهوية يجب أن تتخطى الذاكرة حتى لا تغوص في مستنقع الماضي، فتتحول إلى نظرة مريضة للعالم لا تتسع لآلام الآخرين. فإن انحلال العراق ككيان سياسي موحد بعد رحيل صدام حسين، فذلك إنما ينجم عن أن القيمة السياسية العربية الجديدة، أضحت تتجسد في انعدام التعاطف مع الآخرين.

٣ - صدام كبسمارك

خلال الأزمة اعتبر الرأي العام في الأردن والأراضي المحتلة والمغرب صدام حسين مخلصاً مثل صلاح الدين^(١٩). «علم الآثار يسارع لمساندة التحزّز»، كما قال جاك بيرك عندما كان جمال عبد الناصر يجتد بدوره الخلاص^(٢٠). إلا أن جورج طرايشي، مترجم أعمال فرويد وتروتسكي إلى العربية ومؤلف حوالي عشرين كتاباً هاماً، هو من اضطلع ببيان كيف أن الطاغية العراقي هو بسمارك عربي. فجانوس^(٢١) له وجهان: أحدهما ينظر إلى العالم بصفته «ضحية»، وفي الوجه الآخر هو رجله القوي «الحديدي القبضة».

بعد أن ذكر قراءه بتاريخ توحيد ألمانيا «تحت القبضة البسماركية»، تابع طرايشي أن «ما حدث في الخليج (في ٢ آب/ أغسطس) لم يكن خياراً بين وحدة أوتوقراطية وتجزئة ديموقراطية، بل كان خياراً بالأحرى بين وحدة وتجزئة تحملان كلتاهما وصمة الأوتوقراطية. وليس لأحد أن يماري في أن وحدة ديموقراطية خير بألف مرة من وحدة أوتوقراطية. ولكن أليست وحدة أوتوقراطية خيراً بمرة واحدة على الأقل من تجزئة أوتوقراطية؟... ما حدث في الخليج إذن، أيّ ما تكن البواعث الذاتية لفاعله القطري (العراق)، هو فعل قومي»^(٢٢).

إن مفهوم العروبة المعني هنا مرتبط بالرغبة في أن يكون المرء «متفوقاً على» أو «أعلى من» أو «أكبر من» امرئ آخر. أما في حال الفيلسوف المغربي محمد عابد الجابري أو المؤرخ التونسي هشام جعيط، وكلاهما يرفض أي نقد للبعثية، فتبدو العروبة لا أخلاقية بشكل كلي وصريح^(٢٣). والأمر نفسه ينطبق على تفكير الياس خوري الروائي اللبناني

(٥) ملاحظة المترجم: جانوس إله روماني، ولأن معبد جانوس كانت له بوابتان، أصبحت هاتان البوابتان داليتين رمزيّتين على أي شيئين متناقضين معاً، وغالباً: الحرب والسلام.

المعروف بكتابه «الجليل الصغير». فهو برز عمل صدام حسين مستخدماً فكرة لافتة هي أن الكويت قبل اجتياح صدام حسين لها كانت «محتلة» تماماً مثل فلسطين، لأن حكامها وظفوا ثرواتهم خارج العالم العربي و«تنفذ» سياسات القوى العظمى^(٢٣). ورأى خوري أن «القوة العربية» تكمن في إعادة الكويت، التي «احتلها» آل الصباح حسبما يفترض، إلى الحظيرة العربية.

خلال حرب الخليج، أعطيت اعتبارات القوة الخام كهذه الأولوية في أذهان العديد من المثقفين العرب، وحكموا على كل شيء حولهم بموجبها. ذلك هو مغزى الرمزية الكامنة في تشبيه صدام بصلاح الدين أو بسمارك. والمبدأ خلف ذلك أن سيادة الجزء (سواء كان هذا الجزء دولة كالكويت، أو تجمعاً قومياً كالأكراد، أو مواطناً عراقياً منفرداً) خاضعة لسيادة الكلّ (سواء كان هذا الكلّ عراق صدام حسين أو وحدة عربية وهمية ستقوم في المستقبل). وتُرفض للجزء (لنقل إنه كامل الكويت أو فرداً عراقياً) مطالبته بالحق في أن يترك وشأنه (ألا يضمّ، أو أن يسمح له بأن يفكر أفكاره الخاصة). هكذا تنقلّص السياسة إلى الإمتداد خارج الحدود العراقية «المصطنعة» إلى العالم العربي برمته (ابتداء بالكويت)، وهذه إنما هي القاعدة السائدة في داخل العراق. ومع هذا التعميم لما هو في داخل العراق فقد هؤلاء المثقفون كل معيار يتيح لهم إقامة مسافة عن أعمال قتل العراقيين الذين كان صدام حسين يقتلهم على أثر انتفاضتهم الفاشلة.

قال الكاتب المصري فؤاد زكريا في مقابلة حول دروس حرب الخليج انه لم يلتق مثقفاً عربياً واحداً مقيماً في الغرب إلا كان «متعاطفاً مع صدام حسين». ونقل حديثاً جرى بينه وبين أحد هؤلاء المثقفين الذي «ظل يمتدح صدام وما فعله بالغرب. كان ذلك قبل الحرب. وبعد أكثر من نصف ساعة سألته، قلت له: أنت تقول إن صدام صامد امام الغرب، ويلقنه دروساً وأنه نموذج لدولة من العالم الثالث... لكن ما هي القضية التي يدافع عنها صدام؟ لم يستطع الإجابة. المشكلة ليست فقط انه لم يستطع أن يجيب، المشكلة انه اتضح لي أنه لم يفكر في هذا السؤال من قبل. هذه هي الكارثة الكبرى. إن الإعجاب راجع إلى أن [صدام حسين] يحارب، وهو نفس نوع الإعجاب الذي تجده مثلاً عند المراهقين عندما يسمعون ان اللص الكبير استطاع بمفرده أن يصمد بمدفعه الرشاش أمام ٢٠٠ من قوات الشرطة. نفس نوع الإعجاب من دون أن يتوقف المرء عند حقيقة أن هذا الذي صمد هو في نهاية الأمر لص»^(٢٤).

إن طرايشي والجابري وجميعهم ليسوا كالمثقفين الذين يتحدث عنهم زكريا لأن الكراهية للغرب لا تشكل القوة الدافعة لاهتماماتهم وقلقهم. فلو وافق الغرب على ضم

صدام حسين للكويت، لكان من المحتمل أن يناصروا الغرب تماماً مثلما ناهضوه. وبخلاف العرب الذين كانت تساورهم شكوك جدية حول ما فعله صدام حسين لكنهم كانوا عاجزين عن تمييز الغابة من الأشجار لأن الولايات المتحدة كانت معنية، فإن دعمهم لما فعله صدام حسين في ٢ آب/ أغسطس يقوم على قلة الإكتراث بحقوق الإنسان كمقياس سياسي في الشؤون العربية. إن مثقفين كهؤلاء (لا ينتمي أي منهم إلى حزب البعث) أيديولوجيون، بحيث انهم يدعمون أي شيء شرط أن يعزز مشروع الوحدة العربية. وهم مستعدون حتى لمساندة نسختهم الخاصة لبسمارك التي من «دم وحديد» وحيازته أسلحة كيميائية ونووية، رغم ان حديده يستخدم لهدر دماء عربية.

٤ - القوة «العربية» وجيش صدام

يقوم تشبيه صدام ببسمارك - النسخة «الثقفة» لصورة صلاح الدين العزيزة على قلب صدام - على أسس أخطر بكثير من مجرد رفض مبدأ حقوق الإنسان في السياسة. أعني هنا اعتبار أن قوة صدام حسين العسكرية هي بطريقة ما مصدر قوة لكل العرب، وهي وجهة نظر الغالبية الساحقة من المثقفين العرب قبل حرب الخليج وخلالها وبعدها، سواء داخل العالم العربي أو خارجه.

من الأمثال العديدة التي يمكن ذكرها لتوضيح هذه النقطة، سأختار المثل الذي اعتبره فاضحاً أكثر من غيره بسبب المستوى الرفيع لبعض الأشخاص المرتبطين به. خلال المؤتمر القومي العربي الثاني المنعقد بين ٢٧ و٢٩ أيار/ مايو ١٩٩١ في عمان تم إصدار «بيان إلى الأمة» مؤلف من سبعة آلاف كلمة وتتخلله التنويهات المبتذلة الاعتيادية للسياسة العربية بالمؤامرات الصهيونية العالمية وبأن «العرب هم حملة رسالة الإسلام إلى العالم قاطبة»، إضافة إلى تأكيدات وإعلانات جديدة، منها أن هذا المؤتمر «لا يستطيع إلا أن يكون متفائلاً بل واثقاً وهو يستحضر تاريخنا الطويل الحافل»... وفي ظل كل هؤلاء القتلى العراقيين وكل آبار النفط الكويتية المشتعلة بدا إعلان النصر هذا مثيراً للسخرية^(٢٥).

لكن دعونا لا نتوقف عند هذه النقطة وننظر في التركيز على «تدمير القوة العسكرية العراقية وفرض قيود غير متوازنة على نمو القوى العسكرية العربية» من قبل الغرب (لنهمل كذلك كل الإشارات إلى «التخطيط المسبق» الأميركي)^(٢٦). فقد لاحظ الإعلان ما وصفه بأنه «خلل في الميزان العسكري في المنطقة العربية» من شأنه أن «يحقق ويضمن التفوق العسكري الإسرائيلي على القوى العسكرية العربية». ألم يظهر انعدام فاعلية الجيش العراقي خلال حرب الخليج رغم ضخامة حجمه (سبعة إلى عشرة في المئة من

إجمالي السكان) أن ثمة «خللاً» كذلك داخل العراق بسبب هذا الجيش بالذات، خللاً أكبر من ذلك الذي يمكن أن ينجم عن تدميره؟ يشير البيان في فقرته الأكثر شؤماً إلى أن التقدم الصناعي «ضرورة لمواجهة المخاطر المقبلة، وهنا يذكر بصفة خاصة ضرورة الاستفادة وبسرعة من الأسلحة العراقية غير التقليدية، المفروض على العراق تدميرها (بموجب قرارات الأمم المتحدة)، بنقلها إلى بلدان عربية أخرى، وكذلك الاستفادة مما حققته الصناعة العسكرية العراقية قبل حرب الخليج والعمل على الاستفادة منها في تحديث القوات العربية الأخرى»^(٢٧).

يبدو أن هؤلاء السادة يريدون التعاطي بالقنابل النووية والأبحاث المتعلقة بالحرب البيولوجية والأسلحة الكيميائية^(٢٨). والفكرة الكامنة خلف تصريحات كهذه هي أن جيش صدام حسين المؤلف من مليون جندي - إضافة إلى صواريخه السكود وقدرته على إنتاج قنابل نووية، وأسلحة التدمير الشامل الأخرى خاصته - كل ذلك يمثل بطريقة ما قوة حقيقية هي ملك لكل العرب في نضالهم ضد «العدو الصهيوني». ويتنظر من مجموع كل العرب المسلح بهذه القوة أن ينتزع تنازلات من إسرائيل حول المسألة الفلسطينية.

يتم تجاهل مسؤولية هذا الجيش في القضاء على الحياة السياسية النيابية داخل العراق عام ١٩٥٨، كما يتم التغاضي عن كون جيش صدام حسين دفع جيلاً بكامله من العراقيين خلال السنوات العشر المنصرمة إلى حتفه في حروب هدامة. كذلك يتم التغاضي عن أن هذا الجيش لم يكن في أي وقت فاعلاً سوى ضد عراقيين آخرين، خصوصاً منهم الأكراد.

وهذه الفكرة الزائفة عن القوة، الفكرة القائلة ان بوسعكم، في صورة أو أخرى، بناء قوة على شكل أسلحة مع التخلي عن المهمة الصعبة القاضية بإيجاد هذه القوة في الطاقات الإنتاجية الخلاقة من مجتمعكم بالذات، تحتل محور السياسة العربية منذ وقت طويل، منذ ١٩٦٧ على أقل تقدير، حيث تم اختبارها وظهرت نقاط ضعفها. وعام ١٩٩٠ وجدت هذه الفكرة التجسيد المثالي لها في آلة صدام حسين العسكرية. غير أن صدام حسين ليس جمال عبد الناصر الذي كان على الأقل يتمتع بشعبية حقيقية. ورفضه التخلي عن الفكرة القبلية - القومية هذه للقوة لم يجلب على الشرق الأوسط سوى البؤس والعنف.

لقد كان المنظم الرئيسي لمؤتمر أيار/ مايو ١٩٩١، هو خير الدين حبيب، وهو كذلك كان الروح المحرك لمؤتمر سابق انعقد حول «أزمة الديمقراطية في الوطن العربي»، وقد نشرت مداخلاته وأبحاثه عام ١٩٨٤ في كتاب يقع في تسعمئة صفحة حمل

العنوان ذاته. فقد التقى أكثر من مئة مفكر وأكاديمي وسياسي ليبرالي عربي خلال خمسة أيام لبحث المسألة ومناقشة العقبات العملية في وجه تحقيق الديمقراطية في العالم العربي (إضافة إلى دراسات خاصة بعدد من الدول العربية).

عقد المؤتمر في قبرص بعد أن حظر في كل دولة عربية طلب منها المجتمعون استضافتهم. كان ينبغي أن يضيف ذلك قدراً كبيراً من الإثارة على محضر المؤتمر. في الواقع، تضمنت الندوات مداخلة أو مداخلتين نقديتين للممارسات العربية المعاصرة. إلا أنهما جاءتا عموماً في لغة نظرية مموهة جداً، لغة من المستبعد أن تسيء إلى أي دكتاتور. لم يتحدث أي من المشاركين عن تجاوزات ملموسة في بلده. وكان العديد منهم يسعى إلى برهنة ما يؤكد على وجود الديمقراطية الحديثة أو «ما يعادلها» في «التراث العربي الإسلامي». اتفق الجميع على هدف الوحدة العربية، مع أن بعض المشاركين اختلفوا حول الطريقة الديمقراطية التي كانت طرحت بها هذه المسألة في الماضي. غير أن أحداً لم يتطرق إلى وجهات النظر الأخلاقية المختلفة تماماً التي على المواطنين العرب اكتسابها حول السيادة الفردية أو سيادة الدولة، الخصوصية الشخصية، التسامح، حق تقرير المصير، أو وضع الأقليات غير العربية. فكل هذه تتأني بالضرورة من تبني مفهوم للحرية مختلف كلياً عن المفهوم الذي ساد الخطاب العربي طوال الحقبة الحديثة.

لقد شددت مقدّمة محضر المؤتمر على أن «السبب الموضوعي» المركزي لإعارة مسألة الديمقراطية انتباهاً متزايداً كان «تخلف الأنظمة العربية الخطير عن مواجهة العدوان الإسرائيلي». إلا أن شعار التحشيد الذي استخدم مرّات كثيرة في الماضي، وتحديدًا للقضاء على الحرية الفردية أو حرية الاختلاف والحركة الشخصية إنما كان أيضاً «كلّ شيء من أجل المعركة» ضدّ إسرائيل. وهذه الصيغ القديمة جداً والميتة حول المسألة العربية الإسرائيلية تعتبر دائماً اختصاراً يظهر درجة الاهتمام الحقيقي بالديمقراطية. فكلّما ارتبطت «أزمة الديمقراطية» في العالم العربي بـ «مكافحة إسرائيل» علمنا مسبقاً أن شيئاً لن يتغيّر نحو الأفضل في السياسة العربية. والنتيجة الحتمية لذلك ولع بأسلحة الدمار الشامل ويزعماء كصدام حسين.

لقد انبثقت من الأعماق المظلمة للتجربة العراقية في أعقاب حرب الخليج نظرة مختلفة إلى القوة والديمقراطية. ميثاق ٩١ هو حملة لجمع التواقيع، وقعه حتى الآن عدة مئات من بين الكتاب والفنانين العراقيين، وكذلك من رجال ونساء من جميع المستويات والاختصاصات. يدعو الميثاق إلى إلغاء الخدمة العسكرية الإلزامية ووضع حدّ أقصى للنفقات العسكرية قدره ٢ في المئة من الدخل القومي العراقي. إضافة إلى ذلك، يقول عن الحرب:

«إن القوة الحقيقية تنبع دائماً من الداخل، وتكون متمثلة في إمكانيات الشعب الخلاقة الثقافية المنتجة للثروة. إن القوة تكمن في المجتمع المتمدن، وليس في الجيش أو في الدولة. إن الجيوش غالباً ما تهدد الديمقراطية وتضعف المجتمع المتمدن، كلما تضخم حجمها كان ذلك على حساب المجتمع المدني. هذا ما حدث في العراق».

ويواصل «ميثاق ٩١» بالإقرار أن أي دستور عراقي جديد ينبغي أن تنص مادته الأولى على ما يلي:

«إن الشعب العراقي، في طموحه الصادق لتحقيق سلام دولي مستند على العدل والنظام، يتخلى إلى الأبد عن الحرب كحق سيادة الأمة، وعن التهديد بالقوة أو استخدامها كوسيلة لتسوية النزاعات الدولية، ولن يجري الاعتراف بحق الدولة العراقية في شن الحرب»^(٢٩).

٥ - وهم «الربط»

في ١٢ آب/ أغسطس ١٩٩٠ طرح العراق خطة سلام مزعومة تقوم على فكرة «الربط» أو الانسحاب المتزامن للعراق من الكويت وإسرائيل من الأراضي المحتلة وسوريا من لبنان. بدت هذه الخطة ظاهرياً للغالبية العظمى من المثقفين العرب كطريقة معقولة لنزع فتيل أزمة الخليج. حتى المفكرون العرب الأكثر نقدية شعروا أنها تمثل بشكل أو بآخر (بتضمنها مثلاً فكرة انسحاب إسرائيل من الضفة الغربية مع انسحاب العراق من الكويت) حلة خلاقة لنزاعات الشرق الأوسط المتداخلة. أعطى التبرير القياسي لهذه الخطة ابراهيم أبو لغد، وهو أستاذ في العلوم السياسية بجامعة نورثوسترن في ولاية إلينوي الأميركية، وعضو في المجلس الوطني الفلسطيني. ولئن صدر هذا التبرير عن فلسطيني ذي خبرة طويلة في مجال الخيانة العربية للطموحات الفلسطينية، فقد كان من المقلق جداً أن يكتب أبو لغد أن العراق طرح «الربط وفقاً لمبادئ وقواعد العلاقات الدولية والقانون الدولي»، في حين «هزئت» إدارة بوش بـ «التزام» العراق حيال الفلسطينيين. واستبق أبو لغد الأمور على المتشائمين الساخرين أمثالي الذين قد تساورهم شكوك بأن «خطة السلام» هذه تتطوي على انتهازية، فأكد أن «العكس صحيح». الحقيقة في نظر أبو لغد مرتبطة بـ «دعم العراق التاريخي للفلسطينيين»، وبعكسها الذي هو «النوايا الأميركية الحقيقية». وما هي هذه النوايا؟ أن «تشل أي قوة عربية محتملة قد تستخدم لصالح العرب»^(٣٠).

محمد حلاج، مدير مركز الترية والأبحاث حول فلسطين في العاصمة الأميركية، ذهب إلى أبعد من ذلك. فنظام صدام حسين لم يقم بـ «زيادة الرفاه العربي» فحسب، ولم يكن له «عهد لا يمكن إنكاره» حيال القضية الفلسطينية فحسب، بل إن نهوض العراق كقوة عسكرية كان «ميرراً بحاجة عرية إلى إيجاد رادع عسكري عربي لإسرائيل... إن العراق... هو المشارك العربي الوحيد في حرب ١٩٤٨ بين العرب وإسرائيل الذي لم يوقع في أي وقت هدنة دائمة مع إسرائيل. لذا فإن ربط العراق بين أزمة الخليج والمسألة الفلسطينية ليس في نظر الفلسطينيين مجرد غطاء لطموحات محلية»^(٣١).

في حين كانت أزمة الخليج في أشدها كانت كلمات كهذه تتردد في الاجتماعات العامة والمقالات الصحافية. هذا الاسترسال بلا توقف في الوهم ملأني غضباً. رحت أتساءل باستمرار أي خلل حصل بحق الله؟ أليس لدى قراء الكتب ورؤساء تحرير الصحف المشهورة أي حس على الإطلاق بتاريخهم الخاص؟ أي نظام عربي قام بأدنى تحرك من أجل القضية الفلسطينية، كم بالأحرى أكثر هذه الأنظمة وحشية واستحقاقاً للرم على الصعيد الأخلاقي؟

قلت لنفسي ماذا كان حصل لو بادر الفلسطينيون أنفسهم إلى رفض فكرة «الربط» التي اقترحتها العراق؟ لكانوا ابتكروا عندها مفهومهم الخاص للربط، مفهوماً أعظم ميزاته انه غير مقيد بالطموحات التوسعية لدولة مجرمة. لو رفض المثقفون الفلسطينيون رفضاً شاملاً الطموحات العراقية الفعلية، لشكل ذلك تحدياً لبقية العالم لأن يرفض الاحتلال الإسرائيلي لأرض عربية، وذلك بإعطاء المثل، وليس بتوجيه عظات أخلاقية فارغة، ولكانت مكانة الفلسطينيين في محادثات السلام في الشرق الأوسط أرفع بكثير مما هي عليه. عوضاً عن ذلك أخذ المثقفون الفلسطينيون، الواحد تلو الآخر، يعلنون للعالم أنهم، طالما العالم يكيل بمكيالين، سيتبعون بدورهم الأمر نفسه، وهذا ما فعلوه باحتراف كبير. وبالتالي، فإن الجوهر الأساسي الأخلاقي السامي الكامن في عدالة قضيتهم، والذي يشكل القوة الحقيقية الوحيدة لمصلحتهم، هذا الجوهر قدم لصدام حسين على طبق.

على أن التزايد القوي في شعبية صدام حسين بين الفلسطينيين حصل قبل «الربط». لقد بدأ بالخطاب الشهير الذي ألقاه في ٢ نيسان/ أبريل ١٩٩٠ وتحدث فيه عن إضرام «نار ستبتلع نصف إسرائيل». كان صدام يشير بهذه الاستعارة إلى الصواريخ البعيدة المدى (ألفا ميل) التي طورها العراق عام ١٩٨٩ وأطلق عليها اسم تموز I أو حجارة أبايل. وكانت الصحافة العراقية في تلك الحقبة تلمح باستمرار إلى أن العراق سيرد

بأسلحة كيميائية إن شنت إسرائيل هجوماً تقليدياً على العراق (مثل هجوم ١٩٨١ الذي استهدف منشآت نووية عراقية).

وفي الواقع عمت العالم العربي (بما فيه السعودية والكويت) حماسة هائلة لما اعتبر وثبة عسكرية عربية إلى الأمام رأس حربتها الرئيس العراقي.

ومع حلول تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٠ كان شعور «رؤيوي» يعم القدس الشرقية، حسب ما أوضح مدير مدرسة فلسطيني، «كما لو أن أموراً هائلة حقاً تحدث حولنا ونحن لسنا سوى أدوات»^(٣٢). كانت مروحيتان أميركيتان اختفتا للتو فوق الصحراء العربية. «على الفور قال جميع الجيران انها إشارة من السماء». ثم وصف كيف روى فلسطينيون عائدون إلى منازلهم من السعودية انهم شاهدوا طيوراً أبابيل تتجمع مرة جديدة فوق مسجد مكة المقدس. الطيور التي أنقذت مكة من الدمار الذي كانت ستزله بها القبائل الحبشية، فرجمتها بـ «حجارة من سجيل»^(٣٣). كانت تلك التخيلات والصور حاضرة في ذهن صدام حسين عندما أطلق على صاروخه الجديد اسم «حجارة أبابيل». فكر الفلسطينيون العاديون ان شيئاً ضخماً كان يجري وان جورج بوش سينال جزاءه لأنه تجرأ وتحدى صلاح الدين العربي الجديد. وفي النهاية عندما بدأ صدام يقذف إسرائيل خلال حرب الخليج بـ «حجارته الطائرة» على شكل صواريخ غير فاعلة عسكرياً، هرع الإسرائيليون إلى الملاجئ في حين انتظر الفلسطينيون صفارات الإنذار ليسرعوا إلى السطوح حيث كانوا يصفقون ويعزفون الموسيقى ويعلنون عن بهجتهم بالصواريخ، رغم ان هذه الصواريخ يمكن أن تسقط على عرب وعلى يهود على حد سواء.

في «رسالة من الضفة الغربية»، ذكرت أمل أبو العبد (اسم مستعار) وهي امرأة فلسطينية غربية الثقافة فزت عائلتها إلى المنفى عام ١٩٤٨، وردت رؤوس الأقلام التالية من يومياتها عن الحرب:

«الثلاثاء ١١ شباط/ فبراير: أيقظتني شمس في الساعة ١,٢٧ صباحاً... إستيقظت شمس على صوت صفارات الإنذار تدوي في الخارج وعلى جلبة ابتهاج - صفير وزغاريد. قد يشعر البعض ان هذا تصرف غير مقبول. لكن الأمر ليس كذلك إن تم النظر إلى المسألة في السياق المناسب. هذا الابتهاج لم يكن يعني تمني الأذى لأفراد إسرائيليين، بل كان يعني التمني لهم أن يشعروا ولو بقدر ضئيل بالألم والعذاب الهائلين اللذين يفرضونهما على الفلسطينيين واللبنانيين منذ ٤٥ سنة أو ما يقاربها. كان هذا الابتهاج يعبر عن سعادتهم لكون زعيم عربي

واحد على الأقل تمكن من «مهاجمة» إسرائيل في وقت اعتدنا أن نتعرض نحن للهجوم.

السبت ٢٣ شباط/ فبراير: ... أطلقت صفارات الإنذار قبيل الساعة السابعة وكان ينبغي أن تسمعوا صيحات الفرح والصغير وصرخات «الله أكبر» التي ترددت عند عبور الصواريخ فوق المدينة.

الأحد ٢٤ شباط/ فبراير: ... يعتقد سكان الضفة الغربية ان في وسع الجيش العراقي الصمود ستة أشهر على أقل تقدير، وربما أكثر إن تمكن من الحصول على قطع غيار.

الثلاثاء ٢٦ شباط/ فبراير: لا أعرف من أين أبدأ بوصف مشاعر الاكتئاب التام التي سيطرت عليّ في الساعة الثالثة والنصف صباحاً عندما سمعت أن العراق ينسحب من الكويت ويطالب بوقف إطلاق نار وأن القوات المتحالفة ترد بقصف أعنف على بغداد والقوات العراقية المنسحبة^(٣٤).

استولت على الفلسطينيين من سائر الطبقات الاجتماعية طوال حرب الخليج حالة من اللاواقعية التامة المترجمة بالخرافات، حيث تعاقبت البهجة العارمة واليأس. قال الأستاذ الثانوي الإسرائيلي الفلسطيني نجيب أبو رقية انه «بعد أن أكد الزعيم العراقي ان قوى غيبية تناضره، بدأت تتكاثر التقارير عن معجزات. كان فلاحون يسمعون الدجاجات تتلو آيات قرآنية. وتردد بكثرة ان وجه صدام حسين شوهد على سطح القمر. وأخذ المسلمون في كل أنحاء إسرائيل ينقبون بهوس في الأدب الديني المتصوّف والمتزمت... التنبؤات أوصلت العديد من الناس إلى حافة الجنون»^(٣٥).

غير أن أصحاب الإرتكابات الأسوأ لم يكونوا الفلاحين الفلسطينيين البسطاء، أو الأشخاص الذين من أمثال أمل أبو العبد، الذين كانوا على الأقل صادقين في مشاعرهم، بل كانوا أولئك المثقفين العلمانيين الكوزموبوليتيين الناشطين انطلاقاً من معاهد أكاديمية ومؤسسات أبحاث في الغرب، والذين ألبسوا دعمهم للخطوة العراقية رداءً نظرياً «مناهضاً» للامبريالية. وباستثناء وليد خالدي من جامعة هارفرد، لا يتبادر إلى ذهني اسم فلسطيني واحد بارز في الولايات المتحدة - من بين العديدين المقيمين في هذا البلد - لم يستسلم، على الأقل علناً، لأسوأ أنواع الهوس بالأساطير القومية (كان بعض الفلسطينيين يعبرون بوضوح في أحاديث خاصة عن عدم وجود أية أوهام لديهم حول الزعيم العراقي، غير أنهم شعروا كذلك ان إعلان هذه الانتقادات خلال أزمة الخليج كان بمثابة خيانة وطنية). صدام حسين اجتاحت الكويت، وأعرب «خبراء» في السياسة العربية على الفور عن

قناعتهم بأنه مع قوته «العربية»، سيرمي في اتجاههم فتاتاً من العزاء على شكل تنازلات إسرائيلية. هذا ما كان يعنيه النضال ضد إسرائيل في أذهان المثقفين. ولم يكن المرء يدري ما إذا كان الأمر مضحكاً أو مبيكياً.

غير انه داخل إسرائيل ظل فلسطيني واحد على الأقل بعيداً عن الهراء المثفشي من حوله. فالكاتب إميل حبيبي البالغ من العمر سبعين عاماً والمولود في حيفا شجب علناً فكرة «الربط» لحظة طرحها صدام حسين، واعتبر أنه لن ينجم عنها سوى ربط واحد وهو ربط القضية الفلسطينية بمصير القيادة العراقية^(٣٦). وتابع حبيبي محملاً الزعامة السياسية الفلسطينية وجميع المثقفين العرب مسؤولية زرع أوهام حول صدام حسين في أذهان الفلسطينيين العاديين^(٣٧).

فخبرة حبيبي الطويلة كناشط سياسي داخل فلسطين/ إسرائيل بدءاً بثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩ الفلسطينية علمته أن يكون متشاكماً ومشككاً بعمق حيال أية محاولة تقوم بها الأنظمة العربية المناصرة للقضية الفلسطينية: «كلما حشرت إسرائيل في الزاوية وباتت معزولة وعلى وشك تقديم تنازلات، جاء ما ندعوه نحن في معجمنا الفلسطيني الفرج العربي». أيد حبيبي قرار التقسيم الذي أصدرته الأمم المتحدة في ٢٩ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٧، وهو موقف صنف «خائناً» في ذلك الوقت وكان يمكن أن يكلفه حياته. كما أنه لم يعتقد ان الجيوش العربية خاضت الحرب عام ١٩٤٨ من أجل إقامة دولة فلسطينية. «بل العكس صحيح: الجيوش العربية جاءت من أجل الحؤول دون إقامة دولة أخرى في فلسطين. ومنذ ذلك الوقت، فإن الأنظمة العربية تقوم مع البريطانيين والأميركيين باستغلال المسألة الفلسطينية لمؤامراتها الخاصة، لتأجيج حروبها العربية»^(٣٨). عام ١٩٩١ جاء الفرج العربي كما قال حبيبي، على شكل «الفارس الأسمر على فرسه الأبيض»^(٣٩).

إن الأشكال الأكثر تعقيداً لهذا النوع من اختراع الخرافات لم تستهو حبيبي في أي وقت. فهو رأى دائماً حقيقة أكاذيب الأنظمة العربية وخداعها حول المسألة الفلسطينية. لكنه لا يكتفي بالقول إن بوسعه إدراك ما وراءها - والكُلّ يدعي القدرة على ذلك بالطبع - بل يلتزم في الواقع موقفاً سياسياً مناسباً، وإن كان سيؤدي إلى عزله. لقد اعتبر حبيبي ان أي قبول فلسطيني لأي شكل من أشكال خطة «الربط» التي طرحها صدام حسين ينتقص فوراً من الزخم الديمقراطي للوطنية الفلسطينية^(٤٠). وبخلاف أبو لغد والحلاج، شعر حبيبي بوضوح انه لا يجدر بأي ديمقراطي فلسطيني حقيقي أن يقبل بدفع هذا النوع من الثمن، فقط لأنه يائس من احتمال امتلاكه دولة. فحبيبي تحدث بصوت

مرتفع، حتى عندما كان ذلك يشكل خطراً عليه، معلناً ان الدواء الذي اقترحه صدام لليأس الفلسطيني أسوأ بكثير من هذا اليأس نفسه.

الرهانات في هذا التجاذب بين شخص كحبيبي وباقي المثقفين الفلسطينيين مرتفعة جداً، وهي تصل إلى جوهر السياسة الفلسطينية. كذلك تتعلق الرهانات بالشقاكات المتزايدة بين الفلسطينيين داخل إسرائيل والأراضي المحتلة، والتي تمثلها على الصعيد السياسي شخصيات سياسية جديدة لافتة مثل حنان عشراوي وفیصل الحسيني، في مواجهة أولئك الذين في الخارج، والذين ما زالوا متجمعين بشكل غير متماسك حول منظمة التحرير الفلسطينية وباسر عرفات. هذا الانقسام يؤدي إلى خيار أساسي بين مفهومين للحرية.

ومع ان الأمر يبدو غريباً، إلا أن الدولة البعثية وغالبية المثقفين العرب شعروا بصدق ان ضم العراق للكويت امتداد للحرية الإجمالية المتوافرة للشعب العربي. فخطابا العروبة والوطنية الفلسطينية المناهضان للامبريالية يدوران معاً حول فكرة «التحرر من» الامبريالية أو الصهيونية، بحسب الموضوع المطروح، من أجل وحدة تجمع كلاً مقسماً تقسيماً اصطناعياً (العالم العربي)، أو دولة ما زال ينبغي إقامتها (دولة فلسطينية مقبلة في الأراضي المحتلة مثلاً). لذلك يتوجب على عاشقي الحرية في كل مكان أن يدعموا ضم الكويت - «عمل قومي» في نظر طرايشي. ومن هذا المنظار تكون طبيعة نظام صدام حسين وما حصل للكويت أمراً ثانوياً تماماً. وحتى عندما يدي هؤلاء المثقفون في أحداث خاصة اشتملواهم من النظام - وأنا واثق من أن شخصاً مثل أبو لغد يفعل هذا - فإن اعتمادهم هذا المفهوم للقومية يفسر لماذا يناصرونه مناصرة ثابتة في العلن^(٤١).

لقد كان اعتقاد القوميون الضمني ان ضم الكويت مشروع «يمكن تفهمه» من «منظار تاريخي»، وإن كان «غير قانوني» (أو على رغم استبداد صدام). و«الربط» في نظرهم كان يعني انه إن كان يتوجب التخلي عن الكويت - فصلها عن العراق - باسم شرعية أو إجراءات شكلية مثل «القانون الدولي» الذي كان يُفرض بشكل جلي على العرب عبر تلاعب الغرب بالأأم المتحدة، فمن الضروري بالتالي تقديم تعويض ما للعرب. ولماذا لا يكون هذا التعويض جزءاً من فلسطين؟ كما لو أنّ حوالى مئتي مليون عربي لا توخذهم إلا دعامتان هما صدام حسين ومنظمة التحرير الفلسطينية. إن كانت الولايات المتحدة والائتلاف المتحالف بصران بشكل حاسم على إسقاط إحدى هاتين الدعامتین النفیستين (صدام حسين) فأقل ما ينبغي عليها القيام به هو دعم قوة الأخرى (منظمة التحرير). لقد استمدَّ «الربط» قوته المعنوية لدى الفلسطينيين من هذا النمط من التفكير، وبدا من يرفض

«خطة السلام» التي طرحها صدام حسين والقائمة على الربط هذا، كأنه يعتمد مقياسين بالنسبة إلى مسألة الانسحاب الإسرائيلي من الأراضي العربية المحتلة.

لهذه المعادلة القومية منطق معكوس مخيف. لنفترض أن الغرب مستعدّ لترك الكويت للعراق. فلماذا لا يطالب بـ «تعويض» على شكل ضمّ إسرائيلي دائم للضفة الغربية؟ إن هذا ينتج عن منطق الربط كما وضعه أبو لغد وحلاج، والسبب الوحيد الذي لم يجعل هذه الفكرة تخطر في بالهما هو أنهما لا يظنان أن صدام حسين قد يكون غادراً إلى حدّ قيامه بصفقة كهذه مع الغرب.

أما الخيار الآخر الديمقراطي الذي قال به حبيبي فيسير في اتجاه معاكس لهذه القومية. ففي الطبقة العاطفية الأسفل التي منها تنبثق المواقف السياسية، يفهم الديمقراطي الحقيقي بالفرصة أن الشعبين الكويتي والفلسطيني الواقعيين معاً تحت الاحتلال هما ضحية ظلم كبير. وبالتالي فإن الربط «الطبيعي» يقوم بين مصيريهما، وليس بمصير القيادة العراقية. فالتعاطف مع الكويتيين الواقعيين تحت الاحتلال هو تأكيد تلقائي للمضمون الديمقراطي للنضال الفلسطيني، وهو نضال مبني على فكرة أن الحقوق، كلّ الحقوق وليس فقط حقوق الفلسطينيين الخاصة، لا ينبغي إخضاعها أبداً لمبدأ أرفع منها (مثل الوحدة العربية أو «الأمن» الإسرائيلي).

إن منطق المؤيدين لصدام هو أن الحقوق الفلسطينية مرتبطة بتحقيق الزعيم العراقي بعض أهدافه على الأقلّ، في حين أن منطق الموقف الديمقراطي معاكس تماماً لذلك: فالحقوق الفلسطينية تبدأ، تبعاً له، بهزيمة صدام حسين واستعادة الكويتيين حقوقهم. وكلّما كانت هزيمته مدوية، وكلّما تمت استعادة ما اغتصب بشكل كامل، كان المكسب الديمقراطي الفلسطيني النهائي أكبر.

فالدفع الديمقراطي للوطنية الفلسطينية لم ينبع في أي وقت من الرغبة المجردة في «تحرير» أراضٍ عربية، بل نبع بشكل ملموس من الرغبة في امتلاك حقوق مرفوضة اليوم من قبل الدولة اليهودية حصراً، وذلك لسبب بسيط هو أن المطالب بالحق عربي. وحق الفلسطينيين في أن يتركوا وشأنهم، في أن يعاملوا كما يعامل جميع الآخرين، في أن يتخلّصوا من أعمال العنف التي يمارسها جيش احتلال، كل هذه مطالب ديمقراطية مشروعة موجهة إلى الدولة الإسرائيلية التي تنكرها اليوم. وهذا الإنكار يفعل بالفلسطينيين (مع التفاوت في القسوة) ما تفعله الدولة العراقية بجميع العراقيين منذ حوالى ربع قرن. بكلام آخر، إن النداء الأخلاقي الفلسطيني الموجه إلى ضمير العالم ينبعث من الشيء نفسه الذي يريد صدام حسين أن يسلبه من عدد متزايد من العرب بضمّه الكويت.

٦ - «الحلّ العربي»

في كانون الثاني/ يناير ١٩٩١، عندما اندلعت حرب الخليج، كنت في القاهرة لحضور المعرض السنوي للكتاب العربي. كان الجميع ينتظر حدثاً هاماً جداً، وهو خطاب كان سيلقيه محمّد حسنين هيكل، رئيس تحرير صحيفة «الأهرام» المصرية، والذي كان صديقاً حميماً لجمال عبد الناصر. كانت القاعة مكتظة بالحضور حتى لتكاد تطفح بهم، وكنا جميعاً ننتظر سماع ما سيقوله هيكل الذي كان قد كتب في ١٢ أيلول/ سبتمبر: «وحده الحلّ العربي يمكن أن يناسب سيكولوجيا الذهن العربي»^(١٢).

بدأ هيكل يروي لنا قصصاً عن التجارب التي عايشها مع صديقه «جمال». أذكر جيداً قصة عن القذافي. كانت الملكية قد أطاحت لتوها في ليبيا وكان ذلك المجهول الذي برز فجأة يدعو إلى وحدة فورية مع مثاله الأعلى عبد الناصر. لم تكن لدى الرئيس المصري أية فكرة عن الزعيم الليبي الجديد، فأرسل ملازمه الموثوق هيكل لعقد اجتماع استطلاعي. عاد هيكل واستقبله عبد ناصر في المطار، فسأله فاقد الصبر ما ان سنحت الفرصة «قل لي، كيف هو هذا الرجل؟»، أجاب هيكل «لا تريد أن تعرف». لكن ناصر أراد أن يعرف، فقال هيكل «إنه كارثة!».

قهقهنا كلنا ضاحكين. تابع هيكل عارضاً وجهات نظره حول موقف كلّ دولة من أزمة الخليج، غير أنه لم يتطرق إلى الموقف المصري. تحدّث عن كلّ زعيم سياسي وعما فعله خطأ وصواباً، ومرة جديدة جعلنا ننفجر بالضحك. كان ذلك في ما بعد ظهيرة أحد مشمس ولطيف في ١٣ كانون الثاني/ يناير، قبل يومين من انتهاء مهلة الإنذار الذي وجهته الأمم المتحدة إلى العراق للانسحاب من الكويت، وكان الجحيم على وشك الهبوط على رؤوس العراقيين. فقد الحاضرون بعضاً من صبرهم: «أهملت مصر، قل لنا ما رأيك بالموقف المصري؟». ابتسم هيكل ابتسامة عريضة، مستمتعاً بالأمر كثيراً. قال وهو بالغ السعادة بنفسه، ويتلاعب: «سأقول لكم فقط انني لا أفهم موقف مصر. كان بإمكاننا أن نلعب دوراً رئيسياً، لكننا لم نفعل». صاح الحضور مرحاً «ماذا كان يجدر بنا أن نفعل؟»، وكان هيكل يصل الآن إلى محور الأشياء: «لدي وجهات نظري حول هذا الموضوع، لكنني أفضل أن ألزم الصمت». ردّ الحشد صائحاً بصوت واحد «قل لنا! قل لنا!».

مزيد من المزاح ومزيد من الضحك. وفي النهاية كان الرجل ظريفاً جداً، حتى كدنا ننع أرضاً. كان هيكل يعلم انه هام جداً ومميّز، يفهم السياسة العربية أكثر من أي شخص آخر، فهو كان أقرب المقرّبين إلى عبد الناصر والمؤمنين على أسرارهم. وبالتالي فإن وجهات

نظرة تحمل شحنة كهربائية. على كل حال، هذا ما يعتقده هو. اصطحبنا مشدودين إليه في دورة حول العالم العربي طوال ثلاث ساعات، ثم أعادنا إلى القاعة حيث كنا محشورين كأنما في علبة سردين. ومثل هيكل أمام ألف شخص التمثيلية التي كانت ستطرح لو تم إيجاد حلّ خلال الشهرين الأولين للأزمة. وفي النهاية لم يقل شيئاً، تماماً مثلما ان الجامعة العربية ما كانت فعلت شيئاً. هذا هو هيكل. هذا هو أيضاً «الحلّ العربي» عند هذا المفصل التاريخي. وكان صدام حسين أفضل من فهم هذا الأمر، بل إنه راهن عليه في الواقع عندما اجتاحت الكويت.

خلال أزمة الخليج، أكد نعوم شومسكي، مثل محمد حسنين هيكل، أن ثمة خياراً بديلاً للحرب هو التفاوض والحلّ الدبلوماسي، «غير أن الولايات المتحدة رفضت أي إشارة أو تلميح إلى احتمال وجود مسلك دبلوماسي وذلك منذ البداية... وقد قدم العراق مراراً عروضاً كهذه واقترح الأردن ومنظمة التحرير وفرنسا ودول أخرى تحاول إيجاد وسيلة لتفادي هذه الكارثة عروضاً»^(٤٣). وتضمنت البنود الرئيسية للتسوية التي كان شومسكي يفكر فيها تقديم ضمانات ما للعراق بمنحه منفذاً على الخليج، وهو «مطلب يوافق الجميع على انه ليس غير منطقي»، إلا أن العراق الذي وصفه شومسكي نفسه في ظروف أخرى بأنه «ربما كان أكثر دول العالم عنفاً وقمعاً»، أظهر الطابع المنطقي لمطالبه باحتياج دولة مجاورة أضعف منه بكثير وأقل عدوانية، ونهبها وضّمها^(٤٤). لماذا اختار شومسكي وقتاً كهذا للفت الانتباه إلى منطق صدام حسين؟ من بنود التسوية بالتفاوض، حسب شومسكي، اتخاذ قرار بشأن مطالبة العراق بحقل الرميّة النفطي «الذي يقع ٩٥٪ منه داخل العراق و٥٪ داخل الكويت، عبر حدود هي موضع نزاع غير مرسومة بشكل ثابت... لقد تم التفاوض في شأن خلافات جغرافية أعظم من هذه». ليست لدي أية فكرة عن المصدر الذي استقى منه شومسكي إحصاءاته، لكن إن كان الأمر على تلك الحال فينبغي أن تقلع الكويت عن تصرفها غير المنطقي وتعطي العراق ببساطة ما يريد إذ لم يعد هناك ما يمكن التفاوض بشأنه. كذلك أيد شومسكي إجراء «استفتاء عام أو طريقة أخرى للتعبير عن الإرادة الشعبية داخل الكويت»^(٤٥) كجزء من التسوية. إلا أنه أهمل التوصية حول الأمر نفسه بالنسبة للعراق. لماذا؟

إن الطابع الفريد لتصور شومسكي للأشياء هو الافتراض أنك إن سمحت لنفسك بالتفكير أن ثمة تحدياً أخلاقياً يطرحه استيلاء صدام على الكويت «فلديك بالتالي حجة، حجة معقولة ظاهرياً بأنه لا ينبغي عليك اعتماد خيار دبلوماسي، وكل ما علينا أن نفعله هو أن نذهب إلى الحرب»^(٤٦). من هنا استعرت الرغبة الجامحة في التنقيب عن هذا «الطابع المنطقي» للتصرف العراقي والبحث في كل اتجاه عن تسوية لم يكن ممكناً

التوصل إليها إلا بمنح «أكثر دول العالم عنفاً وقمعاً» انتصاراً معنوياً وسياسياً هائلاً. من هنا أيضاً الحاجة إلى التشديد على خبث الولايات المتحدة ومواقفها الوقحة، والتذكير باستمرار بغراناذا وبمنا والسلفادور وفييتنام. إن موقف شومسكي، مثل «الحل العربي»، ينم عن عدم رغبة أو عجز عن التبصّر في خصوصيات الوضع من منظار الأشخاص الذين يعيشونه على الأرض والعواقب المتأتية عليهم من جراء فلاح صدام حسين في شيء يمكن تحويله بخدعة إلى انتصار.

إن التأكيد على أن المبادئ الأخلاقية لم تكن على المحك في المقام الأول أثناء اجتياح الكويت، إذ يصدر عن شخص مثل شومسكي، يعوق وجهة النظر المنطقية الوحيدة لمعارضة حرب الخليج. تقول وجهة النظر هذه انه حتى لو كانت مبادئ أخلاقية هامة على المحك، ينبغي التوصل إلى حلّ وسط بشأنها، بسبب النتائج الوخيمة على الصعيد الإنساني التي ستأتى عن العمل بموجب هذه المبادئ. هذه حجة مشروعة تماماً وممتازة لمعارضة حرب الخليج، ولكانت ميزت شومسكي عن أشخاص مثل محمد حسين هيكل. غير أنها لم تكن الحجة التي اعتمدها هو والعديد من الناشطين الأميركيين والأوروبيين الآخرين المناهضين للحرب.

٧ - النفط العربي بوصفه القوة المحركة للحرب

يظهر من قراءة محضر مؤتمر عقد بشمال أفريقيا في آذار/ مارس ١٩٩١ لتقييم تأثير أزمة الخليج على مستقبل العالم العربي ان جميع المشاركين في الاجتماع اتفقوا مع الاقتصادي عبد الجليل البدوي على أنه «من البديهي أن البترول العربي كان المحور الأساسي لحرب الخليج»^(٤٧). وكان البدوي يعني بذلك انه «عندما يطالب العراق بإعادة تقييم سعر النفط فإنه يضرب في الواقع الآليات القاعدية للاقتصاد العالمي ويهدد بضاعة حيوية ومصدراً لفوائد ضخمة محوّلّة في أغلبها نحو الشمال... ولهذا السبب أصبح صدام الرجل المطلوب إسقاطه مثلما كان الأمر من قبل بالنسبة للدكتور مصدق في إيران وألندي في التشيلي والقذافي في ليبيا»^(٤٨).

أنا لا أشك في كون الغرب يعلّق أهمية استراتيجية على إمدادات نفطية ثابتة تصله من الشرق الأوسط. لكن في مخيلة شخص مثل البدوي، مثلاً، لا يزال الوهم قائماً بأن العلاقات الاقتصادية بين العراق والغرب محكومة بالإستغلال الذي يعمل بشكل محتوم لمصلحة الدول الرأسمالية المتقدّمة. وبالتالي فإن صدام حسين ليس شخصاً وحشياً بقدر ما هو روبن هود عربي كان يحاول بشجاعة أن يصلح الخلل في الميزان الاقتصادي

لمصلحة العرب قبل أن يضربه الغرب (تماماً كما كان على وشك تصحيح التنافر الجغرافي بين الثروة والسكان داخل العالم العربي لمصلحة الفقراء والمعدمين).

إن طرحنا أخطاء البدوي جانباً - لا يوجد نفط في التشيلي - فأول مسألة تتبادر إلى أذهاننا هي أن «عامل النفط» كان بالتأكيد أهم بالنسبة إلى الفريق الذي اجتاحت الكويت، أي العراق، منه إلى الغرب. فلو تمكن صدام حسين من ضمّ الكويت نهائياً لكان ضاعف عائداته (حتى قبل أن يرفع الأسعار) مع زيادة طفيفة في النفقات. وبذلك كان أصبح العراق قوة إقليمية أكثر نفوذاً مما كان. ومن العدل القول إن هذا ما يريده مثقفون مثل البدوي وسمير أمين. وقد اختصر المصرفي العراقي أحمد الجلبي بشكل دقيق المعطيات الاقتصادية المرتبطة بأحلام العظمة هذه التي عرفتها تجربة الثمانينات العراقية:

«عام ١٩٨٠ كان العراق يملك ٣٠ مليار دولار نقداً و ٣٥ مليار دولار من السلع المدنية و ١١ مليار دولار على الأقل من الأسلحة. مع حلول عام ١٩٨٩ كان على العراق دين خارجي يزيد عن مئة مليار دولار في حين لم يكن لديه عملياً احتياطي نقدي. وبلغت العائدات النفطية الجديدة خلال الفترة ذاتها في العراق ١١٩ مليار دولار. إن قارنا الأرقام تبين لنا أن العراق أنفق مبلغاً مذهلاً قدره ٢٩٥ مليار دولار بين سنتي ١٩٨٠ و ١٩٨٩. كيف أنفق هذا المبلغ؟ أنفق بصورة رئيسية في الدفاع عن الجانب الشرقي من العالم العربي ضدّ العدو الفارسي. ما معنى ذلك؟ معنى ذلك أن هذا المال أنفق لجلب الموت والدمار... ما هي كلفة قيمة استبدال البنى التحتية، المنشآت الإنتاجية، التجهيزات الرئيسية، المساكن، التحويلات النقدية للعمال الأجانب الذين استخدموا مكان العراقيين المنشغلين في الدفاع عن هذا الجانب الشرقي، والفرص التي ضاعت على البلد خلال هذه الفترة؟ كيف يبدو مبلغ ٢٠٠ مليار دولار؟ متواضع»^(٤٩).

وخلص الجلبي إلى أنه تم تبديد حوالي ٤٩٥ مليار دولار من أجل أن يعود العراق إلى حيث بدأ عام ١٩٨٠ عندما أطلق أول مغامرة حرية خارجية له. إنها أرقام مريعة. ما الذي يجعلها معقولة؟ الدخل النفطي. لم يتوجب على صدام حسين في أي وقت خلال حياته السياسية ما بعد سنة ١٩٦٨ أن يتحدّى الغرب ليضع يديه على مبالغ كهذه (كما فعل الزعيم الإيراني مصدق في الخمسينات). فالعرب يملكون نفطهم اليوم ويحصلون مقابلته على أسعار أعلى بكثير ممّا تبرزه كلفة إنتاجه الحقيقية. وسعر النفط اليوم في العالم لا علاقة له، في الواقع، بهذه الكلفة؛ إنه مثل هائل، يجمع على حساب جميع مستهلكي النفط، والعديد منهم في العالم الثالث.

إن كان صحيحاً أن الماضي أمر يهتدى به، فلماذا كان على الغرب أن يخشى شيئاً من سياسة صدام حسين الرامية إلى تحديد أسعار جديدة للنفط، حتى لو ربح مغامرته لربحية الخارجية الثانية في الكويت. فحليف الغرب الأكبر ودعامة، شاه إيران، كان من اد من حرب تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣ لرفع أسعار النفط في أضخم زيادة شهدها هذا القطاع، مما أثار الاضطراب في العلاقات بين العالمين الأول والثالث (يذكر أن شاه إيران أطاح رئيس الوزراء الإيراني مصدق في عملية جرت برعاية وكالة الاستخبارات الأميركية عام ١٩٥٣).

وتقف دولة كالعراق في الخط الأمامي للدول التي استفادت عام ١٩٧٣ من زيادة عار النفط بمعدل أربعة أضعاف، والزيادات تراكمت عبر السنوات لتصبح مصدر المبلغ الذي تم تبديده والذي قدره الجليبي بـ ٤٩٥ مليار دولار.

إن تمكّن العراق وإيران من الصمود طوال ثماني سنوات طويلة، مهلكين جيلاً بكامله من الشبان العراقيين والإيرانيين، فذلك فقط بسبب الحجم الهائل لهذا الربح. فلم يكن كئناً خوض حرب طويلة وبلا معنى كهذه باقتصاديين آخرين «طبيعيين» - حيث يقوم حل الدولة على الضرائب الاجتماعية، وبالتالي على قدر معين من القدرة على إنتاج روات في شكل سلع وخدمات جديدة ذات إنتاج داخلي.

حينما كانت المعارك جارية، كان «الامبرياليون» الغربيون بالطبع يبيعون بكل سرور نادق للمقاتلين. ومع ارتفاع جبال الجثث الإيرانية والعراقية حققت شركات إنتاج أسلحة الغريبة، وكذلك العملاء، أرباحاً ضخمة. لا أحد يحاول إنكار ذلك، لكن، بلا شك، كان مطلوباً أن يكون هناك من يريد شراء الأسلحة وخوض الحرب الدامية التي دت بالعديد من العرب والإيرانيين.

دارت الحرب العراقية الإيرانية حول سعر برميل النفط ليس لأن طرفاً ما أرغم النظام عني في العراق أو الجمهورية الإسلامية في إيران على سلوك هذه الطريق بالذات، بل من كلاً من صدام والحسيني مارس تعطّشه للدم من غير أن يتعرض لأي انتقاد، ولا يما من قبل المثقفين العرب والمسلمين الذين شاركوا مثل البدوي في الهستيريا القومية ول صدام حسين خلال أزمة الخليج.

غير أن الماضي ليس أمراً يهتدى به دائماً. وهذا من الأسباب التي دفعت بهذا العدد كبير من الدول، بقيادة الولايات المتحدة، إلى التحرك لإرغام صدام حسين على الخروج من الكويت. الولايات المتحدة ودول أوروبا الغربية هي قوى هامة، محافظة وبيروقراطية، عملية اتخاذ القرار. يهمها «الاستقرار» والعلاقات الثابتة أكثر مما تهتمها المبادئ الديمقراطية المتقدمة. تتمسك بدول كالسعودية وإسرائيل فقط لأنها موجودة، لأنها تمثل

الوضع الراهن. وبناءً على المنطق ذاته، ظلت إلى جانب صدام حسين طوال الثمانينات. لكن عندما أثبت الزعيم العراقي انه صاحب مبادرات لا يمكن توقعها ولعين بالقدر نفسه، وعت القوى الغربية فجأة حقيقة أن المسألة مسألة وقت قبل أن يعيد الكرة من جديد، ثانية وثالثة. لم تقم أية حكومة بتحريك في أزمة الخليج بسبب قلق راسخ بشأن حق الكويتيين في تقرير مصيرهم، أو بسبب سجل صدام حسين في مجال حقوق الإنسان، بل بسبب قلقها بشأن أمور كسقوط «أحجار دومينو» عربية، مما يمكن على المدى الطويل أن يعطل وصول الإمدادات النفطية الثابتة إلى اقتصاداتها.

إن سلمنا جدلاً بتحركات صدام حسين غير المتوقعة والأهمية الاستراتيجية لكل هذا النفط، فإنني ما زلت أعتقد أنه كان من غير المؤكد أن تقوم الولايات المتحدة بأي شيء من أجل الكويت لو كان عليها أن تعتمد على مواردها الخاصة. فحرير الكويت كان في الحقيقة مشروعاً باهظاً جداً (كلفت حوالي ٧٠ مليار دولار بحسب التقديرات التي أعلنها البيت الأبيض في آذار/ مارس ١٩٩١، وكان على الولايات المتحدة أن تدفع من هذا المبلغ ١٥ مليار دولار^(٥٠)). لم يكن العراق غراناذاً، كما أن صدام حسين لم يكن يجلس على أبواب أميركا، مثل نوريغا في بنما. هل كان من الممكن للولايات المتحدة أن تدفع فاتورة طرد العراق، علماً أن العجز في الموازنة الأميركية ارتفع من ٢٢٠ مليار دولار عام ١٩٩٠ إلى ما يقدر بـ ٣٤٨,٥٠ ملياراً عام ١٩٩١، وأن الدين القومي الأميركي بلغ ٣,٥ تريليون دولار، أي ثلاثة أضعاف ونصف ضعف ما كان عليه قبل عشر سنوات^(٥١). ما كان ذلك ممكناً من غير أن تغرق الولايات المتحدة في ركود اقتصادي أخطر بكثير من ذلك الذي كانت تعيشه. لم يعد الاقتصاد الأميركي يتمتع بالموارد الكافية لخوض مغامرات كبيرة في الخارج. فهو يشهد منذ فترة طويلة، بحسب بعض المحللين، انحداراً حاداً تبعاً للمقاييس العالمية، وهذا الانحدار ما زال مستمراً بقوة^(٥٢).

لا شك أن طرفاً آخر كان يرغب في تمويل الجهود الحربية في الخليج وإمداد الجيش الأميركي بالدعم اللوجستي الضروري لحرب التكنولوجيا المتطورة هذه القليلة الإصابات والمرتفعة الكلفة، وهي الحرب الوحيدة التي يحسن خوضها. قدمت اليابان وألمانيا بتردد وبعد ضغوطات كثيرة عليهما مساهمة بقيمة ثلاثة مليارات دولار في الجهود العسكرية^(٥٣). وبذلك بقيت حصّة الأسد من النفقات، وقدرها ٥٢ ملياراً، لتسهم بها دول عربية أخرى بحماس وعن طيب خاطر. أمنت السعودية بصورة خاصة الجزء الأكبر من المال، مستخدمة دخلها النفطي الواسع، فاشتريت خدمات أكبر جيش في العالم، تماماً مثلما تشتري عملياً كل ما تستهلك (باستثناء الدين).

من هذا المنظار المختلف لحرب الخليج، يمكننا أن نوافق البدوي الرأي بأن النفط العربي كان حقاً «محورها الرئيسي».

٨ - الامبريالية الثقافية

كان إدوار سعيد من أوائل المثقفين العرب البارزين الذين أبدوا ردة فعل علنية على الوضع الجديد الذي أنشأه صدام حسين. ويبدو أن ردة فعله كانت غريزية - ردة فعل «من الأعماق العفوية» على الأزمة، جاءت متناغمة، حسبما كان متوقفاً، مع وجهة نظر عالمية عرضها في كتيبه العديدة الكثيرة الرواج. كتب سعيد في صحيفة «ذي أنديبندنت» (لندن) بعد عشرة أيام من اجتياح الكويت، غير منطرق إلى صدام حسين، مركزاً مقالته على الذنب الغربي: «أمن المبالغ فيه ربط الإستقطاب السياسي والعسكري المتصلب [التعاضد في الخليج] بالهاوية الثقافية القائمة بين العرب والغرب؟»^(٥٤).

رددت عليه في ذلك الوقت فكبت سائلاً «ما هذا الذنب الغربي؟ المسألة ليست مسألة تأميم قناة السويس، بل ضم دولة عربية لدولة أخرى قسراً. إنه صدام حسين، وليس جمال عبد الناصر. هل يرضى إدوارد سعيد أن يصبح مؤسس الجمهورية البعثية ومخلوقها محور كل السياسة العربية؟ هل يعتقد جدياً أن الفلسطينيين كانوا تمكنوا عندها من التفاوض مع إسرائيل من موقع قوة (ليس قوتهم الخاصة بالطبع، بل قوة صدام حسين؟)»^(٥٥). ومضى سعيد في مقالته مشدداً على سكان الكويت «غير الكويتيين بغالبيتهم الساحقة»، مبرزاً واقعاً ذا مغزى على ما يظهر وهو انه «مع بعض الاستثناءات فإن حكومات المنطقة لا تتمتع سوى بقدر ضئيل من الشرعية التاريخية. إنها استمدت وضعها الشرعي من الاستعمار، ومن القوة، أو من مجرد اتباع السلطة»^(٥٦).

غير أن «التاريخ» هو بالضبط ما يستخدمه زعماء مثل صدام حسين لتبرير أفعالهم الفظيعة. كما أن «الشرعية التاريخية» (أو غيابها) تمثل في الوقت ذاته تبريراً للقضاء على النظام الحديث السائد في الدول العربية. فالكويت من وجهة النظر هذه لا تختلف عن الأردن، أو سوريا، أو لبنان، أو العراق نفسه. لماذا لم يستطع رجال صدام حسين العثور على كويتي واحد يشارك في الحكومة الدمية التي ظلّ يدعي قيامها لبضعة أيام؟

إن مرور الوقت، وتطور آليات الدولة، وإصدار جوازات السفر، ونمو بضعة أجيال داخل كيان يدعي الكويت (مهما كان مصطنعاً، من المنظور التاريخي)، كل هذا له معنى في نهاية الأمر. ما كان على المحك في عمليات الجيش العراقي في الكويت هو السياسة، لا التاريخ.

غير أن الموضوع الرئيسي في ردّ فعل سعيد الأوّل هذا على أزمة الخليج كان الثقافة وليس التاريخ. وقد اعتبر ان اندلاع أزمة الخليج كشف عن أحكام مسبقة غريبة عميقة الجذور ضدّ الثقافة العربية، تنبعث من تاريخ علاقتها. ولم يكن سعيد المثقف الوحيد الذي شدّد على هذه المسألة. فقد عبّر العديد من المثقفين العرب الواحد تلو الآخر عن الرأي ذاته. اعتبر الروائي اللبناني الياس خوري أنّ أزمة الخليج تمثل «استكمال للمشروع الاستعماري الذي تعرضت له المنطقة منذ سقوط محاولة محمّد علي» لتوحيد العالم العربي. وأبصر «مؤشرات الصلوية الجديدة» تلوح في الأفق، متجذّرة في «عقدة تجاه الشرق» ما زالت متحركة في السيكلوجيا الغربية^(٥٧). وكتب جورج طرايشي عن «أزمة حضارية» تندرج في إطار «تنظيم حملة غزو ثقافي» للعالم العربي^(٥٨). ومن جهته تحدّث أستاذ علم الاجتماع في جامعة تونس الطاهر لبيب بمنتهى الجدية عن ظاهرة جديدة تدعى «البوشية»، لم تعد تكتفي بصون المصالح السياسية والاقتصادية الأميركية، بل تسعى لفرض «طابع التوتاليتارية الكونية» على العالم بطرح نفسها كحكم بين الخير والشرّ «على الصعيد الكوني»^(٥٩). كذلك كتب اليساري العلماني اللبناني فوز طرابلسي عن الجماهير العربية «التي لم تنس أن عدوها الرئيسي هو الولايات المتحدة، بـ «ثقافتها العدائية» و«الازدراء الكبير الذي أظهرته حيال هويتها الدينية والثقافية - الإسلام»^(٦٠). وصدر كتاب يضم مقالات حول حرب الخليج بقلم مجموعة من أشهر الأسماء في الأدب العربي، لكن العنوان الفرعي الذي حملته كان «من الغزو الثقافي إلى حرب الخليج»^(٦١).

كان عبد الرحمن منيف، أحد أبرز الروائيين باللغة العربية اليوم، من المساهمين في هذا الكتاب. حرّز مقالته بعد انقضاء شهر كامل على انتهاء حرب الخليج، وفي حين كانت الانتفاضة ضد نظام بغداد تلقى قمعاً وحشياً، اختار العودة بالزمن إلى الحملات الصليبية والتأمل فيها، فتساءل لماذا ييدي الغرب هذا التصميم الثابت على «معاودة حروبه في هذه المنطقة». والرّد في نظر منيف هو رغبة الغرب في «إلغاء تاريخ المنطقة وحضاراتها وثقافتها ودياناتها». واللافت بصورة خاصة هو مقدار التخيلات التي تُبتدع وتضاف إلى الواقع. هكذا تطوّق منيف إلى نصب جواد سليم التذكاري لثورة ١٩٥٨ الواقع في إحدى ساحات وسط بغداد فكتب انه «من المحتمل أن يكون هذا النصب فجر أو أن تكون قاعدته وحدها متبقية. والأمر ذاته ينطبق على نصب تاريخية عمرها آلاف السنين»^(٦٢). الحقيقة ان شيئاً لم يحصل لهذا النصب ولا لأي نصب تاريخي في العراق نتيجة قصف القوات المتحالفة، غير أن دبابات الحرس الجمهوري التي لم يأت منيف على ذكرها في مقالته، هي التي اتخذت، كما ذكرنا سابقاً، المقامات الدينية والتاريخية أهدافاً

لها وألحقت بها أضراراً جسيمة حين كانت منهمكة بتدمير مناطق سكنية كاملة في البصرة والنجف وكربلاء.

تعود صورة الثقافة العربية التي يفرقها الغرب إلى القلب العاطفي للنموذج القومي (كما تعود إلى قلب النموذج الإسلامي على شكل الخوف من «القيم الغريبة» الغريبة). ومقالة سعيد المنشورة في ١٢ آب/ أغسطس تصوّر بشكل جيد الإطار المشوّه الذي تنظر السياسة القومية العربية الحديثة من خلاله إلى العالم. كذلك يصور «الهاوية الثقافية القائمة بين العرب والغرب» سيل من عناوين كتب عربية، من المفترض أنها لم تلق سوى اعتراف ضئيل في الغرب بسبب عنصرية ملازمة للغرب تجاه العرب. إنّ العنصرية تجاه العرب موجودة بالتأكيد في الغرب (كما توجد العنصرية في كلّ مكان من العالم). والتاريخ الامبراطوري الغربي حدّد أشكال هذه العنصرية. غير أنه يظهر جلياً وبشكل مؤلم أن الثقافة الغربية اليوم (وإن لم يكن خلال تاريخها كله)، هي أكثر تسامحاً بكثير من الثقافة العربية حيال الاختلافات الثقافية والدينية والاثنية. لكنّ سعيد غير مهتم بالعالم العربي كما هو حقاً، فما يهتمّ هو إلقاء اللوم على الغرب للفوضى التي ولّدها صدام حسين. والأسلوب الذي اتبعه للوصول إلى هذا الهدف في مقالة «ذي أندييندنت» بالذات يرسم صورة مثالية عن نهضة أدبية عربية تفصّل بالكتب الجديدة والأفكار الجديدة المثيرة للاهتمام، وكلّها تصطدم بناشرين ورؤساء تحرير ونقاد غربيين عنصريين يتعمّدون استبعادها. هذه الصورة لوضع الثقافة العربية هي بكل بساطة غير صحيحة.

لننظر إلى وضع الكتاب العربي. عام ١٩٨٩ خصصت المجلّة الأسبوعية العربية «شذا» الجزء الأكبر من أحد أعدادها لـ «واقع الكتاب العربي وأزمته». ونشرت المجلة مقابلات أجرتها مع العديد من الناشرين وبائعي الكتب العربية، لتبيّن أسباب الانحطاط العميق في نوعية هذه الكتب الناطقة بالعربية وعددها وتوافرها - انحطاط اتفق الجميع على أنه بلغ حجماً خطيراً. تحدّث رياض الرئيس، الناشر ذاته الذي أصدر الكتاب الذي عنوانه الفرعي «من الغزو الثقافي إلى حرب الخليج»، عن عدد القراء المنخفض نسبياً بين العرب بالمقارنة مع الغرب. ولفتت مي غصوب، مديرة دار الساقى (لندن)، إلى قلة العناوين الجديدة، وإلى المستوى الثقافي المتدني والمراجع للقارئ العربي المتوسط. أما هشام معاوية، صاحب مكتبة ابن سينا العربية في باريس، فأعرب عن اعتقاده بأن المشكلة تعود إلى الطفولة. وأجمع الكلّ، بمن فيهم محرّر المقالة، على أنهم يتناولون مشكلات عميقة الجذور، نشأت في الثقافة العربية نفسها (وليس في علاقتها بالثقافة الغربية).

وفي مقالة هامة نشرتها صحيفة «الحياة» العربية، استعرض اندريه كسبار، مدير دار

«الساقبي»، بالتفصيل المشكلات المحبطة التي واجهها كناشر عربي في الغرب (من المصادفة أن كل دور النشر والمكتبات هذه خارج العالم العربي ظاهرة شهدت الثمانينات، وهي نتيجة انتحار بيروت. وقد حلت أوروبا محل بيروت كجثة للكتب الجيدة النوعية بالعربية حول الشرق الأوسط)^(٦٣). ذكر كسبار مشكلات مرتبطة برقابة الدولة وسيطرتها على جميع شبكات التوزيع، وعدم القدرة على الوصول مباشرة إلى القارئ العربي، والقرصنة المتفشية، وظاهرة الناشر الأمي (لا تزال سائدة)، وغياب مفهوم حقوق النشر وحقوق الكاتب المالية أو أية قواعد أخلاقية في إنتاج الكتب العربية، وضرورة أن يضحي كل من الكاتب والناشر بالنوعية للتمكن من نشر أي شيء، الفساد المتشبع بنظام توزيع الكتب، والانحطاط في نوعية الكتاب المتوسط، إلخ... لم يكن من الممكن رسم صورة قائمة أكثر.

لا يخطر أي من هذا لقارئ سعيد، طرايشي، منيف، أو أي من المثقفين العرب البارزين العديدين الآخرين، كما لا يساور أيًا منهم أن كل ذلك يمثل العقبات الهائلة التي تعترض يومياً العرب الذين امتنوا صناعة ثقافتهم الخاصة. عوضاً عن ذلك تقودنا هذه القراءات إلى الاعتقاد بأن كل المشكلات (من سياسة أزمة الخليج إلى الثقافة العربية) ناجمة عن سياسة الغرب القاضية بـ «التقليص المتناسك الأحادي كلما كان العرب والإسلام معنيين»^(٦٤).

وإذ أعكس السؤال البلاغي الذي طرحه سعيد في مقالته حول الترابط بين الحشد العسكري في الخليج و«الهاوية الثقافية القائمة بين العرب والغرب»، اختتم بسؤال خاص بي: هل نبالغ إن ربطنا بين الإستقطاب السياسي والعسكري الشديد الذي ولده صدام حسين والهاوية الثقافية القائمة اليوم داخل العالم العربي نفسه؟ إن أزمة الخليج لم تكشف عن أحكام مسبقة غريبة ضد العالم العربي بقدر ما كشفت عن أزمة عميقة الجذور داخل الثقافة العربية الإسلامية عند هذا المفصل الحاسم من تاريخها.

لقد كتب وليد خالدي عن «فشل النظام السياسي العربي، حيث تطوّر منذ نهاية الحرب العالمية الثانية في كلا المشرق والمغرب، في أن يقترب في أي من الدول السيدة المشاركة فيه من أدنى مستويات المشاركة الفعلية في السلطة والمحاسبة ضمن الحكومة، وبقدر أقل من المؤسسات البرلمانية ذات الإدارة الذاتية العاملة ضمن تشكيلات وقيود ديمقراطية»^(٦٥). لم يعد من الممكن إلقاء مسؤولية هذا الفشل على الغرب أو إسرائيل، كما يحب المثقفون العرب أن يفعلوا. لا يمكن حتى إلقاء هذه المسؤولية على حكام العالم العربي وحدهم أو بشكل رئيسي. فرجال أمثال صدام حسين وحافظ الأسد والملا

وياسر عرفات لا يعرفون كيف يمكن التصرف بصورة مختلفة. إنهم ابتكارات خالصة للثقافة السياسية العربية الحديثة، التي فشلت حتى الآن في إنتاج شيء أفضل. والمشكلة الأعمق لا تكمن في سيكولوجيتهم بل في العدسات المشوهة التي كان ينظر إليهم عبرها المصدر الحقيقي للفشل في الثقافة - المثقفون العرب الحديثون.

كنت في الواقع أحاول أن أثبت أن لغة حقوق الإنسان ولغة القومية العربية أو الإسلام السياسي أصبحتا متضاربتين تماماً. هذا لا يعني أنه لا توجد أشكال معتدلة من القومية، أو أنه من الصفات الملازمة للإسلام مقاومته التعايش مع سياسة تقوم على حقوق الإنسان. فالإسلام لا يختلف عن أية ديانة أخرى في العالم، من حيث قدرته على التأقلم مع سياسة تقوم على حقوق الإنسان، والقومية العربية يمكن أن تكون مرنة أو «قابلة لإعادة التفسير» مثل أي إيديولوجيا أخرى.

المشكلة هي أن أيًا من القومية والإسلام السياسي في تطبيقاتهما الحالية، ليس مجهزاً فكرياً لإحداث انطلاقة ثقافية جديدة في سياسة المنطقة. فشلها الأكبر، كما أراه، هو أنهما لم يتمكنا من تطوير لغة حقوق مقنعة فعلاً في السياسة. كلاهما بات متحجراً، رجعيًا، مسترسلاً في رومنسية «نضال» تؤدي إلى العنف. هذه اللغة هي اليوم محتشدة أمام جدار من الآلام والمعاناة التي أنزلها العرب بأنفسهم. ولا يمكن لبداية جديدة أن تنطلق سوى من وقائع هذه المعاناة القاسية، وموجة عربية جامحة في اشمئزازها من الوحشية في البيت العربي وفي الشارع العربي، موجة ترى في شخص مثل صدام حسين مصدر الوحشية وليس مصدر القوة العربية.

لم تكن تغطية وحشية النظام العراقي خلال أزمة الخليج مجرد «خطأ صغير» اقترفته حفنة من الأشخاص المضللين، بل كانت فشلاً متجذراً ينبغي الإقرار به إن كنا نرغب ببداية جديدة. فإن كان العرب يريدون وضع حد لدوامات العنف وهدر الدماء وفقدان الأمل فاليأس، عليهم أن ينظروا إلى الداخل - وليس إلى الخارج، إلى الغرب - ويدركوا أنهم يتحملون الجزء الأكبر من المسؤولية عن عالمهم البائس. وبعبارة أكثر تحديداً، لن يكون أي فكر سياسي جديراً بأن يطرح في المستقبل إن لم يكن محوره أشخاص أمثال خليل وأبي حيدر وعمر ومصطفى وتيمور.

٩ - مشاهد من القسوة والصمت

تعتبر قصص خليل وأبي حيدر وعمر ومصطفى وتيمور، من قبل البعض، بمثابة إغافات غريبة عن سياق التاريخ العربي الحديث. والمرء ليتعاطف مع حالة الضحايا، غير يس هناك أي شيء في أي من القصص يمكن أن يؤثر عموماً في بقية العالم العربي. الممكن إذا القول، «لم نكن نعرف» أو حتى، «لم يكن ممكناً لنا أن نعرف».

كان العراق في النهاية بلداً مغلقاً جداً. بعض الأصدقاء العرب، الذين يوافقون على موراً فضيحة حدثت في العراق، يستسلمون لتفسير يتعلق بحالة مرضية عراقية وطنية، ية فريدة من نوعها يفترض انها موجودة على الدوام، للاستسلام لحكم متسلط بدادي. ومن هنا فإن بقية العالم العربي، بحسب وجهة نظرهم، لا يمكن أن يعتبر أولاً عما جرى في العراق.

تعتذر الدفاع عن ذلك الموقف لأسباب مختلفة. بداية، منذ أواخر الستينات تفشت قوة في كل بلدان المشرق التي عاشت تجارب الحروب، والحروب الأهلية، احتلالات، وأشكال العقاب الجماعي، والمنظمات الميليشياوية المسلحة، والعمليات مائية، والانتفاضات، والترحيل الجماعي، ويروقراطيات الإدارات الحكومية الواسعة شار التي تعتبر التعذيب بمثابة قاعدة. لا أقول هذا لإنكار فرادة التجربة العراقية، في نيتي بالتأكيد نزع العباء العاطفي لتلك الفرادة. بل على العكس، إذ فقط عبر نة بين البلدان يمكننا أن نفهم بالتحديد ما هو استثنائي في ما جرى في العراق. تناول نفسه، فإن تلك المقارنة سوف تسمح لنا أن نفهم ما هو، على سبيل المثال، س بالقسوة اللبنانية والفلسطينية والسورية.

كان العنف ينتشر داخل كل من البلدان العربية ليورط أعداداً أكبر وأكبر من الناس. عظم من ذلك، انتقاله من بلد إلى آخر. لم يعد العنف يهدد الأقليات الدينية والإثنية

فقط، بل أصبحت اليوم الأكرليات الدينية (الشيعية في العراق والسنة في سوريا) تشعر بأنها مهددة أكثر من أي وقت مضى، وهي ترد على ما تتعرض له بالمثل. الوطنية الفلسطينية صيغت وتشكلت، مجروحة ودفاعية على نحو ما نرى اليوم، في سياق الإنكار الصهيوني المستمر لها. وكلما هوجمت بشكل أعنف، باتت أقوى وأكثر نكوصاً. كل هذا طبيعي تماماً، وهو ردة فعل بشرية على إنكار الهوية بواسطة العدوان. هناك أيضاً لسوء الحظ أرض خصبة للتعصب القومي والديني والإثني، المصحوبة كلها بهشاشة الروابط داخل الدولة والولاءات والانتماءات. ووحدة العراق اليوم، مثل لبنان في الأمس، مهددة بهذه القوى.

إن منطق العنف الذي تصاعد لولياً في الشرق الأوسط خلال السنوات الماضية هو سبب ونتيجة معاً للعجز المتزايد لدى الأفراد والمجموعات السياسية عن ترسيخ هوية لأنفسهم، هوية لا تكون حبيسة حركتها، ولا تكون في أساسها معادية للآخرين.

ولكن هل ينطوي ذلك على أن هناك فرادة عربية، أو حالة مرضية «قومية»، في ما يتصل بالعنف والقسوة؟ هذه الفكرة أقل وجاهة حتى من تلك التي تحدثت عن ميل عند العراقيين نحو العنف. والحق أن هنالك، في النهاية، تجانساً أقل بين التجارب داخل كامل العالم العربي، مما داخل حدود العراق. فالأمر الأهم بشأن العنف المأسس في العراق، مقارنة مثلاً بالفوضى السياسية والاجتماعية اللبنانية، هو كم أن أحدهما مختلف عن الآخر، وليس شبيهاً به. والأمر الأشد إثارة للانتباه في شأن العنف والقسوة العريين هو الأشكال العديدة التي يتخذانهما، والتواتر الذي يخضعان له، والذي يعلان من خلاله، والقوى التي تجعلهما يتقلصان، أو ينفجران بجنون في لحظة معينة على المسرح الشعبي. ففي الشرق الأوسط، جنح العنف إلى أن يصير معتقداً يملأ الحيز العام، وملاحظة كهذه ليست بالضرورة إنتقاداً لميل العالم العربي نحو العنف والقسوة بالمقارنة مع بعض الأجزاء الأخرى من العالم. فمن الواضح أن هناك عنفاً في كل مكان في العالم. وهدف أي مقارنة هو على الدوام الوصول إلى ما هو على بساط البحث. أما هدفي هنا فيمتحور حول السؤال التالي: هل القسوة في خط متصاعد داخل العالم العربي، منظوراً إليه كإقليم واحد؟

المشكلة الأولى في الإجابة عن هذا السؤال هي عدم وجود توثيق وافٍ. التقارير التي تنشرها منظمات مثل منظمة العفو الدولية و«هيومان رايتس واتش» تشير إلى أن هناك تصاعداً في درجات التعدي على حقوق الإنسان في الشرق الأوسط. غير أن هاتين المنظمتين نظرتهمما جزئية، وعموماً غير وافية في وصف المقياس العام لما يجري يومياً.

والأهم من ذلك، أن التقارير لا تعدّها منظمات عربية، هي في موضع من يمكن له الحصول على معلومات أكثر تفصيلاً. وهكذا يمكن بسهولة أن تواجه هذه المعلومات بلا مبالاة من قبل القوميين، والمعادين للامبريالية، والمتقنين المسلمين، وحتى منظمات الجاليات العربية في الغرب، التي، في المقابل، تعتبر استخدام هذه المعلومات، دليل على مدى رغبة العالم الخارجي بنقد العالم العربي^(١).

يمكن أن يظهر تفاقم القسوة فقط حين نصبح في الواقع أكثر إدراكاً ووعياً لها. إن شيئاً كهذا يحدث الآن في العراق. إننا نكتشف يوماً معلومات جديدة عن فظاعات ماضية. ومهما كانت صعوبة ذلك، يجب أن لا ندع تلك المعلومات الجديدة تطفئ على حكمنا على ما يجري في العراق اليوم وما الذي سوف يحدث غداً. فالوحشية تظهر على سبيل المثال بشكل متفاقم كأحد مواضيع الأدب العربي الجديد (غالباً في الروايات التي تكتبها نساء عربيات، خصوصاً النساء اللبنانيات)^(٢). حقيقة أننا نعرف أشياء أكثر عن الفظائع التي حدثت في الماضي، وهناك بشكل خاص مجموعة من الكاتبات يتحدثن عن ذلك، وهو أمر جيد عموماً. غير أنه من الوجهة السلبي لتلك الموازنة النهائية يبرز السؤال التالي: هل كان في إمكان الدولة العراقية أن تقتل تلك الأعداد الكبيرة من الأكراد كما كانت فعلت طوال الثمانينات، لو لم يكن قد تشكل في معظم بلدان المشرق مناخ عميق التجذّر من إنعدام الحساسية؟ لماذا ليست هناك بعد دراسة واضحة عن الحرب الأهلية في لبنان مكتوبة باللغة العربية؟ ولماذا ليست هناك واحدة عن الجزيرة السورية في حماه عام ١٩٨٢ والتي قضى فيها ربما ما بين العشرة آلاف والأربعين ألف شخص؟^(٣).

إن الإنتلجنسيا تستدخل فيها حالة عالمها، سواء بنحو يبيّن أو مضمر؛ وتنتهي لغتها بهيئته سواء رفضته أم قبلت به. والتكيف المتزايد مع الوحشية يصبح، في المدى الطويل، خطيراً كالوحشية ذاتها. فلو استطاعت التيارات الفكرية العربية المسيطرة أن تنجح في مشروعها سنة ١٩٩٠ - ١٩٩١، لكان العالم العربي اليوم سيواجه بالتأكيد صدام حسين أقوى يعدّ العدة، بعدما هضم الكويت، لمهاجمة بلد عربي آخر. ما الذي منع إبان حرب الخليج كل المثقفين العرب تقريباً من التساؤل في شأن العواقب التي يمكن أن تتأثّر على العرب الآخرين، إن قُدّر للبعث العراقي أن ينجح في ابتلاع الكويت؟

فالوحشيات الكابوسية التي أصبحت قاعدة داخل العراق كانت تستصدر مرة جديدة إلى خارجه. وكم من الأشخاص الإضافيين مثل خليل وأبي حيدر وعمر ومصطفى

وتيمور، كانوا سيعيشون تحت الاحتلال، ويُذَلَّون، ويُعَذَّبون، ويقتلون ويقصفون بالقنابل الكيميائية؟ إن كيل التهم للغرب وعدم المبالاة إزاء القسوة هما في هذا المنظار مظهران مشابهان لمنطق الرفض وعدم الرغبة في مواجهة المرء عواقب كلامه هو بالذات.

لا أستطيع أن «أثبت» ان القسوة تتفاقم في المشرق. غير اني أظن انها أصبحت «إعتيادية» جداً، ومقبولة لدى المثقفين العرب، خصوصاً لدى أولئك المقيمين في الغرب، لكنهم الأكثر غربة عنه، ولأجل هذا كان هذا الكتاب. ما سيلي منه سيكون رحلة وجيزة عبر المشاهد المنسية للقسوة والصمت في العالم العربي، إذ يوماً ما ستكون مواجهتها على نحو صحيح ممكنة. وهذه الرحلة ليست بديلاً عن التوصل إلى فهم عميق لظاهرة القسوة المتصاعدة في الشرق الأوسط. إنها مجرد رسة أولية مرسومة بضربات ريشة عريضة وسريعة. قد يعترض البعض ويقول إن رسم هذه الصور ليس بالفكرة الحسنة، بغض النظر عما إذا كان حقيقة أم لا. لكن، من جهة أخرى، تنمو القسوة وتزدهر في الظلمة، ومن أجل التخلص منها وإبعادها، يتوجب على المرء أن يسلط عليها أقوى الأنواء سطوعاً.

القسوة والمرأة العربية

هناك وجهان للقسوة: وجه عام، ووجه خاص. حتى عندما تنفّذ القسوة الجسدية علانية - سواء كانت، على سبيل المثال، موجّهة من جهاز الدولة، أو من قبل حشود ثائرة - فإنه يسبقها زمنياً شبكة من الافتراضات الأخلاقية الخاصة، هي التي تجعل الإعتداء ممكناً. وانطلاقاً من وجهة النظر هذه، فإن تقصّي القسوة في العالم العربي ينبغي أن يبدأ من هدفها بأشمل معاني الكلمة، أي: المرأة العربية.

عزيز صالح أحمد هو إسم مكتوب على بطاقة تعريف قياسها ٣ X ٦ إنشات، حصلت عليها بواسطة الفاكس أولاً في صيف ١٩٩١. كان من الصعب قراءتها في بداية الأمر كونها صورة لفاكس مأخوذة عن فاكس آخر. هذه السلسلة كانت بدايتها في المبنى المركزي لقيادة الأمن في السلیمانية.

كان أحمد شرطياً، موظفاً في مؤسسة الأمن العام في العراق. وفي ما يأتي صورة طبق الأصل عن تدوينات البطاقة (مع التدوينات المكتوبة بخط اليد الظاهر في حروف طباعية مائلة):

نموذج رقم (٣) أمن العام

القيود السرية

بطاقة فهرست عام

الشهره

ملف رقم ٤٣٣٠٤

الاسم الثلاثي: عزيز صالح أحمد

تاريخ الميلاد: [تركت فارغة]

المهنة: مقاتل في الجيش الشعبي

نشاطه: الاعتداء على شرف النساء

السيد عزيز صالح أحمد موظف مدني يدفع له راتب شهري ليغتصب نساء عراقيات^(٤).

إن بربرية دولة تستخدم أناساً كمغتصبين، وما يجري في ذهن رجل مثل عزيز أحمد هما سؤالان هامان، غير أن ما يهمني في الوقت الحاضر هو ما تبثنا به وثيقة من هذا النوع.

فممارسة الاغتصاب كانت منتشرة بشكل كبير، حتى يُعمل على إصدار بطاقات كهذه. وعندما جرى اقتحام سجون المخابرات والجيش إبان انتفاضة آذار/ مارس ١٩٩١ أُطلق سراح أعداد كبيرة من النساء مع أطفال كن ولدنهن في السجن^(٥). ويبدو أن كلاً من السجون الرئيسية كان يحتوي على غرفة للاغتصاب جهزت خصيصاً لهذا الغرض (كانت إحداها مليئة بصور بورنوغرافية من النوع الخفيف ملصقة على الحائط المواجه). في الكويت المحتل، روي لي انه داخل مركز للإغتصاب كان مقاماً في الشويخ، ومدهوناً باللون الأخضر الزيتوني كتبت بالدم على الجدران عبارة «حرروا فلسطين»^(٦). الأطفال الذين ولدوا ضحايا عمليات الإغتصاب تلك انتهى بهم الأمر في ميم دار الطفولة في ضواحي العاصمة الكويتية، فيما تُقدّم أيضاً استشارات طبية خاصة لضحايا الإغتصاب - من الرجال والنساء - في عيادة الراجعي، والتي أسسها مؤخراً الدكتور رحمن العصفور لهذا السبب بالذات^(٧).

ومن بين القصص التي سمعتها وأنا في العراق، والتي ما فتئت تتسرّب منذ اندلاع حرب الخليج وتشيع حيثما يحلّ اللاجئون، يتبيّن من غير شك أن الإغتصاب «الرسمي»

كان منتشرأ في العراق، وربما أيضاً خارج إطار السيطرة، ومن دون أي نوع من الكبح^(٨). فكيف في وسع الدولة أن تفلت من فعلة شنيعة كهذه؟ إن الجواب لسوء الحظ لا يكمن فقط في قذارة صدام حسين، وهو ما يود كل العراقيين - بمن فيهم أنا - أن يصدقه، بل في الزواج بين ذلك النوع من البشر الذي يمثله، وأحد أقدم إدعاءات الهوية الثقافية العربية، والذي تعبّر عنه كلمات هذه الجملة: «الاعتداء على شرف النساء». إن أرباب عمل عزيز أحمد يتتهكون شيئاً يصفونه رسمياً بأنه «الشرف».

إن الثقافة العربية الإسلامية ترى شرف العائلة في أجساد نسوتها وفي عذريتهن بالدرجة الأولى، وأيضاً في الملابس التي يرتدينها، وفي إحشام تصرفاتهن. ويكتسب الحجاب أهميته في الثقافة لأنه يمثل رمزاً حماية للشرف من أنظار العامة، وبالتالي يعمل ظاهرياً على تعزيزه. هذا كان الدافع لفتوى الخميني بارتداء الحجاب وذلك في السنة الأولى من ثورة إيران الإسلامية. وعندما يمزق عزيز صالح أحمد «حجاب» امرأة عربية أو كردية ويعتدي عليها جنسياً، يكون في الواقع قد اعتدى على أقدم أقدم شرف العائلة بأكملها. إنهم لا يدفعون له أجراً كي يشبع رغباته الجنسية الخاصة، أو لمهاجمة ضحاياه كونهم أشخاصاً منفردين (لاستخراج معلومات منهم على سبيل المثال)، إنهم يدفعون له أجراً لكي يلحق العار باسم عائلة بأكملها. فضحايا السيد عزيز صالح أحمد لا يملكون حتى شرف انهن اغتصبن لكونهن كائنات حساسة، تملك أفكاراً ومشاعر ومعتقدات خاصة بهن. فهن اغتصبن، في المقابل، كأدوات لتحقيق شرف كيان آخر وكرامته.

ومشاعر العار - بخلاف بالذنب - مرتبطة تقليدياً بالإعتداء على الشرف. ف «إن كان الشعور بالذنب يتعلق بتصرف أدى إلى إيذاء الآخرين»، كما يشرح العالم النفسي روبرت كارين، «فإن العار هو الشعور بأن المرء ليس صالحاً بما فيه الكفاية»^(٩). نموذجياً، العار هو شعور «مماثل للإنكشاف بشكل مفاجئ في العراء، والرغبة في الاختباء بأي ثمن»، فجأة يوضع لب هوية الشخص الذاتية على المحك، ولكن ليس بالضرورة بسبب شيء ما فعله هو. وفي حين أن الشعور بالذنب حكم تأملي ذاتي متعلق بقصور أخلاقي واضح، فإن العار يتعلق بأحاسيس كالتواطؤ، والقبول، وحكم الآخرين على أخلاقك. «الشعور بالعار هو توقّع التعرض للنقد، ليس بسبب فعلة ارتكبتها المرء، بقدر ما هو بسبب من هو، أو ماذا هو». وهذا النوع من الإحساس الباعث على الوهن والضعف لدى أقرب أنساب الضحية هو ما يعول عليه أرباب عمل السيد عزيز صالح أحمد. وإنطلاقاً من هذا فإن بذور الفكرة غير القابلة للتصوّر (استخدام موظفين مدنيين كمغتصبين) مزروعة بالدرجة الأولى هنا: في تنظيم المجتمع التقليدي حول مبادئ الشرف والعار^(١٠).

«كسر عين أحدهم»، هو تعبير بدوي قديم، تحوّل إلى سياسة للدولة في العراق، من خلال توظيف مفتصين أمثال عزيز صالح أحمد. كان التكريتيون مشهورين أيام الحكم العثماني بالطريقة التي «يكسرون بها عين» أي حاكم غير تكريتي تفرضه عليهم الحكومة المركزية. كان الحاكم المعين حديثاً يدعى مع زوجته وأولاده إلى حفل استقبال في منزل الوجيه المحلي. في طريق العودة، تتعرض المجموعة لكمين أعدته بضعة من الرجال المقنعين والمسلّحين. وكان الحاكم يجبر على مشاهدة زوجته وهي تتعرض للإغتصاب من قبل رجال العصابة. بعد ذلك كان الرجال ينزعون أقنعتهم، ويظهرون للحاكم وجوههم، ثم يتوارون في الليل من غير أن يقتلوا أحداً، لكن لا يعود بوسع ذلك الحاكم أن يدير شؤون تكريت.

خلال أواخر السبعينات كسرت أعين أشهر عائلات بغداد الارستقراطية، وقام بذلك حكام البعث الجدد الحديثو النعمة، على الرغم من أنه لم يعد لتلك العائلات، منذ زمن بعيد، أي تأثير سياسي، أو حتى قوة اقتصادية في البلاد. جرى اختطاف فتيات شابات من تلك العائلات من الشوارع وهُنَّ في طريقهن ذهاباً أو إياباً من أندية بغداد المشهورة. كن يتوارين طوال بضعة أسابيع ثم يظهرن من جديد. وكان الجميع يدرك ماذا حلَّ بهنّ، غير أن أحداً ما كان يجرؤ (أو يرغب) في التحدث علناً يتعلق بذلك. (حدث ذلك لعائلات سنّية وشيعيّة على حدّ سواء. وكانت مستهدفة بشكل خاص تلك العائلات السنّية المدنيّة الشهيرة التي بنت العراق الحديث ولم تكن من تكريت)^(١١). ينبغي على المرء أن يتذكر في هذا السياق ذلك العمل الشيطاني الذي قام به الجيش العراقي في مخيم غشتابا للتوطين بجنوب أربيل عام ١٩٨٢. فتلك المفاصد التي فرضت على نسوة غشتابا من قبل الجيش الذي كان يحاصرهنّ، وطوال عشر سنوات، كان هدفها الأساسي الرمز الأعظم للشرف الكردي القومي، وهو اسم البرزاني^(١٢).

إن القسوة السياسية تبدأ عموماً في البيت. وإحدى الطرق الموصلة إلى هذه القسوة تمر عبر العار، الذي تذهب الأبحاث الجارية الآن إلى اعتباره «عاملاً هاماً في الاعتداء»^(١٣). أمل مصيرائي فتاة فلسطينية من الرملة في السادسة عشرة من عمرها، ضربها شقيقها حتى الموت في شتاء ١٩٩١ بعد أن ملأه شعور بالعار لكونها تقيم علاقة مع رجل. ثم ألقى جسدها المسحوق والمشوّه خارج كيبوتز غان شمول ليبدو الأمر وكأنّ يهودياً قتلها. سارة أبو غّنام وهي ابنة عائلة معروفة جداً في الرملة، تجرأت على الوقوع في غرام عربي «أسود»، ما اعتبر غير مناسب «لشرف العائلة». جرى تزويجها بسرعة إلى ابن عمها. وجدت جثتها في بئر عميقة داخل بستان حمضيات قرب ريشون ليزيون وهي ضاحية في تل أبيب. كان القاتل زوجها الجديد^(١٤). في كل أنحاء المشرق

وحول المتوسط (شمالاً وجنوباً) هنالك نسوة مثل أمل وسارة، يتعرضن للضرب، والوحشية، والقتل في معظم الأحيان، من أجل المحافظة على «شرف» عائلاتهن. وذلك الشرف تصل أهميته أحياناً إلى درجة أن الأمهات والجذات يصبحن كذلك مشاركات فاعلات، إذ يقمن بحث رجال العائلة على قتل بناتهن بالذات. مي، وهي امرأة فلسطينية شابة عضو في «الفنار» (منظمة نسائية عربية)، كانت تظاهرت مرات خارج مركز شرطة الرملة، وكترست نفسها لكشف هذا النوع من العنف للعيان، وتعرضت هي نفسها للضرب عدة مرات: «قتلت جدتي بسبب شرف العائلة منذ خمس عشرة سنة، ومنذ أن ولدت لا تتوقف أُمِّي عن تحذيري بأن مصيري سيكون كمصير جدتي»^(١٥).

لقد جرى الإستيلاء على وثائق أخرى من مراكز الشرطة العراقية أظهرت بالتدريج أن تقاليد الشرف والعار، تلك بالذات التي أدت إلى جرمي القتل المذكورتين، وضعت في الخدمة «العامة» في عراق صدام حسين، الذي ناصره العديد من المثقفين العرب خلال أزمة الخليج اعتقاداً منهم انه سيسترد «الشرف» العربي في الصراع مع إسرائيل. فعلى سبيل المثال، تظهر إحدى الوثائق التي استولى عليها الحزب الشيوعي العراقي في بلدة شقلاوة، أن شرطة بغداد كانت تضع كاميرات فيديو في متاجر بيع وخياطة الملابس التي تردد إليها النساء الثريات. إحدى السيدات كان اسمها مكتوباً على الوثيقة، وكانت قد صوّرت وهي تقوم بنزع ثيابها لتجرب ثوباً جديداً. كان الفيلم يستخدم لإبتيزازها كي تعمل كمخبرة لدى البوليس (أخبرتني فتاة شابة من منطقة ملاصقة لبغداد أنها كانت تفترض منذ سنوات أنه كانت توجد كاميرات من ذلك النوع في المراحض العامة، ولهذا لم تكن لا هي ولا رفيقاتها تستخدمها البتة)^(١٦). في هذه الحالة فقط قبلت المرأة العمل لصالح البوليس. لماذا؟ من الذي كان يخيفها أكثر، زوجها، أم المخابرات العراقية؟ من الواضح أنه كان زوجها، وإلا لما تكبدت الشرطة مشقة تسجيل مشهد خلعهام لملابسها. إن أزواجاً مثل هذا هم، إذن، عن عمد أو غير عمد، متورطون، كما المخابرات العراقية، في تحويل النساء في العراق ضحايا.

وثيقة أخرى رأيتهما في السليمانية تكشف حالة ممرضة موظفة لدى المخابرات. كانت هذه تقود شبكة كاملة من النساء «العذراوات»، كن جميعهن قد عملن مع المخابرات تحت تهديد الإبتيزاز، وذلك بعد أن قُدمت لهن التطمينات بأن تلك الممرضة سوف تخطين لهن مجدداً غشاء بكارتهن ليستعدن عذريتهن. ويبدو واضحاً أن الخوف من أن تكتشف عائلاتهن أمرهن كان يسيطر عليهن بشكل كبير، إلى درجة انه أجبرهن على التعاون مع الشرطة (ويصدف أنه معروف أيضاً أن الجيش والشرطة الإسرائيليّين يستخدمان تلك المخاوف نفسها عند النساء الفلسطينيات السجينات خلال الإستجواب،

ولكن من دون التمادي واستخدام الوسائل التي يطبقها البوليس العراقي^(١٧). الكاتب العراقي عصام الحفاجي روى قصة مشابهة بعيد زيارته شمال العراق في ١٩٩١:

«كفاح شابة متعلمة بالكاد من المشخاب، وهي بلدة في جنوب بغداد، كمؤتمنة (منخرطة في صفوف الحزب الدنيا) في حزب البعث كانت قد أمرت بأن تتظاهر أنها ممرضة، وأن تتوجه إلى كردستان بعد هزيمة إنتفاضة آذار/مارس. كانت مهمتها اكتساب ثقة أولئك الذين يسيطرون على المنطقة، ومن ثم دعوة عملاء آخرين للإنضمام إليها كعاملين في مجال الصحة. كانوا قد قالوا لها بأن الوجود المسلح الوحيد في كردستان هو لجيش الولايات المتحدة. وحين وجدت نفسها وسط طوفان من الأكراد المسلحين، أصيبت بالذعر واستسلمت على الفور... أخبرني كفاح كيف طوعوها عام ١٩٨٨، ولم يكن قد مضى على زواجها وقت طويل، أوقفها أربعة ضباط من أمن المخابرات كانوا في سيارة، وأمروها بالتوجه معهم للإجابة عن بضعة أسئلة بخصوص زوجها. غير أنهم أخذوها عوض ذلك إلى أحد البساتين، حيث أجبروها على شرب الخمر، ثم اغتصبوها واحداً تلو الآخر. وكان كل ذلك مسجلاً على شريط فيديو. هدها المخبرون بإرسال الشريط إلى زوجها، الذي سيقتلها بالتأكيد. ورأت كفاح انه لا خيار لها إلا التعاون مع إدارة جهاز الأمن. بدأت نشاطها المهني «بتطويع» ثلاث صديقات لها بالطريقة نفسها، وبحجة اصطحابهن لزيارة صديقة ما، ودائماً كان ضباط الأمن في الانتظار»^(١٨).

عندما كنت في شمال العراق، سمعت انه جرى إلقاء القبض على مجموعات من النسوة المخبرات، احتجزهن الأكراد في منطقة زاخو. غير أنه جرى إعدامهن قبل أن تتسنى لي مقابلهن.

إن مبادئ الشرف والعار التقليدية أمنت الظروف المناسبة لتعمل من خلالها سياسة الإغتصاب الرسمية بطريقة فعالة، كوسيلة للسيطرة على كل من المجتمعين الكردي والعربي. لكن تلك الظروف، إن تناولناها على حدة، لا تمثل، بمفردها، إتساع وعمق ظاهرة الإعتداءات الجنسية في العراق الحديث. فالاستخدام الواسع النطاق للإغتصاب رافق تلك الطرق الخاصة التي بموجبها أصبح العراق حديثاً تحت حكم البعث. إنه جزء من الانهيار الشامل للأعراف الاجتماعية، ومن بينها تقاليد مساواة كانت قد قدمت الحماية للمرأة في الماضي (إلى حد ما ومن ضمن دونية النساء للرجال والمفترضة سلفاً). إن التقاليد القبلية المهيمنة لا تزال تشكل رادعاً جزئياً للإعتداءات الجنسية في مجتمعات

أكثر محافظة مثل السعودية والأردن^(١٩)، ويبدو أن هناك مشكلة تواجه الاستطرد في هذه الحجة، وهي أنه لا توجد أية معلومات يعول عليها بشأن ما يجري فعلياً للنساء في مكان كالسعودية، لأن التقاليد الموازية تلقي هي ذاتها غطاءً من الصمت على الموضوع. فهل هناك ما يقارب أو يوازي الحجم نفسه الموجود في العراق البعثي من الاعتداءات الجنسية على الأطفال في السعودية، مثلاً؟ لا أحد يعرف بالتأكيد.

من جهة أخرى، توجد فروقات مهمة في الواقع. روت النساء بسجن جويذة الأردني، أن هناك ركناً في السجن أطلق عليه اسم غرفة الزنى. ويبدو أن للشرطة التي تجوب شوارع عمان الحق بإلقاء القبض على الشابات الأردنيات إن كنَّ بصحبة رجال غير مرتبطين بهنَّ. يصطحب الاثنان إلى مكتب ضابط الصحة، حيث يجري فحص طبي لعذرية الفتاة، فإن كانت غير عذراء يُعلم البوليس على الفور كلا العائلتين، ثم تناقش العائلتان بعدئذ احتمال تزويجهما، فإن رفض الرجل الزواج من المرأة التي كان بصحبته، وبذلك يعرض شرف العائلة للعار، يحكم عليهما ويعاقبا معاً. والعقوبات غير شديدة، إذ يطلق سراح الرجل خلال شهرين. غير أن الفتاة تستبقى إلى ما بعد فترة عقوبتها.

أخبرتني المساعدة الاجتماعية انه خلال فترة عملها هناك كان ما يزيد عن نصف السجينات محجوزاً بغرفة الزنى في سجن جويذة، بالرغم من انهنَّ تجاوزن فترة أحكامهن، وبعضهنَّ كن ما يزلن هناك منذ خمس سنوات. لماذا كانوا يقونهن هناك؟ لأنهنَّ محتاجات للحماية من عائلاتهنَّ بالذات، فالشرطة الأردنية لم تكن مستعدة لتحمل مسؤولية أن يُطلق النار على الفتاة أو تطعن حتى الموت على درجات السجن يوم إطلاق سراحها (وهذا ما حدث كثيراً بالفعل).

في نهاية الأمر تبدأ الشرطة البحث عن أزواج يقبلون الزواج من النساء المحتجزات لديها. والمرشحون لذلك رجال عجائز من قرى بعيدة يبحثون عن فرصة حياة جديدة. وفي حالات أخرى كانت تزوج الفتيات إلى شبان يظهر لاحقاً أنهم قوادون يبحثون عن عاهرات^(٢٠).

من الواضح أن نظام الشرف والعار ناشط في الأردن والمحافظة مثلما هو في العراق «الرايكيالي»، والفرق بينهما هو العلاقة بين السلطة والمجتمع في كل من الحالتين. إن السلطات الأردنية هي في آن معاً شريك في نظام الشرف والعار، وتحاول بشجاعة أن تتوسط لاصلاح ذات البين أو لإيجاد تسوية إن تعذر التوسط. إنها قائمة إذن في مكان ما وسط بين الحالة الفلسطينية (حيث لا تدخّل للدولة) والتطوّر العراقي (استخدام

مفتصبين كموظفين رسميين). غير أن ما يبقى أقل وضوحاً هو القدر الذي يمكن أن تفيد منه النساء من تلك الاختلافات.

فالبعث الثوري يختلف عن الملكية الحاكمة في السعودية، في أنه مَرَق إرباً نسيج التقاليد الاجتماعية الموروثة، ليبعث نوعاً جديداً مشوهاً من الحداثة العراقية، التي لا هي تقليدية، ولا هي حديثة (بمعنى البناء على قيم جديدة للفرد وللجماعة، كما أصبح العرف في الغرب مع حركة التنوير). كيف يمكن أن نقارن المفاصل الجنسية في ظل حكم حزب البعث العراقي، مع ما يجري اليوم في جمهورية إيران الإسلامية؟ ومرة جديدة، نجد أننا لا نعرف. من جهة أخرى، يمكن للمرء أن يستنتج أن بلداً كالعراق تردى فيه كل شيء؛ بات مجتمعه معلقاً في الفراغ، إذ لم يعد يمتلك أية تقاليد حقيقية (إسلامية أو غير ذلك) يستطيع من خلالها أن يحقق راحة مؤقتة، على الأقل. وهذا الاستنتاج ينطوي على معانٍ سياسية هائلة بالنسبة لما ستكون عليه الأمور الآتية في مرحلة ما بعد صدام^(٢١).

إن الإغتصاب كفعل إخضاع واستعباد لمجتمعات بأكملها، يتضمن إذلالاً قومياً متعمداً بهدف القمع والسيطرة الاجتماعية، وهو ما كان غالباً رديف الحروب والإنهيار الاجتماعي. ويبدو على سبيل المثال أنه كان منتشرًا بين بعض المنظمات شبه العسكرية في يوغسلافيا السابقة إبان صيف ١٩٩٢^(٢٢). وقبل نصف قرن، خلال ما دعى باغتصاب نانكينغ، وهي مدينة صينية مسالمة إحتلها الجيش الياباني عام ١٩٣٧، قُدِّر حدوث ٢٠ ألف حادثة إغتصاب خلال الشهر الأول من الإحتلال^(٢٣). وطوال تسعة أشهر من ١٩٧١، وبعد إعلان بنغلادش الاستقلال عن باكستان ودخول فرق الجيش الباكستانية لقمع الثورة، قُدِّرَت جهات موثوقة أن الجنود الباكستانيين اغتصبوا ما بين ٢٠٠ و ٤٠٠ ألف امرأة بنغالية، ٨٠ بالمئة منهم مسلمات:

«بعدما عرف حجم الفظائع التي ارتكبت، عاد أولئك الذين حاولوا إيجاد تفسيرات منطقية أو عسكرية، مراراً وتكراراً إلى اللغز الكامن وراء حدوث تلك الإغتصابات الجماعية. «وهل تتضمن حملة الإرهاب اغتصابات؟»، سأل أوبري ميني سياسياً بنغالياً، لكنه تلقى سؤالاً عكسياً من السياسي: «ما الذي يتحدث عنه الجنود في الثكنات؟ النساء والجنس»، ثم أضاف: «ضع بندق في أيديهم وأطلب منهم أن يخرجوا ويلقوا الرعب في قلوب شعب بأكملهم، وماذا سيكون أول ما يجول في خواطرهم؟... كانت الإغتصابات منظّمة وشاملة إلى الحد الذي لا يمكن أن تكون فيه إلا نتيجة لسياسة واعية طبّقها الجيش، وخطط لها الباكستانيون الغريبيون في سعي منهم متعمد لتوليد عرق جديد، أو لإضعاف القومية البنغالية.

النظرية والحدس عملاً معاً على تفسير هذا الأمر، وكانت الاستنتاجات مرتكزة على الافتراض المغلوط بأن عمليات الإغتصاب الجماعي في بنغلادش جريمة بلا سابقة في التاريخ الحديث.

لكن الإغتصاب الجماعي لبنغلادش لم يكن فريداً من نوعه. إذ أن عدد الإغتصابات بالنسبة للفرد الواحد... لم يكن أكبر من حوادث الاغتصاب... في مدينة نانكينغ عام ١٩٣٧، وليست النسبة للفرد الواحد أكبر من مجموع حوادث الإغتصاب في بلجيكا وفرنسا عندما تقدّم الجيش الألماني غير منضبط خلال أشهر الحرب العالمية الأولى الثلاثة، وليس كذلك أعلى نسبة من الإعتداءات على النسوة في قرى روسيا السوفياتية في الحرب العالمية الثانية^(٢٤).

على أية حال هناك ثمة ما هو فريد في الإغتصاب العراقي «الرسمي». فالمسألة هنا أن الدولة تقوم بشنّ حرب وسخة ضد مواطنيها بالذات، وليس فقط عبر استخدام أسلحة كيميائية ضد القرى الكردية، لكن أيضاً عبر إطلاقها مغتصبين لنساء العراق. غير أن الإغتصاب لم يكن أمراً حلّ بالنساء العراقيات فقط، انه الوجه الآخر لما جرى في الكويت، وهو بمجازية مثلى، صورة عما حلّ بالمجتمع المدني العراقي كله على يد دولته بالذات. ان الإغتصاب هو الشكل الشامل لطريقة عمل حزب البعث في السياسة.

في سياق هذا الموضوع، هل سوف نكتشف أن الإعتداءات على النساء تزايدت خلال القيام بتحديث البلدان العربية والإسلامية الأخرى (حيث تنتشر مبادئ الشرف والعار نفسها على الرغم من التحديث)^٩. فحرب الخليج كشفت عن العنف في العراق، وهذا هو السبب الوحيد الذي جعلنا نعرف ذلك الكتم مما جرى وما يزال يجري منذ السبعينات. وإن كنت قد استخدمت أمثلة فلسطينية، فلسبب وحيد هو انه كان في استطاعة منظمة نسائية إسرائيلية - عربية، هي منظمة «القنار»، أن تكون فاعلة داخل إسرائيل وتقوم بجمع المعلومات ونشرها في الصحافة العربية. فإسرائيل أكثر انفتاحاً من أي بلد آخر في المشرق. وقد كان ذلك الإنفتاح أيضاً سبب الضجيج والسخط العام الذي ظهر بعد نشر كتيب «نساء لنساء سجينات سياسيات - القدس»، في كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٩. فقد جمعت منظمة للنساء الإسرائيليات وثائق عن حالات الإعتداء والاستغلال الجنسي التي تعرّضت لها نسوة فلسطينيات من قبل الشرطة الإسرائيلية (تفتيش وتعريّة أمام العامة، تلميحات جنسية متواصلة، تهديدات بالاغتصاب، استخدام صور فوتوغرافية لضباط من البوليس يغازلون فلسطينيات كوسيلة للضغط وإنتزاع اعترافات والخ...) ^(٢٥). هل يعني توافر هذه المعلومات، وعدم توافرها في

السعودية والأردن، على سبيل المثال، أن الوضع في هذين البلدين العربيين تحديداً، أفضل؟ المشكلة هي أننا لا نزال نجهل إلى أي درجة من سوء وصلت الأمور في هذين البلدين، إذ أن جدار الصمت الهائل، كذلك الموجود في العراق، مرتفع في ما يتعلق بمسألة إساءة التعامل مع النساء. إن الصمت في النهاية هو الذي ابتكر الإغتصاب «الرسمي» داخل العراق.

نعود إلى المعتصب «الرسمي». فأي نوع من الرجال هو عزيز صالح أحمد؟ إن غضباً عميقاً ومريعاً يمسك أجزاء حياة المعتصب العادي المنحرفة. فقد توصلت دراسة أجريت على مجموعة من المعتصمين الأميركيين إلى أن ٨٠ بالمئة منهم تعرضوا وهم أطفالاً لإعتداءات جنسية^(٢٦). وأولئك الرجال كبروا مع إحساس بكونهم شهداء، وأحاسيس أخرى باحتقار الذات، وعدم الثقة، والانعدام الكلي لمشاعر التعاطف مع الآخرين^(٢٧). لماذا يقوم هؤلاء الرجال بعمليات إغتصاب؟ إنهم يختصبون في محاولة منهم مأسوية وضالة، لاسترجاع حد ما من السيطرة على حياتهم المدمرة. حرب العراق - إيران، والحرب الأهلية اللبنانية، ومجزرة حماه سنة ١٩٨٢، وكل أشكال التعصب القومي والطائفي، خلقت العديد من هؤلاء الرجال المنحرفين في الشرق الأوسط^(٢٨). في خان يونس، وهي بلدة في قطاع غزة، قام رجل اكتشف مؤخراً جذوره الإسلامية، باحتجاز شقيقاته الأربع، وقد كان مقتنعاً بأنهن عاهرات. ثم أضرم النار في الغرفة بينما جلس هو في الخارج يتلو مقاطع من القرآن^(٢٩). ثمة احتمال بأن ذلك الرجل كان مختلاً عقلياً. ولكن ما الذي جعل سلوكه الخيل يستخدم تلك الطريقة بالذات للتعبير عن نفسه؟ هذا هو السؤال الاجتماعي والسياسي الموضوع على المحك هنا.

عزيز صالح أحمد، في المقابل، موظف مدني، وهو في أغلب الظن غير مختل. يمكن أن يكون شخصاً عادياً، ورجلاً غير استثنائي، مثل نظرائه في الوظائف الحكومية الأخرى. الدكتور هاريتوس فاتوراس، الذي قضى ١٥ سنة يبحث عن عقول الجلادين الذين خدموا إبان الديكتاتورية اليونانية بين ١٩٦٧ و١٩٧٤، مقتنع اقتناعاً جازماً بأن الجلادين «الجديدين» ينبغي أن يكونوا قد نُظِّموا ودُرِّبوا للقيام بوظيفتهم من خلال عمل نظام سلطة كامل. إن الطاعة للسلطة، لا الدوافع السادية، هي ما يبحث عنه أولئك، الساعون لأن يكونوا جلادين^(٣٠).

خلال عملية الإغتصاب المنظم لأربعين امرأة شابة مسلمة في بلدة توزلا بالبوسنة الهرسك صيف ١٩٩٢، قال رجال القوّات الصربية لضحاياهم إنهم ينفقون أوامر صارمة. أحد المعتصمين اعترف لضحيته بأنه «يخجل من كونه صربياً». على أية حال فقد

نقد هو ورفاقه مهتتهم، مقوّن عزائمهم بتناول حبوب دواء خاص^(٣١). فهل أن المغتصب العراقي «الرسمي»، كانت تقوّي عزيمته الدول العراقية بشكل مشابه كي يتوجّه بعد نهار منهك من العمل إلى زوجته وأولاده، تماماً مثلنا جميعاً؟ إن هذه الفكرة بالذات هي الأكثر رعباً وهي أسوأ من تصوّرنا له بأنه مختلّ عقلياً. من المؤكد أن عزيز صالح أحمد ليس مختلفاً البتة عن الآلاف من الشبان في معظم العالم العربي. وبحسب هاريتوس فاتوراس يمكن أن يكون المغتصب أياً كان، وفي كافة الأحوال من ذا يقول إنه عربي؟ ثمة صديق كردي قال لي ان الاسم كردي^(٣٢). لست متأكداً من الأمر. وفي مطلق الأحوال فإن الرجل المختلّ عقلياً في خان يونس والذي كان يعتقد أنه مسلم صالح حتى وهو يحرق شقيقاته الأربع وهنّ أحياء، يملك قواسم مشتركة مع عزيز صالح أحمد. إنهما معاً مخلوقان مريضان من صنيع قساوة السياسة العربية الحديثة، يعتبران أنهما ينتقمان لذّ ماضٍ، حتى وهما يقومان بتعذيب النساء العربيات والكرديات أو اغتصابهنّ أو الاعتداء عليهنّ.

وبدورهن ليست النسوة أنفسهنّ مخصّصات أو مستثنيات من دؤامة العنف. بحسب ليا تسيمل، وهي محامية إسرائيلية كترست حياتها للنضال من أجل الحقوق الفلسطينية، فإن أحد الأساليب التي كانت تستخدمها النسوة الفلسطينيات لمحاولة الهرب من دائرة الاضطهاد في العائلة، كان ارتكاب جريمة أو فعل شيء ما باسم الإنتفاضة، وذلك من أجل أن يستعدن القبول الاجتماعي الذي كنّ خسرنه نتيجة توكيدهن شخصياتهن الخاصة. على سبيل المثال «كانت هناك ثمة حادثة أجبرت فيها امرأة على الزواج برغم ارادتها. حبلت ولادّت بالفرار. ثم أعادها والدها بالقوّة إلى منزل زوجها. ثم حاولت بعدها أن تحرق باصاً، كان في داخله، بقنبلة مولوتوف. كانت تلك طريقة لوضع حد نهائي لوضعها الذي لم تكن قادرة على تحمّله. لربما كانت تريد أن تموت هي نفسها. كانت تلك طريقة بطولية للخلاص من عائلة قامعة، وهي طريقة يمكن أن تؤمن للمرأة حصانة اجتماعية»^(٣٣).

وفي شريط سينمائي تسجيلي إسرائيلي عرض مؤخراً بعنوان «وراء حجاب الإحتلال»، من إخراج ديفيد بنشترت، تروي فلسطينية شابة من مخيم شاطيء للاجئين، كانت الشرطة الإسرائيلية ألقت القبض عليها لكونها ناشطة في المقاومة، قصة إستثنائية عمّا جرى لها في السجن. كانت وضعت في زنزانة وهي «عارية تماماً»، كما تقول، مع رجل ضخم، خاطبه ضباط الأمن بالعربية من خلف بوابة الزنزانة، وقالوا له إنه حرّ في أن يفعل بها كل ما يشاء. كان الرجل فلسطينياً مثلها وكان دوره في السجن غير محدّد. بعدها راحت تتجادل مع ذلك الرجل، وقالت له: «إن كنت سوف تفصّ

عذرتي، هيا افعلي. سوف لن تأخذ شرفي، وشرف فلسطين معه». ينتهي الفيلم تاركاً السؤال مشرعاً حول ما إذا كان الرجل اعتدى عليها في النهاية أم لا.

إلى جانب تأكيد الاستخدام الواضح والواسع لنظام الشرف العربي، من قبل قوى الأمن الإسرائيلية، لإجبار النسوة العربيات المحتجزات على الإعراف (كما ذكرنا سابقاً)، فإن القصة هذه مهمة ومأسوية مرتين، لأنها تظهر لنا أيضاً الربط في ذهن الضحية ما بين «شرف» فلسطين، وعذرتها هي بالذات. إن نظام التقاليد يظل غير ممسوس، بإستثناء أن موضع الشرف انتقل بالنسبة للمناضلة الضحية من عائلتها، صعوداً ليشمل كل فلسطين والنضال من أجلها. وذلك الإستخدام «الثوري»، هو بطريقة أو بأخرى، خطاب مصقول، وكان شائعاً جداً بين المثقفين العرب الذين ساندوا النظام العراقي إبان أزمة الخليج.

في واحدة من تلك الإستثناءات المنعشة، ولكن النادرة التي تهنا الأمل، يشجب الشاعر الفلسطيني سلمان مصالحة ويعنف فكرة «الشرف العربي الضائع» خلال حرب الخليج، في مقالة حملت ذلك العنوان. وجوهر مناظرته أن العرب بحاجة إلى إخضاع فكرة شرفهم لفكرة حريتهم، وهي حرية «لا تعني فقط حريتي الشخصية، ولكن بشكل أكثر حسماً حرية الآخر»^(٣٤).

وحين تنكشف بلدان عربية أخرى كما انكشف العراق، وتصبح الصحافة العربية منفتحة كمثيلتها الإسرائيلية، أو عندما يصبح المثقفون العرب على استعداد للإعراف بوجود الحوافز القائمة وراء تلك الممارسات وشجبتها عوضاً عن مدحها باعتبارها أفعالاً بطولية من النضال ضد العدو «الصيهوني» أو الامبريالية، قد نكتشف عندها أن أبشع أنواع القسوة في العالم العربي ابتدعها الرجال والأنظمة الأكثر «ثورية»، و«تقدمية»، و«رفضية» و«عداء للامبريالية». فالنسوة اللبنانية مي غصوب حدّدت الأمر كالتالي: «وقد بدا من بالغ السهولة دمج «الامبريالية» بالكفر، أو تعبئة «الجماهير» كي تتأثر من الإهانات التي يقال إن الحضارة الغربية أنزلتها بالهوية الإسلامية... في هذا السياق من المصالحة مع «الداخل» لمواجهة «الخارج» به، لم يوجد ما هو أفضل من حجب النساء عن النشاط العام دلالة على الاستمرارية الثقافية للعالم الإسلامي... فإن صرامة الموقع الذي احتلته وتحتله المرأة ضمن العائلة العربية، كانت ولا تزال، الحرم الأبعد والأوغل الذي تمتلكه الهوية العربية - الإسلامية»^(٣٥).

وكلما كانت تلك الهوية تشعر أنها مهدّدة، كانت تجعل من وضع المرأة حصنها المنيع والأخير. وهكذا يصبح موضع المرأة هو الموضع الذي يسكنه أفضع أنواع القسوة،

والصمت. ذلك هو بالتحديد ما يدور حوله فيض القصص الطالعة من العراق والمتعلقة بالنساء. حتى الأطفال ينالون من الحياة أفضل مما تنال النسوة العرييات. وثمة ناحية تقليدية «خاصة» لتلك الوحشية، وأخرى معاصرة «عامة». ولا شك في أن الاثنتين مترابطتان، غير أنهما منفصلتان نظرياً وينبغي دراستهما إنطلاقاً من هذا. فالقسوة التقليدية تجاه النساء مصدرها على الدوام عجزهن ومكانتهن الثقافية الضعيفة. تقول تمام فحילה وهي مرضة فلسطينية في الثلاثين من عمرها من عكا: «عندما تولد بنت في منزل عربي، إنها الكارثة، فالتمييز يبدأ من لحظة ولادة البنت، والرسالة التي يتم تشريعها لها هي أن جسدها خطيئة. التحريمات تبدأ من الطفولة. يحظر عليها اللعب مع الصبية، وتمنع من ارتداء السراويل القصيرة والجلوس بارتياح. ينبغي أن تكون محتشمة وصامتة كي لا تثير الغرائز الجنسية. إنه خوف فظيع»^(٣٦). وأجساد النساء تعتبر في آن معاً الينبوع الذي يستمد منه كل الشرف، ومصدر الفتنة. لهذا تجدد التقاليد نفسها مهددة جداً باستقلالية المرأة. فعجز النساء هو إذاً المصدر الأساسي لكل القسوة الممارسة ضدهن.

تبدأ القسوة المعاصرة، من ناحية أخرى، حين تفرض نساء كامل وسارة أنفسهن، كما يفعلن الآن في معظم العالم العربي، من خلال تحديد خياراتهن التي تهدد المجتمع التقليدي: يغادرن بيوتهن، يرفضن الانصياع لآبائهن، ويصررن على اختيار أزواجهن، يتزوجن بدافع الحب، ينضممن إلى منظمات سياسية، يقمن بنشاطات اجتماعية، إلى ما هنالك. في العراق لم يكن هناك البتة جنس من المقتصبين أمثال عزيز صالح أحمد قبل أن يتكبرهم حزب البعث. واغتصاب نسوة ناشطات من قبل رجال من أمثال عزيز صالح أحمد - رجال مختلّين ومشوهين لكنهم في الجوهر نوع مستحدث من الرجال خلقهم حزب البعث - هو نوع إضافي جديد من القسوة، وهو يجري على أرضية إتفاق صامت وغير مكتوب بين الثقافة التقليدية العربية ذات السيطرة الذكورية، والحياة العامة «الحديثة»، التي يشكل مثالها الأشد قسوة النظام البعثي في العراق.

فمنذ أن أعلن الجنرال ضياء الحق قانون العقوبات الإسلامي الجديد في باكستان عام ١٩٧٩، والمعروف باسم قانون الحدود، راحت ظاهرة الإغتصاب السياسي إياها تزايد في تلك البلاد. ويقدر أن ٨٠ بالمئة من النساء الباكستانيات اللواتي اعتقلن لدى الشرطة بتهمة الزنى، تعرّضن لاعتداءات جنسية داخل السجن^(٣٧). ويتساءل المرء ان لم تكن تلك الظاهرة تحدث كذلك في جمهورية إيران الإسلامية. وفي الهند عام ١٩٨٦ أشارت صحيفة «تايمز أوف إنديا» في افتتاحيتها إلى ازدياد خطير في حوادث الإعتداء الجنسي للمحتجزات^(٣٨). والأكثر من ذلك، وعلى الرغم من الإهتمام الرسمي ومن أعلى المستويات في الحكومة الهندية، ظهر أن النسوة اللواتي يعملن منظمات اجتماعيات

وفي حقل حقوق الإنسان هنّ الأكثر استهدافاً^(٣٩). فإن كان الوضع على هذه الدرجة من السوء في بلدان كالهند وباكستان، اللّتين تتمتعان نسبياً بدرجة واسعة من الحماية القانونية والحرية السياسية، ماذا بحق الله ينبغي أن يكون عليه الوضع في العالم العربي حيث لا تحكم سوى الأنظمة الاستبدادية والملكيات المتداعية الشائخة؟ لا يمكن أن يتقلّص هذا النوع من القسوة، إلّا عندما ينفسخ ذلك العقد الرهيب ما بين التقاليد والحدّات داخل المجتمع العربي بالذات، وهذا ما تمهّد له نساء عربيات شجاعات مثل أولئك اللواتي أسّسن منظمة «الفنار»^(٤٠).

إن أكثر ما تميّز به القسوة في العالم العربي الحديث يتصل بالدرجة الأولى بالعنف ضد النساء. ذلك ينشأ من الأهمية التي للانقسام الذكري - الانثوي في الثقافة. وفرضيتي هذه تقوم على اعتبار أن تعاضل الوحشية ضد النساء العربيات إنما رافق تحديث العالم العربي. فإن كان هذا صحيحاً، فإنه استنتاج مريب للغاية في تضميناته العامة للمستقبل. لقد ناقشت الفرضية في هذه الصفحات انطلاقاً من الدلائل المحدودة التي توافرت لي، والتي لم أذهب في إثباتها إلى الحد الذي «يتعدى الشك المعقول». فكّم عدد أشباه عزيز صالح أحمد الذين وظّفتهم الحكومة العراقية؟ عشرة؟ مئة؟ الأمر بالكاد يهم، لأنّ عزيز صالح أحمد هو واحد من تلك الاستثناءات غير الاعتيادية التي تلقي الضوء على القاعدة. أما نوع قسوته فهي في العالم العربي رأس الوند المشدود إلى أنواع القسوة الأخرى كلها.

القسوة السياسية

إن الانتقال من القسوة المنزلية إلى القسوة العامة في الشارع، أو الممارسة من قبل الدولة، هو في كل مكان أمر سهل جداً. سوف أبدأ بالإسراف في القسوة أو نسبة ممارسة القسوة بواسطة آلية المراقبة والقمع في الدولة الحديثة، التي نشأت في معظم العالم العربي خلال السبعينات والثمانينات. فالتعذيب يمارس بشكل روتيني وفي طريقة شديدة التعقيد في كل تلك البلدان. في سوريا، على سبيل المثال، جرى تحويل مركز اعتقال في دمشق إلى «مركز أبحاث» من أجل تطوير تقنيات تعذيب جديدة^(٤١). منظمة العفو الدولية سجّلت ممارسة ٣٥ أسلوباً مختلفاً من التعذيب داخل غرف معدّة لذلك خصيصاً ومجهزة. المستهدفون الأساسيون بالتعذيب سنة ١٩٩٠ - ١٩٩١ كانوا أعضاء المنظمات الإسلامية، أو مناوئي سياسة حافظ الأسد خلال حرب الخليج.

واقع الأمر أن التوغل في مستنقع التفاصيل هذه، يحملنا دائماً على الاعتصام بحبل الرضى، عندما يتعلق بالقسوة. فالمرء يعيش خطر الانغماس في المارة، والإشمئزاز، إلى

درجة الرغبة في الإنعزال عن الطريق الذي يسلكه العالم. لكن صورة واحدة غير عادية، على أية حال، يمكن أن تعيد المسألة كلها إلى قلب الضوء وتفصيله.

هذا ما حدث لي عندما تحدثت إلى سعيد، وهو مهندس سوري في أوائل ثلاثيناته، بعد وقت قليل من قيامه بزيارة مسقط رأسه حماه. ففي شباط/فبراير ١٩٨٢ تحولت حماه إلى موضوع لدراسة القسوة، موضوع خصّص بهدف أن يترك إنطباعاً لا يُمحى عند كل السوريين. فقد قتل الجيش السوري خلال فترة أسبوعين عدداً متفاوت بين العشرة آلاف والأربعين ألف شخص من المدينة، وكان ذلك أثناء سحق ما زعمت الحكومة السورية أنه تمرد ألهمته منظمة الإخوان المسلمين. وبقلق كبير مفعم بالهواجس، بعد أن كان أمضى عشر سنوات في الخارج، عاد سعيد إلى مدينة أجداده. كان المكان في ذلك الوقت قد تقلص عدد سكانه ليصبح نصف الـ ٢٥٠ ألفاً الذي كان سابقاً، وذلك بعد فرار العدد الضخم ولجوء الفارين، مثل سعيد، إلى بلدان الخليج والسعودية وأوروبا، أو أميركا. إن صورة نموذجية عن استمرار القسوة، إلى وقت طويل بعد تخثر الدم وانطماره، تحجرت في ذهني من خلال ما قاله سعيد: (٢٢).

«صعقتني الحقيقة عندما ذهبت إلى هناك. قبل تلك الزيارة، كنت مسجوناً داخل مخاوفي. ذلك النوع من الصمت الذي يأمرك بأن لا تفتح فمك، بأن لا تلتقط صوراً فوتوغرافية، وألا تفعل شيئاً، وأن لا تنظر حتى إلى الدمار، لأنك إن وقفت هناك محدقاً، يمكن أن يلقي القبض عليك. كان الناس في حماه مندهلين وفي حال الصدمة. كانت الأولوية الأولى بالنسبة إليهم؛ «لا تفعلوا شيئاً لأنه يمكن أن يحصل أي شيء. نحن نريد فقط أن ننتهي من القصة». تشبه المسألة واحداً أصيب بجرح فبات أوّل ما يهتم به الجميع السبيل إلى وقف النزف.

كانت ردة فعل أهل دمشق الإنكار التام. حتى أن بعضهم ذهب إلى حد القول إن الحمويين كانوا هم المحرضين. واعتبر العديد من المثقفين انهم كانوا يستحقّون ذلك لأنهم كانوا من الإخوان المسلمين، وانهم لو وصلوا إلى السلطة لتخلّفت البلاد كثيراً. شيء مثل الجزائر [وانتخابات ١٩٩٢]. أعتقد أن تسمية الإخوان المسلمين استخدمت كثيراً من قبل أولئك الناس لتبرير ما كانت الحكومة تقوم به. وحتى لو كان هناك حقاً إخوان مسلمون في المدينة، فمن غير المعقول أن يكونوا منظّمين إلى تلك الدرجة. أعرف الكثير من الناس في حماه، قتلوا خلال المجزرة دون أن يكونوا منظّمين من قبل أحد. بدا الأمر وكأن السوريين الآخرين كانوا بعيدين كلياً عما جرى لأهل حماه. وحقيقة أنهم لم يعيشوا ويختبروا الألم

هم أنفسهم جعلتهم أبعد. ذلك الخوف، أو الحس بالإنكار، هو وسيلة سهلة للتهرب من الأمور. عندها لا يعود من الواجب أن يشعروا أنهم مسؤولون عما جرى.

ولمدينة حماه شخصيتها الخاصة. أهلها معروفون بكونهم محافظين، معاندين، وفخورين بأنفسهم. كانوا على الدوام شديدي التماسك القرابي ومفتخرين بمدينتهم. كانت لدينا أحياء مجاورة، وكانت تلك الأحياء كثيرة السخرية من بعضها البعض، ولكن بطرق مهذبة. كانت المدينة مؤلفة أساساً من قسمين: الحي المسيحي مع كنيسة الجميلة جداً، والحي المسلم وهو من حيث أتيت أنا.

عندما عدت إلى سوريا بعد كل تلك السنوات، سافرت متنقلاً في أرجائها ملتقطاً صوراً فوتوغرافية. شعرت كما لو أن كل صورة قطعة صغيرة من الذاكرة المتجلدة القابلة للإنقراض. كل صورة بمثابة إضافة إلى ذكرياتي. لذلك سافرت وتجوّلت في كل الأنحاء. قضيت بعض الوقت في دمشق، ثم سافرت بعيداً إلى الجنوب، وزرت بعض المدن القديمة في الشمال. وأمضيت يوماً كاملاً في حماه.

صدمتي الأولى كانت أهلها. ناسها أكثر من أبيتها، لأنني كنت أتوقع مشاهدة الدمار المادي أولاً. كان الناس يعيشون أمواتاً، كالأشباح. إنهم هم بالذات أولئك الذين كانوا يطفحون بالحياة وبالغبطة، وكانوا عاطفين إلى درجة كبيرة كما أذكرهم قبل ١٩٨٢. كانوا يفضبون في لحظة وفي اللحظة التالية يضمنونك ويقبلونك. غير أنهم باتوا الآن يجزّون أنفسهم جزاً في الشوارع. لم يعد الأولاد يركضون، وكانت وجوههم عديمة الإنفعال وعيونهم بلا عمق وبلا روح.

صدمتي الثانية كانت من رأى الأبنية. كنت قد أخبرتك أن مشاعري كانت مرتبكة بشأن العودة إلى حماه. استطعت الإستمرار عشر سنوات بالذكريات وحدها، من خلال التمسك ببعض الصور. في الواقع كل مرة كنت أجلس وأرسم شيئاً، أجد أنني أرسم حماه بالذات، نواحيها، شوارعها، وتلك العمارات القديمة التي تراودني على الدوام ذكريات عنها شديدة التأثير. هكذا بتّ خائفاً جداً من العودة. لم أكن واثقاً من قدرتي على السيطرة على تلك المشاعر. وفي الوقت نفسه أردت العودة. أحسست أنه كان ينبغي أن أواجه الأمر بشجاعة. لذلك ذهبت لقضاء يوم واحد.

تقع حماه في واد، وهناك ثمة هضبة كان عليك أن تتسلقها لتهبط منها إلى

داخل المدينة. غير أن الأوتوستراد تبدّل مساره الآن فصرت تدور حول الهضبة ولا ترى المدينة التي تظهر فجأة أمامك. أول ما تراه تمثال ضخّم للأسد عند مدخل المدينة. أذكر أنه كان يقف مشرّع الذراعين، كما لو في إيماءة ترحيب. عبرت بالسيارة بين العديد من الأبنية الحجرية والبيضاء اللون الجديدة، كلها شيد بعد المجزرة. لم تعد الأقسام القديمة من المدينة تلقى العناية التي كانت تلقاها في السابق. ثمة تصدعات هنا، وقرميدات ساقطة هناك. لم يعد الناس يتطابقون مع مدينتهم. أعتقد أنهم يريدون فقط محو الذكريات القديمة ببناء عمارات جديدة.

تقدمت في السيارة داخل حيّ الكيلانية، والذي كان في ما مضى مليئاً بالأشجار وأجمل أقسام المدينة. أدركت على الفور أن نهر العاصي الذي كان يجري عبر المدينة توقّف عن الجريان. النواعير لا تدور. كانت في ما مضى خضراء، وهي الآن صفراء اللون عفنة متوقفة داخل نهر جاف ليس فيه سوى بقع مياه راكدة. فكرت، ما الذي يمكن أن أصوّره بكاميرتي؟ التقطت بعض الصور، في أي حال، ولكنني عندما ظهرت الفيلم لاحقاً اكتشفت أن معظم الصور احترقت. أؤكد لك أن حماء أصبحت مدينة أشباح.

وصلت إلى الجسر الذي يعبر بنا إلى داخل الكيلانية. خرجت من السيارة، ونظرت من هناك إلى ما وراء النهر. لم يكن ثمة أي شيء. ثم عاودت النظر لأنني بدأت أرتبك بشأن تحديد موضعي، وصرت أرى الأشياء مزدوجة: صورة كانت تخرج من عيني الداخلية، من ذكرياتي، وأخرى من شيء آخر، جديد كان ماثلاً هناك. ردة فعلي الأولى، كانت أنني أدركت ظهري إلى المكان الذي كان يفترض أن الكيلانية قائمة عليه، وأغلقت عيني. غير أنني في النهاية استدرت مجدداً وفتحتهما. كنت أنظر إلى هضبة جرداء، هي الكيلانية. كان هناك في ما مضى، أمام هذا الموضع بالذات حيث أقف الآن، منظر بانورامي رائع من البيوت القديمة المتلاصقة، مع قباب وممرات وسرايب كانت تؤدي إلى مجتمع كالقلعة من المتاجر والبيوت. كان الناس قد فروا إلى داخل ذلك الحيّ عندما بدأ هجوم الجيش على المدينة. الذي حدث بعدئذ أن الدبابات والمدفعية حاصرت ذلك الحيّ ودترته كلياً ليصبح لا شيء سوى التذكار. لقد سوّه بالأرض كلياً ليصبح تلك الهضبة التي أراها، هضبة جرداء ينبثق منها برج مبني فوق عظام كل أولئك الموتى الذين لا يزالون مطمورين تحت أساساتها. إن ذلك البرج هو فندق الميريديان الجديد.

منتقلين عبر مشاهد القسوة والصمت هذه، نصل إلى السعودية التي توقفت عن الجلد

وتبر الأعضاء وقطع رؤوس الناس علناً طوال عشرة أشهر خلال أزمة الخليج. غير أن ذلك لم يكن بسبب نشوء إهتمام جديد لديها بمسألة حقوق الإنسان. لم يكن السعوديون يودون أن يكشفوا بشكل مباشر وعلني أمام مئات آلاف الأميركيين تفسيرهم الخاص وتطبيقهم للتقليد الإسلامي في ما يتعلق بالعقاب. بعدما غادر الأميركيون، وفي مسعى من السعوديين لتعويض الوقت الضائع، قام هؤلاء بقطع رؤوس ١٦ شخصاً وسط «ساحة السوق» في الرياض، خلال ثلاثة أسابيع من حزيران/يونيو ١٩٩١. كتب مارتين أميس من «الاسوشيتد برس»، إنه «حتى الليبراليون السعوديون، الذين يرغبون بقدر أكبر من الديمقراطية والحرية للنساء، قالوا إنهم يؤيدون العقاب الإسلامي الصارم»^(٤٣). أولئك الليبراليون قالوا إن تلك الأشكال الوحشية من العقاب يقضي بها القرآن ولا تمكن مناقشتها، مهما كانت آراء المرء مفتوحة في المواضيع الأخرى. وبمطلق الأحوال، شعروا أنه من الضروري التحدث بشأن الموضوع لكن بشرط أن تبقى أسماؤهم مجهولة. لقد قامت السعودية في النهاية بطرد ٧٥٠ ألف يمني مسالم ومطيع للقانون خلال فترة ٦ أسابيع في أيلول/سبتمبر وتشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٠، لا لسبب سوى أن الحكومة اليمنية كانت امتنعت عن التصويت لصالح القرار الذي اتخذته اجتماع القمة العربية والقاضي بإرسال جنود للدفاع عن السعودية^(٤٤). كان العديد من أولئك الأشخاص قد عاشوا في السعودية طوال حياتهم. وعلى الرغم من ذلك صودرت مدخراتهم الضئيلة عند الحدود، وتقول منظمة العفو الدولية كذلك إن عدداً كبيراً منهم اعتقل وتعرض للتعذيب من قبل قوات الأمن السعودية^(٤٥).

يصدف كذلك أن الكويتيين فعلوا أسوأ من ذلك بكثير بالفلسطينيين. قبل أن يطردوا الجالية الفلسطينية القوية المؤلفة من ٣٠٠ ألف فلسطيني، من الكويت - ومعظمهم لم يعرف البتة فلسطين، أو أي بلد آخر - جرى اصطيد المئات منهم، إن لم يكن الآلاف، بعد التحرير، بأن اعتقلوهم اعتباطاً. ومن منهم لم «يختف»، فذلك لأنه اصطيد ورمي بالنار في مكان عام، أو لأنه غُذِبَ بوحشية وقُتِل^(٤٦). كان الأمر كما لو أن الكويتيين كانوا مصّتمين على أن يفعلوا بالفلسطينيين ما كان النظام العراقي قد فعله بهم.

والبلد الذي طرد إليه العمال اليمنيون لم يكن أفضل من ذلك الذي طردوا منه للتوّ. في رأي المثقفين الطليعيين، يعتبر اليمن الجنوبي مثلاً في القومية «التقدمية» الماركسية القائمة في شبه الجزيرة العربية الممعة في التخلف. لقد بذلت جهود هناك من أجل تأسيس العناية الصحية والتعليم وترسيخهما، وتأمين الشروط الضرورية لعمل المرأة، وبدرجة تفوق أي سعي آخر في البلدان العربية الأخرى. غير أنه في صباح ١٣ كانون الثاني/يناير ١٩٨٦، وبينما كانوا يقدمون الشاي إلى ١٥ عضواً من المكتب السياسي

الحاكم بدأت مجزرة على طريقة عصابات الزعران قام بها الرئيس علي ناصر ضد كل منافسيه. أحد الحراس، وكان يحمل حقيبة القائد السامسونات الصغيرة، انتشل مسدسه الأوتوماتيكي من طراز سكوريون، وبدأ يطلق النار على ظهر وزير الدفاع صموداً ونزولاً، وتلا ذلك أسبوعان من الحرب في الشوارع، شهدت إعدامات جماعية، و١٣ ألف قتيل تركت جثثهم المتفخخة مرمية في الشوارع.

مفسراً سبب ضراوة القتال قال يماني جنوبي: «أعدمو عدداً كبيراً من الناس، وليس فقط السياسيين، حتى أن المرء بات يشعر أن عليه الاختيار: إما المواجهة والقتال، وإما الموت المحتم»^(٤٧). والأشد رعباً من الحوادث بحد ذاتها - والتي لم تكن أكثر من نقطة في محيط مقارنة بما كان يحدث في البلدان الأكثر «تطوراً» في الهلال الخصيب - هو واقع أن معظم العرب نسي الأمر، هذا إن كانوا علموا به أولاً بأول. قتل ١٣ ألف شخص خلال أسبوعين، منذ أقل من ست سنوات في بلد «تقدمي» جداً، والكل متوافق على أنه لم تكن هناك على المحك مسائل مبدئية كبرى. هل كانت المسألة تتعلق برودة إلى القبلية؟ غير أنه كانت هناك قوانين لحروب القبائل، قوانين سلوك متعلقة بالعنف هي التي استطاعت الحفاظ على نوع من التوازن في النظام القديم للغزو من أجل السلب. النقطة الرئيسية في شأن ما حدث في أمكنة مثل اليمن عام ١٩٨٦، ولبنان أثناء حربه الأهلية، والعراق أثناء إنتفاضة آذار/مارس ١٩٩١، أنه لم تعد هناك أية قوانين. إنهارت ببساطة السياسة، وكذلك المجتمع انهار بشكل كلي، وسادت الفوضى.

رافق إنتشار القسوة المؤسسية في بلدان مثل العراق وسوريا والسعودية، تغيرات نوعية في أشكال العنف. لقد اتجهت النزعة السائدة وبشكل ثابت نحو المزيد من الأشكال الوحشية. في مطلع الحرب اللبنانية الأهلية، على سبيل المثال، اكتشفت السيارة المفخخة كسلاح فعال لإثارة الرعب الجماعي في بيروت. ثم جرى رفع مستواها إلى مكيدة تعرف بانفجار السيارة المزدوج، تلك التي تؤمن حشد الناس عبر إحداث تفجير خفيف نسبياً، ليتبعه بعدئذ الانفجار الحقيقي^(٤٨). جرى تفجير ٣٦٤١ سيارة مفخخة خلال الحرب اللبنانية الأهلية، تسببت بمقتل ٤٣٨٦ شخصاً وجرح ٦٧٨٤ آخرين^(٤٩). إن الإحصاء الرسمي للخسائر التي وقعت خلال السنوات الخمس عشرة من تلك الحرب يشير إلى ١٤٤,٢٤٠ قتيلاً و١٩٧,٥٠٦ جريحاً، و١٧,٤١٥ لا يزالون مفقودين. والسبب غير مفسر فإن هذه الأرقام تضم آلاف اللبنانيين الشيعة والفلسطينيين الذين قتلوا في المعارك التي اندلعت بينهما، ولا تضم آلاف الفلسطينيين الذين قتلوا في الخيجمات

وهم يقاتلون بعضهم بعضاً. كما لا تشمل الإحصاءات الفلسطينيين المدنيين الذين ذبحهم عام ١٩٨٢ رجال الميليشيات المسيحية تحت أنظار ومراقبة الجيش الإسرائيلي. إن تقديرات أشد تحفظاً تقدّر عدد القتلى الذين سقطوا خلال سنوات الحرب اللبنانية الخمس عشرة بـ ١٢٠ ألف شخص وعدد الجرحى بـ ٣٠٠ ألف، وبكلام آخر ٤,٥ بالمئة من عدد سكّان لبنان عام ١٩٧٥ قتلوا، وما يزيد عن ١١,٥ بالمئة أصيبوا بعاهاات جسدية^(٥٠).

ينبغي أن لا تناسى كل الأذى النفسي الذي لا يقاس كتيّاً، أو التّفَسّخ الثقافي المتمثّل في واقع أن ما بين ٨٠٠ ألف و ٩٠٠ ألف من الأفراد الأكثر كفاءة هاجروا من البلد الذي كان يعتبر، على الصعيد الثقافي، الأكثر نشاطية في الشرق الأوسط. إلى أين توجه أولئك الأشخاص؟ إلى الغرب بالطبع، وهل ثمة مكان آخر؟ يمكن أن ترى كل المتاجر الجديدة للملّاكين اللبنانيين وفلسطينيين على طول شارع برودواي وفي المنطقة الغربية العليا في مدينة نيويورك، والتي لم يكن أي منها هناك منذ عشر أو خمس عشرة سنة. هؤلاء المهاجرون غادروا قطعة حاسمة من الجغرافيا من وجهة نظر تاريخ العلاقات العربية - الغربية. أما لبنان الذي أجبروا على مغادرته ونسيانه، فهو الآن راكد بكل ما للكلمة من معنى.

لم يُترك شكل من العنف إلا اختُبر أو جرّب على المدنيين خلال الحرب الأهلية، هناك. وفي الواقع أضيفت أشكال جديدة إلى معجم ذاك العالم الفوضوي (العمليات الانتحارية المجنونة بالشاحنات، القنص المدني المجهول الهوية، الخطف العشوائي مقابل فدية، طريقة «لنقتل العائلة كلها» كسوية لمشكلة). وأفضل مادة لدينا عن «الأحداث» كما يحلو للبنانيين أن يدعوها (وهو تعبير شعبي عن شيء بغيض، يتعدى قليلاً ما تقصده تسمية «المشاكل» في إيرلندا، لجهة تأكيد عجز اللبنانيين عن التسليم بالكارثة)، يقدمها لنا صحفي غربي من الطراز الأول مثل روبرت فيسك، كما تقدمها أيضاً نساء من لبنان. (على حد علمي، فإنه لم يكتب بعد أي وصف محدّد للدينامية الثقافية - السياسية التحتية لتلك الحرب باللغة العربية، أو من قبل أي ذكر عربي). فوحشيات الحرب الأهلية ملتقطه بشكل متعذر الإمعاء في هذا المشهد الكابوسي المأخوذ من نهاية كتاب جين سعيد المؤثر، «شظايا بيروت: مذكرات حرب»:

«منذ عدة سنوات، وخلال إحدى المحاولات التي جرت لاستعادة القانون والنظام، كان ينبغي نصب مثال لزرع الخوف في قلوب المجرمين العاديين الذين ازداد نشاطهم بفعل الظروف الفوضوية... ألقوا القبض على رجل وحاكموه

وحكموا عليه بالإعدام بسبب جريمة كان ارتكبها. حملوه وهو يصرخ ويركل برجليه، إلى المشنقة المرفوعة في الحديقة العامة... لم يكن هناك أي شك في كونه مذنباً. كان قد اعترف بقيامه بقتل صاحبة المنزل وابنها المقيم معها في المنزل. لم يقتلها فقط، بل شوهدا كذلك.... كان مختلاً عقلياً حسبما قالت الشرطة....

حملوه، ربطوه، وقيدوه بالأغلال، وغطوا بالقوة رأسه المعاند بغطاء أسود. احتاج الأمر إلى خمسة رجال أو ستة للإمساك به ولجمه ثم وضع عنقه داخل الأنشودة. كان يصرخ ويركل ويقاوم، وتوجب الإمساك به حتى آخر إنتفاضة انتفضها جسمه الثعس المحطّم... فيما كان ضوء الفجر ينسل قادماً من خلال شجيرات الحديقة.

إنتشرت الصور في كل الصحف... كان استعراض القانون ذاك قد تمّ. لم تسمع حتى أي تمتمعة اعتراض: لم يكن يستأهل أن يعارض أحد بشأنه. كان حالة الإنسانية المشوّهة كمثّل جسدي ضحيته. وسط حرب قاسية... اختير رجل مختل مثير للشفقة للتكفير عن كل الجرائم، ومجرّ عنوة إلى ميتة مخزية مذلة في حديقة عامة عند الفجر، واعتبر ذلك عدالة.

كان هذا نوعاً من العدالة، في عالم معدوم العدالة، وتلك العدالة ينبغي إذاً أن يُعاد تمثيلها^(٥١).

من سوريا إلى شبه الجزيرة العربية، إلى لبنان، ثم إلى الإنتفاضة الفلسطينية، التي كانت قد بدأت بآمال كبيرة في كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٧. كم عدد الفلسطينيين الذين قتلوا على يد فلسطينيين آخرين خلال الإنتفاضة لكونهم «متعاونين»؟ بعد واحد وعشرين شهراً من الإنتفاضة، أصدرت وزارة الدفاع الإسرائيلية إحصاء يزعم أنه بين الـ ١٨٠٠ حادثة قام بها فلسطينيون في المناطق المحتلة بين حزيران/يونيو، وأيلول/سبتمبر ١٩٨٩، كان ٦٠ بالغة منها هجمات واعتداءات موجهة ضد فلسطينيين آخرين، ونتج عن ذلك ٧٠ قتيلاً. كانت تلك غالباً حوادث قتل وحشية، تضمنت تشويه الجثث، وتعذيب الضحايا قبل إعدامهم، وكل تلك الأنواع من التفاصيل التي تحمل الطحين إلى مطحنة آلة الدعاية الإسرائيلية. حوادث القتل السبعون خلال فترة أربعة أشهر تنبغي مقارنتها، بحسب زعم الإسرائيليين، بالعشرين فلسطينياً الذين قتلهم فلسطينيون آخرون طوال فترة الـ ١٨ شهراً السابقة^(٥٢). بكلام آخر، فيما راحت تتسدّ الآفاق السياسية للإنتفاضة، بدأت هذه تآكل نفسها بنفسها. وتلك ظاهرة شائعة جداً وإعتيادية كنا رأيناها سابقاً في جنوب أفريقيا (حرق الدواليب حول أعناق من يسمون المتعاونين) وفي

إيرلندا الشمالية (إطلاق النار على عظم أعلى الركب وهو تكتيك الجيش الجمهوري الإيرلندي).

هل هي صحيحة تلك التقارير الصادرة عن وزارة الدفاع الإسرائيلية؟ وإن كانت صحيحة، لماذا لم يقيم المثقفون الفلسطينيون المقيمون في كل أنحاء الغرب بشجب ذلك العنف الفلسطيني الداخلي، كما فعل تماماً بقوة نلسون مانديلا شاجباً «حرق الدوايب حول الأعناق»، وكما فعل غيره من الزعماء السود في جنوب أفريقيا؟^(٥٣) في مقالة طويلة تتناول ذلك الموضوع كتبها جوست هيلترمان، الذي كان عمل مع منظمة حقوق الإنسان الفلسطينية، «الحق»، لم ينكر جوست الوقائع التي نشرتها وزارة الدفاع الإسرائيلية. بل على العكس قام بتصويب العدد الذي قتل من كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٧ إلى ١٦ أيار/مايو ١٩٩٠ لجعله ٢٠٧ قتلى^(٥٤). غير أنه على أية حال لم ينتقد عمليات القتل تلك، بل اختار أن يررها: «إن الذي تناساه سرد الأخبار (في التغطية الإعلامية لحوادث القتل) هو التعريف الفلسطيني للمتعاونين، والذين يعتبرون أناساً يعملون مع العدو ضد شعبهم بالذات، فاقدين بذلك حقهم في الانتماء إلى المجتمع الفلسطيني». قد لا يكون كاتب المقالة يعني ذلك، غير أن هذا هو تفسير حزب البعث الكلاسيكي «للخيانة»، والذي استخدم لحرمان مئات ألوف العراقيين من جنسيتهم ومن حياتهم على حد سواء. يتهم هيلترمان وسائل الإعلام الغربية «بانتزاع مفهوم العقوبة من سياقه التاريخي والسياسي» والقيام عوض ذلك بجعله أمراً مميّزاً «للتركيبة الاستشراقية اللغوية لـ «النزاع داخل المجموعات» «بين العرب»^(٥٥). يضع هيلترمان «نزاع داخل المجموعات» و«العرب» داخل مزدوجات، لماذا؟ هل يعتقد إن هناك شيئاً ما «شرقياً» بشأن هاتين الكلمتين؟ هل إن وضع الجريمة داخل سياقها «التاريخي» يبرز القيام بها؟ أي صنف من حقوق الإنسان هو هذا؟

ثمة أمر مهم، وهو أن هناك أصواتاً فلسطينية جديدة طالعة من المناطق المحتلة، لم تعد توافق على ذينك المعيارين المزدوجين اللذين يمارسهما المثقفون «المناصرون للعرب» في الغرب. الدكتور حيدر عبد الشافي، وهو رئيس المفاوضين الفلسطينيين في محادثات السلام للشرق الأوسط، شجب في صحيفة «القدس» اليومية الصادرة في القدس الشرقية، عمليات القتل ذاتها التي بررها هيلترمان^(٥٦). كتب أن هناك حاجة ملحة إلى إعادة تقييم للسنوات الأربع والنصف من عمر الإنتفاضة الفلسطينية، قائلاً إنه من الضروري أن يفهم الفلسطينيون أنفسهم حقيقة أنها أصبحت متميزة بالعنف العشوائي. باسم عيد، وهو صحافي فلسطيني يعمل في صحيفة «القدس» اليومية نفسها، قرر أن يجري تحريات حول مقتل امرأة حبلى وأم لأربعة أطفال كان عُثر عليها مشنوقة على

شجرة داخل مقبرة، بعد أن اتهمها شيان فلسطينيون بالتعاون مع السلطات العسكرية الإسرائيلية. وما توصل إليه في تحرياته أظهر أنها لم تكن متعاونة، فيما خطا باسم عيد خطوة شجاعة جداً بنعت قاتلها بـ «الإرهابي القذر». يوم نشرت المقالة، تلقى عيد اتصالاً هاتفياً مجهولاً يطلب منه القيام بتصحيح. رفض عيد. رغب المتكلم بتفسير، ووافق عيد على الالتقاء به شخصياً، وهو أيضاً تصرف شخصي شجاع جداً إذا ما أخذت الظروف بعين الاعتبار. في النهاية أمضى عيد خمس ساعات كاملة وسط خمسين شاباً فلسطينياً جعلوا يهاجمونه بعنف بسبب ما كان كتبه، ويمدحون القاتل (الذي رفضوا أن يستوه) وكانوا يطلقون عليه تعبير «أحدنا»^(٥٧). ومثل منظمة «الفنار»، ويزور قيادة أكثر إنسانية بين الفلسطينيين الذين يعيشون داخل حدود ما قبل ١٩٦٧ في إسرائيل، أو في الأراضي المحتلة (وهي واضحة في شخصيات مثل حنان عشاوي وفيصل الحسيني)، إن مقالة عيد الشافي، ومثال باسم عيد هما كذلك شاهدان على سعي لإنشاء حساسية فلسطينية سياسية جديدة تمتلك حسن النقد الذاتي.

في النهاية، وكما ننتهي مع العراق الذي هو، بالنسبة لي شخصياً، منشأ كل شيء، ثمة مجلدات بأكملها تنتظر أن تكتب بشأن القسوة هناك، وكذلك عن صمت العرب والمثقفين «المعادين للامبريالية» عن تلك الوحشية. في الوقت الحاضر سوف أشير إلى كم كان مقتل ما بين ٥٠٠ ألف ومليون عراقي وإيراني غير مثير لإهتمام أولئك الأشخاص بالذات الذين تحدّثوا فقط عن جرائم الغرب خلال حرب الخليج. «تدعي الحكومة الأمريكية أنها حامية حقوق الإنسان... ولكنها في حربها الوحشية في الخليج دافعت عن قلة من الملوك والأمراء، بينما ساهمت في قتل وتشريد ملايين من البشر الكادحين.... أين حقوق الإنسان في مدن البصرة وكركوك وكربلاء وغيرها حيث الدمار الشامل؟» هذا ما كتبه الباحث الفلسطيني المقيم في واشنطن الدكتور حاتم حسيني متفجعاً على «الشعوب العربية والإسلامية» التي دفعت «أكبر ثمن في حرب الخليج الأمريكية»^(٥٨). لكن الشاعر العراقي سعدي يوسف الذي ولد في البصرة، لا يقاسمه الشعور نفسه. يقول يوسف:

«أقول: الآلاف الخمسون من أهل البصرة لم يقتلهم الأميركيون إلاّ بواسطة الوحش الذي خنق في دقيقة واحدة، الآلاف من بلدة كردية، اسمها حلبجة.

القطيعة العظمى أغلقت دائرتها. الخليفة العباسي، الموفق، سار بجيشه إلى البصرة ليذبح الزنج، وليحتفظ حتى اليوم بشارع في المدينة يحمل اسمه. لكن الوحش الذي وجه مدافع دباباته الـ T 72 إلى بيوت المدينة، وصدور أطفالها، أبناء اللون النادر في حضارة العرب، لم يترك ولو شارعاً واحداً قد ترتفع عليه،

ذات يوم، مسألة تطلُّ علينا، منها، اسماء شهدائنا، أطفال البصرة^(٥٩).

تضررت مدينة البصرة من جراء الحملة الجوية الأميركية أكثر من أي مدينة عراقية أخرى، وعلى الرغم من ذلك اختار شاعرها البارز سعدي يوسف أن يكتب عمّا فعله بها «وحش» حليجة. من جهة أخرى، فإنها دُمّرت عدة مرّات خلال الحرب العراقية - الإيرانية، من دون أن يجد الدكتور حسيني ما يقوله بصدد ذلك. «الشیطان الأكبر» المدعو في معجم حسيني، «الشركات الغريبة الاحتكارية»، لم يكن هو من يقوم بالدمير إذ ذاك، وكان ذلك هو المهم في اعتباره. إن حسيني ساخط على سياسة الولايات المتحدة حيال الشرق الأوسط. وهذا حق. ولكن هل هو يأبه حقاً بحقوق الإنسان في البصرة، هذا كي لا نشير إلى كربلاء التي شاعت الأمور أن لا تُمس ولا تقصفها القوات المتحالفة طوال شهر شباط/فبراير ١٩٩١؟ لقد تركت سليمة لدمرها صدام حسين في آذار/مارس. إن جثث أولئك العراقيين الذين قتلهم الحرس الجمهوري في أعقاب إنتفاضة آذار/مارس لم تكن قد تعصّنت بعد حين كان حسيني يكتب ما كتبه.

لكن فيما كان القتلى العراقيون والإيرانيون يتكدّسون خلال سنوات القتال الشامي، كان بعض أشهر الأسماء في الأدب العربي، إضافة إلى آلاف المثقفين الأقل مستوى، يقومون بزيارة بغداد، وتلقّي الجوائز، وحضور مهرجانات الشعر (أسماء شهيرة مثل نزار قباني، محمود درويش، عبد الوهاب البياتي، غادة السمان، سعاد الصباح، كاريس مهدي، توفيق يوسف عواد). كان بعضهم يحضر المهرجانات التي يمولها العراق، كمجرد سياح مدفوعة مصاريفهم. ليس هناك أي اعتراض على ذلك. بيد أن آخرين سمحوا لأنفسهم أن يُستخدموا لغرض تقديم الدعم لسياسات النظام. وخلال الوقت الذي كانت توزّع فيه الميداليات الذهبية في بغداد، كانت تجري لإزالة آلاف القرى الكردية من قبل الحكومة العراقية في منطقة تبدأ على بعد ٧٠ ميلاً من حيث كانت تجري مهرجانات صدام حسين الأدبية الباهرة. فبين ١٩٨٦ و ١٩٨٨ دُمّر ما لا يقل عن ألفي قرية. وعام ١٩٨٨ (كما رأينا في الفصل الخامس)، قتل مئة ألف كردي مسالم في أقل تقدير، وجرى ذلك بشكل روتيني منظم في حملة تدعى «الأنفال»، والتي تحمل كل سمات الإبادة الجماعية، وقد قام بذلك النظام نفسه الذي دعمه أناس مثل الدكتور حسيني خلال أزمة الخليج، لأنهم اعتقدوا أن ذلك سيساعدهم على تحرير فلسطين. هل كان أولئك المثقفون يعلمون بما كان يجري في كردستان العراقية؟ إن كانوا يجهلون كل التفاصيل الرهيبة، فقد كان ينبغي أن يتوقّعوا الأسوأ.

في مقالة تحمل عنوان «محمود درويش والطريق المسدود» توجه الكاتب العربي العراقي أمين العيسى (الذي فز من العراق خلال الحملة الضخمة ضد الشيوعيين التي

سبقت مباشرة شن الحرب الشاملة على إيران) إلى بطله درويش، وهو أشهر اسم في الأدب الفلسطيني، وبألم المطعون في ظهره:

«لقد عمّ الرعب يا محمود الآن كل زوايا الوطن وإذا كان الصمت لم يعد ممكناً فإن التواطؤ خيانة - كيف يتحوّل القاتل إلى وطني؟ وكيف تسمح لنفسك أن تردد معزوفة النظام البعثي (حول الوطنيين الذين يتركون بلدهم في وقت الشدة). أنت تعرف الحقائق جيداً. لقد بدأ النظام حربه عليهم قبل أن يبدأ حربه على إيران. هل يمكن أن تكون الفاشية موضع اجتهد؟ لقد حمل الوطنيون العراقيون وطنهم في القلوب وفي حدقات العيون وما زالوا يرسمون بدمائهم الطاهرة لوحة الغد الزاهية»^(٦٠).

ما سبب استياء الكاتب العراقي العيسى من الشاعر الفلسطيني الكبير درويش؟ لأنه في العام ١٩٨٦، وقبل خمس سنوات كاملة من حرب الخليج، كان درويش خطيب صدام الأساسي خلال مؤتمر بارز للكتاب العرب أقيم في بغداد وحضره آلاف المعنيين بالكتابة. أثناء خطابه تحدث درويش عن «جريمة الصمت» وعن «خيانة الصمت». غير أنه لم يكن يتحدث عن صمت المثقفين العرب حيال ما كان يحلّ بشعب العراق - الأكراد والعرب على حد سواء - على يد نظام بلدهم بالذات. كان ينتقد عراقين مثل العيسى لبقائهم في المنافي فيما بلدهم يحارب العدو الفارسي ولتوجيههم خناجرهم إلى كبد العراق، وإلى روح فلسطين معاً. عند نهاية خطابه، الذي كان يلقيه أمام مجلس قيادة حزب البعث الأعلى، اختتم الشاعر مقدماً المديح والشكر لـ «قمر بغداد [صدام حسين؟]» وأرض العراق العظيم، «الذي يحرس البوابة الشرقية للأمل العربي، والذي ينزل البطولة من الميثولوجيا إلى الراهن»^(٦١). هذه القصة الحزينة تكتسب مغزاها الكامل في ضوء إدراك أن محمود درويش كان يعرف تماماً ماذا كان يفعل عندما اختار أن يمدح نظام صدام حسين. كان درويش هو نفسه قبل ثلاث وعشرين سنة، خلال تجربة البعث الأولى في السلطة بالعراق عام ١٩٦٣، كتب هذه السطور القاسية، بشأن ما كان فعله حزب البعث بالأكراد العراقيين:

في أرض كردستان

حيث الرعب يسهر والحرائق

وتقول الآن فلتنحيا العروبه

مري إذن في أرض كردستان

مري يا عروبه^(٦٢).

١٠ - تعريف الصمت

الحياة البشرية لم تكن دائماً قليلة الاعتبار في العالم العربي. حتى حرب ١٩٦٧ لم تكن حساسية العرب تجاه الاعتداءات على حقوق الإنسان أسوأ منها لدى أي شعب آخر في العالم النامي. هذا لا يعني أنها كانت كافية، بل جل ما في الأمر أنها كانت تجاري أجزاء أخرى من آسيا أو أميركا اللاتينية. منذ ١٩٧٥ وبداية الحرب الأهلية في لبنان أصبح العالم العربي شرقي مصر مكاناً بغيضاً بشكل استثنائي. إن العوارض في لبنان من تمجيد العنف، والنزاع المسلح، وأفكار الثورة، كانت كلها ولدت قبل عقود في العراق وسوريا. والنتيجة أن حساسيات حقوق الإنسان العربية اليوم، تتخلف إلى ما وراء أجزاء أخرى من العالم النامي مثل الهند وأميركا اللاتينية. استبدادات جبّارة وانعدام شعبي للقانون مصحوبان بانتلجنسيا لا تملك مطلق نقد ليبرالي أو نقد «متمحور حول الحقوق» لأي من الاثنين. في هذه الأثناء تندفق إلى الشرق الأوسط ثروات بضخامة لم يسبق لها مثيل. حتى فيما كان العرب أنفسهم يفرون من المنطقة بأعداد متزايدة باستمرار، فإنهم يفرون، لا بسبب انعدام الفرص الاقتصادية، بل لأن القسوة أمست في كل مكان هي القانون.

هذه القسوة ظاهرة خاصة حصراً بالسبعينات والثمانينات، ولا تحتوي أية تضمينات عامة متعلقة «بالعرب» أو «الإسلام». لقد كانت المفارقة أن اللحظة الحاسمة في التحول من مجموعة من الهموم السياسية والثقافية النموذجية في معظم العالم الثالث، إلى القسوة الحالية غير الاعتيادية في المشرق، إحدى الفترات الفاصلة الأكثر تجدداً وابتكاراً ثقافياً في السياسة العربية الحديثة. تتبادر إلى ذهني الفترة الواقعة ما بين ١٩٦٧ و١٩٧٥، ما بين حرب الأيام الستة، واندلاع الحرب الأهلية اللبنانية.

خلال سنوات قصيرة وقليلة تلت ١٩٦٧ قامت قبضة من المثقفين أمثال صادق

جلال العظم وأدونيس، إلى جانب مجلات مثل «مواقف»، إخضاع كل شيء للنقد الثاقب. إن عناوين كتب العظم تحكي وحدها القصة: «نقد الفكر الديني»، «النقد الذاتي بعد الهزيمة»، «نقد الفكر المقاوم» الفلسطيني. وأهمية هذه الكتب ليست في أنها كانت «صحيحة» بحسب مفهوم ما لا زمني، إذ ليس هناك شيء كهذا في الثقافة. وهي لم «تقبل» أية تدخلات إسرائيلية أو غربية في شؤون المنطقة، بل كانت لا تزال أعمالاً «رفضية»، بحسب المعجم السياسي العربي. إن أهمية هذه الكتب هي في كونها نظرت داخلياً إلى الشوائب السياسية - الثقافية العربية والإسلامية، من غير أن تسعى إلى إلقاء اللوم على الغرباء. كان ثمة تيار يبنق في الفكر العربي من دون أن يتأرجح بين النزعة الانتصارية ولطم الصدور، وهما القطبان التوأمان للخطاب العربي المعاصر. ومقاطع كثيرة من تلك الكتابات لا تزال تحتفظ بمقاربات مثيرة للدهشة:

«إن مجرد استخدامنا لمصطلح «النكبة» في الإشارة إلى حرب حزيران ونتائجها ينطوي على الكثير من منطق التبرير والتهرب من المسؤوليات والتبعات، لأن من تحمل به النكبات لا يعتبر مسؤولاً عنها وعن وقوعها، وإن كان كذلك فإن مسؤوليته تعتبر جزئية جداً بالقياس إلى هول النكبة وعظمتها. لذلك درجنا على نسبة النكبات إلى الدهر والزمان والطبيعة أي إلى عوامل لا سيطرة لنا عليها ولا يمكن أن نحاسب على مجاري أحداثها»^(١).

إن الإرث المديد والأهم من فترة ١٩٦٧ - ١٩٧٥ كان نشوء حركة المقاومة الفلسطينية. خلال تلك السنوات الحاسمة (والتي لم تجر بعد دراستها بشكل واف) تناوبت في الخطاب السياسي دورات من الابتهاج، والتجدد، والبحث عن أفكار جديدة، تبتعتها دورات من فقدان الأمل واليأس، وبدايات لجوء إلى خنادق التقاليد. لكن حرب ١٩٦٧ كانت اختباراً أخفق حتى عنده كل من العظم وأدونيس ومعهما نظرتهما من الداخل ومواقفهما العلمانية الفكرية. كانت إسرائيل لا تزال هناك، أقوى من أي وقت آخر، ولا تزال كياناً متعذر الفهم في نظر العرب. والنقد الذاتي ما بعد الهزيمة لم يذهب بعيداً بما يكفي، بل بقي واقعاً في شرك تحديات من الافتراضات الضمنية مثل: ما هي عللتنا حتى تمكنوا من أن يهزمونا تلك الهزيمة المنكرة؟ كيف بمقدورنا أن نتغير حتى نستطيع أن نفعل «بهم» ما «فعلوه بنا»، في المرة القادمة؟

كانت الساحة قد تركت آنذاك خالية تماماً للإيديولوجيات الراديكالية بشتى أنواعها: البعثية، الماركسية المبتذلة، الإسلام السياسي النشط، الاشتراكية العربية، والقوميات المحلية النضالية (فلسطين ولبنان وسوريا الكبرى، إلخ). أي من تلك الإيديولوجيات - إلى

جانب اختلافاتها الهامة الأخرى - لم تستطع تطوير نظرة إلى العالم متمحورة حول تصوّر لحقوق الإنسان، أو مناعة الشخص البشري كمبدأ أساسي في رؤية حديثة للعروبة. أكثر من ذلك، وعلى الرغم من ضخامة الأصوات ما قبل ١٩٦٧، ثبت في النهاية أن ما كان مشتركاً لدى الجميع هو فقط «المعاداة للإمبريالية» و«المعاداة للصهيونية». يمكنك على الدوام أن تذهب إلى أبعد ما تستطيع في السياسة العربية بمجرد إلقاء اللوم على الغرب أو على إسرائيل. كانت هنالك في ما مضى أفكار معتدلة في التجربة السياسية العربية قبل الاستقلال، وقد عقدت تلك الأفكار هذه السداجة. من المهم أن نذكر أنه كان هناك ليبراليون وديمقراطيون في العالم العربي خلال الأربعينات والخمسينات. لكن من المأسوي أن حرب ١٩٦٧ بددت نهائياً ما كان تبقى من أفكارهم. فيما انتشرت القسوة، وهي ظلت تغتذي من ذاتها طوال فترة الثمانينات، حيث جرى التخلص من كل أنواع التنوع في السياسة العربية. كان كل ما تبقى مجرد امتعاض مَرَضِيّ قاتل للفكر. يبدو الأمر كما لو أننا انكفأنا وتراجعنا منذ كتب العظم كتابه «النقد الذاتي بعد الهزيمة»^(٢).

إن خطاب الإنتلجنسيا العربية المعادي للغرب خلال أزمة الخليج ١٩٩٠ - ١٩٩١، هو استعادة للتصريح المتحجّر الخاص بالتملّص من المسؤولية الذي كان العظم قد انتقده في أعقاب حرب ١٩٦٧. ازداد الخطاب مرارة وتشاؤماً مع مرور الزمن، ليفقد الأمر الوحيد الذي كان يحاول الحصول عليه وهو: الأمل في نظام جديد أفضل، وحماسة الاعتقاد بأن المرء قادر على التغيير. مضى ربع قرن على حزيران ١٩٦٧، وبات جيل جديد من الكتاب والمفكرين العرب أرفع ثقافة يشرف على الصحف والمجلات، ويحتلّ مقاعد في جامعات شهيرة في كل أنحاء العالم الغربي. إنهم ظاهرياً مختلفون جداً عن أحمد الشقيري ومحمد حسنين هيكال اللذين من الجيل السابق. يتناقشون بشأن الحداثة والتقاليد، وفي الديمقراطية والإسلام، وعن المزايم والمزايم المضادة للشرق والغرب. يكتبون بالإنكليزية والفرنسية والعربية، وينشرون في وقت واحد في كل أنحاء العالم. ولكن عندما يتعلق الأمر بالقسوة القائمة في محيطهم، والتي يرتكبوها أهلهم «بالذات»، فإنهم يبدون، ويا للغربة، أكثر صيبانية في تصرفاتهم حيال ذلك من أسلافهم. فالإنكار المستديم للقسوة المتفاقمة باستمرار قد أحدث فجوة يتعذّر الدفاع عنها، بين أسلوب كلام أولئك المثقفين وحقيقة سير أمور عالمهم من حولهم. فعندما غزا صدام حسين الكويت، سقط كل أولئك المثقفين على رؤوسهم في الفجوة التي هي في، التحليل النهائي، من صنعهم هم بالذات.

لقد تشكّل سياسياً جيلي الذي يضم العديد من المثقفين الذي استشهدت بكتاباتهم

في هذا الكتاب، في بوتقة حرب ١٩٦٧. إدوارد سعيد على سبيل المثال، وعلى الرغم من أنه المولود في القدس، أصبح واعياً بحدة لهويته الفلسطينية - العربية بعد هزيمة جيوش عبد الناصر وبزوغ الأمل الفلسطيني. عشنا جميعاً أنواعاً متشابهة وواسعة من التجارب، سواء كنا نعيش في بيروت، في لندن أو في نيويورك. بدأت في السياسة كمناضل مؤيد للمنظمة الفلسطينية نفسها التي كان يؤيدها كل من سعيد والعظم. عندما عملت في النهاية مكرساً كل وقتي لدعم الحركة الفلسطينية، وعيت كوني عريباً للمرة الأولى. وحتى بينما كان حزب البعث يعطي سلطته في العراق شرعيتها على أرضية إيديولوجيا وحدة العروبة الشاملة، كنت منجذباً إلى فكرتهم القديمة حول «الثورة العربية». لكن ما شدني ليس صيغة ميشيل عفلق الأربعينية، بل النسخة الجديدة التي تحدث عنها المثقفون الفلسطينيون، وأطلقها مثال الحركة الفلسطينية الناهضة. أما حتى الذاتي كعراقي، والذي لم يكن أبداً شيئاً عانيت قلقاً بشأنه، فترجع إلى الخلفية. لم أكن أيضاً أنغبر في معزل عن الجميع. ففي أي مكان كنت تنظر، كنت ترى كيف تجري إعادة تخييل للهويات وتغليفيها بأفكار جديدة لشاعة. كانت هذه قد اندفعت من الظلام مثل صواعق برق.

عند بداية الحرب الأهلية اللبنانية اختبرت ذلك العالم الذهني الجاهر عند الشبان العرب، في مواجهة الواقع، الذي هو امتحانها الحقيقي. إبان هذا الامتحان خسرت هالة المنظمات الفلسطينية بريقها كلياً. مارست تلك المنظمات سلطة في لبنان، والنتيجة الطبيعية لذلك انها توقفت عن كونها مجرد منظمات «مقاومة». أصبحت فاسدة وقذرة في ممارساتها مثل جميع من هم حولها.

امتهنت المنظمات الفلسطينية مثل الجميع فرض الحماية والضرائب والابتزاز والتهديد. نهبت ومارست القنص والخطف وتمرجل مسلحوها على اللبنانيين العاديين وعلى المدنيين الفلسطينيين الضعفاء. ابتكرت أساليب جديدة بارعة في قتل وإيذاء عرب آخرين، تماماً مثلما سبق للجميع أن فعلوا. هل ثمة من فرق بالنسبة للبنانيين العاديين بين رجل «مافيا» فلسطيني، ونظيره من «المرابطون» أو «الكتائب»؟ لقد سلبتهم الأرض من تحت أقدامهم عصابات من قطاع الطرق. هل ثمة فرق إن كان من يفعل ذلك ينتمي إلى هذه العصابة أو إلى أية عصابة أخرى؟ في لبنان اختصر الأمر في النهاية إلى القتل فوق أجزاء صغيرة من تراب ناس آخرين. باع الجميع أرواحهم إلى «مافياتهم» الصغيرة من أجل بعض الحماية. وهكذا طغى الركود واليأس، والتشاؤم وفقدان الأمل حيثما كانت تلوح مرة حقائق كبيرة منكشفة.

مع بداية الحرب الأهلية اللبنانية، أدرك التجدد الثقافي الذي كان بدأ على أرضية ١٩٦٧ نهايته التامة. لم يكن الركود ليلغ عند أي فريق ما بلغه عند الإنتلجنسيا الفلسطينية. نفهم ان تلك الإنتلجنسيا كانت منشغلة بتحديد مصطلح «الفلسطينية» المكتشف حديثاً، إزاء إسرائيل التي كانت تجربة الاحتلال قد أفسدتا هي (احتلال المناطق والناس الذين تم الاستيلاء عليهم سنة ١٩٦٧). كان السياسيون الإسرائيليون خلال ذلك الوقت قد اكتشفوا خدعة أو اثنتين قدرتين من نظرائهم العرب وكانتا: الإنكار التام لوجود ما يدعى الفلسطيني، وتسمية المناطق المحتلة «يهودا والسامرة».

في المشرق طوال فترة الثمانينات، قام الجميع بأسوأ الخيارات، بمن في ذلك المثقفون الفلسطينيون. فإبان الزواج الذي جمعهم إلى قيادة تلك المنظمات بالذات والتي تصرفت بشكل مقيت في لبنان، لم يحاولوا حتى المطالبة بالمكانة المعنوية العالية التي كانت مشرعة لهم طوال السبعينات والثمانينات. في وقت كانت فيه جنوب أفريقيا تبرز قائداً كنلسون مانديلا، وتشيكوسلوفاكيا لأكلاف هائل، وبولونيا ليش فاليسا، كان المثقفون الفلسطينيون متمسكين بياسر عرفات «هم». وخيارات كهذه تلخص إخفاقات وفشل جيل بأكمله. هل أن شعباً موهوباً كالفلسطينيين - الأكبر، والأوسع انتشاراً، والأفضل ثقافة في العالم العربي - عاجز عن إيجاد من هو أفضل من ياسر عرفات كقائد له، طوال كل تلك السنوات من النضال السياسي المنظم؟

إن مجرد طرح سؤال كهذا على ورقة يخيفني. لست أملك أي جواب. كل ما أستطيع أن أفعله هو الإشارة إلى الفشل الجماعي المتفجع لإنتلجنسيا عاجزة عن تطوير خطاب إنساني وديمقراطي داعم للغة الوطنية. كما لو أن الأمرين متناقضان نظرياً في رؤية العرب، أو كأنه يصعب وجودهما معاً في المشرق. كلمات مثل «حرية»، «ديمقراطية»، «عدالة»، «كرامة إنسانية» و«حقوق الإنسان»، فقدت كل معانيها على يد أولئك المثقفين بالذات المتذمرين على الدوام من الرياء الغربي. إنهم ما عادوا يؤمنون بالأشياء نفسها التي يهاجمون الغرب صاحبين لعدم إيمانه بها.

تلك المعاني القديمة الضائعة تحتاج إلى أن تُكتسب وأن يجري التلاؤم معها من جديد. ولكن ليس على شكل تفسيرات «بدلية»، وليس كذلك على شكل مجرد القول «إننا كلنا» ضد قذارة البعث. فهذا ليس جيداً إلى درجة كافية. غالباً ما تكون لغة الرفض والإنكار عذراً للكسل والقصور، وأساء من ذلك أنها يمكن أن تصبح حتى مبرراً للقسوة. ذلك ما جرى إثباته في «أزمة الفضح» التي بدأت يوم غزا صدام حسين الكويت. فلا يمكن لغير أساليب جديدة من التفكير، تنشأ فوق أعماق أنواع الاشتعزاز الذي لا يساوم،

من الوحشية والتعصب للذين ارتكبهما العرب ضد عرب آخرين، أو ضد الأكراد وأقليات قومية أخرى في الشرق الأوسط، أن تقنع وتهب الأمل للشعوب المعانية من أمد طويل في ذلك الجزء من العالم. ثمة حاجة إلى خطاب جديد فحواه النقد الذاتي، خطاب متجذر بإصراره المتطرف على مسألة القدسية المنية للحياة البشرية، وخضوع كل الأمور الأخرى لذلك المعيار. بقدر ما يتوقع المثقفون الفلسطينيون، وعن حق، أن يضم كل العرب جهودهم في النضال ضد اضطهادهم، ينبغي أن يدأوا هم بفهم أنهم خذلوا أخلاقياً ومعنوياً كل العرب في هذا السياق، أكثر مما فعل أي طرف آخر.

ففي وقت راحت معه أجزاء ضخمة من سائر العالم (أوروبا الشرقية، أميركا اللاتينية، الصين، جنوب أفريقيا) تكتشف حقوق الإنسان/ الديمقراطية، وتناضل ضد الطغيان فيها وضد البيروقراطيات الستالينية، كان الأفضل والأكثر موهبة بين الفلسطينيين يكتبون كتباً متفحمة تقوم على تعابير كهذه:

«... إن كل المعرفة الأكاديمية بشأن الهند ومصر هي بطريقة ما، مشوبة ومدموغة، ومنتهكة، بالواقع السياسي الفاضح [للالامبرالية]... هذا ما أقوله في هذه الدراسة عن الاستشراق...»

وما هو صحيح بالتالي، أن كل أوروبي، بناء على ذلك، عنصري في ما يمكن أن يقوله بشأن الشرق، وهو أيضاً إمبريالي، ومنتحور حول ذاته بالكامل تقريباً^(٣).

إن كتاب «الاستشراق» مشروع ثقافي كان له تأثير على جيل كامل من الطلاب العرب الشبان، وقد طبع بطابعه مجمل الدراسات الشرق أوسطية في الثمانينات. ولم يهدف الكتاب الأساسي إطلاقاً إلى انتقاد السياسة العربية المعاصرة، إلا أنه عمل على تغذية سياسات شعبية متجذرة بعمق في عدائها للغرب. والتشويهات التي حلّ لها جاءت من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، غير أن تلك التشويهات أدرجها طلاب عرب شبان وطلاب مناصرون للعرب داخل البرنامج الثقافي - السياسي الذي يقع خارج الحاجات الحقيقية للعرب المقيمين في عالم متميز بقسوة سريعة التفاقم، وليس بسيطرة إمبراطورية دائمة التزايد. إن الوجهة الممتدة بين كتاب «الاستشراق» لسعيد وكتابه «تغطية الإسلام» تسير في بلورة الفكرة التالية: «كيف تحدد وسائل الإعلام والخبراء طريقتنا في رؤية بقية العالم»، وهذه تتقدمها فكرة أخلاقية مغلوطة بأنه ينبغي إلقاء اللوم على الغرب هنا وهناك بسبب تاريخ ارتباطه الشائن الطويل بالشرق الأوسط. وهكذا تكون قد انحرفت بطريقة غير فطنة عن المشاكل الحقيقية للشرق الأوسط، في وقت

أسهمت بزيادة المראה في الترسانة الانفعالية للشبان العرب، في حين أن المتوافر من ذلك كثير جداً^(٤).

فيما تفاقمت القسوة، كانت الأسباب الموضوعية للمرارة تتضاءل أكثر وأكثر مقارنة بالفترات الأخرى في التاريخ الطويل الشائك للعرب والغرب. ثمة غرب عجوز وفي طور الانحطاط هناك، وليس غرباً غازياً أو امبراطورياً. السياسة الخارجية الأميركية منيت بهزيمة حاسمة في فييتنام، وهزمها الحميني في إيران هزيمة منكرة، بدت كأنها صنيع مهزجين في لبنان (حيث استطاع انتحاري وحيد أن يقتل أكثر من مئتي جندي أميركي من المارينز في انفجار واحد). أجبرت إسرائيل على الانسحاب من الأراضي المصرية. إيران «فقدتها» الغرب لفترة تاريخية طويلة. قوة العرب المالية لم يسبق لها مثيل.

في هذه الظروف لم يعد السؤال الثقافي الأهم كم هي القوة الأميركية في العالم كلية القدرة والنفوذ، بل كم انها أصبحت غير فعالة في كل شيء تفعله (وكان ذلك نادراً) في مواجهة تعقيدات المشاكل المتعسرة الحلول في بلدان الشرق الأوسط المستقلة سياسياً. إن المثال الممتاز على ذلك هو حرب الخليج - حرب مؤلتها الدول العربية لحل نزاع عربي - عربي. إن كانت تلك قد تركت من دون نهاية حاسمة، فإن هذا، من وجهة النظر العراقية، لم يكن بسبب فقدان المبادرة عند الأميركيين. كان العراق قد دمر، وبقي صدام حسين في السلطة، ليس لأن الغرب أراده أن يستمر، بل لأن القوات المتحالفة كانت مرتعبة من فكرة وراثة المسؤوليات التي سترافق بالضرورة مع إنهاء تلك المهمة.

الحجة الكامنة في برنامج المثقفين العرب و«المناصرين للعرب» المقيمين في الغرب، كانت ان «الغرب وحده» يستطيع أن يفعل شيئاً ما بشأن مشكلة إقليمية مثل النزاع العربي الإسرائيلي، لأن المشكلة هي «تاريخياً» من صنعهم. «نحن الفلسطينيون غير مسؤولين». وتتابع فكرتهم «لأننا على الدوام لم نكن إلا ضحايا التاريخ». إن الغزو الإسرائيلي لجنوب لبنان، ومقتل ما يقارب العشرين ألف مدني لبناني وفلسطيني بريء من جزاء القصف العشوائي، اعتبره العرب الفلسطينيون، والإنتلجنسيا المناصرة للعرب، نتيجة للسياسات الأميركية، تماماً مثل غزو صدام حسين للكويت. لم يكن في الإمكان قبل نهاية حرب الخليج أن تتحدث إلى الإسرائيليين أو تناضل للحصول على حقوقك داخل إسرائيل، بل كان عليك أن تتوجه باستمرار إلى الأميركيين. ومجرد فكرة القيام بحملة للمطالبة «بالحقوق» موجهة بشكل مباشر إلى الرأي العام الإسرائيلي (حيث تشير الدلائل انه كان يمكن أن تلقى الدعم) كانت تعتبر بمثابة تسوية مذلة ومشبوهة. لماذا

يستطيع نلسون مانديلا التحدث مع ييك بوئا، بينما لا يستطيع مثقف فلسطيني أن يتحدث إلى نظرائه الإسرائيليين الذين لا يحجم الأفضل بينهم عن الفرصة المتاحة؟ وعوض التمسك بجوهر المشكلة الداخلي، انغمس المثقفون الفلسطينيون خلال الثمانينات في حروب فاشلة متتالية موجهة ضد «تحرير» الحكومة الأميركية، أو شبكات وسائل الإعلام الأميركية. والواقع ان الفلسطيني الذي ناصر إعادة توجيه راديكالي للأولويات السياسية كان يعيش داخل إسرائيل - فلسطين، وكان منبوذاً بشكل فعلي وحقيقي من قبل نظرائه الراضين لذلك^(٥).

مثل قصيدة نزار قباني: «أبو جهل يشتري فليت ستريت»، فإن كتاب «الاستشراق» يعمل من خلال المزاج الشعبيو للتحامل العربي القائم منذ زمن طويل. إنه لا يفعل شيئاً من أجل إعادة تشكيل التصورات حول الغرب في أذهان العرب، على الرغم من أن كاتبه هو، كعربي، في الموقع الأكثر ملاءمة للقيام بهذه المهمة. إن الكتاب يمنح العرب الطمأنينة ويخلق عندهم الرضى، عوض أن يدفعهم إلى إعادة التفكير بالافتراضات الأساسية التي ظهر بجلاء انها لم تكن فعالة. ربما لم يكن ذلك هدف الكتاب الأساسي، غير أن للكتب حياة خاصة بها، مستقلة عن نوايا كاتبها. إنني أتوجه بالكلام إلى قراء «الاستشراق» العرب الشبان، والذين لا يزالون إلى اليوم أكثر المعجبين به. إنهم في حاجة ماسة إلى عدم تعلم أفكار مثل التي تقول «إن كل أوروبي»، في كل ما قاله أو يقوله عن 'علمنا، كان «عنصرياً».

واعتماد الكتاب في مؤسسات التعليم الأكاديمي في الغرب - في الوقت الذي انهارت الإمبراطوريات منذ وقت طويل (بريطانيا وفرنسا) أو باتت في حالة انحطاط نهائي (الولايات المتحدة) - يوحي بانعدام العلاقة بين فرضيته الموجهة والتعليم الغربي الحديث في موضوع الشرق الأوسط. ومن سخرية الواقع ان هذا الكتاب حظي بالاهتمام الواسع في الغرب «المتحور حول ذاته بالكامل تقريباً»، أساساً لأن كاتبه فلسطيني، تماماً مثلما أخذ على محمل الجد كتاب «جمهورية الخوف»، إثر غزو صدام حسين للكويت، كون كاتبه عراقياً. لقد حان الوقت الذي يتوجب علينا فيه أن نواجه حقائق داخلية كهذه.

لقد كان القصد من كتاب «الاستشراق» أن يصبح مشروعاً ثقافياً - سياسياً ينسج على منوال عمل نعوم شومسكي عن العلاقات بين حرب فيتنام والتصوّرات الموضوعية للتعليم الجامعي^(٦). واللافت للنظر في المسألة ان الإشارة الوحيدة فيه إلى الشرق الأوسط الحديث موجودة في الجملة الافتتاحية من المقدمة: «خلال زيارة لبيروت خلال الحرب

الأهلية الرهيبية في ٩٧٥ - ١٩٧٦ كتب صحافي فرنسي متأسفاً لتدمير وسط بيروت التي «كانت تنتمي مرة... إلى شرق شاتوبريان ونرفال». كان محقاً في كلامه عن المكان بالطبع، وخصوصاً إن كان المعني بالكلام أوروبياً. كان الشرق تقريباً اختراعاً أوروبياً...^(٧). من هناك فصاعداً، يختفي عالم العرب الحقيقي في كتاب بصوغ كيفية نظرة الشبان العرب حيال العالم. ما يحزن في النهاية أن معظم اللبنانيين يفتقدون في الواقع رؤية شرق شاتوبريان ونرفال، وعلى الأقل بدرجة توازي الصحافي الفرنسي الذي جرى الاستشهاد بكلامه.

قبل أربع سنوات من استسلام أدونيس يائساً ومشتمراً من «مناطق وسط بيروت المقتلعة الأحشاء» و«الحروب الأهلية»، ليغادر ويعيش في باريس، كتب هذه السطور:

غَيَّرَ القَتْلُ شَكْلَ المدينة، - هذا الحجز

من عظام،

وهذا الدخان زَفِيرُ البشر^(٨).

إن سطوراً كهذه تدوي حقيقة، كما تفعل كذلك ملاحظة أدونيس عام ١٩٨٦ «لقد مات شيء في العالم العربي»^(٩). قال وليد خالدي شيئاً ماثلاً عندما كتب: «ثمة غياب منذ أواسط السبعينات لمحور جاذبية أخلاقي في العالم العربي»^(١٠). هذه التعليقات على مرآة حرب الخليج تعكس مشاهد القسوة المرسومة في الفصول السابقة، لكننا الآن نجد أننا نحتاج إلى ما هو أكثر. كان هناك انفجار داخلي، انهيار أخلاقي في العالم العربي - وليس مجرد انحراف أو انعدام محورية. وعواقب ذلك الانهيار سوف ترافقنا طوال أجيال قادمة، مهما حصل في العراق أو في لبنان، وبصرف النظر عما إذا كان سيرُفع كأس التسوية المقدس بين العرب والإسرائيليين أم لا.

«داء اللي بينا مِنّا وفينا»، غنى عزيز علي وهو قوم ليهبر الموسيقى الشعبية العراقية في الأربعينات والخمسينات. وعزيز علي من نوع المثقفين العرب الذين ما عادوا مؤثرين حالياً، لا داخل العالم العربي ولا خارجه. وإن ظهر، بضربة حظ، واحد مثله، فإنه يهْمَش ولا يُحْمَل على محمل الجد من قبل المثقفين أنفسهم. طوال هذا الكتاب حاولت أن ألفت الانتباه إلى ذلك النوع من الاستثناءات النادرة، الشاذة عن خطاب القطيع السياسي الراعد الذي وسم الحياة الثقافية العربية في السنوات الأخيرة. الكاتب إميل حبيبي والصحافي ورئيس التحرير لطفي مشهور والشاعر سلمان مصالحة، هم، على سبيل المثال، من بين المجموعة الصغيرة من الفلسطينيين الذين عبّروا، علناً، عن مواقف من

حرب الخليج يمكن أن يحترمها العراقيون المعارضون للنظام في بغداد، بغض النظر عما إذا كان المرء يوافق أو يعارض التفاصيل الدقيقة لهذه المواقف. وللمصادفة وحدها، فإن الثلاثة إسرائيليون عرب تلتقي في تجاربهم الشخصية النزاهة والواقعية على نحو لا نجد له لدى معظم المثقفين العرب الذين تناولهم هذا الكتاب بالنقد. إنني أشدد على الطبيعة «العنيفة» للمواقف التي اتخذتها هذه الاستثناءات الفلسطينية لأن العديد من الفلسطينيين اتخذوا في أحاديثهم الخاصة مواقف ممتازة. غير أنهم شعروا بأن القول الفصل لتلك القومية الثقافية العربية يهددهم ويتسلط عليهم: لا تنشروا غسيلكم الوسخ على السطوح، وخصوصاً حيث يستطيع غربي أن يراها.

عام ١٩٣٩، من إذاعة بغداد، غنى عزيز علي هذه الكلمات واصفاً مرضنا العربي:

يا ناس مصيبة مصيبتنا

نحجي تفضحنا قضيتنا

نسكت تقتلنا علّتنا

بس وين نولّي وجهتنا

دلينا يا دكتور^(١).

ثقافة عزيز علي الرسمية لم تتجاوز الصفوف الثانوية، إلا أنه رغم ذلك كان ضليعاً بالعربية والكردية والإنكليزية والروسية والألمانية. كان موظفاً رسمياً، وفي وقت فراغه مغنياً شعبياً وكاتب أغان، وكان ناقدًا قاسياً حاداً للحكومة ولتخلف العرب. كان يهزأ إلى حد كبير بالخرافات والتطير، ويعتبر عقلية الفرد العراقي في أغلب الأحيان مسؤولة عن وضعه. غير أنه قضى سنوات في السجن نتيجة نشاطاته ضد الملكية إبان النفوذ البريطاني في مرحلة ما قبل ١٩٥٨. ولدى عزيز علي نظراء مثل علي الوردي في حقول السوسولوجيا الأكاديمية، وكامل الجادرجي السياسي الديمقراطي العراقي الكبير.

في جلسات خاصة كان عزيز علي يقص على الدوام هذه النكتة عن سبب «تقاعده» وتوقفه عن كتابة الأغاني: «في الأيام الماضية كانوا يزجونني في السجن لبضعة أيام، يصفعونني بعض الشيء، ثم يعطونني خمسة دنانير ويرسلونني إلى البيت. بعد ذلك جعلوا يصفعونني أكثر قليلاً، ويحتجزونني لوقت أطول قليلاً، وتوقفوا عن منحني الدنانير الخمسة. غير أنهم لم يتوقفوا عن السماح لي بالعودة إلى منزلي. هؤلاء الناس اليوم، كما تعلمون، لا يدو أنهم يحسنون تقبّل النكتة».

وعدم القدرة على تقبّل النقد أو تلقّي النكتة ينشأ من عدم الرغبة في النظر إلى الذات، وعدم الخجل ولو قليلاً قبل الوقوع في المأزق المرعب كالذي وجد العالم العربي نفسه فيه. وآلية الدولة أينما وجدت في العالم تفتقد حسّ النكتة، كلنا ننشأ متوقعين ذلك، لكن الضيق الخاص بالعالم العربي يكمن على أية حال - مقارنة بزمان عزيز علي - في إلتلجنسيه أساساً وليس في أنظمتها. كتب شومسكي في مقالة كلاسيكية عام ١٩٦٦، «إن اهتمامنا الجوهري ينبغي أن ينصبّ على دورهم في ابتكار وتحليل الايديولوجيا»^(١٢). والمسؤولية تكبر، كما يحتاج شومسكي محققاً، استناداً إلى الامتيازات التي يتمتع بها المثقفون: الراحة، التسهيلات، الخبرة، وحماية الوصول إلى المعلومات. مع هذا، غالباً ما يظهر أن أولئك المثقفين العرب بالذات، الذين درسوا في الغرب، هم أكثر المعتدين أذى، وهم، نتيجة ذلك، الأكثر تسبباً بما حصل. لقد عبّأوا إيديولوجية قومية تتسم بالشطارة، معادية للاهتمام الحقيقي بحقوق الإنسان، وذلك على نحو أفضل مما يفعل أشباه صدام حسين في هذا العالم. فالجميع يتوقع أن تصدر الدعاية عن الناطقين باسم حزب البعث، غير أن المثقفين الذين كنت أستشهد بهم يتم التعاطي معهم، بمقتضى المواقع التي يحتلونها، بوصفهم منطقيين يترجمون بمسؤولية العالم العربي لكل من الغربيين والعرب أنفسهم على حد سواء، وهؤلاء لسوء الحظ لا يزالون يتطلعون إلى مصري يدرّس في جامعة لندن أكثر ممّا يهتمون بنظير له يدرّس في جامعة عين شمس بالقاهرة.

المفارقة أن الأكثر نفاقاً بين الكتاب العرب المعاصرين و«الناصرين للعرب» هم أولئك الذين يحتلون مواقع تسمح لهم أن يعرفوا الحقيقة بشأن عالمهم، وأيضاً التأثير على الجيل الأصغر من العرب لكي يتبنوا أسلوباً أسلم وأفضل في النظر إليه وتفحصه، فلماذا آلت الأمور إلى ما آلت إليه؟ الظاهرة هذه ليست ناشئة من عدم ملاءمة هؤلاء المثقفين كأفراد أو، وهذا أسوأ، من ميزة غامضة في العقل العربي (كما تقول النظرة العنصرية للأُمور). كما أنها لا تنشأ من ينابيع قديمة داخل تاريخ التقاليد العربية أو الإسلامية. إنها ناشئة من المنطق الداخلي للنموذج الإيديولوجي الحاكم - القومية الثقافية - والذي يضم في مجموع ما يضم الماركسيات، والقوميات، والإسلاميات، وحتى بضعة من الذين زعموا أنهم جعلوا من نصرة حقوق الإنسان مهمتهم.

إنها تنشأ من تلك الطريقة الاستثنائية التي عبرها زور أناس الهوية، وهم الذين أدركوا فجأة أنهم في حاجة ماسة ويائسة إلى واحدة. فأثناء بحثهم ذلك، شعروا أنه من الضروري أن ينحوا جانباً كل ما هو معقّد وفردى، وبالتالي مرتبط بالحياة ومشدود إليها، لصالح لغة «الضحية» الفاقدة اللون، والتي يمكن أن تقدم حساً مغلوطاً بالطمأنينة

الجمعية. في ظل ظروف التشتت، والتشظي والتذرية، تكمن المأساة المزدوجة في أن هذا النوع من الأسطورة القومية ليس حتى لغة منتخبة ومختارة من التجربة الفعلية للعيش ضمن مجموعة بشرية. ذلك هو سر حداثتها وتعصبها. وأولئك الساعون دائماً إلى معرفتهم هوياتهم هم غالباً الأكثر حيرة وارتباكاً أمام أسئلتها. إن لديهم السبب الوجهي ليكونوا كذلك خاصة عندما يتعلق الأمر ببلدان المشرق ما بعد ١٩٦٧. فاللبنانيون والعراقيون والفلسطينيون ومعهم آخرون وجدوا جميعاً أن مفهومهم للهوية انهار كلياً، أو أعيد تجميع أجزائه بسرعة، نثرات وكسراً من هنا وهناك. وكانت الحصيلة منظراً ذابلاً لكل ما يجمع المرء ببقية العالم.

في العراق، أسس حزب البعث أكثر الأنظمة ثباتاً في تاريخ البلاد الحديث. فعل ذلك بإصرار متصلّب على كون الحدود العراقية اصطناعية، مفسداً بذلك ومبطلاً عقوداً استغرقها تشكل وعي جديد لشيء ما اسمه العراق. وعواقب ذلك الأمر تمكن رؤيتها في الحركات السياسية التي نشأت كردّة فعل على استبداد حزب البعث: إنهم إما «أكراد» أو «شيعة» أو «سنة» أو «مسلمون» أو «عرب». أي من هذه التسميات لن يحلّ مشاكل العراقيين، أو العرب أو الأكراد أو الشيعة أو السنة. فمن الذي سوف يتحدث باسم كل العراقيين بعد ذهاب صدام حسين؟ أو هل ينبغي علينا أن نبدأ كل مرة من اللاشيء.

في لبنان، الجيل الذي هرع بالمئات والآلاف لنجدة القضية الفلسطينية بعد ١٩٦٧، فعل ذلك ناهذاً فكرة لبنان الذي كان أنشأه آباؤه وأجداده. ثم هاجر أولئك الذين عاشوا سنوات الستينات الذهبية، لأن الحياة أضحت لا تطاق. ولبنان يسكنه اليوم جيل لا يعرف بلده موحداً حتى في الذاكرة. كبر الأولاد في مدينة مقسومة تحكمها عصابات من قطاع الطرق. عاشوا تجربة حرب أهلية طوال ١٥ سنة ثم أجبروا بحكم الظروف وضرورات الاستمرار على أن يعتبروا أنفسهم «مسلمين»، «مسيحيين»، «موارنة» أو «شيعة» - وإلى درجة أقل فأقل «لبنانيين». الجيل الشاب، الذي ينبغي أن يدخل اليوم إلى ميدان العمل، كان قد سُلخ مرتين عن الجيل الذي أسس كياناً واحداً. لا تواصل بين الأجيال، وهو الشرط الأساسي الذي لا غنى عنه لتشكيل حسن بالهوية.

المضحك في المسألة أن خطاب ما بعد ١٩٦٧ «المعادي للإمبريالية» والذي فشل فشلاً ذريعاً في ١٩٩٠ - ١٩٩١، انبعث هو نفسه كردة فعل على الخطاب العربي السابق في السياسة والثقافة (خاصة لدى محمد حسنين هيكل، وجمال عبد الناصر وأحمد شقيري). وبمساعدة المعرفة المتأخرة واللاحقة فإن الخطابين يبدوان اليوم متشابهين بشكل مخيف. ما الذي حدث للجيلي، جيل المثقفين العرب الذي نشأ في مناخ النكسة؟

ربما لم نذهب بعيداً في انتقاد العالم العربي في الفترة الفاصلة بين ١٩٦٧ و ١٩٧٥. ربما تكمن المشكلة في أننا أسرفنا قليلاً في الابتعاد، محطمين قدراً من المحرمات لا طاقة للمجتمع على تحمله؟ في الواقع لا أعرف. كوننا نتكلم العديد من اللغات المختلفة في الوقت نفسه - الماركسية، الناصرية، البعثية، الفلسطينية، القومية وكذلك العربية والإنكليزية والفرنسية - لم يساعد كثيراً في نهاية الأمر، لأن هذه الطرق في تناول العالم ظلت، مثل دوائر متداخلة، تتقاطع في جزء من الأرضية المشتركة. حين بدأت أطر الدوائر تتعفن وتتقوض، لم يبق إلا «نحن عرب»، أو «نحن مسلمون» أو «هناك إسرائيل» وهذه هي القضية الفلسطينية». هذا كل ما في الأمر، وإن توقف المرء عن التفكير بشأنه، فهو لا يخسر الكثير. بالتأكيد هذا لم يكن كافياً. وفي النهاية ظهر أن تلك اللغات كلها لم تكن مختلفة البتة، كما ظهر أنها ليست سوى ضحالة في الأفكار وخواء في اللغة.

ففي آخر المطاف ضاع لبنان، وتقلب العراق على جمر ثماني سنوات من المذابح، وتعرضت الكويت للغزو ونهبت وضُمت، وناصرت المنظمات الفلسطينية زعيم طغاة السياسة العربية بشكل كامل، ولكن بدا أكثر المثقفين العرب انفتاحاً وشمولية، العماد الثقافي لنوع من الأنظمة كانوا يزعمون أنهم، بالتحديد، هو ما يرفضونه. المثقفون الذين ينتجون الأفكار - لا تلك المجموعة القمعية من الطغاة والملكيين والأوتوقراط التي تستخدم المدافع - هم من ينبغي أن يعتبرهم جيل شبان العرب التالي مسؤولين عن الانهيار الأخلاقي لعالمه.

الصمت لا يولد من الخوف، بل من فقر الأفكار وضحالتها. لقد ظهر أن خواءنا خواءً روحيًا، ولكنه ليس من النوع الذي يعوّضه الإيمان الديني وحده. فالصمت هو ما سماه سلمان رشدي في روايته «أطفال منتصف الليل»، «ثقباً في قلبي». وسياسة الصمت هي تلك الحالة الغريبة من الأمور التي سمحت لليساري اللبناني (طرابلسي)، ورئيس تحرير الصحيفة الأردنية (خوري) والمؤرخ التونسي (جميعط)، والناقد الأدبي السوري (أبو ديب)، والمناضل في مجال حقوق الإنسان الفلسطيني (كتاب)، أن يلتقوا جميعهم تحت مظلة واحدة دفاعاً عن «حقوق» طاغية لا يحلم أي واحد منهم في العيش تحت سلطانه. ولأن مكان الالتقاء هذا ليس موجوداً فقط بل هو أخذ في الاتساع، يضم في عناق واحد مخيف عدداً كبيراً ومختلفاً من العرب الواسعي الثقافة، فذلك هو العائق الأساسي دون قيام سياسة أقل عنفاً وأكثر تسامحاً في هذا الجزء من العالم.

أما أزمة الخليج فكشفت ان الصمت العربي يعني أولاً وبشكل رئيسي انعدام التعاطف مع الآخر، والانسحاب من المجال العام المشترك إلى عناق مريح ولكن خائف مع مجموعات أصغر وأصغر متطابقة الهوية، مثل القبيلة والديانة والطائفة والولاءات العائلية.

الصمت مرادف لموت التعاطف في العالم العربي، إنه سياسة عدم نشر غسيلك الوسخ أمام الناس، فيما تنكشف للعيان من حولك وحشيات رهيبة وعوالم كاملة من الرعب. والصمت اختيار شبيه بتصرف النعامة، اختيار عدم معرفة ما يفعله العربي بأخيه العربي، وكل ذلك بسبب خلجة عصبية لمعاداة الغرب تحولت إلى مرض. يكتب أوليفر ساكس أن الصحة «لامتناهية وتجنح إلى أن تتسع»، ليصل إلى أنها «ينبغي أن تملأ بامتلاء العالم». إن كان ذلك صحيحاً فإن صمت العرب يشبه علّة قوامها «التناهي والجنوح إلى الانكماش»^(١٣).

الصمت هو لغة الترجسية الداخلية، الساعية على الدوام إلى اختصار العالم وإحاطته إلى تأملات ذاتية، وهو، في العالم العربي، الصمت عن القسوة.

في الختام، ما يسعى هذا الكتاب إلى قوله بسيط جداً: إن سياسة التزام الصمت حيال تفاقم القسوة داخل العالم العربي، وهي قسوة يمارسها على الأغلب عربي ضد عربي آخر، مسؤولة بشكل أساسي عن الانهيار الأخلاقي العربي الذي بلغ الآن دركاً وبائياً. فقيادة مثل صدام حسين يزدادون قوة مع صمت الإنجليجنسيا العربية حيال القسوة. إنهم بدورهم «مخلوقون من هذا الصمت». فالثقفون هم من ابتكروا خطاب الصمت.

والصمت هو طريقة في الكلام، في الكتابة، وفوق كل هذا طريقة في التفكير تغطي القسوة وتعتم عليها، القسوة التي ينبغي أن تكون الشاغل الرئيسي لأولئك الأشخاص الذين جعلوا من الكتابة والكلام والتفكير مهنتهم. والتخلي عن هذا الصمت واجب أخلاقي على كل عربي، خصوصاً «المثقفون» بيننا. فما من شيء يوازي هذا أهمية - ليس حتى «النضال ضد إسرائيل». وبالنسبة إلينا كلنا، نحن الذين نحب هذا الجزء من العالم ونتماهى معه، ليس سهلاً أو محبباً قول أشياء كهذه. غير أن ذلك لا يجعلها البتة أقل حقيقة.

لم أسع إلى التثبت بذلك السؤال المعقد حول كيفية توصلنا إلى هذه الحالة الفظيعة. فذلك النوع من المشاريع يحتاج إلى الابتعاد مسافة كافية ويستغرق سنوات. لكن في غضون ذلك، لا يزال الموتى يتكدسون في العالم العربي، ورائحة جثثهم تغطي. وأنا،

بدوري، لم أعد أتمتع بالدراسات العلمية، في شأن هذا السؤال. وهذا الكتاب لم تكن مسأله البحث العلمي بالدرجة الأولى.

ربما ليس في مقدور أحد أن يتعد المسافة المنامية الآن. تكفي معرفتنا بأن الوجهة التي سارت إليها الأمور كانت خاطئة، كما تكفي معرفتنا أننا لا نزال نملك بأيدينا المفتاح الذي به نعكس الصمت. والخطوة الأولى للخروج من المستنقع، هي الخطوة الأقسى والأعصى على الاستئصال، لأنها كامنة في أعماق حساسياتنا. ذاك أن السلطان الثقافي والأخلاقي الذي يلقي باللائمة على الآخرين ما زال فاعلاً بيننا نحن العرب. وإن كنت قد لويت ذلك العود، بقدر ما أعرف، نحو الجهة المعاكسة، فذلك يعود إلى إيماني الراسخ أن ليّه فقط هو ما يمكن أن يولّد للرابطة العرية المعنى الصحيح، المتعدد الأبعاد، والتعدد.

أما الخطوة الثانية فهي «وضع القسوة أولاً». هذا القول المأثور الرائع البساطة، يمتلك الخاصة العظيمة في إهماله فكرة الخطيئة، سواء في شكلها الديني (انتهاك القوانين المقدسة)، أو في شكلها الحديث وهو «اللوم التاريخي». إن الشكلين مترابطان داخلياً ويطاويان جذور الضيق العربي المعاصر. فالمرء يستطيع فقط أن يلحق الألم الجسدي بمخلوق حي، بفرد أضعف منه. جوديث شكلاز أوضحت هذا التصرف وحكمت عليه بأنه «الشر الأعظم»:

«إنه يستحق هذا الحكم بذاته ولذاته، وليس لأنه يعني إنكار الله أو أي مبدأ آخر كبير. إنه حكم مصاغ في داخل العالم الذي تجري فيه القسوة كجزء من حياتنا الطبيعية الخاصة وممارساتنا اليومية العامة. بإحلاله أولاً دون شروط، ومن غير أن يكون ثمة من هو أعلى منا ليسامحنا أو يغفر لنا أفعالنا الوحشية، يغلق المرء الطريق على أي احتكام لأي قانون سوى ذلك المتعلق بالواقع. أن نكره القسوة بأقصى ما هناك من حدة هو أمر متناغم تناغماً كاملاً مع... التدنّ [وكل الإيديولوجيات]، ولكن، لنقل قبل ذلك... إنه حكم إنساني خالص على السلوك البشري»^(١٤).

إن التغيير نحو الأفضل لا يمكن أن يحدث في العالم العربي إلا عندما يأتي جيل جديد من الشبان العرب، ساخط على القسوة غير المقبولة التي تحيط به. وهو ينبغي أن يكون جيلاً ناثراً إلى حدّ تخلّصه من كل آثار الخجل، وأن يجهر بما يريد قوله غير مكترث بمن يسمع، أو لأي استخدام شائن لهذه الكلمات التي قد يستخرها البعض لمصلحته.

إنه زمن رهيب ومقلق أن تكون فيه شاباً عريئاً. فالعروية الشاملة، كعقيدة سياسية، ماتت، لكن «العروبة» تعيش الآن حالة تمزق تفوق ما كان في أي وقت آخر. ولئن لم تكن الدراسة العلمية هدف الكتاب الأول لهذا الكتاب، فهذا لأننا عثرنا على تحديد العلة ومحاولة إيجاد طرق جديدة لوصفها. فالتأريخ والبحث والدراسات الأكاديمية يمكن لهما أن ينتظرا أياماً أفضل، أنا واثق من قدومها. لكن متى؟

الهوامش

المقدمة

- (١) سمير الخليل «الفرق في خليج الأكاذيب» صحيفة «الأنديبنت» ٢٥ آب/ أغسطس ١٩٩٠، ص ٢٨.
- (٢) من أجل نعي لفرج فودة، أنظر عادل درويش، صحيفة «الأنديبنت» ١٠ حزيران/ يونيو ١٩٩٢.
- (٣) عنوان الكتاب «المندرس اليهودية والإيرانية في العراق» (بغداد ١٩٨٤). كتاب فاضل البراك مناقش في الفصل الأول من كتابي «جمهورية الخوف».
- (٤) كما نقلت مصادر من العراقيين من بغداد، ثم نشرته لاحقاً في تشرين الأول/ أكتوبر صحيفة لندنية شهيرة لا تسمح بأن تشير إليها المراجع.
- (٥) إن نسخة إيرانية مكرسة من نوعية ممتازة ومثيرة للدهشة، كانت قد ظهرت تحت عنوان «جمهورية وحشت»، ترجمة أحمد تدين (طهران ١٩٩٢) وإني مدين إلى صديق هوشانغ شهابي لحصوله لي على نسخة وترجمته لي مقاطع منها. في مقدمة المترجم، جرى تحذير القارئ من أنه فيما أملى أموراً كثيرة هامة أقولها عن العراق، ونتيجة لتقافة القارئ الإيراني الرفيعة، لم يشعر بأنه من الضروري التعليق على جهلي الواضح بكل الأشياء التي تتعلق بجمهورية إيران الإسلامية. ولهذا، على سبيل المثال، كلما كنت أقوم بمقارنة بين قسوة صدام وقسوة الخميني خلال الحرب العراقية - الإيرانية، وعلى الرغم من أن الفكرة كانت مترجمة بأمانة وبشكل كامل، كانت تقحم كلمة «إمام» داخل هلالين معقوفين قبل أي ظهور لاسم الخميني. تجدر هنا الإشارة إلى حال النشر السيئة في العالم العربي، مقارنة بالاهتمام المبدول في ترجمة هذه النسخة الإيرانية، ومن ثم نوعية إنتاج الكتاب وهي تفوق نوعية الكتب العربية الثلاثة.
- (٦) أنظر مقالة حبيبي في صحيفة «القدس العربي» العربية الصادرة في لندن، في ٢٠ آذار/ مارس ١٩٩١.
- (٧) سمير الخليل «النيويورك تايمز» ٢٧ آذار/ مارس ١٩٩١.
- (٨) أنظر الفصل ٦ وتذكر القسوة حاشية ١.
- (٩) صدر الفيلم عن سلسلة الأفلام الوثائقية في شبكة ال.بي.بي.سي التي تحمل عنوان «إفري مان»، قام بإخراجه غوين روبرتس، وعرض لأول مرة في بريطانيا في ١٢ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٢. وعرض في الولايات المتحدة على برنامج «فرونت لاين» في ٣١ آذار/ مارس ١٩٩٢ تحت عنوان «حقول قتل صدام حسين».

- (١٠) «القدس العربي» الجزء الأول «كيف أصبح كتاب «جمهورية الخوف» أسطورة؟» نشر في ٥ شباط/ فبراير ١٩٩٢. علامات الاقتباس حول عنوان الكتاب هي من الأصل. الجزء الثاني «ومن اليأس ينشق المجسم الذهني» نشر في ٦ شباط/ فبراير ١٩٩٢، بشأن عنوانه يعترف حديدي أنه استعارة من نقد لمواقفي السياسية كان كيه في آذار/ مارس ١٩٩٢ ألكسندر كوكبرن في مجلة «نيو ستايتسمان أند سوسيتي».
- (١١) أنظر مقابلة سعيد مع بريرا هارلو، بعنوان «المثقفون والحرب»، تقارير ميريب MERIP رقم ١٧١ (تموز/ يوليو وآب/ أغسطس ١٩٩١) صفحة ١٦ و ١٨.
- (١٢) إنني مدين إلى لطيف رشيد لأنه كان أول من زودني بتلك النسخ عن ملفات الشرطة السرية العراقية المتعلقة بحملة «الأنفال»؛ وبرهم صالح الذي زودني بوثائق أخرى أثبتت هي أيضاً أنها هامة جداً في تأكيد ما جرى لتيصور، وشورش رسول الذي ترجم لي كلام تيمور عن الكردية، كما كان شورش من قام بتحضير لائحة الـ ٧٥٥٨ كرداً الذين يعتقد أنهم اختفوا خلال حملة الأنفال في ١٩٨٨. قام بالعمل بسرعة داخل العراق متحزماً شخصياً لخطر عظيم. قبل غزو صدام حسين للعراق هربت اللائحة بطريقة سرية وقدمت إلى منظمة العفو الدولية، وأقام شورش في نهاية الأمر في لندن وقص روايته شخصياً على منظمة العفو، لكن لا بد أن وقع روايته بدا غرائبياً، حتى حين يؤخذ في عين الاعتبار مستوى قسوة البحث، لهذا لم يحضر لقاء كانون الثاني ١٩٩١ مع منظمة العفو شاعراً بأن أحداً لم يصدق أنه من المعتقل أنها حصلت. ونتيجة صدقة غير اعتيادية، تذكر شورش أن اسم تيمور عبد الله المولود في ١٩٧٨ في قرية قلعة جو، كان ضمن اللائحة الأصلية للسكان المتوارين. أكثر من ذلك، كان في حوزتي سجل رسمي عن «القرى المزالة» وكان اسم قلعة جو ضمن أسماء السجل. كان الولد ضحية شيء أكبر بكثير مما كان يمي. وقد لجأ بطريقة عجالية من حملة حزب البحث في ١٩٨٨، تلك التي قامت على الإبادة الجماعية وحملت اسماً شفوياً هو «الأنفال».
- (١٣) بريمو ليفي «الفرقى والتاجون» (نيويورك: فيتاج بوكس ١٩٨٩) ص ١٢.

الباب الأول

١ - خليل

- (١) أجريت المقابلة مع خليل في لندن صيف ١٩٩١.
- (٢) «السانداي تلغراف» ٣ آذار/ مارس ١٩٩١، ص ١٧.
- (٣) في الفصل الثاني رواية قصة الثورة في العراق، أو «الانتفاضة» كما تعرف بين العراقيين، والتي بدأت في مدينة البصرة بالجانب يوم انتهت حرب الخليج في ٢٨ شباط/ فبراير ١٩٩١.
- (٤) الاستشهادات مصدرها ثلاثة تقارير هامة: ملف «أوتوستراد المجسيم» أو الذي نشرته مجلة «نيو ستايتسمان» في ٢١ حزيران/ يونيو ١٩٩١، ومقال جولي فليت «وجه الحرب الحقيقي» في صحيفة «الأوبزرفر» ٣ آذار/ مارس ١٩٩١، ومقالة مايكل كيلبي «مجزرة فوق طريق منسي» صحيفة «الغارديان» ١١ نيسان/ أبريل ١٩٩١.
- (٥) كيلبي «مجزرة فوق طريق منسي».
- (٦) روبرت فيسك «رعب، تدمير، وعار، طوال طريق صدام إلى الدمار» صحيفة «الأنديبنندنت» ٢ آذار/ مارس ١٩٩١.

- (٧) مأخوذ من مقالة بعنوان «جثث محروقة تكسو الأوتستراد....»، «الغارديان» ٢ آذار/ مارس ١٩٩١.
- (٨) جملة «العراقية الماجدة» ابتكرت لأول مرة خلال الحرب العراقية الإيرانية، لتمجيد النساء العراقيات المنجيات اللواتي يقمن أطفالهن طائعات ليموتوا من أجل العراق. أحد العراقيين الساخرين، وقد لاحظ أن النساء العراقيات غير المتزوجات اللواتي كن بحاجة ماسة إلى المال، تدفن إلى عمّان بعد نهاية حرب الخليج ليجمعن بعض المال عبر امتحان البغاء، ردّ قائلاً: «العراقية الماجدة صارت بدنيار للأردني». عاجلت الحكومة العراقية المشكلة في النهاية مصدرة قانوناً يمنع كل النساء من السفر بمفردهنّ إلى خارج البلاد. خلال أزمة الخليج، اعتبر «الشرف العربي الضائع» مسألة على المحك من قبل العديد من العرب، واستخدم كثيره لدعم النظام العراقي. جملة صدام حسين «العراقية الماجدة» مشتقة من نظام الشرف والعار التقليدي، والذي تناقش أعماله الوحشية ضد النساء العربيات في الفصل ٩، بعنوان «مشاهد من القسوة والصمت».
- (٩) بعض أفضل التقارير الصحافية بشأن هذا الموضوع كُتب روبرت فيسك، الذي لا يمكن بالتأكيد اعتباره «لطيفاً» مع القوات المتحالفة. «خلال الأيام التي تلت مباشرة تحرير الكويت، صدم العديد من الصحفيين من فيهم أنا، بالسلك الشرير والشرطي للسلطة العسكرية العراقية في الكويت بالذات. كان النهب قائماً بأقصى الدرجات. كانت الإعدامات والتعذيب على أشدها. كانوا قتلوا أطفالاً أمام أهلهم. استخدموا المثقاب لصلب الناس. يبدو ذلك للوهلة الأولى أشبه بدعاية حرية نموذجية. لم أصدق ذلك حتى وصلت إلى هناك ورأيت جثثاً في مستودع أعد لذلك مع فجوات مثقبات في أيديها وأقدامها ودخل أعينها كذلك»، مأخوذة من مجلة «نيو ستاتسمن وسيوسيتي» ٢١ حزيران/ يونيو ١٩٩١، ص ٢٧. أنظر أيضاً مقالته «شيء ما شرير زار مدينة الكويت» صحيفة «الأنديندنت»، ٢٨ شباط/ فبراير ١٩٩١.
- (١٠) إسحق بن نير «تا تو أون» «Ta' to 'on» (تل أبيب: تساد هاتيفير Tsad Hatefer ١٩٨٩) ص ٨٠ - ٨١. أتوجه بشكري لإيمانويل وأليزا فرجون وليس خوري لاكتشافهم هذه الرواية وترجمة مقاطع منها.
- (١١) مقالة منصف مرزوقي نشرت إبان الحرب تحت عنوان «العرب المضلل» في صحيفة اللوموند، في ٦ شباط/ فبراير ١٩٩١.
- (١٢) من كتاب كيفن دويرز الممتاز عن مناظرة حقوق الإنسان في الشرق الأوسط «أصوات عربية» (بيركلي: مطبوعات جامعة كاليفورنيا ١٩٩١) ص ١٦٦ - ١٦٧.
- (١٣) عبد الرحمن منيف، «أي عالم سيكون؟ المثقفون العرب والنظام الدولي الجديد»، نشر في «عودة الاستعمار: من الغزو الثقافي إلى حرب الخليج»، بقلم مجموعة كتاب (لندن. منشورات رياض الرئيس ١٩٩١) ص ٤٠.
- (١٤) لم يكن هذا التحامل حكراً على العرب. بعض المناضلين ضد الحرب في الولايات المتحدة كانوا منفسين في ذلك. أنظر على سبيل المثال الكاريكاتور المشين في مجلة «زده» «Z Magazine» (حزيران/ يونيو ١٩٩١) ص ١٩. ثمة كويتي سمين بشكل نافر وشرير السمات ينحني إلى سيارته المرسيدس بنز، وفي المنظر من خلفه آبار بترول (زوجة وابنة محجبتان داخل السيارة) وإلى جانبه كردي أعرج يشع السمات، يرتدي أسماً، مع زوجته وابنته في المؤخرة. مهما يكن قصد الرسام، فإن الرسم الكاريكاتوري مهين للكويتيين والأكراد على حد سواء.
- (١٥) راجع ما كتبه الكاتب العراقي خالد قشطيني في كتابه «السخرية السياسية عند العرب» (لندن كورنت بوكس ١٩٨٥) ص ٥٩.

- (١٦) حازم صاغية، كاتب وصديق، علّق على هذه النقطة، ملاحظاً، أن ثمة حاجة إلى رابط سوسولوجي وسيط لتحليل الظاهرة، رابط يحدد النمو الثقافي السريع «للكراهية» التي أظهرها العديد من العرب تجاه الكويتيين خلال أزمة الخليج. والهجاء من تعابير الظاهرة التاريخية - السوسولوجية «للعصبية»، التي تتفاقم بشكل بالغ في أوقات الأزمات أو الضعف. و«العصبية» كان استخدمها بشكل باهر المؤرخ العربي العظيم ابن خلدون في تحليله لصعود الامبراطوريات الإسلامية وسقوطها في قرون ماضية. وفي رسالة شخصية أضاف صاغية هذه الملاحظات إلى البرهان المقدّم في هذا الفصل: الهجاء أساساً، قبل المتنتي، وحتى قبل الإسلام. فقد ولد مع تعبير العصبية عن نفسها، ثم بات غرضه لاحقاً حشد الزعم بعد ضعف «الوحدة» التي نتجت عن الإسلام (الشاعران الفرزدق والأخطل في فترة بني أمية ظاهرة نموذجية). أكثر من ذلك، أظن أن العصبية ضد الكويتيين كانت ظاهرة مركبة انبثقت في زمن وجود فرق شاسع في الفراء سببه أموال البترول. إنها إذن عصبية بضع مجموعات تجاه مجموعات أخرى في ظل ثقافة تشدّد على الأصل والقبيلة. وماذا لو أضفنا الحسد إلى هذه المعادلة المتفجرة؟ إن الهجاء في العالم العربي اليوم يروّج من هذه المياه الآسنة.
- (١٧) لهذا التقييم لقياني، أنظر سلمى خضراء المجيرسي، «اتجاهات وحركات في الشعر الحديث» (لندن: أ. ج. بريل ١٩٧٧) مجلد ٢ ص ٦٦٤.
- (١٨) نزار قباني «أبو جهل يشتري فليت ستريت» في مجلة «الناقد» الشهيرة الصادرة في لندن. العدد ١٠ نيسان/ أبريل ١٩٨٩، ص ١٠.
- (١٩) من قصيدة، «لماذا أكتب؟» من كتاب نزار قباني «قصائد مغضوب عليها» (القدس: وكالة أبو عرفة ١٩٨٧) ص ١٤.
- (٢٠) من أجل مثل آخر، أنظر مقالة نزار قباني في «الحياة» في ١١ تموز/ يوليو ١٩٩٢. في تلك المناسبة يودّ الشاعر أن يشير إلى كم أصبح كل العرب موضع سخيرة في النظام العالمي الجديد. غير أن الصورة التي تفرّج في ذهنه لوصف العنصرية الغريبة أهم من كل ما لديه ليقوله بشأن الموضوع بالذات. وآخر ما توقّعه العرب، بعدما أنفقوا على حرب الخليج.. تمويشة (عمرهم) ودفعوا ما فوقهم وتحتهم... أن يصبحوا في آخر عمرهم سيرلانكيين... ربما حلموا أن يصيروا أميركيين أو بريطانيين بالجنس أو بصيروا فرنسيين، أو سويديين، أو دانمركيين، أو في أضعف الإيمان قيارصة. عوض ذلك فالعالم الأول يصير على معاملتهم كسيرلانكيين هم في اعتبار الشاعر أحطّ المنحطّين لأنهم «يمسحون الأرض» و«ينظفون الصحون»، ويضيعون وقتهم في تربية الأطفال. في منتصف المقال يعلّق الشاعر على كيف ان «رائحة الإنسان، قد أصبحت سبباً مبرراً لطرده أو اعتقاله، أو محاكمته»، في بلد كفرنا على سبيل المثال. كان قباني يهتكّم بالطبع، لكنه يتابع لإثبات فكرته، ملاحظاً أنه بينما يعيش نصف الأوروبيين «مع كلابهم في غرفة واحدة.. ويأكلون معهم في طبق واحد، ويتنامون معهم في فراش واحد»، يقوم الدين الإسلامي «على نظافة الجسد ونظافة الروح».
- رداً على مقالة قباني كتب الكاتب السعودي غازي القصيبي مقالة جيدة مشبعة بسخيرة خفيفة النبرة في جريدة «الحياة» في ١٣ تموز/ يوليو ١٩٩٢.
- (٢١) أنظر كمشال، المقالة المستأجرة للباحث الأميركي الأسود هنري لويس غابتز، «الديماغوجية السوداء والعلماء المرتفقون»، «النيويورك تايمز» في ٢٠ تموز/ يوليو ١٩٩٢.
- (٢٢) نزار قباني، «الناقد» رقم ٣٣ (آذار/ مارس ١٩٩١) ص ٦ - ٧. إن استخدام قباني كلمة «الوطن» يصعب نقل دلالتها إلى الإنكليزية. في الاستخدام الكلاسيكي، تحمل كلمة الوطن معنى الكلمة الإنكليزية «هزم»، وهي مرتبطة بتذكارات العائلة ومكان الولادة. في القرن التاسع عشر تحولت لتحمل معنى الكلمة الفرنسية «باتري»، أو الكلمة الألمانية «فازلند»، أو البلاد بمفهوم واسع. إن الإشارة الضمنية

هي على الدوام إلى مكان يتعلّق به المرء بطريقة عاطفية جداً، وليس لأسباب دينية. ذلك المكان يمكن أن يكون سوريا أو مصر ولكن يمكن أن يكون أيضاً معظم العالم العربي، «الوطن العربي». من الفحوى يبدو واضحاً أن قباني يقصد هذا التفسير الأخير. (الاستخدام نفسه يستعمله أولئك الكتاب والمحللون الذين نوقشت آراؤهم حيال أزمة الخليج في الباب ٢).

(٢٣) نزار قباني «الناقد» عدد ٣٥، (أيار/ مايو ١٩٩١)، ص ٤ - ٧.

(٢٤) «ألف باء» رقم ٨١٤، ٢ أيار/ مايو ١٩٨٤. في العدد نفسه، نشرت كذلك رسائل خنوعة بالقدر نفسه من سعاد الصباح، وهي إحدى أفراد العائلة الحاكمة في الكويت ومدافعة عن القضايا القومية اليسارية «التقدمية». عبد الوهاب البياتي الشاعر العراقي وهو أحد أهل القلم العرب مثل قباني، وروجه غارودي، الكاتب الفرنسي اليساري والاختصاصي في شؤون الشرق الأوسط.

(٢٥) أجريت المقابلة مع حنان (اسم مستعار) في الولايات المتحدة في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٢.

٢ - أبو حيدر

(١) أعطاني خليل دفتر يوميات ضابط البوليس هذا، غير أنني لأسباب بيّنة لا أشعر بأنني حرّ في نشر اسم ذلك الرجل. من المهم أن أشير إلى أنه كتب أن وزير الداخلية قال لهم في ٢ آب/ أغسطس ١٩٩٠، إبان لقاء خاص مع كل ضباط الأمن الذين أرسلوا إلى الكويت: «سوف تتوجهون إلى محافظة الكويت وهي محافظة كمثل كل محافظات العراق». بكلام آخر كان في نية حزب البعث طوال الوقت ضمّ الكويت. وذلك لم يكن قراراً متسرعاً وضيعاً قام به صدام حسين بعدما تطوّرت الأزمة. عن سياسة البعث في نقل عرب الأهوار إلى مستوطنات شبيهة بالتي نقل إليها مئات ألوف الأكراد طوال الثمانينات، أنظر مقالة باتريك كوكيرن، «التيار يتحوّل ضد عرب الأهوار في العراق» صحيفة «الأنديبنت» ٧ أيار/ مايو ١٩٩٢.

(٢) وارد في كتاب جون سيمبسون «من منزل الحرب» (لندن: آرو بوكس، ١٩٩١) ص ٣٥٧.

(٣) حبيب (اسم مستعار) أجريت المقابلة معه في صيف ١٩٩١ في أوروبا بواسطة مساعد لي بفضل أن لا يعرف باسمه. كتبت المقابلة، بعد اللقاء، انطلاقاً من التدوينات.

(٤) مأخوذة من كرونولوجية الانتفاضة التي وضعتها مؤسسة الحوئي القائمة في لندن. بحسب هذه الكرونولوجيا، بدأت أحداث ساحة سعد عند الساعة الرابعة والنصف من بعد ظهر ٢٨ شباط/ فبراير (وهذا يعني قبل إعلان وقف إطلاق النار بشكل رسمي). بحسب روايات أخرى، بدأت في الساعات الأولى من صباح الأول من آذار/ مارس ١٩٩١.

(٥) من تقرير باتريك يشوب في صحيفة «الداهلي تلغراف» ٢ آذار/ مارس ١٩٩١.

(٦) إنني مدين لزهير حمادي لأنه عرفني على كاظم الريسان الذي قمت بإجراء مقابلة معه في فيينا في ١٨ حزيران/ يونيو ١٩٩٢.

(٧) بدأ ترحيل الشيعة العراقيين إلى إيران عام ١٩٧١. يبدو أن أول المرشحين هم أولئك الأشخاص الذين كانوا لا يزالون يحملون جوازات سفر إيرانية، على الرغم من أن آبائهم وأجدادهم ولدوا في العراق وعاشوا وعملوا هناك تحت حماية الامبراطورية العثمانية. عشرات الآلاف من الأشخاص (ربما ما يزيد عن ٩٨٠ ألفاً) بمن فيهم بشكل خاص عدد كبير من الأكراد الفيليين (أكراد شيعية)، رحّلوا إبان تلك الموجة الأولى. الموجة التالية استهدفت المناطق المتاخمة لبغداد وهي: قنبر علي، القشلة، باب الشيخ، قهوة شكر، الخلائي، عقد الأكراد. ثم خفّ زخم الحملة شيئاً فشيئاً، وربما توقفت نهائياً. في ٦ نيسان/ أبريل ١٩٨٠ بدأ الترحيل مجدداً فجأة، ولكن على مستوى كبير جداً. كانوا ينقلون يومياً

بالشاحنات بين الخمسة والستة آلاف شخص إلى الحدود الإيرانية حيث يرمون هناك. في تلك الموجة دخلوا كذلك كل حاملي جوازات السفر العراقية المصوتين في أوراق جنسيتهم على أنهم «من أصل إيراني». رُحِّل مئات الآلاف من العراقيين الذين تتوافق مواصفاتهم مع ذلك التحديد، وبالطريقة نفسها مع بدايات الثمانينات (الأرقام تتراوح بين ٢٠٠ ألف و ٤٠٠ ألف). كانت الحكومة الإيرانية تصدر إحصاءات حول ذلك غير أنها توقفت بعد فترة، لكن يقال إن العدد الرسمي الإيراني وصل إلى ١٦٥ ألفاً. العديد من الآلاف الآخرين فُزوا قبل أن تستطيع الحكومة محاصرتهم، ويقدر أن هناك مليوني عراقي يحملون جنسية عراقية تحمل إشارة «من أصل إيراني». إنني مدين إلى ضياء كاشي الذي آمن لي تفاصيل عن حملة الترحيل هي، لسوء الحظ، غير متناولة علمياً حتى بشكل أقل من عادي.

(٨) «الأطفال» هو الاسم الشفري للحملة التي قادتها الحكومة العراقية في ١٩٨٨ - مستهدفة المناطق الريفية في كردستان العراقية. إن قصة الحملة مروية بأكملها في الفصل ٥، «تيمور».

(٩) فاطمة (اسم مستعار) قابلتها في لندن في صيف ١٩٩١.

(١٠) لقايتي مع أبي حيدر (اسم مستعار) قدر له أن يحدث نتيجة لمسعى غام جواد، الذي جهد باحثاً من أجلي عن مصادر معلومات بشأن الانتفاضة. من غير ثقة غام جواد بي، لم يكن بالمستطاع أن يكتب هذا الفصل، وأنا أقدم له أعمق الشكر. أجريت المقابلة مع أبي حيدر في لندن صيف ١٩٩١.

(١١) من الأناشيد الأخرى العامة التي استطعت الحصول عليها من مصادر مختلفة: «الله أكبر» و«يا حسين». من الشعارات المكتوبة على الجدران: «لا زعيم إلا الحكيم» (محمد باقر الحكيم، زعيم المجلس الإسلامي الأعلى الكائن في إيران)، «ثورة إسلامية، لا شرقية ولا غربية». خلال الانتفاضة كان غالباً ما يدعى صدام «الطاغية»، وهو تعبير قرآني أصبح شعبياً بعدما استخدمه الخميني خلال الثورة الإيرانية ضد الشاه.

(١٢) نقلت الحكومة العراقية وحدات من الجيش والحرب من مراكزها إلى داخل أبنية المدارس غير المستهدفة من قبل القوات المتحالفة. لهذا السبب كانت هذه المدرسة في النجف مسرحاً لتلك المعركة الطاحنة. هذه القصة والاستشهادات هي من حوار مسجل مدته خمس ساعات بين مجموعة من الثوار النجفيين وهم يسترجعون أحداث الانتفاضة وهم في مدينة إيرانية. سجل الحوار بعد وقت قصير على الأحداث بهدف تسجيل ما جرى وتوثيقه. وصلنتي ثلاثة أشرطة مسجلة وكلها أصلية من دون أدنى شك، ومن أعطاني الأشرطة، وهو عراقي شيعي، بفضل أن يبقى اسمه مجهولاً. من هنا فصاعداً سوف نشير إلى هذا المصدر بتعبير «الأشرطة الإيرانية».

(١٣) الاقتباس من الأشرطة الإيرانية.

(١٤) من أجل مزيد من المعلومات عن عزيز علي أنظر الفصل ١٠، «تعريف الصمت».

(١٥) من الأشرطة الإيرانية. رضا الفخام شاعر شعبي آخر، كان ألقى القبض عليه وحوكم في النجف، ولست أعرف ما آل إليه مصيره.

(١٦) أنظر مقالته الممتازة «تقارير ترفع الحجاب عن الانتفاضة الشيعية في العراق». صحيفة «ول ستريت جورنال» ٣١ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩١.

(١٧) العبارة التي استخدمها المتفضضون هي «أعلن عن توبته». هذا ما قاله أحد المتفضضين: «صدر أمر من السيد... بأن كل من سَلِمَ سلاحه وعلِن التوبة ينبغي أن لا يقتل. وهكذا بدأ الناس يتوافدون. ويشهد علي الله كان أحد أولئك الناس ملازماً أول أحضرته زوجته وابنه. أحضرت كذلك أحد أولاد عمه الذي كان أيضاً بعتياً. سَلِمَ سلاحه ثم وقَّع تعهداً يقول بأنه أصبح الآن مع الانتفاضة. بالطبع بقي ذلك الرجل تحت الكفالة من قبل آخرين» - من الأشرطة الإيرانية. هذا هو المعجم البعني للجريمة والعقاب وصولاً إلى أصغر التفاصيل، كمثل فرض كفالة على أفراد العائلة الآخرين بشأن سلامة سلوك الضحية المتكلم عنه.

- (١٨) هذه القصص وغيرها موجودة في الأشرطة الإيرانية.
- (١٩) فاطمة (اسم مستعار) - أنظر هامش رقم ٩.
- (٢٠) من الأشرطة الإيرانية.
- (٢١) هذا السيد من النجف، أجريت مقابلة معه في صيف ١٩٩١، وتابع لي لعب دوراً قيادياً في الانتفاضة. رُتبت هذا المونولوج انطلاقاً من تدوينات دُوّنتها على الفور بعد المقابلة.
- (٢٢) إن ظاهرة البصق على الجثث، أو على الأشخاص الذين هم على وشك أن يعدموا، يمارسه بشكل واسع النظام في بغداد، وقد بدأ عندما شقوا السبعة عشر عراقياً أمام المصوم في كانون الثاني/ يناير ١٩٦٩ - كان من بينهم ١٣ عراقياً يهودياً - ومؤخراً حين جرى إعدام ٤٢ تاجراً في ٢٥ تموز/ يوليو ١٩٩٢، إذ أُجبر البعثيون الناس على المرور قريبهم والبصق عليهم. المقابلة مع حميد (اسم مستعار) جرت في العراق صيف ١٩٩١ وأجرها طوني هورفيتز وهو مؤلف كتاب، «بغداد من دون خارطة» وأنا مدين إليه لأنه سمح لي باستخدام تدويناته. يقول حميد إن «بعض الأشخاص أصدروا صحيفة صغيرة، من ثلاث صفحات أو أربع، تتضمن آخر الأخبار عن الانتفاضة، ومقاطع ملهمة من القرآن». سمعت عن هذه الصحيفة من أكثر من مصدر واحد ولسوء الحظ لم أستطع الحصول على نسخة منها.
- (٢٣) تاريخ الفتوى هو ١٨ شعبان ١٤١١ هجرة وهذا يوافق ٥ آذار/ مارس ١٩٩١ ميلادية.
- (٢٤) من الأشرطة الإيرانية.
- (٢٥) الاصطلاح العامي العراقي الذي استخدمه حبيب ليصف كيف بدا صوت صدام على الراديو هو «ماكل قازوق».
- (٢٦) الإشارة هي إلى محمد باقر الحكيم، الزعيم السياسي للمجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق والمقيم في طهران، المجلس الذي لعب دوراً هاماً خلال الانتفاضة، كان قد شكّل عام ١٩٨٢ وكان مركزه على الدوام طهران. والمنظمة تصف جمهورية إيران الإسلامية بـ «قاعدة الثورة الإسلامية العالمية» وقد عملت لفترة كمنظمة - مظلة، جامعة عدداً مختلفاً من المجموعات الإسلامية، غير أنها في السنوات الأخيرة أصبحت مرتبطة فقط بشخص الحكيم. أنظر جويس. ن. «الحركة الإسلامية للشيعا العراقيين»، (لندن: منشورات لين رايتز ١٩٩٢) ص ٦٠.
- (٢٧) المقابلة مع حميد (اسم مستعار) جرت في صيف ١٩٩١ وكان المحاور طوني هورفيتز. أنظر حاشية رقم ٢٢.
- (٢٨) أجريت هذه المقابلة في لندن في آب/ أغسطس ١٩٩١ مع قائد رفيع الشأن في الجبهة الكردستانية، وهو يفضل أن يبقى اسمه مجهولاً.
- (٢٩) هادي (اسم مستعار) وهو مقاتل ميليشيا كردي شاب، شارك في الحادث ووصف ما جرى إلى نيز كمال، الذي قابله من أجل هذا الكتاب في أيلول/ سبتمبر ١٩٩١ في فيينا. بشأن معلومات أكثر عن هذه المجتمعات السكنية أنظر الفصل ٥، «تيمور».
- (٣٠) لا بد أن المذكرة كانت قد أعدت خلال الوقت الذي رمت فيه من الطوافات الوريقات التي تهدد بحملات كيميائية على مدن الجنوب. ويزعم العديد من اللاجئين من الجنوب أنهم شاهدوا تلك الوريقات ووصفوا وثيقة شبيهة بالفعل بواحدة عُثر عليها في دهوك موجهة لمدن النجف و كربلاء والبصرة والعمارة والناصرية. البند رقم ٧ يبدو أنه يحتوي معلومات عامة صادرة إلى كل مكاتب الأمن في العراق وهي متعلقة بـ «القسم الفني» الذي يقوم «باستخدام الوسائل الفنية وحسب التعليمات وإشراف ضابط القسم» وهذا التعبير الملطف يعني استخدام الأسلحة الكيميائية ضد المتظاهرين المدنيين. كل الاستشهادات هي من نسخة الوثيقة الموجودة بحوزتي.

- (٣١) أجرى المقابلة مع سرور من أجل هذا الكتاب نيز كمال في النسا في أيلول/ سبتمبر ١٩٩١.
- (٣٢) في خطوة دعائية استثنائية، قام مجاهدو الشعب بإرسال شريط فيديو غير متقن التسجيل إلى أعضاء في الكونغرس الأمريكي، يزعم بأن مقاتلين من حراس الثورة الإيرانيين تنكروا بلباس أكراد وهاجموا مدناً عراقية شمالية، ومن ضمنها السليمانية. يزعم المجاهدون في شريط الفيديو أنهم ردوا ذلك الهجوم الإيراني وصوّروا جثث أولئك العراقيين الأكراد الذين قتلهم دفاعاً عن نظام صدام حسين. بشأن هذا، وعن منابع الانتفاضة في شمال العراق، أنظر التقرير الذي يحمل عنوان، «الحرب الأهلية في العراق» لكتابه يتر غالبرايث، المكتوب للجنة العلاقات الخارجية، مجلس الشيوخ الأمريكي أيار/ مايو ١٩٩١.
- (٣٣) المقابلة مع المستشار الكردي أجراها في شمال العراق نيل كوران من «ناشونال جيوغرافيك» في أيار/ مايو ١٩٩١. أنا شاكر جداً له لتأمينه لي كل مخطوطات أشرطته التسجيلية. ومن أجل حماية كل هويات المحاورين نزلت كل الأسماء.
- (٣٤) هناء (اسم مستعار) امرأة عريية شابة من بغداد عاشت مع زوجها الكردي في السليمانية، أجرى المقابلة معها من أجل هذا الكتاب نيز كمال صيف ١٩٩١ داخل مخيم للاجئين العراقيين في أوروبا. في بغداد شوّهت صور صدام ليلاً. إحدى سكان الأعظمية أخبرتني أنها استفاقت ذات صباح لتجد ثغرة صغيرة حيثما كان يوجد فم صدام حسين في الصورة، وكان يطلع منها حذاء موضوع بعناية (كانت طريقة بصرية لقول: «صدام مأكّل قازوق» راجع هامش (٢٥).
- (٣٥) أخذت كلمات مسعود برزاني من مخطوطة فيلم «حلم تعرض للخيانة»، من إخراج غوين روبرتس، عرض للمرة الأولى في بريطانيا على القناة ٤ في نيسان/ أبريل ١٩٩١.
- (٣٦) هذا الحادث شهده هادي (اسم مستعار) وهو مقاتل كردي شاب من المجمع السكني الذي بنته الحكومة في خباط قرب راتية. قام بمقابلة هادي من أجل هذا الكتاب نيز كمال في أيلول/ سبتمبر ١٩٩١ في فيينا. قصة شبيهة كانت رويت لجيرالدين بروكس خلال زيارتها شمال العراق: «وأيتهم يسكون أحد المخذّين، همس لي مضيقي للشاء، رموه في الشارع وتجمع حشد من حوله، حين شققت طريقي بينهم، كانوا على وشك أن يقطعوا أذنه. رجاهم مضيقي لكي يتوقفوا. نظر إليّ الرجل الساخط الذي يحمل السكين وقال: «هل اختفى لك ابن؟ لا إذا ليس لديك ما تقوله هناء. صحيفة «ول ستريت جورنال». ٢٠ نيسان/ أبريل ١٩٩٢.
- (٣٧) هذه الرسالة كتبها باسل (اسم مستعار)، وهو مقيم في بغداد، إلى شقيقه عمر (اسم مستعار) المقيم حالياً في الولايات المتحدة. فر باسل مع عائلته إلى السليمانية هرباً من القصف الجوي للقوات المتحالفة. هناك رأى المشاهد الموصوفة في الرسالة، قبل أن يهرب ثانية، لكن من عهدة الحرس الجمهوري هذه المرة. الرسالة أرسلت من إيران، حيثما انتهى الأمر بباسل وعائلته لفترة وجيزة. كنت قد رأيت فيلماً صوّر في مبنى مقر الأمن المركزي بعد وقت قصير من الأحداث التي رواها باسل. الجثث التي وصفها كانت لا تزال هناك لم ترفع بعد، والزميل الكردي الذي أتاح لي مشاهدة الفيلم زعم أنه جرى إحصاء لعدد القتلى الذين سقطوا خلال المعركة التي دامت ٤٨ ساعة وأنه يفوق التسعمائة شخص. إثر الأحداث المخفية في السليمانية، عاش باسل تجربة جهنمية أخرى وهو يحاول أن يخرج عائلته بسلام وينقذها من غضب الحرس الجمهوري. قصة عمر، شقيق باسل، تشكل الفصل التالي من الكتاب.
- (٣٨) أنظر سيمسون، «من منزل الحرب» ص ٣٥٩. مقابلاتي مع مواطنين عاديّين من البصرة تؤكد قصة سيمسون.
- (٣٩) بكلام آخر، الردة في الخطاب الاسلامي السياسي المعاصر هي ذاتها الخيانة في الذهنية البعثية. غير أن الخيانة موجهة ضد العروبة، والولاء المطلق هو لحزب البعث وهو الوكيل الشرعي لنشر العروبة. أقام ميشيل عفلق بشكل صريح في كتاباته التي تعود إلى الأربعينات هذا الترابط مع الإسلام. وهذا ما يشدّد

على الحاجة الملحة إلى تفكير ليبرالي جديد بين المفكرين المسلمين من أجل «إعادة تفسير» أو إعادة النظر في هذا الخطاب.

(٤٠) أجريت مقابلة أم حسين في لندن بعيد وصولها من العراق، وكانت أمضت فترة الحرب في الناصرية والبصرة، وهي تنظر إلى الانتفاضة نظرة سلبية للغاية رغم كونها عانت من الحرس الجمهوري بعد استعادته السيطرة.

(٤١) مقابلة مسجلة على شريط مع أم حسين من البصرة أجراها كتنان مكيّة.

(٤٢) قام نيز كمال بمقابلة سامان من أجل هذا الكتاب خلال صيف ١٩٩١ في مخيم للاجئين العراقيين بأوروبا.

(٤٣) نهب وأحرق ما مجموعه تسعة متاحف في شمال العراق وجنوبه خلال الانتفاضة، وقد ما يقدر بأربعمئة تحفة. نقل جزء من مجموعة المتحف العراقي في بغداد إلى كركوك لإنقاذ المكان للمجموعة الرائعة من التحف الإسلامية التي سرقها الحكومة العراقية من الكويت أثناء الاحتلال. ومن ضروب السخرية انه في حين عادت هذه التحف الإسلامية إلى مالكيها الشرعيين (في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩١) سلبت مجموعة المتحف العراقي بكاملها من كركوك خلال الانتفاضة الكردية. واكتشفت لاحقاً بالصدفة بعض التحف في صناديقها على جانب الطريق. أتا الباقي بدأ يظهر في أسواق الفن العالمية يعرضه عملاء لإيرانيون على جامعي تحف ومدراء متاحف في لندن ونيويورك. أنظر المقالة التي نشرتها عالمة الآثار العراقية سلمى الراضي في مجلة «ناشن» في ١١ أيار/ مايو ١٩٩٢ ص ٦٢٤ - ٦٢٥.

(٤٤) الحسينيات أمكنة شيعية متواضعة للصلاة والتجمع، ينشئها غالباً محسنون أثرياء.

(٤٥) مقابلة مسجلة على شريط مع فاطمة (اسم مستعار) من السماوة، أجراها كتنان مكيّة.

(٤٦) الإمام المنتظر، مثل جميع الأئمة، هو من سلالة النبي. أنظر مقالة برنارد لويس «الشيعية» في «نيويورك ريفيو أوف بوكس» ١٥ آب/ أغسطس ١٩٨٥.

(٤٧) مصدر هذه القصة غير الاعتيادية أحد الثوار النجفيين في الأشرطة الإيرانية.

(٤٨) أشير إلى السيرة شبه الرسمية التي تحمل عنوان «صدام حسين: الرجل، القضية والمستقبل» (لندن: مركز العالم الثالث ١٩٨١) كتبه الصحافي اللبناني، والمؤلف والاختصاصي في شؤون الشرق الأوسط فؤاد مطر.

(٤٩) الشهادة التي بصفتين مكتوبتين بخط اليد وغير موقعة، كانت كتبت داخل إيران، ولربما خطها أحد الموظفين العاملين في المجلس الإسلامي الأعلى. أنا مدين إلى حيدر حتوددي لجمعه هذه الشهادة إضافة إلى مواد أخرى من إيران من أجل هذا الكتاب.

(٥٠) أنظر تقرير ليز ثيرغود في «الغارديان» في ٢٣ تموز/ يوليو ١٩٩١.

(٥١) أنظر جولي فليت في صحيفة «الأوبزرفر» ١٠ آذار/ مارس ١٩٩١، ص ١٤. وتقرير في «الإنديبندينت» Independent ١٧ آذار/ مارس ١٩٩١، ص ١٦. أنظر أيضاً ملخص ال.بي.بي.سي B.B.C لأخبار العالم ٤ نيسان/ أبريل ١٩٩١، الشرق الأوسط.

(٥٢) أسماء العائلات النجفية التي قتلها الفئابل الصاروخية الباليستية، مأخوذة من «القتل الجماعي خلال انتفاضة آذار/ مارس ١٩٩١ وما بعدها في العراق» (لندن: منظمة حقوق الإنسان في العراق ١٩٩١) ص ١٠. (سنشير إلى هذا المصدر من الآن فصاعداً «القتل الجماعي»). الاقتباس من صدام حسين هو من خطبة ألقاها في ٢ نيسان/ أبريل ١٩٩٠ حول أسلحة العراق السرية الجديدة. أنظر أيضاً الفصل ٨: «خرافات قومية جديدة».

- (٥٣) صوت العراق الناشر ١٩٥٧ جي أم تي GMT ٢٦ آذار/ مارس ١٩٩١، تقرير من ال.بي.بي.سي BBC. أنظر ملخص إذاعات العالم. الشرق الأوسط، ٢٨ آذار/ مارس ١٩٩١.
- (٥٤) «عذاب بلا نهاية: انتفاضة ١٩٩١ في العراق وما بعدها» (نيويورك: ميدل إيست واتش ١٩٩٢) ص ٥٢ (نشر إليها من الآن فصاعداً بـ «عذاب بلا نهاية».
- (٥٥) نتيجة إصرار الحكومة العراقية، دفن آية الله الخوئي فجر النهار التالي وسمح فقط لستة أشخاص بحضور الدفن. لم يسمح بإجراء أية مظاهر حداد. نعيان يلخصان حياة آية الله وأعماله كتبها كل من مايكل وود في «حوارة»، والنص رسالة إخبارية نشرت لها لجنة الشؤون العامة للمسلمين الشيعة (أيلول/ سبتمبر ١٩٩٢) ص ٨. وشيلي الملائط في «الإنديبندنت» في ١٠ آب/ أغسطس ١٩٩٢.
- (٥٦) «قتل جماعي»، ص ٥.
- (٥٧) بوب دروغين، «العراق: صدام حسين يعرض جوائز على الجنود مقابل قتل الأطفال - الشيعة يواجهون القصص» صحيفة «الغارديان» ٢٩ آذار/ مارس ١٩٩١.
- (٥٨) «عذاب بلا نهاية» ص ٥١. أنظر أيضاً وأحداث آذار ١٩٩١ كما يرويها شهود عيان، الذي أصدره المركز الوثائقي لحقوق الإنسان في العراق، طهران ١٩٩١، ص ١٧. (يشار إليه من هنا فصاعداً بـ «أحداث آذار»). هذه الوثيقة المتنازعة التي أصدرها إبان ظروف صعبة عراقيون في إيران، تقوم على شهادات وتقارير عدد كبير من الشهود العيان، وهي جمعت بعد وقت قصير من الانتفاضة. إني مدين لجلدر حنودي في حصولي عليها.
- (٥٩) «قتل جماعي»، ص ١١.
- (٦٠) أنظر «أحداث آذار»، ص ١٥ لأجل ما جرى على امتداد طريق هندية. الوثيقة نفسها تقدّم أمثلة عن عائلات قصفت أثناء فرارها من حاكمية الصمار ص ٢١ - ٢٢. أنظر أيضاً «عذاب بلا نهاية»، ص ٥١، دروغين، «العراق: صدام حسين» و«القتل الجماعي» ص ١٦ و١٨.
- (٦١) دروغين «العراق: صدام حسين».
- (٦٢) أم حسين أجرى المقابلة معها في لندن كتمان مكية بعد وقت قليل من وصولها من العراق.
- (٦٣) أنظر «عذاب بلا نهاية» ص ٥١، جولي فليت، «العراق: صدام يعلن الحرب على الشيعة فيما ينزل عدد أكبر من الأكراد من الجبال»، صحيفة «الأوبزرفر»، ٢٨ نيسان/ أبريل ١٩٩١، و«قتل جماعي» ص ٦. أسماء المستشفيات ال ١٢ في جنوب العراق التي هوجمت بالطريقة التي وصفت في هذا المقطع مقدّمة في «أحداث آذار»، ص ٦٧ - ٦٨.
- (٦٤) «قتل جماعي»، ص ٧.
- (٦٥) أنظر «قتل جماعي» ص ٩، ٦، ١١. من أجل أسلوب القتل بواسطة القالب الاسمطي، أنظر «أحداث آذار» ص ٤٢. أنظر أيضاً ص ١٦ - ١٧ عن تقارير دفن الناس أحياء، والعبور عليهم بالآليات المدوّعة، ورميهم من الطائرات والطائرات.
- (٦٦) نورا بستاني «أثر موت في العراق»، «الواشنطن بوست» ٢٦ آذار/ مارس ١٩٩١.
- (٦٧) «قتل جماعي» ص ٢١ و٢٣.
- (٦٨) «أحداث آذار» ص ٣٧.
- (٦٩) تقرير من رويتر في ٨ نيسان/ أبريل ١٩٩١ وكرونولوجية الثورة التي نظمتها مؤسسة الخوئي الكاثنة في لندن.
- (٧٠) «عذاب بلا نهاية» ص ٥٢.
- (٧١) سيمبسون، «من منزل الحرب» ص ٦.

- (٧٢) أنظر صحيفة «الغارديان» Guardian، السبت ٩ آذار/ مارس ١٩٩١، ص ٧. تقرير كيم فلتشر في صحيفة «الصندياي تلغراف» Sunday Telegraph ٢٤ آذار/ مارس ١٩٩١، ص ١٩، وفليتنت، صحيفة «الأويزرفر» ٢٨ نيسان/ أبريل ١٩٩١.
- (٧٣) ثمة قائمة جزئية برجال الدين الذين قتلوا أو اختفوا من عائلة السيد بحر العلوم تضم السادة: السيد علاء الدين، السيد علي السيد، السيد مصطفى السيد، السيد أمين السيد، السيد محمد حسين السيد موسى، السيد محمد صفاء موسى، السيد محمد ابراهيم الشيرازي، والسيد باقر (ابنه)، السيد عتار السيد عبود، والسيد جعفر بحر العلوم. أنظر «قتل جماعي» ص ٢٣. «أحداث آذار» ص ٥١ - ٥٦. وفليتنت، «الأويزرفر» ٢٨ نيسان/ أبريل ١٩٩١.
- (٧٤) الرواية الأشمل للتدمير المادي موجودة في «أحداث آذار»، ص ٤٤ - ٤٦ تشير إلى أن عشرة جوامع وحسينيات، و١١ مكتبة وحوزة دينية كانت دُمّرت في النجف. لحقت بکربلاء أضرار أكبر ودمّر النظام كلياً ١١٧ حسينية وجامعا، وحوزة، ومقاماً دينياً هاماً، وكلها محدّدة بأسمائها ومواقعها في الصفحات ٥٧ - ٦٣. قدّمت إليّ كذلك لوائح بجوامع مدرّرة، عبر منظمة حقوق الإنسان في العراق، القائمة في لندن. أنظر أيضاً ليز ثرغود، «العراق: الرئيس صدام حسين يطلق حملة ضدّ الأماكن الشيعية المقدّسة»، صحيفة «الغارديان»، ٢٣ تموز/ يوليو ١٩٩١، وكائي إلفانز عن نبش القبور في كربلاء، «أنشوطات معلقة في النسيم في مقام الشيعة المقدّس»، صحيفة «الأويزرفر» ٢٦ أيار/ مايو ١٩٩١.
- (٧٥) «قتل جماعي» ص ١٩.
- (٧٦) كتبت ليز ثرغود أن خطط الحكومة في صيف ١٩٩١ كانت تهدف إلى إزالة جدران مقام الإمام عليّ القديمة واستبدالها بسياج من السلاسل. كان السياج الجديد سيجعل من الأسهل على الحكومة أن تسيطر على المقام، ومن الأصعب تحويله إلى قلعة حصينة. صحيفة «الغارديان» ٢٣ تموز/ يوليو ١٩٩١.
- (٧٧) الاقتباس من حفيد آية الله الخوئي والناطق باسمه، وكما قدمته مقالة باتريك كوكبرن، بعنوان «كنوز إسلامية مسروقة» صحيفة «الإنديبندنت» ١٠ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٢، ص ١٢. أنظر أيضاً باتريك كوكبرن، «كنوز العراق القديمة في مصائب الحرب الخبيثة». «الإنديبندنت» ١٥ تموز/ يوليو ١٩٩١، ص ١٢.
- (٧٨) بدأت السلسلة في ٣ نيسان/ أبريل ١٩٩١. استطعت الحصول على نسخ عن المقالات الأربع الأولى، ومنها اقتبست هذه الاستشهادات.
- (٧٩) أنظر على سبيل المثال، شلي تلحمي، «إبقوا خارج الحرب الأهلية العراقية»، «النيويورك تايمز» ٥ نيسان/ أبريل ١٩٩١، ص ٢٥. تلحمي أستاذ في العلاقات الدولية وسياسة الشرق الأوسط في جامعة كورنل. وعمل كمستشار للبعثة الدبلوماسية الأميركية إلى الأمم المتحدة خلال أزمة الخليج. لم يكن موقفه، بحسبما أفز هو، قائماً على أساس المبدأ. في حديث أجراه معه تيد كوبل على شبكة أي.بي.سي ABC نيوز نايتلاين في ٢ نيسان/ أبريل ١٩٩١، قال البروفسور تلحمي «لست مدافعاً عن الإدارة الأميركية. أنا على سبيل المثال أعتقد أنه على الولايات المتحدة إيقاف ما يجري في الكويت ضد الأطراف الثالثة في الصراع». بكلام آخر إن تدخلاً أميركياً ضد الكويتيين لمساعدة الفلسطينيين هو أمر مقبول وضروري. ولكن تدخلاً لمنع صدام حسين من ذبح عشرات آلاف المدنيين العراقيين، ليس كذلك.
- (٨٠) مقتطفات مأخوذة من مخطوطة كاملة لكلمة التي ألّفهاها بلندن في ٢٠ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩١ في مؤتمر نظّمته «رابطة أهل البيت»، وهي منظمة إسلامية عالمية مقرها لندن.

٣ - عمر

- (١) هناك ١٦ شعبة في الاستخبارات العسكرية العراقية، كل منها مسؤول عن نوع مختلف من الجرائم. الشعبة السادسة عشرة هي الأكثر سرية، ولديها السلطة الفعلية لاعتقال أي مسؤول حتى من أعلى مستويات السلطة في الحكومة. يبدو أن هذه الشعبة كانت مسؤولة عن اعتقال عمر.
- (٢) اقتباسات من رسالة باسل تبرز في الفصل ٢. «أبو حيدرة».
- (٣) عمر اسم سني، تماماً كما هو أبو حيدر اسم شيعي. والمقاصد الضمنية من وراء اختياري للأسماء متعمدة بقدر ما هما قصتا عمر وأبي حيدر حقيقتان.
- (٤) في عراق ما قبل ١٩٥٨، كانت «القوة النهرية» عبارة عن سفن دوريات عسكرية، وكان مركزها منطقة الأهوار في جنوب العراق، وكانت مهمتها مراقبة القبائل الشيعية والسيطرة عليها. كانت تمثل كل ما تملكه الملكية العراقية مما يسمى بالقوة البحرية.
- (٥) خلال حرب الخليج، كانت وحدات من الجيش العراقي تدعى القوات الخاصة، ترسل دوريات من فرق إعدام كانت وظيفتها زرع الرعب في قلوب الجنود العراقيين على الجبهة كي لا يجرؤوا على الفرار. كان ينبغي أن يكون أعضاء تلك الفرق، بحسب جندي عراقي كانوا اعتقالوه، من حزب البعث، وأن «يُدلّوا» أسماءهم كي لا يمكن التعرف إليهم البتة. إن كان الرجل يدعى محمد كانوا يدعونه حسين. كانوا عديمي الإحساس، وعديمي الشفقة. كما جاء في مقالة روبرت فيسك، «المتجسس ما بين القنابل وفرق الإعدام» صحيفة الإندبيندنت، Independent ١ آذار/ مارس ١٩٩١.
- (٦) مدينة الثورة، المعروفة رسمياً بمدينة صدام، ضاحية شيعية فقيرة من بغداد نشأت خلال الخمسينات والستينات من هجرات من المناطق الريفية والمدينة في الجنوب. إنها مشهورة بنضالها السياسي. ثمة مليون شخص على الأقل يسكنون هناك حالياً.
- (٧) العرق هو المشروب الكحولي العراقي الوطني، وهو مصنوع من النحر. كان عمر وصديقه قد أنهيا قنينة منه في وقت مبكر من العشيّة.
- (٨) التسمية العامية العراقية للسلح الترموزجي الذي يستخدمه الحزّاس في سجن عمر هي «الصابونة» أو «الكايول». وهو عبارة عن سلك كهربائي مكسو بغلاف بلاستيكي أسود، قطره حوالي الإنش الواحد وطوله حوالاً القدم. اللهجة العامية في السجن طوّرت التعبير إلى «مات جوا» [تحت] الكيولات.

٤ - مصطفى

- (١) جرى الهجوم على غيطابة خلال حملة عراقية عام ١٩٨٨ دامت ثمانية أشهر، وكانت تحمل اسماً شرفياً هو «الأنفال». كانت الحملة تهدف إلى إزالة الحياة الريفية من مساحات كبيرة صُنّفتها الحكومة «منطقة محظورة أمنياً». جرت حملة الأنفال خلال أربع مراحل استهدفت كل منها منطقة مختلفة. هوجمت غيطابة خلال «حملة الأنفال الثانية» كما سبق أن أشارت الحكومة العراقية ذاتها.
- (٢) المقابلة مثبتة بنصها الكامل في نهاية الفصل رقم ٥.
- (٣) «طريقة» التقشندية كما تدعى في العربية، أتت أصلاً من طاجكستان في آسيا الوسطى، ثم انتشرت في الهند وإيران وكردستان. غير أنها استقبلت بحماسة في كردستان العراقية عبر نشاطات الهداية لمولانا خالد التقشندي، الذي ولد في قرية قره داغ عام ١٧٧٩ على بعد بضعة أميال جنوب المدينة العراقية المسلمانية.
- (٤) أنظر الفصل ٢ لمعرفة دور أحد هؤلاء المستشارين الأكراد خلال انتفاضة آذار/ مارس ١٩٩١.

- (٥) زرت حصني دهوك وكوراثو في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩١. وصف حصن كوراثو يرد في بداية الفصل ٥.
- (٦) جرت هذه المقابلة في شمال العراق. أنظر الفصل ٢. الحاشية رقم ٣٣.

٥ - تيمور

- (١) أنظر المقدمة والحاشية رقم ٢١، ص ٣٣٠ لاستيضاح كيف عرفت بشأن تيمور.
- (٢) الأكراد هم هندو - أوروبيون ومعظمهم من المسلمين السنة، يبلغ عددهم الآن أكثر من عشرين مليوناً. إنهم منتشرون بصورة خاصة عبر القوس الجبلي الذي يطوّق جنوب شرق تركيا، وشمال غرب إيران، وشمال شرق سوريا، وأذربيجان إضافة إلى شمال شرق العراق. لغة الأكراد وعاداتهم وتقاليدهم مختلفة عن الأتراك والفرس والعرب الذين يسيطرون على البلدان التي تقيم ضمن حدودها أعداد كبيرة من الأكراد، وهم يؤلفون أكبر أقلية غير عربية في العراق، وما يعادل ١٥ إلى ٢٠ بالمئة من عدد سكانه.
- (٣) مع انهيار الامبراطورية العثمانية عند نهاية الحرب العالمية الأولى وُعد الأكراد، بموجب معاهدة سيفر (١٩٢٠) بمشروع حكم ذاتي، في شمال العراق. لكن تلك الفقرة من المعاهدة لم تقرأ أبداً وحذفت كلياً من معاهدة لوزان، التي وُعدت حدود كل من تركيا وسوريا والعراق الحديث عام ١٩٢٣. في ذلك الوقت كانت قبائل عراقية كردية مسلّحة تقوم بثورة مفتوحة في الشمال ضد حكومة الملك فيصل الأول المنتدبة من قبل البريطانيين في بغداد. كانت الحكومة العراقية تضع نصب أعينها المنطقة الغنية بالأراضي الزراعية وبغري بترول كبيرين، ولم تكن مستعدة لأن تسمح لشمال العراق بفرض هويته الكردية. في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٢٥ أُنعت بريطانيا عصبة الأمم بأن تعلن انه لا مجال نهائياً لقيام دولة كردية. وبغداد من جهتها كانت قد صرّحت بما يوازي ذلك، وفي عام ١٩٢٤ قامت حكومة الانتداب بقمع الثورة الكردية بوحشية.
- (٤) رواها شوريش رسول في مقابلة مع آباد رحيم في لندن، شباط/ فبراير ١٩٩٢.
- (٥) أول مرة استخدم فيها حزب البعث كلمة «أنفال» كما استطعت أن أكتشف كان في بلاغ عسكري رسمي بدأ في نهاية شباط/ فبراير ١٩٨٨ وهو يشير إلى شيء ما يدعى «أول عملية أنفال». «عملية الأنفال الثانية» قادها شخص يدعى اللواء آباد خليل زكي، بحسب البلاغ العسكري الرسمي رقم ٣١٠٩ الذي أذاعته إذاعة بغداد في ٢ نيسان/ أبريل ١٩٨٨. تحدثت الإذاعة عن «خونة» في منطقة كارداغ وأنه جرت معالجة الأمر بحزم. تلك الحملات العسكرية مضى الراديو العراقي يزعق معلناً عنها طوال الصيف، إلى أن بلغت الأمور أوجها مع شيء دعي «خاتمة الأنفال»، وهو الأنفال الأخير الذي بدأ بشكل جدّي في آب/ أغسطس ١٩٨٨.
- (٦) في اللغة الفارسية تستخدم كلمة «أنفال» أيضاً لتعني «غنيمة» غير أنها تطوّرت كذلك لتعني «بخشيش»، إذ تحمل الكلمة نفسها معنيين متناقضين ظاهرياً، فهذا يرد بشكل ما إلى أصلها. الغنيمة المشروعة ليست سرقة، إنها هدية من الله لأولئك الذين انتصروا وإلى المجتمع الإسلامي برته. إبان معركة بدر، حصل المقاتلون المسلمون على الغنيمة. عن البقية تقول سورة الأنفال: «واعلموا إنما غنمتم من شيء فإن الله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتيمى والمساكين وابن السبيل» (٤١:٨). إضافة إلى ذلك في المعجم الجديد الذي بدأ ينهث بعد جمهورية إيران الإسلامية على أثر ١٩٧٩، تحوّل معنى الأنفال ليصبح الأملاك العامة. بكل بساطة التطوّر هو من غنيمة إلى هدية إلى أملاك عامة. اليوم عندما يستخدم رجال الدين في إيران كلمة «أنفال» فإنها تشير إلى الأرض والغابات والأنهار وحتى الجبال. أمر مماثل لذلك يحدث للكلمة في العراق حين تستخدم مثلاً كاسم لمركز بريد.

- (٧) كتب الصحفي جيم موير كذلك قصصاً مشابهة عن أطفال، ونسوة كن «يعين بالمزاد العلني إلى أثرياء سعوديين وكويتيين كزوجات»، وكان سمع عن ذلك في شمال العراق. واتضح ان جنوداً أكراداً «تمزقوا إلى قريات لهن كن قد بن ليترجون هناك». أنظر مقالته «ما وراء الهرب الكردي المروّع» في مجلة «ذي كريستيان ساينس مونيتور» في ١٨ نيسان/ أبريل ١٩٩١، ص ١. بحسبما استطعت أن أثبت، فإن موير في مقالته، كان أول صحفي ذكر كلمة «أنفال» كاسم شغري لحملة القمع الضخمة التي قامت بها الدولة العراقية.
- (٨) لدّي شريط مسجل لصدام وهو يتحدث إلى قادته العسكريين وقد نقلت عنه هذا المقطع. جزء أساسي من النص الكامل نشر في صحيفة «الحياة» العربية الصادرة في لندن.
- (٩) أنظر أيضاً الفصل ٨ «خرافات قومية جديدة».
- (١٠) مقتبسة من الدراسة الممتازة والشاملة لمارتين فان بروينتين: «الأكراد بين إيران والعراق»، «ميدل إيست ريبورت» (تموز/ يوليو - آب/ أغسطس ١٩٨٦) ص ٢٧.
- (١١) مصادر كردية تزعم أن ثمة أمراً بتطليمات وتوجيهات رسمية، كان قد صدر عن مكتب علي حسن المجيد لتنظيم الشمال، وتحدث عن القضاء على كل الحياة الموجودة في تلك المناطق، التي صوّتت «محظورة»، لأسباب إدارية أو أمنية. قيل لي على وجه التحديد، إن التطليمات تنص على أنه ينبغي «قتل الأشخاص الموجودين داخل تلك المناطق». التطليمات - الموجهة إلى كل فروع الحزب، وكل قطاعات أجهزة الأمن المختلفة، والاستخبارات العسكرية، وفيلق الجيش الأولي (المتمركزة في كركوك)، وفيلق الجيش الخامسة (المتمركزة في أربيل) - حددت سياسة حملات الأنفال من قبل مجلس قيادة الثورة، وكان ينبغي أن تنطلق بعد وقت قليل من ٢٩ آذار/ مارس ١٩٨٧. لم أستطع على أية حال أن أحصل على نسخة من هذا الأمر الرسمي المزعوم.
- (١٢) المقابلة مع الدكتور جعفر أجزاها غوين روبرتس بحضوري، في أربيل في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩١. بعد وقت قليل من الهجوم على شيخ ويسان، هرب الدكتور جعفر من الجيش العراقي واستطاع الوصول إلى لندن.
- (١٣) أنظر تقرير آلن كويل «العراقيون يواجهون حرباً متفاقمة من الداخل» (النيويورك تايمز)، ٢٢ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٧، ص ٦. وكما يشير عنوان المقالة كانت النظرة الغربية، وهي نظرة من طرف واحد قدمها إليهم حلفاؤهم العراقيون (في تلك الأيام غير البعيدة)، مؤداها أن العراق كان يردّ على مقاومة رجال حرب العصابات الأكراد. الدلائل، بحسب وجهة نظري، لا تشير إلى ذلك. الأشخاص الذين كانوا يبادون كانوا أناساً مسالين مغلوبين على أمرهم. أنظر أيضاً مقالة باتريك تايلر «رجال حرب العصابات الأكراد يشكلون خطراً متفاقماً على العراق» في صحيفة «الواشنطن بوست» ١٩ شباط/ فبراير ١٩٨٨ ص ١٥، والتي أشارت إلى اعتداءات واسعة على حقوق الإنسان ترافقت مع «إزالة ومحو مئات القرى وإعادة توطين آلاف الأكراد بالقوة».
- (١٤) أياد رحيم أجرى مقابلة جمال (اسم مستعار) بلندن في شباط/ فبراير ١٩٩٢.
- (١٥) بعد المقابلة، والمقابلات التي تلتها مع منظمات لحقوق الإنسان، تم اللقاء مع المحقق الخاص لدى الأمم المتحدة (ماكس فان دير ستول)، وعدد كبير من الصحفيين طوال شتاء ١٩٩٢، ويبدو أن تيمور قد وفي بغيره. وقد ثرّك الفتى، مذ ذاك، كما هو واضح، ليعيل نفسه مع قريب له ولكن من دون حماية من قبل البشرغرا. هذا على الأقل ما لاحظته أحد الصحفيين عندما عاد إلى كردستان خلال الانتخابات الكردية، وحاول من غير طائل رؤية الصبي والاستعلام عن مصيره وحالته.
- (١٦) المقابلة بأكملها صورها غوين روبرتس الذي كنت مسافراً برفقته. وعرض مقتطفاً منه على شبكة ال بي.بي.سي BBC «إفريمان» فيلم، بعنوان «الطريق إلى الجحيم».

٦ - تذكر القسوة

- (١) أنظر لماذا نحو عالقون في الرمل بقلم كريستوفر هيتشينز في مجلة «هاربرز Harper's»، عدد ٢٨٢، الرقم ١٦٨٨ (كانون الثاني/يناير ١٩٩١). أنظر أيضاً التقرير الخاص المميز بعنوان «عراق غايت: كيف ساعدت إدارة بوش صدام حسين في شراء أسلحته الحربية، ولماذا وقع دافعو الضرائب الأميركيون في فخ دفع الفاتورة؟». «يو.أس. نيوز إند وورلد ريبورت»، ١٨ أيار/مايو، ١٩٩٢.
- (٢) السؤال كان سألته كينيث روث، المدير المساعد لمنظمة «ميدل إيست واتش» Middle East Watch، في رسالته إلى «النيويورك تايمز»، ١٣ تموز/يوليو ١٩٩٢، ص ١٤.
- (٣) أنظر الملخص التنفيذي، والصحة والخدمات الاجتماعية في العراق بعد أزمة الخليج: تقييم في العمق». قام به فريق دراسة عالمي (كامبردج)، تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩١، ص ٣.
- (٤) المصدر السابق ٤ - ٥، ١٢ - ١٣. الوضع أصبح أسوأ بشكل مضطرد في جنوب البلاد في الأشهر التي تلت نشر هذا التقرير، على الرغم من أنها تحسنت في وسط البلاد، حيث استعادت الطاقة الكهربائية أجزاءها التعويضية، وفي الشمال الذي أصبح منذ ذاك منطقة «محترقة» ومفتوحة على المساعدات الخارجية.
- (٥) مجلة «نيوزويك» Newsweek، ٢٠ كانون الثاني/يناير ١٩٩٢، قُدرت عدد القتلى المدنيين خلال الحرب الجوية بما بين ٢٥٠٠ و ٣٠٠٠ شخص. حتى ١١ شباط/فبراير ١٩٩١ كانت الحكومة العراقية الرسمية تضع رقماً هو ٦٥٠ قتيلاً و ٧٥٠٠ جريحاً. في ذلك النهار عدّل وزير الشؤون الدينية الرقمين ورفعهما، وتحدث عن «آلاف» من الإصابات المدنية. أنظر «النيويورك تايمز» ١٢ شباط/فبراير ١٩٩١. التقديرات الأولية تحدثت عما بين ٥٠٠٠ و ١٥٠٠٠ قتيل. أنظر «ذي بريتيش ميديكال جورنال»، ١٩٩١، عدد ٣٠٣: ص ٣٠٣ - ٣٠٦.
- (٦) ذكرت مجلة «يو.أس. نيوز إند وورلد ريبورت» في عدد ٢٠ كانون الثاني/يناير ١٩٩٢ أنه يوم بدأت الحرب «أدخل العراق ما لا يزيد عن ٣٠٠ ألف جندي إلى الساحة الكويتية وهو عدد أقل من نصف العدد الذي ذكره الجنرال شوارزكوف وهو ٦٣٢ ألفاً، وأقل من تقديرات البنتاغون: ٥٤٠ ألفاً. وبشكل مماثل فإن الإصابات العراقية كانت ربما أقل بكثير من الملة ألف التي قدرتها وكالة استخبارات وزارة الدفاع. وربما سقط ما لا يزيد عن الثمانية آلاف جندي عراقي فوق ساحة المعارك الكويتية طوال ٤٣ يوماً من القتال».
- (٧) طردت ديونوت بعد إصدارها تقديراتها. الحملة الإعلامية التي تلت ذلك أجبرت موظفيها على إصدار أرقام جديدة. وهذه الأرقام الأخيرة رجحت كفة الميزان إلى صالح الحجة القائلة بأن عدد الإصابات الحقيقي في الحرب جاء بعدما انتهت وليس بينما كانت تجري. بعد ذلك قام «اتحاد الحريات المدنية» بالتحرك، لكن على الرغم من إعادة ديونوت إلى منصبها في نيسان/أبريل ١٩٩٢، اتهم الاتحاد على الفور مكتب الإحصاء الرسمي الأميركي بمحاولة «كتم وتأخير نشر معلومات تسبب الارتباك للإدارة الحالية». أنظر «الواشنطن بوست» ٦ آذار/مارس ١٩٩٢، ص ٦١، و«البوسطن غلوب» ١٤ نيسان/أبريل ١٩٩١.
- (٨) «جورنال أوف أميركان ميديسين» مجلد ٢٦٦ العدد ٥ ٧ آب/أغسطس ١٩٩١، ص ٦٣٩. أنظر أيضاً «بريتيش ميديكال ريبورت» ١٩٩١ عدد ٣٠٣: ص ٣٠٣ - ٣٠٦.
- (٩) مقبسة عن موراي كمبتون من «نيويورك نيوزداي» ٣ آذار/مارس ١٩٩١. أنظر أيضاً التقرير الذي

نشرته رئاسة الأمم المتحدة في نيويورك، هو/ يونيسف (WHO/ Unicef) مهمة خاصة إلى العراق، شباط/ فبراير ١٩٩١.

(١٠) منشورة في «نيو إنغلند جورنال أوف ميديسن» ٢٦ أيلول/ سبتمبر ١٩٩١، ص ٩٨٠. «الجوع ومعدل نسبة وفيات مرتفع بين الأطفال في العراق هما الآن معززان جيداً بالوثائق» هكذا كتبت المجلة الطبية البريطانية المتأخرة «ذي لانسيت» في عدد ٩ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩١ (مجلد ٣٣٨، ص ١١٨٠). «لا يستطيع أي منا في المستقبل أن يقول إنه لم يعرف».

(١١) «إثر حرب الخليج في وفيات الأطفال والأولاد بالعراق» مركز الدراسات السكانية، «هارفرد سكول أوف بابلوك هيلث». هذا التقرير الممتاز والذي بقي إلى الآن غير منشور، كتبه سارة زائدي، وهو قائم على عينة تمثيلية عن العائلات العراقية.

(١٢) «إني أشتهد بمسودة لا تزال غير منشورة لمقالة بعنوان «غذاء الأطفال والصراعات المسلحة في العراق» وقد قدمها لي متطوعاً كاتبها وليد الدوري، وهي قائمة على معطيات جمعها وحللها كل من نجيب. أ.، أرميجو حسين، وفالي فوزي، وج. هيريرا - أكينا - وكلهم من مدرسة هارفرد للصحة العامة.

(١٣) هذا ما ذكرته صحيفة «الغارديان» ٢٨ آذار/ مارس ١٩٩١.

(١٤) من «تأثير حرب الخليج على الأطفال في العراق: دراسة حول سيكولوجيا الطفل» كتبها كل من الدكتورين آثيل ديرغروف وامين راوندالين في ٢٨ أيلول/ سبتمبر ١٩٩١. أنظر أيضاً، الملخص التنفيذي، «الصحة والخدمات الاجتماعية في العراق بعد أزمة الخليج: تقييمات في العمق»، ص ٢٤ - ٢٥.

(١٥) «ميثاق ٩١» حملة نظمت من حول وثيقة مؤلفة من ١٤٠٠ كلمة تدعو، بين أشياء أخرى، إلى إيقاف عقوبة الإعدام وإلغاء التجنيد الإجباري. وجعل ٢ بالمئة حداً أعلى للنفقات العسكرية من مخصصات الناتج القومي الإجمالي وأن يكون هذا ميثاقاً في الدستور. لقد وقّعها عدد يقارب الأربعماية عراقي من المنفيين والمبعدين من كل المجموعات الإثنية والدينية، ومن كل المراتب الاجتماعية والانتماءات السياسية المختلفة جداً، ووضعوا أسماءهم تحت «ميثاق ٩١» الذي نشر في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٢. نسخة من الميثاق بخمس لغات (العربية، الكردية، الآشورية، والإنكليزية والتركمانية) مع نسخة بلاتحة التواريخ نشرت في ميثاق ٩١. ص.ب ٢٧٢٤ لندن W24XS.

(١٦) مقبسة عن «الواشنطن بوست»، ٢ آذار/ مارس ١٩٩١، ص ١٣.

(١٧) «النيويورك تايمز»، ١١ حزيران/ يونيو ١٩٩١.

(١٨) أنظر سمير الحليل: «النصب التذكارية في العراق» (لندن. اندريه دويتش ١٩٩١).

(١٩) أنظر الفصل ٤.

(٢٠) «وضع القسوة أولاً هو.... مسألة مختلفة جداً عن الإنسانية المجردة. إن كره القسوة أكثر من أي شر آخر يقتضي رفضاً متطرفاً لكل الأعراف الدينية والسياسية. وهذا يحكم على المرء بحياة مليئة بالشك، وعدم القرار والاشتمزاز وغالباً كراهية البشر. إن وضع القسوة في المقام الأول لم يجر اختياره إلا نادراً، وهو لم يناقش غالباً، إنه، في حال تأمله الفلاسفة، تهديد عميق جداً للمنطق». جوديث شكلا، «شورر عادية» (كامبردج. هارفرد يونيفرستي برس. ١٩٨٤) ص ٨٠.

(٢١) «نيوزويك» ١٨ آذار/ مارس ١٩٩١. أنا مدين لصديقي لورنس وشلر لأنه لفت انتباهي إلى هذا الموضوع ودلالته. حوارنا عن موضوع نصب مايا لين التذكاري لحرب فيتنام، والنصب التذكارية عموماً، وخرب الخليج، قدمت لي الحافز لأكتب هذا الفصل بالطريقة التي كتبه بها.

العراق إلى أين؟

- (١) معظم المحققين العرب غير العراقيين أدرکوا ماذا كان يجري بالعراق في آذار ١٩٩١ على غرار وزير خارجية الأردن، ورئيس بته في محادثات السلام في الشرق الأوسط، كمال أبو جابر الذي أفشى من غير تفكير في إحدى المقابلات: «بحق الله ان العملاء الإسرائيليين موجودون في كل مكان في شمال وجنوب العراق» والعملاء الإيرانيون هم في كل مكان... تحت غطاء مساعدة العراق». إن كان أبو جابر غير فطن إلى درجة كافية ليقول أشياء كهذه علناً، فإن آلفاً آخرين كانوا يفكرون كذلك في السر. كانوا يفكرون بهذه الطريقة، لأنها كما سوف نرى، تتعاضد تعاضداً حمائياً مع كل ما كانوا يقولونه خلال أزمة الخليج. استشهادات أبو جابر مأخوذة من مقابلة أجراها معه جون بليك لشبكة بي.بي.سي. BBC «أفريمان» فيلم بعنوان «الشیطان الذي نعرفه»، والذي بث في المملكة المتحدة صيف ١٩٩١. أنا مدين لجون بليك للسماح لي باستخدام النص الذي اقتبست عنه هذا الهامش.
- (٢) إن اعتماد البعثين على التكرتين في أعلى مراتب السلطة لا يكفي لجعل الدولة التي بنوها طائفية. فميزة أي دولة تتصل ببنيتها «الشرعية» والبرنامج الإيديولوجي الذي تخدمه. وفيما القومية العربية تجمعها صلة ما بالتقاليد السنية، لا يوجد، نقولها للمرة الثانية، في القومية العربية أي شيء يستثني الشيعة، ولهذا السبب أصبح العديد منهم عربيين في الستينات والسبعينات. من وجهتي النظر الإيديولوجية والكيانية على حد سواء، ليس هناك إذاً ما يسمى بالخاصية «السنية» في الدولة البعثية التي برأسها صدام حسين. إن المشكلة هي في الطبيعة البعثية بحد ذاتها، وفي كل أولئك الأعضاء من المعارضة العراقية الذين يصرون على اعتبار الدولة البعثية سنية، أو علمانية، وهم بتصرفهم هذا يغذون نار الطائفية المستقبلية التي يمكن أن تمزق العراق إرباً.
- (٣) هذه المجموعة الخاصة من القرى والكنائس والأديرة المدمرة كانت وصفت بدقة في مذكرة، بتاريخ ١٨ نيسان/ أبريل ١٩٨٨ وُرعتها، في الأمم المتحدة ومنظمة العفو الدولية، الحركة الديمقراطية الأشورية. من أجل تقرير عن إعدام العراقيين المسيحيين أنظر «ضحايا كردستان الآخرون»، مجلة «نيوزوك»، ١٧ حزيران/ يونيو ١٩٩١، ص ٣٣.
- (٤) الحملة الإعلامية الإيرانية في بداية الحرب العراقية - الإيرانية تحدثت عن «عرب يطعنون بالظهرة» وهي إشارة إلى «خيانة» الحسين من قبل أهل العراق سنة ٦٠ هجرية. أنظر مقالة أمير طاهري في «الإنترناشيونال هيرالد تريبيون» في ١٠ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٠.
- (٥) هذه الشكوى ليست فقط مضحكة ومضحمة، بل هي كذلك من دون أي أساس. لقد قمت بدراسة مجموعة من المقالات التي نشرت في الصحافة الغربية عن أمور تتعلق بالأكراد ما بين ١٩٨٦ و ١٩٨٩. كانت جمعيتها جمعية إنسانية كردية في باولو ألتو بكاليفورنيا تحت عنوان «كردستان تحترق». حتى العام ١٩٨٨ كانت المقالات التي تناوول معاناة كردستان قليلة، ومعظمها يتعلق بالحرب العراقية - الإيرانية، ولم يكن هناك مطلقاً تلميح إلى الإبادة الجماعية. عام ١٩٨٨ جذبت المسألة الكردية انتباه الصحافة الغربية - ويعود ذلك بنسبة كبيرة إلى الهجوم الكيميائي في آذار/ مارس على حلبجة والذي قتل خمسة آلاف شخص. كلمة إبادة جماعية ذكرت للمرة الأولى في ٣ نيسان/ أبريل ١٩٨٨ في صحيفة «سان خوسيه ماركوري نيوز». عام ١٩٨٨ قام صحافي أو اثنان بمقارنة الهنة الكردية بالحرقة اليهودية. ذكرت المقالات ترحيل القرويين الأكراد إلى جنوب العراق، غير أن وجهتهم لم تعرف، وكذلك مصيرهم. خلال أيلول/ سبتمبر ١٩٨٨ كتبت مقالات حول كردستان أكثر من أي وقت مضى. مع بداية تشرين الأول/ أكتوبر انخفض عدد المقالات مرة جديدة بشكل دراماتيكي. لست أمدح أو أنتقد أحداً بسبب هذا، انه بوضوح حال الدنيا.

- (٦) أنظر على سبيل المثال مقالة محمّد عبد الجبار «الديمقراطية مجموعة آليات لتنظيم الحياة السياسية» في «البلاد» رقم ٩٠، ص ٤٨ - ٥٠.
- (٧) أنظر «تأسيس البعث العراقي» الفصل ٦ «جمهورية الخوف»، من أجل فكرة «الإيمان» في العقيدة البعثية في الأربعينات.
- (٨) اكتشفت أن الزعيم الكردي مسمود برزاني يمتلك حكمة استثنائية، وذلك عندما أجريت مقابلة معه في شمال العراق في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩١. قليلة هي العائلات العراقية التي تعرضت لمعاملة شبيهة بتلك التي تعرضت لها عائلة برزاني. غير أنه كان واضحاً أن الحد الذي وصل إليه الانهيار الأخلاقي داخل العراق، وفقدان الثقة بين العراقيين، كما أوضح قائلًا، هي مسائل أشد إلحاحاً في ذهنه: «إن الألم عميق بيننا وبين الحكومة، وحتى بين بعض الجماعات العراقية، والشقاء من هذا أمر صعب جداً. ولكن لو اتخذنا طريق التسامح، وحاولنا فتح صفحة جديدة، فسوف نعيش للجيل القادم. يجب أن يكون هناك تسامح من أجل أطفالنا، ولأنّ سوف نفرق في بحر من الدماء. غادرت ذلك اللقاء وأنا أفكر أن العراقيين لا يمكن أن يقوموا بأفضل من الإتيان بشخص كهذا ليشرق على إعادة تأسيس عراق ما بعد صدام حسين.
- (٩) ت. س. إليوت «يرنت نورتون» - «رباعيات أربع» (نيويورك: هاركورت بريس جوفانوفيتش، ١٩٨٨) ص ١٤.
- (١٠) كان حميد قد قرأ يكييت وهو يشير إلى عمله «بانتظار غودو». ولكن، في خلفية ذهنه، هل كان يفكر أيضاً بالإمام الشيعي الثاني عشر «المهدي المنتظر»؟ بحسب العقيدة الشيعية، أن الإمام الثاني عشر لم يمّت، بل اختفى، وظهوره مجدداً سوف يكون علامة لبداية عصر مينيّ على الحق. إن ما أودّ قوله أن حميد ينتظر «غودو» خاصته كما ينتظر شيعة العراق «المهدي» خاصتهم. إن الأمل الحقيقي بالمستقبل يبدأ مع هكذا انتقالات ثقافية متداخلة، وعلى وجه أخص عندما تدخل في نسج ذهن متفتح من نوع الدهن الذي يمتلكه حميد.

الباب الثاني

٧ - من أنا؟

- (١) أسامة واتق «بعد أن انكشفت الغمامة»، «العرب» يومية سياسية تصدر في لندن، ٢٢ نيسان/ أبريل ١٩٩١.
- (٢) كوني مولوداً في بغداد فهذا ما يزال يشكل قيداً، بغض النظر عن جواز السفر الذي يحمله المرء. في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩١، وفيما كنت عائداً من رحلتي إلى شمال العراق من طريق تركيا، رفضوا أن أدخل مجدداً إلى الولايات المتحدة الأمريكية في مطار لوغان، وأعادوني إلى لندن. لم يستطع ضابط الهجرة أن يقتيل واقع اني ولدت في بغداد، وعلى جواز سفري سمنا دخول إلى تركيا ليس بينهما، زمنياً، أي بلد آخر، وكنت أحمل حقيبة مليئة بالصحف العربية والوثائق. ولحسن الحظ، وبمساعدة مركز دراسات الشرق الأوسط في جامعة هارفرد، وكيث روس من منظمة حقوق الإنسان «واتش»، لم يكن علي أن أنتظر أشهراً في لندن حتى أوضح الأمر برته.
- (٣) أنظر «قانون الإصلاح في ١٩٧٧» المناقش في الفصل ٤ من «جمهورية الخوف». أنظر أيضاً الجنود التاريخية لتلك القوانين في الإيديولوجية البعثية للأربعينات. الفصل ٦.

- (٤) أستطيع أن أفكر باستثناءات شخصية لهذا القانون مثل هشام ملحم، مراسل «السفير» في الولايات المتحدة، الذي ينظر إليه العراقيون بتعاطف، وحازم صاغية الصحافي في «الحياة» الذي كتب عن الأكراد عندما لم يفعل ذلك أي عربي آخر. أما وضّاح شرارة، أستاذ العلوم السياسية في الجامعة اللبنانية، فوعى على الدوام كم كانت محورية بالنسبة للأزمة، تلك الميزة المنقّرة للنظام العراقي، وكذلك حال صلاح زغدي الباحث السوسولوجي والمدير السابق للاتحاد العام للعامل التونسي، ووليد خالدي من جامعة هارفرد، ولطفي مشعور رئيس تحرير «الصنارة» وهي مجلة أسبوعية عربية للعرب الإسرائيليّين، تصدر في حيفا، وسلمان مصالحة الشاعر الإسرائيلي - العربي، والكاتب الفلسطيني الساخر إميل حبيبي وشبلي الملاح من مؤسسي اللجنة الدولية من أجل عراق حر. لا شك أن هناك آخرين قد أغفلتهم.
- (٥) واصفاً المشهد إياه في المغرب، كتب صلاح زغدي عن المثقفين المغاربة ممن «يبدو أنهم أدركوا أخيراً تلك «الصلة بالجمهورية» من كان بعضهم - الأكثر التزاماً - يأمل به... في تونس... معظم المثقفين أيدوا كلياً سياسات صدام حسين. أصبح العدد منهم مقاتلين عاديين، مندفعين بحماسة وأحياناً بانفعالية كبيرة في تظاهرات مؤيدة لعراق صدام حسين، ومن غير أي تأمل أو تردد». من «من نضج الفكر إلى الانحراف السياسي: رسالة مقترحة إلى هشام جعيط» في «دفتر الشرق» Les Cahiers de l'Orien (حزيران/ يونيو ١٩٩١) ص ٣٢. إنني مدين إلى البروفسور أفرام إيدوفيتش الذي لفت انتباهي إلى هذه المقالة الهامة.
- (٦) «الحافز الحقيقي الضمني للانفجار العاطفي الذي أثارته حرب الخليج يستحق أن يدرس بعناية لكن يمكن للمرء أن يكون واثقاً من أن «رفض الغرب» وهو الموضوع الأساسي للمدرسة «الأصولية» الفكرية في السنوات القليلة الماضية، وعلى الأخص في تونس والجزائر، والكرامية العضوية لعرب الخليج، الذين يعتبرون آخر الأتراء الجدد «نوفو ريش»، والمتفطرين كما يفترضونهم، قد لعبوا دوراً أساسياً في ذلك. أضاع المثقفون المغاربة أنفسهم كلياً في حرارة المشاعر العامة الصافية التي تغدّوا منها... أما المنطق والبصيرة، والتحليل الموضوعي، والحس النقدي فقد اختفت كلها وكأما بسحر ساحر». راجع المصدر السابق، ص ٣٢ - ٣٣.
- (٧) حادثة حقيقية في قصة قصيرة غير منشورة لكتابتها أحمد تيتشي (اسم مستعار) وتدعى «ذي يسترو».
- (٨) إن قومية تعليق واثق في «العرب» والذي انتجت به هذا الفصل هي من هذا النوع. إن سفير الخليل لا يملك صفة «العروبة» لأنه لا يضع اللوم على الشيطانين الحقيقيين: الولايات المتحدة وإسرائيل.
- (٩) «العرب» ٢٤ حزيران/ يونيو ١٩٩١.
- (١٠) ساطع الحصري المفكر القومي العربي الكبير في سنوات مرحلة ما بين الحربين، شدّد على أهمية اللغة كأساس في النظرية القومية.
- (١١) إدوارد سعيد «المثقفون والحرب»، «ميريب ريبورتز» Merip Reports رقم ١٧١ (تموز/ يوليو - آب/ أغسطس ١٩٩١) ص ١٦. أنظر المقدمة. أن أدعى بـ «كاره نفسه» وهذا ما تعرضت إليه في عدة مناسبات، هو اشتقاق منطقي من طريقة سعيد في تصوير أفكار الغير. إن مناقشة لهذه المواضيع التي طرحتها مقابلة سعيد، كتبها أفسانه نجم آبادي بعنوان «حرب سعيد على المثقفين» وتبعها جواب سعيد، ونشره كلاهما في «ميريب ريبورتز» عدد رقم ١٧٣ (تشرين الثاني/ نوفمبر - كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩١) ص ٢.
- (١٢) من رواية جون سيمبسون في «من منزل الحرب» ص ١٠.
- (١٣) وليد خالدي، «أزمة الخليج: مصادر وعواقب» (واشنطن: مؤسسة الدراسات الفلسطينية ١٩٩١) ص ٤.
- (١٤) «تقدم البنية الأمة العربية كمنعطى ينبغي أن يجعل واقعاً ملموساً في التاريخ، وأن يترجم إلى حقيقة

سياسية. إن الأمة العربية ليست واقعا. إنها ليست موجودة الآن كما كانت موجودة من قبل... فشلت البعثة في كسب جمهور كبير بين الجماهير العربية. ولم يكن لديها أي تأثير على الإنجليس الأكثر انفتاحاً ووعياً لاتجاهات الفكر في كل أنحاء العالم... إن المثقفين لا يستطيعون من دون خيانة أنفسهم، أن ينتموا إلى إيديولوجية قومية محكومة بالفقر، وتحتوي بذوراً للفاشية. هشام جعيط كما استشهد به صلاح زغدي «في نضج الفكر...» ص ٤٠ - ٤١.

(١٥) هشام جعيط في مقابلة مع مجلة «الإكسبرس» ٧ شباط/ فبراير ١٩٩١. بين كتب جعيط الكثيرة، «الهوية والمستقبل العربي - الإسلامي».

(١٦) مجلة «الإكسبرس» ٧ شباط/ فبراير ١٩٩١.

(١٧) استشهاد من صلاح زغدي «في نضج الفكر...» ص ٤٠.

(١٨) «الدستور» ٧ آذار/ مارس ١٩٩١.

(١٩) أحمد حاذق العرف يكتب في الصحيفة التونسية «الشعب» حيث له عمود أسبوعي. وقد استشهد به زغدي في «في نضج الفكر...» ص ٣٤.

(٢٠) استشهاد من «الفانتيشال تايمز» ٢٧ شباط/ فبراير ١٩٩١.

(٢١) الاستشهاد من مؤسس الرزاز، من الأسوشييتد برس في عمان، كما هو مقتبس في «البوسطن غلوب» ٢٧ شباط/ فبراير ١٩٩١.

(٢٢) أنظر «نيوزويك» ٧ كانون الثاني/ يناير، ص ٢٢.

(٢٣) الكاتب ومترجم أعمال فرويد إلى العربية جورج طرايشي، هو مثال على هذا النموذج من التفكير. إنني أبنى منطقتي حول أزمة الخليج في الفصل التالي.

(٢٤) رامي. ج. خوري «فاكحة الحرب المروعة» معاد طبعها في «ذي غالف ريدر: تاريخ، وثائق، آراء». حرره ميخا. ل. سفري وكريستوفر سيرف (نيويورك: راندوم هاوس ١٩٩١) ص ٤٠٣ (سوف تشير إليه من الآن فصاعداً بتسمية «ذي غولف ريدر»).

(٢٥) أنظر مقالة جوديث ميلر «لعبة سوريا: ضلع وجهاً غربياً» في «النيويورك تايمز ماغازين» ٢٦ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٢، ص ١٩.

(٢٦) فوز طرابلسي «حصار الحرب» في «ميريب ريبورتنس» (تموز/ يوليو - آب/ أغسطس ١٩٩١) ص ٣٢.

(٢٧) استشهد به في مقالة بقلم داني روبنشتاين في «هآرتز» ٤ آذار/ مارس ١٩٩١. استخدمت ترجمة إسرائيل شاهاك في مجموعته من الصحافة العبرية.

(٢٨) نشر في لندن في مجلة «الناقد»، عدد ٣٣ (آذار/ مارس ١٩٩١) ص ٤ - ٥ كلمة «مناه» تجمع معاني الافتخار والتسامي والانقياد بلا هدى، وانعدام الوجهة، والضياع في أرض مقفرة بلا دروب. إن العنوان إذاً يضع يده بشكل ممتاز على شعور الغضب والقلق العميق اللذين يميزان الرفض العربي واللذين رأبناهما سابقاً في شعر نزار قباني (الفصل ١).

(٢٩) سميح القاسم «نحن الآن وثيقة تاريخية» منشورة في «الناقد»، عدد ٣٠ (كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٠) ص ٤ - ٥.

(٣٠) ميلان كونديرا، «فن الرواية» (نيويورك: غروف برس ١٩٨٨) ص ١٣٥.

(٣١) مقالة منتصف مرزوقي نشرت إبان الحرب تحت عنوان «المشرق الضال» «لوموند» ٦ شباط/ فبراير ١٩٩١. يبدأ «وأنت تراه من شواطئ المتوسط الجنوبية، فإن حرب الخليج تتشكل كمقدمة لطلاق ما بين الغرب والعالم العربي...». في المقالة يشكر مرزوقي السيد شفيان وهو اليساري في الحزب الاشتراكي الفرنسي، والذي كان وزير دفاع في حكومة ميثران، وهو شهير ببيع أسلحة إلى العراق على

نطاق واسع طوال الثمانينات. لماذا؟ لأن شفيتمان استقال من منصبه كوزير للدفاع تأييداً للعراق. من أجل المزيد عن منظمة «رابطة حقوق الإنسان التونسية» أنظر الفصل ١.

(٣٢) كما كتب صلاح زغبيدي في مقاله «في نضج الفكر...» في «دفاتر الشرق» Les Cahiers de l'Orient ص ٣٥.

(٣٣) أنظر على سبيل المثال مقالة الكاتب السوداني الدكتور حسن مكي محمد أحمد، التي نشرت في صحيفة «القدس العربي» الصادرة في لندن في ٢ أيار/مايو ١٩٩١. المقالة تستعرض الحجة القائلة أن الغرب هو الخاسر الأكبر في «أم الممارك» لأنه «ومهما كانت نتائجها الآتية من تدمير واحباط إلا أنها في نتائجها النهائية تمثل إضافة إلى مشروع الإحياء الإسلامي». هذه هي بالطبع نسخة أكثر فحاجة لموقف جليط. كذلك لم تكن الإشارة إلى الحملات الصليبية بأية حال حصراً على الكتاب المسلمين. أنظر على سبيل المثال مقالة بعنوان «ليس لنا خيار سوى قتال أميركا» بقلم الفيلسوف حسن عصفور «القدس العربي» ١٨ - ١٩ آب/ أغسطس ١٩٩٠.

(٣٤) من مجموعته بعنوان «عشرات الطائر» (بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٥) ص ٧.

(٣٥) هذا عنوان مقالة بقلم ميشيل عفلق، نشرت للمرة الأولى في «في سبيل البحث» (بيروت. دار الطليعة ١٩٥٩) ص ٢٩ - ٣٠.

(٣٦) جزء من مقابلة مع فؤاد عجمي، منقولة في مقالة عجمي، «الصمت في الثقافة العربية»، وذي نيو ريبابلك، ٦ نيسان/أبريل ١٩٨٧.

(٣٧) الاقتباس من «يوميات حصار بيروت ١٩٨٢»، قصيدة لأدونيس عن بيروت، منشورة في أنطولوجيا للشعر العربي بعنوان «ضحايا الخريطة» (لندن: دار الساقي ١٩٨٤) ص ١٣٤.

(٣٨) نشرت أساساً في «دير شيفيل» مقالة أرنستبرغر في الإنكليزية في «الوس أنجلوس تايمز» ١٤ شباط/فبراير ١٩٩١، جزء ب، ص ٧.

(٣٩) ذكر صلاح زغبيدي أن ٣٦ مثقفاً فرنسياً قاموا بنشر بيان في آب/أغسطس ١٩٩٠ يشجبون فيه ضم الكويت من قبل العراق والتحركات العدائية الأميركية في الخليج، على حد سواء. لقبوا بـ «مناصري الأغراب» و«الطابور الفرنسي الخامس» و«عملاء الامبريالية والصهيونية»، «لوكاياه دو لوريان» (حزيران/يونيو ١٩٩١) ص ٣٤.

(٤٠) كلمات عبد الرحمن حفيدي في «ليبراسيون» ٢ آذار/مارس ١٩٩١، كما هي مقبسة في «لوكاياه دو لوريان» (حزيران/يونيو ١٩٩١) ص ٣٤.

(٤١) من مقالة طوني واکر «المناضلون المسلمون يرددون صدام خليفة» «الفانتيشال تايمز» (١٠ كانون الثاني/يناير ١٩٩١).

٨ - خرافات قومية جديدة

(١) فؤاد زكريا «الثقافة العربية وأزمة الخليج» (لندن: «كويت ريسرتش كوماني» ١٩٩١) ص ٣٠.

(٢) أشير إلى وجهات نظر هؤلاء المفكرين على مدى هذا الكتاب.

(٣) رشيد خالدي «الفلسطينيون وأزمة الخليج» في «ذي غولف ريدر» ص ٤٢٣.

(٤) سمير أمين «الرهانات الحقيقية في حرب الخليج»، «مونثلي ريفيو» (تموز/يوليو - آب/أغسطس ١٩٩١) ص ١٥.

(٥) أنظر فصلية «أراب ستاديز كوارتلي» المجلد ١٣ الرقم ١ و ٢ (شتاء ورياح ١٩٩١) ص ٥.

(٦) إدوارد سعيد «عن الربط، اللغة، والهوية» في «ذي غولف ريدر» ص ٤٣٩.

- (٧) من محضر مؤتمر عقد في آذار/مارس ١٩٩١ وحضره أكاديمي لبناني وأكاديمي عراقي، و١٣ أكاديمياً من شمال أفريقيا وهم أكاديميون في علوم الاجتماع. نشر بعنوان «حرب الخليج ومستقبل العرب: حوار ومواقف» (تونس: دار سراس ١٩٩١). (من هنا فصاعداً سوف أشير إليه بتسمية «حرب الخليج») ص ٩٣. لمراجعة وجهة النظر نفسها، لكن مجموعة ثالثة من التواريخ، أنظر مقالة ضح الله واللغلو وهو أستاذ في علم الاقتصاد بجامعة محمد الخامس في الرباط. ص ٥٠.
- (٨) لا شك أن الولايات المتحدة دعمت صدام حسين بشكل تام حتى إجتياح الكويت، وهذا الدعم شجع بالتأكيد الزعيم العراقي على المضي في خطه. ولكن لماذا ينبغي أن يكون هذا الدعم السبب الذي دفعه إلى إجتياح الكويت بالدرجة الأولى؟ ظهر مدى الدعم الأميركي للعراق حتى ٢ آب/أغسطس ١٩٩٠ في التقرير الخاص النهائي بعنوان «عراق غابت: كيف ساعدت إدارة بوش صدام حسين على شراء أسلحته الحربية، ولماذا ألزم دافعو الضرائب الأميركيون بالقاتورة؟». (يو.إس. نيوز اند وورلد ريبورت). ١٨ أيار/مايو ١٩٩٢.
- (٩) كتب إدوارد سعيد في مقالة نشرت في ٧ آذار/مارس ١٩٩١ عندما كان الهجوم المضاد العراقي على الإنفاضة التي اندلعت في ٢٨ شباط/فبراير على أشده، «إن الزعم بأن العراق قصف مواطنيه بالقنابل الكيميائية تكرر غالباً، وهذا الزعم هو في أفضل الأحوال غير أكيد. هناك على الأقل تقرير حربي واحد صادر عن كلية الحرب، War College، أعد في حين كان العراق حليفاً للولايات المتحدة وهو يزعم أن إيران هي من قصف الأكراد في حلبجة بالأسلحة الكيميائية. عدد قليل من الأشخاص يأتي على ذكر تقارير كهذه في وسائل الإعلام اليوم». - لندن ريفيو أوف بوكس. (٧ آذار/مارس ١٩٩١) ص ٧. منذ متى كان سعيد من المعجبين بتقارير «وار كوليدج» الأميركية. إنه أمر جدير بالثناء سحب وثيقة كهذه المصدقية من الخزانة بهدف إظهار تاريخ الرياء الأميركي في ما يتعلق بأمر العراق. غير أن سعيد يختار أن يصدق أن في إمكانها حقاً أن تزرع الشك في حقيقة، لا تقبل الجدل نهائياً - ومعروفة منذ سنوات - وهي أن العراق كان قد بدأ قصف القرى الكردية بقنابل الغاز بهجوم على القرية الكردية شيخ ويسان في نيسان/أبريل ١٩٨٧. في تلك الأيام، كان النظام لا يزال يختبر أعاليه الجديدة: جرت عمليات قصف شاملة ومنظمة بالأسلحة الكيميائية طوال ١٩٨٨ وقد غطت أخبارها كل الصحافة العالمية.
- (١٠) مثل هيتشنز، أعتقد أنه من الأفضل الاستباط منطقياً على قاعدة اقراض نوابا شائنة لكل الدول والحكومات. ولكن إنطلاقاً من البراهين التي يقدمها لنا، من غير المنطوق أن نستنتج أن ما عته غلاسي «فعلياً» كان «إن مشكلة كبيرة مع حدود الخليج غير السوية هي حقيقة أنها كانت رسمت إنطلاقاً من رسم تخطيطي للاستعمار البريطاني قديم العهد»، أنظر هيتشنز، «لماذا نحن عالقون في الرمل؟»، «هاربرز ماغازين» (كانون الثاني/يناير ١٩٩١). إن رواية مختلفة عن هذا اللقاء يقدمها جون سيمبسون في «في منزل الحرب» ص ١٠١ - ١٠٥. يهرس سيمبسون بقوة أنه خلال وقت اللقاء، كان صدام هو نفسه: «لا يملك أية فكرة واضحة عما ينبغي أن يفعله» ص ١٠٢.
- (١١) أنظر أيضاً نقدي لنوم شومسكي في قسم آخر من الفصل.
- (١٢) خلال رحلة إلى شمال العراق في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩١، أعطاني مثقف كردي نسخة من المجلة البغية الموازية لـ «تأم ماغازين». كانت تحتوي مقالاً بحثي «الفكر الأميركي شومسكي» على أساس أنه «فضح ممارسات الغرب الثنائية لمبادئ الديمقراطية»، وتجاهلت المقالة كل ما قاله شومسكي في الماضي عن قذارة البعث، وشددت على «الفجوة بين القول والفعل» التي أحدثها شومسكي في صفوف الليبراليين الغربيين. ومن المثير للسخرية أنه تمديد جيد للمهجة التي وضعها نصب عيني في هذا الكتاب،

إنما مع استبدال الليبراليين الغربيين بالثقفين العرب. «ألف باء» العدد ١٢٠٨ - ٢٠ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩١. ص ٦.

(١٣) فوز طرابلسي، «ميرب ريوورس» (تموز/يوليو - آب/أغسطس ١٩٩١) ص ٣٠.

(١٤) فصلية (أرب ستاديز كوارترلي). الصفحتان ١٤ و ٢٠.

(١٥) إدوار سعيد في «ذي غولف ريدر» ص ٤٣٩.

(١٦) مأخوذة من نص/قصيدة بعنوان «خواطر تحت دعس الخيل» نشر في «عودة الاستعمار: من الغزو الثقافي إلى حرب الخليج». بقلم مجموعة من الكتاب. (لندن: منشورات رياض الرئيس ١٩٩١)، ص ١٧٢ - ١٧٣.

(١٧) المرجع ذاته ص ١٧٢.

(١٨) روى فيل رئيس القصة بالتفصيل في «المنطق القاسي للقرآن والكلاشيكوف»، صحيفة «الإنديبننت» ١٢ شباط/فبراير ١٩٩١.

(١٩) أنظر استطلاع الرأي العربي لديفيد هيرست «إذلال صلاح الدين يضيء على مؤيديه»، صحيفة «الغارديان» ٢٧ شباط/فبراير ١٩٩١.

(٢٠) جاك بيرك، «ولادة العرب الجديدة: الأمل والنشوة». (لندن: دار الساقي ١٩٨٣)، ص ٤٩. يشير بيرك إلى أن صلاح الدين أوحى، في ١٩٧٠، بخمسين كتاباً أدبياً جديداً.

(٢١) جورج طرابيشي، «جريمة الغرب المزدوجة»، في كتاب «عودة الاستعمار» ص ١٦٢ - ١٦٣. خطرت المقارنة ذاتها مع بسمارك لمحمد سيد أحمد: «ليس سرّاً لدى أي عربي أن نظام صدام حسين هو من أشدّ الأنظمة قمناً في العالم... [لكن] لماذا لا يمكن لصدام أن يفعل من أجل الأمة العربية ما فعله بسمارك من أجل ألمانيا؟» «ميرب ريوورس» (كانون الثاني/يناير - شباط/فبراير ١٩٩١) ص ١٧.

(٢٢) في مجموعة من خمس مقالات نشرتها صحيفة «القدس العربي»، قام محمّد عابد الجابري، واضع الدراسة الذاتية الصيت التي بعنوان «تكوين العقل العربي»، بتأييد المشروع السياسي لحزب البعث العراقي ودعمه بالحجج. وفي مقالة حول موضوع «من هو صدام حسين: تجربة الماضي وآفاق المستقبل»، قدّم الجابري الزعيم العراقي على أنّه قائد صاحب رؤى وله مشروعه القومي في التحرر والتقدم والوحدة بما في ذلك تمكين الشعب الفلسطيني من حقه في أرضه وتقرير مصيره. غير أنّه لم يذكر حتى مرّة واحدة سجلّ النظام العراقي الحافل في مجال حقوق الإنسان. نشرت المقالات في ٣١ كانون الثاني/يناير ١٩٩١، ٢ - ٣ شباط/فبراير ١٩٩١، ٥ شباط/فبراير ١٩٩١، ٩ - ١٠ شباط/فبراير ١٩٩١ و ٣ آذار/مارس ١٩٩١.

(٢٣) الياس خوري «الحقيقة والوهم»، صحيفة «السفير»، ١ أيلول/سبتمبر ١٩٩٠، ص ١٠.

(٢٤) أجرى المقاتلة حازم صاغية ونشرت في صحيفة «الحياة» في ٤ نيسان/أبريل ١٩٩١.

(٢٥) انتخب المؤتمر خير الدين حبيب، مدير مركز «دراسات الوحدة العربية» وهو مدير سابق للمصرف المركزي العراقي، أميناً عاماً له، مع أمانة سر مؤلفة من ٢٥ عضواً ذوي توزّع جغرافي واسع لإنجاز العمل (عراقيان، أردني واحد، ثلاثة فلسطينيون، ثلاثة لبنانيون، سوري واحد، يمني واحد، عشرة من شمال أفريقيا، وأربعة من دول الخليج). من بين الموقعين الأهم هشام شرابي وهو أستاذ في جامعة جورجتاون، والفيلسوف المغربي محمد عبد الجابري. كل الاستشهادات من نسخة مصوّرة عن البيان الذي أصدره المؤتمر.

(٢٦) لماذا على سبيل المثال، يتوجب على مفكر نقدي مثل هشام شرابي أن يفضّض ويسخط بما فعلته القوات المتحالفة بالجيش الجمهوري الصّدامي؟ في مقالة كتبت بعد وقت طويل من قيام الحرس الجمهوري

بسحق إنتفاضة آذار/مارس بوحشية، وبقتل عدد كبير من المواطنين العراقيين الأبرياء، وهو عدد يفوق كل الذين قتلهم الأميركيون من جنود الحرس الجمهوري، اختار أن يركز على خسائره، كبرهان على الإجرام الأميركي في حرب الخليج. أنظر «الجريمة الأميركية ومبادرة المستر يكر». «القدس العربي» ٢٩ نيسان/أبريل ١٩٩١.

(٢٧) «بيان إلى الأمة» نسخة، ص ٤.

(٢٨) راجع أيضاً صلاح زغيدي في مقاله «في نضج الفكر...» في «لوكاية دو لوربان» (حزيران/يونيو ١٩٩١) ص ٣٥.

(٢٩) من «ميثاق ٩١». البند ٥. أنظر أيضاً الفصل ٦ والحاشية ١٥.

(٣٠) إبراهيم أبو لغد «سياسة الربط» في «ما بعد العاصفة: قراءة لأزمة الخليج»، حررها ا.ب.ب.بتيس وم. مشبك (نيويورك: أوليف برانش برس ١٩٩١) ص ١٨٤، ١٨٨ - ١٨٩.

(٣١) محمد حلاج: «إتخاذ مواقف: الفلسطينيون وأزمة الخليج». في «جورنال أوف پالستين ستاينز»، مجلد XX رقم ٣ (ربيع ١٩٩١) ص ٤٥.

(٣٢) استشهاد من «هاداشوت» ١٠ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٠.

(٣٣) يستخدم صدام حسين من الحين والآخر آيات قرآنية. أنظر الفصل ٥.

(٣٤) من «ذي وومنز ريفيو أوف بوكس» The Women's Reviews of Books مجلد VIII الأعداد ١٠ - ١١ (تموز/يوليو ١٩٩١) ص ١١ - ١٢.

(٣٥) استشهاد من بهار بر من «هآرتز» ٢٢ آذار/مارس ١٩٩١. لقد استخدمت الترجمات التي أنتها لي إسرائيل شاهاك في تقريره رقم ٦٧ بعنوان «الفلسطينيون في إسرائيل يناقشون الديمقراطية في مناخ من النقد الذاتي».

(٣٦) أنظر مقابلة حبيبي الهامة مع هدى الحسيني في صحيفة «الشرق الأوسط» - ٣ أيار/مايو ١٩٩١.

(٣٧) في كلمة قدمها في غاليري الكوفة في لندن في ١٧ أيار/مايو ١٩٩١، انتقد حبيبي مجمل المثقفين العرب لعجزهم عن ملء «الفراغ» الذي نشأ بفعل أزمة الخليج. سأل في مقالة لاحقة، لماذا حدث هذا؟ إنني أرى أن الخطيئة تكمن في إهمال المثقفين العرب المبدعين، باستثناء مجموعة صغيرة هامشية، الدور الذي وجدوا أصلاً من أجله، وهو بالتحديد حماية ضمير شعبهم من الفساد. «القدس العربي» ٢٢ أيار/مايو ١٩٩١.

(٣٨) أنظر مقابله مع ي.الغازي في «هآرتز» ٣٠ أيار/مايو ١٩٩١.

(٣٩) أنظر مقاله في «القدس العربي» ٢٠ آذار/مارس ١٩٩١.

(٤٠) إن الفحوى الديمقراطية للوطنية الفلسطينية، غير موجودة كلياً بالطبع في العروبة - الشمولية عند واحد مثل هشام جعيط أو محمد عابد الجابري.

(٤١) طوّرت الحجة نفسها في علاقتها بالخطوة العراقية ضد الكويت وبشكل أوسع في مقالة نشرت في «نيو ستايتسمن أند سوسيتي»، ٣١ آب/أغسطس ١٩٩٠.

(٤٢) محمد حسنين هيكل، وأخرجوا إليها الأميركيون وادخل إليها النظام العربي الجديد، صحيفة «التايمز» ١٢ أيلول/سبتمبر ١٩٩٠. لسبب غير مبرر خرج هيكل عن صمته الأولي الذي دام ستة أسابيع بشأن أزمة الخليج، ونشر رأيه الأول في صحيفة «التايمز» اللندنية.

(٤٣) نعم شومسكي «عن سياسة الولايات المتحدة في أزمة الخليج» جامعة هارفرد. كامبريدج ١٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٠، سلسلة الكتيبات أوين ماغازين، وست فيلد ن.ج. (١٩٩١) ص ٢.

- (٤٤) نعوم شومسكي ونظام العالم الجديد» بايتر كوليدج ٣٠ كانون الثاني/يناير ١٩٩١ سلسلة الكتيبات «أوين ماغازين، وست فيلد ن.ج. ١٩٩١ ص ٥.
- (٤٥) شومسكي «عن سياسة الولايات المتحدة في أزمة الخليج» ص ٢.
- (٤٦) المصدر السابق. في الكتيب يبرهن شومسكي أن الولايات المتحدة هي على الدوام ضد الدبلوماسية والمفاوضات، لأن سياساتها غير مقبولة شعبياً في العالم الثالث، وأنها سوف تخسر كلياً إذا ما أقلمت عن لجوئها الدائم للقوة والعنف. هذا التأكيد الدوغمائي غير المدعوم بالدلائل نقضته تجربة الإنتفاضة العراقية في آذار/مارس ١٩٩١، عندما قام كل الثوار العرب والأكراد بطلب مساعدة من القوات المتحالفة لاسقاط النظام البعثي.
- (٤٧) «حرب الخليج» ص ٢٩.
- (٤٨) المصدر السابق ص ٣٤. الحجة نفسها حاضرة في مقالة سمير الأمين المذكورة سابقاً «الرهانات الحقيقية...»، «مونثلي ريليو» (تموز/ يوليو - آب/أغسطس ١٩٩١) ص ١٦ - ١٩.
- (٤٩) من نسخة مصوّرة غير منشورة لأحمد الحلبي بعنوان «المال والسلطة في العراق» ٢٠ شباط/فبراير ١٩٩٠.
- (٥٠) أرقام من دونا سميت، «قلق المحللين الأميركيين حيال تكاليف نظام بوش الجديد» رويتر ١٨ آذار/مارس ١٩٩١.
- (٥١) أرقام من مارك سومر «ما لا تستطيع الولايات المتحدة أن تحتل تكاليف»، «كريميتيان سياتس مونيتور»، ٦ آب/أغسطس ١٩٩١، ص ١٨.
- (٥٢) أنظر على سبيل المثال مقالة لإدوارد لوتواك، «هل أميركا على طريق الهبوط؟» في «كوماتري» (آذار/مارس ١٩٩٢) ص ١٥ - ٢١.
- (٥٣) أرقام من جاييس ريسن «بوش لن يرفع الضرائب لتمويل الحرب»، «لوس انجليس تايمز» ٢٢ كانون الثاني/يناير ١٩٩١، قسم الأعمال، ص ١.
- (٥٤) إدوارد سعيد، «صورة مأسوية، كتاب مغلق إلى الغرب»، «الإنديبندنت»، ١٢ آب/أغسطس ١٩٩٠. يوم بدأت حرب الخليج انتقد سعيد الخطوة العراقية بكلام قاس. أنظر مقاله «إمبراطورية الرمل» في «ويك أند غارديان» ١٢ - ١٣ كانون الثاني/يناير ١٩٩١. وبينما تضم هذه المقالة نقداً للنظام العربي الحديث من وجهة نظر سعيد للعالم، وهو أمر نرحب به، نراها لا تقدّم أية استنتاجات. إن الأولويات الأساسية، في اعتقادي، بقيت هي نفسها، وقد برهنت ذلك معارضة سعيد لبدأ تدخل التحالف لمصلحة الإنتفاضة العراقية ضدّ صدام حسين.
- (٥٥) سمير الخليل «الفرق في خليج الأكاذيب»، «الإنديبندنت»، ٢٥ آب/أغسطس ١٩٩٠.
- (٥٦) سعيد «صورة مأسوية، كتاب مغلق...».
- (٥٧) الياس خوري «الدرع الأميركي» في «السمير» ١٨ آب/أغسطس ١٩٩٠. ص ١٠.
- (٥٨) طرايشي «عودة الاستعمار» ص ١٥٩ و ١٦٤.
- (٥٩) «حرب الخليج» ص ١١٢.
- (٦٠) طرابلسي «حصار الحرب»، «ميرب ريبورتس» (تموز/يوليو - آب/أغسطس ١٩٩١) ص ٣٢.
- (٦١) العنوان كاملاً هو «عودة الاستعمار: من الغزو الثقافي إلى حرب الخليج» بقلم مجموعة من الكتاب، ومنهم كمال أبو ديب، سميح القاسم، محمد برادة، أنسي الحاج (لندن: منشورات رياض الريس ١٩٩١).

- (٦٢) أنظر مقالته «حرب ضد حضارة» التي نشرت في «الغارديان» في ١ نيسان/أبريل ١٩٩١. صدرت المقالة بشكل منقّح ومطوّل في «عودة الاستعمار» صفحة ٣٣ - ٤٤.
- (٦٣) أنظر المقابلة الطويلة مع كسبار في «الحياة» ٣٠ أيار/ مايو ١٩٨٩ بعنوان «إنهم يقتلون الكتاب [العربي]».
- (٦٤) سعيد «صورة مأسوية، كتاب مفلق...».
- (٦٥) خالد: «أزمة الخليج» مصادر وعواقب» ص ٢.

٩ - مشاهد من القسوة والصمت

- (١) أحياناً، حتى حين يمدّ عرب تقارير كهذه، فإنها تتعرّض للتجاهل. خلال المؤتمر الوطني ١٩٩١ للجنة الأميركية - العربية المضادة للتمييز (ADC) والتي تزعم أنها «منظمة غير متحيّزة مكرّسة للدفاع عن حقوق... الأميركيين العرب»، أعاقت هذه اللجنة مساعي منظمة حقوق الإنسان العراقية التي مركزها واشنطن، ومنعتهم من الحصول على طاولة لعرض كتب أدبيهم. (في المؤتمر نفسه كانت معروضة للبيع كدسة أوراق من ٩٢ ورقة تشكل مجموعة من ٣٠ خطاباً، وتصريحاً، ومقابلة، ورسالة من المسؤولين الرسميين في الحكومة العراقية وكانت بعنوان «العراق يتحدث» - كان أكثر من نصفها لصنّام حسين. كان هدف المجموعة بحسب ناشرها فرد مور، «تقديم وجهة النظر العراقية». كانت تزعم غلاف الكتاب خارطة خضراء تجمع الكويت والعراق والحدود ممحوّة بينهما، إضافة إلى كتيّب في الداخل يشرح أن مجموع عدد السكان في العراق هو ٢٠ مليون نسمة (بما في ذلك المحافظة الـ ١٩). الـ ADC كانت تأسست عام ١٩٨٠ «رداً على التشويه والإفراء والتعصب مما كان يتعرض إليه الأميركيون من أصل عربي» (المعلومات من تقرير المنظمة عن نشاطاتها لعام ١٩٩١). وبمطلق الأحوال نادراً ما تهتم بالإعتداءات على حقوق الإنسان في العراق أو في العالم العربي بشكل عام. إن الـ ADC تهتم عوض ذلك بالإعتداءات الإسرائيلية على حقوق الإنسان، والحقوق المدنية للأميركيين العرب. في مقابلة بخصوص هذا الموضوع بالذات في ١١ أيار/مايو ١٩٩٢ مع ألبرت مخيبر رئيس لجنة الـ ADC أجراها الصحافي الأميركي - العراقي أياد رحيم، قال مخيبر إن كل الأنظمة في العالم العربي تتعدى على حقوق الإنسان، وإن كانت الـ ADC ستبدأ بالكلام عن تلك الإعتداءات، فأين ستوقف؟ وهل من المفترض أن يقيموا ٢١ جدولاً للأعمال في كل مؤتمر؟ ذلك عمل لا نهاية له. إني أكتشف هذا الحادث لأن الـ ADC أكبر منظمة أميركية - عربية في الولايات المتحدة، وتقلّ ما يقارب العشرين ألفاً من الأميركيين العرب، ووجهات نظرها واسعة التمثيل.
- (٢) إن المرء يفكر على سبيل المثال بتاج كاتبات لبنانيات مثل حنان الشيخ، أندريه شديد، وإيتيل عدنان. إن الكتاب الذكور لا يزالون عالقين في قناة «الرفضية» والقومية والمعاداة للامبريالية. للمزيد من هذا الاختلاف أنظر دراسة إلفين عقّاد «الجنسانية والحرب: الأقنعة الأدبية في الشرق الأوسط» (نيويورك: نيويورك يونيفرستي برس ١٩٩٠).
- (٣) الكتاب الوحيد عن حمّاه، الذي علمت بشأنه هو بعنوان «حمّاه» مأساة العصر التي فاقت صبرا وشاتيلا (القاهرة: دار الاعتصام) ولا يحمل اسم مؤلف، وهو ربما نتيجة مجهود جماعي للإخوان المسلمين. إن أفضل رواية لما جرى موجودة في كتاب توماس فريدمان «من بيروت إلى القدس» (نيويورك: فرار،

شتراس إنديجو ١٩٨٩ الفصل ٤، «قوانين حماه». الرقم الأعلى وهو ٤٠ ألف قتيل كان نشره سوربون من حماه. منظمة المفو الدولية نشرت تقريراً تختّن فيه رقم القتلى بما بين عشرة آلاف ٢٥ ألفاً. لا أحد يعرف الرقم الحقيقي.

(٤) مذ تلقت الفاكس، تحققت عدة مرات من صحة هذه البطاقة - المؤشر. وعلى الرغم من أنني لم أستطع رؤية الوثيقة الأصلية التي كان قد استرلى عليها الأكراد خلال إنتفاضة آذار ١٩٩١، كنت رأيت شريط فيديو بصور بطاقة التعريف لمزيو صالح أحمد على مقربة من غرفة الإغتصاب من مقر الأمن في مدينة السليمانية. وكان الشريط قد صوّر في الوقت الذي نهب فيه المكاتب. لم يكن هناك وقت يسمح لأي واحد بتزوير وثائق. من هنا ومن شهادات أخرى من أكراد ومن صحافيين غربيين كانوا حاضرين آنذاك، ليس لدي أي شك في أن هذه الوثيقة حقيقية وغير مزورة.

(٥) هذا بحسب شهادة قدمها أحمد بمرني في ٢٦ أيلول/سبتمبر ١٩٩١ في باريس، خلال إجراءات محكمة «اتهموا صدام»، وكل من نظمها عراقيون ليكتشفوا إن كان في الوسخ توجه تهم بجرائم حرب أو جرائم ضد الإنسانية ضد القيادة البيعة في بغداد. في تلك المحاكمة بالذات قال الدكتور هشام المحسن، وهو طبيب ممارس في المملكة المتحدة، في شهادة مؤثرة للغاية، إن العديد من النسوة العراقيات من مرضاه كان اغتصبهن رجال الأمن في العراق خلال الثمانينات. أنظر أيضاً مجموعة تقارير شهود عيان بعنوان «أحداث آذار ١٩٩١ كما يرويها شهود عيان» (طهران: المركز الوثائقي لحقوق الإنسان في العراق ١٩٩١) ص ٣٣.

(٦) إني مدين إلى هيلاري مان بهذه المعلومة. كانت زارت غرفة الإغتصاب بعد وقت قصير من تحرير العاصمة الكويتية. حصلت أيضاً على شريط فيديو يظهر غرفة الإغتصاب في مقر الأمن المركزي في السليمانية بعد وقت قصير من الإنتفاضة، مع كدسات من ملابس النسوة المرمية والبالية المشقوقة إلى جانب جدار قريب.

(٧) أنظر مقالة أندرو هوغ من العاصمة الكويتية بعنوان «ميراث حرب صدام: أطفال بلا ماضٍ»، «الصندي تايمز» The Sunday Times ٢٦ كانون الثاني/يناير ١٩٩٢. بعد زيارته لدار الأيتام كتب هوغ، «كان دار الحضانة، المزدان بصور شخصيات من الصور المتحركة وأثاث ملوّن، لا يشبه البتة مكاناً لأطفال يفضل الكويتيون أن ينسوههم. غير أنه لواقع غير مريح أن معظم الأطفال الموجودين هنا هم تذكارات حيّة للغزو العراقي، وقد ولدتهن نسوة كويتيات اغتصبهن جنود صدام حسين. التقديرات تختلف، ولكن خلال فترة الإحتلال التي دامت سبعة أشهر يُقدّر انه جرى اغتصاب خمسمئة امرأة، وبعضهن بشكل متكرر». الأطفال في دار الحضانة هم أولئك الذين ولدوا لنسوة لم تتوفر لهن فرصة القيام باجهاض سري أو أي مساعدة من عائلة متفهمة. إنهن يواجهن حياة من العار.

(٨) أنظر على سبيل المثال شهادة أم حسن البتائي، وهي سيدة تركمانية تعرّضت لأشكال مختلفة من الإعتداءات الجنسية بينما كانت قيد الإحتجاز. قدمت شهادتها خلال جلسة شهادات أو تحقيق في إعتداءات ضد حقوق الإنسان في العراق. الجلسات عقدت في طهران في ٢٣ أيار/مايو ١٩٩٢ ونشرت مادتها في «صوت الكويت» في ١٣ حزيران/يونيو ١٩٩٢. أنظر أيضاً تقرير جيم موير «ما وراء الهرب الكردي المربع» في «كريستيان ساينس مونيتور» Christian Science Monitor - ١٨ نيسان/أبريل ١٩٩١، ص ١. حيث يكتب «يقول العديد من المصادر، إنه حيال معاندة بعض السجناء السياسيين، كان بمثابة الممارسة الشائعة أن يحضروا قريبتهم ويختصمونهم أمامهم ليستخرجوا منهم اعترافات». كانت نسوة «توارى» في العراق في ظروف غامضة منذ أواخر

السبعينات عندما بدأ القمع يسيطر بطريقة فعلية. منظمة ضليعة الشهرة قائمة في لندن تدعى «اللجنة الدولية لإطلاق سراح النساء المعتقلات والمختفيات في العراق»، قامت بمجهود كبير في الثمانينات لجمع معلومات، وتقديم لوائح، والقيام بحملات إعلامية بخصوص مأزق هؤلاء النسوة في الغرب.

(٩) روبرت كارن «عار» الموضوع الغلاف في «الأتلانتيك» The Atlantic مجلد ٢٦٩ رقم ٢، (شباط/فبراير ١٩٩٢) ص ٤٧. إن استشهادات لاحقة في هذا المقطع هي من هذه الدراسة التي من ثلاثين صفحة.

(١٠) أني مدين حوارات مع مي غصوب عبر السنوات للأفكار الموشعة هنا، على الرغم من أنها غير مسؤولة بالطبع وبأي شكل من الأشكال عما هو مكتوب هنا. أنظر على الأخص كتابها «المرأة العربية وذكورية الأصالة» (لندن: دار الساقى ١٩٩١). إن نسخة سابقة عن الفكرة نفسها ظهرت في مقالها «النسوية والذكر الأيدي في العالم العربي»، «نيو ليفت ريفيو» New Left Reviews عدد ١٦١.

(١١) أنا مدين لقالع عبد الجبار، لأنه أخبرني بشأن هذا العرف التكريمي، الذي يعود إلى زمن الثمانين، وعن ذلك الكره الغريب الذي نما في حلقات الحكم البعثي منذ أواخر السبعينات فصاعداً، وهدفه النيل من العائلات الأرستقراطية الشهيرة في العراق.

(١٢) للرواية الكاملة أنظر الفصل ٥.

(١٣) أنظر كارين «عار»، «ذي أتلانتيك» The Atlantic ص ٤٠.

(١٤) إن قصتي أمل مصبراتي وساره أبو غتتم، إضافة إلى الأخرى، مذكورتان في مقالة بعنوان «كفالة للجريمة» بقلم ماتي ريفيف في «كول هابر» ٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩١. كان ريفيف كتب سابقاً عن هذا الموضوع سنة ١٩٨٨ عندما كشف تسامحاً غير مألوف لدى السلطات الإسرائيلية حيال العرب الذين قتلوا نساء في «جرائم شرف». إنني مدين إلى مجموعة مقالات إسرائيل شاهاك في موضوع جرائم «شرف العائلة»، ومعظم المعلومات التي استخدمتها مصدرها النشاطات الحرفية لمنظمة «الفنارة» النسائية الفلسطينية، التي تركز على هذا الموضوع. أنظر أيضاً التقرير الممتاز رقم ٨٣ «بدايات الحركة النسوية الفلسطينية» المؤرخ في ٢٣ آب/أغسطس ١٩٩١. في ٤ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩١ نظمت «الفنارة» مظاهرة خارج مركز الشرطة في بلدة الرملة الذي كان سلم أمل مصبراتي مجدداً إلى قاتليها. المظاهرات الفلسطينية اتهمن السلطات الإسرائيلية بالتواطؤ مع «العادات المتخلفة» والخضوع لها. أنظر الرسالة الإخبارية الصادرة عن «الفنارة» باللغة العربية والمنشورة في حيفا، إسرائيل، والمؤرخة في كانون الأول/ديسمبر ١٩٩١، ص ٢.

(١٥) استشهد من ريفيف في «كول هابر» ٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩١.

(١٦) أخبرني بشأن هذه الوثيقة الخاصة أبو علي (اسم مستعار) في شقلاوة (شمال العراق) في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩١. كان أبو علي مسؤولاً عن تنظيم وتبويب ثمانية آلاف وثيقة استحوذ عليها الحزب الشيوعي العراقي في آذار/مارس ١٩٩١. لم استطع أنا نفسي رؤية النسخة الأصلية. ثمة كاتب كردي مرموق، وشاعر ومناضل سياسي يستطيع أن يؤكد من قوائم استولت عليها منظمات كردية خلال الثمانينات «إن تصوير أشرطة فيديو بواسطة كاميرات سرية أصبح صناعة حقيقية» في العراق. ذكر حالات معينة عن أشرطة فيديو جنسية فاضحة كان يوزعها النظام بالذات، بغرض إذلال شخصيات كردية معينة، كانت على الأغلب قد سبق وتعرضت للاشتباه بسبب تعاونها. أنظر المقابلة التي قامت بها آنالي فان إميلروي وإسماعيل زاهر في مجلة حقوق الإنسان الهولندية («منش رشتن ماغازين» Mensen Rechten Maqazine أيار/مايو ١٩٩٢). إن منظمة ميدل إيست واتش Middle East

Watch تمتلك أيضاً وثائق للشرطة العراقية تبين استخدام التهديد بكشف خيانات جنسية كوسيلة لتجنيد مخبرين.

(١٧) أنظر تقرير تيريزا ثورنهيل، «اجبار النساء على الكلام: استجواب النساء الفلسطينيات المحتجزات من قبل أجهزة الأمن العام الإسرائيلية» (لندن: محامون من أجل حقوق الإنسان في إسرائيل، ١٩٩٢) ويظهر من خلال حالات جرت دراستها كيف أن جهاز الأمن الإسرائيلي «طور تقنيات معينة خاصة بالنساء. وتضمن هذه مضايقات جنسية، [و] توظيفاً للمفهوم العربي عن «شرف المرأة» (ص ١٧) أنظر أيضاً الحاشية رقم ٢٥ في الأسفل.

(١٨) من عصام الخفاجي «رعب الدولة وإنحطاط السياسة في العراق»، «ميرب ريبورتس» (أيار/مايو - حزيران/يونيو ١٩٩٢) ص ١٦.

(١٩) إني مدني لمي غصوب كونها أشارت إليّ بضرورة أخذ هذا التمييز بعين الاعتبار بين بلد مثل السعودية وبلد مثل العراق.

(٢٠) إن مخبرتي، الذي تمتع أن تبقى هويتها مجهولة كتت قابليتها في لندن صيف ١٩٩٢.

(٢١) استخدام الإسلام في سياسة بعض العناصر في المعارضة العراقية تبرره الحاجة إلى العودة إلى «الجدور» والتقاليد، بعد كل جيشانات سنوات البحث. النقطة الأولى هي أن هذه التبريرات تتجاهل دوماً أن هذه الجدور لم يمد لها نفس الوجود. لا يهم عدد الناس الذين انشدوا شعارات إسلامية خلال إنتفاضة آذار/مارس ١٩٩١ لأن الحشود نفسها التي هتفت «الله أكبر» كانت تمزق وتندثر كل شيء حولها. العدمية باسم الإسلام هي أيضاً ميراث بعثي، وهو لا يمت بصلة إلى الإسلام التقليدي. لا يمكن أن يحدث شيء ما كالعودة إلى الإسلام «الحقيقي» في العراق لأن العراقيين قد أصبحوا منذ وقت طويل «معصرين» وعلى نحو عميق لا عودة عنه (في المعنى السيئ للكلمة وليس العكس). يمكن أن يستخدم الإسلام فقط كأيدولوجية سياسية حديثة لتحل محل الإيدولوجية البعثية، وستنتج عنها بشكل مساو نتائج مهلكة، (وفي المدى الطويل مؤذية للإسلام بالذات). إن العراقيين بحاجة ماسة اليوم إلى تجتّب كل أشكال الفكر الإيدولوجي في السياسة، بما في ذلك الأشكال الإسلامية.

(٢٢) أنظر تقرير روي غوثمان من خلال مقابلات مع عشرين ضحية في «نيويورك نيوزداي» New York Newsday ٢٣ آب/ أغسطس ١٩٩٢، ص ٧ و ٣٩.

(٢٣) هذا هو الرقم الذي تم التوصل إليه رسمياً بعد تقديم شامل لبراهين في محاكمات عسكرية دولية عقدت في طوكيو عام ١٩٤٦. من دراسة سوزان براون ميلر المتأثرة عن الموضوع بعنوان «ضد ارادتنا: رجال، نساء وإغتصاب» (نيويورك: باتنام بوكس ١٩٨٠) ص ٥٨.

(٢٤) المصدر السابق، ص ٨٦ - ٨٧.

(٢٥) إن ملخصاً عن هذه القضايا، إضافة إلى تعليق موجز عن ردات الفعل على كتيّب كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٩، موجود في «نسوة من أجل نسوة سجينات سياسيات - القدس» (القدس - تقرير نصف سنوي، كانون الثاني/يناير - حزيران/يونيو ١٩٩٠) أنظر صفحة ١٢ - ١٣ لقضايا الاعتداءات الجنسية.

(٢٦) دراسة ١٩٨٢ أجريت في أوريغون Oregon (الولايات المتحدة). أنظر «عقل المغتصب»، «نيوزويك» Newsweek، ٢٣ تموز/يوليو ١٩٩٠، ص ٤٦.

(٢٧) وأحد أكر العناصر ثباتاً في الإغتصاب هو إنعدام التعاطف، لدى المهاجمين القدرة على إقناع أنفسهم بأن الضحية رغبت أو استحققت أن تغتصب. المصدر السابق ص ٥٠.

(٢٨) المقابلات مع النسوة العراقيات والتي تشكل المادة الخام لكتاب سناء الحنياط «الشرف والعار» (لندن، دار الساقي ١٩٩٠) كانت أجريت خلال الحرب العراقية - الإيرانية. العنف الموجود في علاقاتهن الشخصية

والتي بين الأشخاص (ولكن غير السياسية) يظهر عبر تصويرهن للعلاقات العائلية والجنسية، والتي هي نتاج سنوات عديدة من العيش تحت حكم حزب البعث. لو أن مقابلات مماثلة أجريت في الخمسينات والستينات، قبل أن يصبح العنف مؤسسياً إلى هذه الدرجة، لم تكن، حسبما أظن، تُظهر النتائج نفسها.

(٢٩) أنظر رفيف «كول هابر» ٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩١.

(٣٠) أنظر مقالة إيما دابلي عن مقابلة مع الدكتور هاريتوس فاتوراس بعنوان «الأناس العاديون القادرون على الشر» في «الإنديندنت» ١٠ آب/أغسطس ١٩٩٢.

(٣١) من تقرير مطوّل عن الحادثة بقلم روي غوثمان في «نيويورك نيوزداي» New York Newsday ٢٣ آب/أغسطس ١٩٩٢ ص ٧، و ٣٩.

(٣٢) أحمد تيتشي، هو مؤلف القصة القصيرة التي استشهدت بها في الفصل ٧.

(٣٣) استشهاد من رفيف في «كول هابر» ٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩١.

(٣٤) سلمان مصالحة «عن الشرف العربي الضائع» «هآرتز» ٢٧ آذار/مارس ١٩٩١. الاستشهاد مأخوذ من ترجمة إسرائيل شهاك في تقريره رقم ٦٧ بعنوان «الفلسطينيون في إسرائيل يناقشون الديمقراطية في مناخ من النقد الذاتي».

(٣٥) مي غصوب «المرأة العربية» ص ٩ - ١٠.

(٣٦) الاستشهاد في مقالة «مع احترام الكلي لعائلي، أريد أن أعيش» بقلم أمي غينسبرغ في «هاداشوت»، ١٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩١. هذه المقالة موجودة كذلك في مجموعة شهاك المذكورة في الهامش الرقم ١٤.

(٣٧) هذا الرقم مأخوذ من مقالة بقلم المحامية أسما جهنغير «وجوه الاغتصاب الكثيرة» في الطبعة الباكستانية لـ «هيرالد أنيول» The Herald Annual (كانون الثاني/يناير ١٩٩٢) ص ٥٢. كُتبت «الهيرالد» ١٨ صفحة لمقالات مختلفة عن «سياسة الاغتصاب» في باكستان. وقد تبع ذلك حادثان شهيرتان لتسوية حسابات سياسية عن طريق الاغتصاب، وشمل الأمر نسوة من الأطراف النقيضة في السلم الاجتماعي. أنا مدين إلى ساره زيدي التي لفتت انتباهي إلى هذه المادة. إن خطورة الوضع في باكستان، والطريقة التي تتضارب فيها قوانين «الحدود» بوضوح مع أسس حقوق الإنسان، مستعرضة في تقرير من ١٥٣ صفحة أصدرته منظمة «هيومن رايتس واتش» Human Rights Watch بعنوان: «خطر مزدوج: إعتداءات الشرطة على النساء في باكستان» (نيويورك ١٩٩٢).

(٣٨) «تايمز أوف إنديا» Times of India مستشهد به في «نسوة في الخطوط الأمامية»، وهو تقرير لمنظمة العفو الدولية في آذار/مارس ١٩٩١، ص ١٩، جاء فيه: «يبدو أن الإغتصابات أثناء الاعتقال تحدث بشكل مطرد إلى حد أن عنوان «شرطي يتحرش بامرأة»، أصبح طعماً يومياً لقراء الصحف. إن اعتبرنا أن ٩٧ بالمئة من قضايا الاغتصاب إما تُلغى أو تَرَدُّ على أساس أن البوليس لم يستطع تقصيها، بحسب اعتراف البوليس بالذات، فإن الصعوبات التي تعترض معالجة اغتصابات الاحتجاز هذه لا يمكن التقليل من شأنها».

(٣٩) أنظر «رغمًا عنهم» في «فوكاس» Focus وهي منشورة لمنظمة العفو الدولية، شباط/فبراير ١٩٩٢، ص ٤.

(٤٠) «الفار» تأسست في ربيع ١٩٩١ بحسب إحدى أعضائها سوزان نصر، عندما قابلها أباد رحيم في أبارا/

مايو ١٩٩٢. تأسيسها كانت شرارته قضية شابة فلسطينية في العشرين من عمرها من قرية في الجليل تدعى إكسال، كان والدها يختصمها منذ كانت في الخامسة عشرة من العمر. في النهاية حملت الشابة ووجدت محروقة ميتة في سيارة. الشرطة الإسرائيلية أطلقت سراح الأب وبدأت النساء الفلسطينيات يجمعن عريضة تناشد السلطات محاكمته. اليوم تحاضر نساء «الفنار» في القرى العربية وفي المدارس الثانوية في موضوع الشرف والعار في المجتمع العربي المسلم. عندما قال الشيخ محمد حسين غدير في مقابلة على الراديو إن «شرف العائلة ينبغي أن يهان»، وأن المرأة إن قامت «بالحاق العار بعائلتها، يجب أن يجري التصرف بشأنها، وحتى قتلها»، طالبت نساء «الفنار» النائب العام في إسرائيل بأن يتهم الشيخ بالتحريض على القتل. أنظر أيضاً غينسبرغ في «هاداشوت» ١٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩١.

(٤١) «بيان منظمة العفو الدولية حول حقوق الإنسان في سورية» واشنطن ٢٤ نيسان/أبريل ١٩٩١.

(٤٢) أنظر الهامش الرقم ٣ من أصل مصادر أخرى عن قصة حماه، إلى جانب هذه المقابلة مع سعيد التي جرت في الولايات المتحدة في ربيع ١٩٩٢. سعيد هو بالطبع اسم مستعار.

(٤٣) أنظر مقالة مارتن أميس في الأسوشيتد برس Associated Press المنشورة في «ناشوا تليفراف» Nashua Telegraph (في نيوهامشير New Hampshire) في ١٤ حزيران/يونيو ١٩٩١. أنظر أيضاً «بوسطن صندي غلوب» Boston Sunday Globe ٩ حزيران/يونيو ١٩٩١.

(٤٤) أنظر تقرير جوديث ميلر، «ذي نيويورك تايمز» The New York Times ٣٠ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٠.

(٤٥) أنظر تقرير منظمة العفو الدولية كما يستشهد به في «التايمز» The Times (لندن) ٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٠.

(٤٦) أنظر تقرير «ميدل إيست واتش» Middle East Watch، بعنوان: «انتصار تحوّل بغيضاً أهول/سبتمبر ١٩٩١. ونشرة صادرة عن منظمة العفو الدولية عن التعذيب والقتل في الكويت مؤرخة في ١٨ نيسان/أبريل ١٩٩١.

(٤٧) استخرجت كل التفاصيل من ثلاثة تقارير كتبها جون كيفر في «نيويورك تايمز» The New York Times في ٢٢ كانون الثاني/يناير و٣٠ كانون الثاني و٩ شباط/فبراير ١٩٨٦.

(٤٨) إن انفجار السيارة المزدوج، في ممارسة تشبه، الممارسة الإسرائيلية في لبنان والتي تقوم على قصف المواقع ذاته في مخيم اللاجئين مرتين وفي توال سريع.

(٤٩) أرقام نشرت في «النهار» البيروتية في ٦ آذار/مارس ١٩٩٢. أول أرقام رسمية عن عدد ضحايا الحرب الأهلية في لبنان، كما أكدها مكتب المعلومات في إدارة الشرطة في بيروت، نشرت في العدد نفسه من «النهار». إن لم تكن قد ظهرت بشكل آخر، فإني أعتمد على هذا مصدراً لي.

(٥٠) الأرقام من بحث لسليم نصر، بعنوان: «لبنان: حقائق اجتماعية جديدة وقضايا إعادة بناء» أحمد طه، في «برسي» Precise، منشورات مركز الدراسات الدولية في جامعة MIT، المجلد ٣، رقم ١ (شتاء ١٩٩١ - ١٩٩٢) ص ١٣.

(٥١) جين سعيد مقدسي، «شطايا بيروت؛ مذكرات حرب» (نيويورك: برسيا بوكس ١٩٩٠) ص ٢١٣، ٢٤٤.

(٥٢) كل الإحصاءات مأخوذة من مقالة بعنوان، «الانتفاضة تتحول ضد نفسها» في «إيكونوميست» The Economist ١٦ أيلول/سبتمبر ١٩٨٩ ص ٤١.

- (٥٣) الفلسطيني الذي تحدث علناً محطماً جدار الصمت بشأن هذه الجرائم كان الكاتب اميل حبيبي، أنظر مقالاته في «القدس العربي»، ٢٠ آذار/مارس و٢٢ أيار/مايو ١٩٩١.
- (٥٤) بوست هيلزمان «ذي نايشن» The Nation ١٠ أيلول/سبتمبر ١٩٩٠. حبيبي يشير بالصدفة إلى ثلاثية حادثة قتل لشعائين مزعومين، في نقده اللاذع للتطرف الفلسطيني في «القدس العربي»، ٢٠ آذار/مارس ١٩٩١.
- (٥٥) «ذي نايشن» The Nation ١٠ أيلول/سبتمبر ١٩٩٠. عنوان المقالة هو «العدو داخل الإنتفاضة».
- (٥٦) كما نشرت في تقرير في «بوسطن غلوب» Boston Globe ٣٠ أيار/مايو ١٩٩٢.
- (٥٧) غادر عيد الاجتماع بالأساء، وقال في مقابلة لاحقة، انه يمكن أن يكون الثاني في السلسلة. أنظر الرواية في «بوسطن غلوب» Boston Globe، ٢٠ حزيران/يونيو ١٩٩٢.
- (٥٨) من مقالاته في «القدس العربي» ٩ نيسان/أبريل ١٩٩١.
- (٥٩) القصيدة بعنوان «مدينة القرن الأول» كتبت في ٧ آذار/مارس ١٩٩١، بينما كانت تسحق الإنتفاضة العراقية ضد النظام البعثي التي كانت بدأت في البصرة. إنها مطبوعة بالعربية مع ترجمة إنكليزية قام بها الكاتب الفلسطيني انطوان شماس في «مديتيرانيان» Mediterraneans، مجلة فصلية، عدد مزدوج الرقم ٢ و ٣ ص ٧٨ - ٨١.
- (٦٠) أمين الميس كتب مقاله تحت اسم مستعار هو، م. بحى، بعنوان «محمود درويش والطريق المسدود». نشرت في «عراق الغد» ٢٦ آذار/مارس ١٩٨٧.
- (٦١) كل الاستشهادات من النص الكامل لتعليقات محمود درويش التي كانت نشرت في أسبوعية «الطليلة العربية» الرقم ١٥١ وهي تصدر في باريس. في ٣١ آذار/مارس ١٩٨٦، ص ٣٨ - ٣٩.
- (٦٢) قصيدة درويش بعنوان «كردستان» مستشهد بها في مقالة الميس، مذكورة في حاشية رقم ٦٠.

١٠ - تعريف الصمت

- (١) صادق جلال العظم، «النقد الذاتي بعد الهزيمة» (عكا: دار الجليل ١٩٦٩) ص ٢٠.
- (٢) الاستثناء هو وضّاح شرارة، أستاذ العلوم السياسية في الجامعة اللبنانية، الذي كتب مقالة ممتازة، للتوّ على أثر غزو الكويت، وهي تسترجع نوع المواضيع التي كانت تشغل نتاج العظم المبكر وتلاعب على عناوينها. أنظر مقالته، «النقد الذاتي في أثناء الهزيمة» المنشورة في «الحياة» في ٢٥ آب/أغسطس ١٩٩٠. هاجم شرارة بصراحة نواة الخطاب القومي والجماهيري حتى حين كان هذا الخطاب يحيط به من كل جانب في بيروت، ونظراً للظروف كان ذلك تصرفاً شجاعاً.
- (٣) إدوارد سعيد، «الإشتراق» (نيويورك: راندوم هاوس ١٩٧٩)، الإستشهادات هي من المقدمة ص ١١، تتحدّد ماذا سيكون موضوع الكتاب، ومن «الإشتراق الآن» (ص ٢٠٤) يتحدّد ماذا يفكر فيه سعيد بشأن إشتراقي «كائن»، وحاضر، كما يقول، في «كل» أوروبي.
- (٤) لنقد عربي لهذا الكتاب، أنظر صادق جلال العظم، «الاستشراق والإشتراق معكوساً»، منشور في المجلة العربية «الحياة الجديدة» العدد الثاني (كانون الثاني/يناير - شباط/فبراير ١٩٨١). نشرت هذه في الإنكليزية بالعنوان نفسه في «خمسین» Khamsin عدد ٨ (إشكا برس، لندن ١٩٨١).
- (٥) راجع الغضب الذي سببه قبول أميل حبيبي الجائزة الأدبية الأكثر تميّزاً في إسرائيل في أيار/مايو ١٩٩٢. شجب المثقفون العرب البارزون الواحد تلو الآخر قبوله للجائزة (على سبيل المثال، محمود درويش، عبد

الرحمن منيف، سميح القاسم، جورج طرايشي، عزيز العظمة، جابر عصفور، هشام شرابي، وعدد كبير آخر. من أجل تعليقات قصيرة من قبل هؤلاء وآخرين عن سبب معارضتهم لقبوله الجائزة، أنظر «الحياة» ٢٤ آذار/ مارس ١٩٩٢. تمرّض حبيبي للانتقاد أيضاً من قبل اتحاد الكتاب والصحافيين الفلسطينيين. تنبغي الإشارة إلى أن حبيبي كان مدعوماً من جيل جديد من القادة الفلسطينيين داخل إسرائيل والأراضي المحتلة، أشخاص مثل حنان عشراوي وفيصل الحسيني. دفاعاً عن خطوة حبيبي، أنظر النقد الممتاز بقلم حازم صاغية «مسألة إميل حبيبي» صحيفة «الحياة» ٣٠ آذار/مارس ١٩٩٢.

- (٦) أنظر «الإستشراق» ص ١١.
- (٧) المصدر السابق، ص ١.
- (٨) من قصيدة أدونيس عام ١٩٨٢ عن بيروت، نشرت في أنطولوجيا الشعر العربي الصادرة باللغتين العربية والإنكليزية بعنوان «ضحايا الخريطة»، (دار الساقي)، ص ١٣٨.
- (٩) أنظر فؤاد عجمي «الصمت في الثقافة العربية» «ذي نيويارليك» The New Republic ٦ نيسان/ أبريل ١٩٨٧.
- (١٠) خالدي «أزمة الخليج: مصادر وعواقب» ص ٣.
- (١١) الأغنية التي تبدأ بهذه السطور تدعى «دكتور»، كانت وضعت سنة ١٩٣٩ وسجلت تلك السنة في راديو بغداد.
- (١٢) نعم شومسكي «مسؤولية المثقفين»، صدر مرة ثانية في «قارىء شومسكي» (نيويورك باتيون بوكس ١٩٨٧).
- (١٣) أوليفر ساكس، «نهضات» (لندن: بيكادور ١٩٩١) ص ٢٣٤.
- (١٤) شكلار «شرور عادية» ص ٨ - ٩. الجملة الرائعة «وضع القسوة أولاً» كان ابتكرها مونتانيه MONTAIGNE، وهو ما اكتشفته بعد قراءة شكلار. أبشع شر سياسي بين كل الشرور، كما تبرهن شكلار في كتابها، هو القسوة.

المحتويات

مقدمة ٥

الباب الأول القسوة

- ١ - خليل ٢١
٢ - أبو حيدر ٤٧
٣ - عمر ٩٥
٤ - مصطفى ١٢٧
٥ - تيمور ١٤٣
٦ - تذكر القسوة ١٩٩
العراق إلى أين؟ ٢١٣

الباب الثاني الصمت

- ٧ - من أنا؟ ٢٣١
٨ - خرافات قومية جديدة ٢٥١
٩ - مشاهد من القسوة والصمت ٢٨١
١٠ - تعريف الصمت ٣٠٩
الهوامش ٣٢٥

هذا الكتاب

يتناول كنعان مكية، في هذا الكتاب، الثنائية الثقافية التي نهض عليها الاستبداد، وتغذت بها أعمال الاعتداء على حقوق الإنسان. إنها ثنائية القسوة والصمت التي بموجبها يغض البعض أنظارهم عن البشاعات التي تنزل بالشعوب والأفراد، بالنساء والأقليات. ففيما يساق أبطال مكية (أبو حيدر وعمر وتيمور والآخرين من الرموز التمثيلية للمجتمعات العربية) إلى أقدار جحيمية، تمضي الكتابة السائدة في وجهة مغايرة.

لقد لقي «القسوة والصمت»، الذي نال جائزة ليونيل غيلبر للعام ١٩٩٣ كأفضل كتاب في العلاقات الدولية، الاستقبال نفسه الذي لقيه كتاب مكية السابق «جمهورية الخوف»، فرأى مايكل ماسنغ في «ذي نيويورك ركر»، مثلاً، أنه يفضح التكوين الاستبدادي في العالم العربي، ووصفه عباس ميلاني في «سان فرانسيسكو إيكرامينر أند كرونيكل» بأنه شجاع ولامع... وعمل لا غنى عنه لأي مهتم بالسياسة في الشرق الأوسط.

